موسوعة الأخلاق الإسلامية (٢)

التربية الأخلاقية الإسلامية

تأليف
الأستاذ الدكتور مقداد يالجن
الحاصل على جائزة الملك فيصل العالمية
في الدراسات الإسلامية
أستاذ بجامعة أنقرة سابقاً وبجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية حالياً

دار عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع

© دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية،

باجن، مقداد

التربية الأخلاقية الإسلامية - الرياض.

٧٢٨ صفحة ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك ٩ - ٤٢ - ٧٧٥ - ٩٩٦٠

١ - التربية الإسلامية - فلسفة　　　أ - العنوان

ديوي ١ ,٣٧٧　　　١٦/٢٢٤٧

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الطبعة الثانية

١٤١٧هـ-١٩٩٦م

(مزيدة ومنقحة)

الطبعة الثالثة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

رقم الإيداع : ١٦/٢٢٤٧

ردمك : ٩ - ٤٢ - ٧٧٥ - ٩٩٦٠



دار عالم الكتب

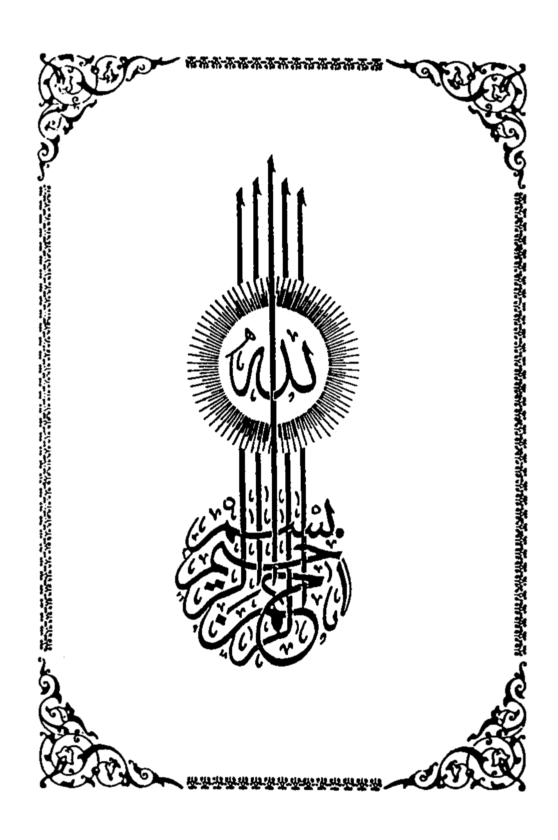
للطباعة والنشر والتوزيع

العليا - غرب مؤسسة التحلية - ت : ٤٦٥١١٨٩ / ٤٦٣١٧٢٢

ص.ب ٦٤٩٠ ، الرياض ١١٤٤٢ ، تليفاكس : ٤٦٣١٣٣٦

e-mail: daralamalkutub@dr.com

المملكة العربية السعودية


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل العام

أولاً ـ أهمية التربية الأخلاقية الاسلامية.

ثانياً ـ المنهج وتطبيقه.

ثالثاً ـ تحديد المنطلقات الأساسية.

أولاً : أهمية التربية الأخلاقية الإسلامية

إنه من الأهمية بمكان من الناحية التربوية بيان أهمية الدراسة بصفة عامة أو أهمية العلم الذي نقدمه للأجيال ذلك أن الإنسان يهتم بالشيء باديء ذي بدء بحسب أهميته في حياته الخاصة وفي حياته الاجتماعية العامة ، ويجب الاهتمام بالدراسات بقدر أهميتها في حياة البشر عموماً .

وللتربية الأخلاقية جوانب أهمية كثيرة لا أرى ذكرها كلها هنا لأنها لا تظهر إلا من خلال الدراسة كلها . ولكن يجدر ذكر أهمها هنا لجذب انتباه القارئ ،وقد يتكرر ذكر أهمية بعض الجوانب . ولكن لا بأس ، إذ نحن نكرر أيضا أثناء الحديث والخطب الكلمات والجمل المهمة . ولهذا نجد التكرار يحصل في بعض الأحاديث والآيات القرآنية لأهميتها التعليمية والتربوية .وهذه الأهمية ناشئة عن طبيعة هذه التربية وهو تربية الأجيال على الخير ومكافحة الشرور .

ونذكر تلك الأهمية في النقط الآتية :

١ ـ إنها خير وسيلة للقضاء على مشكلة ازدياد الجرائم والانحرافات بجميع أشكالها وألوانها .لأن وظيفة التربية الأخلاقية بناء جيل ملتزم بالخير ، متجنب للشرور والجرائم ، وهي ناشئة اساسا عن الشرور والروح الإجرامية .

٢ ـ إنها خير وسيلة لبناء خير فرد وخير مجتمع وخير دولة وخير حضارة إنسانية ، لأن من أهم وظيفتها إزالة الشرور من النفوس وتكوين الروح الخيرية في النفوس . بحيث يسارعون إلى الخيرات ويكافحون الشرور والمفاسد .

٣ ـ إنها ضرورية لتحقيق التماسك والتجانس الاجتماعي لتحقيق النهضة الاجتماعية القوية . ذلك أن من أسباب تمزيق وحدة المجتمع والأسر والأخوة هي الشرور وعدم مراعاة الحقوق . فانتشار العداوة والظلم بين الناس يمزق البناء الاجتماعي مهما كان صغيراً أو كبيراً ، والتربية الأخلاقية الإسلامية تبعد الناس عن العدوان والشرور وإزالة هذه الشرور بين الناس ومن المجتمعات عن طريق تزكية النفوس .

٤ ـ إنها ضرورة كوسيلة لتحقيق السعادة في الحياة الاجتماعية ، ذلك أن الشقاء والتعاسة الاجتماعية ناشئة عن الشرور وانتشار الانحراف والرعب في الحياة الاجتماعية . والتربية الأخلاقية تربي الناس على إزالة الشرور والفتن ، وعلى نشر المحبة في الحياة الاجتماعية لأجل تحقيق السعادة في المجتمع ، كما أنها تربي الأجيال على المسارعة في الخيرات والاستباق فيها كما يتسابق الناس في ميادين الألعاب وغيرها ، والسعادة تتحقق من سيادة الخير وزوال الشرور .

٥ ـ إنها ضرورية لبناء دولة قوية منظمة يعمل موظفوها بأمانة ونزاهة وإخلاص . ذلك أن أية دولة تقوم على الانحلال وفساد الأخلاق فإن عمرها يكون قصيراً ولا يهنأ فيها رجال الدولة ولا المواطنون ، وعلى العكس من ذلك فإن قامت الدولة على الأسس الأخلاقية وفي ضوئها إذا انتشرت العدالة والمساواة فإن المواطنين يصبحون جنوداً للخير وللدولة يعملون بإخلاص لبقائها والحفاظ عليها ، ونتيجة لذلك تثق الدولة بالمواطنين ويثق المواطنون برجال الدولة . وذلك من أسباب قوة الدولة .

٦ ـ إنها ضرورية لصيانة الأجيال من تسرب الفساد إلى نفوسهم .

ومن جوانب أهمية التربية الأخلاقية أنها تعمل من البداية على صيانة النشء من تسرب الجراثيم الأخلاقية في نفوسهم ، وتعمل لخلع جذور الشرور منها وتزكيتها من النيات والغايات السيئة التي إذا رسخت فيها أدت إلى الانحرافات الأخلاقية إن عاجلا أو آجلاً ، كما تعمل هذه التربية بوسائلها الخاصة على تكوين حصانة لدى النشء ضد الإصابة بالأمراض الأخلاقية حتى إذا وقعوا في بيئة فاسدة لا يتأثرون بفسادها ، كما أن الإنسان المحصن ضد الأمراض لا يتأثر بالأمراض المنتشرة كما يتأثر غير المحصَّن ضدها . ثم إن هذه التربية تزين الناس بالآداب الجميلة .

ثانياً : المنهج وتطبيقاته

يحسن تحديد منهج البحث وخطته قبل الدخول في تفصيلاته لأنهما يحددان شكل البحث وخط سيره ومن ثم يرجع إليهما الفضل في مدى ما يمتاز به البحث من دقة علمية وقوة منطقية .

والمنهج الذي أحدده هنا نابع أساساً من فهمي الخاص للفلسفة الإسلامية ، وخاضع للغاية التي أعمل لتحقيقها ، وهي بيان خصائص ومميزات فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية بالنسبة إلى فلسفات التربية في هذا الميدان ، فهذه الغاية تؤدي إلى تكييف المنهج على نحو ما مثل اتباع منهج المقارنة على طريقة معينة تؤدي إلى تحقيق تلك الغاية ، وسيأتي شرح طريقة المقارنة .

وأما تبعية هذا المنهج لفهمي الخاص للفلسفة الإسلامية ـ باعتبار أن هذا البحث موضوع من موضوعاتها ـ فإنه يجب أن أحدد هذا الفهم ليتبين مبررات هذا المنهج الذي أحدد معالمه العامة هنا .

وأعني بالفلسفة الإسلامية تلك النظريات[1] التي جاء بها الإسلام وعالج من زواياها تلك القضايا التي تعرض لها الفلاسفة ، ثم ما تتضمن تلك النظريات في طياتها من مبادئ وتوجيهات منهجية للتطبيق العملي ولتنظيم حياة الإنسان من كل النواحي وتوجيهها ـ في ضوء تلك الحقائق النظرية الشاملة على جميع نواحي الوجود ـ إلى حيث ينبغي أن تتجه إليه ، وذلك على نحو يستطيع به الإنسان أن

(١) وتلك النظريات قد بينتها بإيجاز في مستهل الفصل الأول من الباب الأول .

يحيا الحياة الإنسانية المتكاملة المتميزة المقدرة له لتحقيق الغاية التي خلق من أجلها الإنسان .

ولكن الفلسفة الإسلامية التي أقصدها هنا ليست تلك الفلسفة التقليدية المعروفة التي تدرس حالياً وتسمى بالفلسفة الإسلامية ، فإن هذه الفلسفة الأخيرة تعد - في نظري - فلسفة فلاسفة المسلمين وليست فلسفة إسلامية حقاً ، ذلك أنها - كما رأيتها - أمشاج من الآراء والأفكار التي تمثل آراء الفلاسفة المسلمين والتي تكونت نتيجة تأثرهم بالنظريات الفلسفية الأجنبية وبالفكر الإسلامي ثم بما أضافوا إلى ذلك من آراء خاصة بهم ، ولهذا يجب أن نسميها باسم خاص ، وأولى بنا أن نسميها بفلسفة فلاسفة المسلمين لا بالفلسفة الإسلامية ، أما الفلسفة الإسلامية الجديرة بهذا الإسم فهي تلك التي حددناها والتي تنبع من صميم الإسلام نفسه . فإذا ما أردنا أن نحدد مكانة الفلسفة الإسلامية بين الفلسفات الأخرى ، أو أن نعالج موضوعاً من موضوعاتها فمن الواجب أن تكون هذه الفلسفة التي حددناها لا تلك التي نجدها عند الفلاسفة المسلمين .

لكن كيف نستطيع تحقيق ذلك؟ نستطيع ذلك بالعمل على النهج الآتي :

أولاً : أن يكون استخلاص النظريات والمبادئ الفلسفية من القرآن والسنة أساساً . وهذا يقتضي بصفة عامة أن يلجأ كل دارس قضية من القضايا الفلسفية أو مشكلة من المشكلات الفكرية إلى النصوص الإسلامية ، عندما يعالجها من وجهة النظر الإسلامية لا إلى نصوص الفلاسفة المسلمين وآثارهم . كما يفعل دارسو الفلسفة الإسلامية اليوم ، ذلك أن الإسلام شيء وهؤلاء وآثارهم شيء آخر ، فهم لا يمثلون بآرائهم الإسلام ومبادئه ، ولأنهم قد يخطئون أحياناً وقد يسيئون إلى الإسلام بقصد أو بغير قصد وقد حصل هذا وذاك فعلاً . ثم إنهم حاولوا أن يفهموا الإسلام في إطار المشكلات الفكرية والثقافية ومشكلات الحياة العملية التي اعترضتهم في حياتهم من حين إلى آخر ، فلماذا لا نحاول نحن أيضاً عن قصد وعزم أن نفهم الإسلام نفسه من نصوصه وأن نعمل لحل مشكلاتنا الفكرية

المعاصرة في ضوء فهمنا له ، ولأننا عندما نلتجئ إلى تراثهم مباشرة دائماً باسم الإسلام من غير الرجوع إلى الإسلام نفسه عند معالجتنا لتلك القضايا الفكرية فإننا عندئذ نجعل آراءهم في الإسلام كالإسلام نفسه وننظر إلى الإسلام وإلى القضايا الفكرية بمنظارهم ، ونغفل عندئذ عن المنبع الحقيقي الفياض الذي إذا لجأنا إليه باستمرار يمكن أن نخرج بمعان جديدة في ضوء تقدم العلوم والأفكار وفي ضوء تجدد المشكلات ولا سيما في العصر الذي يختلف عن عصرهم حيث جدّت لدينا مشكلات لم تكن موجودة في وقتهم .

ثانياً : يجب فهم المبادئ الإسلامية وتقويمها في إطار الفلسفة الإسلامية الشاملة وفي إطار غايتها العامة ، وذلك أن كل مبدأ من تلك المبادئ مرتبط بغيره كمنظومة واحدة لتحقيق كلية واحدة . . إن التغافل عن هذه الحقيقة أدى أحياناً إلى تعليلات وتقويمات بعيدة عن روح الإسلام . .

وتحقيق هذا وذاك يتطلب ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أن ندرس المبادئ الإسلامية من جديد عن طريق نصوصها بعيداً عن الأفكار المذهبية والحزبية على أن يكون الهدف الأساسي هو الوصول إلى الفهم الصحيح للإسلام ومبادئه .

الأمر الثاني : ألا نحاول فهم ذلك بالآراء الفلسفية ، لأن هذا الفهم يعد فهماً من الخارج لا من الداخل ، والذين حاولوا ذلك أدت محاولتهم إلى تشويه جوانب كثيرة من حقائق الإسلام ونظرياته ولا سيما هؤلاء الذين اعتنقوا بعض النظريات الفلسفية ثم حاولوا أن يفرضوها على الإسلام فرضاً .

ويمكن أن نقسم هؤلاء الذين حاولوا فهم الإسلام من الخارج إلى ثلاث فرق أو جماعات :

نفر اعتنقوا المبادئ الفلسفية ثم لما وجدوا أن الإسلام يعارضها أو أنها تتناقض معه حاولوا التوفيق بينها وبين المبادئ الإسلامية ، وفي محاولتهم هذه ساروا في ثلاثة

اتجاهات : اتجاه يخضع الإسلام للفلسفة والآخر يخضع الفلسفة للإسلام والثالث يوفق بينهما . ولكل مساوئ وإن كانت مساوئ كل اتجاه تختلف عن مساوئ الآخربدرجة تقل أو تكثر .

والنفر الثاني قدموا أفكاراً جديدة من عند أنفسهم ثم حاولوا أن يفرضوها على الإسلام . وذلك لإيجاد سند لها من الإسلام لتجد قبولاً لدى الجمهور .

والنفر الثالث حاولوا عمداً دس الأفكار الغريبة على الإسلام بقصد تشويه روحه وإثارة البلبلة في نفوس المسلمين ، وقد استطاع هؤلاء فعلاً أن يؤثروا تأثيراً كبيراً عن طريق التشويه وخلق بلبلة وحيرة في نفوس الناس وعقولهم ، وذلك عن طريق إدخال تلك المبادئ المتناقضة مع ما في الإسلام ، ومن ثم أصبح الإسلام في نظر أولئك الناس متناقضاً مع نفسه وذلك أمر خطير على التفكير الإسلامي .

الأمر الثالث : أن نحاول باستمرار فهم الأحكام الإسلامية الخاصة بموضوع معين في ضوء النظام الإسلامي كله . وهذا يقتضي عدم الاقتصار بقدر الإمكان في الحكم على القضايا من وجهة النظر الإسلامية على نص واحد ، لأن هناك نصوصاً متعددة بشأن هذه القضية أو تلك ، وكل نص يصور أحياناً جانباً من القضية أو يضع شروطاً وقيوداً للحالة التي يطبق فيها هذا المبدأ أو ذاك ، وهكذا فإن تعدد النصوص يفيدنا من ناحيتين : ناحية تصور الحقيقة من أطرافها ، وناحية تطبيق المبادئ في الحياة العملية .

ثالثاً : يجب أن نحدد موقفنا من دراسات السابقين باتخاذها وسيلة من وسائل الفهم وأن نستعين بها عندما نواجه مشكلة من المشكلات التي لم نجد لها حلاً مقنعاً . ولا سيما فيما يتعلق ببعض القضايا التي لا توجد فيها نصوص صريحة أو لا توجد لها نصوص أصلاً ، ولكن يجب ألا نتخذ دراستهم نقطة انطلاق أو نهاية تنتهي إليها . وإنما تكون واسطة بين البداية والنهاية وهذه النقطة في غاية الأهمية ، ويجب أن يتنبه إليها دارسو الفلسفة الإسلامية أو التفكير الإسلامي عموماً ، إذ إنهم يدرسون عادة فلسفة الفلاسفة المسلمين باسم الإسلام .

والخطورة كل الخطورة أن نتخذ الفلسفة الإسلامية التقليدية بداية ونهاية ، ولئن فعلنا فمعنى ذلك أننا أدخلنا أنفسنا في متاهات قد لا نستطيع أن نخرج منها . أو أننا ندخل أنفسنا في دراسة تشبه أن تكون حلقة مفرغة لا ندري أين طرفاها . وعلى أي حال سواء استطعنا أن نخرج منها أو لم نستطع فماذا نستفيد؟

إن غاية ما قد نصل إليه هو أن نبطل رأياً أو نرجح رأياً على آخر ولكنا نفقد كثيراً من الجهد ، وربما انتهينا إلى شيء جديد لو استأنفنا البحث لحسابنا الخاص . لو سلكنا هذا المسلك التقليدي لما خدمنا الفلسفة الإسلامية الحقيقية وإنما نكون قد خدمنا فلسفة هؤلاء الرجال . ولكن هل يليق بنا الآن أن نخدم الرجال ونترك خدمة الإسلام ونحن أشد ما نكون حاجة إليه في العصر الذي نعاني فيه من مشكلات لم يجد لها رجال الفكر حلاً مرضياً بعد؟ ولماذا لا نلتجئ إلى الإسلام نفسه مباشرة ونلتمس منه الحل ونحاول إخراج كنوزه وإبراز شخصية فلسفته الصافية الخالصة من كل دخيل من الفلسفات الأخرى ثم نحاول استخدامها في حل مشكلاتنا المعاصرة؟

رابعاً : أن يكون هدفنا الأساسي هو معالجة المشكلات الفلسفية المتصلة بحياتنا الراهنة ، أريد المشكلات الفكرية والنفسية والعلاقات الاجتماعية ، فنعالج هذه المشكلات من زاوية الفلسفة الإسلامية الصافية ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، ولا مانع في هذا الصدد من أن نستعين من حين إلى آخر بدراسات السابقين واللاحقين لتلك المشكلات إذا كان علاجهم لها مفيداً في عصرنا ، ويتفق في الوقت نفسه مع روح الفلسفة الإسلامية الخالصة ، أو لم يتعارض معها على أقل تقدير .

خامساً : أن نميز السنة التشريعية من السنة غير التشريعية عند معالجتنا لتلك المشكلات ، فكثير من الدارسين المسلمين وغير المسلمين لا يميزون بين نوعين من الأحاديث : نوع يحمل طابع الإلزام والتشريع ، وهذا يشمل الأحاديث التي لها علاقة وثيقة بالشريعة بمعناها العام ، ونوع لا يحمل طابع الإلزام والتشريع وهو يشمل الأحاديث التي تتعلق بجوانب حياة الرسول البشرية ، مثل حبه لبعض

الأطعمة والأشربة ، ورغبته في بعض اللباس ، وأقواله في الزراعة وما أشبه ذلك من الأحاديث التي لا تمت بصلة إلى الشريعة بمعناها العام[1] .

وتقرير هذه الفكرة له أهمية كبرى ، ذلك أنه وسيلة للتخلص من كثير من

---

(١) ولقد أقر الرسول نفسه ما نقرره هنا في مسألة تأبير النخل فقال «أنتم أعلم بأمور دنياكم فإنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» . . وقال «فإن كان ينفعهم ذلك «تلقيح النخل» فليصنعوا فإني إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني في الظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني لن أكذب على الله» (صحيح مسلم ج٤ / ص١٨٣٥ ـ كتاب الفضائل) وكان قد نصح ، من قبل الجماعة الذين رآهم يقومون بتأبير النخل بترك التأبير أو التلقيح بناء على أنه لا يجدي ولكن عندما اشتكى إليه أولئك بأن النخل لم يثمر لتركهم التأبير قال ذلك القول المذكور .

وقال أيضاً عندما سألوه عن اختياره موقع الحرب في بدر «أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» (سيرة ابن هشام ج٢ / ص٤٥٢) ثم غير رأيه بناء على إشارة الصحابي وقال : لقد أشرت بالرأي (سيرة ابن هشام ج٢ / ص٤٥٢) .

وكان ينصح أيضاً بعدم الغيلة في مبدأ الأمر بناء على كلام العرب لأنه يضر الولد ثم لما سمع أن الفرس والروم يغيلون ولا يضر أولادهم لم ينه وقال «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً (صحيح مسلم ج٢ / ص١٠٦٧) ويروى عنه أنه نهى مرةً قبل ذلك عن الغيلة فقال «لا تقتلوا أولادكم فإن الغيل يدرك الفارس فيبعثره عن فرسه» (تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج٤ / ص٢٤٢ كتاب النكاح) .

وقال أيضاً في القضاء «إنما أنا بشر يأتيني الخصم فلعل بعضكم يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها» (هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج١ / ص٢٢٢) .

وإذا كانت هناك بعض نصوص تدل على تشريعية كل ما يصدر عن الرسول مثل «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى» (سورة النجم ٣ ـ ٤) فإنها مخصصة ـ في رأيي ـ بالأحاديث السابقة وإلا كان هناك تناقض وهذا غير موجود في التفكير الإسلامي وصدق الله العظيم «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» (سورة النساء ٨٢) . .

المشكلات المتعلقة بالتفكير الإسلامي التي كان سببها الخلط وعدم التمييز بين هذين النوعين من الأحاديث ، من هذه المشكلات اتهام بعض الدارسين التفكير الإسلامي بأنه يخالف في بعض القضايا الحقيقة والعلم ، لأن بعض أقوال الرسول التي أخبر بها عن بعض الأمور المتعلقة بشؤون الحياة مثل الزراعة والطب لا تتفق مع ما يقرره العلم ، ومنها أيضاً أن الإسلام لا يتلاءم أو لا يساعد على تطور الحياة وتقدم المدنية لأنه يقيد كل جوانب الحياة بما كانت عليه الحياة في عهد الرسول ، أو بتعبير خاص بما كانت عليه حياة الرسول ، ما كان عليه أكله وشربه ولبسه وأدوات انتقاله وعمله في بيته ، دون الخروج عليها قيد الأنملة كما يدعيه البعض أو كما يفهمه من الإسلام ، لأنه إذا كان ذلك كله شريعة ملزمة وإطار تفكير لحل المشكلات فمخالفته مخالفة للإسلام ، وإذا كان الإسلام كذلك ، فإنه اذن يدعو إلى الجمود والتأخر ولا يسمح بازدهار الحياة وتطور أساليبها العلمية المختلفة ، ثم إن تزمت بعض الناطقين باسم الإسلام في تلك الأمور وتمسكهم بأنها من الإسلام واتهامهم غير الملتزمين بها بأنهم خارجون عن الإسلام ، ثم عجزهم أخيراً هم أنفسهم عن مسايرة الحياة المتطورة بتلك الأساليب وحل بعض مشكلاتها في ضوء تلك الفكرة قد أدى إلى تشويه روح الإسلام في نظر كثير من المسلمين وغير المسلمين ، بل أصبح ذلك وسيلة لأعداء الإسلام للدعاية ضد الإسلام بأن الإسلام لا يصلح للتطبيق في العصر الحديث . ولا ينبغي أن يفهم من تقرير هذه الفكرة أنني أريد بذلك إزالة بعض ما هو من الشريعة ، بل الحقيقة أنني أريد إزالة ما ليس من الشريعة .

ولا ينبغي أن نغفل أخيراً خطورة هذا الموضوع إذ إنه ـ إذا ترك فوضى بدون قيد أو شرط ـ قد يفتح أمام المنحرفين باباً لإلغاء حكم بعض الأحاديث المتصلة بجانب التشريع مدعياً أنها ليست منه ، لذا ينبغي أن نكون على حذر تام عند تحديد وبيان كل نوع من هذين النوعين من الأحاديث .

سادساً : استخدام النصوص الإسلامية التي نعتمد عليها في تقرير الأفكار بعد التحقق من صدقها والرجوع إلى معانيها ، وأقصد من النصوص هنا ـ بصفة خاصة

ـ الأحاديث النبوية ، ذلك أنه مما يخطئ فيه كثير من الدارسين أنهم ينقلون نصوصاً من هذا النوع دون التحقق من صدقها وصحتها ويستخدمونها لمجرد أنها تخدم أغراضهم ، أو لأن واحداً من كبار المفكرين ذكرها في أحد مؤلفاته واستخدمها لغرض ما ، ويغفلون عن أن بعض هؤلاء الأئمة أو المفكرين قد وقعوا في الخطأ وذكروا أحاديث ضعيفة ، بل موضوعة أحيانا (١) . هذا إلى أن المفكر والفيلسوف يطلق للعقل العنان عادة ولا يلجأ إلى النقل (وبخاصة الأحاديث) إلا في القليل النادر .

ولا أريد هنا أن يفوتني التذكير بأنني لا أريد التهوين من قيمة رجالنا وإساءة الظن بهم وإزالة الثقة فيهم . وإنما كل ما أريده هو عدم الاعتماد عليهم كلية في نقل الأحاديث وصحتها ، وألا نتخذ آراءهم في ذلك واستخدامهم لها حجة ومعياراً للصدق والصحة ، بل لا بد من تخريج الأحاديث من مراجعها الأساسية وإعادة النظر في أقوال المحدثين فيها .ثم دراستها من جديد في ضوء التفكير الإسلامي العام وفي ضوء التفكير العلمي وفي ضوء الملاحظات السابقة .

سابعاً : دراسة كل النصوص من الآيات والأحاديث المتعلقة بكل نقطة من نقط البحث ، ذلك أن جمع كل تلك النصوص المتعلقة بموضوع البحث ودراستها بعضها مع بعض يعطي صورة كاملة عن جوانب الموضوع كماً وكيفاً ، ذلك أن الباحث قد يظن خطأ أن تلك النصوص مكررة ، ومن ثم يكتفي بدراسة نص واحد وذكره فقط في موضوع بحثه مع أن كل نص يضيف ـ غالباً ـ معنى أو قيداً أو شرطاً في الموضوع نفسه . وعلى الباحث بعد دراسة هذه النصوص في سياقها الخاص ثم دراستها مجتمعة باعتبارها تمثل موضوعاً أو تحدد اتجاهاً على الباحث بعد ذلك استخلاص الفكرة التي تمليها عليه دراسة تلك النصوص بهذه الكيفية دون أن يفرض عليها شيئاً لا تحتمله .ولا بد من أن يكون الفهم في ضوء دلالات النصوص المعروفة وقواعد الاستنباط التي ذكرها علماء أصول الفقه .

(١) تذكرة الموضوعات للعلامة محمد طاهر الهندي الفتني .ناشر أمين دمج .بيروت . ص ٨ .

ثامناً : تقويم المبادئ الإسلامية ودلالات النصوص من النواحي المختلفة .

لأن قيم كثير من المبادئ الإسلامية متعددة الجوانب أو تحمل قيماً مختلفة ، ولهذا يجب تقويمها من زاوية قيم العلوم المختلفة مثل علم النفس والطب والاجتماع والأخلاق والتربية والاقتصاد وما إلى ذلك ، ولكن هذا الأمر يتطلب من الباحث أن يكون ملماً بتلك المعارف وخبيراً بأصولها على أقل تقدير ، وخاصة إذا أراد أن يرى تلك القيم مجتمعة في مبدأ أو في نص واحد ، لأن نصاً واحداً يحمل أحياناً في طياته مجموعة من تلك القيم ، فمثلاً نجد في المبادئ الأخلاقية علاجاً للأمراض النفسية إذ إن علماء النفس ينصحون بالاستقامة لمن أصيبوا بالأمراض النفسية نتيجة الانحراف ، بسبب ما لاقوا من عذاب الضمير وقلق الوجدان . وكذلك نجد في تلك المبادئ وقاية من الأمراض البيولوجية لأنها تأمر بالنظافة والاعتدال في العمل وفي المأكل والمشرب ، ونجد فيها القيم الاقتصادية لأنها تدعو إلى الجد والكسب من أجل تقديم الخيرات للناس ، وتدعو من جهة أخرى إلى عدم التبذير والإسراف ، وفيها قيم اجتماعية لا تخفى على أي دارس ومتأمل . وقد درست هذه القيم بشيء من التفصيل في بحث آخر[1] وسوف أذكر نماذج لها خلال دراستي هذه .

تاسعاً : مقارنة الفلسفة الإسلامية بالفلسفات الأخرى .

ذلك أن قيمة الفكرة تتضح بصورة أكمل وأوضح عندما تقاس بغيرها ، كما أن المقارنة تكون وسيلة لتوضيح الفكرة ، وذلك إذا تمت بصورة تبرز تلك الحقيقة ، وهذا يتوقف بدرجة أكبر على طريقة المقارنة وصورة عرضها ، إذ إننا نعرف أن هناك ثلاث طرق كاشفة في المقارنة وهي :

(أ) تقديم الفكر الأجنبي الفرعي بالنسبة للموضوع المعالج الأصلي ثم إتباعه بالموضوع الأصلي لاستخلاص الفروق والمميزات الأساسية ثم ذكر النتائج في النهاية .

---

(١) انظر : علم الأخلاق الاسلامية ص ٩٦ + ٣٢٠ وما بعدها .

(ب) عكس الترتيب الأول أي يبدأ بالموضوع المعالج الأصلي ثم يتبعه الفكر الفرعي الأجنبي ثم تستخلص الخصائص والنتائج .

(ج) المزج بين العنصرين المقارنين مع تخلل بيان الأحكام أثناء المقارنة .

وإني اخترت الطريقة الأولى بعد تلخيص الأفكار الفرعية في صورة مذاهب وذلك للأمور الآتية :

١ ـ أنها خير طريقة لبيان تمايز الفكر الإسلامي وتكامله بالنسبة إلى الأفكار الأخرى ذلك أننا عندما نريد أن نضع فكراً في قمة الأفكار الأخرى نتدرج في تنظيم الأفكار بادئين بالأدنى إلى الأعلى أو الأكمل ، والإسلام نفسه باعتباره أكمل الرسالات الإلهية وأصلحها للحياة البشرية قد جاء أخيراً واختتمت به الرسالات ، وفيما يتعلق بموضوعنا الأخلاقي فإن الإسلام أكمل البناء الأخلاقي الذي بدأ به الأنبياء السابقون ، ولهذا قال الرسول «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1] .

هذا إلى أن إعطاء فكرة موجزة مقدماً عن الأفكار الأخرى في الموضوع نفسه ثم عرض الفكرة الأساسية بعد ذلك بصورة مفصلة وكاملة يلعب دوراً كبيراً في إبراز مكانة الفكرة وقيمتها من بين تلك الأفكار ، كما نلجأ إلى مثل هذه الوسيلة عندما نريد بيان قيمة شيء بالنسبة إلى أشياء ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يقوم شيئاً كاملاً إلا إذا رأى قبل ذلك أشياء من نوعه أقل قيمة منه . وكذلك نلجأ إلى مثل هذه الوسيلة عندما نريد إبراز شخصية من الشخصيات أو بطل من الأبطال نعرض نماذج من الشخصيات والبطولات قبل ذلك ليستطيع الناس إدراك مدى تفوق شخصيتنا من بين تلك الشخصيات الأخرى .

٢ ـ أن تلخيص تلك المذاهب الفكرية مقدماً يعطي أضواء كاشفة حول الموضوع الأساسي ويوضحه أكثر ، ثم إن ذلك العرض يساعد على فهم النصوص التي نعرضها خلال دراستنا لبيان الفكرة الأساسية . وهذا يغني عن كثير من الكلام

---

(١) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج ١ / ص ١٣٢ .

الذي نحتاج إليه لبيان ذلك ، كما يساعد على بيان مميزات الفكر الإسلامي إذ يكفي عندئذ أن نشير خلال عرض رأي الإسلام أنه يختلف عن مذهب فلان أو لا يختلف دون شرح أو تفصيل .

٣ ـ أن تقديم تلك المذاهب الفكرية ينقذنا من غموض فيما يتعلق بذكر النتائج .

ذلك أنني أذكر ما استخلصه من مميزات ونتائج بعد عرض الفكر الإسلامي مباشرة وهي خاصة بالفكر الإسلامي فلو أخرت تلك المذاهب الفكرية إلى ما بعد رأي الإسلام مباشرة لكانت فاصلة بين الإسلام والنتائج ، ومن ثم يؤدي الأمر إلى اللبس عند القارئ فيما إذا كانت تلك المميزات والنتائج خاصة بالفكر الإسلامي أو غيره أو هما معاً مثلاً . ثم إن مجرد تقديم فكر على آخر لا يدل على أفضلية المقدم وإنما يدل على أفضلية أي الفكرين اعتبر أساساً وأخذ من العناية والشرح والتفصيل من حيث الدراسة .

وفيما يتعلق بطريقة عرض الآراء الفرعية فإنها عادة تبنى على أحد الأساسين : إما على أساس التسلسل التاريخي للآراء ، وإما على أساس نوعيات الآراء والأفكار ، وإني قد بنيت على هذا الأساس الأخير ، وذلك لأمور :

من أهمها : أنني أريد مقابلة التفكير الإسلامي بجميع نوعيات التفكير السابقة واللاحقة به وهذا يستدعي تصنيف الآراء وتنويعها ، أي ذكرها تحت أنواع ، لأن ذكرها جميعاً لا يحتمله هذا البحث ، ثم إن مقارنتي هنا من نوع آخر من المقارنة ، ولغاية أخرى ، هي في عمومها وضع شخصية الفلسفة الإسلامية إزاء الفلسفات القديمة والحديثة في موضوعات مختلفة لبيان مميزات هذه الشخصية ومدى ما تمتاز من تكامل وشمول وصلاحية للتطبيق حتى في هذا العصر الحديث ، ولهذا لا يهمني التسلسل التاريخي للأفكار والفلسفات وإنما يهمني نوعيتها وشكلها على ما هي عليه الآن . ثم لا تنقص قيمة الفكرة لمجرد أنها قديمة ولا تزيد قيمتها لمجرد أنها حديثة . فكم من آراء قديمة أكثر وجاهة من الآراء الحديثة ، ولهذا لم أرد إطلاقاً قصر مقارنة التفكير الإسلامي بالتفكير الحديث فحسب ، وقد دعمت التفكير الإسلامي

في موضوعات مختلفة بالآراء القديمة والحديثة لا لأنها تؤكد قيمة الإسلام في نظري فقط ، بل في نظر معظم الناس في هذا العصر وفي هذا الجيل ، وعلينا أن نخاطب الناس في ضوء ما يسود عقولهم من تيارات فكرية إذا أردنا أن نحبب إلى نفوسهم الفكر الإسلامي وندعمه في عقولهم . فإذا بينا في الموضوعات المختلفة أن هناك أفكاراً للفلاسفة والعلماء من القدماء والمحدثين تدعم التفكير الإسلامي في هذا الموضوع أو ذاك ، فمما لا شك فيه أن ذلك يغير نظرة هؤلاء الذين ينظرون إلى الإسلام على أنه شيء سماعي لا يخضع للمنطق ولا للقواعد العلمية ، ومن ثم يقفون موقفاً سلبياً ، فإن تأييد الفكر الإسلامي بالفلسفة والعلم يجعلهم يقفون من الإسلام موقفاً فعالاً .

ومنها أيضاً أنني أدخلت أحياناً آراء المفكرين الإسلاميين ضمن تنويع الآراء لأنني جعلت الفكر الإسلامي الصافي أساساً وما عداه جعلته ثانوياً ، لأن آراء المفكرين المسلمين أحد ثلاثة أمور : إما أنها بنت أفكارهم ، وإما نتيجة تأثرهم بغيرهم ، وإما نتيجة تأثرهم بالفكر الإسلامي ، وأرجع هذا الأخير إلى الإسلام ، ومن ثم ينبغي أن يوضع ضمن الآراء الخارجية أو الجانبية .

كما أنني ذكرت كثيراً من آرائهم فيما يتفق مع الإسلام خلال عرض الفكر الإسلامي .

ثم إن الأساس هو دراسة فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية في الفكر الإسلامي الصافي المستنبط من القرآن والسنة وليس الأساس دراستها لدى الفلاسفة المسلمين .

وأخيراً إنما عنيت كثيراً بمقارنة التفكير الإسلامي في موضوع هذا البحث بآراء الغربيين وتدعيم التفكير الإسلامي بآراء علماء الغرب ، لأن ذلك يكون أكثر تأثيراً إذ إن اتفاق رأي المسلم يكون طبيعياً بحكم تأثره بدينه وارتباطه به عاطفياً وخوفه أن يقول شيئاً يخالف الدين ، أما الغربيون بالرغم من عدم معرفتهم بهذا الدين وعداوتهم له بوجه عام فاتفاق آراء علمائهم مع الفكر الإسلامي يكون له التأثير

الإيجابي نحو الإسلام ، وخاصة في نظر هؤلاء الذين يظنون أن الإسلام بعيد عن العلم والفكر الصالح للعصر ، ثم إنني لم أكن مطالباً بكل هذه المقارنات بحكم موضوع بحثي لكن في سبيل خدمة الفكر الإسلامي الثقافي قمت بذلك المجهود لأفيد الناس ، لأنني لا أكتب هذا البحث لواحد أو مجموعة معينة وإنما أكتبه لأملأ فراغاً في الثقافة ، وليستفيد منه أكبر قدر ممكن من الناس ، وليعلموا أن في التفكير الإسلامي الخالص حقائق علمية وقدرة على حل المشكلات العلمية والاجتماعية .

عاشراً : استنباط الآراء والاحكام عن طريق استخدام منهج الاستنباط المتعارف عليه لدى علماء أصول الفقه . لدى العلماء المسلمين وبالذات علماء أصول الفقه .

هذا هو منهجي بإيجاز في تقديم التفكير الإسلامي في المجالات المختلفة ، قد يبدو هذا المنهج لأول وهلة غير ذي أهمية إذا لم يمعن المرء النظر والفكر فيه ، غير أن له في نظري أهمية كبيرة ، لأنه يؤدي عند التطبيق إلى نتائج عظيمة القيمة في حياتنا الفكرية والعملية ، إذ إنه يؤدي عند التطبيق إلى إبراز الفلسفة الإسلامية الصافية بصورة واضحة ذات قيمة عظيمة بين الفلسفات والتيارات الفكرية المعاصرة وستثبت قدرتها على معالجة المشكلات الإنسانية الأساسية أكثر من أية فلسفة أخرى .

ولم يكن هذا المنهج مجرد خاطرة طافت بذهني فأسرعت إلى تسجيلها ، بل كان نتيجة تأملات طويلة كنت أقضيها في الدراسات الاسلامية ، ونتيجة لما كنت أقوم به من مقارنات بين التفكير الإسلامي وتفكير الفلاسفة عموماً .

إدراكي لتلك الحقائق والخصائص دفعني من النظر إلى العمل ثم كبرت في عيني فبدأت أنجذب إليها وأندفع الى العمل و التطبيق .

وتطبيقاً لهذا المنهج كنت اخترت «فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية» موضوعاً للدكتوراه وهو من أهم موضوعات الفلسفة الإسلامية المتعلقة بالحياة الإنسانية المدنية الواقعية ، ذلك أنه لا خير في حياة الفرد والمجتمع ما لم تؤسس على أسس

الأخلاق ، لكن لا يمكن أن تؤسس على ذلك إلا بالتربية الأخلاقية ، ولا يمكن تحقيق التربية الأخلاقية إلا إذا قامت على أسس وأصول وطرق ووسائل علمية وسليمة .

من أجل هذا وذاك فقد اتجه اهتمامي إلى هذا الموضوع كلية بعد أن درست الأخلاق الإسلامية من الناحية النظرية.وعلمت في النهاية أنه لا يمكن بناء الفرد والمجتمع من الناحية الأخلاقية بمجرد تقديم علم الأخلاق والمعلومات الأخلاقية مهما كان التقديم في صورة براقة ومشوقة ، إذ لا بد مع ذلك من إيضاح الطريق إلى ذلك والعمل على التربية بالمبادئ الأخلاقية ، ثم زاد اهتمامي به تحمساً عندما رأيت ـ بعد البحث في هذا الميدان وبعد أن تخصصت في كلية التربية بجامعة عين شمس ـ أنه لم يدرس هذا الجانب من التفكير الإسلامي دراسة فلسفية علمية متكاملة بل أنني لم أجد في ذلك الوقت رسالة ولا كتاباً متخصصاً درس هذا الجانب ، وذلك بالرغم من كل تلك الأهمية . ثم إن سعة الموضوع ورغبتي في الإيجاز أوجبتا علي التركيز على معالجة الجوانب النظرية لأن معالجة الجوانب العملية تحتاج إلى أبحاث خاصة ،ضمن مشروع مقترح . لتنفيذ هذه التربية في جميع المراحل التعلمية .

بناء على هذا كله ، وبناء على متطلبات المادة العلمية والفكرة المنهجية التي ألمعت إليها حددت مراحل البحث على النحو الآتي :

تطلب البحث مدخلا لتحديد المنطلقات الأساسية بدراسة مفهوم الفلسفة وتطور هذا المفهوم ثم دراسة مفهوم فلسفة التربية والعلاقة بينهما ، وذلك لبيان من أين تدخل فلسفة التربية في الدراسات الفلسفية ، ولبيان نمط الدراسة الذي اخترته من بين أنماط الدراسة في فلسفة التربية وذلك كله لتحديد المنطلق الأساسي والميدان العام لدراستنا واضطررت في سبيل ذلك إلى شيء من المعالجة التفصيلية وخاصة عند بيان علاقة فلسفة التربية بالفلسفة العامة ليكون بيان دخول فلسفة التربية في الفلسفة العامة مقنعاً لأن هذه الدراسة جديدة بالنسبة إلى الفلسفة في بلادنا وإن كانت قد أصبحت في أوربا أمراً مسلماً به بصفة عامة .

بعد ذلك اقتضى البحث عقد باب خاص أحدد فيه طبيعة التربية الأخلاقية

الإسلامية وحدودها الأساسية بعد تحديد المصطلحات الأساسية التي يتوقف عليها تحديد حقيقة هذه التربية وغايتها ، وهذا ما جاء في الفصل الأول من هذا الباب الأول .

كما اقتضى البحث في هذا الصدد تحديد دور هذه التربية وأهميتها لأنه من الأهمية بمكان معرفة قيمة الدراسة التي نقوم بها ودورها في حياتنا ، وأن أية دراسة يجب أن تأخذ من العناية بقدر قيمتها في حياتنا ودورها في نهضتنا المادية والمعنوية . وهذا ما جاء في الفصل الثاني وبذلك تم الباب الأول .

ثم رأيت أنه لا بد من البحث عن الأسس التي تقوم عليها هذه التربية إذ لا تقوم قائمة للتربية التي لا تقوم على أسس سليمة ومتكاملة ، ونتيجة للبحث وجدت أربعة أسس عامة أقام عليها الإسلام بناء التربية الأخلاقية ، وهي الأساس الاعتقادي والأساس العلمي والأساس الإنساني والأساس الجزائي . وعالجت كل هذه الأسس في الباب الثاني وأفردت كل أساس بفصل مستقل .

وبعد بيان أسس هذه التربية تقتضي فلسفة هذه التربية عقد باب ثالث أحدد فيه معايير التربية الأخلاقية وطرقها ومراحلها ، ذلك أن تحديد تلك المعايير ضروري ، لأنها لدى المربي بمثابة ميزان يزن به أعماله ليعرف ما إذا كانت تربوية أو غير تربوية حتى لا يضل في مناحي التربية فيسيء إليها بدلاً من أن يحسن اليها . وقد جاء تحديد تلك المعايير في الفصل الأول من هذا الباب .

أما ضرورة تحديد طريقة هذه التربية فذلك لأن تحديد الطريق السليم للهدف أمر لا بد منه لتحقيقه إذ قد يكون هدف المرء واضحاً وسليماً ، ولكن إذا أخطأ الطريق الذي يؤدي إليه ضل في طريقه وأخفق في تحقيق آماله وأهدافه ، وقد جاءت معالجة هذا الموضوع في الفصل الثاني من هذا الباب . وأما ضرورة تحديد مراحل هذه التربية فإن هذه التربية لا يمكن أن تنجح بدون تقسيمها إلى مراحل وفقاً للأسس النظرية للتربية السليمة ، وهذا مهم بالنسبة إلى المربي ، لأن عمله يكون عندئذ موزوناً ومحدداً في كل مرحلة وعلى طول الطريق التربوي بحيث لا يقدم عملاً

تربوياً كان يجب أن يتأخر ، ولا يؤخر عملاً تربوياً كان يجب أن يتقدم . وقد جاءت معالجة هذا الموضوع في الفصل الثالث ، وبذلك قد تم الباب الثالث بفصوله الثلاثة .

بعد هذا وذاك يقتضي منطق البحث عقد باب رابع لدراسة الوسائل الخاصة بالتربية الأخلاقية وتحديدها ، لأننا لا نستطيع تحقيق التربية الأخلاقية بدون تحديد وسائلها الخاصة بها ، إذ ليس كل وسيلة يمكن بها تحقيق هذه التربية ، بل إن هناك وسيلة تؤدي إلى اللا أخلاق ، ولأهمية تحديد الوسائل يرى بعض المربين أن أهم مشكلة في ميدان التربية هي البحث عن الوسائل التي تنفذ بها الأهداف التربوية[1] ولا يكفي في هذا الصدد تحديد وسيلة أو وسيلتين ، بل يجب تحديد جميع الوسائل الضروية لتكوين جميع العناصر الأخلاقية وللوقاية من جميع الانحرافات الأخلاقية ، ولهذا أو ذاك حاولت تصنيف تلك الوسائل تحت نوعيات آتية :

الوسائل البيئية الاجتماعية .

الوسائل التبصيرية العقلية .

الوسائل الوجدانية والعاطفية .

الوسائل الإرادية .

وخصصت فصلاً خاصاً لدراسة كل نوع من تلك الأنواع وبذلك قد تم الباب الرابع بفصوله الأربعة .

وأخيراً اقتضى البحث عقد خاتمة أبين فيها خصائص التفكير التربوي الأخلاقي الإسلامي وأهم النتائج المستخلصة من هذه الدراسة ، ثم تعقيب ذلك ببعض المقترحات والتوصيات الخاصة بتوجيه التربية الأخلاقية في البلاد الإسلامية إذ إن البحث بدون تلك النتائج والمقترحات الموجهة في ضوئها يعد عقيماً .

وفي ختام هذه المقدمة أصرح بأنني لم أتبع في هذه الخطة الطريقة التي سلكها

(١) انظر التربية العامة . رونيه أوبير . دار العلم للملايين ص ٦٨٦ ـ ٦٨٧ .

السابقون أو النهج الذي وضعوه في هذا الميدان ، وإنما اتبعت ما أملاه على منهجي الذي سبق تحديده ثم مادة البحث التي تجمعت لديَّ ، ولا يعني هذا أنني لم أستفد من دراسة السابقين وتجاربهم في هذا الميدان ، ولكنه يعني أنني لم أتخذ دراستهم في هذا المجال نقطة بدء ونقطة انتهاء .

وفي تنظيم الهوامش والمراجع فضلت ذكر اسم المرجع والمؤلف أما البيانات التفصيلية اللازمة فقد جاء ت مع تنظيمها على أساس الحروف الهجائية مع فهرس المصادر وذلك لسهولة الرجوع عند اللزوم . وهو أفضل في رأيي من الكتابة مراراً عند كل مناسبة مرجع سابق ولا يدري القارئ أين سبق ، وفيما يتعلق بتصوري الكامل للموضوعات ، أرى التوفيق أحياناً بين بعض وجهات نظر المفكرين التي كانت تبدو متناقضة على أساس أن كل رأي منها يعبر عن جانب واحد من الموضوع الواحد المتكامل ..

كما جعلني هذا وذاك أن أدرك أن تصوير الإسلام لتلك الموضوعات والحقائق التي تناولها بالدراسة والبحث أكثر تكاملاً إن شاء الله .

ولهذا وذاك كله فإن هذا البحث سوف يصبح الحجر الأساسي والعلم بالأصول الذي تقوم عليه دراسات علمية متطورة تتناول موضوعاتها إخراج أبحاث علمية مستفيضة تستخدم في شتى الميادين العلمية والتربوية .

ولهذا ففي خطتي البعيدة المدى ستتكون موسوعة التربية الاخلاقية الإسلامية من خمسة مجلدات على اساس تخصيص لكل مرحلة تعليمية جزءاً مستقلاً اعتباراً من المرحلة الابتدائية .والله الموفق .

«تقدير وشكر»

باعتبار ان هذه الدراسة كانت في الاصل رسالة الدكتوراه التي تقدمت بها الى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ولم تعد كالاصل بعد الزيادة والتنقيح إلا انني لا انسى فضل الأساتذة وذكرياتهم ولهذا لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى أساتذتي الأجلاء الذين أشرفوا على هذه الرسالة تقديراً لتوجيهاتهم الرشيدة واعترافاً بالجميل ، ووفاء بالعرفان .

وفي مقدمتهم أستاذي المرحوم الدكتور محمود قاسم الذي كان عميد كلية دار العلوم ورئيس قسم الفلسفة الاسلامية فيها ، فقد أشرف على هذه الرسالة بعد تسجيلها وتكونت أساسيات الرسالة تحت إشرافه وتوجيهاته وكان لتشجيعه دور كبير في اندفاعي نحو إكمال هذا البحث جزاه الله عني خير الجزاء وأدخله في رحمته الواسعة .

وبعد وفاته انتقل الإشراف إلى الأستاذ الفاضل الدكتور أبي الوفا الغنيمي التفتازاني رئيس قسم الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، فقد تفضل بقبول الإشراف على هذه الرسالة وأشرف عليها في الوقت الذي لم يكن هناك مشرف في الكلية ، وخلال فترة إشرافه قد أبدى كل توجيهاته وكان له تأثير في سير الرسالة نحو التكامل .

ثم انتقل الإشراف إلى أستاذي الدكتور محمد كمال جعفر بعد حضوره ، ويجب أن أعترف بما له من أفضال علي منذ أن بدأت علاقتنا الودية عندما كنت

طالباً في إحدى سنوات هذه الكلية ، فمن ذلك الوقت كان مرجعاً لي في المعرفة ومشجعاً لي على المضي قدماً في الدراسات العليا ، ومسرياً عني هموم الاغتراب ، ثم أشرف على هذه الرسالة وتولاها بالرعاية ، وأبدى فيها توجيهاته التي أدت إلى اكتمال الرسالة التي نالت درجة المرتبة الشرف الأولى رحمة الله عليه رحمة واسعة .

كما أقدم شكري وتقديري إلى الأستاذين الفاضلين : الأستاذ الدكتور محمد علي أبو ريان رئيس قسم الدراسات الفلسفية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية والدكتور إبراهيم وجيه رئيس قسم علم النفس التعليمي بكلية التربية ، لتفضلهما بمناقشة هذه الرسالة وإبداء آرائهما وتوجيهاتهما .

وأخيراً يجب ألا يفوتني في هذا المجال تقديم شكري وتقديري إلى هؤلاء الأخوة والزملاء الذين وقفوا بجانبي مشجعين ومتعاونين وأخص بالذكر صديقي العزيز الدكتور علي عشري الذي تولى مشكوراً مراجعة تجارب هذا العمل أثناء الطباعة السابقة .والأستاذ الدكتور حسن الشافعي الذي كان يتردد علي ويطلب مراجعتها من حين الى آخر وعندما أقول له أحياناً شكراً فكان يقول انا اريد ان انال ثواباً من خدمتك فلماذا تريد ان تمنعني من الثواب .

وكان يسليني كثيراً عندما كنا زملاء الدراسة .

كما أشكر كل من تعاون وقدم لي رأياً سديداً فجزاهم الله خير الجزاء وفقهم إلى كل ما يحبه ويرضاه انه سميع بصير وعلى كل شيء قدير وبالاجابة جدير .

ثالثاً : تحديد المنطلقات الأساسية

١ ـ تحديد مفهوم الفلسفة وفلسفة التربية عموماً

باعتبار أن هذه الدراسات كانت من الدراسات الفلسفية وأن فلسفة التربية من الدراسات الفلسفية عموماً وباعتبار أن البحث أصلاً كانت رسالة مقدمة الى قسم الفلسفة الإسلامية فإن تحديد مفهوم الفلسفة وفلسفة التربية يعد تحديداً للمنطلقات الأساسية للبحث وهذا يساعد على فهم طبيعة الموضوع الأساسي وهو طبيعة فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية عن طريق المقارنة بغيرها لتمييز هويتها وأصالتها ،لذا نحاول هنا تحديد مفهوم الفلسفة والدراسات الفلسفية أولاً ، ثم موقع دراسة فلسفة التربية بصفة خاصة من الدراسات الفلسفية ، وذلك لمعرفة المنطلق الأساسي لإطار تفكير دراستنا ، ولنعطي فكرة عامة عن الاتجاهات الدراسية لفلسفة التربية ، ليتحدد تماماً اتجاهنا الخاص في دراستنا لموضوعنا المحدد من بين تلك الاتجاهات العامة التي انتهت إليها الدراسات في هذا الميدان حتى الآن ، وذلك كله لنستطيع تحديد مكانة الاتجاه الإسلامي وقيمة ما جاء به من الآراء في هذا الميدان .

وبناء على ذلك فإذا بحثنا الآن مفهوم الفلسفة والدراسات الفلسفية عبر تاريخها نجد مفاهيم مختلفة في شكلها ومحتواها ، وقد جاء ذلك الاختلاف نتيجة التطور الذي حصل في الدراسات الفلسفية في الشكل والمحتوى معاً ، لأن الفلسفة أساساً ـ كما نعلم ـ هي البحث عن المعرفة بطريقة نظرية منهجية وتحليلية خاصة ، والتطور حصل في ميدان المعرفة والطريقة معاً .

أما حصول التطور من حيث الشكل وأقصد به طريقة الدراسة ومنطق البحث

الفلسفي للوصول إلى الحقائق ـ فقد استخدم عبر الدراسات الفلسفية المنطق الصوري الأرسطي والمنطق الشكي الديكارتي والمنطق الجدلي والمنطق الوضعي الكونتي ، وأخيراً المنطق التجريبي البراجماتي .

وأما التطور في ميدان المحتوى فقد حصل فيه المد والجزر ، فقد اتسع ميدانه أحياناً حتى شمل جميع ميادين المعرفة والحقائق العلوية والسفلية[(١)] ، وانحصر أحياناً في الميتافيزيقا فقط وأحياناً أخرى في محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة فحسب[(٢)] ، ثم بدأت أخيراً تستعيد سلطانها من جديد على العلوم من حيث ضم فلسفة العلوم إلى محتواها ، فأدخل «هيجل» مثلاً في القرن التاسع عشر فلسفة القانون وفلسفة الفن وفلسفة التاريخ ، وأخيراً فلسفة الدين في الدراسات الفلسفية[(٣)] .

ثم تعددت مهمة الفلسفة ووظيفتها في الفلسفة المعاصرة ، ولنذكر هذه المهمة بالاختصار لنستطيع تحديد وظائف الفلسفة وميادينها ، ولنستطيع أن نحدد بعد ذلك من أين تدخل فلسفة التربية في الدراسات الفلسفية .

من تلك المهمة توجيه العلوم وتنظيمها ، يقول هنا ليفي بريل : «إن العلوم الوضعية لا تكفي نفسها بنفسها فهي في حاجة إلى فلسفة توجهها»[(٤)] ويضاف إلى ذلك أيضاً وظيفتان يراهما الفيلسوف الفرنسي «موريس بلونديل» وهما : معرفة نظرية بالحقيقة اليقينية وحل عملي متين لمشكلة المصير الإنساني[(٥)] .

ومنها كذلك إرجاع البحوث إلى مبادئها والكشف عن فروضها وأسسها ، وهذا ما يقرره فيليب . هـ . فينكس بقوله : «إن وظيفة الفيلسوف هي أن يحاول دائماً

---

(١) خلاصة الفكر الأوروبي (خريف الفكر الأوروبي) عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .ص ٣ .

(٢) مشكلة الفلسفةا ، دكتور زكريا ابراهيم ، مكتبة مصر القاهرة .ص ٣٤ وما بعدها .

(٣)الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ترجمت بإشراف الدكتور زكي نجيب محمود ، مكتبة الإنجلو المصرية ـ القاهرة ص . ٣٩٤ .

(٤) فلسفة أوجست كونت . ليفي بريل ترجمة الدكتور محمود قاسم . مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ بالقاهرة ص ١٣٥ .

(٥) مشكلة الفلسفة ، دكتور زكريا ابراهيم ص ٦٤ .

إرجاع البحث إلى مبادئه الأساسية وفروضه التي يقوم عليها ، ومهمته هي الكشف عن الأسس التي تقوم عليها المعتقدات في كل ميدان»[1] .

ومنها أيضاً عملية التحليل والتوضيح والتقويم للثقافة ، ثم عملية التنسيق الثقافي بين ميادين المعرفة ، عن طريق مناقشة الافتراضات الأساسية وراء مناهج التفكير في شتى ميادين المعرفة[2] .

ومنها أيضاً تبصير الناس بأسباب المشكلات الأخلاقية والاجتماعية ومجرى تيارات الأحداث في حياة الناس[3] .

وأخيراً يضاف إلى هذا وذاك أن من مهمة الفلسفة لدى بعض الفلاسفة ـ أمثال أفلاطون والرواقيين وديكارت والبراجماتيين ـ بناء الفرد أو بناء إنسان جديد[4] .

وفي ضوء هذا التطور في الدراسات الفلسفية من حيث الشكل والمحتوى نستطيع تفسير سبب اختلاف الفلاسفة في تحديد مفهوم الفلسفة[5] وخصائص الدراسات الفلسفية .

---

(١) فلسفة التربية ، فيليب هـ . فينكس . ترجمة الدكتور محمد لبيب النجيحي . دار النهضة العربية بالقاهرةص ٢٧ .

(٢) الفلسفة والتربية . دكتور صادق سمعان . دار النهضة العربية بالقاهرة ص ٥٤ .

(٣)تجديد في الفلسفة جون ديوي .ترجمة أمين مرسي قنديل .مكتبة الأنجلو المصريةص٣٣٩ .

(٤) مشكلة الفلسفة . دكتور زكريا إبراهيم ص ٦٤ .

(٥) فعرف أرسطو الفلسفة مثلاً بأنها «دراسة الوجود بما هو موجود أو دراسة العلل والمبادىء الأولى للأشياء» وعرفها ديكارت بأنها «العلم بالمبادىء الأولى والعلم الكلي الشامل» وكان يشبه الفلسفة بالشجرة أصلها العلم ما بعد الطبيعة وساقها علم الطبيعة وأعضاؤها الفروع الأخرى ويرى برتراندرسل «أن تعريف الفلسفة يختلف من فرد إلى آخر بحسب الاعتقاد بآراء معينة لأن الفلسفة تنشأ من المشكلات التي لا تختص بعلم معين وهي تثير الشكوك حول المعرفة على وجه العموم والإجابة على هذه المشكلات تعد إنتاجاً فلسفياً . ويرى وندت أن مهمة الفلسفة هي التوحيد بين جميع المعارف التي نكتسبها من العلوم الجزئية ووضعها في نظام واحد مترابط» انظر في ذلك المرجع الآتي : الفلسفة ومباحثها ، الدكتور محمد علي أبو ريان ـ القاهرة ص ٥٣ ـ ٥٩ .

ومع ذلك فإن للفلسفة مفهوماً في نظري لا يزال سائداً في الدراسات الفلسفية ، وهو أن الفلسفة بحث عن الحقيقة وتقويم للثقافة بطريقة من الطرق العقلية النظرية ، وهذا البحث عن المعرفة بشقيه الطريقة والمحتوى في نمو نحو التكامل وتفسير للكون وللإنسان والحياة من حيث الحقيقة والمبدأ والمصير ، لأن العقل البشري كلما أحس بجهل في ناحية من نواحي الوجود المادي أو القيمي أو الروحي اتجه إليه للوصول إلى الحقائق الكاملة فيها ، وكل ناحية من نواحي هذه الحقائق قد تتطلب منهجاً للبحث يختلف عن المنهج الخاص الذي تتطلبه النواحي الأخرى من الحقائق الخاصة بجانب من جوانب الوجود ، وكلما وجد العقل منهجاً للبحث للوصول إلى اليقين انبرى ليجد أفضل منه ، وهكذا دواليك يزداد تطور الدراسات الفلسفية ومباحثها من حيث محتوى البحث وطريقته .

وعلى ذلك فنحن نستطيع إجمال خصائص الدراسات الفلسفية على ما هي عليه الآن في ضوء ما سبق : بأنها تلك الدراسة التي تبحث عن الأسس والمبادئ والافتراضات والنظريات التي تقوم عليها العلوم والفنون والآداب والمعتقدات ، ثم إنها تقوم تلك المبادئ والأسس ونظريات العلوم وتحللها ، وبعد ذلك تقوم بالتنسيق بين مبادئها ونظرياتها في إطار كل علم وفي إطار العلوم جميعاً ، وذلك لتكوين اتجاه كلي عام شامل نحو وحدة العلم بالربط وإيجاد علاقة بين العلوم جميعاً .

ومن خصائصها أنها تزود المرء بالبصيرة والنظرة الشاملة ودقة النظر في تحليل الأمور تحليلاً عقلياً منطقياً ، كما تزوده أيضاً بوسائل تقويم الحقائق والمناهج التي يستطيع الباحث بواسطتها أن يتنبه إلى نواحي القصور في العلوم والأفكار ، ثم يوجهها الوجهة السليمة ، لأن أهم شيء في البحث العلمي هو منهجه ومنطقه أولاً ، فما ضاعت المجهودات قروناً طويلة أحياناً إلا لاتباع الناس منهجاً عقيماً أو منطقاً معقداً في البحث ، فإن المنطق أو المنهج العقيم كالشجرة التي لا تثمر مهما اعتنيت بها وأوليتها من عناية ورعاية ، والتفكير الفلسفي المنطقي الصحيح يساعد

على تمييز المنهج المنتج من المنهج العقيم . ويبصر بالطريق المفتوح والطريق المسدود .

وعلى هذا الأساس ينصب مفهوم خاصية الدراسة الفلسفية على طريقة التفكير ومنهج البحث وأسلوب المعالجة أكثر مما ينصب على موضوعات متخصصة أو ميادين معينة .

وهذا ما يقرره أيضاً «فيليب هـ . فينكس» في هذا الصدد حيث يقول «الفلسفة طريقة من طرق النظر إلى المعرفة التي لدينا فعلاً ، وهي تتضمن تنظيم وتفسير وتوضيح ونقد ما هو موجود بالفعل في ميدان المعرفة والخبرة ، وتستعمل كمادة لها ما تتضمنه العلوم والفنون المختلفة والدين والأدب من معارف ، كما أنها تستعمل مفاهيم عامة عادية ، وبهذا يتسع موضوع دراسة الفلسفة ليشمل الخبرة الإنسانية كلها ، فطعام الفكر الفلسفي كل شيء وأي شيء ، والتخصص الذي تتميز به الفلسفة ليس تخصصاً في ميدان المضمون ولكنه تخصص في الهدف والطريقة»[1] .

وإذا نظرنا الآن في ضوء ما سبق إلى ما يمكن أن تكون عليه صلة الفلسفة بمشكلة التربية بصفة عامة وفلسفة التربية بصفة خاصة وجدنا عدة صلات نقتصر على بيان أهمها فيما يلي :

فمن هذه الصلات أن التربية باعتبارها مشكلة من المشكلات العلمية والاجتماعية تحتاج إلى حل نظري وعملي وهذا الحل النظري يقع على كاهل الفلسفة ، إذ إن إيجاد حلول نظرية للمشكلات العلمية والاجتماعية والإنسانية كما بينا ذلك ، وخاصة إذا نظرنا إلى التربية باعتبارها علماً من العلوم ، فإن العلوم بحاجة إلى الفلسفة ، لأن عليها توجيه العلوم عن طريق وضع أسس نظرية ومناهج منطقية لها ، ومن هنا كان من الضروري انضمام فلسفات العلوم إلى ميدان

---

(١) فلسفة التربية ، فيليب هـ . فينكس ص ٦٩٤ .

الدراسات الفلسفية ، وكان من واجب الفلسفة احتضانها . وهذا وذلك يقتضي أن تكون للتربية فلسفة ، وأن تعالج هذه الفلسفة المشكلات التربوية معالجة فلسفية .

ومن تلك الصلات أيضاً أنه إذا كان من مهمة الفلسفة معرفة نظرية بالحقيقة اليقينية وحل عملي متين لمشكلة المصير الإنساني كما ذكرنا عند بيان مهام الفلسفة ، فإن التربية تحتاج إلى الكشف النظري عن الحقائق المتعلقة بميدانها ، لتقام التربية على أسس ومبادئ سليمة ، وخاصة إذا علمنا أن التربية شديدة الصلة بمشكلة المصير الإنساني . وإيجاد حلول ومبادئ سليمة للتربية معناه إيجاد حلول سليمة لمشكلة المصير الإنساني والتصور لحقيقة الانسان وهدفه ومصيره .

إذن يتبين من هذا وجوب التعاون بين الفلسفة والتربية لإيجاد حل لمشكلة مشتركةلوضع تصور لطريقة اعداد الانسان على حسب تفسيرها لطبيعته وهدفه .

ومنها كذلك أن مهام الفلسفة بناء الفرد ، وهذا هدف التربية الأساسي وأكبر واجب يقع على التربية تحقيقه من الناحية العلمية ، إذن نجد هنا وظيفة مشتركة بينهما في الهدف الأساسي . وعلى الفلسفة تحديد نوعية بناء الفرد وشخصية الفرد ، وعلى التربية تكوينها عملياً وعلى هذه الفلسفة التربوية تحديد الأساسيات النظرية التي تؤسس عليها التربية ، وبيان الطرق التي بها تكون تلك الشخصية .

ومنها أخيراً أنه إذا كان من مهام الفلسفة وخصائصها البحث والتحليل والتوضيح والتقويم والتنسيق للثقافة والخبرات الإنسانية ، في كل مجال وفي كل ميدان من ميادين المعرفة والثقافة ، فالتربية أيضاً باعتبارها من ميادين الثقافة والخبرة الإنسانية تحتاج إلى هذا النوع من الدراسات الفلسفية .

هذا إلى أننا سوف نضيف إلى هذه الصلات صلات أخرى أكثر وثاقة بين الفلسفة وفلسفة التربية عندما ندرس طبيعة فلسفة التربية ، وذلك أن الصلة الحقيقية تظهر بشكل أكثر وضوحاً بين نوعين من الدراسة عندما ندرس طبيعة كل

منهما إذ إن الحكم على الشيء فرع من تصوره ، كما يقول المنطقيون .

إذا كان الأمر كذلك فعلينا الآن أن ندرس حقيقة فلسفة التربية وتحديد طبيعتها .

٢ـ تحديد طبيعة فلسفة التربية

لا نستطيع تحديد فلسفة التربية ، ولا حتى طبيعة التربية دون إلقاء أضواء كاشفة على منابعها ومشاربها وتطورها ، كما فعلنا في ميدان الفلسفة .

ولما كانت مشكلة التربية من المشكلات الفلسفية في أساسها وجب أن نعرض تطورها في إطار تطور الدراسات الفلسفية ، لأننا عندما نبحث عن أصول تراث فلسفة التربية نجد أنها بدأت مع بداية الفلسفة ونشأت مع نشأتها في ترابها مقترنة بلحمها ودمها .

ذلك أننا عندما نعيد النظر إلى تاريخ الفلسفة في عصورها المختلفة نجد أن هذه المشكلة قد تعرض لها معظم الفلاسفة قديماً وحديثاً تعرضاً قليلاً أو كثيراً ، ونجدها قد أصبحت مشكلة من المشكلات الفلسفية العامة ، وموضوعاً من موضوعاتها الأساسية في الفلسفة الحديثة وبصفة خاصة في الفلسفة المعاصرة .

فقد تعرض لها سقراط وأفلاطون وأرسطو وتوماس الأكويني والإمام الغزالي وابن سينا وكانط وجون لوك وسبنسر وجان جاك روسو ووليم جيمس وجون ديوي وبرتراند رسل ، غير أن تعرض المحدثين يختلف عن تعرض القدامى وخاصة فلاسفة القرون الوسطى ، لأن المحدثين بصفة عامة اعتبروا مشكلة التربية من المشكلات الأساسية في الفلسفة ، ومن ثم كتبوا فيها كتباً مستقلة ، لأن الاتجاه في الفلسفة الحديثة ـ كما بينا ـ أصبح مركزاً في الإنسان وفي خدمة الحياة الإنسانية ، لتحقيق حياة سعيدة له ، وذلك عن طريق العمل لحل مشكلاته ومشكلات العلوم ، ولأن كثيراً منهم ـ كما يقول بعض الدارسين : «يجعلون من الفلسفة

محاولة لبناء إنسان جديد ويهتمون بتأكيد الدور الحيوي الذي تقوم به الفلسفة في تنظيم الخبرة البشرية»[١] .

وأخيراً لأن حاجة العلوم إلى الفلسفة أصبحت واضحة لما تقوم به الفلسفة من وضع مناهج علمية دقيقة ، لأن العلوم تتقدم بفضل مناهجها ولما تقوم به أيضاً من تحديد لمبادئ العلوم وأسسها وتحديد غايتها وطرق تحقيقها . ولهذا كانت حاجة العلوم إلى الفلسفة ، وعن هذه الحاجة نشأت فلسفة العلوم ، ومن ضمن هذه العلوم كانت التربية .

ولهذا يقول فيليب هـ . فينكس في هذا الصدد : «يجب أن تكون التربية كلها فلسفية يجب ألا يعلم شيء غامض دون منطق أو دون معرفة بالفروض ، وكل نشاط يكون تعليمه أفضل عندما تتضح الطرق ـ ويجب ألا نعلم حقيقة أو نظرية أو مهارة دون محاولة لربطها بخبرات أخرى وبنظام من القيم»[٢] . كما يقرر بعضهم الآخر حاجة التربية إلى الفلسفة قائلاً : «فالفلسفة تساعد المربي على تحديد الأهداف الهامة للتربية كما تساعده على تحليل هذه الأهداف وتنظيمها ، كذلك يستطيع المربي بفضلها أن يكتسب الاهتمام بالدقة في اختيار الألفاظ المستعملة في أحاديث التربية والتعليم ، وأن يكسب هذه الألفاظ قوة موجهة ، وأن ينظر إلى الأساليب العلمية في التربية والتعليم نظرة الفاحص الناقد . وأخيراً تستطيع أن تمكن المربي من استنباط وسائل عملية جديدة تتفق والأهداف العامة للتربية وأن يقدر النتائج المنتظرة عند استخدام هذه الوسائل»[٣] .

هذا إلى أنه لا يمكن فهم النظريات التربوية وسبب اختلافها إلا في ضوء تطور واختلاف الفلسفات ، لأن التربية في منشئها وليدة للمذاهب الفلسفية . يقرر هذه

---

(١) الدكتور زكريا ابراهيم : مشكلة الفلسفة ص ٦٤ .

(٢) فلسفة التربية ، فيليب فينكس ص ٦٩٤ .

(٣) التربية الحديثة ، الأستاذ صالح عبد العزيز ـ دار المعارف ، القاهرة ص ١١٣ .

الحقيقة بعض المتخصصين مثلاً عندما يقول «إذا تصفحنا كتب تاريخ التربية نجد أن الحركات التربوية ليست إلا وليدة للمذاهب الفلسفية وإن رجال التربية هم رجال الفلسفة»[1] . ويقول أيضاً «وإذا سبقت النظريات الفلسفية المجهود التربوي صدقت تبعية التربية للفلسفة»[2] . والسبب في ذلك أن كل فلسفة عندما تكون تعمل لتكوين مجتمع وفقاً لها ، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق تكوين أو بناء أفراد مؤمنين ومتشبعين بها ، وهذه بدوره لا يمكن أن يتم إلا عن طريق التربية التي تقوم على أسس تلك الفلسفة ونظرياتها في فهم الطبيعة الإنسانية وحقيقة الكون ، وجوهر حياة الإنسان ، ثم مصير الإنسان في هذه الحياة وما بعد الحياة .

وهذا ما يقره أيضاً البعض الآخر عندما يوضح العلاقة بين التربية والفلسفة بقوله «ويتضح هذا الارتباط بين الفلسفة والنظرية التربوية والتطبيق التربوي فإن لكل حركة هامة في التربية اتجاهاً واعياً ينبني على وجهة نظر فلسفية»[3] .

وعلى ذلك يمكننا القول بأن للفلسفة وجهين : وجهاً نظرياً بحتاً وآخر عملياً تربوياً ينعكس عليه الوجه النظري . يقول هنا أحد المتخصصين في ميدان التربية : «والفلسفة على هذا الأساس وبهذا الوضع ترتبط بالخبرة التربوية ، لتكون فلسفة التربية فتصبح الفلسفة بذلك النظرية العامة للتربية أو التربية في جانبها التطبيقي ، وتصبح فلسفة التربية نشاطاً فكرياً نقاداً يعمل في الخبرة التعليمية ، ليحللها وينقدها ويرى الأسس والفروض والقيم التي تقوم عليها ليرتد بعد ذلك إلى العملية التعليمية توجيهاً وإرشاداً وتحسيناً فتتسع النظرة وتصبح أكثر شمولاً ، ويتجه الفكر إلى أن يكون أكثر تحليلاً ونقداً ، أو يرتفع المربون من الواقع المادي الخشن ليحلقوا في الفكر التربوي»[4] .

---

(١) الأسس العامة لنظريات التربية . الأستاذ جيمس . س . روس ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

(٣) التربية والتغير الثقافي . الدكتور محمد الهادي عفيفي ص ٢٠٠ .

(٤) مقدمة في فلسفة التربية . الدكتور محمد لبيب النجيحيص ٤٠ .

ولهذا نرى الذين بدأوا بالفلسفة انتهوا إلى التربية والذين بدأوا بالتربية انتهوا إلى الفلسفة ، لأن دارس التربية لا يمكن أن يفهم طبيعة النظريات التربوية إلا إذا اهتدى إلى جذورها الفلسفية .

غير أن ما قلناه مجرد دعوى لا بد من الاستدلال العلمي عليها ، ليكون ذلك مقنعاً في إثبات كيف تولدت النظريات التربوية ، وكيف كانت تابعة للفلسفات ، ولا يمكن تفسيرها وفهمها إلا في ضوئها .

وكان منشأ تلك النظريات التربوية مرتبطاً بمنشأ فلسفاتها التي تولدت أو نشأت منها . ولهذا إذا تعرضنا ـ ولو بشيء من الإيجاز ـ لنشأة تلك الفلسفات نستطيع أن ندرك عندئذ الصلة بينهما :

ففيما يتعلق بنشأة تلك الفلسفات فإن الفلسفة لما اتجهت في مبدأ الأمر إلى البحث عن حقيقة الكون وجوهر تكوينه ، ذهب بعض الفلاسفة إلى أن الأصل الذي تكونت منه الأشياء أصل مادي في حقيقته ، وذهب بعضهم إلى أنه أصل روحي أو جوهر روحي وذهبت جماعة ثالثة إلى أن هناك حقائق مادية وروحية معاً في هذه النشأة . وكان ذلك سبباً لنشأة الفلسفة الثنائية . ثم إن الذين قالوا بالثنائية انقسموا فيما بينهم إلى ثلاث فرق نتيجة لتأثرهم بالاتجاه الروحي الصرف أو الاتجاه المادي الصرف وخاصة فيما يتعلق بطبيعة تكوين الإنسان : فرقة تهتم بالجانب الروحي أكثر من الجانب المادي وهي المثالية ، وأخرى تهتم بالجانب المادي أكثر من الجانب الروحي وهي الواقعية . فالأولى ترى أن الروح هي الأصل والمادة ظاهرة لها ، والثانية ترى أن المادة هي الأصل والروح ظاهرة لها ، والثالثة ترى أن كليهما حقيقة ومن ثم يجب الاهتمام بالجانبين معاً ، ومن هنا نشأت الفلسفة التكاملية .

وهكذا تكونت معظم الاتجاهات الفلسفية وهي الاتجاه المادي والاتجاه الروحي والاتجاه المثالي والاتجاه الواقعي وأخيراً الاتجاه التكاملي [1] .

---

(١) ارجع في ذلك إلى المرجعين الآتيين : أ ـ الأسس العامة لنظريات التربية ـ الفصل الثالث .
ب ـ ربيع الفكر الأوروبي . د . عبد الرحمن بدوي .

ولما كانت التربية الوسيلة الوحيدة لدى الفلاسفة لبناء الأفراد ونقل الفلسفة من النظرة إلى الواقع فإن كل فلسفة وضعت لنفسها نظرية تربوية .

ومن هنا نشأت النظريات التربوية عن تلك المذاهب الفلسفية ، فالمذهب الذي يرى أن الحقائق نشأت من أصل مادي يرى أنها مادية أيضاً وأن الطبيعة الإنسانية طبيعة مادية كذلك . وعلى ذلك يهتم في ميدان التربية ببناء الشخصية المادية فقط ولا يهتم بالجانب الروحي إطلاقاً لعدم إيمانه به .

ولهذه الفلسفة فروع منها المادية الجدلية أو المادية الديالكتيكية والمادية الطبيعية[1] .

وبالرغم من وجود بعض الآراء الفرعية لكل فرع من هذه الفروع فإنها تشترك بصفة عامة في الاهتمام بتنمية جميع الإمكانيات الطبيعية للطفل لجميع الوسائل والطرق التربوية التي تساعد على ذلك ليستطيع الفرد القيام بجميع أهدافه الطبيعية التي رسمتها له الطبيعة[2] .

أما الفلسفة الروحية فيعبر عنها رونيه أوبير بقوله «فالروح إذن تسود كل شيء وتستغرق كل شيء وهي كل شيء»[3] ، ويعبر عن رأيه في الطبيعة الإنسانية بقوله : «إن مصير الإنسان أن يكون روحاً ولا يعني هذا أنه يمتاز بذلك جذرياً عن سائر كائنات الطبيعة فهؤلاء جميعاً روح إلى درجة ما ، غير أن الإنسان يفوقهم جميعاً بوعيه لمصيره الروحي ونكران هذا المصير معناه تهديم كل تدرج بين الكائنات وجعل التربية مجرد ترويض كترويض الحيوانات ، إن الإنسان يدرك نفسه كروح عن طريق الحدس المباشر الذي يعي به ذاته»[4] .

---

(١) التربية وفلسفتها . دكتور نوري جعفر ، مطبعة الزهراء بغداد ص ١٥ .

(٢) الأسس العامة لنظريات التربية ، جيمس . س . روس ص ٧٠ ـ ٧١ .

(٣) التربية العامة ، رونيه أوبير ص ٢٣٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٤ .

ووظيفة التربية في نظر هذه الفلسفة هي التنمية الروحية ويعبر رونيه أوبير عن وظيفة التربية فيها قائلاً «إن التربية عمل ، ولكنها عمل تقوم به روح في روح ، إنها نداء توجهه الروح التي وصلت إلى الآفاق العليا من الوجود إلى الروح التي تتطلع إلى اللحاق بها»[1] ويقول أيضاً «وهدف التربية أن تقود الإنسان من طبيعته المعطاة إلى جوهره المثالي وأن تعينه على التخلص من الأولى ، وأيضاً على استخدامها وتكييفها»[2] .

ولهذه الفلسفة الروحية فروع : منها الفلسفة الروحية الشاملة التي ترى أن هذا العالم كله مخلوق من الذرات الروحية أو المونادات كما يقول الفيلسوف الألماني «ليبنتز» ، وهو يقدم نظريته هذه مقابل نظرية ديمقريطس الذي ارتأى أن العالم مكون من الذرات المادية ، ومن هذه النظرية نشأت الفلسفة المادية التي أسلفنا ذكرها ، والتي تحاول تفسير الكون تفسيراً مادياً لا يتسع لفكرة الله ، ولا لخلود النفس ولا للثواب والعقاب في الآخرة كما يقول أستاذنا المرحوم الدكتور محمود قاسم[3] . وهذه الذرات الروحية التي يرى ليبنتز أن العالم الطبيعي مكون منها أساساً شفافة مائعة وبعضها توشك أن تكون جامدة[4] ، وهي منسقة بعضها مع بعض غاية التنسيق في تكوين الأجسام . وعلى غرار ذلك يجب أن تكون التربية تنسيقاً للسلوك ، ويجب أن يقوم هذا التنسيق على أسس عقلية وعلى الإيمان بالله ، ويجب أن يضع الإنسان عادات منسقة لتربية نفسه ورغباته حسب معرفته لميوله ورغباته[5] .

ومنها أيضاً الفلسفة الروحية الذاتية ، ومن دعاتها جورج باركلي الذي يدعي أن

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٨ .

(٣) محيي الدين بن عربي وليبنتز . دكتور محمود قاسم ، مكتبة القاهرة الحديثة ص ١٧٢ .

(٤) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٣٧٨ ـ ٣٨٠ .

(٥) بالفرنسية Oevres Philosophiqus de Leibniz T. I. P.148 par paul Janet paris ١٩٥٥

الحقيقة حقيقة روحية ولا توجد حقائق مادية ، وما هذه الأشياء المحسوسة إلا مظاهر خداعة لا حقيقة لها إزاء الحقائق العقلية الفكرية[1] أو أن الأشياء المادية يمكن أن تحلل إلى أفكار وكأن ذلك يريد إنكار وجود المادة وأن هناك أشياء مادية[2] .

والفرق بين الروحية الذاتية والروحية الشاملة أن الأولى ترجع الحقائق إلى أفكار وحقائق عقلية ، كما يتراءى للذات المفكرة ، وأما الثانية فترى أن الحقائق أو العالم كله مكون من ذرات روحية أساساً ، ولهذا فهي تعد روحية موضوعية بالنسبة للأولى .ومهما يكن من أمر الاختلاف بينهما ، فإن التربية في نظرهما هي عملية التنمية الروحية والعقلية والأخلاقية ولأهمية هذا الموضوع اخرجت في هذا الموضوع كتاباً مستقلاً بعنوان :فلسفة الحياة الروحية .

أما الفلسفة الثانية المثالية فهي في مفهومها الشائع تهدف إلى تحقيق الأهداف الأخلاقية السامية ، ويستخدم هذا المفهوم أيضاً في ميدان الفلسفة على كافة الآراء التي تجعل أساس الكون روحياً في نهاية الأمر[3] . لكن ما أقصد بالمثالية هو ما قلته عن أنها تركز على الجانب الروحي أكثر من الجانب المادي ، بل إنها ترى أن العالم الطبيعي المحسوس ظواهر لواقع روحي مخبوء تحتها ، أو أن هذا العالم ـ كما يدعو «هيجل» ـ تعبير متطور لعقل أو روح تجاهد في تجسيد على نحو كامل في شكل مادي[4] هنا يقول «رسل» «بدل أن يسأل كما يسأل الطبيعيون لماذا كان للجسم عقل فإننا نسأل لماذا كان للعقل جسم»[5] وكان أفلاطون الذي يعد الزعيم الأول لهذه الفلسفة[6] يقسم العالم إلى قسمين العالم المثالي عالم الحقائق الروحية

---

(١) التربية وفلسفتها د .نوري جعفرص ١٥ . (٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٨٢ .

(٣)المرجع السابق ص ٣٩٧ .

(٤) في فلسفة التربية .ج .هـ .نيللز ،ترجمة الدكتور محمد مرسي .عالم الكتب القاهرةص٥٣ .

(٥) الأسس العامة لنظريات التربية . جيمس . س . روس ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرةص ٤٧ .

(٦) فلسفة التربية دكتور هانيء عبد الرحمن صالح ، مطبعة الجيش العربي عمان ص ٢٤ .

والعقلية الثابتة ، والعالم الحسي الذي هو ظل لذلك العالم الروحي الحقيقي ويصور هذا الفرق بين هذين العالمين في أسطورة الكهف [١] . ويدعو إلى الاتصال بعالم المثل الدائم .

وأهم مبادئ التربية لهذه الفلسفة التركيز على التربية العقلية والأخلاقية والجمالية ، وأن يكون المربي موجهاً آخذاً بيد المتربي حتى يصل إلى أرقى درجات الرقي الروحي أو الكمال الإنساني ، وأخيراً الاهتمام بالتربية الجسمية بقدر ما يكون الجسم آلة صالحة للسير بالإنسان إلى الكمال لا لمصلحة الجسم ولكن من أجل الروح وخدمة العقل [٢] .

أما الفسلفة الثنائية الواقعية التي هي مقابل الثنائية المثالية السابقة فإنها كما ذكرنا تؤمن بالروح وبالمادة معاً ، لكنها تهتم بالمادة وبالجانب المادي أو الحسي من حياة الإنسان أكثر من اهتمامها بالجانب الروحي ، لأنها ترى عكس الاتجاه المثالي أن الحقيقة المادية هي الأساس في هذا العالم ، أما الحقائق الروحية أو العقلية فظاهرة لها [٣] وعلى ذلك لا تنكر هذه الفلسفة الوجود الروحي ووجود الله كذلك [٤] .

ويرجع أساس هذه الفلسفة الواقعية إلى أرسطو حيث خالف أستاذه في اعتبار الواقع الأساسي وقال : «المبدأ الحق في كل الأشياء إنما هو الواقع وإذا كان الواقع نفسه دائماً بالوضوح الكافي كاد لا يكون ثمة حاجة للصعود إلى علته ، فمتى تمت للإنسان المعرفة التامة للواقع فإما قد حصل مبادئه من قبل وإما على الأقل إنه يمكنه تحصيله بأيسر ما يكون» [٥] .

---

(١) جمهورية أفلاطون ، دار المعارف ، القاهرة ص ١١٥ .

(٢) الأصول التربوية في بناء المناهج دكتور حسين سليمان قورة ص ١٥٩ .

(٣) الأسس العامة لنظريات التربية . جيمس . س . روس ص ٦٥ ، التربية الحديثة . صالح عبد العزيز ، دار المعارف بالقاهرة ص ١٠١ .

(٤) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٣٣٢ .

(٥) علم الأخلاق . أرسطو . طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة . ج ١ / ص ١٧٧ .

ثم تطور هذه الاتجاه على يد المدرسيِّين وعلى رأسهم توماس الأكويني ، وادعوا أن لعالم المادة أو الواقع حقائق مستقلة عن إدراك العقول ، كما أن عالم الأرواح هو عالم الحقائق أيضاً وقد خلق الله هذين العالمين . وكان من أعظم دعاته جان جاك روسو الذي رجع إليه فضل تأسيس التربية على الطبيعة الواقعية[١] ، ومن هؤلاء أخيراً سبنسر ووليم مكدوجل وجون ديوي[٢] . وذلك مع ملاحظة بعض الفروق بين آراء هؤلاء .

إلا أنهم مع ذلك يشتركون بصفة عامة في الدعوة إلى تأسيس التربية على العلوم البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية ، والاهتمام بالواقع والتربية الواقعية الطبيعية وعدم القسر في التربية ، ومراعاة اهتمامات الطفل ورغباته الأساسية في ميدان التربية ، ثم مراعاة إمكانياته وقدراته الطبيعية في المراحل التربوية ، وذلك لإعداد الفرد للحياة العملية الواقعية لا للوصول إلى المثل العليا والاتصال بالعالم الروحي كشأن المربين المثاليين ، كما يهتمون بالتربية الأخلاقية لضرورتها للحياة الاجتماعية وللحياة الفردية أيضاً ، لا لأنها مجرد وسيلة للرقي الروحي .

ومن مميزات اتجاه هذه الفلسفة في التربية عدم تأسيس هذه التربية على أساليب التلقين والفرض الخارجي ، بل تأسيسها على الخبرة الذاتية والاجتماعية ، على أن يكون دور المربي التوجيه والإرشاد والقدوة الحسنة .

وأخيراً تقوم هذه التربية على الإيمان بوجود الروح وبعالم حقيقي وراء هذا العالم ، لكن مع الاهتمام بالواقع وبالحياة الطبيعية الاجتماعية الواقعية ، لأن الإنسان يعيش في هذا العالم الواقعي لا وراءه ولا فوقه[٣] .

---

(١) في فلسفة التربية . جـ . ف . نيللرص ٥٩ ـ ٦٣ .

(٢) انظر المراجع الآتية :

(أ) تطور النظرية التربوية . صالح عبد العزيز . دار المعارف بمصرص ٢٧٥, ٣٠٥, ٣٠٧ .

(ب) التربية وفلسفتها . دكتور نوري جعفر . مطبعة الزهراء . بغدادص ١٥ .

(جـ) التربية العامة . رونيه أوبير . دار العلم للملايين ـ بيروت ص ٥٧ .

(٣) انظر في ذلك المراجع الآتية : أ ـ الأسس العامة لنظريات التربية ص ١٩٢ . ب ـ تربية=

بعد هذا كله بقيت الفلسفة التكاملية التي تؤمن بالمادية والروحية على حد سواء وتجعل للروحية موضوعية المادة نفسها ، يقول أحد أنصار هذه النظرة التكاملية مؤيداً ذلك ، بعد أن ترتب على إهمال الروح وتجاهله من مفاسد أخلاقية وصحية : «فمن الحكمة إذن أن نجعل لعالم الروح نفس الموضوعية التي لعالم المادة»[١] . ومن ثم يدعو إلى مراعاة قوانين الحياة المادية والروحية معاً بقوله : «واليوم تنحصر المهمة الباهرة في أن نقوم اعوجاج البشرية التي انزلقت منذ أربعمائة عام في طريق مغلق انغمست في أوضار الجانب المادي . . . ولا بد لذلك من إعادة معنى الإنسانية إلى الإنسان بجعله يفكر في حاجات جسمه ونفسه ولا بد من لفت نظره إلى الحقائق ، حقائق العلم والتصوف على السواء ، ولا بد من منعه من الانغماس في النواحي المادية على النحو الذي حدث له حتى الآن ، ولا بد أيضاً من منعه من الانحصار في الجانب الروحي وكذلك من الخلط بين الدنيوي والروحي على النحو الذي كان يحدث في المدينة القديمة ففي المدينة الحديثة لا يجوز أن ينفصل الروحي والمادي أحدهما عن الآخر ، وإن كان كل منهما يخضع لقوانين مختلفة»[٢] .

وتجد هذه الفكرة أكثر وضوحاً لدى أحد أنصار هذه الفلسفة ، حيث يقول مثلاً : «إننا نعيش جميعاً في عالمين : عالم مادي وعالم روحي ، وهذا العالم الروحي هو عالم القيم ولو أننا ضحينا به في مذبح العلوم أو الاقتصاديات لكان في ذلك هلاكنا»[٣] .

وفي ميدان التربية تهتم بالتربية الروحية كما تهتم بالتربية الجسمية دون الاعتراف بالفواصل بينهما من الناحية الشخصية ، لأن هدفها تكوين شخصية إنسانية

=الإنسان الجديد . دكتور محمد فاضل الجمالي ، مطبعة الإتحاد العام التونسي للتوزيع ـ تونس ص ١٨٣ . جـ الأصول التربوية في المناهج دكتور حسين سليمان قورة . دار المعارف ص ١٦٥ ـ ١٩١ . د ـ التربية الحديثة . صالح عبد العزيز ص ٢٦٩ .

(١) تأملات في سلوك الإنسان دكتور الكسيس كارل . مكتبة مصرص ١٧٤ .

(٢) الدكتور الكسيس كارل في كتابه : فأملات في سلوك الإنسان ـ مكتبة مصرص ٢١٧ .

(٣) الأستاذ سير ريتشرد لفنجستون في كتابه : التربية لعالم حائر ص ٤٦ .

متكاملة من جميع النواحي : من الناحية الروحية والأخلاقية والعقلية والجسمية معاً . وقد أصبح هذا الاتجاه في التربية اتجاه بعض المربين الكبار في العصر الحديث : «ومن أكبر دعاة هذه التربية فخته الذي قال إن التربية القديمة كانت قاصرة على تدريب بعض نواحي الإرشاد لكن جدير بالتربية الحديثة أن تهتم بالإنسان من جميع نواحيه»[١] . ومنهم أيضاً المربي الكبير المشهور «بستالوزي» حيث قرر بكل وضوح ما قررناه سابقا[٢] . وأخيراً كان من أكبر دعاتها أيضاً فرويل[٣] . ولا شك أن التربية الأخلاقية كانت تأخذ اهتمام كل نظرية من تلك النظريات التربوية ، حسب فلسفتها وموقفها من الأخلاق ، ومدى أهميتها في نظرها .

بعد هذا البيان لنشأة النظريات التربوية من النظريات الفلسفية أو كيفية نشأة فلسفة التربية من الفلسفة يمكن تحديد طبيعة فلسفة التربية وتحديد ميدانها في إطار الميادين العامة للفلسفة .

ففيما يتعلق بتحديد طبيعتها يكون في ضوء صلتها بالفلسفة . وصلتها تتلخص في ناحيتين بارزتين :

الأولى صلة الاحتضان ، لأن الفلسفة احتضنت مشكلات التربية النظرية كما احتضنت مشكلات العلوم النظرية . ومن هنا نجد خاصية الطريقة الفلسفية لمعالجة المشكلات التربوية سائدة في فلسفة التربية .

الثانية صلة الولادة ، لأن النظريات التربوية نشأت بالولادة عن الفلسفات كما سبق بيانه .

ومن هنا نجد أن صلة فلسفة التربية أوثق من صلة أي علم من العلوم بالفلسفة .

---

(١) تطور النظرية التربوية . صالح عبد العزيز ص ٣٣٠ .

(٢) المرجع السابق ٣٣١ .

(٣) تاريخ التربية . مصطفى أمين . مطبعة المعارف بمصر ص ٣٤٧ـ٣٤٨ .

وعلى هذا يمكن تحديد فلسفة التربية من ناحيتين :

الأولى الطريقة الفلسفية لمعالجة مشكلات التربية مثل : تحديد المصطلحات والمفاهيم والأهداف وتحليل مبادئها ، وتحديد أسسها ثم التنسيق فيما بينها ، وهنا نجد بعض الدارسين يركزون عند تعريف فلسفة التربية على هذا الجانب ، ومن هذا القبيل تعريف «فيليب فينكس» : «بأن فلسفة التربية هي تطبيق الطريقة والنظرة الفلسفيتين في ميدان الخبرة المسمى بالتربية ، وهي تتضمن مثلاً البحث عن المفاهيم التي تنسق بين المفاهيم المختلفة للتربية في خطة شاملة وتوضح المصطلحات التربوية وعرض المبادئ والفروض الأساسية التي تقوم عليها التعبيرات الخاصة بالتربية ، والكشف عن التصنيفات التي تربط بين التربية وبين ميادين الاهتمام الإنساني الأخرى»[(1)] . ومن هذا القبيل أيضاً تعريف «جون ديوي» بأنها «خطة لتوجيه عملية التربية وهي ككل خطة لا بد من أن تشير إلى ما يجب عمله وطريقة العمل»[(2)] .

والثانية المادة الفلسفية للتربية التي تقتضي معالجة كل جانب من جوانب التربية ودراسة قيم ونظريات ومبادئ تلك الفلسفة التي تتعلق بتلك الجوانب التربوية ، والتي ترجع إليها تلك الأساسيات التربوية ، وتخضع عملياً لروح توجيهاتها العامة في التخطيط والتنفيذ التربويين .

هنا نجد بعض الدارسين يركزون على هذا الجانب أكثر من الجانب الأول عند تعريفه فلسفة التربية . ومن هذا القبيل تعريف بعضهم بأنها : «ذلك المجهود الجاد المتواصل إلى ما يجب أن تقوم به التربية بشكل منسق غير متعارض إزاء المطالب المتعارضة التي تفرضها المطالب والاهتمامات والمصالح المتعددة المتنافرة في المجتمع»[(3)] .

---

(1) فلسفة التربية . فيليب هـ . فينكس ص ٣٩ .

(2) الخبرة والتربية . جون ديوي ترجمة الدكتور محمد رفعت رمضان وغيره ص ٢٣ .

(3) الفلسفة والتربية . دكتور صادق سمعان (تعريف وليم كلباتريك) ص ١٨٤ .

ومن هذا القبيل أيضاً ما يعرفه البعض بأنها : «ذلك النشاط النظري الذي يقوم به المربون والفلاسفة وغيرهم من المهتمين بأمور الثقافة والتربية لتوضيح عملية التربية وتنسيقها ونقدها وتعديلها ، في ضوء مشكلات الثقافة وتناقضاتها وأهدافها»[١] .

وأما فيما يتعلق بتحديد ميدان فلسفة التربية للفلسفة العامة فإن الفلاسفة والمتخصصين قد اختلفوا في هذا الموضوع وذهبوا فيه إلى أربعة اتجاهات عامة :

الاتجاه الأول : يرى أن فلسفة التربية ليس لها معالم أو ميادين خاصة محددة ومتميزة في إطار الفلسفة العامة[٢] .

والثاني : يرى أن فلسفة التربية هي التحليل الفلسفي للعبارات والمفاهيم التربوية ، وهذا اتجاه الفلاسفة التحليليين الذين يجعلون فلسفة التربية جزءاً من الفلسفة التحليلية .

والثالث : يرى أن فلسفة التربية اشتقاق من الفلسفة أو تطبيق لها ، وميدان فلسفة التربية يقع في هذا الاتجاه في منتصف الطريق بين النظري والعملي أو بين الفلسفة وميادين النشاط التربوي الخاص .

إذن فإن فلسفة التربية هي تطبيق الفلسفة على مشكلات التربية[٣] .

والاتجاه الرابع والأخير : يرى أن ميدان التربية يتميز عن الفلسفة العامة لأنها تختص بدراسة مشكلات التربية ونظرياتها وأسسها ، ويرفض أن تكون فلسفة التربية هي نفس الفلسفة أو تطبيقاً لها أو اشتقاقاً منها[٤] .

وأما الأمر في رأيي ـ فيتلخص في أن فلسفة التربية هي الوجه العملي للفلسفة لأن بدايتها الفلسفة ونهايتها العلم ، ذلك أننا نجد كل فلسفة تخلع طابعها العام على

---

(١) الدكتور صادق سمعان في كتابه (الفلسفة والتربية ص ١٤٣) .

(٢)الفلسفة والتربية . دكتور صادق سمعان .ص ١٢٥

(٣) المرجع السابق ص ١٢٩ .

(٤) المرجع السابق ص ١٢٩ .

التربية الخاصة بها ، فنجد مثلاً طابع الفلسفة المثالية واضحاً في التربية المثالية ظاهراً وباطناً ، ونجد كذلك طابع الفلسفة المادية في التربية المادية والأمر مثل ذلك في الفلسفات الأخرى وتربيتها .

بعد هذا كله بقي موضوع آخر من موضوعات فلسفة التربية وهو أنماط دراسة هذه الفلسفة .

النمط الأول : دراسة تاريخ أفكار فلسفة التربية التابعة لفلسفة فيلسوف واحد أو مجموعة منهم الذين أثروا في التربية .

النمط الثاني : دراسة النظريات التربوية وأنماط المذاهب الفلسفية للتربية ، مثل فلسفة التربية المثالية أو الواقعية وما إلى ذلك .

النمط الثالث : اختيار موضوع واحد من الفلسفة التربوية ودراسته مثل اختيار فلسفة التربية العقلية أو الأخلاقية أو الروحية في إطار فلسفة معينة .

النمط الرابع والأخير : اختيار أهم المشكلات التربوية أو إحداها مثل أهداف التربية وأسسها وطرقها ووسائلها وما إلى ذلك ثم دراستها دراسة فلسفية[1] .

إذن اختيار موضوع فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية ودراستها على النحو الذي ذكرته يدخل في النمط الثالث من أنماط دراسة فلسفة التربية .

ولم يكن هذا الاختيار وتلك الدراسة عن قصد مسبق ليتفق مع هذا النمط ، بل جاء ذلك بمحض الصدفة وإنما كان اختياري خاضعاً أساساً لمواصفات خاصة ذكرتها في المقدمة .

ومن حيث الفلسفة التربوية فهي تتبع الفلسفة التكاملية لأن الاخلاق لها منبع روحي ومنبع واقعي طبيعي واجتماعي اذ للاخلاق جانبان جانب فطري طبيعي

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٥ ـ ٢٢٣ . انظر كذلك كتاب «فلسفة التربية . فيليب فينكس» ص٤٢ ـ ٤٣ .

يرجع الى الإحساس بالخير والشر والشعور بالابتهاج عند فعل الخير والشعور بعذاب الوجدان عند فعل الشرور والجانب الآخر اكتسابي اذ يكتسب صور الاخلاق ومبادئه من واقع الدين والمجتمع والتربية الاخلاقية تساعد على النمو الروحي وتزكية النفس وتطهيرها من الرذائل الأخلاقية كما تساعد على اكتساب قيم المجتمع والدين وتنمية الإحساس الاخلاقي . وتكوين إرادة اخلاقية قوية قادرة على الالتزام بالقيم الأخلاقية .

وتكوين بصيرة بضرورتها لحياة الفرد والجماعة . والإيمان بأن القيم الأخلاقية ثابتة .

وتكوين التمييز بين القيم الأخلاقية والعادات ومعيار التمييز هو أن القيم الأخلاقية يترتب على فعلها خير ويترتب على تركها شرور ومفاسد . وأما العادات فلا يترتب على فعلها خير ولا يترتب أيضاً على تركها شرور ومفاسد . ومن القيم الأخلاقية الأمانة والصدق وتنفيذ العهود والوعود ومن العادات أشكال اللباس وألوانها وأنواع المراسيم الرسمية ، وما إلى ذلك .



الباب الأول

طبيعة فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية ودورها في ضوء فلسفات التربية

الفصل الأول:

تحديد طبيعة فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية وغايتها.

الفصل الثاني:

تحديد دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية.



الفصل الأول

تحديد طبيعة فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية

بعد هذه المحاولة لتحديد الفلسفة وفلسفة التربية وصلة هذه الأخيرة بالأولى وميدانها فيها ، فإنه يجب علينا الآن أن نقوم بالمحاولة نفسها لتحديد ذلك في نطاق فلسفة الإسلام ، لأن دراستنا تتركز أساساً في موضوع من موضوعاتها .

سبق القول في المقدمة بأن الفلسفة الإسلامية قد تعرضت لجميع القضايا الفلسفية التي تعرض لها الفلاسفة بالدارسة .

وإذا كان الأمر كما ذكرنا هنا فإن لكل فلسفة ، فلسفة تربية تحمل تلك الفلسفة مغزاها وتضفي طابعها عليها وهذه التربية بدورها تستمد أصولها وأسسها وغايتها ومعاييرها وطرقها من تلك الفلسفة .

والفلسفة الإسلامية بدورها فلسفة متميزة لها رأي في حقائق الكون والوجود ولها نظرياتها الخاصة ومعالمها التي تميزها عن غيرها وإن كان هناك بعض الحقائق المشتركة بينها وبين غيرها من الفلسفات الأخرى إلا أنها ـ كما وجدتها ـ فلسفة متميزة في كليتها قائمة بذاتها وهي بدورها تقرر وجود حقيقة مادية وأخرى روحية في كيان الوجود وفي كيان الإنسان ، ومن ثم تنظم حياة الإنسان على أساس واقعه المادي وواقعه الروحي ، لأنها لا تريد أن يعيش الإنسان في السماء وهو في الأرض ، ولا تريد كذلك أن يعيش منغمساً في الحياة الأرضية المادية وحدها ، لأن في كيانه وجوداً روحياً فعالمه أوسع من عالم الحياة المادية الأرضية ، ولهذا فهي تريد للإنسان أن يحيا حياة أوسع من الحياة الأرضية وحدها وأوسع من الحياة السماوية الروحية وحدها كذلك ، بل تريد أن تجمع له حياة العالمين معاً : عالم المادة ، وعالم الروح في

هذه الدنيا ، ثم تريد له أن يحيا حياة أطول من حياة الأرض القصيرة الأجل ، تريد له حياة سعيدة طويلة ، بل لا نهاية لها هي الحياة الآخرة ، وهكذا يتسع نطاق نوعية الحياة ويمتد أمدها مع ذلك ، ولما كانت هذه أكثر قيمة وأكثر متعة كانت لتلك الفلسفة التي تعد الإنسان لتلك الحياة وتعدها لها أكثر قيمة أيضاً ، ولهذا لم تأت فلسفة الإسلام لتوسيع نظر الإنسان في الوجود وحقائقه وأنواع الحياة فحسب ، بل جاءت أيضاً لتعد الإنسان ليكون أهلاً لذلك وليستطيع أن يحيا الحياة التي خلق لها وخلقت له ، ومن ثم كان لا بد لهذه الفلسفة من فلسفة تربوية لتربي الإنسان وتكونه ، ليستطيع أن يحيا تلك الحياة التي يجب أن يحياها .

وإذا بينا أهم معالم هذه الفلسفة نستطيع أن نحدد ميدان فلسفة التربية فيها . وإني عندما حاولت تحديد معالم فلسفة الإسلام مراراً اهتديت أخيراً إلى تحديدها عن طريق تلك النظريات المزدوجة العامة والهامة وهي الآتية :

نظرية الخلق أو التكوين ومصير الخلق ، ونظرية الألوهية والعبودية ، والنظرية الأخلاقية والتشريعية ، وأخيراً نظرية المعرفة والنظرية التربوية .

وهذه النظريات مزدوجة ، كل نظرية منها تابعة لأخرى ، فنظرية مصير الخلق تابعة لنظرية الخلق ، ونظرية العبودية تابعة لنظرية الألوهية ، والنظرية التشريعية تابعة للنظرية الأخلاقية ، والنظرية التربوية تابعة لنظرية المعرفة ، ونظرية المعرفة لها مناهج وفقاً لنظرتها إلى الحقائق وأنواعها وميادينها ، واختلاف مناهج هذه النظرية بحسب تلك الحقائق وميادينها يرجع إلى أن اختلاف الحقائق يقتضي اختلاف معايير الحق وطرق الوصول إليه ، فمنهج الوصول إلى الحقائق الروحية غير منهج الوصول إلى الحقائق المادية ، ومنهج الوصول إلى الحقائق الرياضية غير منهج الوصول إلى الحقائق الجيولوجية والكيميائية ، ولذلك وضع الفلاسفة منطقاً ومنهج بحث خاصاً لكل ميدان[1] .

---

(١) هذه الحقائق أثبتها في أبحاث خاصة أخرى فبينت مثلاً تبعية النظرية التشريعية للنظرية الأخلاقية في كتابي معالم بناء التربية الاسلامية .دار عالم الكتب/ ١٤١١هـ .

أما نظرية التربية فتعتمد أساساً على نظرية المعرفة في كل ميدان من ميادين التربية ، وتأخذ وتستمد مادتها العلمية من ميدانها الخاص ، وتضيف إلى هذا وذاك شكل التربية وأسلوبها ، ولهذا كله فبالرغم من استقلال كل نوع من أنواع التربية ، من حيث النظرية التي يتبعها والمادة العلمية التي يحويها والشكل الذي يتطبع به فإنه يرتبط بفلسفة الإسلام ككل عن طريق ارتباط نظريتها بالنظريات الأخرى . فالتربية الأخلاقية ـ مثلاً ـ تربية مستقلة في إطار هذه الفلسفة وبالنسبة إلى أنواع التربية الأخرى مثل التربية الإيمانية والروحية التي تتبع مباشرة لنظرية الألوهية ، وما إلى ذلك ، لكنها مع ذلك لها ارتباط بأنواع التربية الأخرى عن طريق ارتباط نظرياتها بالنظريات الأخرى ، ثم عن طريق ارتباطها بفلسفة التربية التي تهدف إلى تكوين الشخصية الإنسانية الإسلامية التي تتمثل فيها تلك الفلسفة من نواحيها المختلفة .

وارتباط تلك النظريات بعضها ببعض يوحي من ناحية أخرى بوجود نصوص خاصة لكل نظرية ووجود دلالات وإيحاءات خاصة بالنظريات الأخرى . وهذا يقتضي تقليب النظر في كل نص من الجوانب المتعددة وهذا بدوره يقتضي البحث عن المغازي التربوية في كل النصوص عند البحث عن التربية ، إذ قد نجد عندئذ نصاً واحداً يحمل عدة مغاز ، وإن كان قد ورد في قضية واحدة ، وهذا ما وجدته فعلاً وهو سر عجيب تحمله النصوص الإسلامية . فمثلاً فيما يتعلق بالمغازي التربوية . نجد ذلك في حروف المعجم التي بدأت بها أوائل بعض السور ، لأن تلك الحروف يمكن أن تعد من أدوات التنبيه أو أدوات إيقاظ العقل لما سيلقي عليه من المعلومات . ورجال التربية ينصحون باستخدام مثل هذه الوسائل دون تحديدها ، وخاصة إزاء الأفكار أو المعلومات التي تحمل أهمية خاصة ، ونجد بعض هذه المغازي التربوية في حركات الرسول وبعض أطواره أثناء خطبه وتعاليمه ومداعبته للأطفال ، وكذلك نجد نوعاً آخر من تلك المغازي في نزول السور والآيات منجمة ، ونوعاً ثالثاً في نزول بعض الآحكام والتعاليم قبل الأخرى ، فمثلاً نزول أحكام العقيدة مفتاح الحركة وقوة دافعة إلى السلوك بموجبها ، فلا بد من أن ترسخ في النفوس قبل

تكليفها بالواجبات والأعمال ، ولهذا اعتبرت العقيدة أصولاً وأحكام الشريعة فروعاً عند علماء المسلمين ، ولأهمية دور العقيدة في تشكيل السلوك ودرسته مفصلاً وعقدت له فصلاً خاصاً في كتابي جوانب التربية الاسلامية الأساسية .

وهناك أحكام تعبدية تحمل مغازي تربوية مهمة مثل أحكام الحج والصوم والصلاة والزكاة وأيمان والكفارات وما إلى ذلك ، وسوف نضرب لذلك كثيراً من الأمثلة العملية خلال دراستنا المقبلة لتوضيح ما نجمله هنا . وهذا ما يجب أن نفعله في كل نوع من أنواع التربية إذا ما أردنا معالجته في ضوء الفلسفة الإسلامية .

وبعد هذا كله إذا كانت فلسفة التربية تمثل جانباً من الدراسات الفلسفية عموماً ، فإن فلسفة كل نوع من أنواع التربية تعد بدورها جزءاً من تلك الفلسفة أيضاً . وباعتبار أن فلسفة التربية الأخلاقية نوع من أنواع هذه التربية فإنها تعد كذلك جزءاً من هذه الدراسات الفلسفية ، بل إن فلسفة التربية الأخلاقية من أهم أنواع فلسفة التربية الإسلامية ، لأن الفلسفة الأخلاقية تمثل جانباً هاماً من هذه الفلسفة ،وذلك من حيث الأصول والتبعية ولا يعني ذلك كل جوانب هذه التربية من الناحية العملية والميدانية .

وكنت جعلت عنوان هذه الرسالة فلسفة التربية الأخلاقية ، لأعالج الجانب النظري من هذه التربية لأنه أكثر دخولاً في ميدان الدراسات الفلسفية ، أما الجانب العملي منها فسوف أخصص له بحوثاً مستقلة إن شاء الله .

ومع ذلك فقد تعرضت من حين إلى آخر للجانب العملي أثناء البحث وذلك لأيضاح الجوانب النظرية بالأمثلة الواقعية العملية .

وأقصد بالجانب النظري تلك الموضوعات النظرية الأصولية التي تدرس في ميدان فلسفة التربية عادة ، مثل دراسة منهج البحث وتحديد مجاله وغايته وأسسه النظرية ومعاييره وطرقه ووسائله العامة وما إلى ذلك ، وأقصد بالجانب العملي تلك الموضوعات العملية ، مثل كيفية التربية بكل مبدأ من مبادىء الأخلاق الإيجابية

والسلبية على حدة ، ككيفية إزالة البخل من نفس المرء ، وكيف نجعله كريماً وكيف نجعل الجبان شجاعاً والغضوب حليماً وضعيف الإرادة قوي الإرادة وما إلى ذلك من المسائل الأخلاقية الإيجابية والسلبية معاً . غير أن الجانب العملي متوقف على الجانب النظري ، لأن هذا الأخير أساس للأول ، فإذا كانت الأسس غير سليمة فلا يمكن أن يكون ما بنى عليها سليماً ـ ومن ثم يرجع إخفاق كثير من المحاولات للتربية الأخلاقية إلى هذا السبب ، بل إن التربية الأخلاقية التي لا تقوم على أساس نظري علمي سليم قد تضر أكثر مما تنفع ، وإلى هذه الحقيقة يشير الفيلسوف سبنسر بقوله «لم يهمل ولاة الأمور شيئاً اهمالهم إنعام الفكر في تأديب أطفالهم وتعويدهم ما حسن من الخصال وطاب من الخلال . ولعلهم ظنوا الأمر هيناً والخطب سهلاً فحسبوا أنهم قادرون بلا فحص ولا بحث أن يودعوا في طبائع صبيانهم ما شاءوا من المناقب ، ولم يعلموا أن علم تهذيب النفوس علم صعب المأخذ وعر الملتمس ، وحق لمغفله أن يخيب في تأديب غلامه ـ ومن نكب عن سواء السبيل كان حرياً أن يضل ومن عسف المسلك الخشن بلا سراج لقي الويل»(1) ويقول أفلاطون : «وقد تنبع الجرائم الكبيرة والانحطاط الصرف من خلق رائع أتلفه التدريب غير الصالح»(2) .

والآن ، بعد هذه التحديدات كلها ، بعد تحديد المنطلق والمسيرة فعلينا الآن أن نسير في الطريق الذي رسمناه ونجول في الميدان الذي حددناه لأنفسنا للبحث فيه .

حددنا حتى الآن منهج دراستنا ، كما حددنا منطلق هذه الدراسة ونوعيتها وموقعها بين الدراسات الفلسفية والتربوية ، وما تتطلبه هذه الدراسة من نمط خاص وأسلوب معين ، وكان ذلك فيما سبق .

أما الآن فنحدد ماهية هذه الدراسة وذاتيتها وهدفها الأساسي ، ذلك أن هناك فرقاً بين نسبة الشيء إلى جنسه ونوعه وبين معرفة حقيقته وماهيته وغايته الأساسية .

---

(١) التربية . الفيلسوف . سبنسر ترجمة محمد السباعي ص ٩٠ .

(٢) جمهورية أفلاطون أفلاطون . ترجمة نظلة الحكيم ص ١٠٤ .

ولكل من العملين أهمية في مجال البحث وإن كانت أهميته الثانية تفوق الأولى ، ولهذا ستكون دراستنا هنا أكثر تفصيلاً مما سبق .

أولاً: مفهوم التربية ولغة اصطلاحاً...

وفي سبيل هذا التحديد نضطر أولاً إلى الوقوف على حقيقة التربية والأخلاق والصلة بينهما . ففيما يتعلق بالتربية يتطلب الأمر البحث عن مفهومها في الإصطلاح اللغوي وفي الإصطلاح العلمي .

أما عن اللغة فقد جاءت كلمة التربية بمعنى الزيادة والنشأة والتغذية والرعاية والمحافظة وهي من ربا الشيء ربوا ورباء أي زاد ونما[١] .

وجاءت كلمة التربية في معجم آخر بمعنى الزيادة والنشأة وتستعمل مجازاً بمعنى التهذيب ، وعلو المنزلة فيقال فلان في رباوة قومه أي في أشرافهم[٢] . وجاء أيضاً اشتقاق هذه الكلمة من رب وليست من ربا «رب ولده والصبي يربه أي أحسن القيام عليه ، ووليه حتى أدرك أي فارق الطفولة . ورباه تربية على تحويل التضعيف ورب القوم أي ساسهم»[٣] .

وأخيراً أضيف إلى المعاني السابقة في معجم آخر مجيء كلمة التربية بمعنى التغذية وعلو الشأن والارتفاع[٤] .

والنظرة الفاحصة إلى هذه الكلمة هي الزيادة والنمو والنشأة والتغذية والرعاية والمحافظة والسياسة وحسن القيام عليه والتهذيب وعلو المرتبة وارتفاع الشأن . إذن يقتضي مفهوم التربية في اللغة إذا استعملناه في ميدان تربية الطفل ـ تزويد الطفل بما

(١) لسان العرب . لابن منظور . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة . القاهرة . انظر فيه كلمة التربية .

(٢) أساس البلاغة . للزمخشري . دار الشعب بالقاهرة . انظر كلمة التربية فيه .

(٣) تاج العروس . السيد محمد مرتضى الزبيدي . دار ليبيا للنشر والتوزيع . بنغازي . انظر كلمة التربية فيه .

(٤) القاموس المحيط . مجد الدين محمد الفيروز آبادي . مطبعة مصطفى البابي الحلبي . القاهرة . انظر كلمة التربية فيه .

يحتاج إليه من الثقافة الإنسانية الضرورية ، وتغذيته بما يحتاج إليه من الأغذية الضرورية ، وحفظه من كل سوء ورعايته خلال مرحلة نموه وتهذيب أخلاقه ونفسه لينشأ نشأة سليمة ولينمو نمواً متكاملاً من الناحية الجسمية والروحية والعقلية والنفسية والاجتماعية والأخلاقية حتى يعلو شأنه وترتفع منزلته ويكون شريفاً في قومه .

وأما عن مفهوم التربية في الإصطلاح العلمي ـ وهو الأهم ـ أي فيما يستعمل في ميدان الدراسات التربوية فقد اختلف الفلاسفة والمربون في تحديده وذلك وفقاً لاختلاف وجهات نظرهم في النظريات الفلسفية التي تتبعها النظريات التربوية ، هذا هو أساس الاختلاف النظري ، وقد بينا أسباب نشأة هذا الخلاف في التمهيد ، أما اختلافهم من الناحية العلمية فيرجع ذلك أساساً إلى تركيز بعض المربين عند تحديد التربية على جانب منها أكثر من الجوانب الأخرى ، وعلى ذلك يمكن إجمال وجهات النظر تلك وتصنيفها إزاء تحديد أو تعريف التربية من الناحية العملية في مجموعات آتية :

الأولى : تركز عند تحديد طبيعة عملية التربية على أنها طرق ووسائل لتنشئة الطفل وتكوينه وتكميله على النحو المراد . وذلك إما بطريقة التدريس والتنشئة على الأسس العلمية كما يراها أفلاطون[١] .

أو عن طريق الاعتياد على المبادئ المعنية كما يراها أرسطو[٢] وجان جاك روسو[٣] وابن سينا الذي قال : «التربية عادة وأعني بالعادة فعل الشيء الواحد مراراً كثيراً زماناً طويلاً في أوقات متقاربة»[٤] .

---

(١) جمهورية أفلاطون ترجمة نظلة الحكيم وغيره ص ١٢١ ـ ١٢٧ .

(٢) علم الأخلاق لأرسطو . ترجمة أحمد لطفي السيد ج ١/ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٣) اميل . جان جاك روسو . ترجمة الدكتور نظمي لوقا ص ٢٧ .

(٤) علم الأخلاق لابن سينا . طبع ضمن مجموعة الرسائل . مطبعة كردستان ص ١٩٧ .

الثانية : تركز على الهدف الخارجي للتربية أكثر مما تركز على طبيعة العملية التربوية كطريقة وأسلوب التربية .

وهنا نجد بعضهم يجعل هدف التربية خارج الطفل المتربي ، من هؤلاء مثلاً دور كايم الذي يقول : «التربية تكوين الطفل تكويناً اجتماعياً»[١] . ومنهم أيضاً جون ديوي[٢] .

وهناك بعض المربين يركزون التربية على ذات الطفل المتربي وعلى هذا الأساس يعرف التربية أحد أنصار هذا الاتجاه وهو هاربرت حيث يقول : «التربية تكوين الفرد من أجل ذاته بأن نوقظ فيه ضروب ميوله الكثيرة»[٣] .

وهناك تعريفات شبيهة بذلك لستيوارت مل[٤] وهنري جولي[٥] .

أما المجموعة الثالثة والأخيرة فتركز على طبيعة العملية التربوية كعلم أو كفن أو كبيدا غوجيا[٦] . ثم أختلفوا في معنى الفن[٧] والبيداغوجيا[٨] ومعنى عملية

---

(١) التربية العامة ص ٢٣ رونيه أوبير . ترجمة الدكتور عبد الله عبد الدائم .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤ . (٣) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٤) المرجع السابق ٢٣ : (٥) المرجع السابق ص ٢٣ :

(٦) المرجع السابق ص ٢٢ ـ ٣٠ .

(٧) فمثلاً يقول تولستوي عن الفن «بأنه ضرب من النشاط البشري الذي يتمثل في قيام الإنسان بتوصيل عواطفه إلى الآخر بطريق شعورية إرادية مستعملاً في ذلك بعض العلامات الخارجية» (مشكلة الفن ص ١٧ . دكتور زكريا إبراهيم) .

بينما يعرفه عالم الجمال الفرنسي شارل لالو بأنه عبارة «عملية التحوير أو التغيير التي يدخلها الإنسان على مواد الطبيعة» (مشكلة الفن ص ٢٢)

(٨) يقول دوركايم مثلاً عن البيدا غوجيا بأنه «نوع من التفكير الذي يعتمد كثيراً على تنظيم الحقائق ودعمها بالوثائق ما أمكن بحيث يتهيأ له أن يكون في خدمة من يمارسون التعليم» (التربية الأخلاقية ص ٤ دور كايم) وعلى هذا الأساس يضع البيدا غوجيا بين العلم والفن بينما يرى جون ديوى أن البيدا غوجيا علم التربية ويعبر عنه أحياناً بأنه النظرية العلمية للتربية (التربية العامة ص ٣٠) .

التربية[1] ، ولا أريد أن أدخل في كثرة من التفصيلات هنا ، حيث إنني درستها في بحث مستقل . ولكن أريد هنا أن أذكر مجمل مفهوم التربية الذي خرجت به نتيجة بحثي الطويل ، وهو أن التربية تنفيذ عملي لفلسفة التربية بتنشئة الطفل وتكوينه جسمياً وعقلياً ونفسياً وروحياً وأخلاقياً ، وذلك باستخدام جميع الطرق والوسائل والأساليب والحقائق العلمية التي تساعد على تنشئة الطفل وتكوينه على ذلك النحو في كل مرحلة من مراحل نموه حتى نهاية نضجه وكماله الإنساني في ضوء الفلسفة التربوية التي تتبعها هذه التربية أو تلك لتكوين الإنسان وتشكيله على النحو الذي ترى تشكيله عليه في المجتمع الذي تريد بناءه عن طريق تشكيل الأفراد وتكوينهم .

أما تعريف التربية عندي عموماً باختصار هو علم اعداد الانسان على حسب ما يريد دينه ومجتمعه وأمته .

(١) ومعنى علمية التربية هو أنه كما أن العلم يعمل لتحديد القوانين الخاصة بميدان من الميادين فإن علم التربية هو الآخر يسعى بدوره لتحديد القوانين التي تقوم عليها عملية التربية والتي تقنن أعمال المربي في ضوئها (التربية العامة ص ٢٢ أوبير) .

ثانياً : مفهوم التربية في نظر الإسلام

من دراستي الخاصة لفلسفة الإسلام ونظريته في التربية وصلت إلى أن التربية الإسلامية هي :علم اعداد الانسان المسلم للحياة الدنيا والآخرة اعداداً متكاملاً من جميع نواحيه المختلفة ، من الناحية الصحية والعقلية والعلمية والاعتقادية والروحية والأخلاقية والاجتماعية والإرادية والإبداعية والاقتصادية والسياسية في ضوء المبادئ التي جاء بها الإسلام وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي تتفق معها .

فمن الناحية الصحية يهدف الإسلام من تربيته تحقيق الصحة الجسمية والصحة النفسية والعقلية والروحية والوجدانية معاً ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بأي شيء دون توفر الصحة . فكيف يستطيع أن يقوم بالمسؤوليات والواجبات التي ألقاها عليه الإسلام ، إذا لم تكتمل هذه الصحة ، وكيف يستطيع السير في الطريق المستقيم بانتظام مستمر ، كما طالبه بذلك الإسلام إذا لم تكن لديه صحة قادرة على السير على ذلك النحو . ولذلك نجد الإسلام قد وضع مبادئ كفيلة بتحقيق الصحة من حيث وقاية الإنسان أولاً من الأمراض الجسمية والنفسية والعقلية وما إلى ذلك ، ومن حيث نمو واكتمال هذه الجوانب من الصحة مترابطة بعضها ببعض .

ومن ناحية التربية العقلية والعلمية وضع الإسلام مثلاً منهجياً تربوياً يخطط فيه طرق تنمية القدرات العقلية ومداركها ، بحسب نمو الطفل مراعياً في ذلك طبيعة الفروق الفردية في أساليبه التربوية . كما يخطط فيه طرق الوصول إلى الحقائق في الميادين المختلفة وأساليب التفكير فيها ، لأن العقل نور كاشف للإنسان يعرف به ما هو حق وما هو باطل وما هو حسن وما هو جميل ، كما يستطيع به التمييز بين الخير

والشر ، وبدون هذا العقل لا تكون حياة إنسانية حكيمة بأي حال من الأحوال .

ومن ناحية التربية الاعتقادية والروحية فقد اهتم بها الإسلام ، من حيث تطهيرها مما يشوه جوهرها من الآثار والرذائل الأخلاقية ، ومن حيث تنميتها ليستطيع الاتصال بالخالق ويستمد منه العون والإشراق والطمأنينة ، لأن الحياة الروحية هي التي تضفي على حياة الإنسان الإشراق والبهجة في الدنيا والأمل السعيد في الآخرة ، ومن ثم تجعل الإنسان يعيش في حياة واسعة النطاق أوسع بكثير من نطاق هذه الحياة المادية ، ثم إن الحياة الروحية طاقة دافعة للالتزام بالواجبات ، وقوة للقيام بالمسؤوليات وقوة لأداء الأعمال الفاضلة فوق الواجب وفوق المسؤولية .

أما من ناحية التربية الأخلاقية والاجتماعية فلا داعي لأن أتكلم عنها الآن ، لأنها موضوع بحثنا ودراستنا وسيتضح أمرها جلياً ومن جميع النواحي من خلال دراستي لها في هذا البحث . وكل جانب من تلك الجوانب في التربية الإسلامية يحتاج إلى بحث طويل ومفصل كهذا البحث الذي أقوم به الآن في صدد التربية الأخلاقية . ومن حيث الجوانب الأخرى فقد قمت بها في بحوث أخرى .

وما قلته هنا أقوله عن علم وعن ثقة بهذا العلم ، لأنني قمت ببحث مستقل عن التربية الإسلامية تناولت فيه لتلك الجوانب بما يتناسب مع موضوع البحث وأثبت هناك بالنصوص الإسلامية من الآيات والأحاديث كل تلك الحقائق ، وشرحت فيه كل جانب في فصل مستقل فمن اراد التفصيل فليرجع اليه[1] .

وكنت قد قمت بذلك البحث لأصل أولاً إلى فلسفة التربية الإسلامية ، ولأثبت ثانياً هذه الفلسفة لهؤلاء الذين لا يرون وجود هذه الفلسفة التي يمكن أن تضاهي تلك الفلسفات التربوية التي يتباهون بها في ميدان الدراسات الفلسفية ، وأقول عن اعتقاد إنني لم أجد فلسفة تربوية قديمة أو حديثة جاء بها الفلاسفة والتربويون أحسن أو أفضل مما جاء به الإسلام . كما انني اقوم الآن بمشروع موسوعة التربية الاسلامية التي تتكون من ٢٢ جزءاًوأخرجت منة جزئين .

---

(١) جوانب التربية الاسلامية الأساسية . مؤسسة الريحاني ، بيروت١٤٠٦هـ .

ولكن مع ذلك أريد أن أذكر أهم خصائص التربية الإسلامية لأضع معالمها البارزة حتى لا يقال إن ما نقوله مجرد دعوى دون أي دليل ، ويمكن إجمال تلك الخصائص في النقاط الآتية :

أولاً : اقتران التربية العقلية بالتربية الاعتقادية ، هذه الميزة نجدها في طريقة توجيه الإسلام للكشف عن الحقائق فهو في توجيهه هذا يوجه أولاً لدراسة الحقائق من حيث هي حقائق ثم يوجه مرة أخرى لدراسة هذه الحقائق من حيث دلالتها على الصنعة والإبداع والابتكار وما يدل هذا وذاك على وجود خالق صانع مبدع حكيم ، ولهذا نجد الآيات التي توجه الإنسان إلى تلك الحقائق العجيبة في الكون وفي الإنسان نفسه تلفت النظر في بداية التوجيه أو في نهايته إلى أن في ذلك لآية تدل على صنعة صانع حكيم .

فمن قبيل التوجيه الأول قوله تعالى : «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون»[١] ومعلوم أن الأرض كانت هامدة جرداء من الحياة كما يقول الجيولوجيون ـ فكيف ظهرت فيها كل هذه الألوان والأشكال من النبات والحيوانات والإنسان ، فأصبحت جنة بالنسبة لما كانت عليه وبالنسبة إلى بعض الكواكب الأخرى الهامدة التي لا يوجد فيها ما في الأرض من مظاهر الحياة . أليس لهذه الحقيقة دلالة على وجود خالق؟ . ومن قبيل هذا الأسلوب أيضاً إشارة الله إلى حقيقة حية تتحرك أمام أعين الناس كحركة عقارب الساعة ، وهي حركة دوران القمر حول الشمس ودوران الشمس حول نفسها فقال تعالى «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون»[٢]

---

(١) سورة يس ٣٣ ـ ٣٦ .　　(٢) سورة يس ٣٧ ـ ٤٠ .

ومن قبيل التوجيه الثاني قوله تعالى «وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء»[1] فإن الله بعد أن يشير إلى حقيقة علمية حية وهي دوران الأرض وما فيها من جبال يلفت النظر بعد ذلك إلى دلالة ذلك على وجود قدرة الله الفائقة التي صنعت هذا الصنع العجيب ، إذ كيف تدور الأرض بهذه العظمة دوراناً لا نحسّ به .

ولا نرى وجود هذا الأسلوب التربوي في نظام التربية والتعليم الآن حيث إنهم يكتفون بالكشف عن الحقائق في طبيعة الإنسان وفي الأرض والسماء ، دون أن يتعدوا إلى الخطوة النهائية وهي دلالتهما على وجود الخالق . فلو أنهم فعلوا ذلك لرأى المتعلمون آيات الله في كل مكان ولأزداد إيمانهم كلما تقدموا في العلم ، ولعدم وجود ، ذلك الأسلوب التربوي يحصل عكس المطلوب ، حيث إن المتعلمين كلما تقدموا في العلم قل إيمانهم وبردت حرارة عاطفتهم الدينية ، ومن ثم يضيع إيمانهم بدلاً من أن يقوى ويزداد .او يصبح ايماناً جامداً بليداً لا يحرك ساكناً .

ثانياً : إن موضوع التربية الإسلامية هو الإنسان بكل ما تتضمن كلمة الإنسان من معان واستعدادات في نظر الإسلام ، ففي نظر الإسلام يوجد في طبيعة الإنسان كل الاستعدادات لحياة خلق من أجلها ، وأن على التربية أن تأخذ بعين الإعتبار تلك الاستعدادات من بداية مراحل التربية إلى نهايتها وأن تغذي كل استعداد وتنميه وتراعيه حتى يصل كل استعداد إلى كماله ويؤتي ثماره ففي طبيعة الإنسان ـ كما سنبين بالدليل عند البحث عن الطبيعة الإنسانية ـ يوجد استعداد روحي وأخلاقي وعقلي وعاطفي وحسي ومادي للحياة الروحية والأخلاقية والعقلية والعاطفية والحسية المادية ، ولكن لا تنمو هذه الاستعدادات وتصل إلى كمالها وتؤتي ثمارها في الحياة إلا إذا روعي كل استعداد بالعناية والرعاية والتغذية بغذائه الخاص ، كما يوجد كل الاستعدادات في الشجرة المثمرة وخصائصها في طبيعة بذرتها ، لكن لا يمكن أن تنمو الشجرة وتكتمل وتصل إلى الكمال الموجود بالقوة في البذرة إلا إذا

(١) سورة النمل ٨٨ .

روعيت البذرة عند الزرع في البيئة الأرضية التي تنبت فيها ، ثم حفظت من العوامل الخارجية المفسدة ، ثم منحت ما تحتاج إليه من الغذاء والسقاية في كل مرحلة من مراحل نموها بقدر معين إلى أن تستوي على سوقها وتؤتي ثمارها ، ولهذا نجد الإسلام يشبه التربية بالزرع ونجد كيف أن الرسول عمل ثلاثة وعشرين عاماً ، حتى استطاع أن يربي جيلاً من أصحابه المدة التي لا تقل عن أطول مدة تستغرقها أية شجرة ما بين زرعها وإيتاء ثمارها ، فقال تعالى : «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجدا يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع»[1] .

وسنضرب كثيراً من الأمثلة عند بيان التربية الأخلاقية وتشبيه الإسلام التربية بالزرع ، أما ما يهمنا هنا فهو أن نقول إن هذه الخاصية للتربية الإسلامية تتلخص في أن التربية الإسلامية تربية إنسانية متكاملة ليستطيع الإنسان أن يحيا حياة إنسانية متكاملة كما قدرها له خالقه منذ بداية خلقه .

ولعدم وجود هذه التربية المتكاملة في التربية الحديثة فإنها تكون إنساناً ناقصاً إما من الناحية الأخلاقية وإما من الناحية الروحية وإما من الناحية العاطفية الإنسانية . ونجد هذا النقص في جانب واحد أو عدة جوانب في كل تربية من أنواع التربية الحديثة وقد ينمو نمواً علمياً متفوقاً ولكنه يظل وحشياً من الناحية الانسانية .

ثالثاً : إن الهدف البعيد من التربية في نظر الإسلام غاية أخلاقية ، وذلك يظهر في تحديد شخصية الإنسان المتربي ، بأن يكون إنساناً خيراً يستخدم علمه وحياته في الخير ويتعلم العلم من أجل استخدامه في الخير ويجب أن يضع ذلك المربي والمتربية في اعتبارهما في مبدأ الأمر ، حيث يقول الرسول هنا لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء أو لتباروا به السفهاء ولا لتحدثوا به في المجالس فمن فعل ذلك

---

(١) سورة الفتح ٢٩ .

فالنار النار[١] . وورد في حديث طويل أن رجلاً تعلم العلم وعلم وقرأ القرآن ولم يكن تعلمه وتعليمه للخير وإنما للرياء والتكبر . فيسأله الله عن علمه فيقول له تعلمت العلم وعلّمته ، وقرأت فيك القرآن فيقول الله كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال هو قارئ فقد قيل . ثم يؤمر به فيسحب على وجهه حتى يلقى في النار[٢] ، ولهذا أيضاً قال تعالى «كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون»[٣] أي ليكن تعليمكم ودراستكم لله رب العالمين أولاً ، لا لنيل الأغراض الدنيوية مثل نيل الوظائف والافتخار والتباهي بالعلم للناس أو لكسب دراهم معدودة . فإذا سقطت غاية التعليم إلى هذا المستوى الرخيص يكثر فيه الفساد . كما نراه في غش المعلمين والمتعلمين في ميدان التربية والتعليم واستخدام العلوم في الشرور .

رابعاً : إن على التربية تنشئة المتعلمين على الالتزام بالعلم أو بما يتعلمون ، ذلك أنه لا فائدة من التقدم العلمي في ميدان الكشف عن الحقائق إذا لم نلتزم بما نتعلم في الحياة العلمية ، كذا ما الفائدة من أن يصبح الإنسان طبيباً مثلاً ولا يراعي قوانين الصحة في حياته العملية ، وما الفائدة من أن نتعلم المبادئ الأخلاقية ثم لا نلتزم بها في حياتنا ، وما الفائدة من أن نتعلم الدين ولا نتمثل به في الحياة ، ولعدم التزام كثير من العلماء بأخلاقية الالتزام بالعلم يستخدمون علومهم في الأغراض غير الأخلاقية ، ويتخذون العلم وسيلة لارتكاب الجرائم ، ويا ليتهم لم يتعلموا قط ، لأن الجاهل المجرم أقل ضرراً من العالم المجرم .

ولهذا إذا لم نعلم المتعلمين ونربيهم على أساس الالتزام بالعلم والأخلاق معاً فلا ينبغي أن نعلمهم ولا ينبغي أن يتعلموا العلم بدون الارتباط به أخلاقياً ، ولهذا أمر

---

(١) المستدرك على الصحيحين في الحديث ، كتاب العلم . الحاكم النيسابروي . مكتبة النصر الحديثة . الرياض ج١٠ ص ٨٦ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الإمارة . . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . عيسى البابي الحلبي . القاهرة ج١ ص ١٥١٤ ،رقم الحديث ١٩٠٥ .

(٣) سورة آل عمران ٧٩ .

الإسلام بالالتزام بالعلم حيث قال الرسول «تعلموا العلم فإذا علمتم فاعملوا»[1] وقال أيضاً «تعلموا العلم وانتفعوا به ولا تتعلموا لتتجملوا به»[2] وبين الرسول أن الإنسان سوف يسأل عن علمه يوم القيامة فيما عمل به فقال «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه ما عمل له وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه»[3] .

وبين الله تعالى أنه من الخطأ الشنيع أن يعلم الإنسان ويقول بعلمه ثم لا يعمل بقوله فقال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون»[4] . ولهذا أيضاً بين الرسول كم يكون عذاب هؤلاء الذين لا يلتزمون بعلومهم شديداً يوم القيامة عندما قال «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر . فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه»[5] .

وإذا نظرنا الآن إلى الشرور التي تأتي إلى المجتمع الإنساني من جراء عدم الالتزام بالعلم ، نجدها أكثر من الشرور التي تأتي بسبب الجهل . وكل ذلك لنقص التربية ولعدم تربية المتعلمين على الالتزام الأخلاقي بالعلم أو بما يتعلمون .

خامساً : اقتران التربية الأخلاقية بالتعليم وتعليم الحكمة .

ذلك أن التربية الأخلاقية تطهر النفس من الرذائل وتنمي فيها روح الخير ، والتعليم يزود العقل بالمعلومات وتعليم الحكمة بصفة عامة وحكمة ما يتعلم من

---

(١) سنن الدارمي كتاب العلم . أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي . شركة الطباعة الفنية المتحدة . القاهرة جـ ١ ص ٨٦ .

(٢) المرجع السابق كتاب العلم جـ ١ ص ٨٧ .

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ١١٠ .

(٤) سورة الصف ٢ .

(٥) صحيح مسلم كتاب الزهد . تحقيق عبد الباقي جـ ٤ ص ٢٢٩١ .

المبادئ تجعل المبادئ تتفاعل في العقل . ثم تؤثر في الوجدان ومن ثم يتأثر بما يتعلم نظرياً وعملياً فيتميز من غير المتعلم في مظهره ومخبره وجيمع تصرفاته . ولهذا أرسل الله الرسول مربياً ومعلماً المبادئ والحكم معاً لا مبلغاً فقط .

ولهذا أيضاً قال تعالى : « كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون»[1] إذن يجب أن تقترن التربية الأخلاقية بالتربية العقلية وتعليم الحكمة .

وإذا نظرنا الآن في ضوء هذا إلى واقع نظام التربية والتعليم لا نجد فيه إلا التعليم المجرد من تربية القلب والتعليم التربوي الذي يكون بإضافة تعليم الحكمة وتشمل حكمة القيم الاسلامية وحكمة المخلوقات ثم حكمة التصرفات العملية .

ونتيجة لهذا النقص في نظم التربية والتعليم اليوم امتلأت العقول بالمعلومات المجردة من الحكمة وتربية القلب وفسدت القلوب لإهمالها وعدم تزكيتها ، ومن ثم فسدت ضمائر المتعلمين في معاملتهم لغيرهم وأصبحوا كغير المتعلمين في تصرفاتهم ، لأنهم لم يتأثروا بمعلوماتهم في حياتهم العملية ، ولهذا فالتعليم لم يصلح شيئاً من الفساد الأخلاقي والسلوكي . ولم يقلل الشرور في المجتمع إطلاقاً .

ولو طبقت أساليب التربية الإسلامية لتخرج كل متعلم وقد أصبح عالماً إنساناً خيراً مؤمناً قوي الايمان يندفع بمقتضى ايمانه في الحياة .

سادساً : التربية الإسلامية ربانية المصدر والغاية .

سابعاً : شمول التربية الإسلامية جميع نواحي الإنسان .

ثامناً : تربية واقعية يمكن تطبيقها .

تاسعاً : مراعاة الفطرة الإنسانية ومحاولة توجيه الفطرة وتنميتها إلى الغاية التي خلق من أجلها الإنسان .

---

(١) سورة البقرة ١٥١ .

عاشراً : عالمية التربية الإسلامية بحيث إنها إمكان تطبيقها على كل إنسان مسلم في كل بقعة .

الحادي عشر : إنها تربية متوازنة ومعتدلة .

الثاني عشر : تمتاز بالقوة المعانية أو اهتمامها بالقوة المعنوية .

الثالث عشر : إنها تربية مستمرة تمتد مدى الحياة .

والآن بعد عرض معاني التربية في الإصطلاح اللغوي والعلمي وفي نظر الإسلام نستطيع أن نقرر بأن مفهوم التربية في نظر الإسلام يتضمن معظم المعاني اللغوية لمفهوم التربية ، وبالقياس إلى ما لدى التربويين من مفاهيم خاصة بعضها تتركز على التربية على أنها طرق ووسائل وبعضها الآخر على الهدف وبعضها الثالث على طبيعة عملية التربية كعلم خاص بتكوين الإنسان نجد أن مفهوم التربية في نظر الإسلام أعم من أن يقتصر على أنها مجرد وسائل وأساليب وأعم أيضاً من أن يتركز على الهدف الخارجي ، لأن تحديد الهدف يقع أساساً على فلسفة التربية .

والتربية أخيراً ليس من العلوم الكونية أوالرياضية يقتصر على تقرير مجموعة من القوانين والقواعد العلمية الخاصة بميدان معين من ميادين العلم . وإنما هي من العلوم الاجتماعية الاسلامية ، ليمثل الفرد المسلم شخصية الإسلام في ذاته وفي سلوكه في مظهره ومخبره . في كل الظروف والأحوال .

وغياب هذه التربية بتلك الخصائص والمواصفات هو منبع المشكلات الأساسية في العالم الإسلامي ، وبخاصة غياب التربية الأخلاقية والتربية الابداعية والتربية الاقتصادية الاسلامية ، وقد بنيت ذلك بالتفصيل في كتاب خاص [١] .

---

(١) منابع مشكلات الأمة الإسلامية ، دار عالم الكتب ـ الرياض ١٤١١هـ .

ثالثاً : تحديد مفهوم الأخلاق لغة واصطلاحاً

بقي الآن تحديد مفهوم الأخلاق لنستطيع تحديد مفهوم التربية الأخلاقية ، ذلك أن التربية الأخلاقية تتأثر بمفهوم الأخلاق من عدة نواح :

الأولى : من حيث تحديد مجالات التربية الأخلاقية وميادين التدريب بحسب الميادين التي تشملها الأخلاق .

الثانية : تتأثر التربية الأخلاقية بحسب صلة الأخلاق بالطبيعة الإنسانية ودور هذه التربية في تعديل هذه الطبيعة من حيث تنمية الاستعداد الأخلاقي وترقيتها إلى الكمال .

الثالثة : مدى ما تحمل الأخلاق نفسها من عناصر تربوية وهذا يقتضي البحث عن صلة الأخلاق بالتربية عموماً .

هذا وذاك كله يقتضي منا أن نبحث عن مفهوم الأخلاق في ثلاث نواح في اللغة وفي الفلسفة وفي الإسلام .

أما في اللغة فقد جاءت كلمة الخلق بمعنى السجية والطبع والمروءة والدين والخلقة بمعنى الفطرة[1] ، وأضيف في معجم آخر إلى ما سبق أن الخلق الطبيعة وجمعها أخلاق وحقيقته أنه وصف لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة[2] .

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي . انظر كلمة الخلق فيه .

(٢) لسان العرب لابن منظور . انظر كلمة الخلق فيه .

من هذا العرض اللغوي لمفهوم الأخلاق يمكننا استخلاص ثلاثة معان بارزة :

الأول : الخلق يدل على الصفات الطبيعية في خلقة الإنسان الفطرية على هيئة مستقيمة متناسقة .

الثاني : تدل الأخلاق أيضاً على الصفات التي اكتسبت وأصبحت عادة في السلوك كعادة التدين . ومن ثم تصبح وكأنها خلقت مع طبيعته أو تصبح طبيعته الثانية .

الثالث والأخير : أن للأخلاق جانبين : جانباً نفسياً باطنياً وجانباً سلوكياً ظاهرياً .

أما تحديد مدلول الأخلاق في ميدان الفلسفة فإنه تابع في مقوماته للمدارس الفلسفية ، إذ إن كل مدرسة فلسفية تحاول أن تعرف الأخلاق وتحدد معناها وخصائصها في ضوء فلسفتها الخاصة . ونحن نعلم أن هناك فلسفات كثيرة عرفنا فيما سبق أصولها وأمهاتها . ولا أريد تفصيل القول في اتجاه كل فلسفة نحو الأخلاق وذكر مبادئها الأخلاقية ، ولكن أريد أن أعطي فكرة موجزة عن بعضها التي اشتهرت عنها فلسفة خلقية متكاملة ولها مذهب تربوي في الأخلاق ، لأن هذا البيان يفيدنا من ناحيتين : الأولى بيان الفرق بين نظرة الفلاسفة ونظرة الإسلام في ميادين شمول مفهوم الأخلاق ثم الفرق بناء على ذلك في مفهوم وميادين التربية الأخلاقية .

من هذه الفلسفات الفلسفة التي تشد ساحة الأخلاق من الأرض إلى السماء أو من عالم المادة إلى عالم الأرواح ، وهي الفلسفة الروحية التي أعطيت عنها فكرة موجزة في التمهيد .

ووفقاً لنظرتها الروحية إلى الحقائق الكونية ومنشئها على أنها روحية في الأصل ترى أن الأخلاق أيضاً بدورها نظام روحي للمملكة الروحية أو الألهية كما يسميها الفيلسوف الألماني «ليبنتز» ويسميها أحياناً بالجمهورية العامة للأرواح . وهذه

المملكة خاصة بالأرواح الإنسانية والملائكية ، ومليك هذه المملكة هو الله الذي هو أعظم روح فيها ، بل إن هذه الأرواح جزء منها ، ولا توجد في هذه المملكة خطيئة بدون عقاب ، كما لا توجد فضيلة دون ثواب . وإن الله وضع القوانين الأخلاقية للذوات الروحية ووضع القوانين الطبيعية للذوات العادية التي لا تصل إلى مرتبة الذوات الإنسانية المدركة والشاعرة بوجود الخالق[1] .

والغاية الأولى للعالم الأخلاقي أو لمدينة الله هو تحقيق أكبر قدر ممكن من السعادة لأهل هذه المدينة ، وأن تخلد هذه الأرواح في هذه السعادة بعد حياتها في هذه الدنيا .

لكن لا يمكن أن تصل الروح إلى تلك الدرجة إلا إذا التزم الإنسان بالنظام الأخلاقي ، ولهذا كان اهتمام الاتجاه الروحي بالأخلاق اهتماماً كبيراً ونلمس هذه الحقيقة في الاتجاه الروحي الصوفي بشكل ملموس . حتى إن بعضهم عرف التصوف تعريفاً أخلاقياً فقال «إنه الدخول في كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى»[2]

وقال التستري «من لم يدخل فيما بينه وبين الله على مكارم الأخلاق لم يتهن بعيشه في دنياه وآخرته»[3] ، ولهذا حاربوا الحياة المادية والاهتمام بها ، لأنها تعرقل عروج الروح وترقيتها إلى العالم الروحاني الثابت ، ولهذا يقول الجنيد عندما سئل عن التصوف : «التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بالعلوم الحقيقية واستعمال ما هو أولي على الأبدية والنصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في

---

(١) محيي الدين بن عربي وليبنتز . دكتور محمود قاسم ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .
(٢) الرسالة القشيرية ، الامام القشيري ص ٢١٧ .
(٣) في الفلسفة والأخلاق دكتور محمد كمال جعفر ص ٢٧٣ .

الشريعة»[1] وقال أبو علي الرّوذباري عندما سئل عن الصوفي «الصوفي من لبس الصوف على الصفاء وأطعم الهوى ذوق الجفاء وكانت الدنيا منه على القفا وسلك منهاج المصطفى»[2] .

ويقول ابن القيم «واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق»[3] وقال الكتاني «التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء»[4] لكن المتصوفين يعنون من قولهم بأن التصوف خلق في الحياة أنه خلق طريقه ، لأن الأخلاق الوسيلة الوحيدة للعروج إلى عالم الأرواح .

ولهذا نجدهم عندما يقسمون مراحل الرقي الروحي يجعلون المرحلتين الأوليين أخلاقيتين . والثالثة روحية ، ويسمون الأولى مرحلة التخلية أي تخلية النفس من جميع الرذائل الأخلاقية ، والثانية : التحلية أي تحلية النفس بجميع الفضائل ، والثالثة مرحلة الثبات والدوام في حضرة الله ويخصصون المرحلة الأولى للمبتدئين والثانية للمتوسلين والثالثة للواصلين[5] وهذه المرحلة الأخيرة لا تتم إلا عندما يصبح الإنسان مستعداً لأن تدخل روحه في جمهورية الأرواح أو المملكة الالهية كما سماها «ليبنتز» ، ولهذا يقول الهروي عن الدرجة الثالثة «التخلق بتصفية الخلق ثم الصعود عن تفرق التخلق ثم التخلق بمجاوزة التخلق»[6] ويسمون أيضاً تلك المراحل منازل السائرين إلى الله تعالى . كما سمى الهروي كتابه «منازل السائرين إلى الحق عز شأنه» .

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف . أبو بكر محمد الكلاباذي ص ٢٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٥ .
(٣) مدخل إلى التصوف الإسلامي . الأستاذ الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني دار الثقافة . القاهرة ص ١٤ .
(٤) المرجع السابق ص ١٤ .
(٥) في الفلسفة والأخلاق وما بعدها . للأستاذ الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر . دار الكتب الجامعية . الإسكندرية ص ٢٧٨ .
(٦) منازل السائرين . شيخ الإسلام أبو اسماعيل عبد الله محمد الأنصاري الهروي . دار الكتب العربية الكبرى . القاهرة ص ١٥ـ١٦ .

ولكن لما كانت المرحلتان الأوليان لا تتمان إلا بالتربية الأخلاقية فإنه يحق لنا أن نسميها مرحلة التربية الأخلاقية التي يتميز بها التصوف وهي غاية التصوف الأولى ، بل لعل البعض أكتفى بجعلها غاية التصوف لأنّ من اجتاز هاتين المرحلتين فكأنه قد وصل ، هنا يقول الأستاذ الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني «فإن هناك من الصوفية من يقف بتصوفه عند حد الغاية الأخلاقية وهي تهذيب النفس وضبط الإرادة والزام الإنسان بالأخلاق الفاضلة ، وهذا التصوف يتميز بأنه تربوي»[1] إذن يمكن أن نقول أن التصوف في صلته بالحياة المادية تربوي وفي صلته بالعالم الروحي أو الإلهي روحي أو نظام روحي .

وإلى جانب المذهب الروحي هناك مذهب آخر في الأخلاق هو المذهب العقلي

لقد تبنى هذا المذهب من الفلاسفة المسلمين المعتزلة وابن سينا والفارابي وابن مسكويه . وعلى ذلك حاولوا جميعاً إخضاع التفكير الأخلاقي لمنطق العقل وإن كان هناك بعض الفروق بينهم إلا أنها في درجة هذا الإخضاع لا في نوعه ، فالمعتزلة مثلاً يرجعون كل التقويم الأخلاقي إلى العقل وحده أولاً ، ويرون أن الحسن ما حسنه العقل والقبح ما قبحه العقل ، ولهذا بنوا التكاليف على العقل وقرروا : أن كل واجب حسن وإن كان لا يلزم من ذلك أن يكون كل حسن واجبا[2] .

ونجد ابن سينا كذلك يخضع الأخلاق بدوره للقوة العقلية ويرى أن سعادة النفس الحقيقية في حياتها العقلية واكتمالها من الناحية العقلية وسيطرة عقل الإنسان على نوازعه الأخرى سيطرة مستمرة أن تصبح في النفس هيئة استعلائية عقلية على شؤون البدن كله إلى أن تصبح الأخلاق ملكة في النفس عنها تصدر أفعالها الأخلاقية بسهولة من غير تقدم روية[3] وعلى هذا عرف الخلق «بأنه هيئة تحدث للنفس الناطقة من جهة انقيادها للبدن أو عدم انقيادها»[4] . ويعد من الخلق

---

(١) مدخل إلى التصوف الإسلامي ابو الوفا التفتازاني ص ١٠ .

(٢) شرح الأصول الخمسة القاضي عبد الجبار . مكتبة وهبه بالقاهرة ٣٩ ـ ٤٠ .

(٣) علم الأخلاق لابن سينا ص ٢٠ ـ ٢١ .   (٤) المرجع السابق ص ٢٤ .

الحسن إذا كانت تلك الأفعال صادرة عن تلك الهيئة من جهة انقياد البدن للنفس الناطقة[١] وهو يعرف الخلق في كتاب آخر «بأن الخلق ملكة تصدر بها عن النفس أفعال ما بسهولة من غير تقدم روية»[٢] .

وكذلك ابن مسكويه الذي عنى بالأخلاق كثيراً . فقد كان يلتمس الفضيلة في العقل[٣] وكذلك نجد هذا الاتجاه واضحاً لديه عندما نراه يقسم الفضائل تقسيماً كلياً وجزئياً ويخضع هذا التقسيم لمنطق العقل[٤] .

غير أنه يجب أن نعترف بأن المذهب العقلي في الفضيلة الذي تبناه الفلاسفة المسلمون قد تأثروا فيه بأرسطو الذي يرجع إليه أساساً فضل تأسيس هذا المذهب . وهذا حق واضح يقتنع به كل من درس تاريخ التفكير الأخلاقي ودرس بوجه خاص كتاب علم الأخلاق لأرسطو وكان يقول «فإنا نرى أنه لا فضيلة إلا مقترنة بالعقل»[٥] ثم وضع أكبر ميزان أخلاقي ـ في نظره ـ للتمييز بين السلوك الأخلاقي وأخضعه للعقل . وهو ميزان الوسطية بين الإفراط والتفريط في الأمور حيث يقول هنا مثلاً «وهنا فوق ذلك حد للأوساط نضعه بين الإفراط والتفريط وهذه الأوساط هي مطابقة للعقل المستقيم»[٦] كما أنه أخضع أيضاً الفضائل الأخلاقية لمنطق العقل في تقسيمها وتنظيمها معاً ، لكن العقلية التي يخضع لسلطانها الأخلاق ليست عقلية ميتافيزيقية قبلية كالتي نجدها عند كانط الذي يرى أن المبادئ الأخلاقية قبلية في العقل البشري حيث يقول «كانط» في هذا الصدد مثلاً : «يتبين مما سبق بوضوح أن مقر جميع التصورات الأخلاقية ومصدرها قائمان بطريقة قبلية خالصة

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤ .
(٢) أحوال النفس لابن سينا . مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ص ١٣٥ .
(٣) تهذيب الأخلاق . ابن مسكويه . مكتبة صبيح بالقاهرة .ص ٥٠
(٤) المرجع السابق ص ١٧ وما بعدها .
(٥) علم الأخلاق لأرسطو جـ ٢ / ١٥٢ .
(٦) المرجع السابق جـ ٢ / ٣٥٨ .

في العقل سواء في ذلك العقل الإنساني المشترك والعقل التأملي المجرد»[1] وإنما كان أرسطو يرى أن العقلية الأخلاقية واقعية مرتبطة بالعلة والتجربة والتدبير[2] . وهذا له دور سوف يتضح فيما بعد في ميدان التربية العقلية الأخلاقية لدى المتربين .

والفلاسفة المسلمون قد تبنوا العقلية الواقعية الأرسطية لا العقلية الميتافيزيقية القبلية ، وهذا دليل آخر على تأثرهم بأرسطو . وربما نجد هذا التأثير عند ابن مسكويه أكثر وضوحاً مما لدى غيره ، إذ إن من يقارن بين كتاب تهذيب الأخلاق وكتاب أرسطو علم الأخلاق ، يجد الاتفاق في خط التفكير حتى في تقسيمات هذا العلم وفي الأمور الأخرى نجد هذا التأثر بصورة واضحة لا تقبل المناقشة[3] .

بعد هذا هناك مذهب أخلاقي آخر متميز بالجمع بين الاتجاه الروحي والعقلي معاً ، ونجد هذا المذهب بصورة واضحة عند المفكر الإسلامي الإمام الغزالي .

إذ إننا نجده في هذه المعالجة يسير من ناحية على خط التفكير الأخلاقي العقلي الذي ذكرناه آنفاً مثل إخضاع قوى النفس المختلفة . كالقوة الشهوية والغضبية وقوة العدل للقوة العاقلة العالمة[4] ومثل بيان و حصر أصول الأخلاق في الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة»[5] ومثل اعتبار الوسط معياراً من المعايير الأخلاقية[6] ومثل تقسيمه الأخلاق إلى ما هو فطري أو طبيعي وآخر كسبي[7] .

ويسير من ناحية أخرى على خط تفكير المتصوفين في تحاليله النفسية والروحية

---

(١) تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق . أمانويل كانط . ترجمة الدكتور عبد القادر المكاوي . الدار القومية بالقاهر ، ص ٤٦ .

(٢) علم الأخلاق . أرسطو ، ج ١ ص ٢٢٧ .

(٣) تهذيب الأخلاق . ابن مسكويه ص ٣١ .

(٤) ميزان العمل ص ٥٠ ، والأحياء ج٣ ص ٥٣ .

(٥) أحياء علوم الدين ، ج٣ ص٥٤ .

(٦) المرجع السابق ، ج٣ ص ٥٤ :

(٧) المرجع السابق ، ص ج٣ ص ٦٠ .

الدقيقة لعجائب النفس وأعمال القلب وأمراضهما وعلاجهما[1] ثم دفاعه الشديد عن الطريقة الصوفية ، ومحاولته لإثبات أنها أفضل طريق إلى الحق[2] ومثل منهجه في تربية النفس وطريقة تطهير الباطن ، وتربية الطفل تربية أخلاقية[3] .

إلى جانب هذا وذاك فهو يحاول محاولة جادة للتوفيق بين هذين الاتجاهين من ناحية وبينهما وبين التفكير الإسلامي الأصيل معتمداً في ذلك على كثير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية .

ولهذا فهو حين يعرف الخلق يقول «الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً»[4] .

وهذا المذهب المزدوج جاء نتيجة اعتماد الغزالي في دراسته الأخلاقية على الدراسات الفلسفية والصوفية معاً ثم على التفكير الإسلامي ، ومن هنا كان مذهبه أكثر كمالاً بالنسبة إلى المذاهب الأخرى ، ويمكن اعتبار مذهبه امتداداً للنظرية التكاملية في التربية التي بيناها عند بيان فلسفات التربية .

وفي مقابل المذاهب الأخلاقية السابقة نجد اتجاهاً آخر متميزاً وهو الاتجاه المادي الطبيعي الواقعي ، ولهذا الاتجاه العام مذاهب فرعية .

منها مذهب الوضعية الاجتماعية في الأخلاق الذي يمثله دوركايم وليفي بريل بصورة متكاملة وإن كانت جذوره تمتد إلى أوجست كونت الذي وضع أصول الفلسفة الوضعية[5] .

---

(١) المرجع السابق الباب الأول من الجزء الثالث . (٢) المرجع السابق ج٣ ص ١٦ ـ ٢٦ .
(٣) المرجع السابق ج٣ ص ٤٨ وما بعدها . (٤) المرجع السابق ج٣ ص ٥٣ .
(٥) فلسفة أوجست كونت وما بعدها . ليفي بريل ترجمة د . محمود قاسم ص١٤ـ ١٦، ٣٨ .

فقد ذكر ليفي بريل ثلاث دلالات للأخلاق: الأولى تطلق كلمة الأخلاق على مجموعة من الأفكار والأحكام والعواطف والعادات التي تتصل بحقوق الناس وواجبات بعضهم تجاه بعض والتي يعترف بها ويقبلها الأفراد بصفة عامة في عصر معين أو في حضارة معينة. الثانية أنها تطلق أيضاً على العلم الذي يدرس هذه الظواهر، كما أن علم الطبيعة هو الذي يدرس الظواهر الطبيعية، وبذلك يتميز علم الأخلاق عن العلوم الطبيعية الأخرى. الثالثة والأخيرة تطلق الأخلاق أيضاً على تطبيقات هذا العلم، وعلى هذا يفهم من تقدم الأخلاق تقدم الحياة الاجتماعية مثل زيادة العدالة والتعاون والأمن والطمأنينه وما إلى ذلك[1].

وبناء على ذلك تكون الأخلاق علماً وضعياً واقعياً يدرس سلوك الإنسان مرتبطاً بزمانه ومكانه، وليس علماً معيارياً مثالياً يدرس السلوك من حيث ما ينبغي أن يكون عليه وفقاً للمثل العليا التي يؤمن بها المجتمع على أنها فوق مواضعاته كما يعتقد ويقرر مذهب المثالية العقلية[2].

ومن هذه المذاهب الحسية الواقعية أيضاً مذهب المنفعة[3] العامة وفروعها الأخرى مثل المنفعة الفردية[4]. ومنها كذلك المذهب الشيوعي في الأخلاق[5] والمذهب البراجماتي العملي[6].

ولا أريد تفصيل هذه المذاهب الأخلاقية حيث إنني درستها بالتفصيل في بحث آخر وهو الاتجاه الأخلاقي في الإسلام دراسة مقارنة وخاصة فيما أضفته للطبعة الثانية[7] لأنه لا يهمني هنا تفصيلات هذه المذاهب بقدر ما يهمني ميدان الأخلاق فيها لتحديد ميدان التربية فيها كما قلت.

---

(١) أ ـ الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية. ليفي بريل ص١٦٩. ب ـ الفلسفة الخلقية. دكتور توفيق الطويل. الدكتور محمود قاسم ص ٣٧٤.

(٢) الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية. ليفي بريل. ترجمة ص ١٦٩.

(٣) مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق. دكتور توفيق الطويل ص ٤١ وما بعدها.

(٤) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٣٢.

(٥) المذاهب الأخلاقية دكتور عادل العوا. مطبعة جامعة دمشق ج٢ ص ٧٠١.

(٦) البراجماتزم وما بعدها. يعقوب فام ص ٦٣.

(٧) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام دراسة مقارنة ص ٣٧ ـ ٤٠.

وأخيراً هناك مذاهب الطبيعة الإنسانية . وهو الذي بنى الأخلاق على الطبيعة الإنسانية ويدعي أن الأساسيات الأخلاقية مغروسة في الطبيعة الإنسانية ، ولهذا تهتم بدراسة ميول الإنسان ورغباته وغرائزه الطبيعية الإنسانية ومن ثم يسمى علم الأخلاق من زاوية هذا العلم علم السجايا الإنسانية[١] ومن أنصار هذا الإتجاه شفتسبوري . Shaf tesbury وهاتشيسون وآدم سميث[٢] وجون روسكين Jon ruskin[٣] وجان جاك روسو[٤] وإن كان هناك اختلاف بين هؤلاء في تحديد مفهوم الأخلاق ومدى وجود الاستعداد الأخلاقي في الطبيعة الإنسانية إلا أن الاختلاف في الدرجة لا في النوع ، وقد درست آراء هؤلاء جميعاً بالتفصيل في كتاب آخر[٥] ، ولهذا لا يهمني تفصيل ذلك هنا ، وإنما يهمني أن التربية الأخلاقية وفقاً لهذا الاتجاه تركز في الطبيعة الإنسانية ودروها في تنمية الاستعدادات الأخلاقية ، وقد فصلت هذه النقطة في الباب الثاني عندما درست الطبيعة الإنسانية ودور التربية في تعديل هذه الطبيعة .

على أي حال تلك هي المذاهب الأخلاقية الهامة ، حاولت تفصيلها تحت تلك الاتجاهات العامة لما رأيت من الصعوبة بمكان سرد جميع المفاهيم الفردية في الأخلاق .

ولننظر الآن إلى رأي الإسلام في الاخلاق باعتباره مذهباً مستقلا بين المذاهب الاخلاقيةً .

---

(١) المذاهب الأخلاقية ج٢ ص٣٨٥ وما بعدها .
(٢) علم أخلاقي (بالتركي) وزارة الأوقاف سابقاً بتركيا ص ٩ .
(٣) المراجع السابق ج٢ ص٥١٧ .
(٤) أميل ، جان جاك روسو ص ٢١٤ .
(٥) الإتجاه الأخلاقي في الإسلام دراسة مقارنة ص ٤٠ ـ ٤٢ .

تحديد الأخلاق في إطار الإسلام

ألقينا الآن الأضواء على أهم الإتجاهات الأخلاقية لدى الفلاسفة وعلمنا ميادين الأخلاق منها بصفة عامة . ومن السهل الآن تحديد موقع الإتجاه الأخلاقي الإسلامي بالنسبة إلى تلك الاتجاهات الفلسفية وتحديد قيمة هذه الأخلاق في ضوء دراستنا السابقة ، لأن قيمة الشيء وخصائصه تظهر بالمقارنة وبعد أن يعلم الإنسان قيمة الأشياء المغايرة له قبل ذلك .

إن الذي يدرس الأخلاق الإسلامية بعمق يجدها أخلاقاً متيمزة من حيث الاسس التي تقوم عليها . ومن حيث الغاية التي تهدف إليها ، وأخيراً من حيث ميادين العلم الأخلاقي التي تتحدد وفقاً لتلك الفلسفة الأخلاقية ووفقاً لمكانة الإنسان فيها في هذه الحياة وعلاقته بغيره من الأحياء في العالمين : العلوي والسفلي .

فمن حيث الاسس التي تقوم عليها هذه الأخلاق فإن من المعروف أن الإسلام يعترف بوجود حقيقة روحية ، ولكنه لا يدعي أن الحقائق كلها روحية لا من حيث المنشأ ولا من حيث ماهي عليه الآن ، وكذلك يعترف بوجود حقيقة مادية ، ولكنه لا يدعى أن الحقائق كلها مادية لا من حيث المنشأ ولا من حيث ما هي عليه الآن أيضاً, وإنما يدعو الأسلام إلى الإيمان بوجود حقائق روحية وأخرى غيرروحية صرفة وأخرى مادية صرفة وثالثة مادية وروحية معاً ، وحقيقة الإنسان من هذا النوع الأخير ، فحقيقته الروحية السماوية راجعة إلى أن فيه نفخة إلهية . قال تعالى عن

خلق آدم «ونفخت فيه من روحي»[1] وحقيقته المادية راجعة إلى تراب هذه الأرض أو طينها الذي بدأ خلق الإنسان منه «وبدأ خلق الإنسان من طين . . . ثم سواه ونفخ فيه من روحه»[2] .

ومن ثم كان الإسلام في التنظيم الأخلاقي في الحياة الإنسانية مادياً وروحياً في الوقت نفسه ، روحياً من حيث مراعاته حاجات الروح ومتطلباتها ، ومادياً من حيث مراعاته الطبيعية التي يعيش فيها الإنسان ثم مراعاته أيضاً إمكانات ومتطلبات طبيعة تكوينه البيولوجي ، لأن الإسلام يريد من الإنسان أن يعيش في هذه الأرض ورأسه في السماء ، يريد أن يجمع في حياته الخيرات المادية والمعنوية والروحية وفقاً لمتطلبات تكوينه ، ومن ثم فسعادته لا تكون بالاقتصار على الحياة الروحية ولا بالاقتصار على الحياة المادية ، وإنما توجد هذه السعادة وتكتمل إذا جمع بين خيرات هاتين الحياتين دون أن تأخذ كل حياة أكثر مما قدر لها ، بل تأخذ بقدر ما قدر لها بحسب الغاية التي ينبغي أن يسعى الإنسان لتحقيقها في هذه الحياة ، لأن حياة الإنسان لا نهاية لها وإن كان لها النهاية في هذه الدنيا فإن حياته الأساسية الباقية والدائمة في الحياة الأخرى ، وعلى الإنسان أن يعمل لمستقبل حياته في الآخرة كما يعمل لمستقبل حياته في هذه الدنيا .

كل هذه الآفاق مجال حياة الإنسان ومن ثم مجال عمله ، فالإنسان مخلوق عجيب فهو صغير الحجم من حيث الكم وكبير الحجم من حيث الكيف فهو أوسع من أن تشمله الدنيا فإذا اقتصرت حياته على هذه الحياة المادية ضاق بها ذرعاً ، ذلك أن أي كائن إذا كان مخلوقاً لحياة ما ثم حرم بعض جوانب هذه الحياة فإنه يشعر وكأنه يعيش في السجن . ومن يدرس حياة أولئك الذين حذفوا الحياة الروحية من حياتهم نظرياً وعملياً يجد ما يعانون من الضيق والقلق والاضطرابات النفسية ، ولهذا فقد انتشرت الأمراض النفسية في المجتمعات الموغلة في الحياة المادية بصورة

---

(١) سورة الحجر ٢٩ .

(٢) سورة السجدة ٧ ، ٩ .

مذهلة . وقد أدرك كثير من المفكرين والعلماء النفسانيين هذه الحقيقة وأرجعوا أسباب ذلك إلى ما ذكرت .

ويكفي أن أذكر قول أحد أعلامهم الذي نال جائزة نوبل الدولية وتتفق وجهة نظره مع ما قرره الإسلام قبل ذلك بقرون ، حيث يقول عالمنا «ومن الغريب أن الإنسان الحديث قد استبعد من الحقيقة الواقعية كل عامل نفسي (روحي) وبنى لنفسه وسطاً مادياً بحتاً غير أن هذا العالم لا يلائمه قط ، بل نراه يصاب فيه بالانهيار ، فيبدو جيداً أنه يجب على البشرية المتحضرة ، لكي تتجنب ترديها النهائي في وهدة التنافر والفوضى أن تعود إلى بناء المعابد في ذلك العالم الفاخر الصارم الذي يعيش فيه علماء الطبيعة والفلك ، فالعالم الحديث يبدو لنا كالثوب المفرط في الضيق بمجرد أن يطبعه مذهب الحرية الفردية أو المذهب الماركسي بطابعه . ومما لا يقبله العقل أن يصبح الواقع الخارجي أضيق من أن يشمله الإنسان في كليته وألا يكون تركيبه متفقاً مع تركيبنا من بعض الوجوه فمن الحكمة إذن أن نجعل لعالم الروح نفس الموضوعية التي لعالم المادة»[(١)] .

وحياة الإنسان في هذه العوالم عالم الروح والمادة وعالم الدنيا وعالم الحياة الأخرى في المستقبل تقتضي تنظيماً خاصاً وتحديداً خاصاً لعلاقته بالعالم الروحي السماوي وعالم الأحياء الأرضي . وهذا ما فعله الإسلام في تنظيمه الأخلاقي لحياة الإنسان وفقاً لهذه الأسس[(٢)] .

وفي ضوء ذلك يمكن تحديد مفهوم الأخلاق في نظر الإسلام بأن الأخلاق عبارة عن علم الخير والشر والحسن والقبح ، وله قواعده التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه .

---

(١) تأملات في سلوك الإنسان د . الكسيس كارل ،ص ١٧٣ .

(٢) قدتعرضت لتلك الحقائق كلها في كتابي «علم الاخلاق الاسلامية» في مناسبات عدة .

ثم إن لهذا النظام الأخلاقي الإسلامي طابعين مميزين : أولاً طابع إلهي من حيث أنه مراد لله ، إذ إنه يجب أن يتبع الإنسان في هذه الحياة نظاماً يتحقق فيه رغبة الله في خلقه ، ولذلك جاء الوحي بصورة هذا النظام وطلب من الإنسان أن يشترك في تطبيقه بقلبه وروحه وبإرادته الخيرة الخالصة لوجه الله مع سلوكه الظاهري المادي ، وهذه النقطة من أهم خصائص التفكير الأخلاقي في الإسلام ، والثاني طابع إنساني من حيث إن هذا النظام عام في بعض نواحيه لم يحدد تحديداً دقيقاً وإنما فيه بعض المبادئ العامة ، مثل التنظيم الاخلاقي السياسي في الإسلام ولكن هناك معالم خاصة لهذا النظام وعلى الحاكم أن ينظم الدولة ويحكم على أساسها . إذن فللإنسان هنا مجهود ودخل في تحديد هذا النظام من الناحية العملية .

بعد هذا تبقى نقطة أخرى في المفهوم المحدد سابقاً وهي أن الأخلاق نظام من العمل من أجل الحياة الخيرة وطريقة التعامل الإنساني مع الغير أيا كان هذا الغير ما دام كائناً حياً من حيث ما ينبغي أن يكون عليه هذا السلوك سلوكاً إنسانياً خيّراً تجاه الآخرين ، وذلك بناء على مكانته في الكون ومسؤولياته فيه التي يجب أن ينهض بها ، وبناء على ما وضع له خالقه من أهداف في هذه الحياة .

هذا جانب من مفهوم الأخلاق في الإسلام ، وهناك جانب آخر ، وهو تكامل الجانب النظري مع الجانب العملي وتكامل الجانب الظاهري مع الجانب الباطني من حيث القيمة ومن حيث المفهوم أيضاً ، ذلك أن قيمة العمل الأخلاقي تظهر بصورة متكاملة عندما يجتمع النظر الأخلاقي مع العلم الأخلاقي وتقترن صورة العمل مع باطن الذات الفاعلة ، أي لابد من حسن العمل مع حسن النية والأرادة والغاية .

هذا إلى أن هناك جانباً آخر مهماً من مفهوم الأخلاق في الإسلام وهو توسيع نطاق تطبيقها عملياً حين يخضع تنظيم حياة الإنسان وتقنين هذه الحياة أو تشريعاتها لنظريته الأخلاقية ولروح الأخلاق بصفة عامة من حيث انه الروح الخيرة .

وأهم مبادئ الأخلاق في هذا الميدان هي مبدأ الواجب والعدالة والمساواة الإنسانية ، والرحمة والحرية والمسؤولية التابعة لها ، والإخلاص والصدق والمحافظة

على العهود والأمانة والتسابق إلى الخيرات والفضيلة وإتقان العمل والاعتدال في أمور يكون الإفراط والتفريط ضاراً فيها ، وأن يضع الإنسان نفسه موضع الآخرين عند المعاملة ، وأخيراً الالتزام بالسلوك الخير وترك السلوك الضار أو الشر ، والأمر بالأول والنهي عن الثاني والتعاون من أجل ذلك .

ولا أريد هنا ذكر النصوص الإسلامية التي جاءت بتلك المبادئ لكيلا يطول بنا المقام ولأنني ذكرتها بالتفصيل في كتاب آخر[1] وإنما أريد هنا بيان كيف وسع الإسلام ميادين العمل الأخلاقي ، لأنه المهم في ميدان تحديد مفهوم التربية الأخلاقية وميادينها ، وأول تلك الميادين ميدان التشريع الأخلاقي ، وربما لا نحتاج إلى كثير من الأدلة لإثبات تبعية التشريع الإسلامي لروح الأخلاق الإسلامية[2] أكثر من مقارنة بين هدف الأخلاق وهدف الشريعة الإسلامية ، فإن علماء أصول الشريعة الإسلامية يقولون في صدد بيان مقاصد الشريعة : إن مقاصد الشريعة ثلاثة : وهي تحقيق الضروريات والحاجيات والتحسينات للإنسان في هذه الحياة ، والضروريات في نظرهم هي : «الأمور التي لا بد منها لقيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين . . . ومجموع الضروريات خمسة وهي حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل»[3] ، ولهذا وضعت الشريعة قوانين فرعية لتحقيق ذلك ، ومعلوم أن كل سلوك أو فعل يؤدي إلى الإضرار بالنفس والنسل والمال والعقل ضرراً كلياً أو جزئياً محرم أخلاقياً لأن غاية الأخلاق تحقيق السعادة للإنسان[4] ولا يمكن ذلك بدون الحفاظ على هذه الأمور مبدئياً .

---

(١) علم الاخلاق الاسلامية ص ٢٧٧ ـ ٢٨٦ .

(٢) ويقول الإستاذ الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني مقرراً هذه الحقيقة «والحقيقة أن أخلاق الإسلام هي أساس الشريعة بحيث إذا افتقرت أحكام الشريعة سواء في ذلك الأحكام الاعتقادية أو الأحكام الفقهية إلى الأساس الخلقي كانت صورة لا روح فيها أو هيكلاً فارغا من المضمون» مدخل إلى التصوف الإسلامي ص ١٥ .

(٣) الموافقات في أصول الأحكام .للإمام الشاطبي .مكتبة صبيح بالقاهرة ج٢ ص٤ وما بعدها

(٤) عالجت موضوع السعادة في كتاب مستقبل بعنوان : طريق السعادة .

وأما الحاجيات فهي الأمور التي يحتاج إليها الإنسان في هذه الحياة لرفع الحرج والضيق والمشقة التي تكون نتيجة عدم تحقيق بعض المطالب مثل تحقيق حاجة المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، وإزالة ما يؤدي إلى الضيق والحرج في بعض الظروف مثل التخفيف عن المكلف بالرخص في بعض التكاليف في حالات الإضرار . وأما التحسينات فهي اتخاذ أجل وأحسن الأساليب في حالة معاشرة الناس ومراعاة شعورهم وإحساساتهم الأدبية[١] ، لأن السلوك من هذا النوع يعد خيراً من الخيرات فهي من الخيرات الأدبية ، كما أن هناك خيرات مادية وروحية وعلمية وما إلى ذلك ، والسعادة تتحقق بتحقيق مجموع الخيرات والابتعاد عن جميع الشرور ، ولهذا قال الرسول : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٢] وزاد الترمذي «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»[٣] .

هذا فيما يتعلق بسعادة الدنيا ، أما سعادة الآخرة فهي أيضاً متوقفة على صلاح الإنسان وأعماله الصالحة في الدنيا ، ولهذا قال تعالى «إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى»[٤] .ومن الادلة على ذلك ايضا أن بعض علماء الشريعة حصر قواعد الشريعة في قاعدتين وهي جلب المصلحة ودفع المفسدة

هنا تجد اختلاف نظرة الإسلام في إخضاع التنظيم الاجتماعي من القوانين والسياسة للأخلاق عن نظرة أرسطو إذ إنه يخضع الأخلاق والقوانين للسياسة لأنه يعد علم السياسة العلم الأعلى والأساسي ، ولأنه يرى أن غرض هذا العلم يشمل أغراض سائر العلوم ، ومن ثم يعد دراسة الأخلاق والتأليف فيها تأليفاً في السياسة[٥] .

---

(١) الموافقات في أصول الإحكام للإمام الشاطبي ج٢ ص٥ .

(٢) فتح الباري بشرح البخاري ج ١ ص٥٩ ، صحيح مسلم ج١ ص ٦٥ كتاب الإيمان .

(٣) سنن الترمذي كتاب الإيمان ج٤ ص ١٢٨ . (٤) سورة طه ٧٤ـ ٧٦ .

(٥) علم الأخلاق لأرسطو جـ ١ ، ص ١٧١ ـ جـ٢ ص ٢٧٣ .

وعلى العكس من ذلك نجد أن رأي كانط يتفق مع وجهة نظر الإسلام في هذه النقطة ، إذ هو بدوره يجعل القانون والسياسة تابعين لعلم الأخلاق ويقول : «ينبغي أن تنظم الأمة سلوكها في كل مملكة على قواعد الأخلاق والقانون ، كما يجب على الممالك أن تراعي هذه القواعد في علاقاتها المتبادلة . . . وحينئذ لا تستطيع السياسة الحقيقية أن تخطو خطوة واحدة من غير أن تتبع فيها أوامر علم الأخلاق . . . إن الأدب يفك العقدة التي لا تستطيع السياسة حلها . . . وإن السياسة يجب أن تركع أمام الأدب»[1] .

وهذا ما يقرره أيضاً بنتام ويضيف إلى ذلك «بوجوب خضوع التشريع للفلسفة الأخلاقية»[2] ، ثم لم يكتف الإسلام بإخضاع علاقة الإنسان بأخيه الإنسان للأخلاق بل وسع ميادين العلاقات الأخلاقية حتى أدخل فيها الحيوان ، ولهذا أهميته من حيث كمالية الأخلاق ، لأن هناك بعض الأخلاقيين يعيبون بعض النظريات الأخلاقية على حصرها على ما بين الإنسان والإنسان فحسب ، كما أن له أهمية في ميدان التربية الأخلاقية . ومن أهم المبادئ الأخلاقية في الإسلام التي تدخل فيها معاملة الحيوان الرأفة والرحمة والمحافظة على الحياة ، ولهذا بين الرسول أن من يسيء إلى الحيوان يعاقب ويعذب في الآخرة حيث قال في امرأة عذبت هرة : «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت النار لا هي أطعمتها ولا سقتها . . .»[3] وقال لعائشة عندما كانت راكبة على دابة وتعاملها بخشونة «عليك بالرفق فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»[4] .

وروى أيضاً عن عبد الله رضي الله عنه أنه قال : كنا مع رسول الله في سفر . . فرأيت حمرة (عصفورة) معها فرخيها فأخذت فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت

---

(١) مقدمة بارتلمي لعلم الأخلاق لأرسطو ص ١٣٤ .

(٢) فلسفة الحضارة . البرت اشفيتسر ص ١٩٥ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج٣ ص ٢٠١ .

(٤) صحيح مسلم ج٤ ص٢٠٠٤ .

تعرش (تغرد حزناً) . فجاء النبي فقال من فجع هذه بولدها ردوا ولديها إليها»[1] .

وكما أن الإنسان ينال أجراً من حسن معاملته للإنسان كذلك ينال ذلك الأجر من حسن معاملته للحيوان ، ولهذا قال الرسول عندما سألوه بعدما ذكر كيف أن الله غفر للرجل الذي سقى الكلب العطشان يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجرا؟ فقال : «في كل كبد رطبة أجر»[2] .

وليس هذا بغريب على الإسلام ، إذ إنه جاء رحمة للعالمين فقال تعالى : «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»[3] وعلى ذلك فلا بد من أن يقرر لكل مخلوق حي حقوقاً طبيعية وأن يوجب على الإنسان احترام هذه الحقوق ، بل هناك ما هو إكثر من هذا حيث عد الإسلام تلك الحيوانات أمماً يجب إحترام حقها في الحياة كما يجب احترام حق أية أمة في الحياة ، ولهذا قال تعالى : «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم»[4] .

ولعل هذا المبدأ هو الذي جعل «الشبلي» رحيماً حتى بأتفه مخلوق لدرجة أن اشترى يوماً كيساً من القمح وبعد أن حمله على كتفه إلى بلده وجد فيه نملة فأخذته الشفقة فبات قلقاً عليها حتى أعادها في الصباح إلى مكانها قائلاً لها «أيتها الجريحة ليس من الرحمة أن أجلب لك الحزن» . ثم قال «إذا أردت أن تعيش سعيداً فأسعد قلوب الذين ألمت بهم الأحزان»[5] . وهنا نجد أيضاً فيلسوفاً مثل كانط يتفق مع الإسلام حين يقول : «على الأساتذة أثناء تباين ما في علم الدين من اجتماع وتهذيب أخلاق وواجبات إنسانية مع معرفة الله تعالى : أن يعلموا الطفل كيف يحترم الذات القدسية من حيث عنايته تعالى بالمخلوقات الحيوانية وأن يوجهوا بصائرهم إلى تلك العناية الملحوظة في الحيوان ، فلا يعذبونه ولا يقتلونه . وإذا كان

(١) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ج٥ ص ١٨ .

(٢) صحيح مسلم كتاب السلام ج٤ ص ١٧٦١ .

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧ . (٤) سورة الأنعام ٣٨ .

(٥) بستان . سعدي الشيرازي ج٢ ص ١٧ ـ ١٨ .

الله قد كفله وحفظ هيكله وحياته فلنكن محافظين عليه إجلالاً لربنا»[1] ، غير أن كانط لا ينصح بالعطف على الحيوان ، لأن ذلك واجب أخلاقي ، وإنما تعظيماً لله بالاحترام لمخلوقاته كما ينص على ذلك ، ولأنه وسيلة تربوية لتكوين روح الرحمة والعطف عند الإنسان فإذا عطف على الحيوان فسوف يعطف على الإنسان أيضا[2] . لكن ألبرت أشفيتسر يهاجم كانط لعدم إدخاله علاقة الإنسان بالحيوان ضمن الواجبات الأخلاقية ، كما يهاجم بصورة أكثر شدة هؤلاء الذين أبعدوا الحيوان عن ميدان الأخلاق الإنسانية ويشيد بموقف شوبنهور والمفكرين الهنود القدماء الذين أدخلوا هذه العلاقة في الواجبات الأخلاقية ولإدخالهم أيضاً جميع العلاقات الودية بين الإنسان والكائنات الأخرى[3] ويعتبر عدم إدخال هذه العلاقة في ميدان الأخلاق نقصاً في التفكير الأخلاقي وفي أهم أساس من أسسه وهو احترام الحياة في كل مخلوق حي فيقول مثلاً : «والمرء لا يكون أخلاقياً حقاً إلا إذا أطاع الدافع إلى معاونة كل حياة يقدر على معونتها وامتنع عن إيذاء أي كائن حي ، إنه لا يسأل إلى أي مدى هذه الحياة أو تلك تستحق عطف الإنسان بوصفها أمراً ذا قيمة ولا ما إذا كانت قادرة على الشعور ولا إلى أي مدى بل الحياة بما هي حياة مقدسة في نظره»[4] .

هذا إلى أن الإسلام قد أدخل العلاقة بين الإنسان والخالق في إطار الأخلاق ، ذلك أن الله تعالى إذا كان موجوداً وخالقاً الإنسان ومنعماً عليه فإنه يجب الإيمان به كحقيقة وكذات موجودة .

وأخلاقية الإيمان تظهر من ناحيتين : ناحية اعتباره عملاً ، ذلك أن الأعمال أما داخلية وأما ظاهرية والإيمان من النوع الأول ، ولهذا نرى الرسول نفسه ينص على أن الإيمان عمل عندما سأله رجل أي الأعمال أفضل فقال : «الإيمان بالله وجهاد في سبيله»[5]

---

(١) كتاب التربية لكانط ص ٩٥ .

(٢) فلسفة الحضارة ، ألبرت شفنسر ص ٣٦٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٧٩ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، كتاب الإيمان ج ١ ص ١٦ .

لأنه عمل إيجابي من أعمال القلب كما أن الإنكار عمل سلبي .

الناحية الثانية أن الإيمان في حقيقته عمل القلب بالاعتراف بالحقيقة الإلهية والإعتراف بالحقيقة فضيلة متى كان هناك أدلة لوجود هذه الحقيقة وعدم الاعتراف بها مكابرة وخروج على الخلق الحسن ، وهو اعتراف أيضاً بإنعام المنعم والاعتراف بالفضل وهو أخلاق أيضاً ولهذا بين الله أن كفر الكفار راجع أساساً إلى المكابرة لا لعدم وجود الأدلة لديهم ، بل عناداً وتكبراً وكان أول من كفر لهذا السبب الشيطان «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين»[1] ، ولهذا السبب نفسه لم يؤمن جماعة من الكفار بالرسول : «وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون»[2] .

ووصف الله جماعة المؤمنين من العلماء بأنهم آمنوا لأنهم لا يستكبرون «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين»[3] .

وأخلاقية العبادة تظهر من هذه الناحية ، لأن الاعتراف بإنعام المنعم يستوجب الشكر فمبدأ الواجب الأخلاقي هو الرابطة الأساسية بين نظرية الألوهية ونظرية العبادة التي تتبعها من هذه الناحية ، يقول هنا كانط «على الصبيان أن يتعلموا كيف يشعرون بالاحترام للذات القدسية الإلهية من حيث أنه تعالى هو الذي يبعث الحياة في الأنفس وبعنايته أقام العوالم كلها وفوق ذلك هو الذي ساعد الإنسان على الأرض فعاش بعنايته»[4] .

ولا يكون للعبادة قيمة إذا لم تقم على هذا الأساس أي أساس الشعور باستحقاق الله الشكر والعبادة لكثرة إنعامه على عباده .

---

(١) سورة البقرة ٣٤ .

(٢) سورة البقرة ١٣ .

(٣) سورة المائدة ٨٢ ـ ٨٣ .

(٤) كتاب التربية لكانط ص ٩٤ .

والجانب الثاني من أخلاقية العبادة هو أن العبادة أساساً الصورة المجسمة للاتصال الروحي بين العبد والرب فلكي تتصل روح الإنسان بالله ويبقى هذا الاتصال يجب أن تبقى هذه الروح طاهرة وصافية من الرذائل الأخلاقية فما دامت هذه الروح ملتصقة برجس الرذائل أثناء العبادة أو بعد العبادة فلا فائدة من هذه العبادة ، لأنها وجدت صورتها ولم توجد روحها ، ولهذا جاءت نصوص كثيرة تنفي العبادة عمن لم يبتعد عن الرذائل فقال الرسول مثلاً «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً»[1] وبين الرسول أيضاً أنه ما لم يتخلق المرء بخلق حسن لا يقبل الله منه صومه فقال «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[2] وقال تعالى في الحج «الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب»[3] وقال في الأضحية «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم»[4] وقال في الزكاة «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها»[5] وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله «إن فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال (ص) هي في النار . قال يا رسول الله إن فلانة تذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط[6] ولا تؤذي جيرانها قال هي في الجنة»[7] ، لأن المهم هو تطهير الروح فإذا تطهرت الروح بقليل من العبادة فهي في الجنة ، وإذا لم تتطهر لو كانت في العبادة المستمرة فهي في النار .

ولا تقتصر أخلاقية العلاقة بين الإنسان والرب على الواجبات التعبدية على الإنسان كما يرى كانط ، لأن الأخلاق في نظره واجبة والواجب يقتضي سابق حق

(١) كشف الخفاء ومزيل الألباس رواه أحمد ج٢ ص٣٢ ـ ٣٨ ، .
(٢) التاج (رواه الخمسة إلا مسلماً) ج٢ ص ٦١ . (٣) سورة البقرة ١٩٧ .
(٤) سورة الحج ٣٧ . (٥) سورة التوبة ١٠٣ . (٦) الاقط : قطعة من الجبن .
(٧) الترغيب والترهيب . كتاب البر والصلة (رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد) ج٣ص٣٥٣ .

وليس للإنسان حق سابق على الله حتى تكون هناك علاقة ما يجب على الله للإنسان[1] .

ونحن نعرف هنا الخلاف الدائر بين علماء الكلام أيضاً حول وجوب إثابة المطيع وعقوبة العاصي بالنسبة إلى الله[2] .

لكن من خلال دراستي للنصوص الإسلامية وجدت أن الله سبحانه وتعالى أوجب على نفسه إثابة المطيع فمن تلك النصوص ما قاله الرسول «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وحق العباد على الله عز وجل ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً»[3] وقال تعالى «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم»[4] .

ثم إن تقرير هذا الحق للعبد على الله له قيمة تربوية من حيث إنه باعث على الالتزام بالأخلاق ، ذلك أنه يجعل الإنسان يطمئن على مصيره ما دام ملتزماً بالقيم الأخلاقية في حياته ، وذلك من أهداف الأخلاق في هذه الحياة ، بل إن هناك أكثر من علاقة الواجب علاقة المحبة فإن الله يحب عباده الصالحين ، كما أنه يكره الفاسدين ويبغضهم ، فقد جاءت نصوص كثيرة في هذا الصدد ، منها قوله تعالى «بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين»[5] ومنها قوله تعالى «الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين»[6] وقال تعالى في حديث قدسي مشهور «من عادى لي ولياً فقد آذنته

(١) كلمات في مبادىء الأخلاق دكتور محمد عبد الله درازص ٢٧ .
(٢) غاية المرام في علم الكلام . الإمام الآمدي ص ٢٢٤ وما بعدها .
(٣) التاج الجامع في الأصول في أحاديث الرسول جـ ١ ص ٣٢ .
(٤) سورة التوبة ١١١ .
(٥) سورة آل عمران ٧٦ .
(٦) سورة آل عمران ١٣٤ .

بالحرب وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»[1] . وعلى عباده أن يحبوا الله أكثر من أي شيء آخر أكثر من آبائهم وأبنائهم ، لأنه أكثر إنعاماً عليهم وأكثر إحساناً إليهم منهم ، ولهذا قال تعالى «قل إن كان اباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين»[2] .

وآخر علاقة أخلاقية بين الإنسان والرب هي أن يطبق الإنسان المبادئ الأخلاقية لا لأنها ضرورية للحياة كتطبيق القوانين الطبيعية الأخرى ، بل لأنها أكثر من ذلك ، إنها أوامر إلهية يجب طاعتها .

ولكانط هنا كلام في صدد تربية الطفل على هذا الأساس يتفق مع وجهة نظر الإسلام فيقول «إن الطريقة الحقيقية لتمجيدنا لله عز وجل تنحصر في أن نعمل تبعاً لأوامره ولا جرم أن هذه الطريقة المثلى هي التي يجب أن نعلمها للصبيان»[3] ويقول أيضاً «ان الدين قوانينه الأدبية مستمدة من العلم الإلهي . إن الدين إذا تجرد من قوانينه الأدبية وانسلخ من تعاليمه الأخلاقية فإنما تكون نتيجة السعي إلى كسب المنافع المادية»[4] ، ولهذا نجد الإسلام يربط بين الإيمان بالله والتطبيق العملي للأخلاق فقال الرسول «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[5] . وقال أيضاً «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله

---

(١) الأحاديث القدسية رواه البخاري ج١ / ص ٨١ .

(٢) سورة التوبة ٢٤

(٣) كتاب التربية لكانط ص ٩٣ .

(٤) المرجع السابق ٨٥ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان كتاب الإيمان ج١ص ١٠ .

واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[١] .

ولأن العلم يكمل النظر ثم إن العمل بموجب الإيمان يدل على وجود الإيمان ، لذا نجد الرسول يقول «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»[٢] كما يكمل الإيمان نفسه ولهذا أيضاً قال الرسول «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً»[٣] ، ولهذا كله فقد بين الله تعالى أن البر الحقيقي هو الجمع بين الإيمان والعمل به حيث قال عز شأنه «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون»[٤] .

بعد هذا كله تبقى نقطة أخرى وهي بيان علاقة الأخلاق الإسلامية بالإسلام بصفة عامة :

فإنني بينت أولاً عند الكلام عن الفلسفة الإسلامية ونظرياتها أن النظرية الأخلاقية الإسلامية نظرية واحدة من تلك النظريات الثمانية ، وعندما تكلمت عن مجالات العمل الأخلاقي قلت إن روح الأخلاق سارية في جميع جوانب الإسلام وجميع جوانب ميادين العمل الإنساني من حيث إن من أهم خصائص الأخلاق الإسلامية التطبيق الأحسن أو الأفضل لما جاء به الإسلام من مبادئ وأحكام اعتقادية وعملية ، وخاصة إذا علمنا أن الإسلام لم يأت لمجرد تقديم الحقائق النظرية الضرورية للحياة الانسانية وفقاً للغاية التي خلق من أجلها ، وإنما جاء أساساً

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان كتاب الإيمان ج ١ص١٠ .

(٢) الجامع الصغير للإمام السيوطي ج ١ ص ١١ .

(٣) المستدرك على الصحيحين في الحديث الإمام الحافظ الحاكم النيسابوري ج ١ ص٥٥٣ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

لتنظيم هذه الحياة وفقاً لتلك الحقائق ، فإنه يحق لنا عندئذ القول بأن أفضل صور الإسلام هي أفضل صور التطبيق وأحسنها لمبادئ الإسلام ، وإحسان العمل وإتقانه هو روح الأخلاق الإسلامية ، ولهذا قال الرسول في ميدان العمل «يحب الله العامل إذا عمل أن يحسن»[١] ، وقال في ميدان العبادة عندما سئل ما الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٢] ، وهذا وذاك يفسران معنى قول الرسول في هذا الموضوع «الاسلام حسن الخلق»[٣] وقوله أيضاً «خيركم إسلاماً أحسنكم أخلاقاً إذا فقهوا»[٤] وقال أخيراً لأبي هريرة عليك بحسن الخلق إن أحسن الناس خلقاً أحسنهم ديناً»[٥] .

من هذا كله يتبين لنا أن الأخلاق الإسلامية وإن كانت جزءاً من الإسلام فإن روحها سارية بجميع جوانبه ، وتجسد العلاقة بين الجانب النظري والعملي أو التطبيقي على أفضل صورة .

ومن ثم نجد وجهة نظر الإسلام هنا تختلف عن وجهة نظر كانط حيث إن كانط يجعل الدين تابعاً للأخلاق أو يجعل الدين يقوم على أساس أخلاقي[٦] .

كما تختلف وجهة نظر الإسلام عن وجهة نظر دوركايم الذي لا يقيم إطلاقاً أية علاقة بين الدين والأخلاق[٧] ، ولهذا كان أضعف نقطة في نظرته إلى أسس التربية الأخلاقية هذه النقطة ، وكان ذلك أيضاً من أهم عوامل فشل نظام التربية .

---

(١) الجامع الصغير ج٢ ص ٢٠٥ .
(٢) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الإيمان ج١ ص١٢٨ .
(٣) منتخق كنزل العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج١ ص١٣٢ .
(٤) كتاب الأدب المفرد للإمام البخاري ، المكتبة السلفية بالقاهرة ص ١٠٧ .
(٥) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج١ ص١٣٢ .
(٦) انظر في ذلك المراجع الآتية : (أ) في الفلسفة والأخلاق للأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر ص ٤٧ . (ب) كانط أو الفلسفة النقدية الدكتور زكريا ابراهيم ص٢٣٦ ـ ٢٣٧ .
(٧) التربية الأخلاقية . دور كايم . ترجمة الدكتور السيد محمد بدوي . مكتبة مصر ص ٩ .

بعد هذا العرض لمفهوم الأخلاق في الإسلام نحتاج إلى بيان أهم خصائصها وذلك فيما يلي :

أولاً : يدخل في نطاق الأخلاق في نظر الإسلام كل سلوك إرادي صادر من إنسان راشد : لأن هذا السلوك إما أن يكون أخلاقياً وإما غير أخلاقي . ثم ان هذا السلوك ليس هو الفعل الظاهر فحسب ، بل يدخل فيه أيضاً أعمال القلوب من النيات والإرادات والغايات ، وتترتب عليها المسؤولية والجزاء[1] .

ثانياً : يوسع الإسلام دائرة العلاقات الأخلاقية ، فلا تقتصر الأخلاق على علاقة الإنسان بأخيه الإنسان كما يدعو إلى ذلك الاتجاه الأخلاقي الاجتماعي الوضعي والكانطي . ولا تقتصر كذلك على العلاقة بين الإنسان وبين الله كما يدعو إلى ذلك بعض الديانات القديمة[2] . بل يدخل في إطار هذه العلاقة الأخلاقية علاقة الإنسان بالإنسان وبالحيوان وبالله أيضاً .

ثالثاً : يقيم الإسلام الأخلاق على أسس روحية ميتافيزيقية وعملية وطبيعية وغيرها[3] . هذه الأسس ضرورية لبناء صرح أخلاقي ثابت كما هي ضرورية لتكوين شخصية أخلاقية قوية ثابتة . وهذا وذاك ضروريان أيضاً لبناء مجتمع أخلاقي يحيا حياة أخلاقية إنسانية في هذه الحياة الدنيا .

رابعاً : إن القيم الأخلاقية في نظر الإسلام ليست نسبية تتغير من فرد إلى فرد ومن مجتمع إلى مجتمع آخر ، ثم من زمن إلى زمن ، بل هي قيم ثابتة تزداد ثباتاً وضرورة كلما مرت الإنسانية بتجارب في حياتها الأرضية ، بل لا يمكن بأي حال من الأحوال وجود حياة اجتماعية متزنة ومستقرة وسعيدة إذا لم تقم هذه الحياة على أسس هذه الأخلاق التي جاء بها الإسلام ، والتي تتفق مع جميع الأخلاقيات الصالحة السابقة واللاحقة .

---

(١) انظر ما كتبته في هذا الصدد في الفصل الخاص بالمسؤولية والجزاء من الباب الثاني من الكتاب :علم الأخلاق الإسلامية .

(٢) التربية الأخلاقية دوركايم ص ٨ ـ ٩ .

(٣) انظر إلى تفصيل هذه الأسس في الباب الثاني من كتاب «علم الأخلاق الإسلامية» .

ثم إن قيم الأخلاق متعددة فهي تحمل قيماً اجتماعية ونفسية واقتصادية وسياسية وقيماً روحية وذاتية شخصية . كما وضع الإسلام معايير أخلاقية لمعرفة السلوك الأخلاقي وقيمه المختلفة[1] .

خامساً : تكامل جميع المبادئ الأخلاقية الصالحة للحياة الإنسانية المستمرة في الأخلاق الإسلامية . فقد بلغت هذه الأخلاق من التكامل والصلاحية حداً مثالياً ، ذلك أنها تحتضن جميع الفضائل الإنسانية والأعمال الخيرة لصالح الفرد والمجتمع وتنفر من جميع الرذائل والشرور مما جعل هذه الأخلاق قادرة على مسايرة تطور الحياة وأشكالها المختلفة .

ففي ميدان احترام الإنسان تجعل لكل إنسان كرامة أصلية بصرف النظر عن جنسه ولونه واتجاهاته الخاصة . وبناء على ذلك تدعو إلى احترام جميع الحقوق الطبيعية للإنسان ، بل أكثر من ذلك فإنها تدعو إلى تحقيق تلك الحقوق للناس وتيسر السبل إلى ذلك لمن يعجز عن الوصول إليها ، ومن ثم يعد من يخدم الناس خير الناس فقال الرسول «خير الناس أنفعهم للناس»[2] كما تدعو إلى المحبة والمودة والإخاء والمساواة بين الناس .

وفي ميدان المعاملة تدعو إلى احترام العقود وأداء الأمانات والنزاهة والصدق وتنهي عن الإستغلال والمماطلة والغش والكذب والخداع والخيانة وما إلى ذلك من الصفات الذميمة التي تفتك بالكيان الاجتماعي وتقطع أوصاله .

وفي ميدان السياسة والحكم تدعو هذه الأخلاق الكريمة إلى احترام العهود والمواثيق المبرمة وإلى الحكم بالعدل والمساواة والعمل من أجل رفع مستوى الأمة . وتنهى عن الغدر والمفاجأة بالعدوان والتسلط والتجبر وما إلى ذلك من الصفحات القبيحة .

---

(١) انظر الباب الثالث من المرجع السابق .

(٢) الجامع الصغير للإمام السيوطي ج٢ص٩ .

وفي ميدان الاقتصاد تدعو إلى العمل والإتقان والإبداع والابتكار في الإيجاد والصناعة ، وذلك لتعميم الخير للمجتمع ، ثم تدعو من ناحية أخرى إلى التقشف والقناعة وعدم التبذير والإسراف في المأكل والمشرب والملبس . ومعلوم أن النمو الاقتصادي لا يتحقق إلا بهاتين الطريقتين .

وفي ميدان العلم تدعو إلى التعلم والتعليم والتربية واستخدام العلم في طريق الخير كما تنفر من الجهل ومن عدم العمل لمقتضى العلم .

وأخيراً تدعو هذه الأخلاق إلى عدم الشروع في أي عمل إلا بناء على علم ومعرفة ، ولهذا قال تعالى «ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً»[1] .

وهكذا جاء الإسلام بأكمل الأخلاق وأصلحها . ولهذا قال الرسول «إنما بعثت لأتمم صالح الاخلاق»[2] وفي رواية اخرى «انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3] وكان الرسول يمثل هذه الأخلاق في حياته العملية ولهذا قال تعالى «وإنك لعلى خلق عظيم»[4] . وإذا علمنا أن الله لم يصف أحداً من قبل من أنبيائه بالخلق العظيم وإنما وصف كل واحد بأوصاف أخرى مثل رشيد وتقي وحليم وما إلى ذلك علمنا السر في ذلك ولقد أدرك هذه الحقيقة أكثم بن صيفي أحد حكماء العرب الذي قال عندما دعا قومه إلى الإسلام «ان الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً»[5] .

سادساً : إن اتساع ميادين الأخلاق الإسلامية يقتضي توسيع ميادين التربية

---

(١) سورة الإسراء ٣٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد ج٢ ص ٣٨١ .

(٣) منخب كنز العمال في هامشش مسند الإمام أحمد كتاب الأخلاق ج١ ص١٣٢ .

(٤) سورة القلم ٤ .

(٥) مختارات من روائع الأدب العربي . دكتور عبد السلام سرحان ص٥٣٣ .

الأخلاقية الإسلامية ، بحيث يجب أن تشمل هذه التربية جميع تلك الميادين التي فصلنا فيها القول .

هذا إلى أن صلة اتساع مفهوم الأخلاق لا تقتصر على التربية الأخلاقية فحسب ، بل تؤثر كذلك على طبيعة عملية التربية بصفة عامة ، ذلك أن من مبادئ الأخلاص وحسن النية في العلم إتقان الأعمال واختيار أفضل الوسائل والطرق وأشرفها في أداء الأعمال على أكمل وجه مستطاع ، إذ ليس هناك سلوك إرادي صادر من إنسان راشد إلا ويخضع لهذه المبادئ الأخلاقية ، إذن فكل سلوك وكل عمل ذلك شأنه إما أن يكون أخلاقياً أو غير أخلاقي من هذه الجهة من حيث أنه إما خير او شر ،حسن أوقبيح .

وعملية التربية باعتبارها عملاً من الأعمال لا بد من أن تخضع للروح الأخلاقية وأن تدخل في ميدان من الميادين الأخلاقية ، ومن ثم نجد كثيراً من التربويين يعدون عملية التربية عملية أخلاقية من عدة نواح : منها أن التربية انتقال من الأسوأ إلى الأفضل . يقول هنا جون ديوي «ان عملية التربية والعملية الأخلاقية شيء واحد ما دامت الثانية لا تخرج عن أنها انتقال الخبرة باستمرار من أمرسيء إلى أحسن منه وأفضل»[(١)] .

ومنها أن التربية عملية اختيار البديل الأفضل في السلوك وهذه أيضاً عملية أخلاقية ، ولهذا يقول بعض المربين «ولا يوجد في الحقيقة ميدان من ميادين الاهتمام التربوي لا يمت إلى المسألة الأخلاقية بصلة»[(٢)] معللاً ذلك بقوله «لأن المفهوم الشامل للأخلاق يمتد ليشمل كل ميادين الخبرة الإنسانية»[(٣)] .

إذن من حقنا أن نقر هنا أن صلة الأخلاق تشمل جميع أنواع التربية ومجالاتها وإن كانت التربية الأخلاقية نوعاً واحداً منها فقط ، ويقرر هذه الحقيقة الدكتور

---

(١) تجديد في الفسفة . جون ديوي ص٢٩٩ .

(٢) الأستاذ فيليب . هـ . فينكس . في كتابه «فلسفة التربية ص ٤٣٨» .

(٣) المرجع السابق ص ٤٣٩ .

محمد عبد الله دراز ويحدد هذه الصلة بشكل واضح بعد تحديد كل نوع من أنواع التربية[1] بقوله «ولقد يذهب الظن بالناظر في هذا البسط والتقسيم إلى أن علم الأخلاق إنما يعني شعبة واحدة من بين هذه الشعب وهي شعبة التربية الخلقية وليس الأمر كما يوحي به هذا الظن ، فإن سلطان الأخلاق منبسط على وجوه النشاط الإنساني كله لا يشذ عنه عمل تربوي ولا غير تربوي ولا يتفاوت في حكمه نشاط بدني أو عقلي أو فني أو أدبي أو روحي ، فالفنان الذي يجافي بفنه قانون الحشمة واللياقة ويهتك به ستر الحياء والعفاف يتصدى لمقت الضمير الحي وإن لم تؤاخذه قواعد الفن . والمعلم الذي يختار مادة تدريبه العقلي واللغوي الناشئين من أحاديث الرفث وأقاويل التحريض على الهجر والإثم يسيء من حيث يحسبه يحسن ، والمرشد الديني الذي يتوسل في الدعوة إلى دينه بوسائل الخداع والكذب أو بشيء من الإغراء بالمال والجاه أو غيرهما يرتكب جريمة من أشنع الجرائم وهكذا سائر أنواع التربية وشعبها»[2] .

وأخيراً نجد هناك نوعاً آخر من الصلة بين التربية والأخلاق وهي الغاية الأخلاقية ، إذ إن التفكير الأخلاقي يقضي بأن تكون غاية الإنسان من كل علمه غاية أخلاقية وخاصة وفقاً للتفكير الأخلاقي الإسلامي ، ولهذا قال تعالى «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»[3] فإنه يقضي كذلك بأن تكون غايته في ميدان التربية والتعليم غاية أخلاقية أخيراً ، ولهذا قال تعالى «كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون»[4] ، كما بينت ذلك عند الكلام عن خصائص التربية الإسلامية .

وفيما يتعلق بوجهة نظر المربين فيجب أن نعرف مبدئياً أنه لم يغفل أي اتجاه

---

(١) كلمات في مبادىء الأخلاق . دكتور محمد عبد الله دراز ص ٣٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٩ .

(٣) سورة الأنعام ١٦٢-١٦٣ .

(٤) سورة آل عمران ٧٩ .

فلسفي تربوي من أن يجعل الأخلاق الغاية الجزئية للتربية إن لم يجعلها الغاية الكلية ، فهم قد انقسموا في هذا الصدد بصفة عامة إلى ثلاثة اتجاهات :

اتجاه يرى أن هدف التربية عامة تكوين إنسان كامل تتكامل فيه الجوانب الإنسانية ويمثل هذا الاتجاه على سبيل المثال سبنسر[١] ، وجان جاك روسو[٢] ، وفخته[٣] وبستالوزي[٤] .

وان كان القائلون بذلك يختلفون في تحديد شخصية الرجل الكامل من حيث التعبير عنه ومن حيث مواصفاته ، فإن الكمال على أي حال لا يمكن أن يتم بدون تكوين شخصية أخلاقية .

والاتجاه الثاني يرى أن الغاية من التربية تكوين مواطن صالح في المجتمع أو الدولة كما يرى أفلاطون[٥] وأرسطو[٦] ، أو تكوين الإنسان الاجتماعي كما يرى دوركايم[٧] . وعلى أي حال فالمواطن الصالح في الدولة أو المجتمع لا يكون بدون أخلاق .

الاتجاه الثالث والأخير يرى أن الغاية من التربية هي الأخلاق أو تكوين شخصية أخلاقية ومن أنصار هذا الاتجاه كثير من المربين منهم كانط الذي يقول «الأخلاق صورة لنهاية ما يقصد من التعليم»[٨] ومنهم أيضاً : فردريك هاربرت الذي يرى أن هدف التربية تهذيب النفس[٩] ومنهم هيجل الذي يقول« التربية هي الفن الذي

(١) في التربية . تأليف سبنسر . مطبعة الجريدة . القاهرة ص ٨ .
(٢) اميل . روسوص ٣٢ .
(٣) تطور النظرية التربوية صالح عبد العزيز ص ٣٣٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٣١ .
(٥) الثقافة والتربية في العصور القديمة . دكتور وهيب ابراهيم سمعان ص ٢٣٠ .
(٦) كتاب السياسة لأرسطو . مطبعة دار الكتب المصرية ص ١٢٥ ، ٢٧٣ ، ٢٨٧ .
(٧) التربية العامة . رونيه أوبيرص ٢٣ .
(٨) كتاب التربية كانط . المطبعة السلفية .ص ٦٠
(٩) تاريخ التربية . مصطدفى أمين . مطبعة المعارف بالفجالةص ٣٣٢ .

يكون الرجل أخلاقياً»[١] ومنهم جون ديوي الذي يقول «ان هذا النمو الأخلاقي هو الغاية القصوى من العمل المدرسي كله»[٢] ومنهم جون لوك الذي يرى أن غرس الفضيلة في النفوس هو هدف التربية[٣] ويمكن أن نعد من هؤلاء أيضاً رونيه أوبير الذي يجعل الجوانب الأخرى من التربية وسيلة للتكوين الأخلاقي الذي يقول «ان هدف التربية بلوغ السلوك الخلقي بواسطة ذلك الطريق الثلاثي طريق امتلاك الصحة الجسدية ونمو التفكير وتنظيم جملة من العادات الصالحة»[٤] وهو يجعل التربية الجسدية خدمة للتربية الفكرية ثم يجعلها خدمة للتربية الأخلاقية[٥] .

من هذا كله نستطيع أن نستخلص الصلة القوية بين مفهوم التفكير الأخلاقي الواسع الشامل الذي وجدناه في الإسلام على أكمل صورة وبين التربية بصفة عامة والتربية الأخلاقية بصفة خاصة في ثلاث نقاط عامة :

الأولى : أن الصفة الأخلاقية تتغلغل في جميع الاهتمامات والعمليات التربوية .

الثانية : يؤثر هذا التفكير الأخلاقي على تحديد أهداف التربية وغاياتها .

الثالثة والأخيرة : تتأثر ميادين التربية وأساليبها وخاصة التربية الأخلاقية بالتفكير الأخلاقي وبمضمونه العام الشامل .

---

(١) تربية الإنسان الجديد . دكتور فاضل الجمالي ص ١٧٧ .

(٢) المبادىء اللاأخلاقية في التربية . جون ديوي ص ٥٤ .

(٣) تاريخ التربية . مصطفى أمين ص ٢٧٨ .

(٤) التربية العامة . رونيه أوبير ص ٥٠١ .

(٥) المرجع السابق ص ٥٠٠

رابعاً: تحديد مفهوم حقيقة التربية الأخلاقية عموماً

بعد تحديد وتحليل المصطلحات في ميدان بحثنا نستطيع تحديد جوهر البحث وهو حقيقة التربية الأخلاقية . وقبل تحديد ذلك من وجهة نظر الإسلام لننظر إلى وجهات نظر فلاسفة التربية لنستطيع تحديد موقع وجهة نظر الإسلام وتقويمها وبيان مميزاتها وخصائصها في ضوء تلك الدراسات التربوية ، وذلك وفقاً لمنهج البحث وطريقة المقارنة التي بينت مبرراتها في المقدمة .

وإذا بحثنا الآن عن آراء أولئك المربين في هذا الصدد لا نستطيع عرضها لكثرتها إلا بتصنيفها تحت النوعيات والاتجاهات الآتية :

الاتجاه الأول : يرى أن التربية الأخلاقية هي الاعتياد على المبادئ الأخلاقية وممارستها من الصغر زمناً طويلاً حتى يصبح عادة بحيث تصدر عن المرء تلقائياً من غير تفكير وروية كما تصدر الأفعال الغريزية أو الطبيعية ، لأنها عندئذ تصبح طبيعة ثانية ، كما يدعى أصحاب هذا الاتجاه . وقد تبنى هذا الاتجاه معظم كبار الفلاسفة والمربين القدماء من الفلاسفة المسلمين وغير المسلمين : فمن الفلاسفة المسلمين نجد ابن سينا[1] وابن مسكويه[2] والإمام الغزالي الذي يقول مثلاً : «ولن ترسخ جميع الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة وما لم تواظب عليها مواظبة من يشتاق إلى

(١) علم الأخلاق لابن سينا . مطبوع ضمن مجموعة ص ١٩٧ .

(٢) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص ٣١ .

الأفعال السيئة وما لم تواظب عليها مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها»[1] .

ومن الفلاسفة والمربين الغربيين أرسطو قديماً[2] وجون لوك[3] وجان جاك روسو[4] حديثاً .

غير أن بعض المفكرين لا يرون مجرد الاعتياد تربية أخلاقية لأنه كثيراً ما يعتاد الناس على سلوك معين ثم يغيرون مسلكهم عندما يقنعون بفكرة أو اتجاه معين في سلوك الحياة ، وبناء على ذلك ساروا في اتجاه آخر .

وهو الإتجاه الثاني الذي يرى أن التربية الأخلاقية هي تكوين بصيرة أخلاقية عند المرء بها يستطيع التمييز بين الخير والشر ويدرك ويقتنع تماماً أن الخير في الفضيلة والشر في الرذيلة . من أنصار هذا الإتجاه الفيلسوف الألماني كانط الذي يقول مثلاً «إن هذا التعليم (أي التربية الأخلاقية أو التعليم الأدبي على حد تعبيره) يراد به أن يكون للفتى بصيرة يعرف بها ما هو حسن نافع وما هو قبيح ضار وتعليمه الحقائق في أنفسها لتتربى فيه الأخلاق الفاضلة من ذات نفسه لا من الخارج»[5] ومن أنصاره أيضاً سير ريتشرد لفنجستون[6] وكيل جامعة أكسفورد سابقا .

الإتجاه الثالث يرى أن التربية هي تلقين المبادئ الأخلاقية للناشئين وإلقاء دروس في علم الأخلاق كدروس العلوم الأخرى . ولعل مرجع هذه الفكرة في المبدأ كان سقراط الذي كان يرى أن العلم أو المعرفة بالخير كاف لإتيانه[7] ، ثم انتشرت هذه الفكرة في الأوساط التربوية فيما بعد حتى قالوا : إن الانحلال الأخلاقي يرجع

(١) احياء علوم الدين ، مكتبة مطبعة المشهد الحسيني ج٣ ص٥٨ .
(٢) علم الأخلاق لأرسطو جـ ١ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨ .
(٣) تاريخ التربية مصطفى أمين ص ٢٨٠ .
(٤) اميل ، جان جاك روسو ص ٢٧ .
(٥) كتاب التربية لكانط ص ٥٤ .
(٦) التربية لعالم حائر . سير رتشرد لفنجستون ص ٦٧ .
(٧) مقدمة علم الأخلاق لأرسطو ص ١٥٦ .

أساساً إلى الجهل بالخير في حقيقته أو إلى النقص في هذه المعرفة ثم لم تبق هذه الفكرة على ما كانت عليه عند سقراط ، بل بدأت تنتقل من الجوهر إلى القشور حتى أصبحت التربية الأخلاقية مجرد تلقين المبادئ الأخلاقية بأساليب أمرية وتحذيرات خطابية جافة دون بيان القيم المختلفة لكل مبدأ من المبادئ الأخلاقية ، وبالرغم من أن هذا المفهوم من أكثر المفاهيم السائدة في التربية الأخلاقية في بلدنا فإنه من أكثر المفاهيم التي لقيت انتقاداً من كثير من المربين ، وقد نقدها الفيلسوف سبنسر نقداً مرا[١] ، ولهذا كله عدل عنه المربون المحدثون .

الاتجاه الرابع يرى أن التربية الأخلاقية هي تكوين استعداد أخلاقي بحيث يتشعب هذا الاستعداد إلى سلوك أخلاقي بسهولة ومن تلقاء نفسه في جميع المواقف التي تتطلب عملاً أخلاقياً . ويؤيد ذلك بصفة عامة أنصار الاتجاه الاجتماعي أمثال أوجست كونت وليفي بريل ودور كايم ، يقول هذا الأخير معبراً عن رأي جماعته «فإن تكوين الطفل أخلاقياً لا يعني أن نغرس فيه إحدى الفضائل الخاصة ثم نتبعها بثانية فثالثة وإنما يكون في الاستعانة بالوسائل الملائمة لتنمية هذه الاستعدادات العامة ، بل لخلقها ، وبمجرد أن توجد هذه الاستعدادات لا تلبث أن تتشعب بسهولة من تلقاء نفسها حسب ما تقتضيه تفاصيل العلاقات الإنسانية»[٢] ويكون تكوين هذا الاستعداد عن طريق غرس العناصر الأخلاقية الرئيسية في نظر هذا الاتجاه وهي روح الخضوع للنظام روح التعلق بالهيئة الاجتماعية ، وأخيراً استقلال الإرادة[٣] .

أما الاتجاه الخامس والأخير فهو الاتجاه الروحي الصوفي الذي يرى أن التربية الأخلاقية ليست مجرد الاعتياد على الأفعال الأخلاقية الظاهرية المادية ، وليست كذلك مجرد خلق بصيرة أخلاقية ، وليست أخيراً مجرد تلقين وتعليم المبادئ

---

(١) في التربية ، سبنسر . ترجمة محمد سباعي ، مطبعة الجريدة بالقاهرة ص ٩٠ .

(٢) التربية الأخلاقية . دوركايم ص ٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٨ ، ٢٦ ، ٩٣ .

الأخلاقية بل أنها فوق ذلك وأكثر من ذلك هي تطهير النفس من كل الرذائل والنوازع الشريرة وتحليتها بالفضائل الأخلاقية ظاهراً وباطناً ، وهذا الاتجاه الروحي نجده واضحاً لدى المتصوفة ، وهذا موقف طبيعي منتظر منهم ، ذلك أننا قد عرفنا موقفهم من الأخلاق وكيف أنهم يتخذون مرحلة التخلية والتحلية مرحلتين أساسيتين للرقي الروحي وأنه لا بد من اجتياز المرء هاتين المرحلتين أولاً للوصول إلى الله ، ولهذا قد اهتموا بهما لدرجة أن بعضهم قصر التصوف عليهما وقال «التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني»[1] .

ومن مميزات التربية الأخلاقية عندهم أنهم لا يكتفون بتأديب النفس وتطهيرها من جميع الرذائل والتحلية بالفضائل ، بل يهتمون أيضاً بتأديب جميع الأعضاء والجوارح فيتكلمون عن أدب الأعضاء وتحديد حركاتها المؤدبة وغير المؤدبة من السمع والبصر واللسان واليدين والرجلين وما إلى ذلك[2] ، ولهذا يقول بعض الدارسين «لم يعرف تاريخ المذاهب الأخلاقية قوماً اشتدوا في مخالفة النفس وتصفية الباطن كما فعل الصوفية[3] .

ويسمي الدكتور «غوستاف لوبون» هذا اللون من التربية بالتربية الباطنية أو التأديب الباطني على حد تعبيره ، وذلك مقابل التأديب الخارجي ويرجح الأول على الثاني ، لأنه هو الذي يمكن أن يدوم بينما التأديب الخارجي الذي يتم تحت الضغط والخوف ليس بالتأديب الذي تؤمن عواقبه ويقول «تقاس الأمة بما لديها من الرجال الحائزين لذلك التأديب الباطني[4] ثم إن هناك قيمة أخرى لهذا اللون من التربية وهي انتقالها إلى الأبناء بالوراثة كما يقرر ذلك كثير من علماء التربية والوراثة»[5] ذلك أنه كما تنتقل الخصائص الجسمية إلى الأبناء بالوراثة فكذلك تنتقل الخصائص النفسية والروحية أيضاً كما سنشرح ذلك في موضعه .

---

(١) الرسالة القشيرية للامام القشيري ص ٢١٧ .

(٢) أدب المريد للسهروردي . مخطوط بمكتبة الأزهر برقم ٧ ص ٤٧ وما بعدها .

(٣) الدكتور أحمد صبيحي في كتابه الفلسفة الخلقية في الفكر الإسلامية ص٢٣٧ دار المعارف

(٤) روح التربية .دكتور غوستاف لوبون ، مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ص ٣٠٩ .

(٥) انظر في ذلك المراجع الآتية :(أ)روح التربية ص ٣٠٩ . (ب) تأملات في سلوك الإنسان=

والآن وبعد هذا العرض الموجز لهذه الاتجاهات في حقيقة التربية الأخلاقية أحب أن أقول إنه ليس واحد من تلك الاتجاهات يمثل التربية الأخلاقية بكاملها ، بل إن كل واحد منها يمثل جزءاً من حقيقة هذه التربية وإن كان بعضها أهم من بعض . وإذا كان الأمر كذلك فأين التربية الأخلاقية الحقيقية الكاملة؟ ولنبحث عنها الآن في الإسلام .

=ص ٨٧ . (جـ) أسس الصحة والحياة . دكتور عبد الرزاق الشهرستاني . مطبعة الآداب . نجف ـ العراق ص ٣٣٥ وما بعدها .

خامساً: حقيقة التربية الأخلاقية الإسلامية ومميزاتها الأساسية

إن حقيقة هذه التربية في نظر الإسلام تنبع من حقيقة مفهوم الاخلاق فيه وهو باختصار: علم الخير والشر وعلى ذلك يكون مفهوم التربية الاخلاقية هو اعداد الانسان الخير بحيث يصبح في حياته مفتاحاً للخير ومغلاقاً للشر في كل الظروف والأحوال .

هذا مفهوم عام وإذا بحثنا عن المفاهيم الخاصة وجدنا اهتمامات خاصة بمعظم المفاهيم التربوية التي رأيناها سابقاً لدى معظم الفلاسفة والمربين ، لأن ذلك مهم لتكامل التربية الأخلاقية ، وذلك بصرف النظر عن درجة أهمية كل واحد منها .

أما من حيث تطهير النفس أولاً من جميع الرذائل الأخلاقية والإرادات الشريرة فإنه أمر لا غنى عنه في هذه التربية لأن الإنسان لا يكون خيرا بدون ذلك ، ولهذا وردت نصوص كثرة في هذا الميدان منها قوله تعالى «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»[1] «يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم»[2] .

لكن مجرد التطهير لا يكفي لهذه التربية ، لأن من معاني هذه التربية التنمية أي تنمية الروح الأخلاقية ونزعات الخير في نفس المرء وقد استخدم في هذاالميدان التزكية في القرآن لأن التزكية تفيد التطهير مع التنمية أو تقوية دوافع العمل الصالح كما يرى الإمام الفخر الرازي[3] ، ولهذا كان الرسول يستخدم أساليب كثيرة يقوي

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

(٢) سورة المائدة ٦ .

(٣) تفسير الفخر الرازي ج٤ ص ٧٥ .

بها دواعيهم إلى الإيمان والعمل الصالح[1] ، لأن هذه التربية كانت من ضمن أهداف الإسلام ، ولهذا أيضاً جاء الإسلام بأساليب ووسائل تحقيقها ،ومن ثم أرسل الرسول مبلغاً كما أرسل أيضاً مربياً «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم»[2] ، إذ قد جاءت التزكية في القاموس المحيط وأساس البلاغة بمعنى التطهير والتنمية وقال صاحب أساس البلاغة : (ويقال مجازاً رجل زكي أي زائد الخير والفضل) ، ولذلك قال تعالى «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها»[3] ، ولذلك أيضاً قال تعالى «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها»[4] ، ويتكلم الإمام الفخر الرازي عن معاني التزكية هنا ويقول «فاعلم أن التزكية عبارة عن التطهير أو عن الإنماء»[5] ويتكلم عن معنى «وقد خاب من دساها» فيقول «من دسها في المعاصي حتى انغمس فيها (والمعنى الآخر) أن من أعرض عن الطاعات واشتغل بالمعاصي خاملاً متروكاً منسياً فصار كالشيء المدسوس في الإختفاء والخمول»[6] .

ولكن تنمية الروح الأخلاقية تحتاج إلى تعليم وتبصير أخلاقي ، إذ لا بد من وعي أخلاقي ليدرك الإنسان حكمة المبادئ الأخلاقية ولا بد من بصيرة أخلاقية ليستطيع المرء التمييز بين السلوك الخير والسلوك الشرير وما يترتب على الفضيلة من الخيرات وما يترتب على الرذائل من مضار وشرور ، ولهذا جاء الرسول معلماً ومربياً ، معلماً بالمبادئ وحكمتها فقال تعالى «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون»[7] .

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج٤ ص ٧٥ .

(٢) سورة البقرة ١٥١ .

(٣) سورة التروبة ١٠٣ .

(٤) سورة الشمس ٧ ـ ١٠ .

(٥) تفسير الفخر الرازي ج٣١ ص ١٩٣ .

(٦) المرجع السابق ج٣١ ص ١٩٤ .

(٧) سورة البقرة ١٥١ .

ويقول الإمام الفخر الرازي عن سبب جمع الله تعالى بين التعليم والتزكية عند تفسير قوله تعالى «يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم»[١]

واعلم أن كمال حال الإنسان في أمرين أحدهما أن يعرف الحق لذاته . والثاني أن يعرف الخير لأجل العمل به فإن أخل بشيء من هذين الأمرين لم يكن طاهراً من الرذائل ولم يكن زكياً عنها»[٢] ، ولهذا كان من أساليب التعاليم الإسلامية التبصير بالحقائق وأن يكون المربي أيضاً على بصيرة بأساليب التربية لذا قال تعالى «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني»[٣] «قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها»[٤] «وابصرهم فسوف يبصرون»[٥] .

ومن ثم دعا الإسلام إلى تعليم الخير وتعلمه ، لأنه وسيلة التبصرة وتكوين الوعي الأخلاقي فقال الرسول : «إن الملائكة وأهل السماء والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»[٦] وقال من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[٧] .

لكن لا يكفي ايضا تكوين بصيرة أخلاقية إذ لا بد مع ذلك من تكوين الاستعداد الكامل للالتزام بالمبادئ الأخلاقية واجتناب الرذائل والشرور في كل الظروف والمواقف بحيث لا يكتفي بالتزام ذلك بنفسه ، بل يدعو غيره كذلك إليه ويحارب الشر أينما وجد وحيثما كان ، ويمكن التعبير من ذلك بتكوين روح الخير أو تكوين الإنسان تكوينياً خيراً وقد عبر الله سبحانه عن نمط الشخصيات الخيرة أو الصالحة فقال : «يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين»[٨] .اذ إن من علامات الخير السعي اليه ومكافحة الشرور .

---

(١) سورة البقرة ١٢٩ .
(٢) تفسير الفخر الرازي ج٤ ص٧٤ .
(٣) سورة يوسف ١٠٨ .
(٤) سورة الأنعام ١٠٤ .
(٥) سورة الصافات ١٧٥ .
(٦) التاج جـ ١ ص ٦٤ .
(٧) المرجع السابق ج ١ ص٦٩ .
(٨) سورة آل عمران ١١٤ .

فإذا وصل المرء إلى هذا المستوى فقد تكون أخلاقياً وأصبح إنساناً خيراً كاملاً ، إذ الإنسان باكتماله أخلاقياً يكمل إيمانه ودينه ومن ثم يصبح مسلماً كاملاً ، ولهذا قال الرسول : «خيركم إسلاماً أحاسنكم أخلاقاً إذا فقهوا»[1] .

وأخيراً أكمل صورة للإنسان الذي يمكن أن تكونه التربية الأخلاقية هو ذلك الإنسان الذي يصل إلى مستوى يصبح فيه مفتاحاً للخير ومغلاقاً للشر في نفسه وفي مجتمعه ، وهذا ما عبر عنه الرسول بقوله : «فطوبى لعبد جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر»[2] .

وبناء على هذا كله يمكن أن نعبر عن آخر صورة للتربية الأخلاقية في نظر الإسلام بأنها تنشئة الطفل على المبادئ الأخلاقية وتكوينه بها تكويناً كاملاً من جميع النواحي ، وذلك بتكوين استعداد أخلاقي للالتزام بها في كل مكان ، وإشباع روحه بروح الأخلاق وذلك بتكوين عاطفة وبصيرة أخلاقية حتى يصبح مفاتيح للخير ومغاليق للشر أينما كان وحيثما وجد باندفاع ذاتي إلى هذا وذاك عن إيمان واقتناع وعن عاطفة وبصيرة ، وذلك باستخدام جميع الأسس والطرق والوسائل والأساليب التي تساعد على تحقيق وتكوين ذلك الإنسان الأخلاقي الخير .

وإنما قلت باعداد أولاً لأنها تفيد الاعتياد والاعتياد له فائدة من حيث أنه يجعل الطفل يعتاد على السلوك الأخلاقي ويجعل هذا السلوك سهلاً عليه بطول المران ، ولهذا نجد الرسول كان يعود الأطفال الذين نشأوا في بيته على بعض المبادئ والآداب مثل آداب الأكل[3] وكان يأمر بتعويد الأطفال على الواجبات مثل الصلاة إذا بلغوا سبع سنين[4] قبل أن يصلوا إلى سن التكليف لكي يسهل عليهم أداؤها إذا بلغوا سن التكليف . لكن مجرد الاعتياد لا يكون الأخلاق لأننا نجد كثيراً من الناس

---

(١) كتاب الأدب المفرد للإمام البخاري باب حسن الخلق ص ١٠٧ .

(٢) المقاصد الحسنة ص ١٢٩ . سنن ابن ماجة ج ١ ص ٨٧ .

(٣) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الأطعمة ج ١١ ص ٤٥٠ .

(٤) المستدرك على الصحيحين في الحديث كتاب الصلاة ج ١ ص ١٦٧ .

قد نشأوا على الاعتياد في أسر متدينة . فإذا ما خرجوا عن أسرهم أو مجتمعهم يتركون الواجبات وينحرفون سريعاً عن الجادة ، ولهذا فإن للاعتياد أثراً تربوياً في المراحل الأولى ، لكن من الخطورة بمكان الاكتفاء به ، بل لا بد من أن يعقبه تبصير بقيم الأخلاق ولا بد من تكوين إيمان قوي بالأساسيات النظرية للسلوك الأخلاقي ليكون المتربي واقفاً على أرض صلبة في مسلكه لا تزعزعه التيارات المتعارضة التي تهب من الشرق أو من الغرب . ولا بد من تكوين عاطفة أخلاقية لأن مجرد التبصير لا يكفي أيضاً . ولا بد من أن تكون وراء ذلك طاقة عاطفية تدفعه إلى السلوك الأخلاقي . وهنا سنجد أنفسنا مضطرين إلى استخدام بعض أساليب التقلين وطرقه لتكوين تلك العاطفة ، وخاصة في بعض المراحل التربوية . لكن الاقتصار على طريقة التلقين في التربية الأخلاقية خطأ شنيع في ميدان التربية المتكاملة ، ولاقتصار تربية الآباء والمعلمين بصفة عامة الآن على التلقين في التربية نجد قلة التربية وكثرة الانحراف والأحداث .

بعد ذلك لا بد من تكوين قوة الإرادة ، لأن الكثير من الناس ومن الشبان يرون الاستقامة فضيلة لكن لضعف إرادتهم في المواقف الضاغطة والمثيرة لا يستطيعون التغلب على الشهوات والأهواء أو لا يستطيعون مواجهة المواقف الأخلاقية التي تتطلب الشجاعة أو البسالة التي لا تكون بدون تكوين قوة الإرادة ولا يمكن تكوين استعداد أخلاقي متكامل بدون تكوين قوة الإرادة وأن تكون هذه الإرادة خيرة ، وتطهير نفسه من الميول السيئة والإرادات الشريرة ، وبدون هذا التطهير سيكون الاستعداد الأخلاقي ناقصاً ، بل يكون خطيراً ، لأن امتلاء النفس واختلاطها بالرذيلة والفضيلة وبالإرادات الخيرة والشريرة يجعل الإنسان يعيش في صراع أخلاقي دائم في نفسه وسلوكه .

ولهذا كان موقف الإسلام البدء بالتربية الأخلاقية من تطهير الباطن من الرذائل وحماية الأطفال من تسربها إلى نفوسهم ، كان ذلك موقفاً سليماً ، لتكوين استعداد أخلاقي من البداية ، وتنمية هذا الاستعداد للتحلي بالفضائل والرقي في درجات التكامل .

لكن لا يمكن تربية الطفل على ذلك النحو وتكوين دلك الاستعداد وتلك العناصر الأخلاقية الأساسية في نفس المتربي بحيث يتشبع بها عقله وروحه، إلا عن طريق استخدام كل الطرق والوسائل الخاصة بكل جانب من تلك الجوانب التربوية.

وسنجد في الإسلام أنه قد بين تلك الطرق والأساليب والوسائل الخاصة بمختلف مراحل هذه التربية وذلك لتكوين كل عنصر من عناصر التربية الأخلاقية مثل عنصر العاطفة والبصيرة والإرادة وما إلى ذلك. وسنشرح ذلك بالتفصيل مدعماً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في الأبواب القادمة وخاصة عند الكلام عن مراحل التربية الأخلاقية وطرقها ووسائلها عند الحديث عن اساليب هذه التربية.

من هذا كله نستطيع أن نقرر خصائص المفهوم الإسلامي لحقيقة التربية الأخلاقية ومميزاتها في النقاط الآتية:

أولاً: أن نظرة الإسلام إلى حقيقة التربيةالأخلاقية تتسم بالعمق والشمول بالنسبة إلى نظرة فلاسفة التربية، لأنها أكثر عمقاً من أية نظرة من تلك النظرات أو الآراء وأكثر شمولاً، لأنها لا تقتصر على وجهة نظر واحد من أولئك المربين وليست مقابلة لوجهة نظر معينة أيضاً.

ثانياً: إن وجهة نظر الإسلام متكاملة في هذه التربية لأنها تتناول جميع الجوانب الإيجابية للتربية الأخلاقية المتكملة. وبالنظرة الفاحصة يجد الإنسان أن كل العناصر التي أدخلها الإسلام في طبيعة التربية الأخلاقية ضرورة لا بد منها لكي تكتمل هذه التربية، ولكي يكتمل المتربي أخلاقياً وإذا نقص أي عنصر من عناصرها أدى إلى النقص في هذه التربية.

ثالثاً: إن الإسلام دعا إلى استخدام جميع الطرق والوسائل والأساليب التربوية على حسب تأثيرها ومقدارها اللازم في كل مرحلة من مراحل التربية الأخلاقية. فالاقتصار على طريقة واحدة أو وسيلة واحدة على امتداد مراحل التربية أو التركيز

على بعضها دون بعض أقل مما ينبغي أو أكثر مما ينبغي يكون له أثر سلبي في التربية ، ويؤدى الأمر في النهاية إلى انسجام في شخصية المتربي الأخلاقية وموازنة في السير على الطريق المستقيم .

رابعاً : يقتضي هذا وذاك عدم الأخذ بأي اتجاه تربوي سابق لدى فلاسفة التربية ومحاولة التوفيق بينه وبين الاتجاه التربوي الإسلامي لمجرد أن هناك اتفاقاً بينه وبين وجهة نظر الإسلام ثم محاولة حمل جميع النصوص الواردة في الإسلام وتأويلها على ذلك الأساس كما يفعل بعض الدارسين ، إذ إن ذلك الاتفاق اتفاق في الجزء لا في الكل . فإن كل اتجاه من تلك الاتجاهات يمثل جزءاً من حقيقة التربية الأخلاقية في نظر الإسلام .

خامساً : إدخال ذلك المفهوم الواسع الشامل للأخلاق الإسلامية في وعي المتربي وذلك على النحو الذي بيناه وفصلناه عند تحديد مفهوم الأخلاق الإسلامية .

سادساً : تدريبه في جميع تلك الميادين الأخلاقية وتربيته على أساس ذلك المفهوم الواسع الشامل لميادين الأخلاق الإسلامية ، لأن مجرد تعليمه ذلك المفهوم لا يكفي ، بل يجب إضافة إلى ذلك تربيته وفقاً لذلك المفهوم .

ولا بد من تدريب الأولاد على المسارعة الى الخيرات ومواجهة الشرور والأمر بالأول والنهي عن الثاني في المدرسة وخارجها وعلى المجاهدة في هذا الميدان ليتحولوا الى جنود الخير .

سادساً: غاية التربية الأخلاقية الإسلامية

إن تحديد غاية هذه التربية ضروري ومهم من عدة نواح :

الأولى : إن ذلك تقتضيه دراسة فلسفة التربية بصفة عامة كما بيناها عند دراسة خصائص فلسفة التربية .

الثانية : إن ذلك يساعد على تحديد قيمة التربية الأخلاقية ، لأن الأمور تقيم بحسب ذاتها وبحسب غايتها معاً .

الثالثة : إن تحديد الغاية يقوم بدور كبير في تكييف وتحديد مجال هذه التربية ورسم الطرق والوسائل التي تحقق تلك الغاية . وقسمت هذه الغاية إلى قسمين : غاية قريبة وأخرى بعيدة .

أما فيما يتعلق بالغاية القريبة من التربية الأخلاقية فهي تكوين إنسان خير . وقد حدد الرسول شخصية هذا الإنسان الخير بأنه يصبح «مفاتيح للخير مغاليق للشر»[1] ومعنى مفاتيح الخير أنه أينما يجد الخير يسعى إليه ويأمر الناس به ويعمل لإزالة العراقيل من طريقه أي لا يفعل إلا الخير . ومعنى مغاليق للشر أنه يكف أولاً عن ارتكاب الشر ، لأن الخير لا يفعل شراً ويرجح تحمله على إرتكابه لأن ارتكابه أفدح ضرراً من تحمله ، وقد بين الرسول كيف يبتعد الرجل الخير عن ارتكاب الشرور ويرجح تحمل الظلم على فعله عندما قال : «ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيراً من الجالس والجالس خيراً من القائم والقائم خيراً من الماشي والماشي خيراً

(١) أ ـ رواه ابن ماجة والطيالسي مرفوعاً ـ كشف الخفاء ومزيل الألباس ج ١ ص ٢٩٨ ،
ب ـ المقاصد الحسنة . الإمام شمس الدين السخاوي ص ١٢٩ .

من الساعي» . . . فقال أحد الصحابة يا رسول الله أرأيت إن دخل عليَّ بيتي وبسط يده ليقتلني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن كابني آدم وتلا[1] قوله تعالى : «لئن بسطت إلي يدك»[2] وهو بذلك يشير إلى قصة ابني آدم ، ونحن نعلم هذه القصة وهي عبارة عن أن أحد ابني آدم عندما أراد قتل أخيه قال له أخوه : «لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين»[3] . هذا إلى أنه لا يكتفي بالكف عن الشر فحسب بل يسعى مع ذلك للحيلولة دون وقوعه من غيره ، وإذا وجد باب الشر مفتوحاً يسعى لإغلاقه وإذا وجد باب الخير مقفولاً يسرع إلى فتحه ، ولهذا عبر الله تعالى عن صفتهم الخيرية هذه بقوله : «يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين»[4] والمعروف هو الخير والمنكر هو الشر .

وهناك ميزة أخرى للشخصية الخيرة التي تهدف التربية الأخلاقية إلى تكوينها وهي الانفتاح للخير عن حب للخير والإسراع إليه عن رغبة فيه والاجتناب للمعاصي عن كره لها لا اتباعاً للعادة ولا خوفاً من عقاب القوانين أو تعيير المجتمع ، لأن هذه الشخصية ليست إمعة للناس في عملهم الحسن والسيء معاً ، لأن الرسول قال : «لا تكونوا إمعة تقولون أن أحسن الناس أحسنَّا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا»[5] . وقال تعالى عن حبهم للفضيلة وحبهم إيثار مصلحة غيرهم على أنفسهم : «يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة»[6] ثم إلى جانب كل هذه الصفات الخيرة النيرة يتسابقون في عمل الخيرات «أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون»[7] .

---

(١) سنن أبي داود كتاب الفتن ج٤ ص١٤٠ .
(٢) سورة المائدة ٢٨ .
(٣) سورة المائدة ٢٨ .
(٤) سورة آل عمران ١١٤ .
(٥) التاج ج٥ / ص٢٢ .
(٦) سورة الحشر ٩ .
(٧) سورة المؤمنون ٦١ .

من هذا كله يتبين لنا أن تكوين إنسان خير يتضمن من المعاني أكثر من مجرد تكوين إنسان كامل يراه بعض المربين[١] ، أو الوصول بالإنسان إلى نباله الخلق كما يراه البعض الآخر[٢] . أو تكوين إنسان تام كما يراه البعض[٣] لأن هذه الكلمات قد تفيد التخلق الظاهري فحسب لا التخلق الباطني أو روح التخلق كما تفيد كلمة الخير ، لأن الإنسان قد يتخلق بمظاهر الأخلاق فقط ، فالتخلق بروح الأخلاق وظاهرها معاً هو الذي يجعل الإنسان خيراً ، أي يجعله يسعى للخير أينما كان ويفتح أبوابه إذا وجدها مقفولة ، ولا يكتفي بالكف عن الشرور وإنما يسعى باستمرار للحيلولة دون وقوع الشرور كما يسعى لقفل أبوابها ونوافذها أينما وجدها مفتوحة .

وأما فيما يتعلق بالغاية البعيدة من هذه التربية فهي الوصول بالإنسانية إلى سعادة الدارين . وتلك الغاية أساساً غاية الأخلاق والتربية الأخلاقية تأخذ غايتها من غاية الأخلاق لأن هدفها تحقيق تلك الغاية .

تلك حقيقة نجدها واضحة إذا أمعنا النظر في حكمة الأخلاق الإسلامية والقيم التي تحملها ، وكذلك نجدها واضحة وصريحة في كثير من النصوص القرآنية والسنة النبوية ، أقول ذلك عن إيمان وثقة لأنني درست القيم النظرية والعملية لهذه الأخلاق دراسة مفصلة في بحثي الخاص عن الأخلاق[٤] فقد بينت هناك قيمها الصحية والاقتصادية والإنسانية والإبداعية والمادية والمعنوية والفردية والاجتماعية الأمر الذي يجعلني أقول بكل تأكيد بأنه لا يمكن تحقيق السعادة بدن اتخاذ هذه الأخلاق طريقة ومنهجاً في الحياة الفردية والاجتماعية معاً .

ومع ذلك ، لكيلا يكون كلامي هنا مجرد دعوى بدون دليل أريد أن أسوق

---

(١) تهذيب الأخلاق . ابن مسكويه ص ٤٠ .

(٢) الأخلاق والسلوك في الحياة . وليم مكدوجل ص ١٣٣ .

(٣) تهذيب الأخلاق وينسب إلى ابي زكريا يحي بن عدي ص ٥٦ .

(٤) انظر الجزء الأول من هذه الموسوعة ص٣٢٣ .

مجموعة من الأدلة الصريحة من النصوص ومع تدعيمها بالأدلة العلمية الحديثة التي يشهد بها العلماء المحدثون في هذا العصر عصر العلوم المزدهرة بالتجربة والواقع .

فقد قرر الإسلام بكل صراحة أن أحسن الأخلاق طريق سعادة الإنسان وسوء الأخلاق طريق شقاوته ، فقال الرسول ، : «من سعادة المرء حسن الخلق ومن شقاوته سوء الخلق»[1] ، ويعلل الإسلام لماذا كانت الأخلاق الحسنة طريق السعادة والأخلاق السيئة طريق الشقاوة بأن مبادئ الأخلاق الحسنة تحمل في طياتها أسباب السعادة وسوء الأخلاق تحمل أسباب الشقاوة ، فمن أسباب السعادة وجود الصحة الكاملة النفسية والجسمية وانعدام هذه الصحة يؤدي إلى التعاسة والشقاوة ، وهناك علاقة بين الأمراض النفسية والجسمية فإن كثيراً من الأمراض النفسية تؤدي مثلاً إلى أمراض بيولوجية والعكس صحيح ، يقرر ذلك كثير من العلماء الغربيين[2] .وإذا كان معظم الأمراض النفسية أسبابها الانحرافات الأخلاقية كما يقرر ذلك بعض العلماء ومنهم هادفيك الذي يقول في هذا الصدد : «كل مرض نفسي ينطوي على نقص خلقي»[3] فإن الإسلام قد قرر ذلك قبل هؤلاء وبين العلاقة بين الانحراف الأخلاقي والأمراض النفسية ثم بينها وبين الأمراض الجسمية بشكل واضح وصريح فقال الرسول : «من ساء خلقه عذب نفسه ومن كثر همه سقم بدنه»[4] .

ولهذا فإن الله قد عبر بالشفاء عما جاء في القرآن من مبادئ لعلاج مثل هذه الأمراض ، لأنها لا تشفى بغير هذه المبادئ فقال تعالى «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً»[5] ، وهذه المبادئ شفاء

(١) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج ١ ص١٣٢ .

(٢) العلاج النفساني قديماً وحديثاً . حامد عبد القادر . من مؤلفات جمعية الفلسفة المصرية . عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ص ١٣٨ .

(٣) الفلسفة الخلقية ، دكتور توفيق الطويل ص ٤٦٨ .

(٤) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٥٨ .

(٥) سورة الإسراء ٨٢ .

للمؤمنين ، لأنهم يلتزمون بها بحكم إيمانهم وخسارة للظالمين ، لأنهم لا يلتزمون بها بحكم كفرهم بها وعنادهم لها .

ويقول الإمام الفخر الرازي في تفسير الآية عن معنى الشفاء : «أعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية وشفاء أيضاً من الأمراض الجسمية . أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة والعادات المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض . فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحية»(١) .

ويجب أن نوضح هنا أنه ليس معنى أن القرآن شفاء لهذه الأمراض أن قراءته على المريض أو تعليق المكتوب من الآيات عليه وما أشبه ذلك شفاء أيضاً كما يفهم ذلك بعض الجهال وإنما معنى الشفاء أنه جاء فيه من المبادئ التي تكفي لوقاية الإنسان من تلك الأمراض إذا التزم بها الناس ظاهراً وباطناً .

ثم إن المرض النفسي قد يكون أشد تعذيباً للإنسان من المرض الجسمي وخاصة الأمراض الناشئة أساساً من سوء الأخلاق ، ولهذا يعبر بعضهم عنها بعذاب الوجدان فيقول عنه الدكتور عادل العوا «أما عذاب الوجدان أو وخز الضمير وتأنيبه فهو ألم معنوي . . . إنه هو الذكرى التي تعض قلب المجرم ولا تفارقه ليل نهار»(٢) .

ويقول عنه جان جاك روسو : «إن الشر الخلقي والألم المعنوي من صنعنا بغير جدال أما الألم الجسدي والشر البدني فلا يمكن أن يقام لهما وزن لولا رذائلنا التي تجعلنا نحس الآلام»(٣) .

إذن لا يمكن أن يشعر الإنسان بسعادة ما دام غير مستقيم في حياته أخلاقياً ما دام

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢١ ص ٣٤ .

(٢) الوجدان . دكتور عادل العوا . مطبعة جامعة دمشق ص ٥٧ .

(٣) أميل . جان جاك روسو ص ٢١٢ .

عذاب الوجدان يلازم المنحرف ويعض قلبه باستمرار ، وهل يستوي هذا المنحرف مع المستقيم الذي لايشعر بأي نوع من عذاب الوجدان ، لأنه لم يسيء إلى نفسه ولا إلى غيره بسوء أخلاقه وانحرافاته ، ولهذا قال تعالى : «أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم»[1] مستقيم لأن فيه طريق الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة «قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم . . . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . . . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون»[2] وهنا نجد سير ريتشرد لفنجستون وكيل جامعة أكسفورد سابقاً يتفق تصويره لحياة المنحرفين أخلاقياً مع ما قرره الإسلام من قبل يقول : «إن الحياة لا معايير خلقية لها هي من بين جميع ألوان الحياة أعظمها حقارة وجدباً وهي مريرة الوخز في حنايا الضلوع حتى وإن كانت حلوة المذاق للشفاه»[3] .

هذا ما يلاقي المنحرف من عذاب النفس أو الوجدان المستمر في هذه الحياة ولكن هناك عذاباً أشد وأنكى ينتظره أيضاً في الآخرة يصور الله ذلك العذاب الذي أعده للمجرمين في الآخرة بقوله : «من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا»[4] وقال تعالى «فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض»[5] .

أما الذين استقاموا على الطريقة فناجون أولاً من آلام الوجدان وعذاب الضمير المستقيم ويفلحون في حياتهم ويعيشون بقلب منشرح ونفس مسرة في هذه الحياة . أما حياتهم في الآخرة ففي سعادة دائمة وتلك هي السعادة الحقيقية ، ولهذا

---

(١) سورة الملك ٢٢ .

(٢) سورة المؤمنون ١ ـ ١١ .

(٣) التربية لعالم حائر . سير ريتشرد لفنجستون ص ١٧ .

(٤) سورة طه ٧٤ .

(٥) سورة هود ١٠٦ ـ ١٠٧ .

قال تعالى : «وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض»[1] وهذه السعادة الحقيقية لا تأتي أو تتحقق بدون الالتزام بحسن الخلق في هذه الحياة ولهذا قال الرسول : «والذي نفسي بيده لا يدخل أحد في الجنة إلا بحسن الخلق»[2] وقال أيضاً : «إن العبد المسلم بحسن خلقه حتى يدخله حسن خلقه الجنة»[3] وإذا كان طريق السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة هو تحسين الخلق فإن الطريق الوحيد لتحسين الأخلاق هو التربية الأخلاقية لأنها هي الوسيلة الوحيدة التي تمكن المرء من تهذيب أخلاقه ورقيه من الناحية الأخلاقية حتى يدخل الجنة . وإذا كان الأمر كذلك فإن التربية الأخلاقية هي الوسيلة الوحيدة ليحصل الإنسان سعادة الدنيا وسعادة الحقيقة في الآخرة .

لكن ليس كل التخلق يحقق السعادة وإنما هناك نوع واحد من التخلق يحقق السعادة فما هو هذا التخلق الذي يحقق السعادة وما هي حقيقة هذه السعادة وما الطريق إليها؟

أمران مرتبطان أحدهما بالآخر لا بد من تحديدهما لتكون غاية التربية الأخلاقية واضحة لدى المربين ، والمتربين ، وذلك ليستطيع المربي تحديد الغاية أمام المتربي وتحديد طريقة ونوع التخلق الذي يجب أن يتخلق بها المتربون ليصلوا إلى السعادة في نهاية المطاف .

ولنبدأ بتحديد السعادة والطريق إليها ومن خلاله يتحدد لنا نوع ذلك التخلق الذي يؤدي إلى هذه السعادة .

كنت عالجت هذا الموضوع في بحث خاص باسم طريق السعادة في الإسلام ولا أريد إقحامه هنا ، لأن المجال المخصص للسعادة هنا لا يتحمله وإنما أريد وضع هيكل

---

(١) سورة هود ١٠٨ .

(٢) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج ١ ص ١٣٣ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٣٤ .

الفكرة العامة فحسب ، فالسعادة هي الشعور المستمر بالغبطة والطمأنينة والأريحية والبهجة التي تأتي نتيجة الإحساس الدائم بخيرية الذات وخيرية الحياة وخيرية المصير .

ولكن لا يمكن أن يتحقق الإحساس الدائم بخيرية الذات إلا بتحقيق الأمور الأربعة الآتية :

الأمر الأول : أن تكون نيات الإنسان وغايته خيرة في حياته كلها ، لأن من ينوي سوءاً أو يريد شراً فلا يمكن أن يأتيه إحساس بأنه إنسان خير ، بل إن نياته هذه تجعله يحس بأنه إنسان شرير والإحساس بذلك يعكر صفو نفسه ويزيدها هماً على هم ، ثم يضيق به صدره ويرتاب خوفاً من أن ينكشف شيء من سريرته السيئة .

وقد عبر الله تعالى عن الحالة النفسية لأصحاب النيات السيئة أصدق تعبير بقوله : «فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين»[١] وقال «وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون»[٢] ثم إن الله تعالى عبر عن هذه الحالة النفسية بالمرض وهو مرض بشع ورجس فقال «في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم»[٣] إذن لانقاذ الإنسان نفسه من هذه الحالة النفسية المرضية يجب أن يجعل نياته خيرة في حياته .

الأمر الثاني : الكف عن جميع الشرور ، ذلك أنه إذا كان مجرد إرادة الشر يكون له ذلك التأثير فإن فعل الشرور والسيئات أدهى وأمر . وكما بينا آراء العلماء كيف تكون وطأة ارتكاب الشرور على نفس المجرم وشعوره الدائم بعذاب الوجدان من جراء ارتكابه الشرور وكيف أن هذه الحالات النفسية تكون سبباً لأمراض بيولوجية أخرى .

---

(١) سورة المائدة ٥٢ .

(٢) سورة التوبة ٤٥ .

(٣) سورة التوبة ١٢٥ .

الأمر الثالث : فعل الخيرات بالنيات الخيرة ، إذ الشعور بخيرية الذات لا يأتي الإنسان إذا لم يفعل الخير بإرادة خيرة ، ويسعى لتلك الخيرات في كل مكان وفي كل الظروف ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

عندئذ يكون له ثلاث روافد تزوده بالخير :

الأول : الشعور الذاتي بأنه انسان خير ويجد في نفسه السرور وانشراح الصدر .

الثاني : يجازيه الناس بالخير وبالمعاملة الحسنة لإحسانه إلى الناس .

الثالث : أن الله ييسر أمره ويجعله يعيش حياة طيبة «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّهُ حياة طيبة»[1] ويحسن إليه أكثر مما أحسن هو إلى الناس «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة»[2] ثم يهديه إلى الصواب وأسباب التيسير في أموره ما دام يعمل ذلك بإيمان بالله وبنية صالحة «وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ثم أتبع سبباً»[3] «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى»[4] .

الأمر الرابع : أن تكون أعمال المرء متفقة مع ما يعتقده أو ألا تعارضه وتناقضه على أقل تقدير ، ذلك أنه إذا تعارضت حياة الإنسان العملية مع معتقداته يحصل عنده صراع نفسي وتشتت وانشقاق في ذاته بسبب إحساسه بالذنب ، إنه لا يسير وفقاً لما يعتقده ، لهذا نجد الحكماء وعلماء النفس ينصحون بالتنسيق بين أفعاله وبين قيمه ومعتقداته[5] ولهذا قال تعالى : «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»[6] لأن من ينسق بين معتقداته وأعماله يشعر بالأمن ثم لا يخاف ولا يحزن لأنه يشعر عندئذ في قرارة نفسه بأنه خير ولهذا قال تعالى : «من

(١) سورة النحل ٩٧ . (٢) سورة يونس ٢٦ . (٣) سورة الكهف ٨٨ ـ ٨٩ .

(٤) سورة الليل ٥ ـ ١٠ .

(٥) الصحة النفسية . دكتور مصطفى فهمي .ص ٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩

(٦) سورة الأنعام ٨٢ .

آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[1] ولماذا يخاف وهو لم يسيء إلى أحد ليخاف ممن أساء إليهم ولم يعص الله أيضاً ليخاف من عذابه ويحزن على سيئاته وذنوبه . وهنا نجد أفلاطون يتفق في تقريره مع الإسلام حيث يقول مثلاً : «إن النفس تجد طمأنينة تامة وقوة أيما قوة عندما تتفق إحساساتها وأعمالها فتغتبط بأنه ليس لها أن تعود باللائمة على نفسها في فكرة أو عمل ظالم في حق الله أو في حق الناس»[2] ،وكذلك نجد تقرير العالم النفسي الشهير فرويد يؤيد ما سبق أن قرره الإسلام فقال فرويد «إن الإحساس بالذنب يسبق أغلب الأمراض المعروفة فهو السبب الدفين للخجل وضعف الثقة بالنفس وإزدراء النفس والشك والتوجس وتجسيم التوافه والشعور بحقارة النفس والنقص والاكتئاب والمخاوف بأنواعها»[3] ويقول هنا الدكتور إبراهيم وجيه : «فعصاب القلق هو مرض الإنسان المقهور بالرغبة ، الذي تنزع نفسه لأشياء لا ترضى عنها قيمهُ وخلقه»[4] .

أما فيما يتعلق بتحقيق الإحساس بخيرية الحياة : فيتحقق ذلك بشرطين أساسيين : الأول : يتوقف على تحقيق الإحساس بخيرية الذات وذلك بالأمور التي سبق ذكرها ذلك أنه لم يشعر المرء بخيرية ذاته فلا يستطيع أن يكون الإحساس بخيرية الحياة .

الشرط الثاني : تحقيق الصحة الكاملة وأعني بالصحة الكاملة في نظر الإسلام الصحة الجسمية والنفسية والعقلية والوجدانية والروحية والعاطفية وبذلك يفوق مفهوم الصحة في نظر الإسلام المفاهيم السائدة الآن في الصحة يطول بنا المقام لو فصلنا ذلك كله ، أقول ذلك بعد أن وجدت تلك الجوانب متكاملة في الفكر الإسلامي الصافي ، كما أنني ذكرت ذلك بشيء من التفْصيل في بحثي الخاص

---

(١) سورة المائدة ٦٩ .

(٢) مقدمة علم الأخلاق لأرسطو ص ٣٥ .

(٣) سيكولوجية الشذوذ النفسي ص ٢٠٩ . فرويد . دار منشورات حمدو ممبو . بيروت .

(٤) صحة النفس . الدكتور ابراهيم وجيه ص ٦٣ .

عن طريق السعادة في الإسلام وبينت هناك أنه لا يمكن أن تتوافر هذه الجوانب من الصحة إلا إذا طبق الإنسان كل المبادئ الأخلاقية المتعلقة بتلك الجوانب ، ولأن الانحرافات الأخلاقية أو الأمراض الأخلاقية تؤثر في اعتدال تلك الجوانب أو تكون سبباً للأمراض الجسمية والنفسية والعقلية والروحية والوجدانية وما إلى ذلك ، ولهذا لا أريد الدخول هنا في كثرة من شرح التفصيلات الجزئية لأنها لا تدخل في جوهر موضوعنا هنا . ولكن أريد أن أعالج بشيء من الإيجاز جانباً مهماً من التفكير الأخلاقي الإسلامي الذي يتعلق بالشعور بخيرية الحياة الذي لا يوجد بدون وجود صحة النظر إلى الوجود وإلى الحياة ، ألا وهو النظرة التفاؤلية إلى الوجود وإلى الحياة بدلاً من النظرة التشاؤمية لدى بعض الفلاسفة الذين سنتكلم عنهم .

ذلك أن الإسلام يقرر أولاً العناية الإلهية في خلق الكون والإنسان بل إن الله خلق الكون للإنسان وسخر له ما فيه وخلق فيه كل ما يحتاج إليه ، وهناك آيات كثيرة تقرر ذلك ، منها مثلاً قوله تعالى : «الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه (أي احتجتموه) وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إنّ الإنسان لظلوم كفار»[1] ، وفعلاً عندما يكفر الإنسان بالله وبعنايته ورعايته والاعتراف بأن هذه النعم خلقها بإرادته لعباده عندئذ يقع في التشاؤم ، ومن ثم يعيش في ظلام قاتم من الحياة لا نور فيها ولا أمل ولا شعور برعاية .

هذا فيما يتعلق بالأساس النظري للتفاؤل في الإسلام ، أما فيما يتعلق بالحياة فإننا نجد مظاهر التفاؤل واضحة في جميع مناحي الحياة ونجد ذلك بكل وضوح في النصوص الإسلامية مثل ما رواه ابن ماجه أن الرسول «كان يعجبه الفأل الحسن ويكره الطيرة»[2] ، ولهذا كان يدعو إلى التبشير لا التنفير وكان يقول «بشروا ولا

---

(١) سورة ابراهيم ٣٢ ـ ٣٤ .

(٢) سنن ابن ماجه كتاب الطب ج٢ ص ١١٧٠ .

تنفروا»[1] وكان يعد التشاؤم من سوء الأخلاق ويقول «سوء الخلق شؤم»[2] ونفى أصل التشاؤم في الأشياء التي كان العرب يعتقدونها مثل الطيرة والهامة[3] والغول[4] وما إلى ذلك . ثم دعا من ناحية أخرى إلى حسن الظن بالناس «ومن أساء الظن بأخيه فقد أساء بربه لأن الله تعالى يقول : «اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم»[5] لأن من أساء الظن بالناس عاش في توجس وقلق إزاء معاملتهم وقال الرسول في حسن الظن بالله راوياً عن ربه قال تعالى : «أنا عند ظن عبدي بي إن خيراً فخير وإن شراً فشر»[6] ، لأن من أساء الظن بالله يعيش في رعب مستمر .

ولتحقيق التفاؤل والشعور بالبهجة وجه الإسلام نظر الإنسان إلى ما في الكون من بديع الصنع وما في المخلوقات من جمال المنظر والصور لأن ذلك يحقق أولاً حاجة من حاجات النفس الإنسانية وهي حاجة إشباع عاطفة الجمال إذ إن بعض علماء النفس يضعون هذه الحاجة في الدرجة السابعة من الحاجات الأساسية للطبيعة الإنسانية[7] .

والدليل على وجود الحاجة أيضاً أننا نبتهج بالجمال كما ندفع ثمناً زائداً عند شراء المصنوعات إذا كان فيها جمال وصنع بديع ، نرجح الجميل على غير الجميل . ولأن ذلك الابتهاج بالجمال يحقق لنا ثانياً الشعور بالسعادة عند الاستماع بجمال الكون ، لذا نرى كثيراً من الآيات وجهت نظرنا إلى جمال المخلوقات المحيطة بنا . ففيما يتعلق بجمال النباتات قال تعالى «وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة»[8] «وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات»[9] .

---

(١) التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول كتاب العلم ج ١ ص ٧١ .

(٢) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد جـ ١ ص ١٣٠ .

(٣) فتح الباري بشرح البخاري ج ٢٢ ص ٣٣٠ .

(٤) صحيح مسلم كتاب السلامج ١ ص ١٧٤٤ .

(٥) منتخب كنز العمال ج ١ ص ٢٨٠ .

(٦) الجامع الصغير للامام السيوطيج ١ ص ٧٧ .

(٧) الانسان معجزة الخلق .دكتور جاك فرج جوده ص ٩٣ .

(٨) سورة النمل ٦٠

(٩) سورة الانعام ١٤١ .

وفيما يتعلق بجمال الحيوانات . قال تعالى «والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . . . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة»[1] .

وفيما يتعلق بجمال السماء قال تعالى «إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب»[2] «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها»[3] .

وفيما يتعلق بجمال وتزين الإنسان نفسه وتصرفاته وأقواله قال تعالى «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد»[4] ، لأن المسجد مكان التجمع ينبغي ألا يرى الإنسان فيه من الناس إلا ما يسره ولا يشم إلا رائحة طيبة أيضاً ولهذا دعا الإسلام إلى التعطر وخاصة أيام الجمعة[5] ، ولهذا السبب أيضاً دعا إلى التزين بصفة عامة لأن هذه الزينات أخرجها الله لعباده ولحاجتهم إليها «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق»[6] ، ولهذا السبب كذلك دعا إلى الطهارة والنظافة لأن منظر القذارة يؤذي الشعور والعاطفة الجمالية في الإنسان . ويجعل الإنسان يتأذى بدلاً من أن يسر فقال الرسول «إن الله نظيف يحب النظافة»[7] فقد اهتم بالنظافة والطهارة حتى جعلها شطر الإيمان فقال «الطهور شطر الإيمان»[8] ثم بعد هذا كله دعا إلى أن يكون كلام الإنسان حسناً طيباً وألا يستخدم كلمات قبيحة في محادثته فقال تعالى «وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن»[9] ولو كان ذلك في رفع الأذى عن نفسه فقال تعالى : «ادفع بالتي هي أحسن السيئة»[10] حتى ولو في المجادلة

(١) سورة النحل ٥، ٦، ٧، ٨ .
(٢) سورة الصافات ٦ .
(٣) سورة ق ٦ .
(٤) سورة الأعراف ٣١ .
(٥) صحيح مسلم كتاب الجمعة ج٢ ص ٥٨١ .
(٦) سورة الأعراف ٣١ .
(٧) التاج كتاب الطهارة ج٣ ص١٠٠ .
(٨) صحيح مسلم كتاب الطهارة ج٣ ص١٠٠ .
(٩) سورة الإسراء ٥٣ .
(١٠) سورة المؤمنون ٩٦ .

والمناقشة وإن كان جداله مع غير مسلمين إذ قال تعالى «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن»[١] . وكذلك في أسلوب التحية فقال تعالى «وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها»[٢] وكذلك نجد الإسلام يدعو إلى أن تكون حركات الإنسان جميلة حتى في مشيه «واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير»[٣] «ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا»[٤] وكذلك في مقابلة الناس ينبغي أن يقابلهم بطلاقة وجه وابتسامه فقال الرسول «وتبسّمك في وجه أخيك صدقة»[٥] ذلك أنه كما يعد أي عطاء لآخر صدقه لأنه يحقق حاجة مادية فإن الابتسام يحقق حاجة عاطفية جمالية ، ولهذا يعد الرسول مقابلة الآخرين بصورة جميلة من الصدقة ، حتى في الجلوس مع الناس يدعو الإسلام إلى أن يتخذ المرء جلسة حسنة وهيئة جميلة في المجلس[٦] ثم إن إشباع عاطفة الجمال ليس ضرورياً لتحقيق السعادة فقط ، بل إنه ضروري أيضاً لتنمية الخلق وأن تنمية هذه العاطفة الجمالية لدى المتربين يمكن اتخاذها وسيلة لتنمية الخلق ، ذلك أنه كلما قويت العاطفة الجمالية تدفعه إلى أن يكون جميلاً في تصرفاته مع الناس وحسناً في معاشرته إياهم . ومن ناحية أخرى تزيل من نفسه وطبعه الخشونة والغلظة ومن هنا نرى سير رتشرد لفنجستون يدعو إلى تذوق الجمال ورؤيته وتأمل ما في الكون من جمال لأنهما طريق للتخلق[٧] ذلك أن الأخلاق دين الجمال كما يقول روسكين[٨] وكلما نما عنده الشعور الجمالي استطاع أن يتذوق قيمة الأخلاق في الحياة الإنسانية ، فيقول هنا جون روسكين : «إن الإخلاق دين الجمال والإنسان الذي يتأمل الجمال في الطبيعة وفي الفن إنما يتحد بالتعاطف مع الجمال الذي صنعه الله والجمال الذي صنعه الفنان وهذا الاتحاد يسبغ

(١) سورة العنكبوت ٤٦ .
(٢) سورة النساء ٨٦ .
(٣) سورة لقمان ١٩ .
(٤) سورة الإسراء ٣٧ .
(٥) تحفة الأحوذي بشرح الجامع الترمذي باب ما جاء في صنائع المعرف ج٦ ص ٨٩ .
(٦) التاج ج ١ ص٢٢٦ .
(٧) التربية لعالم حائر . لفنجستون ص ٦٩ .
(٨) المذاهب الأخلاقية ، دكتور عادل العوا ج٢ ص٥١٧ .

على نفس الإنسان حلة من السمو الخلقي فيشعر المرء باتقاد نبيل وسمو رفيع ويعيش في سعادة مطلقة سعادة الجمال»[1] ثم يكرر ويقول : «إن تعليم الذوق هو لا محالة تهذيب الطبع»[2] .

هنا نجد نظرة الإسلام التفاؤلية تتميز عن النظرة التشاؤمية لدى بعض الفلاسفة وخاصة لدى الفيلسوف شوبنهور الذي أخذت هذه النظرة عنده مذهباً منظماً حيث يقول «إن من واجبنا ألا نطرب ونفرح ، بل أن ننعي وننوح على وجود العالم الذي يفضل عدمه بكثير وجوده»[3] ذلك أنه كان يرى أن الحياة وهم أليم والتشاؤم صفة الوجود وجوهر الحياة[4] وكان يرى أيضاً أن الألم يستغرق كل شيء وأن الإرادة الكونية عمياء ولا خلاص إلا بالتغلب على هذه الإرادة[5] .

وبصرف النظر عن حيلولة مثل هذه الروح التشاؤمية دون شعور الإنسان بالسعادة فإنها تسبب للإنسان أمراضاً نفسية كما يقرر ذلك بعض علماء النفس : فيقرر واحد منهم هنا مثلاً «أنه يتحمل بفعل اتجاهه التشاؤمي هذا متاعب هي أشد وقعاً على نفسه وأعصابه من وقع الكوارث أو المآسي التي يتوقع حدوثها . . . ويستهلك اتجاهه التشاؤمي من طاقاته عبثاً ، لأنه لا يستطيع أن يتحكم في اتجاهه الخاطئ بأعمال قوة الإرادة ، ذلك لأن بواعث التشاؤم هي أبعد وأعمق من أن تنالها الإرادة الواعية»[6] .

إذن يتبين لنا من هذا كله أن الإنسان بهذه النظرة التشاؤمية لا يمكن أن يشعر ببهجة في أية ناحية من نواحي الحياة ، ومن ثم سيكون محروماً بالتأكيد من الإحساس بالسعادة ، بل يعيش دائماً في خوف وتوجس الشر من كل شيء وفي كل حال ، ومن هذا نعرف قيمة التفكير الإسلامي في هذا الصدد .

---

(١) المرجع السابق ج٢ ص٥١٧ . (٢) المرجع السابق .

(٣) دروس في الفلسفة . للإستاذ الدكتور محمد كمال جعفر مكتبة دار العلوم ص ٤٨ .

(٤) المذاهب الأخلاقية . دكتور عادل العوا . مطبعة جامعة دمشق ج٢ ص٤٧٧ ـ٤٨٢ .

(٥) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ١٩٦ .

(٦) الدكتور عزيز فريد في كتابه «الأمراض النفسية العصابية» . الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة ص ٣٤٨ .

لكن مع ذلك كل هذا لا يكفي ولا يكمل الشعور بالسعادة الكاملة إلا بإكتمال العنصر الثالث وهذا ما سنشرحه فيما يلي :

العنصر الثالث والأخير لتحقيق السعادة الكاملة هو كما بينا تحقيق الإحساس بخيرية المصير وضرورة ذلك تتبين من أن من ينتظر عاقبة سيئة أو شقاء مؤبداً أو فناء لا عودة بعده لمصيره النهائي . فلا يمكن أن يعيش سعيداً ولو كان في الجنة ، ذلك أن رأيه في مصيره النهائي السيء يؤثر في نفسه وفي حياته تأثيراً سيئاً ، وهذه الفكرة تتردد في ذهنه وتلازمه باستمرار ليلاً ونهاراً . لكن لا يمكن تحقيق الشعور بخيرية المصير في نفس المرء إلا بتحقيق خيرية الذات وخيرية الحياة أولاً ، وهما العنصران الأوليان اللذان ذكرناهما وشرحناهما حتى الآن وهما ضروريان لتحقيق هذا العنصر الثالث لأن من لم يشعر بخيرية ذاته أولاً ، ثم بخيرية حياته وأعماله ، أو بتعبير آخر إذا لم يكن خيراً في حياته العملية وفق اعتقاده وقيمه فلا يمكن أن ينتظر الخير والسعادة لا في مصيره القريب ولا في مصيره البعيد أيضاً . ولا بد مع هذا وذاك أن يكون مؤمناً بأن هذه الحياة لا تنتهي بالموت وإنما هي مقدمة لحياة أبدية يسعد فيها إلى الأبد من كان خيراً في هذه الحياة ، لذا فقد ربط الإسلام مصير الإنسان بالسعادة الأبدية في الآخرة ، لأن السعادة أمل الإنسان دائماً في النهاية إن عاجلاً أو آجلاً ، وهذا الأمل هو الذي يبعث في نفسه الطمأنينة والرضى ، وهذا ما يقرره أيضاً العالم النفسي فرويد فيما يتعلق بالسعادة النفسة[1] ، وربما يكون أكثر شعوراً بالسعادة إذا علم المرء حقيقة تلك السعادة في تلك الدار الآخرة التي لا تعب فيها ولا يخالطها غصة ولا هم ولا حزن ويوجد فيها من النعم الكثيرة التي لم تخطر على قلب بشر «مثل الجنة التي وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم»[2] «فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن أنس قبلهم ولا

---

(١) سيكولوجية الشذوذ النفس . فرويد ص ٢٨١ .

(٢) سورة محمد ١٥ .

جان كأنهن الياقوت والمرجان»[1] ، إذن فكيف لا ينعم بها الداخلون ويسعدون فيها «وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة»[2] وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار أيضاً أنها أبدية ولا سأم فيها ولا ملل فقال الرسول «ينادي مناد في أهل الجنة أن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وأن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وأن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً»[3] . إذن تلك هي السعادة الحقيقية ولا يمكن أن توجد بصورتها في هذه الحياة الدنيا «وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها»[4] .

ولكن هل يقتضي كون الأخلاق تؤدي إلى السعادة في النهاية في الدنيا والآخرة وأنها كنظام وضع لغاية تحقيق السعادة للإنسان ، هل يقتضي هذا أن يلتزم بها الإنسان من أجل السعادة أو بنية السعادة؟ .

إنه إذا كانت السعادة غاية الأخلاق وغاية الله من وضع نظامها الله في الالتزام بالأخلاق وتطبيق مبادئها وشكراً له لا أن تكون لوجه السعادة ، ليستطيعوا أن يكسبوا رضى الله وثوابه على التزامهم الأخلاقي ، ثم الدخول في السعادة الحقيقية في الحياة الآخرة لذا قال الرسول «فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص لوجهه»[5] «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[6] وغير ذلك من النصوص وسوف نعالج هذا الموضوع بشيء من التفصيل في فصل الجزاء والمعايير للتربية الأخلاقية . وإنما المهم هنا أن نقرر أنه إذا كان الإنسان يمكن أن ينال السعادة الدنيوية باتباع النظام الأخلاقي بنية السعادة فلا يمكن أن ينال السعادة الأخروية إلا إذا كانت غايته من الأخلاق وجه الله .

---

(١) سورة الرحمن ٥٦ ـ ٥٨ .   (٢) سورة الغاشية ٧ ـ ١٦ .

(٣) التاج الجامع للأصول في احاديث الرسول ج٥ ص ٤٢٢ .

(٤) سورة هود ١٠٨ .

(٥) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج ١ ص ١٠٨ .

(٦) فتح الباري بشرح البخاري بدء الوحي ج ١ ص١٣ .

بعد هذا كله لا بد من تقرير ما ننتهي إليه من استخلاص النتائج من دراستنا لهذا الموضوع في النقاط الآتية :

أولاً : أن هناك علاقة وثيقة بين غاية التربية الأخلاقية القريبة وغايتها البعيدة ، ذلك أنه إذا كانت غايتها القريبة تكوين إنسان خير ـ كما بينا ـ فإن تكوين إنسان خير هو الوسيلة الوحيدة لوصول الإنسانية إلى السعادة ، لأننا إذا كونا كل فرد من أفراد المجتمع تكويناً أخلاقياً خيراً فإنا نكون عندئذ قد كونا مجتمعنا خيراً أي يسعى كل فرد فيه لخير الآخرين ويسعى في الوقت نفسه لإزالة الشرور والمفاسد أو بتعبير إسلامي يصبح كل فرد فيه مفتاحاً للخير ومغلاقاً للشر . ومن ثم يصبح كل المجتمع مجتمعاً خيراً بمعنى الكلمة . وإذا أصبح المجتمع خيراً لا تبقى فيه الشرور والمفاسد ، وإذا زالت الشرور والمفاسد عن المجتمع أصبح هذا المجتمع سعيداً ، لأن الذي يشقي المجتمع هو الشرور والمفاسد المنتشرة فيه في الدرجة الأولى ، ويشقيه في الدرجة الثانية قلة الخير فيه ، أو عدم سيادة الخير وإنتشاره على كيان المجتمع كله ، فإذا تكون المجتمع الخير على النحو السابق تزول كل الشرور عنه ويعمه الخير كله .

إذن فإن غاية التربية الأخلاقية الإسلامية القريبة طريق وحيد لتحقيق غايتها البعيدة وهي تحقيق السعادة للمجتمع الإنساني .

ثانياً : أنه إذا كانت الغاية البعيدة للتربية الأخلاقية الإسلامية تحقيق السعادة للإنسانية فلا ينبغي أن يكون التخلق أو الالتزام بالأخلاق لمجرد الوصول إلى هذه السعادة بل ينبغي أن يكون لوجه الله وشكراً له للوصول إلى سعادة أكبر وأعم وأشمل ودائمة وهي سعادة الحياة الآخرة ، لأن من لم يلتزم بالفضيلة تقرباً إلى الله فإنه لا يدخل في سعادته الأخروية إلا المقربون الذين نالوا رضوانه ، وذلك لا يكون إلا بالإلتزام بالفضيلة خالصاً لوجهه «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى»[1] .

---

(١) سورة النجم ٣٩ ـ ٤٢ .

ثالثاً : أن على رجال التربية الأخلاقية أن يضعوا هاتين الغايتين في الإعتبار الأول ، قبل البدء بهذه التربية ، لأن أي عمل قبل تحديدها سيكون عشوائياً غير محدد وغير ناجح ، وذلك ليعلموا من البداية لتحقيق الغاية الأولى واضعين أمام أعينهم الغاية البعيدة حتى تتحقق في النهاية .

رابعاً : أن على المربين أن يبصروا المتربين بتلك الحقائق وأن يكونوا عندهم الوعي الكامل لغايتي التربية الأخلاقية ، ذلك أنه لا يكفي أن تكونا معلومتين بالنسبة للمربين فحسب ، بل ينبغي أن يكون ذلك واضحاً ومحدوداً بالنسبة للمتربين أيضاً ، لأن ذلك يبصرهم بالقيم الأخلاقية ودورها في تحقيق السعادة الإنسانية التي هي أمل الإنسان العاجل والآجل بالطبع ، وهذا أو ذاك يكون أدعى إلى الالتزام بالفضيلة والتخلق على ذلك النحو أي التخلق بروح التخلق لا بمظهره أو بشكله الصوري فحسب .

خامساً : أهمية ربط الاخلاق بالسعادة من ناحية التربية الاخلاقية من حيث دفع الناس وتحفيرهم الى التمسك بالقيم الأخلاقية ، ولخطأ تصور بعض الناس ان السعادة في الإنغماس في الشهوات من غير مراعاة القيم ولتعاستهم لذلك كله وجدت ان الامر يحتاج الى مزيد من الشرح والتفصيل ولهذا رأيت اخراج كتاب مستقل في هذا الموضوع وقد فعلت ذلك فعلا فكان عنوان الكتاب «طريق السعادة»[1] ثم زدت على ذلك باللغة التركية واخرجت كتابا بعنوان : «طريق السعادة وفلسفتها» .

(١) مطابع البكيرية ـ الرياض ١٤٠٧هـ



الفصل الثاني

دور التربية الأخلاقية الإسلامية
في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية

أولاً : دور التربية الأخلاقية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة في نظر المفكرين

علمنا فيما سبق بعض قيم التربية الأخلاقية وأهميتها في تكوين إنسان خير وتحقيق السعادة ، وأما أهمية هذه التربية في الجوانب الأخرى من الحياة الإنسانية فهي تلك التي تظهر بصورة واضحة في بناء الفرد والمجتمع والحضارة أو المدنية الأنسانية .

وإذا أبنا دور التربية الأخلاقية في هذه النواحي أيضاً نكون قد بينا مدى أهمية هذه التربية ومدى ما يستحق منا الاهتمام بها سواء كان في ميدان الدراسة أو في ميدان التربية العملية ، ذلك أننا لا نستطيع بناء الفرد والمجتمع والحضارة بدون اتخاذ التربية الأخلاقية وسيلة لذلك .

وإذا نظرنا رأي المفكرين والاجتماعيين في أهمية التربية الأخلاقية وجدناهم كلهم يلقون أهمية كبرى لدرجة أني لم أجد واحداً منهم يستهين بدور هذه التربية في هذا الميدان ، لهذا لا أريد أن أطيل في ذكر آرائهم وتنويعها ، كما فعلت في الموضوعات الأخرى . ومع ذلك أريد أعطاء بعض الأمثلة لكيلا يوجه إلينا نقد بأننا نسوق كلاماً من غير أي دليل أو نتقول على الناس :

ففي ميدان بناء الفرد يقول الدكتور ألكسيس كارل «يتساوى النمو العقلي الخلقي من حيث ضرورتهما للبشر ولكن الانحطاط الخلقي يؤدي إلى كوارث أفدح من تلك التي يؤدي إليها الانحطاط العقلي»[1] ويقول كانط «إن النقص

(١) تأملات في سلوك الإنسان ص ٧٩ .

الحاصل من إهمال التهذيب أشد وطأة وأضر بالإنسان من نقص التعليم ، فإن العلم يمكن تداركه في الكبر أما التهذيب وتحسين الخلق فهيهات هيهات أن يصلح شأنه بعد فوات فرصته في الصغر ، إن الخطأ في تهذيب الطفل لن يصلح أمد الدهر»[1] كذلك نجد الأمام الغزالي يعلق نجاح حياة الفرد وسعادتها على هذه التربية بقوله «إعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة . وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال له إليه فإن عود الخير وعمله نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ـ وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك»[2] .

أما فيما يتعلق بالبناء الاجتماعي فإن التربية الأخلاقية تقوم بثلاثة أدوار مهمة :

المهمة الأولى : بناء المجتمع القوي البنيان المترابط الأطراف المستقر الهادئ ، وليس مجرد بناء اجتماعي محكم ثابت ، بل بناء مجتمع متقدم وهو **المهمة الثانية** . فيتكلم جون ديوي هنا عن درو هذه التربية في هذا المجال ويقول «ان الاهتمام برفاهية الجماعة : هو اهتمام فكري عملي كما هو عاطفي أيضاً ـ أعني اهتماماً بإدراك كل ما ينهض بالنظام الاجتماعي وبالتقدم وبكل ما يساعد على وضع هذه المبادئ موضع التنفيد ـ إنما هو العادة الأخلاقية القصوى التي يجب علينا أن نرد إليه جميع العادات الأخلاقية المدروسة إذا كان لا بد لها من أن تزود بنفحة من الحياة الأخلاقية»[3] كما أن إهمال التربية الأخلاقية يؤدي إلى التأخر الاجتماعي وإلى تفكك المجتمع[4] .

ولهذا أيضاً أكد المؤتمر الأنجليزي للتحقيق الدولي في التربية الأدبية الذي عقد في إنجلترا عام ١٩٠٧ والذي اشترك فيه أكثر من سبعمائة من مشاهير كبار رجال العلم

---

(١) كتاب التربية لكانط ص ١٥ .

(٢) احياء علوم الدين ج٣ ص ٧٢ .

(٣) المبادىء الأخلاقية في التربية . جون ديوي ص ٣٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٤ ـ ٣٥ .

والأدب والفلسفة والساسية ، ودرسوا التقارير من الدول المختلفة ثم أكدوا أهمية التربية الأخلاقية في حياة الأمة وضرورتها فيها[1] ، ثم إن دور التربية الأخلاقية لا يقتصر على بناء المجتمع . المحكم المتقدم ، بل دورها الأكبر وهو المهمة الثالثة المساهمة في بناء مجتمع سعيد ، هنا يتكلم بستالوتزي المربي المشهور عن دور هذه التربية في هذا الميدان ويقول «إني وجدت التربية المنزلية هي الأساس القوي الذي يصح أن يعتمد عليه في إسعاد الشعوب فإن لها من الأثر في قلوب الأطفال ما ليس لغيرها من أنواع التربية ، وناهيك بتربية سداها ولحمتها الإخلاص والثقة والحب الصحيح المتبادل بين الأطفال وأبويهم»[2] وقال مارتن لوثر «ليست سعادة البلاد بوفرة إيرادها ولا بقوة حصونها ولا بجمال مبانيها . وإنما سعادتها بعدد المهذبين من أبنائها وبعدد الرجال ذوي التربية والأخلاق فيها»[3] .

وأخيراً : فيما يتعلق بدور التربية الأخلاقية في بناء الحضارة فإن هذه التربية تقدم للحضارة خدمتين جليلتين . الأولى : حفظهما من الانهيار والثانية تقدم الحضارة ، لأن هذه التربية تنزع من النفوس الشر الذي هو أكبر عامل لهدم الحضارات ، وأهم هذه الشرور الهدامة العداون والتسلط على الناس واستغلال أموال الناس وأعمالهم . يتكلم عن كل ذلك ابن خلدون ويبين كيف أن ذلك يؤدي إلى خراب المدن والعمران وسقوط الدول ويخصص لذلك فصلاً من مقدمته[4] ثم يقول ومن أشد الظلمات وأعظمها في فساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق . . وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس[5] ويقول الإمام الماوردي عن أثر الجور في خراب العمران «ليس شيء أسرع في خراب

---

(١) التربية الأخلاقية . أبادير حكيم مطبعة اليقظة بالقاهرة ص ٢٠٣ ـ ٢٠٩ .

(٢) تاريخ التربية . مصطفى أمينص ٣٠٩ .

(٣) تقويم الأخلاق . علي فكري ص ٣٩ .

(٤) مقدمة ابن خلدون . الفصل الثالث والأربعون ص ٢٤٠ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

الأرض ولا أفسد في ضمائر الخلق من الجور»[1] كذلك نجد الدكتور غوستاف لوبون يرجع سقوط الأمم إلى إنحطاط أخلاقها[2] ، وهذا ما يقرره أيضاً المؤرخ المشهور إدوار جيبون بعد تحليله لأسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية حيث إنه بدوره يرجع ذلك إلى الانغماس في الرذيلة والترف وحياة الدعة والكسل والخيانة والغدر والتناحر من أجل السلطة وما إلى ذلك من أسباب الانحلال الأخلاقي[3] .ثم إن العامل الأخلاقي ليس عامل بناء ، لأن الباحثين عن الحضارة يعدون العامل الأخلاقي من عوامل نمو الحضارات ، بل أساساً من أسس نموها[4] فقد سئل وزير التعليم الياباني إلى ماذا يرجع التقدم الذي أحرزته اليابان؟ . فقال إلى نظام تربيتنا الأخلاقية[5] ، ولهذا كله نرى أنبرت اشفيتسر يجد عندما يحلل الحضارة الغربية الحديثة كيف يؤدي نقص العامل الأخلاقي فيها إلى كوارث وخيمة العاقبة على مصيرها تهددها بالأنهيار الخطير ، ومن ثم يدعو إلى بناء الحضارة من جديد على أساس أخلاقي بالتربية للمجتمع والأفراد[6] .

وأخيراً فإن أهم دور يمكن أن تقوم به التربية الأخلاقية في هذا الصدد هو توجيه الحضارة وجهة خيرة ، فإن التقدم بدون التوجيه أو بدون تحديد الغاية والهدف الخير من الممكن أن يتحول إلى نكبة ضد الحياة الإنسانية ، ومن ثم فبدلاً من أن يسعد المجتمع يشقيه ، وهذا ما يقرره سير رتشرد لفنجستون حيث يذكر أن للعامل الأخلاقي دوراً هاماً في توجيه الحضارة وجهة أخلاقية[7] .

بعد هذا كله علمنا أن هؤلاء الرجال قد قرروا دور عامل الأخلاق ومن ثم دور

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ١١٥ .

(٢) السنن النفسية لتطور الأمم . دكتور غوستاف لوبون . عيسى البابي الحلبي ص ١٧٢ .

(٣) الإمبراطورية الرومانية وسقوطها . ادوارد جيبون ج١ ص٢٣٠ ـ ٢٥٩ .

(٤) قصة الحضارة . ول ديورانت . لجنة التأليف والترجمة ج١ ص ٧ .

(٥) التربية الأخلاقية . أبادير حكيم ص ٢٤٦ .

(٦) فلسفة الحضارة البرت اشفيتسر ص ٥ ـ ٦ .

(٧) التربية لعالم حائر سير ريتشرد لو نجسنون ص٤٩ .

التربية الأخلاقية في بناء الفرد وأن نجاح حياته متوقف على التربية الأخلاقية ، وكذلك قرروا دورها في بناء المجتمع وتقدمه وسعادته وفي بناء الحضارة وتوجيهها وجهة خيرة .

ولننظر الآن وجهة نظر الإسلام في دور هذه التربية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الانسانية الإسلامية .

ثانياً : دور التربية الأخلاقية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية في نظر الإسلام

إن أهم دور للتربية الأخلاقية في نظر الإسلام يمكن تحديده بصورة إجمالية في كونها الوسيلة الوحيدة لبناء خير فرد وخير مجتمع وخير حضارة ، والعلاقة بين هذه الجوانب وثيقة ، من حيث إن بناء خير فرد وسيلة لبناء خير مجتمع وبناء خير مجتمع وسيلة لبناء خير حضارة ، والغاية من هذا كله تحقيق سعادة عامة وشاملة في المجتمع ، لأنه إذا عم الخير الفرد والمجتمع والحضارة تكون السعادة نتيجة طبيعية لذلك . وفي ضوء ذلك أقسم كلامي هنا إلى ثلاثة أقسام : الأول على مستوى الفرد والثاني على مستوى المجتمع والثالث على مستوى الحضارة الإسلامية .

ولنبدأ أولاً بالقسم الأول الخاص ببناء الأفراد الأخيار ، ذلك أن كل فرد يعد لبنة في البناء الاجتماعي فإذا ربينا كل فرد تربية خيرة نكون عندئذ قد كونا مجتمعاً خيراً ، ولكن ما هي العناصر الأساسية لبناء خير فرد لتكوين خير مجتمع ؟ تلك العناصر هي الآتية :

١ ـ تكوين روح الخير فيه بحيث يلتزم السلوك الخير ويسعى لتحقيق الخير للناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، كما يلتزم بتجنب سلوك الشر ويعمل ليحول دون وقوعه من أحد على أحد .

وتكوين هذه الروح ليس أمراً سهلاً ، إذ قد يعلم المرء الخير ولكنه لا يدري كيف ينتهي إليه ويعرف الشر في سلوك ما ويعجز عن تجنبه . وإذا كان علم الأخلاق يزود

المرء بالمعرفة والتمييز بين سلوكين أو طريقين أحدهما يحقق الخير ويقود ثانيهما إلى الشر فإن التربية الأخلاقية تكون في نفس المرء استعداداً يستطيع به الالتزام بطريق الخير وتجنب طريق الشر ، ومن ثم تتبين مدى ضرورة التربية الأخلاقية ولا سيما بالنسبة لعلم الأخلاق ، لأن هذا الأخير إذا كان دوره أن يكشف للإنسان مواطن الخير وميادينه فإن الأولى ترسم للإنسان الطريق الذي ينتهي به إليها . ومن ضرورات هذه التربية تكوين روح المحبة للخير والكره للشر ، وذلك إلى جانب تكوين روح الالتزام به ومن ثم فإن الشخص الذي يلتزم بالخير لا يلتزم عن تكلف وتصنع وإنما يلتزم برغبة أكيدة منه وكره للشر ، وبهذه الروح ربى الرب عبادهُ الراشدين «ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكره إليكم الكفرَ والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون»[1] . ومن مميزات هذه الروح الخيرة أنها لا تكتفي بالسعي لفعل الخير والوقوف أمام الشر عن حب ورغبة ، بل زيادة على ذلك تسعى لتعليم الناس الخير وسبل تحقيق الخيرات ، وعلى هذا كان الرسول يشجع الأخيار قائلاً «إن الملائكة وأهل السماء والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»[2] وقائلاً أيضاً «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[3] . هذا إلى أنه لا يقصر إحسانه على من يحسن إليه ومعارفه بل يحسن إلى من عرفه ومن لم يعرفه حتى من أساء إليه ، وذلك كله لله لا لكسب الصيت أو كسب منفعة ، والا تكون الأخلاق صفقة تجارية . وعلى هذا يشجع الله عباده ويه يربيهم «فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون»[4] . «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا»[5]«والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون

---

(١) سورة الحجرات ٧ .
(٢) التاج ج١ ص ٦٤ .
(٣) صحيح مسلم . كتاب الإمارة ج٣ ص ١٥٠٦ .
(٤) سورة الروم ٣٨ .
(٥) سورة الإنسان ٨ ـ ٩ .

بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار»[1] . وآخر ميزة لهذه الروح الخيرة أنها تسعى إلى الخير ولا تشبع من عمل الخيرات إلى آخر حياتها ولهذا قال الرسول : «لن يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة»[2] بل أكثر من هذا كما أنه لا يفعل إلا الخير فإنه لا يقول إلا الخير أيضاً فقال الرسول «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»[3] .

٢ ـ تكوين روح الأخوة الإنسانية :

يجب أن يغرس في نفس الطفل منذ صغره أن إنسانيته تقتضي أن ينظر إلى الناس كما ينظر لنفسه ، لأن الآخرين أناس مثله لهم حق الحياة وعليه التزامات ومسؤوليات كما عليهم ، ولا فرق بين جنس وجنس ولون ولون آخر ، بل كلهم سواسية من حيث أصل الخلقة لا فضل لأحد على آخر فقال الرسول «الناس مستوون كأسنان المشط ليس لأحد على أحد فضل إلا بتقوى الله»[4] لأنهم خلقوا جميعاً من أصل واحد لذا قال الرسول «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»[5] ولكل إنسان بناء على هذه الخلقة الأصلية كرامة إنسانية يجب احترامها «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً»[6] . وهذه النظرة الإنسانية إلى الناس تقتضي أن يحب الإنسان لأخيه ما يحبه لنفسه ، ولهذا قال الرسول أيضاً «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[7] .

لكن لا يمنع ذلك أن يرى لأهل الفضل فضلاً وأن يفضل في المعاملة الخير على الشرير ، بل يجب هذا ، لأنه إذا كان هناك قيمة أصلية أو كرامة الإنسان وقيمته تزيد

---

(١) سورة الرعد ٢٢ .
(٢) كشف الخفاء ج٢ ص ٢١٥ .
(٣) صحيح مسلم . كتاب الإيمان ج١ ص ٦٨ .
(٤) كشف الخفاء ج٢ ص ٤٥١ .
(٥) تفسير ابن كثير (والجعلان حشرة في الأرض) ج٤ ص ٢١٧ .
(٦) سورة الإسراء ٧٠ .
(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان كتاب الإيمان ج١ ص١٠ .

بفضل أعماله وإحسانه ، وإن احترام المحسن أكثر من غير المحسن أمر تربوي يشجع الناس على الفضيلة فلا يستوي العالم مع الجاهل والمؤمن وغير المؤمن «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»[١] «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات»[٢] وهل يستوي الصالح مع الطالح «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[٣] لكن لا يقتضي ذلك التعدي على حقوق الناس الطبيعية في الحياة لمجرد أنهم غير صالحين أو جاهلين أو غير مؤمنين ، هذه الحقوق يجب احترامها بحكم الكرامة الإنسانية الأصلية .

ويقسم الدكتور محمد عبد الله دراز الكرامة الإنسانية إلى ثلاثة أقسام فيقول «إن الكرامة التي يقررها الإسلام للشخصية الإنسانية كرامة مثلثة : كرامة هي عصمة وحماية . وكرامة هي عزة وسيادة . وكرامة هي استحقاق وجدارة ، كرامة يستغل الإنسان من طبيعته ، ولقد كرمنا بني آدم ، وكرامة تتغذى من عقيدته ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، وكرامة يستوجبها بعمله وسيرته «ولكل درجات مما عملوا ويؤت كل ذي فضل فضله»[٤] .

ومهما يكن من أمر فلا يصح أن يسخر قوم من قوم أو أن يرى قوماً قوماً دونهم في المستوى الإنساني بموجب المساواة الأصلية في الكرامة الإنسانية ولهذا قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون»[٥] ، بل أكثر من هذا يدعو الإسلام الناس جميعاً إلى الوحدة الإنسانية حيث يقول تعالى : «قل يا أهل الكتاب

---

(١) سورة الزمر ٩ .
(٢) سورة المجادلة ١١ .
(٣) سورة الحجرات ١٣ .
(٤) نظرات في الإسلام . دكتور محمد عبد الله دراز ص ٩٧ .
(٥) سورة الحجرات ١١ .

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله»[1] .

٣ـ تكوين الوعي بوحدة الحياة الاجتماعية :

عندما نمعن النظر في عمق الحياة الاجتماعية ومدى ما تتأثر به هذه الحياة من أعمال الأفراد الخيرة أو الشريرة عندما نمعن النظر في هذا يحق لنا أن نشبه تلك الحياة بجسم واحد . ولنحلل هذه الحقيقة من بعض النواحي : وهي الناحية الصحية والناحية الأخلاقية وأخيراً ناحية ترابط المصالح .

أما من الناحية الصحية فإن الفرد في المجتمع كعضو في الجسم إذا أراد أن يحافظ المجتمع على سلامة جسمه يجب أن يراعي صحة وسلامة كل أفراده ، وعلى كل فرد أن يعد نفسه عضواً متصلاً بجسم المجتمع ، وكما أن أي خلل في أي عضو يؤثر في الأعضاء كلها . وهذا يقتضي ألا يسمح المجتمع لأفراده فيما يخصمهم ، وأنهم بذلك إن أساءوا يسيئون إلى أنفسهم فقط . ولتوضيح صدق ما ندعي نضرب لذلك مثلاً برجل يريد أن يحافظ على صحته في مجتمع موبوء تسوده القذارة والأمراض المختلفة المعدية فإنه مهما حاول أن يحافظ على نفسه فلا يستطيع وقايتها ، ذلك أنه لا يستطيع أن يجد ما يشتريه وما يأكله نظيفاً ، ولا يستطيع كذلك وقاية نفسه من الأمراض المعدية ، لأن الهواء يكون موبوءاً بالجراثيم ، وكذلك الأشياء التي يلمسها تكون ملوثة بالجراثيم ، لأن هناك أمراضاً تنتقل من الهواء وكما تنتقل بمجرد ملامسة لما لامسه المريض ومن مصاحبة الناس ومصافحتهم أيضاً . وكذلك لو أهمل الفرد صحته وأصيب بأمراض فإن مرضه سوف يقعده عن العمل أولاً ، وقد يكون عمله مهماً في المجتمع يترتب عليه تركه أضراراً كبيرة كما تتأثر أسرته وأهله . وقد يؤدي مرضه إلى عدوى الآخرين ، ولهذا رسم الإسلام منهاج الصحة ووضع فيه أهم مبادئ الصحة الكاملة ، أي الصحة الجسمية والروحية

---

(١) سورة آل عمران ٦٤ .

والعقلية والنفسية[1] ، كل هذه الحقائق يجب إدخالها في وعي الأطفال وإقناعهم بها وسوقهم إلى السلوك بموجبها لتتكون العادة الصالحة عندهم مع تكون النظرة السليمة إلى الحياة الاجتماعية .

وأما من الناحية الأخلاقية فيمكن أن نقول إنّ الأخلاق هي الرابطة بين أعضاء الجسم إذا شبهنا المجتمع بالجسم والأفراد بالأعضاء ، أو أنها هي الرابطة بين لبنات البناء إذا شبهنا المجتمع بالبناء والأفراد باللبنات ، فإذا زالت الأخلاق انفصمت هذه الرابطة وانقطعت الصلات ، ومن ثم أدى الأمر إلى شلل الجسم وانهدام البناء الاجتماعي . وكل عمل غير أخلاقي يصدر عن الفرد يضعف هذه الرابطة بينه وبين غيره ، إذ إن ذلك العمل يعد بمثابة ضربة توجه إلى لبنات هذه البناء ، وهي تهز تلك الرابطة بين لبناته أو تقطعها قطعاً . وكلما زادت الأعمال غير الأخلاقية أوهنت أو أضعفت البناء الاجتماعي إلى أن ينهدم ويصبح خاوياً على عروشه . يقرر هذه الحقيقة أيضاً الفيلسوف الاجتماعي دور كايم عندما يعالج التربية الأخلاقية قائلاً «إذ إنه لو لم تتوافر للمجتمع تلك الوحدة التي تنشأ عن التنظيم الدقيق للصلات بين أجزائه وعما يكلفه النظام الصالح من انسجام بين وظائفه ، ولا تلك الوحدة التي تأتي من اتجاه جميع القوى نحو هدف مشترك فعندئذ لن يصبح المجتمع سوى حفنة من الرمل تكفي أقل هزة أو ضعف أو نسمة لتذرها في الهواء ، وعلى ذلك فالشعور الذي يجب في أحوالنا الحاضرة أن نحاول إيقاظه هو الإيمان بمثل أعلى مشترك . . . لا شك أن ذلك هو الهدف العاجل للتربية الأخلاقية[2] » . وليس لأحد أن يدعي هنا أيضاً أنه إذا سلك سلوكاً غير أخلاقي أنه إنما يضر بذلك نفسه فقط ، إذ ليس هناك سلوك أخلاقي يقتصر ضرره على الفاعل فحسب حتى الأفعال التي يدعى أنها يقتصر ضررها على الذات إذا كان ذلك ضاراً . ولنضرب لذلك مثلاً

(١) عالجت موضوع الصحة في بحث آخر يطول بنا المقام لو أقحمته هنا ، انظر بحثنا : طريق السعادة ص ١٢ ـ ٢٣ .

(٢) التربية الأخلاقية لدوركايم ص ٩٩ .

بالرجل السكير ، فالسكير لا يستطيع الاحتجاج بأنه يحقق لنفسه ضرباً من المنفعة ، وأنه لا يضر بذلك أحداً ، لأننا إذا علمنا رأي الطب في أضرار المسكرات وما ينتج عنها من الأمراض العصبية والعقلية وغيرها وكيف أنها تؤثر أيضاً على ذرية السكير ثم تكون هذه المسكرات سبباً للحوادث وسبباً لارتكاب الجرائم عندئذ نعلم أن عمله هذا ضار به ذاته وبذريته وبالمجتمع أيضاً حتى ولو فرضنا أن هناك سلوكاً غير أخلاقي ضاراً بصاحبه فحسب أو يقتصر شره على الفاعل فحسب فإن فساد شخصية في المجتمع فساد اللبنة في البناء الاجتماعي . بل أكثر من هذا فإن سماع ارتكاب جريمة في المجتمع يؤثر على كل السامعين من حيث إيذاؤها مشاعرهم الأدبية ومن حيث تقليل الثقة بغيرهم وإثارة الرعب والقلق في نفوسهم ثم زوال المودة والمحبة أو ضعفهما بين الناس ، وكل ذلك يوهن العلاقات والروابط بين أفراد المجتمع ، وكلما زادت نسبة تلك الجرائم زاد ضعف الروابط الأخلاقية . ومن ثم فإنه يحق لنا أن نقرر هذه الحقيقة ، وهي أن كل سلوك غير أخلاقي ضار بصاحبه وبغيره أيضاً بطريقة من الطرق ، ولهذا كله كان الرسول دقيقاً عندما شبه المجتمع بجسم واحد فقال : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1] وشبهه مرة أخرى بالبناء فقال : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[2] وشبهه مرة ثالثة بالرجل الواحد فقال «المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»[3] .

ومن ثم قرر الإسلام مبدأ النصح في المجتمع بأن ينصح كل فرد الآخر إذا رآه يخالف السلوك الأخلاقي فقال الرسول : «الدين النصيحة قلنا : لمن؟ قال لله ولرسوله والأئمة المسلمين وعامتهم»[4] وعلى ذلك كان يبايع الرسول . فروى عن

(١) صحيح مسلم ، ، كتاب البر والآداب ج٤ ص ١٩٩٩ .
(٢) المرجع السابق ج٤ ص ١٩٩٩ .
(٣) المرجع السابق ، كتاب البر والآداب ج٤ ص ٢٠٠٠ .
(٤) المرجع السابق ، كتاب الإيمان ج١ ص٧٤ .

جرير أنه قال : «بايعت الرسول على اقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[1] ، ولهذا أيضاً قرر الإسلام أهم مبادئه وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال الرسول «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم»[2] وقالت زينب : «يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال نعم إذا كثر الخبث»[3] وسوف نتكلم كثيراً عن هذا الموضوع عندما نبحث عن تربية الشعور بالمسؤولية .

ولهذا كله يجب أن يعي الأطفال هذه الحقائق ومدى ارتباط حياة الأفراد بعضها ببعض من حيث التأثير والتأثر في الخير والشر معاً ، وكيف يمارسون مبدأ النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم تركهم الآخرين يتصرفون تصرفاً خاطئاً ولو كان في حق أنفسهم من حيث الظاهر ، ولقد ضرب الرسول لذلك مثلاً رائعاً ليعي الناس مدى ارتباط حياة أفراد المجتمع ارتباطاً وثيقاً عندما شبه حياة المجتمع بحياة جماعة في سفينة في بحر فقال : «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا في الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً . وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً»[4] وفعلاً إنها ليست أية سفينة ولكنها سفينة حياة المجتمع بأسره .

وأما من ناحية ترابط المصالح العامة فإنه لابد من تكوين وعي بأن المصالح العامة مشتركة بين أفراد المجتمع وكذلك الخسائر ، فإن غنى الأفراد إنما هو غنى لأفراد هذا المجتمع بشكل من الأشكال وفقرهم فقر لهم جميعاً ، وهذا يقتضي أن يشجع الأفراد

---

(١) المرجع السابق كتاب الإيمان ج ١ص٥ .

(٢) رياض الصالحين باب الأمر بالمعروف ص ١٠٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٩ .

(٤) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج٢ ص ١٢٦ .

بعضهم بعضاً لتنمية امكانياتهم وقدراتهم المادية والمعنوية بدلاً من أن يحسد بعضهم بعضا ويعمل ليحول دون بلوغ جاره أو صديقه إلى أهدافه المادية أو الأدبية ، ولو كان غرضه من ذلك مجرد تحقيق مصلحة ذاته ما دام الوصول إلى ذلك بطريق مشروع ، ذلك أنه إذا كان ذلك في ميدان العلم فإن ازدياد نسبة المتعلمين والعلماء يؤدي إلى تقدم المجتمع علمياً ، وإذا كان ذلك في ميدان الأخلاق يؤدي الأمر إلى تقدم المجتمع أخلاقياً ، وإذا كان الأمر في ميدان الغنى يؤدي الأمر إلى تقدم المجتمع ثروة ، ولا يستطيع أحد من هؤلاء أن يمنع انتقال بعض ما لديه إلى غيره ، ذلك أنه لو أراد فرضاً زيادة المكسب عن طريق إقامة مصنع فإنه يضطر عندئذ إلى استخدام مجموعة من العمال ليعملوا فيه ، فهذه فائدة لغيره ثم تأخذ منه الدولة ضريبة وهذا مكسب للحكومة وما يصنعه في مصنعه يغني الناس في مجتمعه من أن يستوردوه مما يصنعه الآخرون في المجتمعات الأخرى ، وهذا بدوره يساعد على التقدم الاقتصادي ، وكذلك إذا أراد أحد أن يكون عالماً في ميدان من ميادين العلم فإنه في النهاية يضطر إلى استخدام عمله بالتعليم والتأليف أو في ميادين العمل الأخرى ، وفي ذلك فائدة لمجتمعه ، ولهذا فإن الحسد والإيقاع ومحاولة الوقوف أمام الناس يعد أخلاقاً هدامة . ويعد الاجتماعيون وعلماء النفس مثل هذه الأخلاقيات السيئة أمراضاً نفسية اجتماعية ، لذا كانت من العوائق التي تحول دون نهضة المجتمع ، ولا يكفي القضاء على هذه الأخلاقيات الهدامة ، بل لا بد مع ذلك من زرع روح التعاون في نفوسهم ، وهذا وذاك لا يمكن إلا بالتربية الأخلاقية التي تدعو إلى التعاون في الخير وعدم التعاون في الإثم «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»[1] وإذا تصورنا عكس ذلك إذا تكاسل أو تقاعد أفراد المجتمع مثلاً ثم أصبحوا فقراء من جراء ذلك فمن الذي يستفيد عندئذ من الفقر ومن الذي يضار : لا شك أن الجميع يضارون ، ثم يصبح كل فرد عالة على غيره ، ولهذا حرم الإسلام كل هذه الأخلاقيات الهدامة ونهى عن التكاسل والضعف لأنهما من عوامل

---

(١) سورة المائدة ٢ .

الضعف الاجتماعي ، ولهذا كان الرسول يستعيذ منهما قائلاً «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل»[1] كما كان يشجع على العمل لينفق على نفسه وعلى غيره ليكون فاضلاً فقال «لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق به ويستغني به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك . فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول»[2] كما نهى عن التسول فقال «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم»[3] .

٤ ـ تكوين روح الخضوع للنظام الأخلاقي :

هذا العنصر ضروري أيضاً للشخصية الاجتماعية للبناء الإجتماعي ، ذلك أن تكوين هذه الروح لدى أفراد المجتمع يؤدي إلى تماسك المجتمع وترابطه ووحدته وزوال القلاقل وسيادة الأمن فيه . ثم إن النظام والانتظام قوة في المجتمع وتوجيه الطاقات البشرية فيه إلى ما فيه الخير للمجتمع ولا سيما إذا كان ذلك النظام نظاماً أخلاقياً خيراً .

هذا إلى أن خضوع الأفراد طواعية لهذا النظام ورغبة فيه يؤدي أولاً إلى تطبيقهم له في السر والعلن لا خوفاً من السلطة ولا نفاقاً للمجتمع ، وإنما حباً في هذا النظام ، وهذا بدوره يزيد من طاقة الأفراد في تطبيق النظام ونشاطهم في العمل ، وأخيراً يؤدي هذا الأمر إلى شعورهم عند العمل بالسرور والبهجة ، لأنهم يخضعون لنظام يؤمنون به ويحبونه .

ويرى دوركايم أن في الأخلاق صفتين تدفعان إلى الخضوع لنظامه وهما صفة الواجب وصفة الخير فالأولى تضفي على الأخلاق السلطة الآمرية والثانية الجاذبية يقول دوركايم «فالواجب هو الأخلاق من حيث هي آمرة وهو الأخلاق بوصفها

---

(١) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٧٩ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الزكاة ، باب كراهة مسألة الناس ج٢ ص ٧٢١ .

(٣) صحيح مسلم (ومعنى مزعة لحم قيل أنه يأتي ذليلاً وقيل يحشر بعظم وجهه دون لحمه) ج٢ ص٧٢٠ .

سلطة يتعين علينا إطاعتها لا لشيء إلا لأنها سلطة فحسب . أما الخير فهو الأخلاق باعتبارها شيئاً طيباً يجذب إليه الإرادة ويثير الرغبة نحوه تلقائياً»[١] ويرى أن روح الخضوع للنظام تتكون من عنصرين لهما أساس طبيعي في الإنسان باعتبارهما من الميول الطبيعية وهذان العنصران هما حاسة للانتظام وحاسة أخرى للشعور بالسلطة الأخلاقية[٢] ودور التربية الأخلاقية تنمية هاتين الحاسبتين لتكون روح الخضوع للنظام سلطة في نفس المرء ، ولهذا يرى أن عمل المربي يتوقف أولاً على معرفة الميول الأساسية للمزاج الأخلاقي للطفل[٣] .

ويتكلم دوركايم أيضاً عن أهمية النظام والانتظام باعتباره يضع حداً للميول المتطرفة ويحفظ الطاقة الإنسانية من أن تتبدد إذا أصبحت حرة منطلقة من غير قيد أو شرط فيقول «عندما تتجاوز ميولنا كل حد وعندما يتوقف في سبيلها أي شيء تصبح جبارة عاتية ويكون أول عبيدها هو الشخص نفسه الذي يحسها ، ومن هذا يمكن أن نتصور مبلغ سوء حال مثل هذا الشخص ، إذ تتعاقب عليه أشد الميول تعارضاً وأعظم النزوات اختلافاً مقتادة معها ذلك الحاكم المطلق المزعوم في أشد الاتجاهات تبايناً حيث ينتهي الأمر بتلك القدرة الوهمية على كل شيء إلى أن تغدو عجزاً بالمعنى الصحيح»[٤] ومن ثم ينتهي إلى أن الحرية لا تتعارض مع النظام ، بل النظام هو الحرية ، لأنه يمكن الإنسان من القيام بعمل يريده ، أما الحرية غير المنظمة فإنها تنتهي بالإنسان إلى عدم القدرة على تحقيق أي شيء ، بل تنتهي به إلى العجز المطلق ، لأنه «ليس مسيطراً على ذاته فسيطرة المرء على ذاته هي إذن الشرط الأول لكل قدرة حقيقية ولكل حرية جديرة بهذا الإسم»[٥] ولا يمكن الانتظام إلا بالتحكم في الذات أولاً ، وإذا كان الأمر كذلك فيجب أولاً تكوين استعداد للتحكم في

(١) التربية الأخلاقية . دوركايم ص ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٥) المرجع السابق ص ٤٥ .

الذات ، فمن ملك هذا الاستعداد أصبح قوياً منظماً لسلوكه ويستطيع الانتظام بعد ذلك . وتكوين ذلك الاستعداد يتم عن طريق تدريب الإرادة وسنتكلم عنه في وسائل تقوية الإرادة . ثم يتكلم دور كايم عن دور الأخلاق في السيطرة على الذات . ومن ثم تمكين الإنسان من الحرية الحقيقية فيقول : «إن الحرية هي ثمرة التنظيم ، فنحن لا نكتسب القدرة على التحكم في ذاتنا وتنظيم أنفسنا وهي لب الحرية إلا تحت تأثير القواعد الأخلاقية وبعد ممارستها ، وتلك القواعد ذاتها هي التي تحمينا بفضل مالها من سلطة وقوة ، من القوى غير الأخلاقية أو المتنافرة من الأخلاق التي تهاجمنا من كل جانب ، فبدلاً من أن يتعارض مع النظام والحرية ، كما لو كانا حدين متنافرين نرى أن الحرية لا تكون ممكنة بدون النظام ، ولهذا لا يستأهل النظام أن نطيعه في خضوع مستسلم فحسب وإنما يستحق منا ذلك أن نحبه»[1] ويصور في مكان آخر مدى أهمية الأخلاق في التحكم في الذات والوقوف أمام الرغبات الطاغية فيقول : «والواقع أن مجموعة القواعد الأخلاقية تكون حول كل إنسان نوعاً من الحاجز الفكري تتبدد على صخرته جميع الرغبات الإنسانية دون أن تستطيع تعديه ، وأن مجرد كون هذه الرغبات محصورة محددة ليجعل إرضاءها أمراً ممكناً ، فإذا ما تصدع ذلك الحاجزفي نقطة معينة فإن القوى الإنسانية التي ظلت حتى ذلك الحين محصورة حبيسة تنطلق من الثغرة ثائرة فائرة ، ولكنها لا تلبث أن تنطلق حتى يصبح من المستحيل وقفها عند حد ولا يعود في وسعها إلا أن تستمر في سعيها الأليم نحو هدف يبعد عنها على الدوام ، فلو حدث مثلاً أن فقدت القواعد الأخلاقية المتصلة بالحياة الزوجية سلطتها ، أو ضعف احترام الزوجين للواجبات التي يلتزم بها كل منهما حيال الآخر لأفلت زمام الانتصالات والشهوات التي يحد منها وينظمها ذلك القسم من الأخلاق ، ولاضطرب تنظيمها وتمادت نتيجة لهذا الاضطراب ، وهي حين تعجز عن أن تهدئ من عنفها ، ما دامت قد تجاوزت كل حد تولد في النفوس حالة من اليأس وخيبة الأمل تتبدى على صورة واضحة في إحصائيات الانتحار . وكذلك لو تزعزعت أركان الأخلاق التي

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤ .

تتحكم في الحياة الاقتصادية فإن المطامع الاقتصادية لا تعرف حينئذ حداً تقف عنده»[1] ولهذا يقول الدكتور ألكسيس كارل أيضاً «إن التنظيم يكسب الإنسان قوة فائقة»[2] ، ولهذا لا ينبغي أن يضيق الإنسان من النظام الأخلاقي لمجرد أنه يقيد حريته ويقف أمام كثير من رغباته الجامحة ، لأن ذلك أمر ضروري للحياة الناجحة بصفة عامة وللحياة الاجتماعية بصفة خاصة ، ولهذا كله يجب تكوين روح الخضوع للنظام في الأطفال في مختلف المراحل التربوية ، إذا أردنا سيادة النظام الأخلاقي حياة الأفراد والمجتمع سيادة كاملة .

وإذا نظرنا إلى الإسلام لنعرف رأيه في هذا الموضوع وجدناه عميقاً في العلاج ، ذلك أنه بدأ بتكوين تلك الروح في نفس المرء من داخل نفسه أولاً ، وذلك بالتعود على ضبط النفس والتحكم فيها والسيطرة على مختلف نوازعها الطبيعية في مختلف الأحوال والمواقف بانتظام يبدأ أولاً بالانتظام أو الانضباط النفسي ، ويتكون ذلك عند المرء عن طريق تدريب الإرادة بممارسة أعمال الضبط في ظروف الثورة والهيجان النفسي ومقاومة الرغبات النفسية الشهوية . وقد جاء الإسلام بتعاليم لتكوين هذا الوعي وكان الرسول يدرب أصحابه على ذلك ، فقال مثلاً عن الغضب : «ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[3] وشجع الله سبحانه على التحكم في نوازع الشح والبخل عند الضيق والحاجة وفي نوازع الانتقام عند القوة والانتصار فقال : «الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين»[4] ودعا إلى التغلب على هذه النزعة الانتقامية بالإحسان إلى من أساء إليه فقال : «ادفع بالتي هي أحسن السيئة»[5] وقال تعالى عن كبح الشهوة «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢) الإنسان ذلك المجهول . دكتور الكسيس كارل ص ٣٨٦ .

(٣) أ ـ هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج٢ ص١٠٧ ، ب ـ صحيح مسلم كتاب البر والآداب ج٤ ص ٢٠١٤ .

(٤) سورة آل عمران ١٣٤ .　　　(٥) سورة المؤمنون ٩٦ .

الهوى فإن الجنة هي المأوى»[1] وذلك بأن يضع المرء نفسه موضع شخص آخر ويجعل ذاته مراقباً عليه فإذا كانت نفسه منساقة إلى طريق الشهوة يكفها بأن يغير اتجاهه بعيداً عن ذلك الطريق بحيث يبعد نفسه عما يثيرها من المهيجات لذا قال تعالى: «ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً»[2]، وهناك وسائل أخرى كثيرة تتحكم بها في الذات في مختلف المواقف سنذكرها في موضوع الوسائل إن شاء الله، وبعد أن بين الإسلام وسائل التحكم في الذات والسيطرة على النفس التي هي أساس الانتظام رغب بالوسائل المختلفة في الخضوع للنظام والسير على الطريق المستقيم كما استخدم وسائل أخرى للترهيب من الخروج على النظام وتعدي حدوده وذلك لكيلا يكون الخضوع رهبة باستمرار، ولا لمجرد الاستمتاع بالخير، بل يجب أن يكون ذلك عن شعور بإجلال وتقدير من ناحية ورغبة في الخير وحباً له من ناحية أخرى. هذا إلى أن كل الناس لا يستوون في حكم الخضوع فمنهم من يخضع خوفاً من السلطة أكثر مما يخضع رغبة في الخير، ومنهم من يكون عكس ذلك. ولما كان الإسلام الدين العام للناس جميعاً كان لا بد من أن يأتي بأدوية مختلفة لعلاج المشكلات والأمراض المختلفة، ولهذا كله فقد استخدم الترهيب وحده لمن لا يطيع إلا بالترهيب والسلطة فقال تعالى «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم»[3]«بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»[4] «وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه وَلِيٌّ ولا شفيع لعلهم يتقون»[5] وبالترغيب بالخير والثواب لمن يخضع للخير فقال تعالى «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة

(١) سورة النازعات ٤٠ ـ ٤١ .
(٢) سورة النساء ٢٧ .
(٣) سورة المائدة ٣٣ .
(٤) سورة البقرة ٨١ .
(٥) سورة الأنعام ٥١ .

طيبة»[1] وبيان أن السلوك الأخلاقي خير وقيم في ذاته «ولباس التقوى ذلك خير»[2] ثم إن الخير ذاته عامل دافع وقد استخدم الله عاملين معاً وأحياناً استخدم الترغيب والترهيب معاً فقال تعالى «تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين»[3] . وذلك لأن اجتماع عامل الدفع وعامل الجذب يعد من أقوى عوامل الالتزام بالمبادئ لأن الإسلام قد طالب بالالتزام المستمر بالمبادئ الأخلاقية في كل المواقف وتحمل الصعوبات والمشقات في سبيل ذلك فقال تعالى : «يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور»[4] «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى»[5] ولأن الحكمة تقتضي الموازنة بين قوة الدفع وبين المدفوع إليه ، أو بين الدوافع لتحمل المسؤوليات وحجم المسؤوليات ، وهذه الحكمة هي التي نجدها فيما قرره الإسلام من دوافع وجوانب ليجعل الناس يلتزمون بالمسؤوليات التي ألقاها على عاتقهم في مختلف الظروف والأحوال ، وأن يجدوا تلك الدوافع والعوامل الجذابة دائماً ماثلة أمام أعينهم .

٥ ـ تكوين روح التعلق بالمجتمع :

إن تكوين هذه الروح ضروري للفرد ليستطيع الحياة الاجتماعية كما أنه لا بد منه أيضاً لدوام المجتمع أو لدوام الحياة الاجتماعية .

أما ضرورته لحياة الفرد في المجتمع فهي أن أي فرد لا يمكن أن ينجح في حياته في المجتمع إذا عمل لمصلحته الخاصة باستمرار دون مراعاة شعور الآخرين وحقوقهم

(١) سورة النحل ٩٧ .
(٢) سورة الأعراف ٢٦ .
(٣) سورة النساء ١٣ ـ ١٤ .
(٤) سورة لقمان ١٧ .
(٥) سورة المائدة ٨ .

الطبيعية ، ولا يمكن أن تنجح حياته أيضاً إذا عاش حياة منعزلة فإن حياة العزلة إذا استمرت لا ينجو الفرد من عواقبها الأليمة بما يصاب به في النهاية من أمراض نفسية ، كما أنه ضار تربوياً بحياة الطفل إذا أبعد عن المجتمع ، ولهذا نجد الإمام الغزالي يتكلم كثيراً عن فوائد المخالطة من الناحية الصحية والاجتماعية والتربوية فيقول : «ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب ، فالصبي إذا اعتزل بقي غمراً جاهلاً . . . ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه وذلك لا يقدر عليه في الخلوة فإن كل مجر في الخلاء يسر ، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه وهذه الصفات مهلكات في أنفسها يجب إماطتها وقهرها ولا يكفي تسكينها بالتباعد عما يحركها ، فمثال القلب المشحون بهذه الخبائث مثال دمل ممتلئ بالصديد والمدة ، وقد لا يحس صاحبه بألمه ما لم يتحرك أو يمسه غيره فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن معه من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ولم يشعر بالدمل في نفسه واعتقد فقده ، ولكنه لو حرك محرك أو أصابه مشرط حجام لأنفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال ، فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تتفجر منه خبائثه إذا حرك»[1] لكن الغزالي يتكلم أيضاً عن فوائد العزلة وخاصة أيام الفتن[2] إلا أنه مع ذلك يرى ضرورة المخالطة أولاً للتربية الأخلاقية ، ولهذا يقول عندما يتكلم عن فائدة المخالطة . «الفائدة الثالثة التأديب والتأدب ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسراً للنفوس وقهراً للشهوات وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة وهي أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب أخلاقه»[3] ثم لم يكن الغزالي هو وحده الذي تكلم عن مضار العزلة ، بل هناك علماء النفس الذين هاجموا العزلة وتكلموا عن

---

(١) احياء علوم الدين ج٢ ص ٢٤١ .

(٢) المرجع السابق ج٢ ص ٢٢٦ .

(٣) المرجع السابق ج٢ ص ٢٣٨ .

مضارها ، فهذا سيجمند فرويد العالم النفسي الشهير الذي يقرر ما يقرر علماء النفس الآخرون فيقول : «إن الأشخاص الذين ينعزلون عن الناس ويعيشون وحيدين بعيدين عنهم يعانون كثيراً من التعاسة والهموم والحرمان ، كما أن علماء النفس أنفسهم يقولون : إن هذه الظاهرة ذات نتائج سيئة على صاحبها فعليه أن يتلافاها بقدر الإمكان»[1] . وهو في تحليله لكثير من الأمراض النفسية وشذوذها أرجعها إلى العزلة[2] ، ومن ثم نتيجة لهذا وذاك ينصح بأن يكون المرء اجتماعياً يكسب محبة الناس ، ويرضيهم ويرضى عنه الناس فيعيش في مودة ومحبة[3] وهناك أيضاً علماء آخرون غير الغزالي وفرويد ، فهذا هو رني يرجع أحد أسباب القلق في الحياة إلى العزلة أيضا[4] وهذا وليم مكدوجل الذي يرجع بدوره بعض العيوب الخلقية إلى العزلة ويرى أن المعاشرة والاجتماع وسيلة للقضاء على مثل هذه العيوب مثل القلق والانكماش وحالات نفسية مرضية[5] . ويرى دوركايم أن انقطاع علاقة الفرد بالمجتمع وانقطاع تعلقه بجماعة أحد أسباب الانتحار كما بين مدى ضرورة تعلق الأفراد بالمجتمع لإستقرار حياة المجتمع ، ومن ناحية ثالثة يرى ضرورة تكوين روح التعلق بالمجتمع ، ولقد ثبت لدينا أن طبيعتنا ذاتها التي تقتضي ضرورة حصر أنفسنا في حدود معينة ، وذلك عندما تبينا أنه حينما تختفي تلك الحدود حينما لا تتوافر للقواعد الأخلاقية السلطة الكفيلة بأن تمكنها من تنظيم أفعالنا بالقدر المنشود ، فعندئذ تنتاب المجتمع موجة من الأسى والاكتئاب تنعكس واضحة على صفحة الخط البياني الذي توضحه نسبة الانتحار ، وكذلك نرى أنه حينما لا تكون للمجتمع القدرة الجاذبية للنفوس التي يجب أن تتوافر فيه عادة وحينما يتخلى المرء عن الغايات الجماعية ليظل يسعى وراء مصالحه الخاصة وحدها ، فعندئذ تتكرر الظاهرة نفسها وترتفع نسبة الانتحار ، فالمرء يزداد تعرضاً

(١) سيكولوجية الشذوذ النفسي فرويد ص ٣٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢١٤ و٢٤٩ و٣١٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٣١٤ .

(٤) الصحة النفسية . ذكتور مصطفى فهمي ،مكتبة الخانجي ١٤٠٧هـ ، ص ١٩١ .

(٥) الأخلاق والسلوك في الحياة . وليم مكدوجل ص ٢١٠ .

لخطر الإنتحار كلما انفصمت العرى التي تربطه بجماعة أيا كانت . أي كلما أوغل في الحياة الأنانية ، ولذلك نرى الانتحار بين العزاب يكاد يبلغ ثلاثة أضعاف عدده بين المتزوجين ، وأنه بين الأزواج الذين لم ينجبوا أطفالاً يبلغ ضعفه بين ذوي الأطفال ، بل إنه ليزداد في نسبة عكسية مع عدد الأطفال»[١] .

ولهذا كله فقد اهتم الإسلام بالتعلق بالمجتمع اهتماماً بالغاً وبين علاقة الفرد به حتى شبه المجتمع بالجسم الواحد كما بينا ، وبناء على ذلك دعا إلى التعلق بالجماعة والاهتمام بها والعمل لمصلحتها فمن حيث التعلق بالجماعة قال الرسول : «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد ومن أراد بحبوحة الجنة فليلتزم الجماعة»[٢] وقال : «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[٣] فقالوا يا رسول الله : «أرأيت إن كان علينا أمراء يمنعون حقنا ويسألون حقهم فقال : اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم»[٤] إلا إذا أمروا بمعصية فقال الرسول : «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة[٥] وقال أيضاً : «المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس»[٦] وأخيراً قال : «المسلم إذا كان مخالطاً الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[٧] وبناء على هذا وذاك نجد معظم الفقهاء يرون ترجيح مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد دون إهدار الفرد حقه تماما[٨] كما دعا الله إلى أن يهتم كل فرد بسلامة المجتمع ووحدته من التفكك والانهيار وذلك بعدم إثارة التفرقة والفتن وإنشاء مذاهب ضارة وطرق مختلفة فقال تعالى «ولا تكونوا

---

(١) التربية الأخلاقية دوركايم ص ٦٧ .
(٢) التاج ج٥ ص٣٠٨ .
(٣) التاج ج٥ ص ٣٠٨ .
(٤) المرجع السابق ج ٥ ص٣٠٨ .
(٥) فتح الباري ج١٦ص ٢٤٠ .
(٦) كشف الخفاء ومزيل الألباس ج٢ ص ٤٠٨ .
(٧) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ج٥ص ٥١ .
(٨) حاشية ابن عابدين على الدر المختار المطبعة الأميرية . القاهرة ج٥ص ٣٥٢ وما بعدها .

كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم»[١] .

«ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون»[٢] «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا»[٣] ، ولذلك أمر بالاعتصام بالمثل العليا الدينية والأخلاقية والاجتماعية فقال تعالى : «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا»[٤] . بعد ذلك دعا إلى إصلاح ذات البين بين الناس المتخاصمين لرأب الصدع في البناء الاجتماعي ، لأن مثل هذه التصدعات إذا لم تصلح في حينها تؤدي في النهاية إلى إنهيار البناء الاجتماعي ، ولهذا قال تعالى : «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين»[٥] «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين»[٦] .

أما فيما يتعلق بالسعي لخير الجماعة والتضحية من أجلها وإيثار مصلحتها فقد وردت نصوص كثيرة منها قوله تعالى : «والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»[٧] ، بل أكثر من هذا دعا إلى التسابق في عمل الخيرات فقال تعالى : «فاستبقوا الخيرات»[٨] والتنافس فيها «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون»[٩] .

---

(١) سورة آل عمران ١٠٥ .
(٢) سورة الروم ٣١ ـ ٣٢ .
(٣) سورة النساء ١١٥ .
(٤) سورة آل عمران ١٠٣ .
(٥) سورة الحجرات ٩ .
(٦) سورة الأنفال ١ .
(٧) سورة الحشر ٩ .
(٨) سورة البقرة ١٤٨ .
(٩) سورة المطففين ٢٦ .

وإذا نظرنا إلى تلك الأمور الدقيقة التي أراد الإسلام بها تكوين الفرد جماعياً وتكوين الروح الاجتماعية فيه نجد أن نظرة الإسلام أعمق من أولئك الاجتماعيين الذين أخذوا شهرة في هذا الصدد ، مع أنهم لم يعالجوا مثل هذه الموضوعات من جميع النواحي الهامة ، أما الإسلام فكانت نظرته أكثر دقة وأوسع نطاقاً وأكثر متانة في ربط الفرد بالمجتمع ودفعه إلى العمل من أجله وإيثار مصالحه على مصلحته الخاصة ، وخاصة إذا نظرنا إلى بنائه ذلك كله على العقيدة المتينة ، لا على مجرد موضوعات اجتماعية ومنافع حسية . وينبغي أن نضيف هنا أمراً مهماً وهو أن الاجتماع في ميدان التربية الأخلاقية يجب أن يكون مع الصحبة الصالحة كما سنبين ذلك بالتفصيل عند بيان الوسائل الاجتماعية للتربية الأخلاقية .

٦ ـ تكوين شخصية قوية متحدة الذات :

وهذا التكوين مهم أيضاً في بناء الفرد والمجتمع القوي المتماسك المتحد ، ذلك أن المجتمع يكون كما يكون أفراده ، فإذا كان الأفراد أقوياء الشخصية متحدي الذوات تكون شخصية المجتمع كذلك ، ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك في الأفراد؟ إن ذلك يمكن بتحقيق ثلاثة عناصر في أفراد المجتمع وهذه العناصر هي توحيد الذات عن طريق توحيد ميولها ثم توحيد الهدف وأخيراً توحيد الطريق .

وأهمية تكوين الذات المتحدة تظهر بصفة خاصة في حالات التزعزع الداخلي الذي يجعل الشخص يتخبط عشوائياً في الطريق ، فإذا اتجه إلى اليمين مرة اتجه أخرى إلى اليسار وثالثة إلى الوراء ورابعة إلى الأمام ومن ثم يعيش في صراع دائم بين ميوله واتجاهاته المتعارضة .

ولهذا نجد المتصوفين يهتمون اهتماماً كبيراً بتوحيد الذات عن طريق توحيد تلك الميول وإيجاد الانسجام والاتساق بين تلك القوى والميول وذلك عن طريق جمع الهم بالصلاة والتقديس واللجوء إلى الله وحده[١] .

---

(١) التصوف طريقة وتجربة ومذهباً . للأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر ص ٩٧ ـ ٩٨ .

ولهذا كله بين الإسلام أن في طريقه تتحد ذات السالك واتجاهه وطريقه في الحياة، ولهذا قال تعالى: «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون»[1] لأن الإسلام كما وحد المعبود وحد الطريق أيضاً إلى الحياة وهذا من وسائل توحيد الذات، وبين الله تعالى كيف أن من لم يؤمن بإله واحد ويعبد آلهة ويسير في اتجاهات مختلفة تتوزع ذاته هنا وهناك ومن ثم يعيش في توزع وتشتت كمن يكون عبداً لأسياد مختلفة الميول والاتجاهات فقال تعالى في تصوير هذه الحالة: «ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون»[2] ومن ثم ليوحد وجهته دعا الإسلام الإنسان إلى أن يتجه إلى الله وأن يسلم وجهه إليه: «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى»[3]، ولكي لا يضل الطريق إطلاقاً دعاه الإسلام إلى الاستمساك بحبل الله فقال تعالى: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»[4] وحبل الله هو تلك المبادئ الأخلاقية التي تربط الإنسان بالله وبالطريق المستقيم الذي رسمه الله لعباده في هذه الحياة ويذكرنا ذلك بقول أفلاطون: «فالشهوات التي نحسها هي كأنها حبال أو خيوط يجذبنا كل إلى ناحيته ويتعاكس حركاتها تجذبنا إلى أعمال مضادة وهذا ما يقرر الفرق بين الرذيلة والفضيلة ولكن الحس السليم يدل على أن واجبنا ألا نطاوع إلا أحد هذه الخيوط ونتبع اتجاهه ونقاوم شديداً كل ما عداه من الخيوط الأخرى، ذلك هو الخيط الذهبي المقدس خيط العقل الذي هو القانون العام للممالك وللأشخاص . . لأن العقل المستقيم إنما هو صوت الله يخاطب به أنفسنا . . . فإن إكرامها الحقيقي (أي إكرام الإنسان نفسه) ينحصر في الدأب على تنمية الفضيلة فيها وحمايتها . . . بل يلزم أن يقال إن كل ما على سطح الأرض وما

---

(١) سورة الأنعام ١٥٣ .

(٢) سورة الزمر ٢٩ .

(٣) سورة لقمان ٢٢ .

(٤) سورة آل عمران ١٠٣ .

في باطنها من ذهب لا يستحق أن يوازن بالفضيلة . وأن المرء إن لم يقتصر تشبثه على الخير وحده بكل قواه وكان مورداً نفسه ذلك الكائن القدسي موارد العار والاحتقار»[1] .

ثم إن الإسلام وجه المسلمين إلى أن يأخذوا مبادئهم للحياة مما جاء به الإسلام وأن يتجهوا جميعاً إلى وجهته بدلاً من أن يتجهوا إلى فلسفات الغرب أو الشرق ويستمدوا منها مبادئ لتنظيم حياتهم ، إذ ليس في ذلك خير لهم ، فقال تعالى هنا وكأنه يخاطبنا اليوم : «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون»[2] .

إذن فإن الإسلام يكون بذلك شخصية متحدة الذات عن طريق توحيد إيمانه بإله واحد وتوحيد وجهته وتوحيد طريقه وتوحيد ميوله ، وتكوين مثل هذه الشخصية مهمة أدرك ضرورتها علماء النفس والتربية لوقاية الإنسان من الأمراض النفسية التي تنشأ نتيجة الصراع الداخلي بين الميول والاتجاهات المختلفة ، وضروري أيضاً لتحقيق الطمأنينة والسعادة النفسية ، ومن ثم يرون أن السعادة متوقفة على بناء شخصية متكاملة عن طريق توحيد ميول الشخص وإقامة الانسجام بينها[3] فقالوا إن السعادة مرتبطة بتكامل الشخصية والتوافق التام بين نزعات الشخص وعواطفه واتجاهاته ووجود هذه الوحدة يضمن القضاء على القلق والصراع والخوف ويضمن توجيه الطاقة البشرية[4] وقالوا أيضاً «إنه لازدياد سعادة الشخص لا يجوز أن نزيد فقط مجموع لذاته وإنما نعمل أيضاً على تحسين شخصيته وتقويتها وانسجام

(١) مقدمة علم الأخلاق لأرسطوج ١ ص٣٣ .

(٢) سورة البقرة ١٧٧ .

(٣) أسس الصحة النفسية . دكتور عبد العزيز القوصي ص ١٣٣ .

(٤) علم النفس : أسسه وتطبيقاته التربوية . دكتور عبد العزيز القوصي ص ٢٩٧ .

عناصرها وتوحيد وجهتها»[1] ، ولهذا كله ارتأى بعض علماء التربية أن الغرض من التربية الأخلاقية هو تكوين شخصيات قوية متماسكة[2] ومن هذا كله نستطيع أن نفهم الألفاظ الموجودة في قوله تعالى عند دعوته الإنسان إلى التوحيد توحيد الذات عن طريق توحيد الله : «ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون»[3] .

أما فيما يتعلق بالقسم الثاني الخاص بأثر التربية الأخلاقية على مستوى المجتمع :

فإن أهم خاصية يمتاز بها المجتمع الذي يريد الإسلام بناءه هي أنه خير مجتمع أو خير أمة على حد تعبير الإسلام تظهر بين المجتمعات والأمم وتصبح خير مجتمع مثالي وخير أمة مثالية وتكون قدوة خيرة ، ولهذا قال تعالى : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»[4] .

لكن ما أهم خصائص هذا المجتمع وما دور التربية الأخلاقية في بنائه على ذلك النحو الخير؟ إن خصائص ذلك الفرد الخير الذي أراد الإسلام بناءه عن طريق التربية الأخلاقية هي خصائص ذلك الفرد الخير نفسها الذي أراد الإسلام بناءه الأخلاقي والذي يتكون من أمثاله المجتمع كله ، فالفرد يمثل المجتمع في خصائصه كما أن المجتمع يمثل أفراده في أخلاقهم .

إذا ما دامت نوعية هذا المجتمع الخير هي من نوعية الأفراد الخيرين الذي يشكلون المجتمع عن طريق تكوينهم فإننا نستطيع تحديد خواص هذا المجتمع من خلال خواص أفراده .

وخواص أفراد هذا المجتمع الإسلامي كما حددناها سابقاً تتخلص فيما يلي :

١ ـ إن هذا المجتمع تسوده روح الخير بحيث يسعى لخير الجميع ويأمر بالمعروف

(١) المرجع السابق ص ٣٠٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٠٠ .
(٣) سورة الزمر ٢٩ .
(٤) سورة آل عمران ١١٠ .

ويحارب الشرور والمنكرات «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون»[١] .

٢ ـ تسود هذا المجتمع روح الأخوة الإنسانية لا فرق ولا تفريق لا في المعاملة ولا في الحكم والقضاء بين غني وفقير وبين أسود وأبيض ، وبين حاكم ومحكوم كلهم سواسية في الإنسانية وفي العبودية لله الواحد الأحد . إنما الأفضلية الوحيدة عن طريق تربية اجتماعية أخلاقية غير مباشرة «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[٢] «لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم»[٣] .

٣ ـ تسود هذا المجتمع الوحدة والقوة ، الوحدة في داخل الأفراد بين ميولهم والوحدة بين الأفراد لأنهم يؤمنون بإله واحد ويتجهون إليه كلية ثم يسيرون في اتجاه واحد وفي طريق واحد : «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون»[٤] .

٤ ـ يسود هذا المجتمع الوعي الكامل بوحدته من حيث ترابط المصالح المادية والمعنوية والاجتماعية والإنسانية لدرجة أن كل فرد فيه ينظر إلى أنه عضو متصل بجسم المجتمع ، وأن المجتمع ينظر إلى كل من أفراده على أنه عضو متصل بجسمه ومن ثم ينظر الفرد إلى أن حياته مرهونة بحياة الجماعة وأن المجتمع ينظر إلى أن حياته مرهونة بدوام أفراده ولهذا فقد عبر الرسول تعبيراً دقيقاً عن هذه الحقيقة عندما شبه في حديث سابق المجتمع بالجسم الواحد أو بالرجل الواحد[٥] .

---

(١) سورة آل عمران ١٠٤ .
(٢) سورة الحجرات ١٣ .
(٣) سورة الحجرات ١٢ .
(٤) سورة آل عمران ١٠٢ ـ ١٠٣ .
(٥) انظر من هذا الكتاب ص١٤٤ .

٥ ـ تسود هذا المجتمع روح الخضوع للنظام ويسود أفراده روح التعلق بالمجتمع ، وإنما تسوده هذه الروح ، لأنه يؤمن بأن نظامه وقوانينه ليست قوانين وضعها أفراد لمجرد تحقيق مصلحة اجتماعية ، بل أكثر من هذا أن هذا النظام أخلاقي يجب احترامه والخضوع له ، ولأنه نظام إلهي يحقق للإنسانية إنسانيتها .

وتسود أيضاً كل فرد من أفراد هذا المجتمع روح التعلق بالجماعة وعدم القيام بأي عمل من شأنه أن يضر هذا المجتمع أيا كان لون هذا الضرر أو شكله وإيثار مصلحة المجتمع على مصلحته الخاصة . ويبذل نفسه أو ماله من أجله إن اقتضى الأمر أو الضرورة «والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»[١] «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً»[٢] .

ولكن ما الوسيلة لبناء المجتمع على هذا النحو لكي يصل إلى هذه الدرجة إنه ليست هناك وسيلة لهذا إلا وسيلة واحدة في نظري وهي بناء كل فرد من أفراد المجتمع بالتربية الأخلاقية على النحو الذي بينته عند بناء الفرد ، لكن كيف نستطيع أن نبني كل فرد في المجتمع على ذلك النحو؟ فهذا يتعلق بوضوح منهج خاص لتعليم التربية الأخلاقية في المجتمع وقد وضعت لذلك منهجاً في الباب الأخير وخاصة في الخاتمة .

دور التربية الأخلاقية في بناء الحضارة

أما فيما يتعلق بالقسم الثالث والخاص بأثر التربية الأخلاقية على متسوى الحضارة الإسلامية . فإن ذلك نتيجة طبيعية تترتب على بناء الفرد والمجتمع على النحو السابق ، لأن الناس يصبغون حضارتهم بطابعهم وبالخصائص التربوية التي

---

(١) سورة الحشر ٩ .

(٢) سورة الإنسان ٨ ـ ٩ .

تربوا بها ، ووفقاً لذلك فإن أهم خاصية للحضارة الإسلامية أنها حضارة أخلاقية خيرة وبذلك تتميز الحضارة الإسلامية عن الحضارات الشرقية والغربية اليوم ، لأنها تستلهم خصائصها من نبعة ليست شرقية ولا غربية وإنما من نور يوقد من شجرة إلهية ، حضارة إلهية مما في الإسلام من أصول وعناصر حضارية سامية فإننا نسمع هنا وهناك كلاماً يقال بأنه لا يوجد في الإسلام حضارة ، بل لا يوجد حتى عناصرها الأساسية ، ولهذا كان الإسلام هو السبب في تأخر المسلمين وعدم إمكانهم القيام بالحضارة المتقدمة على غرار الحضارة الغربية مثلاً ، قبل أن نسوق أدلتنا على بطلان هذه الدعوى نسوق أدلتنا على دعوانا . وفي هذا الصدد نضطر إلى أن نتكلم ولو بإيجاز ما هي الحضارة وما هي عناصرها الأساسية في نظر المفكرين الغربيين الذين حاولوا تحديد الحضارة ، وفيما يجب أن تكون عليه الحضارة الإنسانية القيمة .

وإذا رجعنا إلى تحديداتهم للحضارة وجدنا بعض الاختلاف في تحديد الحضارة ، وذلك بسبب تركيز كل واحد منهم على جانب من جوانب الحضارة أكثر من الجوانب الأخرى ، فنجد أحدهم يقول عنها بأنها : «نوع من أنواع الحياة البشرية المتقدمة عمادها بصفة أساسية معيشة الحضر وما تتطلبه من تنظيم وما تسفر عنه من نتائج وتدابير تتمثل في الكتابة والتشريع ونظم الحكم وأساليب التجارة والتدين ، والحضارة على الأساس المتقدم لا يمكن تصورها إلا في رحاب المدن»[1] . فهذا التحديد يركز على الجانب المظهري أو الخارجي للحضارة ، ومنهم من يركز على الجانب الروحي ويقول : «فالحضارة في جوهرها تقوم على الكائن البشري لا على الأشياء المادية والناس متحضرون وغير متحضرين وفقاً لبعض مزاياهم القلبية والروحية وتدل كلمة الحضارة على جودة عقلية وروحية كما تدل كلمة صحة على جودة طبعية أو جسدية»[2] .

---

(١) الحضارة والتحضر . دكتور عبد المنعم نور . مكتبة القاهرة الحديثة ص ٥ ـ ٦ .

(٢) الثقافة الإنسانية في فلسفة التربية في الشرق والغرب (مباحث دولية) ترجمة أنطون خوري ص ٩٠ .

ومنهم من يركز على الجانب المادي والمعنوي معاً ويقول : «الحضارة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على حد سواء»[1] . ثم يركز على الجانب الأخلاقي أكثر ويقول : «ولما بحثت في ماهية الحضارة وطبيعتها تبين لي في ختام المطاف أن الحضارة في جوهرها أخلاقية»[2] ولعل هذا التصور هو أقرب إلى تصورنا للحضارة الإسلامية ، وهو قد وصل إلى هذا التصور بعد بحث طويل عن الحضارة وعما يجب أن تكون عليه الحضارة الإنسانية .

وأما فيما يتعلق بعناصر الحضارة الأساسية فيحددها صاحب التعريف السابق للحضارة وهو ألبرت اشفيتسر ويقول : «يدخل في مجال الحضارة ثلاثة أنواع من التقدم : التقدم في المعرفة والسيطرة ، والتقدم في التنظيم الاجتماعي للإنسانية ، والتقدم في الروحية ، والحضارات تتألف من مثل عليا أربعة : المثل الأعلى للفرد ، والمثل الأعلى للتنظيم السياسي والاجتماعي الروحي والديني ، والمثل الأعلى للإنسانية بوصفها كلاً»[3] .

ويحدد ول ديورانت أربعة عناصر رئيسية للحضارة وهي العناصر الاقتصادية وتشمل الزراعة والتجارة والصناعة . والعناصر السياسية وتشمل الدولة والقانون والأسرة والعناصر الأخلاقية وتشمل الدين والأخلاقيات الإجتماعية والزوجية ، وأخيراً العناصر العقلية ، وتشمل الآداب والعلم والفن[4] وهذا التحديد هو أشمل بالنسبة لعناصر الحضارة ، وإن كنا لا نرضى عنه ، لأنه يدخل الدين جزءاً من العناصر الأخلاقية غير أن ذلك على حسب تصوره لدينه هو ولو علم حقائق الإسلام لما قال ذلك ، على أي حال تلك هي وجهات نظر الغربيين باختصار في تحديد الحضارة وما يجب أن تكون عليه الحضارة المثلى .

---

(١) فلسفة الحضارة . البرت اشفيتسر ص ٣٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٠٦ .

(٤) قصة الحضارة . ول ديورانت . ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ج ١ص ١ .

ولنرجع الآن إلى دراسة الحضارة الإسلامية وخواصها الأساسية ودور التربية الأخلاقية في بنائها .

يمكن أن نقول مبدئياً إن الحضارة في نظر الإسلام هي تفوق الأمة الإسلامية من الناحية المادية والمعنوية في جميع مناحي الحياة الإنسانية بروح خيرة ونحو غاية خيرة في ضوء القيم الإسلامية .

ذلك أن أي تقدم في أي ناحية ، لا يدخل في الحضارة الإسلامية ما لم يتم بروح خيرة ولتحقيق غاية خيرة ، ولو كان في التقدم الروحي فلو أن إنساناً يقضي ليله ونهاره في عبادة متواصلة ولم يكن مخلصاً في عبادته بأن كان في ذلك مرائياً أو منافقاً فإنه لا يعد متقدماً روحياً ، بل لا يعد عملاً روحياً إطلاقاً . وكذلك لو أنه صنع أكبر الآلات وطاف بها الأفلاك لا يعد هذا تقدماً في نظر الحضارة الإسلامية ما لم يفعل ذلك بروح خيرة أو لغاية خيرة ، إذن من ميزة الحضارة الإسلامية أن يتم التقدم والتحضر بروح خيرة إذ التقدم بغير هذه الروح يؤدي في النهاية إلى انهيار الحضارة .

والميزة الثانية استخدام الروح الخيرة في دفع عجلة التقدم في الميادين المختلفة ، لأن القوة الروحية الخيرة طاقة جبارة فإذا دخلت في النفوس ورسخت فيها تحولت إلى طاقة محركة تدفع عملية التقدم في جميع مناحيها بسرعة ، لكن لا يمكن تكوين هذه الروح الخيرة في النفوس إلا بالتربية الأخلاقية على النحو الذي حددناه عند تحديدها وتحديد هدفها وغاياتها ، وإلا ببناء الأفراد والمجتمع بالتربية الأخلاقية على النحو الذي بينته عند الكلام عن بناء الفرد والمجتمع . ثم إنه إذا تكونت هذه الروح في نفوس أفراد المجتمع تظهر مظاهرها في الحضارة وتجعل الناس يشكلون الحضارة بصبغتها ، ويوجهونها إلى حيث تتجه هذه الروح ومن ثم تكون هذه الروح هي المتحكمة في سير الحضارة وجميع مظاهرها وعندئذ يصبح الأفراد الذين يحملون هذه الروح سادة الحضارة لا عبيدها ثم لا يتحركون بعجلاتها دون أن يدروا أين تتحرك بهم تلك العجلات وأين تنتهي بهم تلك المسيرة ، بل إنما تتحرك عجلات الحضارة بتحريكهم على بصيرة إلى أين يتحركون وإلى أين تنتهي بهم

المسيرة مسيرة الحضارة . وبناء على وجهة النظر الإسلامية في وجوب سيادة الروح الأخلاقية في بناء الحضارة وتقدمها ، يجب ألا يكون التقدم من أجل التفاخر والتكبر ، ولا من أجل العدوان والتسلط أو من أجل الإنغماس في الحياة المادية أو من أجل استغلال مجتمع متقدم مجتمعاً متأخراً أو ضعيفاً ، وإنما يجب أن يكون من أجل رفع مستوى الإنسانية والتكامل الإنساني . ثم من أجل تعميم الخير على البشرية ، وبذلك تكون الحضارة أداة بالسعادة لا أداة الشقاوة كما آلت إليه الحضارة الغربية وكما يقرر ذلك مقيمو الحضارة الغربية من الغربيين[1] . ولهذا كله نجد الإسلام يشجع على التقدم الحضاري في مختلف مناحيه في ضوء تلك الروح الخيرة وبها .

ولننظر الآن نظرة تحليلية إلى أهم مظاهر الحضارة التى أراد الإسلام تكوينها ومدى تسرب تلك الروح الأخلاقية فيها وصبغها بصبغتها ودفعها بدوافعها مدعماً ذلك بالنصوص الإسلامية حتى تكون دراستنا مدعمة بالأدلة .

وأول مظهر أخلاقي يتمثل في تلك الروح الخيرية التي تكونها التربية الأخلاقية في أفراد المجتمع الذين تقوم على أكتافهم تلك الحضارة الإسلامية إذ إن تلك الروح تدفعهم أول ما تدفعهم عندئذ إلى أن يكفوا شرهم عن غيرهم ، ثم تدفعهم أيضاً إلى الإسراع إلى تحقيق الخيرات لغيرهم والتسابق في ذلك . «أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون»[2] . وذلك وفقاً لقوله تعالى «فاستبقوا الخيرات»[3] .

وهم يسارعون ويتسابقون ويتنافسون في عمل الخيرات لا للتفاخر ولا للتناحر ولا للاستعلاء ولا للبغضاء ، وإنما من أجل نيل رضوان الله والدخول في السعادة الأبدية في الجنة «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون»[4] ، لأنهم «يؤمنون بالله واليوم

---

(١) فلسفة الحضارة البرت اشفيتسر ص٣٣ ، التربية لعالم حائر سير رتشرد لفنجستون ص٤٩

(٢) سورة المؤمنون ٦١ .

(٣) سورة البقرة ١٤٨ .

(٤) سورة المطففين ٢٦ .

الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين»[1] ، كأن هذا التسابق والتنافس ليس فيهما شيء من الأنانية البغيضة ، بل فيهما تعاون في الخير «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»[2] ثم تدفعهم تلك الروح أيضاً إلى دراسة وسائل تحقيق الخير وتعليمها الناس وإرشادهم إليها فقال الرسول «إن الملائكة وأهل السماء والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»[3] كما قال «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[4] وقال أيضاً «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»[5] كما تدفعهم تلك الروح الخيرة إلى ابتكار طرق ووسائل تحقيق المشروعات الخيرة فقال الرسول «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل لها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء»[6] وقال أيضاً «ما من رجل ينعش بلسانه حقاً فيعمل به بعده إلا جرى عليه أجره إلى يوم القيامة ثم وفاه الله ثوابه يوم القيامة»[7] .

بعد ذلك نجد أثر الروح كما تدفع عجلة التقدم العلمي بصورة تغيب عن بال معظم الدارسين فإنها توجهها أيضاً وجهة خيرة ، وتدعو إلى استخدامها في الخير لا في الشر في خير الإنسانية عامة . والحقيقة أن هذا الموضوع واسع وكبير وقد عالجته في بحث مستقل[8] تناولت فيه بالتفصيل غاية التعليم والتعلم والتشجيع التعليمي

---

(١) سورة آل عمران ١١٤ . (٢) سورة المائدة ٢ .
(٣) التاج ج١ ص٦٤ . (٤) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج٣ ص ١٥٠٦ .
(٥) المرجع السابق ج٤ ص٢٠٦٥ .
(٦) المرجع السابق كتاب العلم ج٤ ص٢٠٥٩ .
(٧) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد جـ ١ ص ١٦٧ .
(٨) توجيه المتعلم في ضوء التفكير التربوي والإسلامي دار المريخ الرياض ١٤٠٢هـ ص١٤١ .

والالتزام العلمي وأساليب التربية والتعليم ثم طرق الوصول إلى الحقائق المختلفة وفق المنهج الذي رسمه الإسلام للتقدم العلمي .

ولا أريد أن أتعرض لكل هذه الجوانب هنا وإنما أريد التعرض بإيجاز لنقطتين إحداهما كيف تكون الروح الأخلاقية دافعة عجلة التقدم العلمي؟ والثانية كيفية توجيه هذا التقدم نحو غاية خيرة ، وأجدني مضطراً إلى بيان ذلك ، لأن الحضارة بدون علم ليست حضارة لكن التقدم العلمي إذا لم يكن خاضعاً لغاية خيرة قد يجلب مفاسد وشروراً على الناس أكثر من الجهل ، وإذا كان العلماء الأخيار يبنون الحضارة فإن الفاسدين منهم يهدمونها ، ، ولهذا قال أفلاطون قديماً «إن العلم مع سوء التربية أكثر شراً من الجهل من غير التربية»[1] . وقال الرسول «شرار الناس شرارا العلماء في الناس»[2] وقال أيضاً «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»[3] ، لأن الجاهل الفاسد مهما كان فاسداً فسيكون فساده محدوداً لجهله بطرق الفساد . أما العالم الفاسد فإنه يستطيع أن يفسد المجتمع بأسره أو يضله بأسره .

ولذلك وجه الإسلام أولاً حركة التعليم والتعلم نحو غاية أخلاقية خيرة وأمر بالتربية قبل التعليم . وهذا جزء من توجيه الإسلام للسلوك الإنساني في هذه الحياة بصفة عامة وهو بدوره نابع من توجيه الإسلام نحو غاية واحدة مشتركة وهي التوجيه نحو الخالق الواحد الأحد وبذلك أمر الله «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»[4] وتبعاً لذلك قال تعالى في ميدان التوجيه التعليمي «كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون»[5] أي ليكن تعليمكم ودراستكم لله رب العالمين أساساً لا للمعيشة ولا لنيل الوظيفة وإذا سقطت غاية التعليم والتعلم إلى هذا المستوى الرخيص كثر

---

(١) الثقافة والتربية في العصور القديمة . دكتور وهيب سمعان ص ٢٢٩ .

(٢) الجامع الصغير ج٢ / ص٣٩ .

(٣) سنن الترمذي كتاب الفتن ج٣ ص ٣٤٢ .

(٤) سورة الأنعام ١٦٢ - ١٦٣ .

(٥) سورة آل عمران ٧٩ .

فيها الفساد كما نراه من غش المتعلمين وعدم جديتهم في التعليم وكما نرى ذلك في المعملين الذين لا يجدون في التعليم ولا يخلقون فيه ، بل نرى بعضهم يغشون بثمن بخس دراهم معدودة ولا يعلمون كما يجب ويقولون ما لا يعلمون . فإذا انتشر مثل هذا الفساد في ميدان العلم فكيف يتقدم العلم ومن ثم كيف تتقدم الحضارة؟ ولهذا منع الإسلام أن يطلب العلم لغير غاية أخلاقية أيا كانت تلك الغاية فقال الرسول «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء أو لتباروا به السفهاء ولا لتحدثوا به في المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار»[1] لأن طلب العلم لغاية غير أخلاقية يعد سلوكاً غير أخلاقي ، ومن ثم يعاقب عليه في الآخرة ، ولا سيما إذا كان ذلك العلم علم الدين ، لإنه بذلك يتخذ الدين وسيلة لأغراض غير أخلاقية ، ولأنه يترتب على إتخاذ تعلم الدين وتعليمه وسيلة لمجرد معيشة دنيوية فساد كبير من حيث إنه لا يعلم إلا بالمقابل ومن ثم فمن لا يجد ما يدفع لا يستطيع أن يتعلم ، والدين ضروري للحياة الإنسانية يجب ألا يضن بتعليمه لأي سبب آخر . ثم إن الذي يتعلم الدِّين ليتاجر به كمن يصلي ليكسب مالاً أو غرضاً من أغراض الدنيا وهذا يعد نفاقاً . ومن ثم يكون عدم تعلمه خيراً من تعلمه كما يكون عدم صلاته تلك خيراً من صلاته ، ولهذا قال الرسول عن التعلم في هذا المجال «من تعلم علماً لا يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[2] وقال أيضاً «من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار»[3] كما بين الرسول كيف يحاسب الإنسان أمام ربه ثم يلقي في النار إذا تعلم العلم لغير غرض أخلاقي فقال «إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في

---

(١) سنن الدارمي ج ١ ص ٨٠ كتاب العلم .

(٢) التاج ج ١ ص ٧٤ كتاب العلم .

(٣) أ ـ صحيح الترمذي كتاب العلم ج ٤ ص ١٤١ ، ب ـ التاج . ج ١ ص ٧٥ .

النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار»[1] ، ولكن هذا لا يمنع من أخذ الأجر على التعليم إذا كان محتاجاً ، ما دام لم يكن هدفه مبدئياً من التعلم كسب الرزق وما دام لم يقصد كذلك أموراً أخرى غير أخلاقية ، ما دامت غايته في البداية والنهاية أولاً وقبل كل شيء خدمة الدين وخدمة الناس عن طريق العلم لوجه الله ، ما دام الأمر كذلك لا حرج عندئذ من أخذ الأجر حتى ولو كان ذلك الأجر على تعليم القرآن . ثم إن تقدم العلوم يحتاج من جهة أخرى إلى التخصص في كل فرع من فروعها وكلما زاد التخصص تقدمت العلوم لكن التخصص يحتاج إلى ضمان الرزق أو مورد رزق ، ولهذا قال الرسول «إن أحق ما أخذتم عليه أجراً هو كتاب الله»[2] ومعلوم أن الرسول زوج أحد أصحابه بما معه من القرآن واعتبر قراءته صداقا[3] وقال أيضاً «من طلب شيئاً من هذا العلم فأراد به ما عند الله يدرك إن شاء الله ومن أراد به الدنيا فذاك والله حظه منه»[4] وقال الإمام الشعبي «لا يشترط المعلم إلا أن يعطي شيئاً فيقبله»[5] ، وقال الحكم «لم أسمع أحداً كره أجر المعلم»[6] .

بعد هذا التوجيه شجع الإسلام على التعليم والتعلم ، لأنهما الوسيلة الوحيدة لترقية الحياة الإنسانية وتنويرها وتحقيق الرفاهية وفهم الحياة والكون والوجود والحقائق ، ثم إن العلم ضروري للإنسان لأنه غذاء العقل وأن غريزة العقل تدفع الإنسان لتحقيق حاجته من المعرفة ويعد علماء النفس هذه الحاجة من الحاجات

(١) صحيح مسلم كتاب الإمارة ج٣ ص ١٥١٤ .
(٢) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الإجارة ج٥ ص ٣٦٠ .
(٣) المرجع السابق كتاب النكاح . باب تزويج المعسر ج ١١ ص٣٢ .
(٤) سنن الدارمي كتاب العلم ج ١ ص ٨٠ .
(٥) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الإجارة ج٥ ص٣٦٠ .
(٦) المرجع السابق ج٥ ص٣٦٠ .

الطبيعية الأساسية للإنسان وقد وضعها مازلو Mazlow في المرتبة الخامسة من هذه الحاجات[1] .

ولهذا شجع الرسول المتعلمين على التعلم أولاً ، لأن من لا يجد في طلب العلم لا يحصله ، فقال مشجعاً البحث عن العلم «من سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»[2] وقال «إن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم وفي رواية رضاء بما يصنع»[3] ، وطلب الإسلام أن يغادر طلاب العلم بلادهم إلى بلاد أخرى إن احتاجوا فقال تعالى «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون»[4] ثم طلب من أهالي البلاد التي يفد إليها طلاب العلم أن يسهلوا لهم السبل للتعليم فقال الرسول «إن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»[5] .

ومن جهة أخرى شجع على التعليم فقال «إن مما يلحق المؤمن من عمله علماً علمه ونشره»[6] وقال أيضاً «تعلموا العلم وعلموه الناس»[7] وبين أن من يعلم علماً ينال مثل أجر العامل به فقال الرسول «من علم علماً فله أجر من عمل به لا ينقص من أجر العمل»[8] .

ثم دعا إلى تحبيب الناس في التعليم فقال «علموا ويسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا»[9] وقال «علموا وبشروا ولا تعسروا وإذا غضب أحدكم فليسكت»[10] أي إذا

---

(١) الإنسان معجزة الخلق . الدكتور جاك فرج جوده ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٢) التاج كتاب العلم ج ١ ص ٧٣ .

(٣) سنن ابن ماجه . مقدمة . رقم الحديث ٢٢٦ . التاج ج ١ ص ٦٣ .

(٤) سورة التوبة ١٢٢ .

(٥) التاج ج ١ ص٧٣ كتاب العلم .

(٦) سنن ابن ماجه . مقدمة . حديث رقم ٢٤٢ .

(٧) سنن الدرامي مقدمة ج ١ص ٧٣ كتاب العلم .

(٨) سنن ابن ماجه ج ١ص٨٩ ح ٢٤٣ .

(٩) الفتح الرباني في تربية مسند الإمام أحمد كتاب العلم جـ ١ ص ١٥٢ ـ باب الحث على التعليم .

(١٠) المراجع السابقة كتاب العلم جـ ١ ص ١٥٢ .

حصل من المتعلم ما يزعج أستاذه فلا تشتموا ولا تذموا ، لأن السكوت يجعله يسكت وهذا من أساليب التعليم ينصح به المربون المحدثون ، وقال الرسول «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه لأخيه المسلم»[1] وحذر الإسلام في الوُقت نفسه من كتمان العلم فقال الرسول «من سئل عن علم ثم كتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[2] ، وقال تعالى «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه»[3] وقال أيضاً «إن الذين يكتمون ماأنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»[4] ومن أهم مظاهر التوجيه الأخلاقي الإسلامي في ميدان التقدم العلمي للحضارة العمل بالعلم لأن أثر التقدم العلمي لا يظهر في الحياة إلا بذلك ، ولهذا فقد دعا الإسلام أن يكون كل سلوك وكل فعل مؤسساً على علم فيجب ألا يخطو رجل خطوة دون علم وإلا سيكون مسؤولاً فقال تعالى «ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا»[5] وقال الرسول «من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتى ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه»[6] . ثم لم يكتف الإسلام بكل هذا بل شجع بعد ذلك على العمل بالعلم ، أو الإلتزام بالعلم ، لأن فائدة انتشار العلم في العمل به فهو كالكنز لا ينفع إلا بالانتفاع به ، ولأن تقدم الحضارة متوقف على العمل به ، ولهذا قال الرسول «تعلموا العلم وانتفعوا به ولا تتعلموه لتتجملوا به»[7] . وجعل المسؤولية على من تعلم ولا يعمل به فقال «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه ما فعل له وعن ماله من أين

---

(١) سنن ابن ماجه ج ١ ص ٨٩ ح ٢٤٣ .

(٢) سنن الترمذي كتاب العلم ج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٧ .

(٤) سورة البقرة ١٧٤ .

(٥) سورة الإسراء ٣٦ .

(٦) التاج كتاب العلم ج ١ ص٧٣ .

(٧) سنن الدارمي كتاب العلم ج ١ ص٨٦ .

اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه»[1] وندد الله بالذين لا يعملون بما يعلمون ويقولون فقال «يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون»[2] وبين الرسول كيف يعذب هؤلاء في الآخرة فقال «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه»[3] .

وكما أن تقدم الحضارة متوقف على التقدم العلمي فإن التقدم العلمي نفسه متوقف من ناحية أخرى على التطبيق العملي للعلم ، لأن العمل به بمثابة تجربة وسيلة للتقدم العلمي ، ولهذا كله فإن الإسلام اهتم كل ذلك الاهتمام بالعلم ووجه الحركة التعليمية ذلك التوجيه الرشيد في ضوء الروح الأخلاقية ليؤدي التقدم العلمي إلى خير الإنسانية وبناء حضارة خيرة .

وفيما يتعلق بمظهر التقدم الزراعي شجع الإسلام أولاً على استصلاح الأراضي ، لأنه الأساس الأول لذلك التقدم ، ولهذا قال الرسول «من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها»[4] وفي رواية «من أحيا أرضاً ميتة فهي له»[5] وقال أيضاً في هذا الصدد «من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو أحق به»[6] كما شجع على فتح الآبار وإخراج المياه من أجل تحقيق الخير وذلك بوقفها في سبيل الله[7] .

بعد ذلك شجع على الزرع وبين أن الزارع له أجر إذا أكل من زرعه إنسان أو حيوان أو طير فقال الرسول :«لا يغرس مسلم غرساً ولا يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة»[8] وفي رواية أخرى «ما من مسلم يغرس غرساً

(١) المرجع السابق ج١ ص ١١٠ . (٢) سورة الصف ٢ ـ ٣ .
(٣) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق ج٤ ص ٢٢٩١ .
(٤) فتح الباري بشرح البخاري كتاب المزارعة ـ باب احياء الأراضي ج٥ص ٤١٦ .
(٥) بستان الأحبار مختصر نيل الأوطار ج٢ص٥٦ . (٦) التاج ج٢ ص٢٤٦ .
(٧) فتح الباري كتاب الوصايا ج٦ ص٣٣٦ .
(٨) صحيح مسلم كتاب المساقاة ـ باب فضل الغرس والزروع ج٣ ص١١٨٨ .

إلا كان من أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع منه فهو له صدقة وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه «لا ينقصه» أحد إلا كان له صدقة»[1] .

وفيما يتعلق بالجانب العمراني للحضارة فقد وردت نصوص كثيرة تشجع على البناء والعمران لإيواء الفقراء والمساكين ووقفه في سبيل الله فمنها ما روى عن الرسول «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره ، أوولداً صالحاً تركه أو مصحفاً أورثه أو مسجداً بناء أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها في صحته وحياته يلحقه من بعد موته»[2] . كما وردت نصوص أخرى شبيهة بذلك يشجع فيها الرسول على تعمير الأراضي وإجراء المياه وبناء الدور ثم وقفها في سبيل الله[3] كذلك شجع على بناء المساجد وتعميرها في سبيل الله فقال «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»[4] وقال أيضاً «من بنى مسجداً لله بنى الله له بيتاً في الجنة»[5] . وفي بناء البيوت أيضاً قال الرسول «من سعادة ابن آدم ثلاثة : من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح ومن شقوة ابن آدم المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء»[6] . وفي رواية أخرى المسكن الواسع بدل الصالح[7] . وفعلاً إن هذه هي الأمور الملازمة لحياة الإنسان كل يوم فإذا لم يكن مرتاحاً فيها لا يمكن أن يرتاح في حياته ، بل يتعذب كل يوم فيها وبها ، ولهذا من أراد أن يكون سعيداً في حياته فعليه أن يتخذ أسبابها ومن أسبابها اتخاذ المرأة الصالحة والبيت الصالح والمركب الصالح واتخاذ البيت الصالح يقتضي التعمير أو البناء الصالح .

(١) المرجع السابق ج٣ ص ١١٨٨ .
(٢) سنن ابن ماجه مقدمة رقم الحديث ٢٤٢ .
(٣) كمثال لذلك انظر فتح الباري ـ كتاب الوصايا ج٦ ص٣٣٤ .
(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان كتاب الزهد والرقائق ج٣ ص٣٢٤ .
(٥) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق ج٤ ص٢٢٨٣ .
(٦) مسند الإمام أحمد ج١ ص١٦٨ . (٥) الجامع الصغير ج١ ص ١٣٧ .
(٧) الجامع الصغير ج١ ص ١٣٧ .

وفيما يتعلق بمظهر التقدم الصناعي للحضارة فإنه يتوقف أساساً على التقدم العلمي والتقدم الأخلاقي ثم التقدم الزراعي ، أما فيما يتعلق بالعلم فإن الأمر لا يحتاج إلى جدال ومناقشة ، لأن العلم أساس هام لأي تقدم . ولهذا كان اهتمام الإسلام بالعلم كبيراً كما سبق بيانه . وأما فيما يتعلق بالتقدم الأخلاقي فإن الأخلاق تؤدي أولاً إلى الاستقرار والأمن وتنجي المجتمع من المخاوف والاضطرابات وذلك من الأساسيات المبدئية ليستطيع الإنسان التفرغ للإبداع والابتكار ، ولهذا يقول ول ديورانت «إن الحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء»[1] .

وفيما يتعلق بالتقدم الزراعي ودوره في تقدم الصناعة فإن التقدم الزراعي يؤدي إلى طمأنينة الناس من حيث شعورهم بضمان الأرزاق من المأكل والمشرب ، إذ إن ذلك من الحاجات الأساسية التي تشغل بال الإنسان باستمرار ، ولهذا يتكلم ول ديوارنت عن دور تقدم الزراعة في الحضارة ويقول «وأول صورة تبدت فيها الثقافة هي الزراعة إذ الإنسان لا يجد لتمدنه فراغاً ومبرراً إلا إذا استقر في مكان يفلح تربته ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه مورداً لطعامه . وفي هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة ـ وأعني بها مورداً محققاً من ماء وطعام ـ ترى الإنسان يبني لنفسه الدور والمعابد ، ويخترع الآلات التي تعينه على الإنتاج»[2] .

هذا إلى أن هناك مبادئ أخرى في الإسلام لتقدم الصناعة غير المبادئ العلمية والأخلاقية والزراعية ، مثل إتقان العمل وإحسانه ، لأن محاولة الإتقان هي وسيلة الإبداع ، ولهذا قال الرسول «يحب الله العامل إذا عمل أن يحسن»[3] وفي رواية أخرى أن يتقن بدل أن يحسن[4] .

---

(١) قصة الحضارة . ول ديورانت ج ١ ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٥ .

(٣) الجامع الصغير ج٢ ص ٢٠٥ .

(٤) كشف الخفاء ومزيل الألباس ج ١ ص ٢٨٥ .

ومن تلك المبادئ أيضاً مساعدة من لا يعرف أو لا يجيد صناعة الشيء وتعليمه صناعة ذلك الشيء وتجويده ، ولهذا قال الرسول لأبي ذر عندما سأله عن أفضل الأعمال «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق»[1] وقال «صنائع المعروف تقي مصارع السوء»[2] .

ومن تلك المبادئ تشجيع الرسول على اختراع المشروعات الخيرة مثل قوله «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها»[3] .

ومن تلك المبادئ أيضاً أخذ الاستعداد وصناعة الأسلحة لمواجهة الأعداء فقال تعالى «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون»[4] .

ثم إذا تسابق الناس إلى تقديم الخيرات إلى الناس بالوسائل المختلفة بناء على الروح الأخلاقية الخيرة فإن الأمر يؤدي إلى اختراع وسائل الخير وستكون الصناعة من ضمن تلك الوسائل ، بل أكثر من هذا وذاك فإن هناك مبادئ أخرى في الإسلام تتعلق بإبداع الصناعة وتجميلها ، وهذا يساعد على تقدم فن الصناعة ، وهو الفن التجميلي أو الإبداعي للصنعة والبناء ، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار تعريف ول ديورانت للفن بأنه إبداع الجمال [5] أو تعريف سوريو «بأن الفن هو نشاط إبداعي من شأنه أن يصنع أشياء أو ينتج موضوعات»[6] ، لأن تقدم الصناعة من هذه الناحية متوقف على تقدم الفن الصناعي ، وهذه العلاقة بين تقدم الفن وتقدم الصناعة تظهر بوضوح في تعريف دلاكرو بأن «الفن هو عبارة عن نشاط

(١) كتاب الأدب المفرد للإمام البخاري ،باب إن كل معروف صدقة رقم الباب ١١٥ ص ٦٧ .

(٢) كشف الخفاء ج٢ص٤٢ ـ ج٢ص٢٩ج٢ص ٤٦ الجامع الصغير ، المقاصد الحسنة ٢٦٥

(٣) صحيح مسلم كتاب العلم ج٤ص٢٠٥٩ .

(٤) سورة الأنفال ٦٠ .

(٥) قصة الحضارة ص ١٤١ .

(٦) مشكلة الفن . دكتور زكريا ابراهيم ص ٢٣ .

اصطناعي . . لأنه لا يمكن أن يكون ثمة فن حيث لا تكون هناك صناعة»[١] كذلك تتبين تلك العلاقة في تعريف عالم الجمال الفرنسي شارك لالو بأن الفن «هو عبارة عن عملية التحوير أو التغيير التي يدخلها الإنسان على مواد الطبيعة»[٢] . ويمكن أن نعبر عن الجانب الفني في الصناعة بأنه الصناعة الراقية الجميلة أو المبدعة ، لأن التفنن في الصناعة والبناء وإبداعهما وتجميلهما جانب مهم في الحضارة الصناعية إذ الفن يضفي قيمة إضافية إلى الصناعة وهو قيمة جمالية يحتاج إليها الإنسان ، لإشباع حاجته الجمالية التي بينا قيمتها من ناحية إدخالها السرور في نفس الإنسان ودورها في السعادة النفسية ، ولهذا فإن الله لما خلق أبدع خلقه «بديع السماوات والأرض»[٣] «صنع الله الذي أتقن كل شيء»[٤] ومن ثم وجه نظر الإنسان أن يكون جميلاً في منظره وفي مخبره وسلوكه ، لكن تجميله ذلك يجب أن يكون في إطار الأخلاق ، ولهذا لما سأل أحد الصحابة الرسول قائلاً «هل من الكبر أن يكون ثوب الإنسان حسناً ونعله حسناً؟» فقال الرسول «إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس»[٥] ولهذا أيضاً كان الرسول ينصح دائماً بتحسين الهندام وتجميل المظهر وتطهير الثياب[٦] وقال تعالى «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده»[٧] «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد»[٨] فإذا لم نعرف صناعة الزينة فكيف نتزين بها؟ لكن ليستطيع الأفراد الإبداع في الجمال في ميدان الصناعة والبناء لا بد من التربية الجمالية أو تكوين إحساس جمالي عندهم ، لأنه كلما زاد الإحساس الجمالي عندهم زادت قدرتهم في الإبداع الجمالي ، ومن هنا يبدو وجود

(١) مشكلة الفن ص ٢٢ .
(٢) المرجع السابع صْ ٢٢ .
(٣) سورة البقرة ١١٧ .
(٤) سورة النمل ٨٨ .
(٥) التاج كتاب الأخلاق ج٥ص ٣٢ .
(٦) المستدرك على الصحيحين في الحديث ج٤ ص ١٨٦ .
(٧)سورة الأعراف ٣٢ .
(٨) سورة الأعراف ٣١ .

العلاقة بين الأخلاق باعتبارها سلوكاً مهذباً جميلاً وبين الفن باعتباره الإبداع الجمالي ، ومن ثم يرون أن الصلة بين التربية الأخلاقية باعتبارها سلوكاً مهذباً جميلاً وبين الفن باعتباره الإبداع الجمالي ، ومن ثم يرون أن الصلة بين التربية الأخلاقية والتربية الفنية الجمالية قائمة على أساس أن المعايير الجمالية لا بد من أن تلتقي بالمعايير الأخلاقية ، وقالوا «إن الجمال هو بهاء الخير وأن الأخلاق هي جمال العادات»[1] . وبناء على ذلك وحد بعض الدارسين بينْ قيمة الخير وقيمة الجمال حتى نسبوا إلى الفن صفة أخلاقية تربوية[2] وعلى ذلك يرى «برنشفيك» أن من شأن الفن أن يسدي إلى الأخلاق خدمة جليلة ، وأن التربية الجمالية هي بلا شك الوسيلة الناجحة التي سيتسنى لنا عن طريقها أن ننتقل من أخلاق جزئية محدودة إلى أخلاق عامة كلية»[3] .

بعد هذا كله يبقى مظهر أو عنصر آخر من الجانب المادي للحضارة وهو التجارة التي تعبر عن جانب هام من العلاقات الإنسانية الرفيعة التي تنعكس فيها أخلاقيات المجتمع وروح الإنسانية التي تسوده ، إذ إنها تعبر عن مدى ما يسود المجتمع من نزاهة المعاملة وتبادل الثقة وروح الإخلاص والصدق والتعاون ومراعاة المصلحة العامة ، كما تعبر عن مدىٰ ما يسود المجتمع من الاستغلال والأنانية والكذب والخداع والشراسة والأثرة وفقدان الثقة وما إلى ذلك . هذا إلى أن المدنية إذا كانت رقة المعاملة أو السلوك المهذب كما يقول بعض الدارسين[4] فإننا يمكن أن نقيس مدى ما وصلت إليه المدنية في المعاملات التجارية بين الناس بالأساليب الرفيعة المهذبة التي يتم بها التعاون التجاري ، إنها هي التي تعبر عن مدى ما وصلت إليه المشاعر الأدبية السامية لدى الناس ومدى احترامهم لهذه المشاعر عند غيرهم .

---

(١) مشكلة الفن دكتور زكريا إبراهيم ص ٢٢٣ . .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٤ .

(٤) قصة الحضارة ول ديورانت ص ٥ .

كما يظهر جانب آخر من المدنية في طرق استخدام الثروة ومجالات استعمالاتها .

ولهذا وجه الإسلام هذه الناحية من الحضارة الإنسانية توجيهاً أخلاقياً ليكون التقدم الاقتصادي في إطار التقدم الأخلاقي ومتمشياً مع التقدم الإنساني ، فمنع الغش والخدعة والغصب أو أي كسب آخر ، بطريق غير أخلاقي فقال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم»[1] ولا ينحصر هذا في ميدان التجارة فحسب بل يشمل كل ميادين الكسب ، ولهذا قال تعالى «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»[2] . ثم دعا الإسلام إلى الإخلاص والصدق في المعاملة التجارية فقال الرسول «البيعان بالخيار ما لم يفترقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»[3] . ومنع الكسب بالربا ، لأنه امتصاص مكاسب الآخرين بدون مقابل وبدون تعب ضمان الخسارة في التجارة ومن ثم يمكن أن يخسر أحد الطرفين خسارة كلية ، ويهدم بيته دون أن يتأثر الطرف الآخر ، ومن ثم يمكن امتصاص أموال الناس واستغلال مكاسبهم بهذه الطريقة ، ولهذا قال تعالى «وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله»[4] «يمحق الله الربا ويربي الصدقات»[5] «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا»[6] . وكذلك منع الاحتكار في الشراء والبيع وخاصة في أقوات الناس فقال الرسول : «من احتكر فهو خاطئ»[7] ودعا أن يكون البائع أميناً في بيعه وأن يبين ما في سلعته من عيوب فقال الرسول «لا

---

(١) سورة النساء ٢٩ . (٢) سورة البقرة ١٨٨ .

(٣) فتح الباري بشرح البخاري كتاب البيوع ج٥ ص١٢٥ .

(٤) سورة الروم ٣٩ .

(٥) سورة البقرة ٢٧٦ .

(٦) سورة البقرة ٢٧٥ .

(٧) صحيح مسلم كتاب المساقاة ج٣ ص١٢٢٧ .

يحل لامرئ يبيع سلعة يعلم أن بها داء إلا أخبره»[1] . كما دعا إلى نبذ التناجش والأساليب البغيضة التي تثير الأحقاد والعدواة بين الناس فقال الرسول : «ولا تناجشوا ولا يبع الرجل على بيع أخيه»[2] وزاد في حديث آخر ولا يسم مسلم على سوم أخيه حتى يأذن له أو يتركه[3] ، وهذا إلى أن الإسلام لم يكتف بتحريم المعاملة التجارية غير المشروعة ، بل دعا بعد ذلك أيضاً إلى حسن المعاملة والمعاشرة والمقابلة وذلك ليرتفع بالأمة إلى المستويات العالية من السمو الأدبي فقال الرسول مثلاً في هذا الصدد «أدخل الله عز وجل رجلاً كان سهلاً مشترياً وبائعاً وقاضياً ومقتضياً الجنة»[4] وكان الرسول يبايع الناس على عدم التنفير في المعاملة فروى جابر أنه قال : «إنما بايعناه على أن لا ننفر»[5] كما دعا إلى استقبال الناس بوجه مبتسم فقال : «وتبسّمك في وجه أخيك لك صدقة»[6] . وبعد أن دعا الناس إلى أن يستقبلوا الناس بوجوه مبتسمة دعاهم أيضاً إلى أن يستخدموا في معاملاتهم كلمات أدبية مهذبة وبين الرسول أن استخدام مثل تلك الكلمة يعد صدقة فقال «والكلمة الطيبة صدقة»[7] .

بعد ذلك وجه الإسلام إلى أساليب استخدام الثروة بأن لا يكون هذا الاستخدام في الحرام وألا يكون كذلك افتخاراً كما منع التبذير والإسراف فقال تعالى « كلوا

---

(١) صحيح مسلم ج٣ ص١٢٢٧ كتاب المساقاة .

(٢) فتح الباري كتاب البيوع (وصورة البيع على بيع أخيه أن يقول لمن اشترى من غيره في مدة الخيار أن يرده ليبيعه بأرخص من صاحبه أو أن يستقبل ليبيع بأحسن من بضاعته)ج٥ ص٢٥٧ .

(٣) صحيح مسلم . (وصورة المساومة أن يقول للبائع استرد بضاعتك لأشتري منك بأكثر)ج٣ ص١١٥٤ .

(٤) سنن النسائي ج٧ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

(٥) سنن النسائي ج٧ ص ١٢٧ .

(٦) سنن الترمذي كتاب البر والصلة ـ باب صنائع المعروف ج٣ ص ٢٢٨ .

(٧) صحيح مسلم كتاب الزكاة ج٢ ص٦٦٩ .

واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين»[1] . ومدح الذين يعتدلون في الإنفاق فقال «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً»[2] وأمر أن يكون الإنفاق للخير بالنيات الخيرة «يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس»[3] ، ومن ثم تتبين لنا قمة التوجيه الأخلاقي في بناء الحضارة من ناحيتين ، ناحية الإنتاج إذ الأخلاق تدعو إلى المثابرة وإلى العمل المتقن وإلى اختراع ما يفيد المجتمع ويحل مشكلاته ، وناحية الإنفاق إذ إنها تدعو إلى عدم الإسراف والتبذير وعدم الإنفاق إلا فيما يجب الإنفاق فيه ، ومعلوم أن الاقتصاد لا ينمو في أي مجتمع إلا بهاتين الطريقتين كثرة الإنتاج والتنمية في مختلف المجالات ثم الاقتصاد في المصروفات .

هذا إلى أن هناك قيمة أخرى للتوجيه الأخلاقي وهي القيمة النفسية في ميدان الاقتصاد ، ذلك أن الأخلاق الإسلامية تدعو إلى القناعة والرضى بما يمتلكه الإنسان ، لأن نفس الإنسان لا تشبع أساساً ولو ملك الدنيا ، بل يرغب زيادة على ذلك في أن يملك كل ما في الأرض ، وصدق الرسول عندما عبر عما في النفس الإنسانية من مطامع فقال «لو كان لابن آدم واديان من مال لأبتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»[4] ، ولهذا دعا إلى القناعة وعدم التطلع إلى ما في أيدي الناس فقال «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»[5] . لأن النفس بغير القناعة لا يمكن أن تشبع وما دامت لم تشبع فإن الإنسان يشعر بالضيق والكآبة وكأنه لم يملك شيئاً وحرم من كل شيء ، ومن ثم يعيش في تبرم وضجر باستمرار ، بل قد يؤدي طمعه وشرهه إلى إهلاك نفسه ، كما أن تضخم الثروة تجعل مالكها شخصية مفسدة وطاغية في المجتمع . ومن ثم يؤدي الأمر إلى التناحر بين هذه الشخصيات

---

(١) سورة الأعراف ٣١ .

(٢) صورة الفرقان٦٧ .

(٣) سورة البقرة ٢٦٤ .

(٤) صحيح مسلم كتاب الزكاة ج٢ ص٧٢٥ .

(٥) صحيح مسلم كتاب الزكاة ج٢ ص٧٢٦ .

وينتج عنه فتن وقلاقل ومفاسد واضطرابات في الحياة الاجتماعية . ويشير دوركايم إلى هذه الحقائق ودور الأخلاق في ضبط النفس وحصرها في السير في طريق مستقيم يقول : «كذلك لو تزعزعت أركان الأخلاق التي تتحكم في الحياة الاقتصادية فإن المطامع الاقتصادية لا تعرف حينئذ حداً تقف عنده فتبلغ أقصى حدود الثورة والانفعال وفي هذه الحالة يظهر صدى تلك الثورة في ارتفاع النسبة السنوية لعدد المنتحرين وأن الأمثلة لذلك لعديدة ، فلما كانت مهمة الأخلاق على الحصر والتحديد كان من السهل أن يصبح الثراء الفاحش سبباً للتبذل الأخلاقي ، إن القدرة الهائلة التي يكسبها إيانا ذلك الثراء تقلل من مقاومة الأشياء لنا وبهذا تكتسب رغباتنا قوى زائدة تجعل التحكم فيها أمراً أشق ويصبح حصر تلك الرغبات في الحدود المعتادة أمراً أصعب ، وفي هذه الأحوال يزداد اختلال التوازن الأخلاقي . وتكفي أقل صدمة كيما يسوده الاضراب التام . ومن كل هذا نستطيع أن نتبين مكمن تكون الداء اللامتناهي الذي ينتاب عصرنا ومن أين يأتي»[1] ولهذا كله ينصح ألبرت اشتفيتسر أن تكون الروح الأخلاقية هي الموجهة لجميع جوانب الحضارة[2] .

وبعد ، فقد تبين لنا مما سبق أن بناء الحضارة وتقدمها ثم ثباتها واستقرارها متوقف تماماً على أفراد المجتمع لكن هؤلاء الأفراد لا يستطيعون أن يقوموا بتلك المهام إذا لم يتكونوا تربوياً ، لأن التربية ضرورية أولاً للرقي بالإنسان من مرحلة الهمجية والوحشية إلى أن يكون أهلاً للمدنية الإنسانية ، وضرورية ثانياً لبناء الحضارة وضرورية أخيراً لنقل الحضارة والمدنية من جيل إلى جيل . وهذا ما يقرره دارسو الحضارة أيضا[3] وتظهر ضرورة ذلك بصورة أوضح إذا أخذنا في الإعتبار التربية الأخلاقية ، لأنها تكون في شخصية المرء قوة دافعة محركة ، قوة موجهة

---

(١) التربية الأخلاقية . دور كايم ص ٤٣ .

(٢) فلسفة الحضارة البرت اشفيتسر ص ٥٦ .

(٣) قصة الحضارة ول ديورانت ٧ ـ ٨ .

تحرك الإنسان إلى أعمال بناءة خيرة للإنسانية وتجعل الناس يتسابقون في عمل الخيرات ، بدلاً من أن يتسابقوا في قضاء الشهوات والافتخار بالممتلكات واستخدام الثروة في السطو والتسلط على حقوق الناس أو لإذلالهم واستعبادهم للمآرب الشخصية ، كما أنها تكون في الإنسان قوة رادعة وزاجرة عن أن ينساق الإنسان إلى أعمال تخريبية أو شريرة أو أن يستخدم ثروته لنزواته الطائشة فيؤدي الأمر إلى الإضرار بنفسه وبغيره أيضاً . يقرر هذه الحقائق أيضاً بدقة المفكر الإجتماعي دوركايم قائلاً : «والواقع أن القواعد الأخلاقية بفضل تلك السلطة الكامنة فيها هي حقيقية تصطدم بها رغباتنا وحاجاتنا وشهواتنا المختلفة عندما تميل إلى تجاوز حدود الإعتدال ، وصحيح أن هذه القوى ليست مادية ولكنها مع ذلك قادرة على التحريك وتحويل الاتجاه فإنها وإن لم تقو على تحريك الأجسام بطريق مباشر تحرك النفوس وتوجهها حيث تشاء فلها في ذاتها كل ما يلزم لتحويل إرادتنا عن قصدها وإجبارها على السير في طريق معين وعلى حصرها وتوجيهها في اتجاه دون آخر»[1] وكذلك يقرر ديوي الفيلسوف الأمريكي هذه القوى الموجهة للأخلاق عندما يتكلم عن واجب الفلسفة نحو الكشف عن هذه القوى الأخلاقية التي تحرك البشر وتحفزهم[2] .

لكن مع ذلك أكرر قولي بأن الأخلاق لا يمكن أن يكون لها ذلك التأثير في حياة البشرية ولا في بناء الحضارة الإنسانية بدون التربية الأخلاقية الأساسية ، لتكوين كل فرد من الصغر تكويناً أخلاقياً متشبعاً بروح الأخلاق أو بروح الخير وخالياً من روح الشر ، عندئذ نستطيع بفضل تلك التربية تكوين مجتمع إنساني خير يسعى لخير أفراده كما يسعى أفراده لخير مجتمعهم . وبهذه الروح وحدها نستطيع بناء حضارة ومدنية إنسانية ، ومن ثم نستطيع استخدام كل ما فيها من طاقات وإمكانيات مادية وعضوية لتحقيق الرفاهية والسعادة للجميع . .

---

(١) التربية الأخلاقية دور كايم ص ٤٢ .

(٢) تجديد في الفلسفة ، جون ديوي ص ٩٠ .

وأضيف هنا إلى قولي هذا قول ألبرت اشفيتسر الذي يقول بعد أن يضع الأخلاق بين الأسس الأولى لنشأة الحضارة : «إن الحضارة تنشأ حين يستلهم الناس عزماً واضحاً صادقاً على بلوغ القصد ويكرسون أنفسهم تبعاً لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم ، وفي الأخلاق وحدها نجد الدافع القوي إلى مثل هذا العمل . . لكن لا سبيل إلى إقناع الناس بحقيقة توكيد الحياة الدنيا وبالقيمة الصادقة للأخلاق لا سبيل لإقناعهم عن طريق الدعوة والوعظ ، بل لا بد أن تنشأ العقلية الأيجابية الأخلاقية التي تمتاز بها هذه المعتقدات في الإنسان نفسه كنتيجة لصلة روحية باطنة بالعالم . . ولن تتقدم الحضارة المستمرة الحقيقية إلا إذا وصلت غالبية الأفراد إلى هذه النتيجة»[1] .

ولهذا كله فقد إهتم الإسلام بالتربية الأخلاقية العلمية اهتماماً بالغاً ، فقال الرسول مثلاً : «ما نحل والد ولده من نحل أفضل من أدب حسن»[2] . ثم لم يكتف بدعوة الآباء إلى تربية أبنائهم تربية أخلاقية ، بل دعا كذلك إلى أن يتخذ كل فرد مجموعة من الأولاد الذين لا يوجد لهم أهل يربونهم فقال : «من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة»[3] وقال أيضاً «ثلاثة لهم أجران وأحدهم كانت عنده أمة فأدبها وأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها»[4] وذلك لكيلا يبقى في المجتمع فرد غير متربّ بالتربية الأخلاقية ، ثم دعا إلى عقد مجالس تربوية فقال : «من جاء مسجدي هذا لم يأت إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله . ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره»[5] ، وقال : «ليتعلم خيراً أو يعلمه» ثم اعتبر التعلم والتعليم أفضل الصدقة[6] .

---

(١) فلسفة الحضارة . ألبرت أشفيتسر ص ٥ ـ ٦ .

(٢) سنن الترمذي كتاب البر والصلة ج٣ ص ٢٢٧ ، مسند الإمام أحمد ج٣ ص ٤١٢ .

(٣) سنن أبي داود ج٤ ص ٤٥٩ ، كتاب الأدب ح ٥١٤٧ باب فضل من عال يتيماً .

(٤) فتح الباري كتاب العلم ـ باب تعليم الرجل أمته ج ١ ص ٣٠٠ .

(٥) سنن ابن ماجه مقدمة باب الحث على العلم ص ٢٢٧ .

(٦) المرجع السابق مقدمة رقم الحديث ٢٢٧ ، ٢٤٣ .

ولهذا كله أيضاً فإن الرسول لم يأت لمجرد تبليغ رسالة ربه ، بل جاء أيضاً لتربية الأمة بهذه الرسالة وبفضائلها ، ولهذا قال تعالى «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون»[1] ، إذاً التزكية هي التربية الأخلاقية كما بينا . وإنما اهتم الإسلام كل هذا الاهتمام بهذه التربية لأن الأمر يتعلق أولاً بنجاح حياة الفرد وفلاحه أو شقاوته وخيبته ، ولهذا قال تعالى «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها»[2] ومن ثم فإن خير ما يقدمه الإنسان لابنه في حياته هو أن يربيه تربية أخلاقية سليمة ، ولهذا فإن الرسول عندما سئل ما خير ما أعطى الإنسان؟ . فقال «خلق حسن»[3] ، لأن الإنسان إذا أعطى ابنه حسن الأخلاق ضمن نجاح حياته . وإذا أعطاه المال دون الأخلاق ضمن فساد حياته وخيبته .

وبعد هذه التحديدات والتحليلات لمفهوم الحضارة بصفة عامة لدى الغربيين ، وفي إطار الإسلام يمكن إجمال أهم عناصر الحضارة الإسلامية في ثلاثة اقسام : الأول العناصر المعنوية وتشمل العناصر الروحية والأخلاقية والعلمية ، والثاني العناصر المادية وتشمل التقدم الزراعي والصناعي والعمراني والفني . والثالث يربط بين الجانبين وهو الجانب التنظيمي أو التشريعي الذي ينظم حياة المجتمع مرتبطاً بجميع جوانب الحضارة .

وهذه الحضارة يجب أن تكون متوازنة في تقدمها فلا ينبغي أن تتقدم بعض عناصرها وتهمل الأخرى ، أو أن تتقدم في ناحية واحدة أكثر من اللازم بحيث تطغى على الجانب الآخر . بل يجب أن يقدر ذلك بميزان الطبيعة الإنسانية وحاجتها ، لأن الحضارة في صورتها العامة تجسيد لحاجات الإنسان واستعداداته ، فيجب أن تشمل جميع جوانب حياة الإنسان بحكم طبيعته وحاجاته فلا ينبغي أن تهمل مثلاً العنصر

(١) سورة البقرة ١٥١ .

(٢) سورة الشمس ٧ ـ ١٠ .

(٣) كتاب الأدب المفرد للإمام البخاري ص ٨٢ حديث ٤٩١ .

الروحي وتهتم أكثر من اللازم بالحياة المادية أو الفنية وإلا أصيب الإنسان في هذه الحضارة بالضيق والإنهيار والتعاسة كما أصيب بها الإنسان الغربي المتحضر نتيجة لذلك ، وكما بينا في ذلك آراء المفكرين الغربيين ودعوتهم من جديد إلى إعادة بناء الحضارة على أسس سليمة لإنقاذ الإنسان الغربي من الضياع والانهيار .

وهناك ميزة أخرى للحضارة الإسلامية وهي سيادة الروح الأخلاقية الخيرة على جميع جوانب الحضارة وأن تسرى في جميع عناصرها سريان الدم في شرايين الجسم كلها ، ابتداء من بناء الفرد والمجتمع وبناء الحضارة بجميع جوانبها وعناصرها المختلفة ، ثم إخضاع الحضارة كلها للروح الأخلاقية من حيث الأساس ومن حيث الغاية .

ودور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء هذه الحضارة يتحدد في أن إخضاع هذه الحضارة لروح الأخلاق على النحو السابق لا يمكن أن يتم إلا ببناء الفرد والمجتمع معاً بناء أخلاقياً أولاً ، لأن الحضارة إنما تقوم على أكتاف الأفراد أو المجتمع بصفة عامة ، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بسيادة التربية الأخلاقية أولاً على جميع أفراد المجتمع ، ولهذا وجدنا أن الرسول اهتم إهتماماً كبيراً بالتربية الأخلاقية وتعميمها كما رأينا سابقاً . وهذا وذاك يقتضي تكوين مربين متخصصين في التربية الأخلاقية لجميع المراحل والمستويات التعليمية ، وإذا علمنا أنه لا يوجد اليوم في بعض البلاد الإسلامية متخصصون في هذا الميدان فكم يدعو الأمر إلى الاعتناء بالتربية الأخلاقية في المجالين في تكوين المربين ، وتنشئة أو تكوين الجيل وتربيته التربية الأخلاقية السليمة ليتحقق الغرض المرجو منه . لكن كيف نستطيع أن نضمن أن تكون هذه التربية الأخلاقية سليمة وناجحة؟ .

هذا ما سندرسه بعد الآن في الأبواب القادمة ، بعد تحديد مفهوم هذه التربية وهدفها وغاياتها ودورها في ميدان بناء الفرد والمجتمع والحضارة بناء أخلاقياً سليماً . وأول دراسة يجب العناية بها لضمان نجاح هذه التربية هي وضع الشروط التربوية لبناء الحضارة الاسلامية موضع التنفيذ وتلك الشروط هي الآتية :

الشروط التربوية لبناء الحضارة الإسلامية

١ـ وجوب إيضاح صورة الحضارة الإسلامية بجميع عناصرها وسبل بنائها أمام الأجيال والمربين معا .

٢ـ وجوب اقناع الأجيال المسلمة بأهمية هذه الحضارة وضرورتها للأمة الأسلامية

٣ـ وجوب بيان للأجيال بأن إقامة هذه الحضارة تحتاج الى جهود جبارة ومدة طويلة

٤ـ وجوب تنشئة الجيل على هذه الحضارة وتدريبهم عليها وعلى تحمل صعوباتها والتضحية من اجلها .

٥ ـ وجوب التركيز على هدف الحضارة وأنه هدف إنساني وأخلاقي سامي .

٦ـ وجوب الاهتمام بالتربية الابداعية وتكوين روح التضحية من أجل الابداع والابتكار .

٧ـ وجوب استخدام كافة الحوافز المادية والمعنويةلبنائها .

٨ ـ وجوب تكوين الثقة لدى الأجيال بأنهم قادرون على بناء هذه الحضارة .

ولأهمية هذا الموضوع اخرجت فيه كتابا مستقلا ثم ترجم الى اللغة التركية .

بعد هذه الجولة حول جوانب ومهام التربية الأخلاقية ننتقل الى الأسس التي تقوم عليها هذه التربية .

٩ ـ وجوب استخدام كافة الحوافر المادية والمعنوية لدفع الأجيال بقوة إلى بناء هذه الحضارة .



الباب الثاني

أسس التربية الأخلاقية الإسلامية

ويتضمن الفصول الآتية:

الفصل الأول:
الأساس الاعتقادي

الفصل الثاني:
الأساس العلمي

الفصل الثالث:
الأساس الإنساني.

الفصل الرابع:
الأساس الجزائي.



الفصل الأول

الأساس الاعتقادي

أولاً: إتجاهات في مدى أهمية العقيدة في التربية الأخلاقية

ليس هنا أساس ضروري يجب أن تعتمد عليه التربية الأخلاقية مثل هذا الأساس في دفع الإنسان إلى الخير وردعه عن الشر باستمرار ، ثم في تنمية الروح الأخلاقية في الطفل وترقيته أخلاقياً باستمرار ، ذلك أن الإنسان الذي يؤمن بالله وبالحياة الأخرى ، وأن مصير الإنسان في تلك الحياة السعادة الدائمة إن التزم بالخير في هذه الحياة ، والشقاوة الدائمة إن التزم بالشر ، وليس ذلك في الحياة الأخرى فحسب بل في الحياة الدنيا أيضاً ، إذ إن الله يكون مع الخير دائماً من حيث رعايته ونصره وتوفيقه ، كما يكون ضد الشر دائماً من حيث خذلانه وعدم رعايته وتوفيقه وتعسير أموره كلها ، فإن اعتقاده ذلك كما في الإسلام يدفعه باستمرار إلى التجرد من كل رذيلة والتحلي بكل فضيلة لنيل رضا الله أولاً ثم الخلود في دار السعاد التي أعدها تكريماً لعباده الصالحين .

وقد تبينت أهمية العقيدة في ميدان التربية الأخلاقية في تقرير لجنة المؤتمر الإنجليزي للتحقيق الدولي في التربية الأدبية الذي عقد في انجلترا سنة ١٩٠٨ ، والذي اشترك فيه أكثر من سبعمائة من مشاهير العلماء والفلاسفة ورجال الأدب والسياسة ، بعد دراسة التقارير المتقدمة من الدول المختلفة ، وذلك في صدد البحث عن الوازع الأساسي الذي يجب الرجوع إليه دائماً في مجال التربية الأخلاقية ، وقد كان رجال المؤتمر اختلفوا من الناحية النظرية في الوازع الذي يجب اعتباره الأساس العام في مختلف المناطق أو الدول إلى ثلاثة إتجاهات :

(أ) الاتجاه الأول قال بالوازع الديني .

(ب) الاتجاه الثاني قال بالوازع الاجتماعي أو المدني أو الوطني .

(جـ) الاتجاه الثالث قال بالوازع الشخصي .وبعد دراسة مدى شمول كل اتجاه كأساس للتربية الأخلاقية وجدوا أنه إذا كان يمكن إدخال بعض المبادىء الأخلاقية في نفوس الطلبة على أساس الوازع الاجتماعي أو الضمير الأدبي الشخصي كالنظافة وحب الوطن والرفق بالحيوان ، فلأن هناك بعض المبادىء الأخرى مثل التقوى والصدق والتضحية من أجل الآخرين وما إلى ذلك لا يمكن إقناعهم بها دون الرجوع إلى الوازع الديني ، ولهذا أجمع المؤتمر على أنه لا يمكن الإحاطة بمواضيع التربية الأخلاقية دون الرجوع إلى الوازع الديني ، ومن ثم انتقلوا إلى دراسة علاقة التربية الأخلاقية بالتربية الدينية عموماً ، وانقسموا في ذلك إلى أربعة مذاهب :

يرى أولها أن التربية الأدبية والتربية الدينية عنصران لا يتجزءان ولا ينفصلان .

ويرى الثاني عدم وجود الرابطة بينهما .

ويرى الثالث أن الملجأ الأخير لكل التعاليم الأدبية هو الوازع الديني .

وأخيراً يرى الرابع أنهما متصلان في بعض أمور أخرى ينفصل فيها أحدهما عن الآخر مثل بعض الفضائل الوطنية والاجتماعية فإنه لا سبيل إلى إكمال التربية الأخلاقية إلا باستكمال الطفل لعنصري التربية الأخلاقية ، وهما التربية الأدبية والتربية الدينية ، ذلك أن أهم الأمور الأخلاقية يرجع إلى الوازع الديني من حيث قيمته الدنيوية والأخروية ، ولذلك كان معظم أعضاء المؤتمر من أنصار هذا المذهب الأخير[1] .

هذا هو مجمل الاتجاهات في مكانة العقيدة ودورها في التربية الأخلاقية ، ثم علاقة هذه التربية بالتربية الدينية عموماً ، وذلك مبني أساساً على مدى الصلة بين الدين والأخلاق[2] بصفة عامة ، ولننظر الآن إلى وجهة نظر الإسلام في ذلك فإذا

---

(١) التربية الأخلاقية . أبادير حكيم ص ٢١٤ ـ ٢١٧ .

(٢) (بالتركية) Ahlak: S.48 Hilmi Ziya ülker istanbul

نظرنا الآن إلى الإسلام وجدنا أنه ربط بين الإيمان والسلوك بوجه عام والسلوك الأخلاقي بوجه خاص ربطاً لا انفصام له ، ونجد ذلك في نصوص كثيرة يصعب حصرها ، فمن ذلك قول الرسول «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[١] «ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[٢]» .

«لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[٣] ، «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[٤] .

«لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له[٥]» ، «ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع بجنبه[٦]» .

ولهذا كان المسلمون الأوائل إذا سمعوا بنزول أمر واجب سارعوا إليه وإذا نزل تحريم أمر انتهوا عنه ، كما حدث عندما نزل تحريم الخمر حيث هرعوا إلى إراقة ما عندهم في الشوارع[٧] . لكن إذا كان للعقيدة هذا الدور الفعال في السلوك ، فلماذا لا نرى ذلك الأثر في المسلمين الآن؟ إذ إننا نجد اليوم بونا شاسعاً بين ما يدعون من عقيدة وبين ما يسلكون ، وقلما نجد منهم من يتأثر بعقيدته في سلوكه ، ومن ثم قل من يتمسك بالأخلاق بالرغم من أن الإسلام يعتبر العقيدة أساساً هاماً للسلوك الأخلاقي ، وبالرغم من أن المسلمين يدعون أنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر الذي يسعد فيه من كان صالحاً ويشقى فيه من كان طالحاً .

---

(١) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج٢ ص١٥٥ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان كتاب الإيمان ج١ ص١٠ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب البر والأخلاق ج٤ ص١٩٨٤ .

(٤) المرجع السابق كتاب الإيمان ج١ ص٧٦ .

(٥) الجامع الصغير ج٢ ص ١٩٨ .

(٦) المرجع السابق ج٢ ص١٣٤ .

(٧) صحيح مسلم ج٣ ص١٢٠٥ .

الحقيقة أن الدعوى شيء والإيمان الحقيقي اليقيني الراسخ شيء آخر ، إذ إن الإيمان حقيقة وكل حقيقة لها علامة ، وعلامة الإيمان العمل به ، فهو كالنور إذا وجد في مكان أضاء ما حوله وإذا دخل الإيمان في القلوب واستقر فيها ووقر نبضت تلك القلوب بالحيوية ودفعت النفوس إلى العمل بموجبها ، وليرجع هؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون الى نفوسهم وليستفتوا قلوبهم هل يؤمنون حقاً إيماناً راسخاً دون زيب أو أدنى شك فقد قال الرسول «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك»[1] وقال تعالى عنهم «يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم»[2] . أولئك «الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم»[3] لأن معيار صدق الإيمان هو العمل ، وأن الاعتقاد صحيح بقدر ما يدفع إلى السلوك كما يقول وليم جيمس[4] .

وإن كان إيمان الإسلام يختلف عن إيمان جيمس من حيث أن الإيمان عنده يقاس بما يحقق من نتائج نافعة[5] بينما الإيمان في الإسلام يجب أن يكون بحقائق لا يستطيع الإنسان إزاءها أن ينظر إلى نتيجة الإيمان وهل هو يحقق نفعاً أو ضرراً ، ولهذا فإن الذين آمنوا بالحقائق ورسخ الإيمان في قلوبهم بالبراهين لا يستطيعون أن يملكوا أنفسهم إزاء دوافعه إلا أن يخضعوا له . وإلى هذا يشير قوله تعالى «وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين»[6] .

ولهذا أيضاً فإن الذين آمنوا ذلك الإيمان الحق كانوا يخشون من ارتكاب الفواحش كما كانوا يسارعون إلى عمل الخيرات بدافع ايمانهم «ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون

---

(١) أ ـ مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٢٨ ، ب ـ كشف الخفاء ، ج ١ ص ١٣٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٦٧ .

(٣) سورة المائدة ٤١ .

(٤) وليم جيمس بقلم محمود زيدان . دار المعارف ص ١٤١ .

(٥) المرجع السابق ص ١٧٤ .

(٦) سورة المائدة ٨٣ .

والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون»[١] .

وهكذا يستبق المؤمنون حقاً إلى عمل الخيرات ويخافون الله ويرهبون عصيانه ويفعلون كل ما يأمرهم به «يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون»[٢] ، فيقول المؤمن إذا واجهته معصية «إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم»[٣] حتى لو كان مهدداً بالقتل «لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين»[٤] .

وهنا نجد كثيراً من الفلاسفة والعلماء يقررون اليوم ما سبق أن قرره الإسلام من أثر الاعتقاد العجيب على أعمال الإنسان وأخلاقه ، فمن هؤلاء الفلاسفة كانط الذي يرى «أن الحياة الأخلاقية لا يمكن أن تنمو نمواً كاملاً دون الاعتقاد في الله[٥]» . ومنهم كذلك فولتير الذي يقول : «إن قوام الأخلاق أولاً : إيمان بالله الخالق من غير حاجة إلى ممارسة الشعائر والطقوس ، وقوامها ثانياً : ممارسة الفضائل الاجتماعية[٦]» . وأخيراً منهم الدكتور تشارلز وطسون رئيس الجامعة الأميركية الذي يعطي أهمية كبيرة لدور الإيمان في الأخلاق لدرجة أنه يرى أنه بغير هذا الإيمان يعيش الناس إباحيين يعملون ما يشتهون ولا يخضعون لأي قانون أدبي إلا إذا وافق هواهم ورغبتهم الشخصية[٧] .

وإذا كان الأمر كذلك فما السبيل إلى ذلك الاعتقاد الفعال الدافع إلى السلوك وما الوسائل والطرق التي بها نستطيع تربية ذلك الإيمان في قلوب المتربين بحيث يندفعون إلى السلوك من تلقاء أنفسهم بدافع ذلك الإيمان؟ .

---

(١) سورة المؤمنون ٥٧ ـ ٦١ .

(٢) سورة النحل ٥٠ .

(٣) سورة الأنعام ١٥ .

(٤) سورة المائدة ٢٨ .

(٥) الله في الفلسفة الحديثة . جيمس كولينز . ترجمة فؤاد كامل ص ٢٦٨ .

(٦) المذاهب الأخلاقية . دكتور عادل العوا (ج٢ ص ٤١٢) .

(٧) الأخلاق والتربية . دكتور تشارلس وطسون ، ص ١٣ ـ ١٥ .

هذه دراسة خاصة تحتاج إلى عمل خاص وربما أكتب فيه بحثاً مستقلاً في المستقبل لكن مع ذلك لا بد من عرض أهم تلك الخطوات الإيجابية والطرق والوسائل الفعالة من حيث صلتها بالتربية الأخلاقية لتكون واضحة أمام المربين ويمكن ايجازها في النقط الآتية :

ثانياً: أساليب استخدام العقيدة في التربية الأخلاقية

١ ـ تجنب اتخاذ طريقة التلقين الصوري وسيلة للإقناع ، ولاتباع المسلمين بصفة عامة هذه الطريقة في التربية الإيمانية في هذه الأيام نجد العقيدة ميتة في قلوبهم ، أو ضعيفة لدرجة أنها عاجزة عن تحريك السلوك . ولهذا نجد اليوم المسلمين في واد والإسلام في واد آخر ، ولا نجد العلاقة بين ما يعتقدون وما يسلكون ، لذا بات من واجبنا اليوم استخدام تلك الوسائل التربوية الفعالة .

٢ـ التركيز على جوانب العقيدة الإسلامية الفعالة والمؤثرة على السلوك عند تصويرها أمام المتربين مثل بيان صفات الله التي تصور الله في حالة قريبة من الإنسان بحيث يراه ويرعاه ، فالعقيدة الإسلامية غنية بمثل هذه الصفات وهذا من مميزاتها ، إذ إن من مميزات العقائد الفعالة المؤثرة في السلوك في نظر المفكرين أن تجعل الله قريباً من الإنسان لا أن يكون بعيداً عن الخلق ومنصرفاً عن التدخل في شؤونهم وأمورهم كما يصوره بعض الفلاسفة[١] . وسوف تتضح هذه الحقيقة عند معالجتنا للموضوعات القادمة ، ومثل بيان مدى ربط الإسلام بين العقيدة والسلوك بصورة لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر بأي حال من الأحوال كما بينا ذلك وكما سنتعرض له في الموضوعات الآتية :

ذلك أنه بقدر ما تكون صورة تلك العقيدة دقيقة وحية متصلة بحياة المرء من حيث المبدأ والمعاد ، ومن حيث الظاهر والباطن بقدر ما يؤثر ذلك في نفسه واتجاهه في الحياة العملية ، ولكن لا يمكن أن يتحقق هذا وذاك إلا إذا تضمنت هذه العناصر أربعة عناصر رئيسية هي :

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ، يوسف كرم ، ص ١٨٢ .

العنصر الأول :

عنصر الإيمان بالله باعتباره خالق الكون والإنسان الذي خلق من أجل الإنسان كل هذه النعم وسخر له كل هذه الأشياء «الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها[١]» وهو يعلم بعد ذلك كل ما يقع في ملكه ويعلم كذلك كل ما يقع من الإنسان بل أكثر من ذلك أنه يعلم ما يدور في الصدور وما يجيش في النفوس من أفكار وخواطر فقال تعالى وهو يعبر عن علمه الدقيق الذي لا يغيب عنه شيء في السماوات والأرض «يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير[٢]» .

وقال تعالى عن علمه بما يدور في النفوس «قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير[٣]» ، «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه[٤]» هذا إلى أن هناك مراقبين من الملائكة على تصرفات الإنسان يكتبون كل ما يصدر منه من خير أو شر «إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد[٥]» ، فيكتبون ويسجلون تصرفات الإنسان وكل ما يصدر منه «أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون»[٦] .

فلو أننا أدخلنا في قلب المتربي ذلك الإيمان القوي بعلم الله ورؤيته لأفعاله وتسجيل كل ما يصدر عنه لرأينا عندئذ مدى ما له من أثر فعال .

---

(١) سورة ابراهيم ٣٢ ـ ٣٤ .

(٢) سورة لقمان ١٦ .

(٣) سورة آل عمران ٢٩ .

(٤) سورة ق ١٦ .

(٥) سورة ق ١٧ ـ ١٨ .

(٦) سورة الزخرف ٨٠ .

العنصر الثاني : الإيمان بالحياة الآخرة .

فإن التفكير الأخلاقي يقتضي أن تكون هناك حياة أخرى يجد فيها كل امرىء جزاء عمله وهذه الفكرة كما تقتضيها النظرة الأخلاقية فإن العقل يقبلها أيضاً ، ذلك أن الذي خلق الإنسان أول مرة يستطيع أن يخلقه مرة أخرى ، ولهذا حاج الله الذين ينكرون الحياة بعد الموت لما يرون من صعوبة ذلك فقال تعالى «أو لم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم[1]» ثم إن العقل الفطري يحكم بأن إعادة خلق الشيء أهون على الخالق من خلقه أول مرة ولهذا قال تعالى «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه»[2] .

وفيما يتعلق بالحياة الأخروية فإن الأمر ضروري تقتضيه الحاجة الأخلاقية كما يراه كانط[3] . وقد بين الله ضرورة ذلك للتمييز بين الأبرار والفجار فقال تعالى «أم نجعل المتقين كالفجار[4]» ، «إن الإبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم[5]» .

العنصر الثالث :

الإيمان بأن القوانين الأخلاقية إلهية صادرة عن إرادته تعالى لتنظيم حياة الإنسان ورسم الطريق المستقيم له فيها «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما[6]» ، «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من

---

(١) سورة يس ٧٧ ـ ٧٩ .
(٢) سورة الروم ٢٧ .
(٣) الله في الفلسفة الحديثة جيمس كولينز ص ٢٧٠ .
(٤) سورة ص ٢٨ .
(٥) سورة الانفطار ١٣ ـ ١٤ .
(٦) سورة النساء ١٧٤ ـ ١٧٥ .

الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد[1]» .

وهنا نجد أن ما يقرره وليم جيمس يتفق مع وجهة نظر الإسلام حيث يقول «إن القيم الأخلاقية إذا وجدت في عالم لا إله فيه تكون من القيم الاسمية التي لا يكاد يوجد فيها إلزام ، وأما الإلزام الحقيقي والقيم الحقيقية فلا تكون إلا إذا كان الإله هو الملزم وهو المحدد لقيم الأشياء[2]» . وهذا ما يقرره أيضاً الدكتور ألكسيس كارل عندما يقول : «لا يتحكم الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية[3]» .

هذا إلى أنه لا يكفي الإيمان بأن القوانين الأخلاقية منزلة من الإله بل زيادة على ذلك يجب الإيمان بأن هذه القوانين هي أصلح القوانين للحياة الإنسانية ، لأنها تدعو إلى كل ما هو طيب خير وتنهى عن كل ما هو خبيث ضار في حق الفرد أو المجتمع «يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث[4]» ، ولأنها ميزان للصواب ومعيار للحق ، ذلك أن واضعها عالم بالحقائق فوضع قوانينه وفقاً لها «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط[5]» ، «وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا[6]» .

ولهذا كله يجب على كل إنسان أن يتبعها «اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء»[7] وكيف لا يجب اتباعها إذا كانت صادرة من قبل الخالق لإنقاذ الإنسان من كل ما هو ضار له وتحقيق كل ما هو خير ، إنها الحدود الفاصلة

---

(١) سورة إبراهيم ١ .

(٢) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية دكتور محمود حب الله ص ٢٦٥ .

(٣) تأملات في سلوك الإنسان دكتور الكسيس كارل ص ١٤٠ .

(٤) سورة الأعراف ١٥٧ .

(٥) سورة الحديد ٢٥ .

(٦) سورة الإسراء ١٠٥ .

(٧) سورة الأعراف ٣ .

بين الخير والشر والحلال والحرام «تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم»[1] . فمن يتبع تلك القوانين الأخلاقية ويراع تلك الحدود الفاصلة بين الخير والشر والطيب والخبيث يهتد إلى طريق النجاة والفلاح ولا يضل في هذه الحياة ولا يشقى «فإما يأتينكم مني هدًى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى»[2] ، ويكون مصيره في الآخرة السعادة ومن ضل عنه وخرج عن طريقه شقى في هذه الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة . «هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ، أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون»[3] ، «فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين . وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين . . . ومأواكم النار وما لكم من ناصرين»[4] .

أما العنصر الرابع والأخير :

فهو الإيمان بالجزاء الأخلاقي الكامل إن لم يكن في الدنيا فهو في الآخرة إن خيراً فخيراً وإن شراً فشر «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»[5] «ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى»[6] . «وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص»[7] .

هذه العناصر الاعتقادية مجتمعة تضفي على القوانين الأخلاقية الإسلامية

(١) سورة النساء ١٣ .

(٢) سورة طه ١٢٣ .

(٣) سورة الجاثية ٢٠ـ ٢١ .

(٤) سورة الجاثية ٣٠ ـ ٣١ـ ٣٤ .

(٥) سورة الزلزلة٧ـ ٨ .

(٦) سورة النجم ٣٨ ـ ٤١ .

(٧) سورة هود ١٠٩ .

ميزات لا توجد في غيرها من القوانين الأخلاقية المدنية التي لا تؤسس على أساس اعتقادي ويكون إجمال هذه الميزات في النقط الآتية :

الميزة الأولى :

الشعور بقدسية القوانين الأخلاقية ويؤدي ذلك إلى أمرين أولهما تعظيم هذه القوانين وإجلالها ومن ثم تكون لها سلطة تتحكم بها في حياة الإنسان وتصرفاته في السر والعلن ، وثانيهما إن هذه القوانين الأخلاقية تؤثر في الإنسان عملياً من الناحية الإيجابية والسلبية نتيجة تطبيقها أو عدم تطبيقها ، فيكون أثر التطبيق الإحساس بالسرور والانشراح في أعماق النفس الإنسانية ويكون أثر عدم تطبيقها الإحساس بالوخز في الضمير والضيق في الصدر والكآبة في النفس ، وذلك بصرف النظر عن ملاحظة الناس لهذه الأفعال أو تلك ، لأن إحساس الإنسان بالقدسية يجعل من نفسه رقيباً داخلياً على تصرفاته ، ولا يرتبط ذلك التطبيق بالقوانين الأخلاقية بالمنفعة المنتظرة عاجلاً أو بالمظهر الاجتماعي فحسب شأن القوانين الوضعية بل يرتبط إلى جانب ذلك بظاهرة أعمق وهي الإحساس بالواجب وبراحة الضمير إذ إنه يشعر عندئذ بأنه أرضى ضميره وأرضى كذلك ربه ومن ثم لا بد من أن ينال جزاء عمله من ربه وفقاً لوعده إياه إن عاجلاً أو عاجلاً .

الميزة الثانية :

إنها تضفي على حياة المرء الاستقرار والثبات الدائم ، ذلك أنه إذا كانت هذه القوانين من الله أو نازلة من السماء وهي تمثل إرادة الله فإنها إذن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل من حين الى آخر لأن إرادة الله ثابتة وقوله لا يتغير ولا يتبدل «ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد»[1] ولهذا ليس من حق حاكم أو سلطة أن يغيرها كذلك . ومن ثم فإنها هي التي تصبغ حياة الإنسان بصبغتها وتكيفها بروحها وغايتها وفلسفتها بينما القوانين الوضعية الأخرى يحددها المجتمع أو بعض أفراده وذلك وفقاً لرغباتهم في الحياة وفهمهم لها وهواهم فيها ، وكل ذلك في تغير وتبدل بين

(١) سورة ق ٢٩ .

الأفراد والمجتمعات ، ونتيجة لذلك تظهر الصراعات والاضطرابات والقلاقل المستمرة بين الأفراد في داخل المجتمع الواحد من ناحية وبين المجتمعات من ناحية أخرى ، حتى في صدد القوانين الأخلاقية التي لا ترتبط بالإرادة الإلهية في نظر تلك المجتمعات وإنما ترتبط بالموضوعات الاجتماعية فقط .

الميزة الثالثة :

إنها تحقق للإنسان السعادة من الناحية الشعورية ومن الناحية الواقعية أيضاً ، ذلك أن إيمان المرء بأن الله وضع تلك القوانين لخير الإنسانية ولإبعاده عن الشرور والمهلكات ثم شعوره بأنه يحقق بتطبيقها في حياته الخير لنفسه ويكسب في نفس الوقت رضا الله ، فالشعور السار الدائم الناتج من ذلك بأن حياته ستكون خيرة وهو في هذه الحياة في رعاية الله وأن الله سيجعل مصيره سعيداً أيضاً ذلك الإيمان وهذه المشاعر كلها ستكون دافعاً إلى مزيد من الأعمال الخيرة أو الأخلاقية ومن ثم يكون عاملاً هاماً لنمو الروح الأخلاقية في نفسه ، ثم إنه يشعر بعد ذلك بأنه كلما قطع مرحلة أخلاقية قطع مرحلة نحو التكامل والتقارب من رب العالمين وأخيراً نحو تحقيق أكبر قدر ممكن من السعادة .

وهذا هو المغزى التربوي من تحديد صورة العقيدة على النحو السابق لتكون أساساً من أسس التربية الأخلاقية لأنها تصبح عندئذ المنبع الذي يستقى منه الضمير الأدبي حياته الوجدانية النابضة بالحيوية والبهجة ، ويقول هنا «ا . كريسي موريسون» رئيس أكاديمية العلوم سابقاً في مدينة نيويورك «إن تقدم الإنسان من الناحية الخلقية وشعوره بالواجب إنما هو أثر من آثار الإيمان بالله والاعتقاد بالخلود وإن غزارة التدين لتكشف عن روح الإنسان وترفعه خطوة خطوة حتى يشعر بالاتصال بالله ، وإن دعاء الإنسان الغريزي لله بأن يكون في عونه هو أمر طبيعي وإن أبسط صلاة تسمو به إلى مقربة من خالقه»[1] ويقول أيضاً : «والذي يراه العلم ويقدره جميع المفكرين هو أن الاعتقاد العام بوجود الله له قيمة لا تقدر»[2] .

---

(١) العلم يدعو للإيمان . كريسي موريسون ص ٢٠٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

هذا إلى أن هناك جانباً آخر من ضرورة هذا الاعتقاد للتربية الأخلاقية وهو أن الإنسان يحاجة إلى الاعتقاد بوجود كائن مقدس سام لا يخفى عليه خافية يقف على كل مجهود المرء النفسي والعملي في صراعه مع الشر والأهواء وعمله المضني من أجل تحقيق الخير للإنسانية ليل ونهار فإن إيمانه بذلك الموجود المقدس وإيمانه بعلمه الدقيق وأنه لا يضيع عنده أي جهد لأنه يكتبه ويقدره ثم يجازيه كما يعينه على إنجاز رغباته الخيرة وإن لم يستطع إنجازها يكافئه على نياته الخيرة ومحاولاته الجادة لتحقيق آرائه الخيرة . كل ذلك سند قوي ومنبع فياض للتقدم الأخلاقي والتنمية الأخلاقية في النفوس . وربما إلى هذا أشار كانط بقوله السابق : «إن الحياة الأخلاقية لا يمكن أن تنمو نمواً كاملاً دون الاعتقاد العملي في الله»[1] ، ذلك أننا نعلم أن العامل يزيد نشاطه العملي إذا علم أن رئيسه العادل يطلع على جهوده المخلصة ثم لا يضيع عنه أي جهد .

٣ـ استخدام كل وسائل الإقناع وطرق الوصول إلى الحقائق اليقينية لترسيخ العقيدة القوية :

ذلك أنه لا يكفي إطلاقاً تقديم صورة كاملة عن الاعتقاد العملي للأطفال بل أهم من ذلك إقناعهم بكل جانب من جوانب الاعتقادات المقدمة إليهم إقناعا كاملا دون شك أو ريب كثير من هذه الوسائل وطرق الإقناع قد تشترك جميعها في بعض الجوانب لكن مع ذلك تختص كل واحدة ببعض الخصائص المعينة وتؤدي في مجال قد لا يستطيع أداءها غيرها ولنذكر أهمها بإيجاز :

فمنها تكوين الرغبة في الاعتقاد قبل ذكر أدلة الاعتقاد ، ذلك أن من لا يرغب أولاً في الاعتقاد لا يعتقد ولو ذكرت له جميع الأدلة العقلية والعلمية ، ولهذا لما تكلم الله تعالى عن هؤلاء الذي لا يريدون أن يؤمنوا لا لعدم وجود الأدلة وإنما لعدم رغبتهم في الإيمان قال : «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم

---

(١) الله في الفلسفة الحديثة جيمس كولينز ص ٢٦٨ .

كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا»[1] ، «وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها»[2] . وهذا ما يقرره الفيلسوف بسكال بقوله : «إن معرفة الإنسان لله تابعة لإرادة الإنسان لا لعقله»[3] ويقول وليم جيمس مقرراً ذلك أيضا : «فالرغبة في نوع معين من الحقيقة هي التي توجد هنا ذلك النوع المعين منها»[4] ، ذلك إن الأمر كما يرى وليم جيمس إن القوة الإرادية فوق القوة الإدراكية ولا تعمل إلا بمساعدة هذه القوة الإرادية[5] .

ويقول وليم جيمس أيضاً في مكان آخر حول هذه الفكرة : «إن الرغبة في شيء ما تخلق وجود ذلك الشيء وإن الرغبة في حقيقة معينة معناها وجود لهذه الحقيقة والاعتقاد في واقعة ما يساعد على خلق هذه الواقعة»[6] ، ويقول أيضاً : «لا يتوقف الاعتقاد على الأدلة النظرية فحسب فقد يجوز لنا أن نعتقد ولو لم يكن لدينا من البراهين المنطقية ما يبرر ذلك ما دمنا راغبين في الاعتقاد وما دامت لنا من وراء هذا الاعتقاد ثمرة عملية وكثيراً ما تأتي البراهين بعد ذلك فتساعد الاعتقاد على تحقيق ما آمنا به . وإذا لم نجد من الأسباب النظرية ما يؤدي بنا إلى الإيمان بوجود الله فلا ينبغي لنا أن ننصرف عن الإيمان به لذلك بل يحق لنا أن نفترض وجوده ونؤمن به إذا ما توجهت إرادتنا نحو ذلك وذلك لأن الإيمان به هو الذي يجعل للحياة قيمة وهو الذي يمكننا من أن نستخرج من الحياة كل ما فيها من لذة وسعادة وهو الذي يجعلنا نتحمل ما في الحياة من محن وإحن ونتقبلها بكثير من الشجاعة والرضا وهو الذي يهيىء لنا كل ما هو ضروري لحياة عملية وادعة»[7] . وإذا كان الأمر

---

(١) سورة الأنعام ١١١ .

(٢) سورة الأنعام ٢٥ .

(٣) بسكال بقلم دكتور نجيب بلدي ص ١٥٥ .

(٤) العقل والدين . وليم جيمس ترجمة الدكتور محمود حب الله . عيسى البابي الحلبي ص ٢٦ .

(٥) المرجع السابق ص ١٠٧ .

(٦) وليم جيمس ، محمود زيدان ص ١٤٠ .

(٧) الحياة الوجدانية . د . محمود حب الله ص ٢٦٢ .

كذلك فما هي الوسائل لتكوين رغبة في الاعتقاد لنستطيع بها توجيه الإرادة إلى الاعتقاد . هناك وسائل عدة لذلك .

منها بيان أن في ذلك الاعتقاد مصالح للبشرية تفوق أية مصلحة أخرى وأن الإنسانية بحاجة إلى ذلك الاعتقاد كما قال وليم جيمس سابقاً ، ولهذا رغب الله تعالى في الإيمان لما يترتب على ذلك من المصالح والمنافع التي يحققها لهم إذا آمنوا به فقال تعالى : «ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً»[1] «ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم[2]» . «فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا[3]» . بل إن من يؤمن عن رغبة في الله فإن الله يهدي قلبه إلى اليقين بعد ذلك ولهذا قال تعالى «ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم[4]» . بل إن الله لا يهدي من لا يريد الهداية ويتخذ الهه هواه «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون[5]» . ويقرر وليم جيمس أن الناس يرفضون بعض الفلسفات لعدم شعورهم بالحاجة إليها فيقول : «إن الناس يقبلون الفلسفات أو ينبذونها وفقا لحاجتهم وطباعهم لا وفقاً للحقيقة الموضوعية وهم لا يتساءلون هل هذا منطقي؟ بل يتساءلون عن مدى ما تتناسب الفلسفة مع حياتهم ومصالحهم[6]» .

ثم لا يكفي إحساس المرء بمجرد الحاجة إلى ذلك الاعتقاد ليكون اعتقاده قوياً بل يجب أن يحس بأنه ضروري وأنه لا يمكن أن يحقق ذلك الغرض بدون ذلك

---

(١) سورة الطلاق ١١ .

(٢) سورة التغابن ٩ .

(٣) سورة الجن ١٣ .

(٤) سورة التغابن ١١ .

(٥) سورة الجاثية ٢٣ .

(٦) قصة الفلسفة . ول ديورانت ص ٦١٩ .

الاعتقاد وإن طرد من ذهنه كل فكرة أخرى تقضي بأنه يمكن أن يحقق بها غرضه دون ذلك الاعتقاد ، إن الفكرة الداخلة في الاعتقاد يجب أن تكون قوية بحيث تطرد الفكرة السابقة لأننا إذا أردنا أن نملأ إناء بشيء جديد لا بد من أن نريق ما كان فيه من قبل وإذا أردنا أن ندخل فكرة جديدة لا بد من طرد فكرة قديمة سابقة مضادة لهذه الفكرة الجديدة ، إذ لا راحة لإنسان تعيش فيه فكرتان متناقضتان أو اعتقادان متناقضان ، ولهذا قال تعالى «اتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً . ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه[1]» .

ويقرر وليم جيمس «أن الفكرة تكتسب قوتها حين يشعر الفرد أنها ضرورة ملحة ومظاهر هذا الشعور أن تسيطر على العقل وأن تصبح في مركز انتباهه أو اهتمامه وأن تطرد الأفكار الأخرى من مكانها في هذا المركز[2]»

ومن تلك الأسباب أيضاً إزالة العوائق التي تحول دون رغبة المرء في الاعتقاد :

ومن أهم هذه العوائق العوائق الأخلاقية مثل التعصب أو العناد فقال تعالى عن هؤلاء الذين لم يؤمنوا به عن تعصب «تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل[3]» . ومن هذه العوائق التكبر «وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون[4]» ولهذا قال تعالى عنهم «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا

---

(١) سورة الأحزاب ٢ ـ ٤ .

(٢) وليم جيمس . محمود زيدان ص ١٩٠ .

(٣) سورة الأعراف ١٠١ .

(٤) سورة البقرة ١٣ .

يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين[1]» .

ومنها النظرة المادية الحسية للحقائق التي لا تؤمن إلا بما يرى ويحس بحواسه لأن أصحاب هذه النظرة كالحيوانات التي لا تدرك إلا بالحس وهؤلاء لا يفترقون عن الحيوانات بل هم أضل ، لأن الحيوانات لا قدرة لها إلا ذلك أما هؤلاء فمع وجود القدرة العقلية والبصيرة القلبية يبطلونها ويقصرون الإدراك على الإدراك الحسي كالحيوانات ، ولهذا قال تعالى عنهم «ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ، وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا[2]» ، ولهذا فقد شبه الله هؤلاء بالأنعام لعدم إعمالهم عقولهم وبصيرتهم لتعقل الأمور وتدركها بما لا يدرك إلا بالعقل والبصيرة فقال «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون[3]» . لكن الله أبى أن يكون الإنسان كالحيوان ، ولهذا لم يرض أن يعامله معاملة هذا المستوى الحيواني ومن ثم فلم يستجب لمثل هذه المطالب فإن على الإنسانية أن ترتفع بإنسانيتها وتعمل مداركها لتدرك كل الحقائق الروحية والمادية بقواها الخاصة لكل ذلك . وعلينا في ميدان التربية أن نرفع مستوى مدارك المتعلمين ونفتح بصائرهم ونمني عقولهم لإقناعهم بتلك الحقائق الروحية كما علينا أن نعمل في ميدان التربية بأن نزيل كل تلك المعوقات التي تعوق دون الاعتقاد الصادق مهتدين

---

(١) سورة الأعراف ١٤٦ .

(٢) سورة الإسراء ٨٩ـ٩٣ .

(٣) سورة الأعراف ١٧٩ .

بقوله تعالى في ذلك «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن[١]» .

وكما يكون ذلك بالدعوة الحكيمة يكون أيضاً بالتربية والتعليم بالحكمة «ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم[٢]» .

كما يجب أن يكون الداعي أو المعلم حاملاً معه أدلة الإقناع المختلفة أولاً ، وأن يناقش ويدعو باللين واللطف وبهذا نصح سبحانه فقال لموسى وهارون «اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري ،اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى[٣]» . ونصح بالمجادلة الحسنة «وجادلهم بالتي هي أحسن[٤]» .

وندد بالذين يجادلون بغير علم «ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير[٥]» .

ومنها ذكر الأدلة البديهية التي تعتمد على سلامة التفكير الفطري أو التعقل الفطري . وذلك مثل الاستدلال على وجود شيء غير مرئي بوجود دلائل مرئية أو حسية ومثل أن إعادة إيجاد الشيء أسهل من إيجاده أول مرة ، ودلالة الصنعة على الصانع ودلالة الأثر على المؤثر ، وإن الشيء لا يكون موجوداً وغير موجود في آن واحد وإن المساويين لثالث متساويان ، وغير ذلك من المبادىء الفطرية العقلية التي يدعي العقليون المثاليون أنها مبادىء يقينية تؤدي إلى حقائق يقينية[٦] .

وإن كان هناك استدلالات منطقية وضعها الفلاسفة مثل المنطق الصوري الأرسطي والمنطق الشكي الديكارتي والمنطق الوضعي الكونتي والمنطق التجريبي البراجماتي وما إلى ذلك[٧] . فإنه في ميدان التربية الإيمانية وخاصة عند صغار

---

(١) سورة النحل ١٢٥ . (٢) سورة البقرة ١٢٩ . (٣) سورة طه ٤٢ ـ ٤٤ .

(٤) سورة النحل ١٢٥ . (٥) سورة لقمان ٢٠ .

(٦) الفلسفة الخلقية . دكتور توفيق الطويل ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(٧) انظر في ذلك المراجع الآتية : خلاصة الفكر الأوروبي الجزء الأول والثاني لعبد الرحمن بدوي . ومشكلة الفلسفة . للدكتور زكريا ابراهيم .

المتعلمين يجب عدم الرجوع إليها ما دام يمكن الاستغناء بهذه الأدلة البديهية القائمة على التعقل الفطري . لأنها تتلاءم مع معظم المستويات من التعقل ، ولأن هذه الإستدلالات البديهية لا تثير الشك وتؤدي إلى اليقين ، ولهذا نجد الإسلام يركز على مثل هذه الاستدلالات في تثبيت العقيدة لأنه جاء للناس كافة وليس لمجموعة من المتخصصين «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون[1]» . ومن ثم كان لا بد من أن يعتمد في الاستدلال على مبادىء مناسبة للناس كافة وهذا ما فعله ، فاستخدم مثلاً دلالة الصنعة على الصانع لإثبات وجود الله ، إذ ليس من الضروري أن نرى الصانع لإثبات الصنعة لكن وجود الصنعة تجعلنا نعترف بالضرورة بوجود الصانع بل تضطر إلى ذلك اضطراراً ولهذا دعا الله سبحانه الناس إلى التأمل في آيات الله في الكون ، في الأرض وفي السماء وفي أنفسهم ، لما في تلك المخلوقات من دلالة الصنعة تدل على وجود صانعها ، بل قد تكون في الطبيعة دلالة الصنعة على وجود الله أعظم من دلالة آية صنعة على صانعها وذلك مثل دوران الأرض بهذه العظمة ودوران القمر حول الشمس ودوران الشمس نفسها حول محورها في الفضاء كعقارب الساعة تحدد الأزمان في الأيام والليالي والسنين دون أي خلل أليس في ذلك آية للناس على وجود صانعها؟ «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذاهم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون[2]» . كيف لا تقع الأرض والشمس والقمر؟ لا تقع لأن الله يمسكها بدقة نظامه الذي يدور كل بموجبه ، فبأي نظام إنساني يمكن إمساك الأفلاك وإدارتها إذا أخل الله بنظامه فيها «إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده[3]» . ثم إن آيات الله ليست قاصرة في خلق السماء وما فيها من نظام دوران

---

(١) سورة سبأ ٢٨ .

(٢) سورة يس ٣٧ ـ ٤٠ .

(٣) سورة فاطر ٤١ .

الأرض والشمس والقمر وما يعقبها من ليل ونهار فحسب ، بل في خلق الأشياء والحيوانات والمأكولات آيات ودلالات على وجوده أيضاً . وعلى المربي أن يوجه نظر من يريد تربيتهم إلى تلك الحقائق ويريهم ما فيها من دلالات على صناعة الصانع الحكيم ليزيد إيمانهم كلما رأوا آية تدل على وجود الله المبدع الحكيم وذلك حسب مراحل نمو مداركهم ومستوى ثقافتهم وتعليمهم ، وذلك وفقاً لتوجيهات نظريات التربية والتعليم في الإسلام التي تدعو إلى دراسة الحقائق من ناحيتين ، دراستها من حيث هي حقائق ودراستها من حيث دلالتها على الصنع والإبداع والتجميل ، لأن الله لم يخلق مجرد الخلق ولم يصنع كذلك مجرد الصنع بل خلق في أحسن صورة «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم[1]» ، «وصوركم فأحسن صوركم[2]» وصنع فأتقن صنعه « صنع الله الذي أتقن كل شيء»[3] وخلق فأبدع الخلق «بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون[4]» وبعد إبداع الخلق وإتقان الصنع جمل ما خلق وزين ما صنع «ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين[5]» ، «إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب[6]» ، «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب[7]» ، ذلك أنه كلما كان في الخلق والصنعة إتقان وإبداع وتجميل كان ذلك أكثر إثارة للإعجاب ونيلاً للتقدير . يقول هنا الأستاذ جون روسكين أستاذ الفنون الجميلة في جامعة أكسفورد «إن جمال الجبال والأزاهير إشارة من الله إلى الإنسان . . . الإنسان الذي يتأمل الجمال في الطبيعة وفي الفن إنما يتحد بالتعاطف مع الجمال الذي صنعه الله والذي صنعه الفنان[8]»

(١) سورة التين ٤ .
(٢) سورة غافر ٦٤ .
(٣) سورة النمل ٨٨ .
(٤) سورة البقرة ١١٧ .
(٥) سورة الحجر ١٦ .
(٦) سورة الصافات ٦ .
(٧) سورة ق ٧ ، ٨ .
(٨) المذاهب الأخلاقية ، د . عادل العوا ، ج ٢ ص ٥١٦ ، ٥١٧ .

ويقول الفيلسوف الألماني ليبنتز «ما من مرة نرى فيها أحد مصنوعات الله إلا وجدناه غاية في الكمال ويجب أن نبدي إعجابنا بجماله ودقة صنعه[1]» .

ومن تلك الأدلة التي تعتمد على سلامة الفطرة والتي استخدمها القرآن أيضاً أن إعادة ايجاد الشيء أسهل من إيجاده أول مرة أو بالصياغة القرآنية إن إعادة خلق الشيء أسهل من خلقه أول مرة . ومن ثم فمن يسلم بأن الله خلقه في المرة الأولى لا بد له من أن يسلم بأن الله قادر على أن يخلقه في المرة الثانية ، وأن ذلك أسهل أو أهون عليه من الخلق الأول . وبذلك حاج الله منكري البعث عندما قالوا «أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديدا[2]» . «وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم[3]» فقال تعالى «قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم[4]» . «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه[5]» .

ومن تلك الأدلة التي استخدمها الإسلام أيضاً أن الذي يخلق أشياء كبيرة معقدة الصنع يستطيع أن يخلق أشياء أصغر منها وأبسط وبهذه الفكرة رد على الذين أنكروا خلق الإنسان بقوله تعالى «أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم[6]» ، وقال تعالى «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس[7]» .

ومن تلك الأدلة أيضاً دليل العناية أو الخلق بعناية بحيث تتلاءم مع وضع الإنسان وحاجاته في الحياة إذ إن الله لما خلق الإنسان خلقاً معجزاً من شيء تافه «ألم نخلقكم من ماء مهين»[8] ، «فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر»[9] خلق أيضاً طبيعة تناسبه وخلق كل ما يحتاج إليه في هذه الطبيعة «ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال

(١) محي الدين بن عربي وليبنتز . د . محمود قاسم ص ١٢٦ .
(٢) سورة الإسراء ٤٩ .
(٣) سورة يس ٧٨ .
(٤) سورة يس ٧٩ .
(٥) سورة الروم ٢٧ .
(٦) سورة يس ٨١ .
(٧) سورة غافر ٥٧ .
(٨) سورة المرسلات ٢٠ .
(٩) سورة الطارق ٥ ـ ٩ .

أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافا[1]» .

من الذي خلق كل هذا وبكل عناية ولم يترك شيئاً مما يحتاج إليه الإنسان إلا وخلق في هذه الطبيعة؟ ولا شك أنه هو الله «الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه (أي احتجتموه) وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار[2]» .

أليس كل هذا يدل على الخلق بعناية أو ليس هذا الخلق بعناية يدل على وجود الخالق الحكيم ، وإذا لم يخلق الله ذلك فمن الذي خلق ذلك كله «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين[3]» «أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه[4]» .

ولعل لشدة وضوح هذين الدليلين : دليل الاختراع ودليل العناية ومناسبتها للجميع قد حصر ابن رشد فيهما الأدلة الشرعية على وجود الله فقال «فقد بان من هذه الأدلة أن الدلالة على وجود الصانع منحصرة في هذين الجنسين دلالة العناية ودلالة الاختراع[5]» .

---

(١) سورة النبأ ٦ ـ ١٦ .

(٢) سورة إبراهيم ٣٢ ـ ٣٤ .

(٣) سورة لقمان ١١ .

(٤) سورة فاطر ٤٠ .

(ويقول الماديون هنا كيف نؤمن بوجود موجود غير مرئي؟ فنقول لهم : نؤمن جميعاً بوجود موجودات أو حقائق غير مرئية مثل المغناطيس والأصوات والمشمومات والهواء والنفس وما إلى ذلك ، إن الله وضع في طبيعتنا أجهزة مدركة وليس من الضروري أن نرى كل الحقائق بأعيننا ، فجهاز السمع مثلاً خاص بادراك الأصوات والأنف خاص بإدراك المشمومات والعقل للمعنويات وللحقائق الروحية وذلك بالآثار الدالة على وجودها .

(٥) مناهج الأدلة في عقائد الملة . ابن رشد . تحقيق د . محمود قاسم ص ١٥٥ .

ومن تلك الطرق لترسيخ العقيدة اليوم استخدام الاكتشافات العلمية الحديثة للإقناع :

لقد كشفت الاكتشافات العلمية الحديثة عن وجه الحقائق المذهلة التي تجعل الإنسان يقف أمامها مبهوتاً ويضطر المتأمل فيها إلى الاعتراف بالصانع الخالق ونتيجة لهذا فقد آمن كثير من العلماء بسبب هذه الاكتشافات وكتبوا بحوثاً في ذلك مثل كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» الذي يحتوي على مجموعة من الأبحاث العلمية كتبها بعض علماء الغرب .

ومثل كتاب «العلم يدعو للإيمان» الذي ألفه الإستاذ «أ . كريسي موريسون» رئيس أكاديمية العلوم لمدينة نيويورك في أمريكا . وغير ذلك ومن لم يكتب منهم فقد تناول سبب اقتناعه في ثنايا كتابه وسنتناول بعض أقوالهم في ثنايا كلامنا الآن .

وكيف لا يقتنع الإنسان عندما يتأمل في هذا الكون في ضوء الاكتشافات العلمية ويجد فيه آيات كثيرة على وجود خالقه وصانع عجائبه . فعندما نتأمل مثلاً في دوران الأرض والقمر حول الشمس كعقارب الساعة التي تحدد الأزمان ثم عندما نتأمل بدقة حول دوران الأرض بهذه العظمة وما فيها من جبال وبحار ومدن بانتظام مستمر دون أن نشعر بدورانها وكأننا في سفينة فضائية تسير بنا في عالم الفضاء ونحن لا نشعر بسيرها ، وفعلاً إنها سفينة الفضاء الإلهية العجيبة التي لم تصنع مثلها يد البشر حتى الآن . عندئذ نجد دليلاً علمياً قطعياً ، ولهذا نجد الفيلسوف سبنسر يدعو إلى دراسة الطبيعة ، ويقول في هذا الصدد «فالتوجه إلى العالم الطبيعي عبادة صامتة هي اعتراف صامت بنفاسة الأشياء التي تعاين وتدرس ثم بقدرة خالقها[1]» ، ثم يقول : «إن العلم يستوجب الاحترام الشديد والإيمان المحض بتلك الحركات التي تصحب جميع الكائنات[2]» .

وننتقل الآن من عالم الآفاق إلى عالم الإنسان الذي نرى في صنعه عجائب

(١) التربية . سبنسر ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٧ .

تذهب العقول الجبارة ، إذا نظرنا إليه بمنظار العلم الحديث نرى فيه مصانع أدق مما صنعته يد البشرية حتى الآن ، فقد شبه بعض العلماء المعدة بمعمل الأدوية وكتب عنه تحت عنوان «أعظم معمل في العالم» كتب عنه الأستاذ «أ . كريسي موريسون» فقال : «إن هذا المعمل يعمل عملية ذاتية (أوتوماتيكية) لإبقائنا على الحياة ، وحين تتحلل هذه الأطعمة فيه وتجهز من جديد تقدم باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا التي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً وألا يورد سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعنية لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم ودم وعينين وأسنان كما تتلقاها الخلية المختصة ، فههنا إذن معمل كيماوي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان وههنا نظام للتوريد أدق من أي نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم ويتم كل شيء فيه بمنتهى النظام منذ الطفولة[1] . ثم يقول بعد بيان كل التفصيلات التي اكتشفها العلم حتى الآن فيما يتعلق بمعمل المعدة «مثل هذه المجموعة من المعجزات لا يوجد ولا يمكن أن يحدث بأي حال في غيبة الحياة ، وكل ذلك يتم في نظام كامل ، والنظام مضاد اطلاقاً للمصادفة ، أليس ذلك من صنع الخالق[2]»؟ .

كما شبه العلماء القلب بالمضخة الميكانيكية ، والرئة بمعمل التصفية التي تصفي الدم من الغازات والمواد السامة التي تتكون نتيجة تلف بعض الخلايا واحتراق المواد في أنحاء الجسم والتي ينقلها الدم إلى الرئتين ثم يرجع الدم من الرئتين صافياً نقياً من تلك الغازات والمواد السامة ، ويشبهون أيضاً الكبد بمعمل التخزين الأوتوماتيكي لأن من وظائف الكبد تخزين المواد الزائدة عن حاجة الجسم عند تناول الأغذية اللازمة ثم يقوم بتوزيعها عند الحاجة وبقدر الحاجة إلى سائر أنحاء الجسم بواسطة الدم . فكيف يعرف الكبد حاجات الجسم ومقدارها ، وفي ضوء ذلك يتصرف

---

(١) العلم يدعو للإيمان . ١ . كريسي موريسون ص ١٥٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٥٦ .

ذلك التصرف . وعلى ذلك يمكن أن نشبهه بوزارة تموينية تعمل بعقلية الكترونية تعرف حاجات الناس في البلاد فتقوم بتخزين المحصول الزائد عن الحاجة ثم توزعه على الناس عند الحاجة . هل صنعت يد البشرية مخزناً تموينياً منتظماً ذلك حتى الآن؟ وهكذا إذا تأملنا وظيفة المخ وسائر الأعضاء نجد فيها العجب العجاب[١] ، ولهذا نجد بعضهم يقول هنا «ففي الواقع لا يوجد شيء مثل الإنسان بنفسه محير مثير . فالإنسان في الحقيقة صنع صنعاً عجيباً مخيفاً[٢]» وصدق الله العظيم إذ قال «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»[٣] .

ولهذه الدقائق العلمية الموجودة في مخلوقات الله يخاطب الله سبحانه عندما يشير إليها العلماء لأنهم أدرى بالإحاطة بما فيها من الآيات من غيرهن مثال ذلك قوله تعالى «ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين[٤]» . «هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون[٥]» .

والمغزى التربوي هنا هو أنه يجب على المربي أن يكشف هذه الحقائق لمن يريد تربيتهم ويفصلها لهم حتى يصورها لهم وكأنها صورة مجسمة أمام أعينهم ليستطيعوا إدراك عجائب صناعة الله وما اخترعه من عجائب تقف أمامها أكبر العقول ساجدة إكباراً وتعظيماً ، وذلك ليقتنعوا عن رؤية حقيقة ويؤمنوا إيماناً راسخاً لا يتزعزع مهما هبت عليهم رياح الإلحاد من جميع الأطراف .

كل هذا يقتضي من المربي أن يوجه المتربين إلى استخدام الحواس والمشاهدة باستمرار للاعتبار بما في الطبيعة من ظواهر مدهشة مثيرة تدعو إلى التأمل والتفكير

---

(١) كتاب المعرفة كتب أبحاثها مجموعة من العلماء وترجمها الدكتور عبد المنعم ج١ص١٤
(٢) فلسفة التربية . فيليب ه : . فينكس ص ٦٩٧ .
(٣) سورة فصلت ٥٣ .
(٤) سورة الروم ٢٢ .
(٥) سورة يونس ٥ .

فيها ليصل المرء إلى دلائل حية على وجود خالق صانع حكيم ، إذ إن الإنسان عندما يتوقف أمام أية ظاهرة من ظواهر الطبيعة تثير الإعجاب والاندهاش . وكان ذلك الاندهاش سبب ميلاد الفلسفة . وكانت الفلسفة سبباً لظهور الأبحاث العلمية . ونحن نعلم أن أرسطو قال قديماً : «إن الدهشة أول باعث على الفلسفة[1]» وقال رابوبرت : «برز الإنسان إلى هذا الوجود فرأى نفسه في عالم مختلف في ظواهره ، وواجهه الزمان بظروفه فراعه ذلك واستخرج منه العجب فبدأ يسأل لماذا ومن أين وإلى أين ، رأى هذا العالم أمامه لغزاً فحاول حله[2]» .

حقاً إن الإنسان عندما ينظر إلى ظواهر الطبيعة نظرات تقليدية لا يندهش ولا يتعجب ، ولكن عندما ينظر إليها نظرة الاعتبار ويتأمل فيها يجد كل شيء يثير فيها الإعجاب والاندهاش وتصبح الطبيعة مخلوقاً جديداً كأن لم يرها من قبل ويصبح هو مخلوقاً جديداً وكأنه ولد فيها من جديد ، ويتيقن عندئذ أن هذه الطبيعة لم تأت بمحض الصدفة ، بل فيها خلق وهداية وعندما يقترن ذلك بذكر الله خالق هذه العجائب والغرائب ، يزداد نمواً في مشاعره الحساسة وإدراكه لحقائق الأمور ومن ثم يزداد اتصالاً بالله بعقله ، ولهذا قال تعالى «الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار[3]» .

ذلك أن الإنسان كما يزداد خلقاً كلما تقدم في ممارسة الأعمال الأخلاقية فإنه كذلك يزداد إيماناً كلما تقدم في ممارسة الوسائل التي تزيد إيمان المرء وتعمق مشاعره وإدراكه فيما يتصل بالله ، لذا كان القرآن يوجه دائماً الأنظار إلى مخلوقات الله للعبرة فقال تعالى «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت[4]» ، «وآية لهم الأرض الميتة

---

(١) مبادىء الفلسفة . ١ : سي رابوبرت ص ١٠٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤ .

(٣) سورة آل عمران ١٩١ .

(٤) سورة الغاشية ١٧ ـ ٢٠ .

أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ، سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون[1]» .ومعلوم أن الأرض كما يقول علماء الجيولوجيا كانت صحراء جرداء قاحلة مجردة من كل مظهر حيوي من نبات أو حيوان ، ثم ظهرت فيها مظاهر الحياة من نبات وحيوان وإنسان . وإلى هذا أشار تعالى بقوله في الآية السابقة وهو يثير الأذهان إلى تلك الحقائق بصورة أكثر عندما يقول : «أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون[2]»من أين جاءت هذه الحبوب والبذور التي نزرعها هل نحن خلقناها أصلاً وزرعناها أول مرة أم الله هو الذي خلقها وأنبتها أول مرة؟ ويقول أيضاً «أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون»[3] هل الإنسان خلق نفسه أول مرة؟ لا يستطيع أحد أن يدعي ذلك وهل الحيوان المنوي الذي يخلق في الجهاز التناسلي في الرجل هو الذي يخلقه؟ كلا بالطبع إنه لا يعرف كيف يتكون ، لا يعرف كيف يخلق ، وهكذا نجد آيات كثيرة من هذا القبيل توجه نظر الإنسان إلى جميع مظاهر الطبيعة الظاهرة والباطنة ليدرك الإنسان آيات الله ودلائله على خلقه . يقول هنا الأخصائي في الطفيليات «سيل هامان» ، «أينما اتجهت ببصري في دنيا العلوم رأيت الأدلة على التصميم والإبداع على القانون والنظام على وجود الخالق والأعلى . . . وهل هو محض مصادفة أن تهبط حبوب اللقاح الرقيقة على مبسم الزهرة فتثبت وتسير في القلم حتى تصل إلى المبيض فيتم التلقيح وتتكون البذور ، أفليس من المنطق أن نعتقد بأن يد الله التي لا نراها هي التي رتبت ونظمت هذه الأشياء تبعاً لقوانين ما زلنا في بداية الطريق نحو معرفتها والكشف عنها[4]» ، ويتكلم عن نعم الله على الإنسان ، حتى يعد أغاريد الطيور من نعم الله على

---

(١) سورة يس ٣٣ ـ ٣٦ .

(٢) سورة الواقعة ٦٣ ، ٦٤ .

(٣) سورة الواقعة ٥٨ ، ٥٩ .

(٤) الله يتجلى في عصر العلم . ألفه مجموعة من علماء الغرب . دار إحياء الكتب العربية ص ١٤١ .

الإنسـان ، لأن الإنسـان يبتهج لهـا فيقـول «وهل من الممكن أن يغـرد الطير لا لأن له أليفاً فحسب ، بل لأن الله يحب تغريده ويعلم أننا نطرب بتغريده ، وكما أن هنالك ما لا يحصى من أغاريد الثناء التي تشدوها الطيور كل يوم والتي لا تصل إلى آذاننا القاصرة الفانية فإن هنالك ما لا يحصى من نعم الله وأفضاله يسبغها على عباده وهي تنتظر من الإنسان أن يفتح عينيه لكي يراها[1]» ، وتشير كثير من الآيات إلى مثل هذه الحقائق منها قوله تعالى «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . . . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين . وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون[2]» . وقوله تعالى «وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده[3]» . وأخيراً يشير الله إلى كل هذه النعم وغيرها بقوله «ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمهُ ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير[4]» .

تلك هي الحقائق التي يجب بيانها واتخاذها وسيلة للتربية الإيمانية . وهذا ما ينصح به أيضاً الفيلسوف المربي كانط بقوله «لو أننا ربيناه على ألا يسمع اسم الله ولا يرى أمامه من يتعبد ويصلي لله ثم أطلعناه على هذه العوالم السماوية والأرضية بالدراسة وكشفنا له الفضاء عن هذا النظام العجيب والترتيب المحكم وقلنا له هذه النظم الطبيعية المحكمة كلها موجهات لخير الإنسان والإنعام عليه وإسعاده ، وبعد ذلك نقول له أرأيت هذا النظام أعرفت هذه الحكمة الشاملة في العوالم إن واضع هذه القوانين المنظمة لها هو الله عز وجل فإنه إذ ذاك يصبح شاعراً بربه عن علم وبينة[5]» .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤١ .
(٢) سورة الحجر ١٩ ـ ٢٣ .
(٣) سورة الأنعام ١٤١ .
(٤) سورة لقمان ٢٠ .
(٥) كتاب التربية لكانط ص ٨١ ـ ٨٢ .

إذن المبدأ التربوي الذي نستخلصه من هذا أنه إذا أردنا أن نربي الإيمان القوي يجب أن تكون التربية أولاً بالعلم والتبصير بالأدلة العلمية لا بمجرد التلقينات التي يحاول المربون والآباء القيام بها اليوم ، وهذا أحد أسباب ضعف الإيمان الذي نجده لدى هذا الجيل ، الإيمان الصوري الميت الذي لا يتحرك وعاجز عن التحريك والدفع .

٤ ـ تكوين عاطفة قوية دافعة إلى السلوك بموجب الإيمان :

من أهم هذه العواطف في هذا الميدان عاطفة الحب وعاطفة الخوف[١] إذ إنهما من أكبر الدوافع والحوافز ، يمكن استخدامهما في عمل الخيرات وتنفيذ المأمورات وترك الشرور والمنهيات . يتكلم الدكتور الكسيس كارل عن أثر هاتين العاطفتين في السلوك ويقول «وليس هناك سوى عاطفتين قادرتين على البناء وهما عاطفة الحب وعاطفة الخوف فالحب وحده هو الذي يملك القدرة على نسق الأسوار التي تتحصن أثرتنا من خلفها وفي وسعه أن يلهب فينا الحماسة ويجعلنا نسير مبتهجين في طريق التضحية الأليم ، لأن التضحية أمر لا بد منه للسمو بالحياة ، فحب الطفل الصغير لأمه هو الذي يدفعه إلى حب الاستقامة في سلوكه . والمؤمن بدينه يخضع لأشق النظم الخلقية من أجل حبه لربه[٢]» . ولهذا يجب أن نجعل الطفل يحب الله ويحب المبادىء الأخلاقية باعتبارها أوامر إلهية وأن نجعله يخاف الله في الوقت

(١) يجدر بنا هنا أن نحدد معنى العاطفة ونفرق بينها وبين الغريزة . فالعاطفة هي عبارة عن اتجاه وجداني نحو موضوع بعينه وتكون مكتسبة بالخبرة والتعلم (الصحة النفسية ص ٢٨٢ . دكتور مصطفى فهمي) بينما الغريزة عاطفة وجدانية نحو موضوعات معينة وهي طبيعية أو موروثة (مقدمة لعلم النفس الاجتماعي . الدكتور مصطفى سويف)ص ١٩٧ وعلى ذلك فهما قد يشتركان من حيث المظهر ويختلفان من حيث الأصل أي الكسبي أو الطبيعي فحب الأم لابنها مثلاً غريزة ، وحب الإنسان علماً معيناً أو حب شيء آخر عاطفة لأنه ناتج عن خبرة أو تربية معينة . وما أقصده هنا من عاطفة الحب أو الخوف عاطفيين لا الغريزيين لأننا نحن سوف نكونهما نحو الله وليستا غريزتين بهذا الاعتبار وإلا لا داعي للتكوين .

(٢) تأملات في سلوك الإنسان ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

نفسه من أن يعصيه في ترك أوامره وارتكاب محرماته ، وهذا ما فعله الإسلام إذ إنه قد دعا إلى حب الله وحب رسوله ، وليس مجرد الحب بل يجب أن يحبهما أكثر من حب أي شيء آخر سواء كان قريباً أو صديقاً ، فقال تعالى «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين[1]» ، وقال الرسول «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار[2]» ، ذلك أن الإنسان المحب يطيع أوامر حبيبه عن حب ورغبة ويخاف عصيانه ، لأن عصيانه يزيل حبه ، فإن المحب لمن يحب مطيع ثم إن الإسلام يريد تكوين عاطفة مخافة الله بالدرجة التي أراد تكوين عاطفة المحبة له ، وذلك ليخاف من عصيان أوامر الله تعالى ، لأن هذا الخوف يمسكه عن السقوط في الرذيلة التي تكون سبباً لنيل نقمة الله وعذابه الأليم ، ولهذا نرى الله سبحانه أوعد الأشرار بأشد صنوف العذاب والعقاب في الآخرة فقال تعالى «ومن يعص الله وسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين[3]» . «ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا[4]» .

لكن كيف نستطيع تكوين عاطفة الحب عند الأطفال أو لمن نريد تربيتهم ومن ثم كيف نجعلهم عن طريق هذه العاطفة يحبون المبادىء الأخلاقية فيلتزمون بها؟

هناك عدة وسائل منها :

بيان حاجة الطفل الدائمة إلى الله على أساس أن الأمور بيده تعالى وأن جميع

---

(١) سورة التوبة ٢٤ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان كتاب الإيمان ج ١ ص ٩ .

(٣) سورة النساء ١٤ .

(٤) سورة الجن ٢٣ .

الأرزاق بيده كذلك وهو الذي يستطيع أن يجعل الإنسان سعيداً أو شقياً ، وذلك حسب ارتباط عبده بربه أو انقطاعه عنه ، إذ إن الشعور بالحاجة إلى إنسان ما يجعله يرتبط به أكثر من غيره وإذا شعر أنه يحقق حاجته أحبه . ولهذا يجب أن نضع حاجات الطفل في يد الله ونقول له إنه لا يوجد هناك أي إنسان يستطيع تحقيق جميع حاجاتك في كل الأحوال إلا الله وحده ، كما يجب أن نبين له أن جميع هذه النعم هي نعم الله خلقها رزقاً للعباد ، ولهذا يقول المربي الكبير بستالوزي «فالطفل كما لاحظنا فيما سلف يحب والدته ويشكرها ويعتمد عليها ما دام يشعر باحتياجه إليها ، كذلك هو يحب الخالق تعالى ويشكره ويعتمد عليه ما دام يشعر باحتياجه إليه[1]» . كما أنه لا يهتم بارتباطه بوالدته إذا شعر أنه استغنى عنها ، ولهذا قال تعالى «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى[2]» ، ولهذا يبين الله حاجة الإنسان إليه باستمرار بحيث لا يمكن أن يستغني عنه بأي حال من الأحوال ، ويبين كذلك أنه ليس بحاجة إلى أحد . ولهذا فقد أوضح الله كل ذلك في حديث قدسي فقال «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم . يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم . يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً . . . يا عبادي فلو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه[3]» . وقال الرسول «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمة وأحبوني بحب الله[4]» .

---

(١) التربية الأخلاقية أبادير حكيم ص ١١٧ .　　(٢) سورة العلق ٦ ، ٧ .

(٣) الأحاديث القدسية رواية مسلم . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ج١ص٢٦٤ .

(٤) سنن الترمذي كتاب المناقب باب ١١٠ ج٥ ص٣٢٩ .

ومن ثم يجب أن يكون شعور المرء بالنسبة إلى الله «الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين[1]» .

ويرى بستالوزي أن أهم فترة يجب أن تغرس فيها تلك العقيدة في قلب الطفل تلك التي ينمو فيها ويستغني عن والدته ويشعر بنمو قواه وغرائزه ويبتهج بمباهج الدنيا ويظن عندئذ أنه يستطيع أن يفعل كل ما يحلو له دون الاعتماد على غيره . في هذه الفترة التي تعد أخطر مرحلة يمكن أن يقع فيها الطفل في الرذيلة ويدنس نفسه ، لأن نفسه عندئذ تحدثه وتأمره بالسوء فيقول «فمتى آنست الوالدة الحكيمة من ولدها هذه الروح وقرأت على جبينه هذه الأفكار وجب عليها الإسراع لإنقاذه من هذا الخطر المحدق بنفسه ولا وسيلة لإنقاذه من هذا الموقف الحرج إلا بتوجيه عواطفه وعقله إلى قوة أعظم وقدرة أقوى من قوتها ليلجأ إليها فتعينه وترشده ، فالوالدة العاقلة تقبل إبان هذا الخطر على ولدها وتضمه إلى صدرها قائلة : إنه وإن زال احتياجه إليها إلا أن خالقه وخالقها وموجد هذا الكون والوجود ومبدع جميع الكائنات هو الذي يجب الاعتماد عليه والرجوع إليه ، وهو تعالى يمده بالمساعدة التي تعجز هي عن تقديمها له كلما التمسها منه تعالى ، وهو مصدر كل راحة وسعادة يمد له سبل الراحة والسعادة التي ليس للوالدة إليها سبيل ، بهذه الواسطة تمنع الوالدة الحكيمة ولدها من السقوط في هذه الرذيلة وتغرس في فؤاده شعوراً حياً ومقاصد عالية وإيماناً ثابتاً في الخالق تعالى وترفع بنفس مولودها عن مستوى هذه الماديات المحيطة به فيبتهج كلما سمع من والدته اسم ذلك الخالق القوي الرحيم ، ويشعر فؤاده نحو الله بذلك الحب والشكر والثقة التي كان يشعر بها نحو والدته فيطلع إليه تعالى كوالد رحيم . ومتى غرست في فؤاد الطفل هذه الفضائل نحو الله تعالى خطا نحو الفضيلة ، والتقوى خطوة واسعة ، لأن الشاب الذي يتطلع إلى الله وهو في عنفوان شبابه كما كان يتطلع إلى والدته في سني طفولته

---

(١) سورة الشعراء ٧٨ ـ ٨٢ .

يقوى بعمل الواجب والصواب حباً في الله كما كان يعملهما حباً في والدته وعلى هذه الملاحظات الجديرة بالاعتبار يجب أن نؤسس فن التربية الأخلاقية إن أردنا على الخصوص والجنس البشري عموماً حياة شريفة وأخلاقاً كريمة[1]» .

وأخيراً ينصح بستالوزي ليسير الإنسان على الطريق المستقيم بانتظام بوجوب إخضاع العنصر المادي للعنصر الروحي الخالد ، هذا هو أساس التربية الأخلاقية عنده[2] .

ومنها بيان أن أنعام الله على الإنسان أكثر من أنعام الآباء والأمهات وأي مخلوق آخر .

إذ إن كثرة الإحسان تستعبد الإنسان والشعور بها يجعله يطيعه عن حب ورغبة لأن عاطفة المحبة لا تتكون من لا شيء ولا بأي وسيلة كيفما كانت بل لكل غاية طريقة ولكل ظاهرة أسباب ، فإذا أردنا أن نحقق غاية لا بد من أن نسير في طريقها ونتخذ أسبابها . فعاطفة المحبة إنما تنمو وتكبر إزاء الآخر بما يجد الإنسان منه من الأعمال السارة مرات متوالية ، وكلما زادت هذه الأعمال زادت محبة المنعم عليه أو المحسن عليه نحو المنعم أو المحسن ، وهذا ما يقرره علماء النفس والتربية أيضاً[3] ، فيقول بستالوزي مثلاً في هذا الصدد «يشعر المولود بما تبذله والدته من العناية فيبتهج خاطره ومن ذلك تتولد في فؤاده عاطفة المحبة[4]» . وعلى هذا الأساس ينبغي تكوين عاطفة محبة الطفل نحو الخالق ، ولهذا يقول الفيلسوف الألماني كانط «لنبدأ أولاً بتعليم الصبي معرفة الله بأن نضرب الأمثال ونقول إنما مثل الناس على هذه الأرض مع ربهم كمثل الأب مع أسرته كلهم يحيطهم بعنايته ويكلؤهم

---

(١) التربية الأخلاقية لأبادير حكيم ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٣ .

(٣) انظر الأخلاق والسلوك في الحياة . وليم مكدوجل ص ٦٨ ـ ٦٩ ـ علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية دكتور عبد العزيز القوصي ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

(٤) التربية الأخلاقية . أبادير حكيم ص ١١٣ .

بعطفه ورحمته[1]» ، وينصح بعدم الاكتفاء بمجرد القول بل علينا أن نكشف عن حقيقة هذه العناية والرعاية ولهذا يقول «إذا أطلعنا الطفل على هذه العوالم السماوية والأرضية بالدراسة وكشفنا له الغطاء عن هذا النظام العجيب والترتيب المحكم وقلنا له هذه النظم الطبيعية المحكمة كلها موجهات لخير الإنسان والإنعام عليه وإسعاده ، ثم نقول له أرأيت هذا النظام؟ أعرفت هذه الحكمة الشاملة في العوالم؟ إن واضع هذه القوانين المنظم لها الله عز وجل ، فإنه إذ ذاك يكون شاعراً بربه عن علم وبينة[2] .

إن الاعتقاد في الله عن علم ومعرفة لابد منه ليصلح الاعتقاد أولاً ، وليكون الإيمان دافعاً إلى السلوك كما يرى الأشاعرة ، وقالوا : من اتفق له اعتقاد شيء على ما هو به عن غير دليل تقليداً ، فليس عالماً به ولا عارفاً به[3]» .

ثم إن إشعار المتربين بآيات الله ونعمه وتبصيرهم بها دافع إلى الارتباط بالله والسير في طريقه المستقيم ، ولهذا نرى الله سبحانه عندما يذكر نعمه على عباده يذكرهم بأنها آيات لقوم يعقلون أو يتفكرون ، فمن تلك الآيات مثلاً ، قوله تعالى «هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون[4]» . ثم يقول بعد أن يذكر كثيراً من تلك الآيات : «أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم[5]» .

---

(١) كتاب التربية لكانط ص ٨٤ .

(٢) المرجع السابق له ٨٢ .

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل . ابن حزم . المطبعة الأدبية بالقاهرة ج٥ ص ١٠٩ .

(٤) سورة النحل ١٠ـ١٣ .

(٥) سورة النحل ١٧ـ١٨ .

ثم إن الله يذكر من العلاقات بينه وبين عباده بصورة تجعل الإنسان يرتبط به ويخجل من عصيانه والخروج من طريقه فمن ذلك ما ذكره في الحديث القدسي الذي قال فيه «يا ابن آدم إن ذكرتني ذكرتك وإن نسيتني ذكرتك . . . فتعرض عني وأنا مقبل عليك . من أوصل إليك الغذاء وأنت جنين في بطن أمك لم أزل أدير فيك تدبيراً حتى أنفذت إرادتي فيك فلما أخرجتك إلى دار الدنيا أكثرت من المعاصي ما هكذ جزاء من أحسن إليك[1]» .

ولهذا قال الرسول «إن الله أحنُّ على عباده من الأم على ولدها الرضيع» وفي رواية أخرى «إن الله أرحم بعباده من هذه (إشارة إلى امرأة) بولدها[2]» .

ثم إن الحب الذي شرعه الإسلام بين العباد والخالق لا يقتصر على طرف واحد بل حب متبادل فكما يحب الإنسان الله فإن الله بدوره يحب من يحبه ويسير في طريقه وفقا لحبه : «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله[3]» ، وهو لا يحب من لا يطيعه ولا يقبل دينه «قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين[4]» لأن دليل الحب الطاعة وليس مجرد الكلام إذ كل واحد يمكن أن يدعي ولسانه الحب . وإذا أحب الله عبده بناء على حبه الصادق له يرعاه ويحفظه وينصره ويهديه ، فقال تعالى في حديث قدسي : «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته[5]» .

---

(١) الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية رقم الحديث ١٨٢ . للمناوي ص ٤٠ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان . كتاب التوبة ج ٣ ص ٢٤٠ .

(٣) سورة آل عمران ٣١ .

(٤) سورة آل عمران ٣٢ .

(٥) الأحاديث القدسية . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ج ١ ص ٨١ .

لكن يجب أن نفرق هنا بين حب الإنسان لصديقه أو لأبويه وبين حب الله فهذا الحب الأخير يجب أن يكون مع الإجلال والتعظيم ، وهذا يجمع بين الترغيب والترهيب أي إنه يحبه لأنعامه ورعايته ويعظمه لصفته الألوهية الخالقة القادرة على كل شيء وبيده ملكوت كل شيء ويخافه من عذابه الشديد الذي لا يعذب مثله أحد ، إن عصاه وتنكب الطريق الذي رسمه من أجله . هنا يقول الإمام القرطبي عند تفسير قوله تعالى «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم» ، «إنه لما كان اتصافه تعالى برب العالمين ترهيباً أقرنه بالرحمن الرحيم لما تتضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة والرغبة لا إليه فيكون أعون على طاعته وأمنع[1]» ومصداق ذلك قوله تعالى «أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم[2]» وقوله أيضاً «غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير[3]» .

ويقول كانط هنا مؤيداً هذه الفكرة من الناحية التربوية «يجب أن نعلم الصبيان . . . أن التفكر في جمال الله عز وجل ، يجب أن يملأ قلوب الناس بالاحترام والتبجيل في أي وقت يسمعون ذكره ، ومن توقيره سبحانه ألا يذكر اسمه إلا قليلاً على شرط أن يكون مع التعظيم والإجلال[4]» . وهذا حق ، ذلك أنه لو كان حب الإنسان لربه كحبه لبشر أي دون أن يكون مقروناً بالرهبة والتقديس والإجلال والتعظيم تكون مخالفته لأوامره سهلة وخالصة إذا اعتقد أنه لا يعاقبه إذا خالفه أو لا يستطيع معاقبته إذا أراد ذلك ، كما يحصل هذا أو ذاك كثيراً فيما بين الناس ولهذا نرى خوف الطفل من مخالفة أوامر والده أكثر من خوفه من مخالفة أوامر والدته ، لاعتقاده في لينها وعدم معاقبتها إياه ، كما ينتظر ذلك من والده . وعلى العكس من ذلك فإذا اقترن الحب مع الإجلال والتعظيم كما هو الشأن مع الله فإنه ولا شك يكون أكثر دافع لطاعته وأكثر ردعاً عن معصيته ، ولهذا قال تعالى عن

---

(١) تفسير القرطبي ج١ ص١٣٩ .

(٢) سورة الحجر ٤٩ ـ ٥٠ .

(٣) سورة غافر ٣ .

(٤) كتاب التربية ص ٩٣ ـ ٩٤ .

سلوك الذين تكونت عندهم عاطفة الحب والرهبة : «إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين[1]» .

هذا الخشوع لله هو المفتاح الوحيد لفتح مغاليق القلوب وهو المحرك الأساسي الذي حرك الإسلام به القلوب ودفعها إلى حيث يريد ، وهذا هو السر الذي ملك به الرسول زمام قلوب أصحابه ، إذ كان يستطيع أن يحركهم كما يريد ويوجههم إلى حيث يشاء أينما كان ، فكان إذا قال هذا حرام كانوا يجتنبونه تواً ولو كانوا قد اعتادوا عليه من قبل ، إذا قال هذا أمر يجب تنفيذه كانوا يسارعون إلى تنفيذه دون أن يستخدم سلطة أو سطوة بل قبل أن يكون لديه سلطة أو جيش يمكنه من قهرهم على أمره . وهذا خلاف ما عليه أمر الحكام والرؤساء اليوم الذين يملكون جميع أنواع السلطة والسطو ومع ذلك عندما يصدرون أوامرهم ونواهيهم وآراء أطبائهم بأن ما يأمرون به خير ونافع وأن ما ينهون عنه شر وضار بصحتهم مثل منعهم شرب المخدرات والخمور وبالرغم من منعهم بالقوانين وفروضهم عقوبات شديدة على الذين يشربونها ومع ذلك يشربونها وكذلك في الأمور الأخرى التي تنادي الحكومات بمثل ما نادى به الرسول ويدعو الوعاظ والخطباء بمثل ما دعا إليه الرسول مع ذلك لا يستجيب الناس لا لهؤلاء ولا لأولئك ، وما ذلك إلا لأنهم لم يغرسوا من قبل ذلك العاطفة القوية في القلوب ثم لم يتكلموا باسم تلك العاطفة الإلهية وهي الحب لله والخشوع له فإن تلك العاطفة القائمة على الإيمان المطلق لله قد أصبحت اليوم في حالة من الضعف لدرجة أنها لا تكفي لتحريك الأجسام إلى السلوك ، هذا إلى أن هناك علاقة وثيقة بين الشذوذ النفسي وعدم الإيمان أو ضعف هذا الإيمان بالله هذه حقيقة كشفها فرويد بعد دراسة خاصة[2] .

ولهذا كله فإذا أردنا أن نجعل الناس يسارعون إلى الخيرات ويسارعون إلى تجنب الشرور يجب علينا أولاً وقبل كل شيء أن نغرس في قلوب أطفالنا منذ الصغر ذلك

---

(١) سورة الإنبياء ٩٠ .

(٢) سيكولوجية الشذوذ النفسي عند الجنسين فريد ص ٣١٦ ـ ٣١٩ .

الإيمان ، الإيمان اليقيني المطلق بالله بجميع تلك الصفات التي يتصف بها ذلك الخالق العظيم ، وأن نغرس في نفوسهم عاطفة الحب لله والخشوع له وربطهم به لا بغيره والالتجاء إليه في كل شيء رغبة في تحقيق حاجاتهم وتجنباً لكل لون من ألوان المعاصي والشرور رهبة من عذابه وعاقبة أمره .

وبذلك الإيمان الذي يمتزج فيه العقل بالعاطفة يمكن أن نثبت أقدام الناس على الطريق المستقيم في هذه الحياة . وإذا رسخت تلك العقيدة في قلوبهم بالعوامل التربوية السليمة وأنبتت بذور شجرة المعرفة بالله في أرض قلوبهم ، فإنها تنمو وتترعرع بإذن الله وترتفع أغصانها وفروعها ويعجب الناس بمنظرها الجميل وبثمارها التي تثمرها في كل حين ، ولهذا فقد شبه الله هذه المعرفة المزروعة في القلوب بالشجرة الطيبة أصلها ثابت في الأرض في أرض القلوب وفروعها وصلت إلى السماء . فقال تعالى «ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون [1]» . كذلك فسر الفخر الرازي هذه الكلمة الطيبة بالمعرفة بالله وفسرها ابن عباس بكلمة الشهادة وأخيراً فسرها بعضهم بالإيمان بالله[2] .

وهكذا عندما زرع الرسول المعرفة بالله في قلوب أصحابه أصبح كل واحد منهم زرعاً طيباً خيراً . كما تنتج الشجرة ثمارها إذا زرعت بعلم وحكمة في أرض صالحة للزرع . ثم رُعيت الرعاية اللازمة من الحماية عن العوامل الخارجية والداخلية الهدامة . وكذلك العقيدة إذا غرست في القلوب بعلم وحكمة ووجدت الرعاية والعناية ، حتى إذا ما تأصلت في النفوس تكون أقوى عامل يدفع إلى السلوك الخير والفضائل ، وتجعل الإنسان شجرة الخير لا تثمر إلا طيباً نافعاً .

ومن هذا كله نستطيع أن نقرر ذلك الدور الكبير للعقيدة في تنمية الفضيلة إذا استطعنا أن نكون تلك العقيدة القوية في نفوس المتربين عن طريق التربية الإيمانية العلمية السليمة التي بينا بعض معالمها البارزة والضرورية .

---

(١) سورة ابراهيم ٢٤ ـ ٢٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج١٩ص١١٦ .

ثالثاً: أهم أساسيات اعتقادية للتربية الأخلاقية

وهنا نجد أن ما قرره الفيلسوف المربي أفلاطون يتفق مع ما قررنا فهو بدوره يقرر أن العقيدة تؤثر في تنمية الفضيلة في نفوس الناشئين إذا نمى فيهم المربي أصول الدين ، وغرس فيهم الاعتقادات القوية التي تصل بين المربي وربه ، لأن الله هو الأول والوسط وهو الآخر لجميع الكائنات ، وأن الإيمان بوجوده ورعايته وعدله هو الأساس للقوانين ، وبغير هذا الإيمان يضل الإنسان في هذه الحياة ما دام لا يعرف من أين أتى ولا ما هو المثال الكامل المقدس الذي يجب أن يروض نفسه دائماً على الاقتداء به والتوكل عليه ، ولهذا يجب على المربين بذر هذه العقائد المقدسة في القلوب جميعاً وكل تربية ليست دينية بالمعنى السابق ، فهي ناقصة وباطلة وكل دولة لا تكون المواطنين على تلك الأسس الكبرى فتلك دولة توشك أن تهلك[1] .

والآن بعد هذا كله لا بد من أن نضع هذه النتائج المستخلصة من هذه الدراسة

١ـ إن معظم المربين الكبار من الفلاسفة ورجال التربية المحدثين يتفقون مع وجهة نظر الإسلام في ضروة تأسيس التربية الأخلاقية على الأساس الاعتقادي أو الإيمان بالله وبالآخرة وبالجزاء الضروري على كل عمل .

٢ـ إن الإسلام ربط بين العقيدة والسلوك ربطاً لا انفصام له حتى جعل العمل دليلاً على وجود العقيدة وعلى ذلك بنى المسؤولية والجزاء .

ويجب تبصير المتربين بهذه الحقيقة وتلك العلاقة بين العقيدة والسلوك في نظر الإسلام ، لأن ذلك سيكون من عوامل دفعهم إلى الالتزام بالسلوك بموجب العقيدة .

٣ـ إن دور العقيدة في توجيه السلوك والتأثير على تصرفات الإنسان يختلف من عقيدة إلى أخرى . ، فكلما كانت العقيدة أكثر شمولاً كانت أكثر تأثيراً لنواحي

---

(١) مقدمة بارتلي لكتاب السياسة لأرسطو . طبعة دار الكتب المصرية ص ٢٠ ـ ٢١ .

حياة الإنسان ، ومن مميزات العقيدة الحية القوية الدافعة أن تضفي على صفات الخالق مواصفات تجعله قريباً من الإنسان أو معه بحيث يراه في كل تصرفاته ويسجل عليه إن خيراً وإن شراً ويحاسبه على ذلك ، ويكافئه ، بخلاف تلك العقيدة التي تضع الله في منزلة تبعده عن الخلق وتصريف شؤون عباده بعد أن خلق العالم وترك الأمور تسير بغير نظام وبغير أي تدخل منه ، وعدم المبالاة بما عليه الخلق في الخير أو الشر ، ولهذا فقد وجدنا في العقيدة الإسلامية جميع مميزات العقيدة الحية القوية الدافعة التي تنهض في قلوب معتنقيها بالحيوية .

٤ ـ إن هذه العقيدة الحية القوية الدافعة تصبح ميتة في القلوب إذا أدخلت فيها بطريق التلقين الصوري ، ولاتباع المسلمين الآن بصفة عامة هذه الطريقة في التربية الإيمانية نجدهم في تصرفاتهم وكأنهم لا يؤمنون ، إذ هم في واد في دعواهم بالاعتقاد ، وسلوكهم في واد آخر . لأن العقيدة ماتت في قلوبهم أو أصبحت في حالة عاجزة عن التحريك والدفع إلى السلوك بموجبها . فإذا أردنا أن تكون تلك العقيدة القوية الحية في نفوس المتربين لتكون طاقة دافعة إلى الفضيلة يجب اتباع تلك المبادىء بالمنطق والعلم وتكوين عاطفة إيمانية بالوسائل التي ذكرناها .

٥ ـ إنه لكي تكون العقيدة عقيدة حية قوية دافعة لا بد من تكوين عنصرين رئيسين : الأول العاطفة ، والثاني البصيرة ، ذلك أنه إذا كان هذا الأخير ضرورياً للتبصير والتنوير ، فالأول ضروري للدفع فلا يمكن السير في الطريق أو القيام بأي عمل من غير أن يكون هناك تبصير وتنوير لما يقوم عليه العمل . ولا بد مع ذلك من طاقة دافعة للسير في هذا الطريق أو القيام بذلك العمل .

٦ ـ لا بد من أن يعرف تلك المبادىء للتربية الاعتقادية كل من يرغب أو يقدم على التربية الإيمانية أولاً ، والتربية الأخلاقية ثانياً . إن كثيراً من سوء التربية الذي نجده لدى الجيل ليس ناشئاً من إهمال التربية فحسب ، بل ناشئاً أيضاً من الجهل بالتربية السليمة .

الفصل الثاني

الأساس العلمي

أولاً : القوانين العلمية التي يجب تأسيس التربية الأخلاقية عليها.

أشرت في المناسبات السابقة إلى مدى ضرورة تأسيس التربية الأخلاقية على القوانين العلمية الواقعية الطبيعية ، وذلك لصلة القوانين الأخلاقية بالقوانين الطبيعية وخاصة القوانين الأخلاقية الإسلامية التي تحدد علاقتها بالإنسان في هذه الحياة الواقعية وكيف أنها تنظم حياة الإنسان بحيث لا تتعارض مع القوانين الطبيعية ومن ناحية أخرى لا بد من النظر إلى القوانين الأخلاقية كالقوانين الطبيعية من حيث الواقعية والضرورية الثابتة ، وعلى هذه النظرة يتوقف نجاح التربية الأخلاقية وقد بدأ يدرك هذه الحقيقة كبار المفكرين وعلماء التربية فيقول هنا جون ديوي مثلاً «إن الشيء الوحيد الذي نحن بحاجة إليه هو أن قوانين الأخلاق واقعية بنفس المعنى الذي نرى به القوانين الأخرى واقعية ، وأنها فطرية في حياة الجماعة وفي مجرى نظام الفرد ، ولو استطعنا أن نضمن إيماناً أصيلاً بهذه الحقيقة نكون قد ضمنا مستقبلاً . الشرط الوحيد الذي يعتبر في النهاية ضرورياً كي نحصل من نظامنا التربوي على جميع ما فيه من فاعلية[1]» وبناء على هذا وذاك فقد يكون هناك اتجاه نحو تأسيس الأخلاق والتربية الأخلاقية على أسس علمية ، لكنهم مع ذلك اختلفوا في القوانين العلمية التي يجب تأسيسها عليها .

فمنهم من ذهب إلى تأسيسها على القوانين الطبيعية ومنهم من ذهب إلى

---

(١) المبادىء الأخلاقية في التربية جون ديوي . ترجمة عبد الفتاح السيد جلال . الدار المصرية للتأليف والترجمة ص ٦١ .

تأسيسها على أساس علم النفس وآخرون على علم الاجتماع وأخيراً فريق رابع يبنيها على مجموع العلوم[١] .

فالطبيعيون يرون أن القوانين الأخلاقية كالقوانين الطبيعية وكقوانين الطبيعة البشرية سواء بسواء من حيث إنها لا تتغير ، ولهذا يجب أن يدرب الطفل من البداية على أن يعيش بواسطة معايير أخلاقية مطلقة على أساس أن ما هو صالح للإنسان صالح لجميع الناس وليس فقط بالنسبة لأعضاء مجتمع معين بالذات ، ومن ثم يجب أن تبنى الأخلاق على أساس علمي أي على ما يكشفه العلم أنه خير أو شر ، فالعلم يكشف مثلاً أن الصحة خير والمرض شر ، وعلى ذلك فعلى التربية الأخلاقية أن تعمل لتحسين تكويننا الجبلي أو الطبيعي لنستطيع التغلب على الشر وعلى تحسين الخير[٢]» . ويرون أيضاً أن على هذه التربية أن تجعل الطفل يؤمن بالعلاقة الثابتة بين الأسباب والمسببات وبلزوم النتائج الحسنة أو السيئة ، وأن يؤمن كذلك بأن العقاب والثواب قد أودعهما الله في نظام هذا العالم ، وأن مخالفة ذلك النظام مصحوب أبداً بسوء العاقبة وأن الخضوع للطبيعة وسيلة لارتقاء العالم في معارج الكمال والسعادة[٣] ولهذا يقول هنا سبنسر «ولم يقف فضل العلم الطبيعي عند تمرين الذهن بل هو أفضل المعارف كذلك من حيث الرياضة الأخلاقية[٤]» .

وأما الذين يؤسسونها على علم الحياة فيرون أن ذلك يقتضي معرفة قوانين الحياة العامة وهي كما حددها الدكتور الكسيس كارل قانون المحافظة على الحياة وقانون تكاثر النوع وأخيراً قانون الارتقاء العقلي والروحي[٥] ، كما يقتضي معرفة أشكال

---

(١) انظر المراجع الآتية : (أ) التربية العامة رونيه أوبير ص ٣١ ، ٥٧ ، ٦٦ . . (ب) التربية الوظيفية . ادوارد كلاباريد . ترجمة الدكتور محمود قاسم ص ٩ . (جـ) المذاهب الأخلاقية الكبرى فرانسوا غريغوار . ترجمة قتيبة المعروفي ص ١٠٠ وما بعدها . (د) الأصول التربوية في بناء المناهج . دكتور حسين سليمان قورة ص ٣٧ ، ٣٩ .

(٢) في فلسفة التربية . ج . ف نيللر . ترجمة الدكتور محمد منير مرسي ص ٦٦ ـ ٦٨ .

(٣) التربية ـ سبنسر . ترجمة محمد السباعي ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٥) تأملات في سلوك الإنسان . دكتور الكسيس كارل ص ٤٧ .

الأمزجة وأثرها على الحياة النفسية والأخلاقية عن طريق العوامل البيولوجية ، وبناء على هذا فإن بعض أنصار هذا الاتجاه أمثال ديمور DEMOR وجونكهير JONKHUR يرون بناء علم النفس كله على علم الحياة ، وأخيراً يقتضي ذلك معرفة الظروف التي يمكن فيها العمل التربوي والآثار التي يحدثها في كيانه العضوي[1] وهذا وذاك يقتضي من الناحية التربوية تكوين وعي لدى الطفل بقوانين الحياة العامة وقوانين الطبيعة البشرية وتكوين استعداد لتوجيه سلوكه وفقاً لذلك الوعي .

وأما الذي يؤسسونها على علم النفس فيركزون على مراحل نمو نفس الطفل ويهتمون كذلك بميوله ورغباته النفسية الأساسية ويعملون لتطويرها وتهذيبها وتوجيهها واستخدامها لتكوين إنسان فاضل ، لكن ذلك يقتضي معرفة جوانب النفس الإنسانية مثل سكولوجية الفروق الفردية وسيكولوجية الطفولة والمراهقة والشروط النفسية للعمل التربوي لأن ذلك يزود المربي بالوسائل التي تمكنه من تحقيق أغراضه[2] ، يقول هنا هاربرت : «إن الفلسفة الخقية هي التي ترشد التربية إلى الهدف الذي يجب عليها تحقيقه ، بيد أن علم النفس هو الذي يزودها بالوسائل الكفيلة بالوصول إليه[3]» .

وأما الذين يؤسسون هذه التربية على علم الاجتماع فيركزون على مواضعات المجتمع وثقافته وقيمه لنقلها إلى الناشئين عن طريق التربية لأن التربية تتم بالمجتمع ومن أجله ، وعلى ذلك فلأن وظيفة التربية ليست تكوين إنسان كما خلقته الطبيعة أو تطوير الميول الطبيعية وإنما هي تكوين إنسان كما يريده المجتمع ولهذا يقولون التربية صناعة اجتماعية[4] .

وأخيراً فإن الذين يرون تأسيسها على العلوم جميعاً يركزون على العلوم كلها

---

(١) التربية العامة . رونيه أوبير ص ٣٢ ، ٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٣) التربية الوظيفية . ادوارد كلاباريد . مكتبة الإنجلو المصرية ص ١٣ .

(٤) التربية الأخلاقية . دوركايم ص ٥ .

ويتخذونها وسيلة للتربية الأخلاقية[١] . ويعللون ذلك بأن التربية الأخلاقية لا يمكن أن تتم إلا بعد إدراك جميع حقائق وقيم الأخلاق . وذلك لا يمكن إلا بعد الكشف عن جميع أجزاء العلم ، لأن علم الأخلاق يعد أكاليل العلوم جميعاً على حد تعبير ديكارت حيث يقول : «إن الأخلاق لا يمكن إدراكها إلا بعد الكشف عن جميع أجزاء العلم وأنه ينبغي اعتبار علم الأخلاق كأكاليل لغيره من العلوم[٢]» . ولهذا يقول أيضاً بأنها (أي الأخلاق) تستلزم معرفة كاملة للعلوم الأخرى «ويبين أن ذلك ضروري لكي يحصل على كل الفضائل ومعها كل الخيرات[٣] الأخرى التي يمكن تحصيلها[٤]» وذلك على أساس رأيه في أن المعرفة بالشيء تجعل الإرادة تميل إلى شيء طيب كما تجعلها تنفر من شيء خبيث[٥] ، ولعل هذه الفكرة هي التي دفعت سقراط قديماً إلى القول بأن المعرفة تكفي لكي يكون الإنسان فاضلا[٦] ، وقال أيضاً «الفضيلة معرفة والرذيلة جهل[٧]» ، كما قال «الفضيلة رفيقة الحكمة[٨]» . غير أن المعرفة في نظري لا تكفي للالتزام الأخلاقي ولهذا هناك من المربين من نقد هذه الفكرة ومنهم وليم مكدوجل[٩] . لكن ليس معنى ذلك أن المعرفة لا دور لها في التربية بل إنها وسيلة مهمة في هذا الميدان .

ومن الذين يؤسسون هذه التربية على العلوم جميعاً الفيلسوف المربي جون

---

(١) التربية العامة ص ٥٧ .

(٢) الأخلاق عند ابن الخطيب ص ١٢ . عبد العزيز عبد الله . والمرجع الأصلي لذلك
5,PARTIE DISCOURS PREFSE PCRINCIPOS BRIDOUX P,4

(٣) مقال عن المنهج لديكارت . دار الكاتب العربي . انظر الهامش ص ١٣٨ .

(٤) المرجع السابق ص ١٤٣ .

(٥) المرجع السابق ص ١٤٣ .

(٦) المشكلة الخلقية . دكتور زكريا ابراهيم ص ٥٠ .

(٧) الموسوعة الفلسفية المختصرة . سقراط ص ١٨٧ الفرد أدوارد تيلر ص ١١٧ .

(٨) محاورات أفلاطون ص ١٣١ .

(٩) الأخلاق والسلوك في الحياة وليم مكدوجل ص ٢١٤ .

ديوي وينصح باتخاذ جميع العلوم في المدرسة فرصة للتربية الأخلاقية[1] . وربما نجد إخوان الصفاء من أكثر المربين تحمساً لهذه الفكرة حتى أنهم بينوا كيف تتخذ حتى تلك العلوم الأكثر بعداً من مجال الأخلاق وسيلة للتربية الأخلاقية[2] . وسوف نذكر رأيهم بشيء من التفصيل عند بيان وسائل التربية الأخلاقية . أما الآن فلننتقل إلى وجهة نظر الإسلام في بناء التربية الأخلاقية على الأسس العلمية .

أما فيما يتعلق بوجهة نظر الإسلام في بناء التربية الأخلاقية على الأسس العلمية فإنه لا يقتصر على علم معين بل على كل العلوم والحقائق المتصلة بهذا الميدان .

ثانياً: الإطار النظامي العام للتربية الأخلاقية الإسلامية

أما فيما يتعلق بالتربية الأخلاقية فقد بينت ـ عند تحديد المفهوم العام للإطار الأخلاقي في نظر الإسلام ـ أن الإسلام حدد للإنسان إطاراً أخلاقياً على أساس تصوره للكون والحقائق الموجودة في هذا الكون ، ثم على أساس حقيقة تكوين وصلة الحقائق الداخلة في طبيعة الإنسان بالحقائق الكونية . وذكرت عندما تطرقت إلى بيان رأي الإسلام ـ إزاء المواقف الأخلاقية المثالية والطبيعية والواقعية ـ أن الإسلام بعد تقريره الحقائق الروحية العلوية والحقائق الأرضية الطبيعة الروحية والمادية ، وضع نظاماً أخلاقياً يجمع فيه بين المثالية والواقعية أي بين القوانين الروحية والقوانين الطبيعية الواقعية ، ويربط بينهما لا في الكون فحسب بل في طبيعة الإنسان بقوانين الطبيعة الإنسانية ، ومن ثم بالحياة الإنسانية الخلقية أو بالقوانين الأخلاقية الإنسانية ، كما قرر كانط هذا الربط بين القوانين الروحية والمادة الطبيعية[3] . وكما قرره ديكارت[4] وليبنتز وابن عربي[5] وذلك باعتبار أن الطبيعة الإنسانية تشمل العنصرين الروحي والجسمي وقوانينهما بصورة متسقة .

---

(١) المبادىء الأخلاقية في التربية . جون ديوي ص ٦٠ ـ ٦١ .

(٢) الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي . دكتور أحمد صبحي ص ٣٠٢ وما بعدها .

(٣) المذاهب الأخلاقية الكبرى . فرنسوا غريغوار ترجمة قتيبة المعروفي ص١١٢ .

(٤) مقال عن المنهج . ديكارت ص ١٩١ ، ١٨٧ .

(٥) محي الدين بن عربي وليبنتز . دكتور محمود قاسم ص ٢٥٣ ، ٢٧٥ .

ولارتباط هذه القوانين والحقائق في الكون والطبيعة الإنسانية ، ولارتباط مثالية الإسلام وواقعيته بها جميعاً ، فإن مثالية الإسلام ليست كالمثاليات المتطرفة التي تحاول قطع صلة الإنسان بالأرض وتربطه بالسماء وحدها . كما أن واقعيته أيضاً لم تكن متطرفة بالدرجة التي تحاول قطع صلة الإنسان بالعالم الروحي وتجعله يغوص في باطن الأرض ولا يعرف غير الطبيعة المادية .

وقد أدرك فرانسوا غريفوار هذه الحقيقة في الإسلام إذ قال «وليس من ريب في أن المثل الأعلى الإسلامي كما نراه مثل مشرف إلا أنه لصيق جداً بالحياة الواقعية[1]» . وتعبيره هذا يوحي بأن هذه الواقعية شيء ينقص من قيمة مثاليته ، مع أن الإسلام دين تكاملي يجمع بين النظام السماوي المثالي وبين النظام الأرضي الواقعي ، وذلك مراعاة لواقع الطبيعة الإنسانية التي تجمع بين العنصر السماوي الروحي والعنصر الأرضي المادي ، وهذا يقتضي أن يجمع الإنسان في حياته بين الحياة الروحية والحياة المادية معاً ليستطيع أن يحيا حياة متكاملة تتحقق فيها حاجاته المادية والروحية على حد سواء لكي لا يكون أسيراً للطبيعة المادية ولنوازع الطبيعة البشرية بل ليعيش سيداً على الطبيعة وعلى نفسه في الوقت نفسه وذلك لا يكون إلا بمعرفة القوانين الخاصة بالطبيعة عموماً وبالطبيعة الإنسانية بصفة خاصة ، ثم تسخيرها في ضوء المثل العليا الإنسانية التي رسمها الإسلام أمام الإنسان لهذه الحياة ليتجنب الإصطدام بتلك القوانين بصورة قد تؤدي إلى إهلاكه أو شقائه وتعاسته إلى الأبد . هذه المعرفة والسيطرة على الطبيعة ونوازع النفس البشرية ليست ضرورية لتكون أساساً للتربية الأخلاقية فحسب بل هي ضرورية أيضاً لتكون أساساً للحضارة الإنسانية المتقدمة الشريفة القائمة على الأساس الروحي الأخلاقي .

لكن لا يمكن سيادة الروح الأخلاقية على الطبيعة والنوازع البشرية ثم على الواقع المادي وعلى جميع الأنشطة الإنسانية إلا بتكوين هذه القوى الأخلاقية

---

(١) المذاهب الأخلاقية الكبرى . فرانسوا غريغوار . ترجمة قتيبة المعروفي . مكتبة الفكر الجامعي - بيروت ص ٧٤ .

الروحية في نفس الأفراد ، ولا يمكن تكوين ذلك إلا على الأساس العلمي القائم على معرفة القوانين والعلوم المتصلة بهذا الميدان ، ولننظر الآن إلى مدى اعتماد الإسلام في التربية الأخلاقية على القوانين العلمية .

وكذا بحثنا عن نوعية هذه القوانين وجدنا فيها قوانين العلوم المختلفة وأهمها :

قوانين علم الحياة وعلم النفس وعلم الإجتماع والطب أو الطبيعة البشرية بصفة عامة .

ففيما يتعلق بقوانين الحياة فهي كثيرة لا نستطيع سردها جميعاً هنا وإنما نذكر أهمها كدليل للدعوى . وقد لخصوا هذه القوانين كما سبق بيانها في ثلاثة قوانين عامة وهي قانون المحافظة على الحياة وقانون تكاثر النوع وقانون الإرتقاء الروحي والعقلي(1) .

ومراعاة للقانون الأول فقد حرم الإسلام كل سلوك يؤدي إلى هدم الحياة بطريق مباشر أو غير مباشر إن عاجلاً أو آجلاً ، ولهذا حرم القتل «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما(2)» وحرم الانتحار فقال الرسول «كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكيناً فحز بها يده فما رقا الدم حتى مات قال الله «بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة(3)» وقال أيضاً «من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها . ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا(4)» . ونهى عن إلقاء النفس إلى التهلكة فقال تعالى «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة(5)» ، ولهذا أيضاً حرم الإسلام تهديد حياة الناس فقال الرسول «من حمل السلاح علينا فليس منا (وفي رواية) من سل علينا السيف

(1) تأملات في سلوك الإنسان ص ٤٧ وما بعدها .
(2) سورة النساء ٩٣ .
(3) التاج بكتاب البر والأخلاق باب أظلم الناس من يظلم نفسه ج٥ص ٢٣ .
(4) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج١ ص ١٠٣ .
(5) سورة البقرة ١٩٥ .

فليس منا[1]» وقال «من أشار على أخيه بحديدة لعنته الملائكة[2]» بل حرم كل الأمور التي من شأنها أن تثير القلق والاضطراب في حياة الناس مثل إخافة الناس بأية وسيلة كانت ، ولهذا قال الرسول «لا يحل لمسلم أن يروع مسلما[3]» .

وفيما يتعلق بقانون استمرار النوع وتكاثره فقد شرع الإسلام الزواج وحض عليه لأنّه وسيلة استمرار حياة النوع فقال الرسول «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[4]» .

ثم لم يبح الرهبنة والتبتل[5] كما حرم الاختصاء للغرض نفسه[6] ،

وكذلك لم يحبب في زواج العقيم فقال «سوداء ولود خير من حسناء عقيم[7]» ، ولهذا كله فإنه عندما استأذنه رجل للزواج من امرأة عقيم لم يأذن ثم قال «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم[8]» .

وأما فيما يتعلق بالقانون الثالث والأخير وهو قانون الارتقاء العقلي والروحي ففيما يتصل بقانون المحافظة على العقل والرقي العقلي قد بينته بقدر كاف عندما تكلمت عن السعادة في بحث آخر[9] ، وشرحت سبب تحريم الإسلام الخمر والمخدرات وآراء العلماء في ذلك ، ورأي المؤتمر الدولي المنعقد في بلجيكا وكيف أثبتوا بدراسات جادة أضرار الخمور على الحياة العقلية وأثرها أيضاً في عقول أبناء المدمنين كما بينت رأي الإسلام في الوسائل التي اتخذها لتنمية القوى العقلية .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان جـ١ ص ٩٨ .
(٢) سنن الترمذي كتاب الفتن جـ٣ ص ٣١٤ .
(٣) مسند الإمام أحمد جـ ٥ ص٣٦٣ .
(٤) صحيح مسلم كتاب النكاح جـ٢ ص ١٠١٨ .
(٥) فتح الباري بشرح البخاري كتاب النكاح ج ١١ص١٩
(٦) فتح الباري ج ١١ص١٩ ـ ٢٠ ـ صحيح مسلم ج٢ ص١٠٢٠ .
(٧) الجامع الصغير ج٢ ص ٣٤ .
(٨) المستدرك على الصحيحين في الحديث كتاب النكاح ج٢ ص ١٦٢ .
(٩) انظر طريق السعادة «تحت الطبع» . دار الإنسان .

وفيما يتصل بقانون الارتقاء الروحي الذي يشمل الحاسة القدسية وجميع مظاهر الحياة الروحية فهو ضروري للحياة الإنسانية كضرورة الحياة المادية ، بل إن الحياة الروحية من أهم مميزات الحياة الإنسانية التي يفترق فيها الإنسان عن الحيوان ، وهي التي تضفي على حياة الإنسان البهجة والانشراح ، فكلما توغل الإنسان في هذه الحياة زاد شعوراً بالانشراح والبهجة والسرور الدائم ، لأنها حاجة الروح والحاجات الروحية مستمرة وليست محدودة كمحدودية الحياة المادية التي لا يستطيع الإنسان أن يتناول منها أكثر من حاجته المحدودة في أوقات محدودة ثم إن الإنسان إذا حرم منها يصاب بأمراض روحية كما يصاب بأمراض جسمية إذا حرم من الحياة المادية ، وإن كان هناك فرق بين نوعين من الأمراض وطريقة الإصابة بهما ، إذ إن إصابة الإنسان بالأمراض الجسمية نتيجة الحرمان من الغذاء المادي تكون سريعاً ، وتقدر درجة الإصابة بدرجة الحرمان ، وأما بالنسبة للأمراض الروحية فإن الإنسان قدر يشعر بضرر الحرمان كما لا يصاب بهذه الأمراض بعد الحرمان مباشرة بل قد يظهر أثر ذلك بعد مدة طويلة وقد لا يشعر المريض أن سبب ذلك حرمانه من الحياة الروحية ، ومن مظاهر هذه الأمراض الشعور بالقلق والضيق والكآبة .

وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة بقوله «ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً[1]» . ويبن أنه لن تطمئن القلوب ما دامت محرومة من الحياة الروحية «ألا بذكر الله تطمئن القلوب[2]»ولن تنجو هذه القلوب من الشعور بالكآبة والحزن إلا إذا مارست هذه الحياة الروحية «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[3]» .

والدليل الواقعي العلمي على صدق ما نقرره هنا ما ظهر من تلك الأمراض الروحية في تلك المجتمعات التي توغلت في الحياة المادية ، وبعد أن بحث العلماء

---

(١) سورة طه ١٢٤ .

(٢) سورة الرعد ٢٨ .

(٣) سورة البقرة ٢٧٧ .

عن أسباب تلك الأمراض وجدوها ترجع إلى إهمالهم أو تجاهلهم الحياة الروحية وهذا ما يقرره مثلاً سير ريتشرد لفنجستون[١] ، وهذا ما يقرره أيضاً الدكتور الكسيس كارل مهاجماً الذين يلغون التربية الروحية ومبيناً ما يترتب على إهمال التربية الروحية من الانحلال الأخلاقي ، يقول هنا «فهم يتوهمون أن تربية الذكاء تضاهي تربية الروح وقد ردت الحياة على هذا الجهل بجواب بطيء صامت بدت مظاهره جلية في القرى والمدن وهو الزحف التدريجي للقبح والقذارة والفظاظة والسكر وشهوة الترف وحب السلامة والحسد والنميمة والبغض المتبادل وتلك الرذائل التي يعدها دانتي أحط ما يتسم به البشر وهي النفاق والكذب والخيانة هكذا أجابت الحياة بطريقة آلية على رفض الخضوع لقانون الارتقاء الروحي فقضت على نفسها بالانحطاط والانحلال[٢]» . ثم يبين كيف بدأ الناس يشعرون بالضيق نتيجة إهمال الاهتمام بالرقي الروحي ونتيجة توغلهم في الحياة المادية ومن ثم ينصح بالنظرة الموضوعية لعالم الروح نظرتنا الموضوعية لعالم المادة ، يقرر ذلك بقوله «فالعالم الحديث يبدو لنا كالثوب المفرط في الضيق بمجرد أن يطبعه مذهب الحرية الفردية أو المذهب الماركسي بطابعه ، ومما لا يقبله العقل أن يصبح الواقع الخارجي أضيق من أن يشمل الإنسان في كليته وإلا يكون تركيبه متفقاً مع تركيبنا من بعض الوجوه فمن الحكمة إذن أن نجعل لعالم الروح نفس الموضوعية التي لعالم المادة[٣]» .

هذا إلى أن هناك عدة ضروريات للحياة الروحية ورقيها ، ويطول بنا المقام لو فصلتها لكنني درستها في بحث خاص لي بعنوان «فلسفة الحياة الروحية» وصنفت فيه تلك الضروريات في أربع نقط رئيسية ، وهي أولاً ضرورتها من حيث أنها حاجة أساسية في الطبيعة الإنسانية . وثانياً ضرورتها للوقاية من الأمراض المختلفة التي تترتب على ترك الحياة الروحية . وثالثاً ضرورتها لتحقيق السعادة الإنسانية ، لأنها

(١) التربية لعالم حائر . سير ريتشرد لفنجستون ص ٤٦ وما بعدها .
(٢) تأملات في سلوك الإنسان ص ٧٨ .
(٣) المرجع السابق ص ١٧٤ .

عنصر من عناصر هذه السعادة . رابعاً وأخيراً ضرورتها كعامل من عوامل التسامي والتكامل والتقدم[١] . ولهذا كله نجد الإسلام أوجب على كل فرد واجبات روحية محددة وشجع على الاستزادة منها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وفيما يتعلق بعلم النفس فقد عرفنا كثيراً من جوانب المبادىء الأخلاقية المتعلقة بقوانين على النفس عندما تكلمنا عن السعادة ، ونضيف إلى ذلك المبادىء النفسية المتعلقة بالنواحي التربوية التي اعتمدت عليها التربية الأخلاقية الإسلامية ، مثل تقسيم مراحل هذه التربية وفقاً لمراحل نمو سيكولوجية الطفولة والمراهقة وما بعد المراهقة ، وهذا ما سنجده بصورة واضحة في الإسلام عندما نتكلم عن مراحل التربية الأخلاقية وأسسها العلمية .

ومنها أيضاً مراعاة الفروق الفردية بين الأطفال من الناحية النفسية والعقلية ، وهناك نصوص في الإسلام تدعو إلى هذا ، وسنفصلها كذلك عند بيان مراحل التربية الأخلاقية ووسائلها ويكفي أن نذكر هنا نصاً واحداً وهو قول الرسول «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم[٢]» . وقال أيضاً مبيناً علة ذلك «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة[٣]» . إذ إن المربي الذي لا يعرف مثل هذه الحقائق العلمية بدلاً من أن يربي يضيع على الطفل التربية ، أو بتعبير آخر بدلاً من أن يصلح سوف يفسد .

ومنها أيضاً عدم استخدام القسوة والشدة على الأطفال لأنها تولد القسوة والشدة عند الأطفال فيما بعد ، ذلك أنهم عندئذ يحاولون أن يعاملوا غيرهم بالمعاملة نفسها ، وأما إذا عومل الطفل بالرفق واللين واللطف فهو بدوره يصبح رقيقاً لطيفاً مع غيره ، لهذا يقول هنا سبنسر الفيلسوف المربي «فإن سوء الخلق في الطفل الذي هو أصل الجرائم إنما هو نتيجة تهيج غضب الطفل وإثارة بغضه بالعقوبات غير

---

(١) انظر : فلسفة الحياة الروحية . مقداد يالجن ص ٤٤ ـ ٥٥ .

(٢) كشف الخفاء ج ١ ص ٢٢٥ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي مقدمة ج ١ ص ٧٦ .

الطبيعية التي يعتادها الطفل ظلماً وعدواناً ، فإن النفور والوحشة التي يجلبها تواتر العقاب الأجنبي (غير الطبيعي) على الطفل يضعفان رأفته ويغلظان كبده ، ولما كانت الرأفة عقالاً للسيئات كان في زوال الرأفة انطلاق هذه السيئات بالشر والأذى على كل من قدر عليه الطفل . . ولو عومل الطفل بالرفق واللين والعقاب الطبيعي لقام الارتياح والطمأنينة في صدره مقام القلق والغيظ فكان أرفق بعشرائه[1]» .

ولهذا كان الرسول يدعو إلى الرفق بالأطفال والرحمة بهم وكان بعظمته وجلال قدره يلاطف الأطفال ويداعبهم ويحملهم في حضنه وعلى عاتقه[2] ، وروى أيضاً أنه كان يقبل الحسن مرة فلما رآه أحد أصحابه قال يا رسول الله إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً ، فنظر إليه رسول الله ثم قال «من لا يرحم لا يرحم»[3] ، وفعلاً إننا إذا لم نرحم أطفالنا فهم لا يرحموننا أيضاً لا في صغرهم ولا في كبرهم ، ولهذا دعا الرسول إلى الرفق في كل الأمور وقال «إن الله يحب الرفق في الأمر كله[4]» ، ولهذا كان الرسول مربياً رفيقاً ورحيماً بالأطفال إذ قد روى عن أنس أنه قال «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله[5]» بالإضافة إلى ذلك هناك وسائل عاطفية ووجدانية وإرادية للتربية الأخلاقية تقوم على الأسس النفسية وسوف أذكرها بالتفصيل في موضعها ، وإنما أحاول هنا أن أقيم أدلة على مدى اعتماد الإسلام على الأسس العلمية وأعطي أمثلة من مختلف العلوم .

وفيما يتعلق بعلم الاجتماع فإن المربي يجب أن يعرف قوانين التأثير والتأثر الاجتماعيين ، وكيف يعد بيئة اجتماعية للتربية الأخلاقية ، وكيف يجعل هذه البيئة ميداناً للتجربة الأخلاقية ، ذلك أن المجتمع يعد بمثابة أرض للزراعة ، فكما أننا لا نستطيع أن ننبت نباتاً أو زرعاً صالحاً كما نرجوه إلا بعد تهيئة الأرض وفلاحتها قبل

---

(١) التربية سبنسر ص ١٠٧ . .

(٢) فتح الباري بشرح البخاري ج١٣ ص ٣١ ـ ٣٥ .

(٣) المرجع السابق كتاب الأدب ج٣ص٣٥ .

(٤) المرجع السابق . كتاب الأدب ـ باب الرفق في الأمر كله ج١٣ ص ٥٧ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي . كتاب الفضائل ج١٥ ص٧٥ .

الزرع فكذلك لا نستطيع أن نكون جيلاً صالحاً إلا بعد أن نعد لهم بيئة اجتماعية صالحة . فبدون إعداد هذه البيئة أولاً فإنه سيكون من الصعوبة بمكان تكوين أفراد صالحين فيها بعد ذلك ، وأصعب من ذلك وقاية الأطفال من تسرب الأمراض الخلقية إلى نفوسهم إذا كانت متفشية في المجتمع ، لأن الأمراض الخلقية كالأمراض الأخرى ، فكما أن هذه الأمراض الأخيرة إذا انتشرت في مجتمع فإنه من الصعب وقاية الإنسان نفسه منها ما دام يعيش في هذا المجتمع ، فكذلك الأمر فيما يتعلق بالأمراض الاجتماعية الأخلاقية ، ولهذا يقول الفيلسوف المربي جان جاك روسو «هذا هو مأساة الحياة البشرية وأنواع نكباتها التي تبدأ كلها من هذا الخطأ الأول خطأ ترك الرذيلة تتسرب إلى الطفل[1]» ، لأن هذه الأمراض الخلقية إذا تسربت إلى نفس الطفل يكون إخراجها أو علاجها أصعب من علاج الأمراض التي يصاب بها جسمه ، لهذا كله كانت تلك الأهمية الكبرى لإعداد البيئة الصالحة للتربية الأخلاقية ولهذا كله أيضاً قال تعالى «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا[2]» .

ثم إن الإسلام يريد تكوين الفرد ، في ضوء نظريته الأخلاقية لا حسب ما يريده المجتمع بل حسب ما يريده هو من تكوين مجتمع أخلاقي عن طريق تربية الأفراد تربية أخلاقية ، ولهذا فالمجتمع يجب أن يخضع للأخلاق في نظر الإسلام لا أن يخضع الأخلاق لرغبة المجتمع ، كما في نظر الاتجاه الاجتماعي ، لأن الأمر عندئذ يؤدي إلى تغيير المبادئ الأخلاقية وفقاً لتغيير الأوضاع الاجتماعية ومواضعاتها ، ولهذا لا ينبغي أن يكون المربي مجرد ناقل لقيم المجتمع بما عليه المجتمع إلى الأطفال وتربيتهم بها ، بل عليه أن يكون ناقلاً قيم الإسلام إليهم وأن يربيهم بها بعد أن يميز بين القيم الأخلاقية الإسلامية وبين العادات الاجتماعية السائدة .

وأخيراً فيما يتعلق بالقوانين الطبية فإن الإنسان عندما يدرس الأسباب المرضية

---

(١) أميل ص ١٠٦ .

(٢) سورة الأعراف ٥٨ .

ويدرس المبادىء الإسلامية التي تراعي تلك القوانين الطبية لإبعاد الإنسان عن تلك الإسباب ابتداء ، لوقايته من تلك الأمراض ينتهي الإنسان من ذلك إلى أن الإسلام ينظر إلى الوقاية على أنها خير علاج للأمراض ، وهذا ما يقرره الأطباء حيث إنهم يقولون الوقاية خير من العلاج كما يقول فرويد(١) ، ونضيف إلى ذلك أن الإسلام ركز على الأمراض النفسية والروحية أكثر من الأمراض الجسمية ، لأن ضرر هذه الأمراض الأولى لا يقل عن الثانية بل يزيد عليها ، لأنها كثيراً ما تؤدي إلى الأمراض الجسمية ، وهي قد تكون وسيلة قتل سريعة مثل الانتحار والذبحة الصدرية ، ثم إن مريض الجسم قد يحيا في أمل وضياء وأما مريض النفس فيعيش في حياة مظلمة قاتمة لا يشعر فيها بشيء من البهجة ولا يشعر فيها بشيء من لذة المطعم والمشرب ، ومن ثم يرجح الموت على الحياة لأن الحياة تكون عندئذ في نظره حملاً ثقيلاً لا يطاق حمله .

ولهذا نجد الإسلام قد وضع مبادئ كفيلة لوقاية الإنسان من جميع الأسباب المرضية ويمكن تلخيص تلك الأسباب ، في الأسباب العامة الآتية وهي : أولاً الأسباب النفسية وثانياً الأسباب الخاصة بالنظافة والثالثة الأسباب الخاصة بمعاشرة المرضى والرابعة الأسباب الخاصة بعدم الاعتدال في المأكل والمشرب وفي الأعمال أيضاً . والخامسة والأخيرة الأسباب الإجتماعية . والمبادئ الوقائية التي وضعها الإسلام فيما يتعلق بالأسباب النفسية ، قد جاءت بمبادىء روحية أخلاقية كفيلة بحماية الإنسان من أن يصاب بها إذا عمل بها المرء بدقة عن إيمان كامل بها . وفيما يتعلق بمبادىء النظافة ، فقد اعتنى الإسلام بالنظافة حتى جعلها شطراً من الإيمان(٢) . وفيما يتعلق بالعدوى ، نهى عن اتصال المرضى المصابين بالأمراض المعدية بغيرهم من الأصحاء(٣) ، كما نصح الأصحاء بالابتعاد عن مثل هؤلاء

---

(١) سيكولوجية الشذوذ النفسي . سيجمند فرويدص ١٥٨ .

(٢) التاج كتاب اللباس ج ٣ ص١٦٢ ،فتح الباري بشرح البخاري ، كتاب الطب جـ ١٢ ص ١٩١ .

(٣) صحيح مسلم كتاب السلام ج٤ ص١٧٤٣ .

المرضى[1] . كما نصح بالابتعاد عن الأماكن الموبوءة[2] . وفيما يتعلق بالاعتدال في الأمور ، أمر بالتوسط ، ونهى عن كثرة الأكل والشرب لأن كثرتهما ضارة ، كما أن قلتهما ضارة أيضاً ، ولهذا قال تعالى «كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين[3]» ، ولهذا أيضاً أمر بالاعتدال في الأعمال ، لأن الإفراط في العمل إرهاق وينتج عنه بعض الأمراض الجسمية والعصبية والعقلية كما يقول الأطباء[4] . وكذلك قلة العمل ضارة لأن الكسل مرض فالجسم يحتاج إلى العمل وبذل الجهد ، ولهذا نهى الرسول عن الإفراط في العمل[5] ، كما نهى عن التفريط فيه[6] .

وأضيف إلى ذلك حقية أخرى ، وهي التي أشرت إليها عند الكلام عن الأساس الاجتماعي دون بيانها بالوضوح الكافي لأن موضعها هنا وهي أن الأمراض الأخلاقية بصرف النظر عن أنها تكون سبباً لأمراض نفسية وجسمية فإن لها ذاتيتها وخصوصيتها الخاصة من حيث منشؤها وانتشارها في نفس الإنسان وقلبه ، ثم انتشارها وانتقالها منه إلى غيره ، وهي بدورها تخضع لقوانين خاصة بالطبيعة البشرية ، ذلك أنه كما أن لكل الأمراض الجسمية مرجعها في الطبيعة البشرية فإنها ترجع أساساً إلى وجود خلل في أحد أجهزة الجسم بالنقص أو الزيادة أو بدخول جرثومة ، وكلما زاد الخلل زادت خطورة المرض وكلما مضى عليه الزمن صعب علاجه ، فكذلك الأمراض الأخلاقية لها مرجع خاص في هذه الطبيعة ، وهو الحاسة الأخلاقية في النفس ، فالمرض الأخلاقي ينشأ أساساً من حصول الخلل في هذه الحاسة ، وكلما زاد الخلل زادت الانحرافات أو الأمراض الأخلاقية كماً وكيفاً ، وإذا فسدت هذه الحاسة فسد الإنسان تماماً من الناحية الأخلاقية ، كما أن البصير

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الطب ج١٢ص ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق ج١٢ ص ٢٨٩ .

(٣) سورة الأعراف ٣١ .

(٤) أسس الصحة والحياة ص ٢٥٧ .

(٥) كشف الخفاء ج١ ص٣٠٠ . منتخب كنز العمال على هامش مسند الإمام أحمد ج١ص١٣٨ .

(٦) المرجع السابق ج١ ص ٢٢٦ .

يصبح أعمى إذا فسد جهاز العين تماماً . وقد أيد كثير من الأخلاقيين وجود هذه الحاسة في طبيعة الإنسان ، وسنشرح ذلك بالتفصيل في موضعه في الفصل القادم ، وقد شبه الرسول وظيفة هذه الحاسة في ميدان الأخلاق بوظيفة القلب في ميدان الصحة العامة ، فكما أنه إذا فسد القلب يفسد الجسم كله ومن ثم تضيع الصحة ، فكذلك إذا فسدت هذه الحاسة تفسد أخلاق المرء ولهذا قال الرسول : «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1] . فالقلب المعنوي بمثابة القلب الجسدي . والدليل على ذلك أيضاً قوله تعالى «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم[2]» .

والأمراض الأخلاقية تبدأ أساساً من جرثومة الانحراف الأخلاقي ، وهي التي تظهر في الإرادة أو النية غير الأخلاقية . فإذا عمل بها الإنسان زاد نطاق النيات مرة بعد أخرى ، وكلما زادت النيات والأعمال بها زادت رقعة الفساد والمرض في القلب إلى أن يصير مريضاً كله وفاسداً . ومن ثم لا ينفع العلاج . ولقد بين الرسول ذلك بأن كل عمل إجرامي بمثابة نقطة سوداء في القلب . وكلما زادت النقط زاد سواد القلب إلى أن يصبح أسود فقال «إن المؤمن إذا أذنب كانت نقطة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه فإن زادت فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون[3]» وإذا اسود هذا القلب بتلك الصورة تفقد الحاسة الخلقية بصيرتها وتصبح عمياء لا تستطيع التمييز بين الخير والشر وبين المعروف والمنكر . هذا ما بينه الرسول عندما قال «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكت (نبتت) فيه نكتة سوداء . وأي قلب

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الإيمان باب من استبرأ لدينه.ج ١ ص١٣٥ .

(٢) سورة الشعراء ٨٨ .

(٣) سنن ابن ماجة ج٢ ص١٤١٨ .

أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر اسود مربداً (ممزوجاً ببياضه سواده) كالكوز مجخياً (منكوساً) لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه[1]» . ولهذا أيضاً قال تعالى «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور[2]» . ولهذا السبب نفسه أيضاً عبر الرسول عن الأمراض الأخلاقية بالداء والمرض فقال مثلاً في حديث «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء[3]» .

ويقول هنا الدكتور ألكسيس كارل «ليست الخطيئة وهماً إلا إذا اعتبرنا السل أو السرطان أو الجنون أوهاماً هي الأخرى ، وليس من العسير أن نفهم أن الخطيئة انتهاك إرادي أو غير إرادي لقوانين الحياة[4]» ، ولهذا يعبر علماء النفس عن الأمراض الأخلاقية بالأمراض الاجتماعية النفسية[5] . ولنضرب مثلاً كيف تدخل جرثومة المرض الأخلاقي في قلب المرء ثم لا تلبث أن تنمو وتزداد عدداً وعدة حتى تشمل النفس كلها وتصاب بالشلل الأخلاقي ، لنضرب لذلك مثلاً بدخول جرثومة الكذب في نفس المرء ، إنها تبدأ بالدخول عندما تحدثه نفسه أن يكذب مرة للكسب الأدبي أو المادي أو لدفع تهمة وجهت إلى نفسه أو إلى غيره ، فإذا كذب فعلاً دخلت هذه الجرثومة الأولى في نفسه واستقرت ، وبعد ذلك يسهل عليه أن يكذب لمصلحة أكبر ثم يسهل عليه الكذب لكل صغيرة وكبيرة ، وإذا كذب يصبح عندئذ كذاباً ، بعد ذلك تتأثر الجوانب الأخلاقية الأخرى ، فيسهل عليه إخلاف وعده وخيانة الأمانة والعهود والحنث في يمينه وترك المسؤولية التي التزم بها ، وهكذا يبدأ بالتحلل من جميع الروابط الأخلاقية ، عندئذ يحس في نفسه أنه أصبح إنساناً غير

(١) التاج كتاب الفتن . باب من أين تأتي الفتن ج٥ ص٣٠٩ .
(٢) سورة الحج ٤٦ .
(٣) الجامع الصغير ج٢ ص ١٤ .
(٤) تأملات في سلوك الإنسان ص ٩٤ .
(٥) علم النفس الإجتماعي .دكتور حامد عبد السلام زهران ص ٣٢٤ـ ٣٢٥ .

شـريف وإذا شعر بزوال شـرفه في داخل نـفسـه عندئذ تحدثه نفسـه بأنه لا مـانع من عمل كل الأعمال التي تهواها وتشتهيها . ومن يرد أن يعوقه عن تحقيق رغباته الآثمة يعمل لتحطيمه دون أن يرعى إلاً ولا ذمة ، ومن ثم يصبح مجرماً فاسقاً فاجراً ، ولهذا قال الرسول «إياكم والكذب فإن الكذب يهـدي إلى الفـجور وإن الفـجور يهـدي إلى النار . ومـا يزال الرجل يكـذب ويتحـرى الكذب حـتى يكتب عند الله كذابا[١] ثم أمر بالتزام الصدق دائماً فقال «تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهلكة فإن فيه النجاة ، واجتنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة[٢]» . وبعد ذلك تنتقل جرثومة الكذب منه إلى أبنائه وغيره ، ذلك أنه عندما يصـبح كـذاباً ويخـدع غيـره بكذبه وخـداعـه فـإن أبناءه وتلامـذته ومـعـاشـريه يقلدونه ويتـعلمـون منه الكذب ووسائل الخداع ويحاجونه في ذلك ويبادلونه كذباً بكذب وخـداعاً بخداع وهكذا ، ثم تنتقل منهم إلى غيرهم ثم تنتشر في المجتمع كله . وهكذا تنتقل كل الأمراض الأخلاقيـة وتنشر في المجتمعات ، ولهذا ينصح علمـاء النفس بأن خيـر وقـاية من الأمراض الأخلاقيـة عدم احتضـان الإنسـان من البداية للأفكار الأخلاقيـة السيئة وطردها من النفس إذا وردت حتى لا تتأثر النفس بها لأنها إذا بقيت في النفس تؤثر فيها أكثر من تأثير الجراثيم إذا بقيت في الجسم[٣] .

والآن بعد بيان ذاتية القوانين الأخلاقية وصلتها بالقوانين العلمية الأخرى نضيف إلى ذلك كله أمراً آخر وهو أن القانون الأخلاقي الواحد لا تقتصـر صلته على قانون علم واحد بل قد تكون له علاقة بعدة قوانين علمية أخرى . ولنضرب لذلك مثلاً بالزنى أو الفـاحـشة فـهـو من حيث إنه اتصـال غير مقيد يمكن أن يتسع مـجاله إلى أشخاص لا يعدون ولا يحصـون ، ومن ثم يمكن أن يجلب الزاني على نفسـه كل الأمراض المعدية أو ينقل إليهم ما عنده من هذه الأمـراض ، لأن طريقة الإتصال هنا ليست كأي اتصال ، بل إنه من الناحية الطبية عـامل مساعد لانتشار جميع الأمراض

(١) صحيح مسلم ج٤ ص٢٠١٣ .هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج١ ص١١٢ .
(٢) الجامع الصغير ج١ ص١٢٦ .
(٣) سيكولوجية الشذوذ النفسي فرويد ص ١٥٧ ـ ١٥٩ .

المعدية في المجتمع كله إضافة إلى الأمراض السرية الخاصة بالزنى مثل السيلان والقرحة والزهري ، فقلما ينجو من الإصابة بها أو بواحد منها على أقل تقدير من يرتكب هذه الفاحشة وقد وصلت نسبة زيادتها في المجتمعات التي تزيد فيها نسبة الإباحية إلى ٧٠٪ من أفراده . ويقول الدكتور توماس باران في تقريره عن خطورة مرض الزهري وحده وكثرة انتشاره في المجتمع الأمريكي «إنه أفتك وأخطر بمائة مرة من مرض فالج الأطفال وإن خطره في أمريكا مثل خطر السرطان والتهاب الرئة حتى إن واحداً من كل أربعة أشخاص إنما يذهب ضحية الموت بسبب الزهري بطريق مباشر أو غير مباشر[١]» . ومن قبل الدكتور توماس قد أثبت هذه الحقيقة الرسول عندما قال «ولم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيها الطاعون والأوجاع[٢]» ، ولهذا قال تعالى «ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا[٣]» هذا إلى أن له صلة بقانون الوراثة ذلك أنه إذا كان أحد الأبوين أو كلاهما زانياً فإن أبناءهما يتأثرون بذلك ويوجد عندهم استعداد لارتكاب جريمة الزنا ويكونون ميالين إلى ارتكابه ، ذلك أن علم الوراثة أثبت أن الأبناء يتأثرون بخصائص آبائهم من حيث البناء الجسمي والبناء السكولوجي مثل الصفات الجسمية والنفسية والخلقية والعقلية تنتقل إلى الذرية كاستعدادت وميول عامة[٤] . وليس ذلك مجرد دعوى بل أثبتوها بالتجارب والإحصائيات العلمية . فقد جاء في تقرير المجلس المختص بالجرائم في نيويورك أنه كلما زادت خطورة الجرم زاد احتمال وجود أقارب جناة له من أرباب السوابق ، وذكروا أن الإحصائيات تقرر ذلك ويطول بنا المقام لو ذكرتها[٥] . ويكفي أن نذكر ما قاله أحدهم بالنص «إن الزواج بين أولاد الأشقياء أو

---

(١) حركة تحديد النسل . أبو الأعلى الودودي ص ٣٨ .

(٢) سنن ابن ماجة ج٢ ص١٣٣٣ كتاب الفتن .

(٣) سورة الإسراء ٣٢ .

(٤) انظر في ذلك المراجع الآتية : (أ) علم النفس والتربية الحديثة ١ / ٤١١ . س . ل . بريس ترجمة أحمد زكي صالح . مكتبة الإنجلو . (ب) أسس الصحة والحياة ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ دكتور عبد الرزاق الشهرستاني . (جـ) تأملات في سلوك الإنسانه . دكتور الكسيس كارل ص ١٠٩ .

(٥) علم النفس والتربية الحديثة . س . ل . بريسي ج ١ ص ٤١١ .

السكيرين أو المصابين بالزهري أو حاملي العيوب العقلية الوراثية يعتبر جريمة جديرة بالعقاب[1]» ، لأنه يعد «إنتاج ذرية من المرضى أو المنحلين أو اللصوص أو المعتوهين جريمة كبرى ومن أكبر الخطايا[2]» .

ونجد الإسلام قد قرر حقيقة الوراثة وانتقال الصفات من الآباء إلى الذرية عند الكلام عن مريم وكيف أنبتها الله نباتاً حسناً لتكون ثمرتها حسنة أيضاً لأن الثمرة الطيبة لاتأتي إلا بالإنبات الحسن «وأنبتها نباتاً حسناً[3]» .

ثم لما استنكر الناس ذلك الوضع غير المنتظر منها لأنها كانت معروفة بالعفة ومن سلالة مشهورة بالطهارة فقالوا «يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا[4]» فالآية لاتشير فقط إلى أن الفجور ينتقل بالتقليد والمحاكاة إلى الذرية فحسب بل تشير إلى جانب ذلك إلى أنه ينتقل أيضاً بالوراثة وهذا شديد الوضوح في هذه الآية التي سبقت والتي تعبر عن الذرية الصالحة بالنبات الحسن . ومن هذه الناحية شبه الرسول الناس بالمعادن من حيث صحتهم الجسمية والنفسية والعقلية والخلقية فكما أن هناك معادن صافية وأخرى مخلوطة وهناك معادن قيمة وأخرى رديئة ، ففي الناس أيضاً جواهر إنسانية احتفظت بصفائها ونقائها ، وأخرى صدئت ، وثالثة اختلطت بغيرها من العناصر الرديئة ، ولهذا فإنهم يتفاوتون من هذه الناحية ، فبعضهم كالذهب والآخر كالفضة والثالث كالنحاس والرابع كالحديد ، من حيث القيمة ومن حيث سرعة تقبلهم الفساد والانحراف ،وكذلك لو امتزجت عناصر من هذه المعادن بغيرها فكما يكون العنصر في الأصل يكون أثره في الفرع فإذا كان الإنسان ذكياً أو معتوهاً ، صحيحاً أو معلولاً ، طاهر النفس أو مدنساً فإن كل هذه الخصائص تنتقل إلى الذرية بواسطة الكروموزومات والجينات عن طريق الوراثة ، فقال الرسول مشيراً إلى كل هذا

---

(١) تأملات في سلوك الإنسان ص ٨٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٧ .
(٣) سورة آل عمران ٣٧ .
(٤) سورة مريم ٢٧ ـ ٢٨ .

«الناس معادن والعرق دساس وأدب السوء كعرق السوء[1]» وقال «لا يبغي على الناس إلا ولد بغي أو فيه عرق منه[2]» وفي رواية أخرى «لا يسعى على الناس» بدل «لا يبغي على الناس[3]» وقال «لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنى فإذا فشا فيهم ولد الزنا أوشك أن يعمهم الله بعذاب[4]» وليس عذاب الله هو العذاب السماوي المفاجىء كما يظن دائماً بعض الناس بل عذابه هو تعذيب القوانين الأخلاقية نفسها بما يترتب على الخروج عليها من أمراض بيولوجية ونفسية واجتماعية كما بينا . وكما يقول كانط إن الله وضع عقوبته في طبيعة القوانين الأخلاقية[5] ، وكما يقرر ذلك سبنسر أيضاً حيث إن الله وضع عقابه وثوابه في القوانين الطبيعية[6]» .

ولهذا حذر الرسول من زواج المرأة ذات السلالة السيئة . أو من أسرة معروفة بالأخلاق السيئة . فقال الرسول «إياكم وخضراء الدمن قيل يا نبي الله وما خضراء الدمن ، قال المرأة الحسناء في المنبت السوء[7]» وزاد في رواية «فإنها تلد مثل أصلها وعليكم بذات الأعراق[8]» ، ولهذا دعا إلى الاختيار في الزواج فقال «تخيروا لنطفكم[9]» ونصح باختيار الصالح فقال «تزوجوا في الحجز الصالح فإن العرق دساس[10]» . وأمر بتزويج الصالحين والصالحات فقال «انكحوا الصالحين والصالحات[11]» وقال تعالى «يضاً «وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم[12]» .

---

(١) كشف الخفاء ج٢ ص٤٢٢ . (٢) المرجع السابق ج٢ص٥١٦ .

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد كتاب الحدود باب في أولاد الزنى ج٦ ص ٢٥٨ .

(٤) المرجع السابق كتاب الحدود ج٦ ص ٢٥٧ .

(٥) كتاب التربية ص ٨٦ ـ ٨٧ . (٦) التربية . سبنسر ص ٤٦ .

(٧) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج٦ ص٣٩٦ .

(٨) كشف الخفاء ج ١ ص ٣٢٠ .

(٩) المستدرك على الصحيحين في الحديث ج ٢ ص ١٦٣ كتاب النكاح (الحجز : العفة) .

(١٠) منتخب كنز العمال ج٦ ص٣٩٤ .

(١١) سننه الدارمي كتاب النكاح ج ٢ ص ٦١ .

(١٢) سورة النور ٣٢ .

ثم إن للزنى باعتباره فوضى جنسية علاقة بعلم تحسين النسل لأن الفوضى الجنسية تضعف نسل الأمة ومن ثم تؤدي إلى نشأة جيل ضعيف وذلك بسبب ما تؤدي إليه من إنهاك القوة ثم من انهيار قوة الأصلاب كما يقرر ذلك «ول ديورانت» ويعد ذلك من عوامل انهيار الحضارة[1] ، لأن الحضارة لا تقوم إلا على أكتاف أفراد مجتمع أقوياء ، أصحاء من الناحية الجسمية والعقلية والنفسية هذا إلى أن علم الأخلاق له علاقة بعلم الاجتماع من حيث أن التحلل الأخلاقي يؤدي إلى تفكك الأسرة ، كما يقرر ذلك دور كايم[2]» ، وكما يقرره أيضاً الدكتور الكسيس كارل الذي يقول «يجب نبذ الخيانة الزوجية نبذاً تاماً أولاً لأنها تفصم الرابطة الاجتماعية التي لا غنى عنها لسعادة الأطفال ، وثانياً لأنها قد تدخل دماً موبوءاً في سلسلة ذرية صالحة[3]» . كما تؤدي الفوضى الجنسية إلى تأخر المجتمع وانصراف الناس عن أداء الواجبات إلى الانغماس في الحياة الجنسية وخاصة الشباب ، ثم تمتص قواهم الجنسية ومن ثم لا يستطيعون الاضطلاع بالأعباء الملقاة على عاتقهم . وهذا ما حصل فعلاً في روسيا عندما حاربت الأسرة والدين من قبل وانتشرت نتيجة لذلك الفوضى الجنسية وانصرف الشباب عن التعليم ومسؤولياتهم إلى الاستغراق في الحياة الجنسية والتفنن فيها عندئذ أدرك الزعماء السوفيات الخطورة المحدقة بالجيل الناشيء ، ومن ثم وقفوا موقفاً مضاداً لهذا ، ونجد لينين قد عاب هذا الاتجاه وعاتب الشباب لأنهم ضيعوا وقتاً ثميناً طويل المدى بغير مبرر في موضوع العلاقات الجنسية وقال إن مثلهم مثل الفقير الهندي الذي يقضي حياته في التأمل في صرته ، والشباب الذين يجعلون همهم الحديث عن العلاقات الجنسية شباب لا يعول عليهم في الإضطلاع بمهام المسؤولية القومية[4]» ، ثم نادى بانصراف الشباب من الحياة الجنسية إلى الأبحاث العلمية والرياضة البدنية ، وذلك لإعادة الشباب إلى

(١) قصة الحضارة . ول ديوانت ج ١ ص ٨ .

(٢) التربية الأخلاقية . دور كايم ص ٤٣ .

(٣) تأملات في سلوك الإنسان ١٠٩ .

(٤) انظر البحث الخاص عن التربية الجنسية في روسيا في مجلة التربية الحديثة ـ تصدر من الجامعة الأمريكية بالقاهرة المجلد ٢١ ص ٢٥ .

صوابهم ولإنقاذهم من ضياع صحتهم في وسط الهياج الجنسي بعد أن خاف من أن يمتص الجنس كل قواهم[1] ثم إن الإفراط الجنسي الذي تكون الفوضى الجنسية من أهم عوامله[2] ، يؤدي في النهاية إلى ضعف العقل العام في الأمة التي تسود فيها الفوضى الجنسية . وسوف نشرح عند الكلام عن التربية الجنسية تقارير العلماء عن مدى أثر العفة في النشاط العقلي والإنتاج العلمي .

يتبين لنا من كل ما سبق مدى صلة علم الأخلاق وقوانينه بعلوم الحياة المختلفة وقوانينها ، وكيف أنها مبنية عليه بحيث أن الذي يسير في حياته في ضوء القوانين الأخلاقية لا يصطدم بتلك القوانين الطبيعية المتعلقة بجوانب حياة الإنسان المختلفة . ومن ناحية أخرى فإن نتيجة الاصطدام بالقوانين الأخلاقية كنتيجة الاصطدام بهذه القوانين الطبيعية من حيث إنه لا بد من أن ينتج عنه ضرر مباشر أو غير مباشر إذ قد لا يشعر المصطدم بالضرر الناتج عن ذلك إلا بعد مدة طويلة ، وقد لا يدرك أن ذلك ناتج من جراء ذلك الاصطدام ، فإن إصابة الإنسان بالجنون أو الشلل والعمى والصمم بسبب الإصابة بمرض الزهري مما يجعل المريض أقرب إلى الميت منه إلى الحي كما يقول الأطباء[3] ، وقد تظهر هذه الأعراض بعد عشرين عاماً من دخول جرثومته كما يقولون[4] وقد تظهر هذه الأعراض في ذريته بعد ميلادهم بثلاث سنوات أو خمس عشرة سنة[5] ، لهذه الأعراض القاتلة لهذا المرض وبسبب انتشاره بنسبة ٩٨٪ عن طريق الفوضى الجنسية[6] فقد قرر المفكرون الاجتماعيون المدركون لخطورته الفظيعة مطالبة الحكومات بإلغاء البغاء والقضاء على الفوضى الجنسية أو الزنى في البلاد[7] .

(١) المرجع السابق .
(٢) تأملات في سلوك الإنسان ص ١١٧ .
(٣) المرشد الطبي الحديث ألفه مجموعة من الأطباء المتخصصين ص ٣٤٨ . .
(٤) المرجع السابق ص ٣٤٧ ، انظر أيضاً حياتنا الجنسية . د . فريد بريل كهن ص ٢٦٢ .
(٥) حياتنا الجنسية ص ٢٦٩ .
(٦) المرجع السابق ص ٢٥٣ .
(٧) المرجع السابق ص ٢٨٥ .

ومن ناحية ثالثة فإننا لا نستطيع الكشف عن جميع الشرور المترتبة على الاصطدام بالقوانين الأخلاقية إلا في ضوء الاكتشافات العلمية لقوانين علوم الحياة المختلفة وصلتها بالقوانين الأخلاقية ولهذا يقول بعض العلماء هنا «إن نتائج معظم الرذائل لا تبدو في معظم الحالات إلا بعد سنين عديدة بل بعد أجيال عديدة في بعض الأحيان ، فإننا مثلاً لم نعرف إلى الآن فداحة الدور الذي يقوم به السكر والأثرة والحسد في تقويض دعائم الأمم ، فعادة اغتياب الجار وبذر التفرقة بين المعارف وخيانة الأصدقاء واستغلال الأجراء وسرقة العملاء لا تضر الجاني نفسه بقدر ما تنزل بالأمة إلى الحضيض ، وهناك إلى جانب الخطايا القديمة كالكبرياء والحسد والإفراط ازدهرت خطايا جديدة وخطيرة جداً ، فمن جانب أتاح لنا تقدم المعرفة العلمية بالقوانين الطبيعية أن تعرف جيداً دلالة الأخطاء التي كانت تبدو لنا جد تافهة فيما مضى[1]» ، ولهذا يجب أن نبحث عن أسرار القوانين الأخلاقية وقيمتها عن طريق معرفة قوانين علوم الحياة الطبيعية مثل علم الحياة وعلم النفس والطب والاجتماع والاقتصاد وعندئذ نجد أن القوانين الأخلاقية مبنية على خلاصة هذه العلوم ولعل هذه الفكرة والنظرة العلمية هي التي دعت بعض الباحثين إلى القول «بأن القوانين الطبيعية هي نفسها قوانين أخلاقية[2]» . ولعل هذه الفكرة هي التي دفعت أيضاً ديكارت إلى القول السابق بأن علم الأخلاق في قمة العلوم أو أكليلها[3] ومن ثم يمكن دراسة تلك العلوم عن طريق دراسة علم الأخلاق أي عن طريق تحليل مبادئه تحليلاً علمياً .

وبناء على هذا كله نشأ الاتجاه العلمي الطبيعي في التربية الأخلاقية لدى المفكرين ، من هؤلاء الفيلسوف جان جاك روسو الذي يرى أن تكون التربية الأخلاقية طبيعية وذلك بإشعار الطفل عند العقاب مثلاً إذا خرج على القانون الأخلاقي أن ذلك عقاب من الطبيعة لأنه خرج على القانون الطبيعي فيقول في هذا

(١) تأملات في سلوك الإنسان ص ٨٧ .

(٢) الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني جون ديوي ص ٣١٠ .

(٣) أنظر ص ٢٢٦ من هذا البحث .

الصدد «دعوتي ألا يصب على الأطفال عقاب من حيث هو عقاب بل يجب أن يحدث العقاب لهم كما لو كان طبيعياً لسوء فعلهم[1]» ومن هؤلاء أيضاً الفيلسوف سبنسر الذي يوضح سبب انتهاجه هذا النهج الطبيعي في التربية الأخلاقية ويلخص مميزاته في النقط الآتية :

أولها : ما يستفيد الطفل منها من الحنكة لفرضها عليه التبصر في العواقب فيميز بذلك بين النافع والضار .

ثانيها : أن الغلام إذا رأى أنه لم ينل من العقاب إلا كسب يده كان جديراً بأن يبصر عدل الجزاء .

ثالثها : أنه إذا أقر بعدل العقوبة وأنها من فعل الطبيعة لا من عمل انسان هانت عليه فلم يغضب لها غضبه كما لو كانت من صنع بشر . وكذلك الوالد إذا ترك الطبيعة تجري في عقاب الغلام مجراها كان ذلك أحرى أن يوغر صدره ويهيج غيظه .

رابعها : أنه إذا سكنت عواطف الغضب بين الطرفين خمدت في الجوانح نيران البغضاء واطمأنت القلوب وائتلفت[2] .

خامسها : أنها تجعل الغلام يفطن إلى إدراك الإسباب والنتائج ويعلم أن الطبيعة بالمرصاد ، فكلما خرج على القانون الأخلاقي سيعاقب ولو غاب عن أعين المؤدبين لأن المؤدب الطبيعي هو الطبيعة لا المربون[3] .

لكن كيف تتم التربية الأخلاقية بالطريقة الطبيعية؟ هذا موضوع سنعالجه عند دراسة طرق هذه التربية . .ويهمنا هنا الآن استخدام أهم المبادىء العلمية للتربية الأخلاقية .

---

(١) أميل ص ١٠٦ .

(٢) التربية لسبنسر ص ١٠٢ .

(٣) المرجع السبق ص ١٠٠ .

ثالثاً : أهم ما يجب لتأسيس التربية الأخلاقية على العلوم

١ ـ نجد التفكير الإسلامي يتفق من حيث الشمول مع أحدث الآراء في ميدان التربية في بنائها على جميع الحقائق والأسس العلمية والاستفادة منه ما أمكن لتحقيق التربية الأخلاقية القائمة على العلم والحكمة .

٢ ـ أنه يجب على المربي قبل أن يقوم بالتربية معرفة هذه الحقائق العلمية لتكون تربيته على أساسها ، وذلك لتكون التربية الأخلاقية ناجحة تحقق غرضها المرجو .

٣ ـ يجب على كل فرد أن يقوم بما يجب عليه القيام به من أجل تأسيس التربية الأخلاقيّة على الأسس العلمية الأولية وهو اختيار شريك صالح من أبوين صالحين ، فبدون هذا الأساس العلمي لايمكن أن تحقق التربية الأخلاقية غرضها كما ينبغي ، كما يجب على الآباء مراعاة تلك الحقائق العلمية التي ذكرناها في صدد علم الوراثة والصفات التي تنتقل من الآباء إلى الذرية يجب مراعاة ذلك قبل الإنجاب .

٤ ـ يجب على الآباء أن يتعلموا الطرق العلمية للتربية السليمة لأن التربية هي الوظيفة الأولى التي يجب أن يعرفوها قبل الإنجاب وإلا فهم بجهلهم ذلك يرتكبون خطيئة كبيرة لاتغتفر ولاتغفرها لهم الطبيعة ، لأنها خطيئة في حق أنفسهم وفي حق ذريتهم ، ثم في حق مجتمعهم ، ولهذا يقول الدكتور الكسيس كارل «فالوالدان اللذان لايحرصان على أن يتعلما كيف يربيان أولادهما بطريقة علمية يرتكبان خطيئة كبرى[1]» .

٥ ـ يجب أن يشرح المربي للمتربين تلك الحقائق العلمية التي تقوم عليها المبادىء الأخلاقية ، والتربية الأخلاقية .

---

(١) تأملات في سلوك الإنسان ص ٨٧ .

الفصل الثالث

الأساس الإنساني

قسمنا هذا الأساس إلى ثلاثة فروع أساسية وهي الآتية :

(أ) أساس الطبيعة الانسانية :

وندرس فيه الميول والنزعات الفطرية وحقيقة الطبيعة البشرية من حيث الخير والشر ، ومدى قبول هذه الطبيعة التغير والتهذيب والتربية .

(ب) أساس حرية الإرادة :

وندرس فيه مدى ما يتمتع به الإنسان من حرية الإرادة ومدى ما يستطيع من اختيار أفعاله وتوجيه نفسه .

(جـ) أساس الشعور بالمسؤولية الأخلاقية :

وسنتكلم فيه عن أساس الشعور بالمسؤولية في الإنسان وأبعاد هذه المسؤولية وطريقة تنمية هذا الشعور .

أولا : أساس الطبيعة الإنسانية

أ) وقد أشرت في مستهل هذل البحث إلى أهمية هذا الأساس لنجاح التربية الأخلاقية . بل لا يمكن أن تنجح التربية الأخلاقية إذا تجاهلت الطبيعة الإنسانية مهما كان موقفها المبدئي منها من الناحية الإيجابية والسلبية ولهذا قال سقراط إن العلم بالطبيعة الإنسانية أساس لممارسة حياة الفضيلة[١] .

(١) المشكلة الخلقية . دكتور زكريا إبراهيم ص ٤٨ .

الروحي[1]» . ثم يقول : «فالتربية إذن تكامل ودمج ، لقوى الحياة في عمل الجسم المنسجم ، ودمج للقابليات الاجتماعية ضمن التكيف مع الزمرة الاجتماعية ، ودمج للقوى الروحية عن طريق الوجود الجسدي والوجود الاجتماعي ضمن التفتح الكامل للشخصية الفردية[2]» .

هذا فيما يتعلق بوجهات النظر حول تأسيس التربية بصفة عامة والتربية الأخلاقية بصفة خاصة على أساس الطبيعة البشرية . أما فيما يتعلق بمعرفة حقيقة مكونات هذه الطبيعة وأسرارها الخفية فإنني كنت قد بينت أهم وجهات نظر الفلاسفة في طبيعة عناصر تكوين هذه الطبيعة ، هل هي مكونة مثلاً من العنصر المادي أو الروحي أو منهما معاً؟ وأيهما أساسي فيها وأيهما مظهر للآخر وما ترتب على ذلك من نشأة النظريات الفلسفية التربوية ثم نشأة وجهات النظر حول طبيعة التفكير الأخلاقي . ولا أريد الدخول هنا في كثرة التفصيلات والاكتشافات العلمية عن حقائق هذه الطبيعة من الناحية البيولوجية والسيكولوجية والفسيولوجية ، لأن الأمر يحتاج عندئذ إلى أبحاث خاصة مطولة . ولأنني كنت درست ما يتعلق بالناحية الأخلاقية في بحثي الخاص عن الاتجاه الأخلاقي في الإسلام[3] ، وأريد البحث هنا عن الجوانب المتعلقة بالتربية الأخلاقية ، لكن مع ذلك أحب أن أشير هنا إلى أنه بالرغم من الاكتشافات الكثيرة في الآونة الأخيرة عن حقائق جوانب هذه الطبيعة المختلفة فإن هناك جوانب وأسراراً كثيرة متعلقة بالجانب البيولوجي والفسيولوجي والسيكولوجي لم تكتشف بعد ، بل إن الدارسين يقولون إنه إذا قسنا نسبة التقدم العلمي في الطبيعة الإنسانية بالتقدم العلمي في المجالات الأخرى وجدنا الأول بدائياً بالنسبة للثاني . هذا ما يقرره الفيلسوف الأمريكي جون ديوى الذي يقول «وما لدينا من علم بالطبيعة الإنسانية بمقارنته بالعلوم الفيزيقية علم بدائي[4]» . وهذا ما يقرره أيضاً العالم الكبير الدكتور ألكسيس كارل إذ يقول «فأكثر

---

(١) المرجع السابق ٨٣ . (٢) المرجع السابق ص ٨٩ .

(٣) انظر الفصل الثالث من الباب الثاني من كتاب الاتجاه الأخلاقي في الإسلام .

(٤) الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني . جون ديوي ص ٢٨ .

الأسئلة التي يطرحها من يدرس أفراد الإنسان بقيت دون جواب ولا تزال مناطق شاسعة من علمنا الداخلي غير معلومة[1]» . حقاً إن الإنسانية قد بذلت جهوداً جبارة كي تعرف نفسها ومع أننا نملك كنوزاً من الملاحظات التي جمعها العلماء والفلاسفة والشعراء والمتصوفة فنحن لا ندرك غير جوانب من هذا الإنسان وأجزاء منه[2] .

ويرجع فيليب فينكس سبب ذلك إلى تعقد الطبيعة الإنسانية فيقول مثلاً «ففي الواقع لا يوجد شيء مثل الإنسان محير مثير لأنه في الحقيقة صنع صنعاً عجيباً مخيفا[3]» وفعلاً إن تعقد الطبيعة الإنسانية هو السبب الأول في تأخر هذا العلم في نظري .

والسبب الثاني في تأخر العلم بالطبيعة الإنسانية هو المناهج التي اتبعت في دراستها ، إذ إن هذه المناهج كانت غير سليمة من بعض الوجوه لغلبة النزعة الفلسفية عليها ولاقتصار كل منهج على جانب معين منها في دراستها بناء على الفلسفة التي يتبعها ، فالفلسفة المادية مثلاً تدرس هذه الطبيعة بناء على نظرتها الفلسفية المسبقة بأن حقيقة الإنسان ليست إلا ظاهرة مادية شديدة التعقد مركبة من المواد الكيمائية المختلفة نشأت بسبب تطور المادة الأولية[4] والفلسفة العقلية ترى أن حقيقة الإنسان ليست إلا ظاهرة عقلية لا جسمية ، فالوجود الجسمي ليس له حقيقة مستقلة ولكنه نتاج للعقل أي أن الجسم مشتق من العقل . والفلسفة الثنائية ترى أن الإنسان مكون من المادة والروح معا[5] . وبناء على ذلك تترتب على كل منهج فلسفي في دراسة طبيعة الإنسان أمور لا تترتب على الآخر . فبناء على المنهج المادي تفسر الطبيعة الإنسانية على غرار الطبيعة الحيوانية . وبناء على المنهج الثاني

---

(١) الإنسان هذا المجهول . الكسيس كارل ص ٢٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣ .
(٣) فلسفة التربية ٦٩٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٦٩٩ .
(٥) المرجع السابق ص ٧٠٤ .

تفسر هذه الطبيعة بأنها طبيعة منفردة وليست امتداداً للطبيعة الأرضية بوجه عام . وبناء على المنهج المتوسط الثالث تفسر هذه الطبيعة من ناحيتين معاً الأولى أن طبيعة الإنسان تعد استمراراً للطبيعة الحيوانية من زاويتها المادية والثانية أن في الإنسان جانباً معنوياً يتميز به عن بقية الحيوانات ، ومن ثم يحتاج إلى دراسة خاصة .

والسبب الثالث والأخير في نظري في تأخر هذه الدراسات هو عدم الاهتمام بهذه الدراسات الاهتمام اللائق بها من حيث أهميتها ومن حيث صعوبتها وتعقدها إذ إن الدراسات يجب أن تأخذ حقها من العناية والبحث والتوجيه بحسب استحقاقها وصعوبتها أيضاً ، ومن الغريب أن الإنسان يحاول بكل جهد الكشف عن حقائق الكواكب في السماء ولا يبذل ذلك الجهد نفسه للكشف عن الحقائق الخارجية ولا تصرف مثلها للكشف عن حقائق طبيعة الإنسان مع أن الثانية أهم من الأولى بكثير جداً لأن حل المشكلات الإنسانية وتحقيق السعادة متوقف في الدرجة الأولى على الكشف عن أسرار الطبيعة الإنسانية وفك ألغازها . وهنا نجد ولز G. H. WELLEZ يقول «لو بذل الإنسان في السيطرة على جماح نفسه بعض ما يبذله من الجهد في السيطرة على قوى الطبيعة لكان عالمنا اليوم عالم طهارة وسعادة[1]» . ومهما كان من أمر فإن الأسرار الغامضة والمجهولة تكتنف الجانب الروحي والسيكولوجي من الطبيعة الإنسانية أكثر مما تكتنف الجانب البيولوجي والفسيولوجي ، والسر في ذلك أن العلم الحديث لم يستطع أن يغوص فيه لاستعصائه على الخضوع لمناهج العلم الحديث ومقاييسه الموضوعية ، ولذلك عدل علماء النفس المحدثون عن البحث عن جوهر النفس والعقل والروح ومدى صلة ذلك بمظاهر السلوك الإنساني إلى البحث عن مظاهر السلوك النفسي المادي لأنه يخضع لتلك المقاييس الموضوعية ونتيجة لذلك تقدم العلم النفسي التجريبي تقدماً مذهلاً في الآونة الأخيرة بالنسبة لماضيه . ويقدر ذلك من يدرس هذا العلم بأجهزته ومقاييسه الحديثة للظاهرة المادية للسلوك النفسي ، ولهذا يقول سكينر «إن مهمة

---

(١) التربية وطرق التدريس . صالح عبد العزيز . دار المعارف بالقاهرة ج٢ ص ٢٣١ .

علم النفس أن يبحث عن النظام الذي تسير وفقا له الظاهرة النفسية[١]» ويذكر الدكتور عبد العزيز القوصى «أن وودورث في تاريخ علم النفس كان يبحث أولاً في الروح ثم صار يبحث في العقل وانتقل بعد ذلك إلى الشعور وأخيراً صار موضوع بحثه هو السلوك الخارجي[٢]» . ومن هذه الزاوية يقول وودورث WOODWARTH عبارة فكهة «إن علم النفس عند أول ظهوره زهقت روحه ثم خرج عقله ثم زال شعوره ولم يبق إلا المظهر الخارجي وهو السلوك[٣]» ويقول الأستاذ ت . ج . أندروز تأييداً لرأي ا . بورنج «إن علم النفس استقر إلى محاولة تأويل القدرات الوظيفية للإنسان ووصفها[٤]» . وهذا حق يقتنع به من يقارن بين الدراسات النفسية القديمة والحديثة إذ إن الدراسات القديمة كانت مركزة بصفة خاصة على جوهر النفس وخلودها ، ووحدتها وصلتها بالجسم والأدلة على هذا وذاك[٥] . بينما الدراسات الحديثة تتركز أساساً على مظاهر الأداء في ميادين الحياة المختلفة ومن هنا تفرع علم النفس إلى فروع كثيرة مثل علم النفس الاجتماعي وعلم النفس التربوي ، والصناعي والمهني والطبي والجنائي وما إلى ذلك[٦] .

على أية حال تلك هي خلاصة وجهات نظر الدارسين حول هذه الطبيعة ومناهجهم في دراستها ، وسنعرض بعض آرائهم المتخصصة في الجوانب الخاصة التي نعالجها عند عرض وجهة نظر الإسلام للمقارنة . أما الآن فلننتقل إلى دراسة وجهة نظر الإسلام .

---

(١) التعلم أسسه نظرياته . دكتور أحمد زكي صالح ص ٣٠٠ .

(٢) علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية دكتور عبد العزيز القوصي ص ٢٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٥ .

(٤) مناهج البحث في علم النفس ت . ج . أندروز ج١ ص١٢ .

(٥) وكنموذج لهذا : انظر كتاب النفس لأرسطو . وكتاب أحوال النفس لابن سينا . وكتاب في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام . للدكتور محمود قاسم .

(٦) وكمثال لذلك انظر : كتاب مجالات علم النفس للدكتور مصطفى فهمي . وكتاب علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية .

وجهة نظر الإسلام :

سنعرض وجهة نظر الإسلام في هذا الموضوع في أهم جوانب الطبيعة الإنسانية المتصلة بالتربية الأخلاقية ونحددها في ثلاث نقط بارزة وهي أهم جوانب هذه الطبيعة ثم هل هي شر أم خير؟ وأخيراً مدى قبول هذه الطبيعة للتربية .

قبل بيان رأي الإسلام في جوانب الطبيعة الإنسانية التي يقيم عليها التربية الأخلاقية والتي يتوقف عليها نجاح التربية الأخلاقية ، يجدر بنا بيان نظرة الإسلام بصفة عامة إلى هذه الطبيعة وتصويره لها ، لأن هذه النظرية بمثابة أرضية تقف عليها تلك الجوانب المتصلة بالتربية الأخلاقية اتصالاً مباشراً ، كما أن هذه النظرة وذلك التصور للطبيعة الإنسانية يسلطان أضواء كاشفة على داخل الإنسان وما فيه من ميول ورغبات وغرائز مختلفة لا بد من أن يعرفها المربي ولا بد من معرفته أيضاً كيف أن الإسلام يربط برباط واحد تلك الميول والرغبات ويوجهها إلى وجهة واحدة وإلى طريق واحد ، ذلك أنه لا يمكن أن يكون توجيه الإنسان ناجحاً إذا كان ذلك التوجيه من خارج الإنسان لا من داخله ولا يمكن أن يتم التوجيه الداخلي إلا بمعرفة ما في الداخل من حقائق وأجهزة وطاقات وآلات محركة وموجهة ، ليستطيع الإنسان أو المربي تحريك الإنسان وتوجيهه كيفما يشاء وحيثما يريد ، ولهذا كانت الأسباب الرئيسية في فضل النظريات التربوية في تحقيق أهدافها ترجع ضمن ما ترجع إليه إلى كونها بعيدة عن طبيعة الإنسان الداخلية ، أو جهلها وخطأ تصورها للحقائق الداخلية لهذه الطبيعة .

ولهذا نجد الإسلام يعطي تصوراً كاملاً لحقيقة طبيعة تكوين الإنسان كما يلقى بعد ذلك أضواء كاشفة على أغوار هذه الطبيعة ، ثم كان توجيهه وفقاً لذلك التصور الكامل ووفقا لتلك المعرفة الكاملة للجوانب الداخلية لهذه الطبيعية ، يدرك هذه الحقيقة من يقارن بعمق بين نظرة الإسلام ونظرة الفلاسفة وعلماء النفس والتربية إلى هذه الحقائق ومن ثم يدرك مدى عمق نظرية التربية الأخلاقية الإسلامية . لكن هذه المعرفة الإسلامية الدقيقة لهذه الطبيعة ليست غريبة بالنسبة

إلى الإسلام لأنها معرفة خالق هذه الطبيعية «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير[1]» ولنقدم الآن تصور الإسلام لطبيعة الإنسان بادئين من مظهره الخارجي إلى جوهره الداخلي بصورة موجزة بقدر ما يتناسب مع موضوع بحثنا على أقل تقدير .

قلنا في بعض المناسبات في الموضوعات السابقة أن الطبيعة الإنسانية في نظر الإسلام في تكوينها المبدئي طبيعة مزدوجة مكونة من حقيقتين مختلفتين إحداهما روحية سماوية والأخرى مادية أرضية . فقال تعالى خالق هذه الطبيعة عن مبدأ خلقه «وبدأ خلق الإنسان من طين . . . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة[2]» وقال مخاطباً للملائكة عند خلق آدم أول مرة «فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين[3]» .

وقد نتج عن طبيعة هذا التركيب العجيب غرائز وصفات يرجع بعضها إلى الطبيعة الروحية[4] . ويرجع بعضها الآخر إلى الطبيعة المادية ، ويرجع بعضها الثالث إلى خاصية هذا التركيب ، ومن ثم فإننا نجد هنا صفات أكثر من حجم التركيب بكثير وليس هذا بغريب من الناحية الواقعية في ميدان التركيب الطبيعي إذ إننا نجد في هذا الميدان أن الكل ليس مجرد مجموع أجزائه ، بل قد تكون هناك صفة أو صفات زائدة تنشأ عن تركيب أجزاء معينة ، فالماء مثلاً يتركب من الايدروجين والأوكسيجين وبالرغم من ذلك فهو في شكله وخصائصه العامة مختلف عن مجموع خصائص هاتين المادتين ولو حللناه إلى مادتين يفقد الماء طبيعته ولا يبقى

(١) سورة الملك ١٤ .

(٢) سورة السجدة ٧ ، ٩ .

(٣) سورة الحجر ٢٩ .

(٤) ومهما اختلف العلماء في كون الروح من روح الله حقيقة أم أن الله خلق روحاً خاصة للإنسان ثم أضافها إلى نفسه تشريفاً وتكريماً للإنسان على باقي الكائنات . كما يقول الإمام القرطبي (الجامع لأحكام القرآن ج٦ ص ٢٢ ، ج١٠ ص ٢٤ ، ج١٠ ص ٢٨٩ ، ج٢٠ ص ١٤٥) فإن الآية تدل على وجود روح سامية في الإنسان أمر الله الملائكة بالسجود لآدم بعد أن نفخ فيه هذه الروح .

هناك ماء ، وكذلك الطبيعة الإنسانية فإنها متركبة من المادة والروح معاً ، ولهذا نجد فيها دوافع فطرية بعضها مادية حسية وبعضها روحية معنوية ، وبعضها مختلفة عن هذه وتلك ، وهي خاصة بالإنسان ناتجة عن ذلك التركيب الخاص وبها يمتاز الإنسان عن الكائنات الحية الروحية الصرفة وعن الكائنات الحية المادية الفسيولوجية ، وبهذا التركيب العجيب في الطبيعة الإنسانية يتحقق التنسيق بين القوى المادية والروحية في طبيعة الإنسان وبين النظام الروحي والمادي في حياته الأخلاقية . وبالتوجيه العلمي الدقيق لهذه القوى والميول المادية والروحية والميول الخاصة الناتجة عن امتزاجهما وتركيبهما في ضوء النظام الأخلاقي تتم التربية الأخلاقية .

ولهذا لما كان خلق الإنسان بذلك التركيب العجيب وبتلك الصورة المتميزة وبهذه الخصائص المعجزة في الخلق ، أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة بقوله «يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك»[1] .

ثم إن فكرة كون الإنسان أكبر من مجموع أجزائه لها أهمية كبيرة في ميدان دراسة الإنسان وتصوره بصورة متكاملة ، ثم في تربيته وفقاً لتلك الدراسة والتصور المتكامل لجميع جوانبه المتكاملة ، وهي فكرة انتهت إليها الدراسات الحديثة ، يقرر ذلك أحد الدارسين ويقول «إن الإنسان كل لا يتجزأ شديد التعقيد ، ومن المستحيل إيجاد فكرة مبسطة عنه ، فالإنسان الذي يعرفه الأخصائيون ليس الإنسان المحسوس أو الإنسان الحقيقي ، إنما هو رسم تخطيطي يتكون من التخطيطات التي تسفر عنها الطرائق الفنية لكل علم من العلوم ، إنه في آن واحد الجثة التي يفحصها علماء التشريح ، والشعور الذي يراقبه علماء النفس وأساتذة الحياة الروحية والشخصية التي تنكشف لكل واحد منا عندما يتأمل ذاته ، إنه المجتمع الهائل من الخلايا المجموعة من الأعضاء والشعور التي تدوم زمناً والتي يحاول علماء الصحة والمربون توجيهها

---

(١) سورة الانفطار ٦ ـ ٨ .

صوب كامل نموها ، إنه ذلك الكائن الذي لا بد من أن يتغذى بلا انقطاع حتى يمكن أن تعمل الآلات التي هو عبد لها . وهو إلى جانب هذا الشاعر ، والبطل ، والقديس ، إنه ليس فقط الكائن المعقد أشد التعقيد الذي يحلله العلماء بوسائلهم الفنية الخاصة بل هو أيضاً جماع ميول البشر وتهيؤاتها ورغباتها[1]» . ويقول دارس آخر مقرراً ذلك أيضاً بعد دراسة الموضوع «ننهي بحثنا للنظريات المختلفة في الطبيعة الإنسانية والمفاهيم التي حاول كثير من الفلاسفة أن يوردوها للطبيعة الإنسانية متعللين بأسباب مختلفة حقيقية أو غير حقيقية ، ننهي هذا بنظرة إلى الطبيعة الإنسانية تعتمد على التكامل . . نظرة كلية تتسع لتشمل جميع العوامل المكونة لها ، وذلك نظراً لظهور أفكار واتجاهات جديدة وكشوف علمية أدت إلى أن تختلف النظرة العلمية إلى الطبيعة الإنسانية اختلافاً أدى إلى تطبيقات جديدة في التربية . . لأن هذه الطبيعة الإنسانية متكاملة لا تتكون من جسم مضاف إليه عقل ولكن الطبيعة الإنسانية أبعد من ذلك فالكل أكبر من مجموع أجزائه أي إن الطبيعة الإنسانية أبعد من مجرد إحساسات جسمية وتكوينات عقلية[2]» .

وبناء على ذلك نجد أن منهج الإسلام في تحليل الطبيعة الإنسانية يختلف عن تلك المناهج الفلسفية التي ذكرناها في تحليل الطبيعة الإنسانية ودراستها والنظر إليها من حيث إنه لا يقتصر في نظرته وتحليله ودراسته على جانب واحد منها أو من زاوية واحدة مثل الزاوية الروحية أو العقلية أو الجسمية فحسب كشأن تلك المناهج .

والآن لندخل في بعض التحليلات لمكونات هذه الطبيعة في ضوء تلك النظرة الكلية الإسلامية لهذه الطبيعة ولعناصرها وما نتج عن ذلك من ميول ودوافع فطرية أكثر من حجم العناصر الداخلية فيها لنرى بعد ذلك كيف وقف الإسلام من كل واحد منها ، ثم حكمها في ضوء ذلك على هذه الطبيعة من حيث خيريتها أو شرّيتها ومدى قبولها للتوجيه والتغيير ، وأخيراً طريقة توجيهها وجهة أخلاقية عامة .

---

(١) الإنسان هذا المجهول . دكتور الكسيس كارل ص ٢١ .

(٢) مقدمة في فلسفته التربية . دكتور محمد لبيب النجيحي ص ٢٤٦ .

وليكن تحليلنا أولاً على أساس تصنيفنا لتلك الميول والدوافع[1] بحسب مصادرها الأصلية وهي الدوافع البيولوجية الناتجة عن التكوين المادي، والدوافع السيكولوجية الناتجة عن التكوين الروحي، وأخيراً الدوافع والصفات الإنسانية الناتجة عن امتزاج تكوين الطبيعتين السابقتين.

أما فيما يتعلق بالقسم الأول من الدوافع، فأهم هذه الدوافع هو دافع التغذي ودافع التناسل ودافع حماية النفس أو غريزة التقاتل كما يسميه مكدوجل[2].

---

(١) هناك بعض المصطلحات نستخدمها هنا ولا بد من تحديدها في هذا الميدان وهي الفطرة والغريزة والدافع والميل. فيتردد معنى الفطرة عند علماء النفس بين ثلاثة معان وهي الغريزة والدافع والميل (مجالات علم النفس ١٠) والغريزة عند مكدوجل هي استعداد نفسي عضوي فطرياً كان أو موروثاً يجعل صاحبه يتخذ موقفاً محدداً إيجابياً أو سلبياً إزاء موضوعات معينة بعد إدراكه لها مباشرة (مقدمة لعلم النفس الاجتماعي ص ١٩٧). أما كلمة الدافع فلها استعمالات عدة لدى علماء النفس منها الميل الفطري (مجالات علم النفس ص ١٠). ومنها الحاجات الأساسية (الإنسان معجزة الخلق ص ٩٢). ومنها النزعات الانفعالية (الأخلاق والسلطة في الحياة ص ٢٣). غير أنه يمكن تعريفها عاماً شاملاً على النحو الآتي: الدافع هو كل ما يدفع الإنسان إلى القيام بسلوك معين أو تغير معين في داخل الكائن سواء كان هذا الدافع نابعاً من داخل الكائن الحي أم من بيئته، فهو بهذا المعنى يشمل كل الدوافع مثل الحاجات والحوافز والرغبات والميول. وما أقصده من كلمة الدافع في استعمالي الخاص في هذا المجال هو ما كان نابعاً من داخل الإنسان لا من أثر خارجي أي أقصد الدافع الأولي لا الثانوي وبناء على ذلك تكون الفطرة الدافع الغريزي بالمعنى السابق أو الدافع الأولي لا الثانوي المكتسب أو ميولاً أصلية نحو أفعال معينة نابعة من داخل الإنسان، وبناء على ذلك كله يمكن وضع صيغة معينة للدافع يشمل معاني هذه الكلمات ويتفق مع ما سنوضحه فيما بعد من نظر الاسلام في معنى الفطرة التي استخدمها الإسلام بدلاً من الكلمات الأخرى وهي أن الدافع أو الفطرة قوة أولية دافعة مكنونة في الطبيعة الإنسانية تدفع الإنسان إلى القيام بأفعال معينة إزاء الأفكار والأشياء والمواقف في هذه الحياة. أو هو كما يحدده الدكتور أحمد زكي صالح «الدوافع هي الطاقات الكامنة في الكائن ليسلك سلوكاً معيناً في العالم الخارجي». (علم النفس التربوي ص ٦٨١).

(٢) مقدمة لعلم النفس الاجتماعي. دكتور مصطفى سويف ص ١٩٨.

وهناك دوافع فرعية قد ترجع إلى أحد هذه الدوافع الأساسية مثل دافع التملك الذي قد يرجع إلى دافع التغذي ، وقد يرجع إلى دافع حماية النفس أو إليهما معاً . ومثل دافع الوالدية الذي يرجع إلى دافع حماية النفس وكذلك الخوف والهرب فهما بدورهما يرجعان إلى حماية النفس . وهذه الدوافع ضرورية لدوام الحياة . وكلها تساعد على تطبيق مبدأ أخلاقي وهو وجوب احترام الحياة وإرادة الحياة ، هذا المبدأ من المبادئ الأخلاقية المهمة بل إن ألبرت أشفيتسر يعد هذا شاملاً الحيوانات إذ لا يجب على الإنسان مراعاته لنفسه ولغيره فحسب بل يجب مراعاة ذلك بالنسبة إلى الحيوانات أيضاً . لأن مراعاة هذا القانون الضمان الوحيد لاستمرار الحياة وانتعاشها على وجه هذه الأرض ، كما أن ذلك أساس مهم لنهضة الحضارة الإنسانية . فيقول مثلاً «والمرء لا يكون أخلاقياً حقاً إلا إذا أطاع الدافع إلى معاونة كل حياة يقدر على معونتها وامتنع عن إيذاء أي كائن حي[1]» ، ويقول أيضاً «وأصل الأخلاق هو تعقل المعنى الكامل لتوكيد العالم الموجود في الطبيعة مع توكيد الحياة في إرادتي للحياة محاولة جعله حقيقة واقعة[2]» ، ومن ثم يقول «إن كل شيء ينظر إليه على أنه خير في التقويم الأخلاقي المعتاد للعلاقات بين الناس يمكن أن يندرج تحت الإبقاء أو الترقية المادية والروحية للحياة الإنسانية والجهود لرفعها إلى أعلى قيمة ، وعلى العكس كل ما ينظر إليه على أنه شر في العلاقات الإنسانية هو في نهاية التحليل تحطيم أو وقوف مادي أو معنوي للحياة الإنسانية وإهمال في محاولة رفعها إلى أعلى قيمة[3]» .

لكن لما كانت هذه الطاقات الدافعة الفطرية قد تستخدم في وجهات مختلفة ، كما قد تستخدم في صورة إفراط أو تفريط ، ومن ثم يترتب على هذا وذاك فساد ، فإن الإسلام لذلك كله جعل هذه الدوافع مشروعة أولاً ثم وجه كل دافع إلى ما خلق من أجله ، ثم صاغ كل دافع في ضوء ذلك في قوالب من الحدود والشروط

(١) فلسفة الحضارة . ألبرت أشفيتسر ص ٣٧٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٧٦ .
(٣) المرجع السابق ألبرت أشفيتسر ص ٣٧٨ . .

لكي لا ينحرف أو يضل لأن استخدام كل دافع من غير قيد أو شرط لا بد من أن يؤدي إلى فساد .

ومن ثم نجد الإسلام مثلاً شجع على العمل الجاد الشريف لكسب القوت واقتنائه ثم أمر ألا يكون هناك إفراط ولا تفريط في المأكل والمشرب وكذلك نجد هذه التشريعات في تنظيم دافع التناسل في نظام الزواج ودافع التقاتل في نظام القتال دفاعاً عن النفس والمال والعرض والدين .

ثم إن هذه الدوافع لما كانت ناشئة أساساً عن التكوين المادي تدفع الإنسان إلى الالتصاق بالحياة المادية الأرضية والإنهماك في الأمور الحسية فقد جاءت آيات كثيرة تصف طبيعة الإنسان من هذه الناحية وإنهماكها في الحياة المادية ، وإخلادها إلى الحياة المادية مثل قوله تعالى «والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام[1]» «أولئك كالأنعام بل هم أضل[2]» . «ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه[3]» .

ومنها ما تصف حرص الإنسان على التملك «وتحبون المال حباً جماً[4]» «وإنه لحب الخير لشديد[5]» فقال القرطبي المراد من الخير المال[6] والحرص الشديد على التملك يدفع الإنسان إلى البخل لذا قال تعالى «وأحضرت الأنفس الشح[7]» ، «قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذن لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً[8]» .

---

(١) سورة محمد ١٢ .
(٢) سورة الأعراف ١٧٩ .
(٣) سورة الأعراف ١٧٦ .
(٤) سورة الفجر ٢٠ .
(٥) سورة العاديات ٨ .
(٦) الجامع لأحكام القرآن ج٢ ص١٦٢ .
(٧) سورة النساء ١٢٨ .
(٨) سورة الإسراء ١٠٠ .

وهذا الحرص على التملك والحرص على متاع الدنيا يدفعانه باستمرار إلى الاستعجال في تحقيق حاجاته لذا قال تعالى «كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة[1]» . «وكان الإنسان عجولاً[2]» «خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون[3]» .

ثم إن استعجاله هذا لخيرات الدنيا لحرصه على التملك والحياة يجعلانه هلوعاً جزوعاً من أي شيء رآه يهدد ممتلكاته وحياته «إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً»[4] .

كما أن دافع التناسل قد يضل الهدف فيتحول إلى دافع التلذذ الجنسي ومن ثم يريد الإنسان معاشرة النساء بدون قيد أو شرط «إن النفس لأمارة بالسوء[5]» ثم ان الإنسان قد يضعف أمام هذا الدافع ويستغرق في الحياة الجنسية . وعلى هؤلاء الضعفاء أن يتجنبوا أولاً الأجواء المثيرة التي تقوي هذه الدافعية وعليهم أن يلتجئوا إلى الله ويتوبوا إليه فإن الله يغفر لهم . وهذا التحول واليقظة تقوي إرادتهم ، ولهذا قال تعالى «والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً[6]» يريد الله بذلك تخفيف ضغط الدافع الجنسي لأن الإنسان كلما ابتعد عن الأجواء المثيرة خف ضغط الدافع الجنسي عليه وهذا ما يقرره بعض رجال التربية مثل وليم مكدوجل الذي نصح في هذا الصدد بتجنب الظروف التي تثير النزعة المتطرفة في قوتها[7] ، وهذا ما ينصح له الرسول أيضاً عندما يأمر بالابتعاد عن الاقتراب من حدود المحرمات لكي لا يقع الإنسان فيها فيقول «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من

---

(١) سورة القيامة ٢٠ـ ٢١ . (٢) سورة الإسراء ١١ .

(٣) سورة الأنبياء ٣٧ .

(٤) سورة المعارج ١٩ ـ ٢١ .

(٥) سورة يوسف ٥٣ .

(٦) سورة النساء ٢٧ ـ ٢٨ .

(٧) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ٤١ .

الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه ولعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وأن لكل ملك حمى ألا وأن حمى الله في أرضه محارمه[1]» .

وكذلك دافع التقاتل فقد ينحرف أو يتخذه المرء وسيلة للاستيلاء على أموال الناس ومكاسبهم وأعراضهم ومن ثم يصبح وسيلة للمعيشة الرخيصة ، ولهذا فإن الإسلام جعله سلاحاً للدفاع ضد الظلم والفساد وحرمة الحياة ، وحرم على المرء الاعتداءات العدوانية فقال تعالى «قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين[2]» ثم إن وجود مثل هذا الدافع ضروري لإزالة الفساد وللوقوف أمام المفسدين ، «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض[3]» .

ثم للدفاع عن المظلومين «الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله[4]» «وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً[5]» .

وكذلك الدافع التناسلي فإنه ضروري لاستمرار الحياة الإنسانية وضروري لقضاء الحاجة الوالدية في الإنسان . وهذا وذاك يتحقق عن طريق الزواج وهو وسيلة للوقوف أمام انحراف هذه الدافعية إلى الفوضى الجنسية التي تأتي منها كل الشرور التي بيناها ، ولهذا بين الإسلام ما في الزواج من منافع ضرورية للحياة الإنسانية فقال تعالى «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون[6]» .

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري ج ١ ص ١٣٥ .

(٢) سورة البقرة ١٩٠ .

(٣) سورة البقرة ٢٥١ .

(٤) سورة الحج ٤٠ .

(٥) سورة النساء ٧٥ .

(٦) سورة الروم ٢١ .

ولهذا فإذا نظرنا إلى هذا النوع من الدوافع الفطرية من هذه الزاوية نجدها ضرورة لدوام الحياة الإنسانية . ومن ثم لا نستطيع أن نقول إنها شر أو إنها مصدر الشرور ، فهي قد تكون بالفعل مصدر الشرور إذا استخدمت في الشرور . ولكن يمكن أن تكون في الوقت نفسه مصدر الخيرات إذا استخدت في الخيرات .

أما هي في ذاتها فلا نستطيع أن نقول إنها شر .

هذا إلى أن ضرورتها من حيث إنها طاقة ومن حيث الغاية التي خلقت في الطبيعة الإنسانية من أجل تحقيقها في حياة البشر ، لا تقتصر على الحياة الفردية بل تشمل الحياة الاجتماعية أيضاً ، ولهذا يرى وليم مكدوجل بعد ذكر هذه الغرائز وأغراضها أن : «الغرائز إذن هي قوام الطبيعة البشرية على الأقل فيما يهم عالم السلوك وهي أساس حياته الاجتماعية ، فالفرد يعيش في مجتمع لأنه يحمل غريزة التجمع ويتزاوج لأنه يحمل الغريزة الجنسية أو التناسلية ويحنو على أبنائه تنفيذاً لدافع الغريزة الوالدية ويقوم بأنواع مختلفة من النشاط الإجتماعي يعتمد بعضها على نشاط غريزة بعينها ويعتمد بعضها الآخر على تضافر عدد من الغرائز معاً[١]» .

أما النوع الثاني من الدوافع فتلك التي نشأت عن التكوين الروحي وأهمها دافع التقديس والدافع الأدبي والأخلاقي ، ثم دافع الاستطلاع أو المعرفة .

أما دافع التقديس أو نزعة العبودية فكما يذكرها وليم مكدوجل ويعدها من ضمن النزعات الفطرية في الطبيعة الإنسانية[٢] . بل إن بعض العلماء يتجاوز هذا الحد ويثبت جذور التدين الفطري في الجانب الفسيولوجي من الطبيعة الإنسانية . مثل الدكتور ألكسيس كارل الذي يرجع وجود حاسة التدين إلى إفراز الغدة الدرقية مادة النيروسكين في الأوعية الدموية[٣] ، وممن يثبت وجود فطرة دينية في الطبيعة

---

(١) مقدمة لعلم النفس الاجتماعي ص ٢٠٠ .

(٢) مقدمة لعلم النفس الاجتماعي ص ١٩٨ .

(٣) تأملات في سلوك الإنسان ص ٢٩ .

فطري عندهم لهذا التعقل[1] ، ولهذا جاء الإسلام بمنهج للمعرفة اليقينية شرحنا بعض معالمه عند الكلام عن التربية الإيمانية فمن سار في ضوء ذلك المنهج فلن يضل الطريق إلى الله . ومن ثم لا نستطيع أن نفهم من طريقة التدين انطباع جميع صور العقيدة الدينية في طبيعة الإنسان وإلا تعارض الأمر مع قوله تعالى «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون[2]» . ويقول الإمام القرطبي هنا «ولو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر والإيمان في أولية أمورهم ما انتقلوا عنه أبداً ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون لأن الله أخرجهم في حال لا يفقهون معها شيئا «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا[3]» . فمن لا يعلم شيئاً استحال منه كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار . قال أبو عمر بن عبد البر « هذا أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الناس عليها[4]» .

ثم إن الإنسان إذا كان قد عرفه الله العقيدة وهو في عالم الذر لترتب على ذلك المسؤولية . سواء كان الإنسان صغيراً أو كبيراً وسواء وصلت إليه دعوة الرسل أو لم تصل وهذا خلاف ما جاء به الرسل وخلاف قوله تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[5]» . ونحن نعلم أن الأطفال غير مسؤولين أيضاً . وبناء على ذلك فالإشهاد المذكور في الآية السابقة حاصل بالقوة لا بالفعل . إذ إن وضع الله في الإنسان تلك الدافعية للتعرف عليه ثم لتأليهه وتقديسه يعد بمنزلة الإشهاد الحسي ، ثم إن هذا التفسير يتلاءم مع جميع النصوص الواردة في هذا الصدد ، وبصفة خاصة مع قول الرسول «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» لأن القوة الدافعة تقبل التوجيه كما أن جميع الدوافع بصفة عامة تقبل

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢٦ .

(٢) سورة النحل ٧٨ .

(٣) سورة النحل ٧٨ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٥) سورة الإسراء ١٥ .

هذا التوجيه وتقويتها ، بالتربية ، ولكنها لا تقبل خلعها من جذورها وتبديلها بغيرها ـ كما سنتكلم عنه فيما بعد ، وهذه الفكرة تتفق تماماً مع قوله تعالى «فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم[١]» ، فلو كانت صورة العقيدة ومبادئ الدين منطبعة في الطبيعة الإنسانية ومرتسمة فيها بالفطرة كان تهويده وتنصيره مستحيلاً ، ولتعارض ذلك من جهة أخرى مع قوله تعالى «فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» والله نفى إمكان تبديل ما فطر عليه الإنسان ، كما أنه لا يمكن قبول التدين لو لم يكن في فطرته إستعداد فطري لذلك ، ولهذا لا يمكن جعل الحيوان متديناً ولو اتخذنا لذلك جميع الوسائل التربوية ، ثم إن فطرة التدين في الإنسان آتية إلى الإنسان أساساً من تكوينه الروحي إذ إن هذا العنصر الذي يتميز به الإنسان عن الحيوان يدفعه إلى التسامي على عالم الطبيعة المادية وإلى الإتصال بالعالم الروحي السامي ولهذا كان شأن الملائكة الذين خلقوا من عنصر روحي أنهم لا يعرفون السلوك المادي وإنما شأنهم التعبد والتقديس الدائم والعبادة المستمرة «وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم[٢]» وقد وضع الله هذا الجزء السامي في طبيعة الإنسان ليجذب الإنسان إليه وليكون عبداً له لا عبداً للطبيعة المادية ، ومن ناحية دلالته الأخلاقية فإن هذا العنصر الإلهي السامي الطاهر في الإنسان يجعل الإنسان ينزع إلى السمو على الدنايا ويشمئز من القذارة المادية الأخلاقية ، لأن هذه الروح الطاهرة لا تقبل أن تدنس ، ولهذا يضيق الناس من تلك القاذورات إذا انغمسوا فيها حتى الذين سقطوا في الرذائل الأخلاقية[٣] لظروف خارجية . كما يوحي بالمساواة الإنسانية من حيث القيمة والكرامة بين الناس . لأن مادة الخلقة واحدة بينهم جميعاً ، وليس الأمر كما تدعي بعض الفلسفات كالبراهمة والبوذية من أن بعض الناس خلقوا من عنصر أسمى والبعض الآخر خلقوا من عنصر أدنى ومن ثم يؤدي الأمر إلى التفرقة الاجتماعية والطبقية فيها . ففلسفة

---

(١) سورة الروم ٣٠ .

(٢) سورة الزمر ٧٥ .

(٣) أنظر في ذلك كتاباً لي بعنوان طريق السعادة ص ٢٩ .

البراهمة مثلاً ترى أن يأخذ البرهميون أشرف الوظائف وأعلاها لأنهم خلقوا من فم الإله براهما . وأن يأخذ الكشتريون وظائف أقل من الوظيفة السابقة وهي وظائف رعاية المواشي وفلاحة الأرض لأنهم خلقوا من فخذ الإله . وأما المنبوذون فلهم أدنى الوظائف وهي أن يكونوا خدماً للطبقات السابقة ، وهم فوق ذلك رجس ونجس فلا يصح لمسهم ولا مؤاكلتهم ولا مصاهرتهم . وفي بعض مناطق من الهند يعتبر بعض الأهالي مجرد لمس المنبوذ دنساً ، وفي بعض المناطق يعد الشخص قد لحقه الرجس إذا مر المنبوذ من قربه ، وما ذلك إلا لأنهم خلقوا في اعتقادهم من قدم الإله براهما لأن القدم أحط مكان من الجسم[1] أما الإسلام فلا يرى إطلاقاً أن هناك جنساً من البشر أو فرداً من الأفراد أشرف من غيره وأقدس منه من حيث خلقته الأصلية ، لأنهم كلهم من خلقة واحدة ومن أصل واحد ومن عنصر واحد ، ولهذا نفى الإسلام التمييز العنصري على أساس الجنس واللون ، ونفى الألوهية البشرية ونهى عن تأليه أي إنسان ولو كان نبياً ، وعلى هذا الأساس أيضاً جعل المسيح بشراً وعبداً كباقي عباد الله فقال تعالى «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ، لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون[2]» وعلى هذا الأساس أيضاً أبطل الإسلام دعوى الذين ينادون بأنهم شعب الله المختار وأنهم أفضل من غيرهم على أساس الخلقة الأولية فقال تعالى «وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم الله بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق[3]» . وأخيراً على هذا الأساس أمر الله رسوله بأن يعلن للناس أنه كذلك واحد من البشر لا يتميز على الآخرين بشيء من أصل الخلقة وأنه عبد الله كغيره «قل إنما أنا بشر مثلكم

---

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام د .علي عبد الواحد وافي ص١٧٣ .
(٢) سورة المائدة ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ . (٣) سورة المائدة ١٨ .

يوحي إلى أنما الهكم إله واحد[1]» . «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون[2]» .

أما الدافع الثاني الناتج من التكوين الروحي أو السيكولوجي فهو دافع المعرفة أو الاستطلاع على حذ تعبير وليم مكدوجل[3] « . .فإن المعرفة غذاء العقل ، والعقل غريزة في طبيعة الإنسان وكل غريزة تدفع الإنسان إلى إشباع حاجتها ، ولهذا عد علماء النفس المعرفة من الحاجات الأساسية للطبيعة الإنسانية[4]» .

ولا أريد أن أتكلم هنا عن طبيعة العقل والقوة الإدراكية في الطبيعة الإنسانية بصورة مفصلة ومطولة ، حيث إنني قد درست دلك بإطناب في بحث آخر[5] حيث تكلمت عن رأي الفلاسفة وعلماء النفس والتربية وعن رأي الإسلام أيضاً في توجيه الإسلام القوة العقلية في استخدامها لتمييز الحق من الباطل والخير من الشر في هذه الحياة لأنها خلقت لذلك ، ثم إن ذلك التوجيه له علاقة بالتربية الأخلاقية لأن هذه التربية تقتضي تكوين وعي يستطيع المرء به التمييز بين سلوك الخير وسلوك الشر . وكلما وجهت القوة الإدراكية العاقلة نحو السلوك الأخلاقي في تقويم هذا السلوك من النواحي المختلفة ، والقوة الإدراكية نوع من الدوافع نحو الالتزام بالسلوك الأخلاقي ، ولهذا بين الله تعالى أن سبب الانحراف والضلال هو عدم العمل بمقتضى العقل «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير[6]» ،«ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون»[7] «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها

---

(١) سورة الكهف ١١٠ .

(٢) سورة آل عمران ٧٩ .

(٣) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ٢٤ .

(٤) الإنسان معجزة الخلق ص ٩٣ .

(٥) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ص ١٦٧ وما بعدها .

(٦) سورة الملك ١٠ .

(٧) سورة الأنفال ٢٢ .

ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون[1]» ولا يكفي مجرد توجيه القوة عن طريق التربية العقلية التي تتضمن وقاية العقل مما يضره أولاً ، ثم تنميته بالتعليم ، وأخيراً ببيان طرق التفكير السديد . يقول الدكتور فؤاد البهي السيد في هذا الصدد : «يخضع الذكاء في اطراد نموه لسرعة النمو العقلي المعرفي لاعتماده على نمو العمليات العقلية المختلفة[2]» .

ثم إن هناك علاقة بين نمو قدرة التفكير والتأمل وبين النمو الخلقي عند الفرد إذ إن المربين يعدون نمو قدرة التفكير والتأمل عاملاً من عوامل التربية الأخلاقية والنمو الخلقي عند الفرد . فمن هؤلاء مثلاً أشلي مونتاجيو[3] ، وهافيهجرست R. j. havighurst وتابا[4] H. taba ويقول أحد المتخصصين في هذا الميدان «يتأثر النمو الخلقي بتفكير الفرد وتأملاته وبصيرته القوية التي تهدف إلى تحليل المواقف المختلفة ورسم خطوطها الأساسية للوصول بها إلى المثل العليا الصحيحة التي تساير أهداف الفرد والجماعة والنوع الإنساني كله ومعارج الفضيلة السامية ومدارج العدالة العليا[5]» ، ولهذا دعا الله تعالى إلى التفكير في المبادئ الأخلاقية ليعرف مدى ما في الفضائل من نفع وما في الرذائل من ضرر وشر ، فقال تعالى مثلاً عن القمار وشرب الخمر «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون[6]» ، ولهذا كله يجب على المربي توجيه عقول المتربين وتفكيرهم إلى النواحي الأخلاقية .

وأما فيما يتعلق بالدافع الثالث من هذا النوع وهو الأخلاقي الفطري أو الحاسة

---

(١) سورة الأعراف ١٧٩ .
(٢) الأسس النفسية للنمو . ص ١٩٣ .
(٣) كيف نساعد الأطفال على تنمية قيمهم الخلقية أشلي مونتاجيو ص ٥٣ .
(٤) الأسس النفسية للنمو ص ٣٣٧ .
(٥) الدكتور فؤاد البهي السيد في كتابه الأسس النفسية للنمو . ص ٣٣٨ .
(٦) سورة البقرة ٢١٩ .

الأخلاقية فإنها كالحواس الأخرى المغروسة في الطبيعة البشرية ، يستحسن الإنسان بواسطتها بعض الأفعال ويستقبح بعضها الآخر ، وهذه الحاسة باطنية تقوم بوظيفتها من تلقاء نفسها دون أن تفتقر إلى التدريب والرياضة .

ووظيفة هذه الحاسة هي إدراك خيرية الأفعال وشريتها ، وهي قوة إدراكية باطنية يمتاز بها الإنسان عن الحيوان ، إذ ليس عند الحيوان الإحساس بجمال السلوك وقبحه وإدراك ما فيه من خير أو شر يترتبان على فعل قبل فعله ، ومن ثم ليس عنده إحساس وجداني أو ألم نتيجة الفضيلة أو الخطيئة ، كما هو موجود عند الإنسان ، وليس عنده إحساس بالشرف كما هو موجود عند الإنسان . هذا إلى أن القوة الأخلاقية المميزة تقوم بوظيفة أخرى إضافة إلى التمييز وهي النزوع إلى فعل الخير وترك الشر وهي تختلف من إنسان إلى آخر قوة وضعفاً بحكم الوراثة والتربية والبيئة التربوية ، إذ كما يتفاوت الناس في القدرات والحواس الأخرى يتفاوتون في هذه الحاسة أيضاً ، يقرر هذه الحقيقة كثير من المفكرين وعلماء النفس منهم وليم مكدوجل الذي يقول «وفي نفوسنا نزعة تدفعنا إلى أن ننبذ كل ما هو كريه ممقوت وننفر منه في اشمئزاز وتقزز[١]» .

كما يقرر ذلك أنصار مذهب الحاسة الأخلاقية في التفكير الأخلاقي مثل فرنسيس هاتشون الذي يثبت في الطبيعة الإنسانية حاستين : حاسة الخير وحاسة الجمال[٢] . ولذلك يقرر أن الإنسان ينشد الخير وينفر من الشر لأن النفس الإنسانية بفطرتها تهفو إلى الجمال وتنفر من القبح[٣] . وممن يؤيد هذه الفكرة أنصار مذهب الحدسيين في الأخلاق ويعبرون عن الحاسة الأخلاقية بالضمير الأخلاقي ومنهم جون روسكين John ruskin[٤] ومنهم أيضاً فولتير الذي يقول «وما هذا القانون الطبيعي إلا القانون الأخلاقي الذي أودع الله في غريزة جبلتنا محبته والتقيد به

(١) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ٢٥ .
(٢) المذاهب الأخلاقية ج٢ ص ٣٩٦ .
(٣) الفلسفية الخلقية ص ٣١١ ـ ٣١٢ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

والحفاظ عليه[1]» ومنهم جان جاك روسو الذي يقول «ان في قرارة النفوس مبدأ فطري للعدل والفضيلة نقيس إليه أفعالنا وأفعال سوانا من الناس ونحكم عليها بالخير أو السوء . وهذا المبدأ هو الذي أسميه الضمير[2]» ، ويعقد روسو علاقة بين المعرفة العقلية والضمير الخلقي فيقول «إن معرفة الخير ليس معناه بالضرورة محبة الخير ومعرفة الخير ليست فطرية في الإنسان ولكن بمجرد أن يعرف عقله الخير يجنح به ضميره إلى محبة ذلك الخير وهذا الشعور هو الفطري فيه[3]» . كما يقرر ذلك آدم سميث الذي يقول : «الضمير هو العقل ، بل هو ذلك العنصر الإلهي الذي نحمله في ذواتنا وهو الحكم الأعلى على آرائنا والموجه الأسمى لأفعالنا[4]» .

واذا بحثنا عن رأي الاسلام في جذور الحاسة الاخلاقية في الطبيعة البشرية وجدنا نصوصاً تقرر بصورة واضحة وجود اساس أخلاقي في هذه الطبيعة . ومن المنطقي أن يوجد مثل هذه الحاسة .ذلك ان الله خلق في طبيعة الانسان حواساً تهديه الى كل ما يحتاج إليه في هذه الحياة ،فقد وضع فيه حاسة الجنس ليتناسل ، ووضع فيه حاسة الجوع ليبحث عن الطعام ويتغذى ، ووضع فيه حاسة البصر ليرى الحقائق ، وحاسة السمع ليسمع ، وحاسة العقل ليميز بين الحق والباطل ، وحاسة الاخلاق ليميز بين الخيروالشر في السلوك وفي العلاقات الاجتماعية الانسانية ، لانه بحاجة لأن يعيش في هذه الحياة إلى أن يعرف فيها ما هو خير له وما هو شر له ، وإلا لن تكون له حياة ناجحة . وهذه الغرائز المغروسة في الطبيعة الإنسانية بمثابة مرشدات ترشد الانسان في كل مجال من مجالات الحياة وفي كل ناحية من نواحيها ،وليس هذا في الإنسان فحسب بل كل مخلوق حي وضعت فيه غرائز بقدر ما قدر له من ضرورات الحياة ليعرف كيف يستطيعْ أن يحياها وصدق الله العظيم إذ قال :«سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر

(١) المذاهب الأخلاقية ج٢ص ٤١٢ .
(٢) أميل ص ٢١٣ .
(٣) أميل ص ٢١٥ .
(٤) المذاهب الأخلاقية ج٢ ص ٤٦٣ .

فهدى[1]» ،«الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى[2]» وهذا ما فعله فيما يختص بالحاسة الأخلاقية في الإنسان فوضع هذه الحاسة ليميز بين الطريق المستقيم الخير والطريق المعوج الشر ، فتستقيم الحياة بالاولى ويسعد به الإنسان ، وتشقى بالثاني .وصدق الله العظيم إذ قال في هذا الصدد«ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين[3]» . وقال ايضاً«ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها[4]» يقول الإمام الفخر الرازي هنا «إن إلهام الفجور والتقوى إفهامهما وإعقالهما وأن أحدهما حسن والاخر قبيح وتمكينه من اختيار ما شاء منهما وهو كقوله :« وهديناه النجدين[5]» . وهذا ما يقرره أيضاً الإمام القرطبي ناقلاً تقريره هذا عن الأئمة مثل ابن عباس ومجاهد وابن أبي نجيح والفراء فقال :«فألهمها فجورها وتقواها» أي عرفها ،كذا روى ابن عباس وعن ابن نجيح عن مجاهد أي عرفها ، طريق الفجور والتقوى . وقال ابن عباس عن مجاهد أيضا عرفها الطاعة والمعصية . . . وقال الفراء فألهمها :عرفها طريق الخير وطريق الشر كما قال وهديناه النجدين[6]» . وقال الفخر الرازي أيضا في تفسير قوله تعالى« وهديناه النجدين» :«النجد الطريق في المرتفع ، فكأنه لما وضحت الدلائل جعلت كالطريق المرتفعة العالية بسبب أنها واضحة للعقول كوضوح الطريق العالي للإبصار ،والى هذا التفسير ذهب عامة المفسرين في النجدين وهو انهما سبيل الخير والشر وعن ابي هريرة أنه عليه السلام قال(انما هما نجدان نجد الخير ونجد الشر) .وهذه الآية مثل قوله تعالى :«هل أتى على الانسان حين من الدهر» الى قوله تعالى«فجعلناه سميعاً بصيراً إنّا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً[7]» .وقال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى :« انا

---

(١) سورة الأعلى ١ـ٣ .

(٢) سورة طه ٥٠ .

(٣) سورة البلد ٨ ـ ١٠ .

(٤) سورة الشمس ٧ـ٨ .

(٥) تفسير الفخر الرازي ج٣١ ص١٩٢ .

(٦) الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠ ص ١٧٥ .

(٧) تفسير الرازي ج٣١ ص ٨٣ .

هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً[١]» أي بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر ،وقبل منافعه ومضاره التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله «إما شاكراً وإما كفوراً» أيهما فعل فقد بينا له[٢]» ويزيد ذلك وضوحاً قول الرسول عن وجود حاسة أخلاقية في طبيعة الانسان تهديه :«استفت قلبك واستفت نفسك ،البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في نفسك وتردد في الصدور وإن أفتاك الناس وأفتوك[٣]» وقال في رواية أخرى :« البر ما انشرح له صدرك والإثم ما حاك في صدرك وإن أفتاك الناس[٤]» .وقال أيضاً«الخير عادة والشر لجاجة[٥]» أي إن الخير عادة النفس المنزوعة إليه والشر تصنّع ولجاجة في النفس لأنها خروج على طبيعتها الأصلية ، . وأخيراً قال الرسول«البر حسن الخلق والاثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس[٦]» .

من هذا كله يحق لنا أن نقرر أن الإسلام يؤكد وجود الحاسة الأخلاقية في الطبيعة الإنسانية كالحواس والنزعات الفطرية الأخرى ،كما يقرر ذلك اليوم كثير من الفلاسفة وعلماء النفس والتربية كما بينا ذلك .

والآن قبل أن ننتقل إلى النوع الثالث والأخير وهو الدوافع الإنسانية أحب أن اشير إلى قيمة النظرة الاسلامية في ذلك التقسيم والتصنيف .ويمكن ان نبين تلك القيم في نقطتين :

إحداهما في ميدان التربية ، إذ إن معرفة المربي منشأ الدوافع الإنسانية تساعده على التوجيه التربوي وإنقاذ المتربي من كثير من الصراعات التي تحدث نتيجة اصطراع تلك الدوافع ،كما أن كشف تلك الحقائق للمتربي يساعده على التحكم

(١) سورة الإنسان ٣ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ج٢٠ ص ١٢٢ .
(٣) مسند الإمام أحمد ج٤ ص٢٢٨ .
(٤) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٢٧ .
(٥) الجامع الصغير ج٢ ص ١٣ .
(٦) صحيح مسلم كتاب البر ج٤ ص ١٩٨٠ .

في ذاته لأن الإنسان لا يستطيع أن يتحكم في توجيه نفسه وإرادته إلا عن طريق تحكمه في تلك الدوافع والميول بعد معرفته لها معرفة كاملة .

والثانية تظهر في ميدان العلاج النفسي إذ قد تبين أخيراً في ميدان الطب النفسي أن أي مرض نفسي إما أن يرجع إلى أسباب بيولوجية وإما ان يرجع إلى أسباب نفسية روحية ، والعلاج لا يكون أساسياً إلاّ إذا تم عن طريق إزالة أسبابها الحقيقية ،فمثلاً مرض الاكتئاب إذا كان سببه بيولوجيا يعالج بعقاقير معينة وإذا كان سببه نفسياً يكون علاجه الأساسي نفسيا[1] . أي بإزالة الأسباب النفسية المرضية ،ولهذا بدأ في امريكا اتجاه جديد نحو الاهتمام بالدراسات النفسية كالدراسات البيولجية في ميدان الطب كما أن الفساد الخلقي سبب لبعض الأمراض النفسية .

والآن لننتقل إلى دراسة النوع الثالث من النزعات او الصفات الإنسانية الناشئة عن امتزاج العنصرين المادي والروحي معا .وهذا بدوره نقسمه إلى ثلاثة أقسام : الاول الصفات الإنسانية الشيطانية ، والثاني الصفات الملائكية والثالث الصفات الإنسانية الخاصة التي يتميز بها الإنسان عن باقي الكائنات الحية الاخرى .

أما الصفات التي هي الشيطانية فقد تنشأ عن إيحاءات الشيطان إلى الإنسان وسوف اتكلم عن هذا عند الكلام عن مصادر الشر الخارجي لأنني أخصص كلامي هنا للصفات الكامنة في داخل الطبيعة الإنسانية ،كما قد تنشأ عن تسلط الدوافع الحسية على قوى الإنسان مثل القوى العقلية واتخاذها وسيلة لتحقيق أغراضها الذاتية ،عندئذ تصبح قوة الإدراك والتمييز وسيلة لجلب الخيرات وذلك بالأساليب الماكرة الخادعة وبأنواع الحيل الشيطانية الدقيقة التي لا يمكن أن يستخدمها الحيوان الخالي من تلك المواهب العقلية ،ولهذا فمتى نكل الإنسان بعدوه استطاع أن ينكل به أشد من الوحوش ، وإذا أراد الإفساد واستخدم لذلك القوة العلمية والفكرية يستطيع إفساد المجتمع بكامله ،وصدق الله العظيم إذ قال : «وإذا تولى سعى في

---

(١) العلاج النفسي . حامد عمار . سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ص ١٣٩ .

الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل» «وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد[1]» وإذا أراد أن يستخدم قدرته على رفع شأنه والتعالي على الناس يتكبر ويتجبر ، وخاصة إذا كان في يده سلطات يصبح عندئذ كالإله العزيز الجبار المتكبر فيستعبد الناس بفرض سيطرته عليهم ويذيق من يعصيه أشد ألوان العذاب كما فعل فرعون«وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري[2]» ولهذا قال تعالى «إنّ فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين[3]» .

وإذا اتخذ الإنسان الوسائل والطرق الشيطانية الخبيثة لقضاء أغراضه الدنيئة يصبح عندئذ كالشيطان الرجيم ،لانه يقوم بما يقوم به الشيطان من الإفساد ،ولهذا سمى الله الذين يتخذون خطوات الشيطان بشياطين الإنس مقابل شياطين الجن فقال«شياطين الإنس والجن[4]» ونهى عن اتخاذ خطوات الشيطان فقال«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان[5]» وبين الرسول أن التفكير الشيطاني إنما يستولي على الإنسان ويستحوذ عليه إذا طغت عليه دوافع الشهوات ومن ثم تغرى الشهوات باتخاذ خطوات الشيطان ولهذا نهى عن أمور يمكن أن تكون الدوافع الشهوانية تقوى بها ثم تستولي على عقل الإنسان وإرادته فقال مثلا«لا تلجوا على المغيبات(اللاتي غاب أزواجهن) فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[6]» ،ولهذا قال أيضاً :«إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ،فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق[7]» .

أما الصفات الملائكية فتنشأ إذا تسلطت على الإنسان الدوافع الروحية السامية :

---

(١) سورة البقرة ٢٠٥ .

(٢) سورة القصص ٣٨ .

(٣) سورة القصص ٤ .

(٤) سورة الأنعام ١١٢ .

(٥) سورة البقرة ٢٠٨ .

(٦) سنن الترمذي ج٢ ص ٣١٩ .

(٧) سنن الترمذي ج٤ ص ٢٨٨ .

واستخدمت في تحقيق أهدافها الدوافع البيولوجية المادية للسمو الروحي والاستعلاء على ماديات الحياة ووقائعها الحسية ،مثل استعلاء دافع التقديس والتعبد لله على دافع التمتع بملذات الدنيا ،فإنه عندئذ لا يهمه المال ولا الجاه ولا الراحة ، وإنما يهمه التقرب إلى الله بالعبادات المستمرة والتضحية بكل نفيس لعمل الخيرات ، وسمى الله الذين يتبعون هذه الخطوات الملائكية بعباد الرحمن ، لأنهم خرجوا من عبودية الشهوات واتباع خطوات الشيطان في قضاء شهواتهم ودخلوا في عبودية الرحمن واتخاذ طريق الملائكة في العبادة المستمرة والاتصال بالله دائما فقال تعالى«وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما .والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما[1]» . إلى آخر الآيات التي تصف كيف يتجنبون كل الرذائل الأخلاقية والطرق الشيطانية ،وكيف يعيشون حياة روحية ملائكية في هذه الأرض ،لانهم يتبعون لمة الملك التي ذكرها الرسول في الحديث السابق«إن للملك لمة بابن آدم وهي إيعاد بالخير وتصديق بالحق[2]» .

أما الصفات الإنسانية التي يتميز بها الإنسان عن غيره فهي كثيرة .

منها مثلاً كثرة الجدل والخصومة «وكان الإنسان أكثر شيء جدلا[3]» ،«خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين[4]» ومنها كثرة النكران للنعمة والإحسان «إن الإنسان لربه لكنود[5]» ،ومنها التضرع إلى الله عند الملمات والبطر والطغيان عند الرخاء والسلامة والاستغناء«وإذا مس الإنسان ضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائما[6]» ،«كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى[7]» وما إلى ذلك .

---

(١) سورة الفرقان ٦٣ ـ ٦٤ .
(٢) سنن الترمذي ج٤ ص ٢٨٨ .
(٣) سورة الكهف ٥٤ .
(٤) سورة النحل ٤ .
(٥) سورة العاديات ٣ .
(٦) سورة يونس ١٢ .
(٧) سورة العلق ٧ .

وقد علمنا من هذا كله أن الطبيعة الإنسانية طبيعة متعددة الخصائص والدوافع والميول والرغبات والغرائز ،منها ما يرجع إلى التكوين الروحي السيكولوجي ،أو إلى العلاقة بينهما ، أو الكيان الكلي للإنسان ،فهي أمشاج من هذا كله «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإما كفوراً[1]» .

فالنطفة التي خلق منها الإنسان تحمل في ذاتها تلك الميول والرغبات والعناصر المكونة للشخصية الإنسانية المتميزة التي توجد في الكروموزومات والجينات الموجودة في تلك الخلية ، إن الإنسان يوجد فيها بالقوة كما توجد الشجرة بالقوة في بذرتها الصغيرة ولست أعني من ذلك أن أفعال الإنسان كلها مرسومة في نفسة كما يدعي بعض الدارسين كما ذكرنا في أول هذا الفصل ،فإن أفعال الإنسان في نظري أكبرمن حجمه بكثير كما أن صفاته أكبر من مجموع صفات التكوينات الأساسية في طبيعته ،ولقد صدق فعلا فيليب فينكس عندما قال :«ففي الواقع لا يوجد شيء مثل الإنسان نفسه محير مثير . . .فالإنسان في الحقيقة قد صنع صنعاً عجيباً مخيفاً . ومهما تكن الاختلافات في التفكير في الطبيعة الإنسانية فان ثمة حقيقة واحدة واضحة ، إنه لا يوجدشيء أكثر اهمية (من هذه الطبيعة) فالإنسان يحتوي داخل نفسه على عالم من المتناقضات يدعو للبحث ويثير العمل ويبعث على الخيال ، فهو عظيم وحقير ،وسام ودنيء وحر ولكن في قيود ،لا حدود لها ، ولكن حسب الظروف[2]» .والهدف من خلق الإنسان على ذلك النحو كما تشير الآية السابقة هو الابتلاء ، إذ وضع الله أمام الإنسان سبيلين سبيل الخير وفيه استعداد كامل للسير فيه«وهديناه النجدين[3]» أي طريق الخير وطريق الشر كما بينا ثم أمر الإنسان باتباع طريق الخير واجتناب طريق الشر وهو عند اتباع هذا أو ذاك يعلم انه خير او شر«ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها[4]» .

وميزة الإنسان هنا على الحيوان أنه ليس محكوماً بفطرته البيولوجية بل إنه

(١) سورة الإنسان ٣ .
(٢) فلسفة التربية . فيليب . فينكس ص ٦٩٧ .
(٣) سورة البلد ١٠ .
(٤) سورة الشمس ٧ ـ ٨ .

يستطيع أن يتسامى على هذه الفطرة لدرجة أنه يستطيع أن يكف عن الاكل والشرب حتى الموت بالرغم من حاجته إليهما ووجودهما أمامه ،كما يحدث ذلك في حياتنا الواقعة ،وهو في الوقت نفسه ليس كالملائكة محكوماً عليه باتباع الخير ، لأن الطبيعة الروحية الصرفة التي لا تقبل إلا الخير ، بل الإنسان فيه قدرة واستعداد على أن يكون كالحيوان الشرس الضاري لا يسير إلا بناء على ما تدفعه إليه غرائزه المادية الحيوانية ،ويستطيع أن يكون كملك كريم لا يتبع إلا الخير ،وذلك إذا سار وفقاً لدوافعه الروحية والأخلاقية ، وسخر لذلك قواه الطبيعة المادية ، ثم بعد ذلك يستطيع أن يكون كالشيطان المارد يفسق ويفجر ويلحق الضرر بغيره ويسوقهم إلى المهالك والعصيان ويملأ الأرض ظلماً وطغياناً وفساداً إذا استخدم من أجل ذلك إمكانياته وقواه ، وأخيراً يستطيع محاكاة بعض صفات الله في عظمة وجبروته فيجعل الناس يعظمونه ويقدسونه ويعبدونه .

وعندما ننظر إلى تاريخ الإنسانية نجد أنماطاً من الناس من هذا النوع وذاك ، ولهذا يقرر ليبنتز وابن عربي أنّ الشر في سلوك الإنسان ناتج عن الحرية الموجودة فيه أو ناتج من سوء استخدام هذه الحرية[١] .

ولهذا أيضا جاءت الأخلاق الإسلامية منظمة لأفعال الإنسان وحريته .أو بتعبير أدق أنها جاءت منظمة لدوافع الإنسان وميوله وغرائزه المختلفة ،وذلك للتنسيق بين تلك الميول والدوافع الفطرية ولتوجيهها كلها حيث يجب أن تتجه إليها لتكوين شخصية إنسانية متكاملة متناسقة ومتماسكة تتجه إلى غاية واحدة وتسير في طريق واحد مستقيم دون التردد للتشتت والتصارع بين تلك الميول والرغبات :«فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير[٢]» . «وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون[٣]» .

---

(١) محي الدين بن عربي وليبنتز ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

(٢) سورة هود ١١٢ .

(٣) سورة الأنعام ١٢٦ .

لكن هل نستطيع أن نحكم على هذه الطبيعة الإنسانية بناء على تلك المعرفة لحقائق هذه الطبيعة بأنها مفطورة على الخير أو على الشر؟

ذلك هو الجانب المهم في هذا الموضوع لاتصاله المباشر بالأخلاق والتربية الأخلاقية ، ولهذه الأهمية نجد الفلاسفة والمربين قد اهتموا به أيضاً عند البحث عن منابع الشر ومصادره ووسائل علاجه ، وخاصة عندما وجدوا أن معظم الشرور التي يعاني منها البشر آتية من قبل البشر أو ناشئة من سلوك البشر ،ولهذا اهتم رجال التربية بهذا الموضوع لعلاجه من أساسه لأنه الدور المهم الذي يقع على التربية بصفة عامة وعلى التربية الأخلاقية بصفة خاصة ، ونتيجة لتلك الدراسات الطويلة العريضة في هذا الميدان خرجوا بعدة نتائج يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كلياً أو جزئياً ونتيجة لهذا وذاك ذهبوا مذاهب شتى .

وأحب أن أعرض وجهات النظر تلك قبل عرض وجهة نظر الإسلام لنستطيع تحديد موقع وجهة نظر الإسلام منها وقيمتها بالنسبة لها .ولإيجاز العرض فإنني أجملها في الاتجاهات الآتية :

الاتجاه الأول :يرى أن الطبيعة الإنسانية طبيعة خيرة في أصل الخلقة :

لكن ليس معنى ذلك أن الإنسان لا يفعل الشر وإنما معناه أن الشر خارج عن طبيعته فهو في الأساس خيّر يميل إلى الخير بصفة دائمة لكنه يفعل الشر عن خطأ أو عن جهل أو لتأثير البيئة عليه[1] .ومن أنصار هذا الاتجاه سقراط[2] إذ يرى في كل إنسان رغبة في الخير وأن الشر ناتج عن الجهل وسوء التقدير لأن الذي يعلم يقيناً أنه الشر لا يمكن أن يفعله ، ولهذا قال الشر غير إرادي في الإنسان[3] . لكنه يرى أن عدم إرادة الشر لا يكفي لعدم ارتكاب الشر فعلاً بل لابد مع ذلك من أن يوفر المرء لنفسه القوة مثل السلطة أو الصداقة مع الأخيار وما إلى ذلك[4] .

---

(١) فلسفة التربية ص ٨٥٨ . (٢) المشكلة الخلقية دكتور زكريا إبراهيم ص ٤٨ .

(٣) سقراط .الفرد إدوارد تيلر ص ١١٧ ـ ١٢١ .

(٤) محاورة جور جياس ص ١٢٩ .

ومنهم أيضا الرواقيون الذين يرون أن الناس يخلقون أخياراً ثم يصيرون أشراراً بمجالسة الأشرار والميل إلى الشهوات والانغماس فيها فهي تدفع الإنسان إلى النيل من كل ما تميل إليه نفسه من الشهوات دون تفكير فيما هو حسن وما هو قبيح[١] .

ووظيفة التربية وفقاً لهذا الاتجاه هي تنمية هذه الروح الخيرة الفطرية في الإنسان وإذا ما بدر من واحد عمل شر يجب حمله على أنه أخطأ في التعبير من غير قصد أو إرادة شر ، كما يجب إكساب المرء المعرفة اليقينية لحقيقة الفضائل إذ إن الفضيلة الحقيقية هي المعرفة الذاتية بالقيم الأخلاقية الحقيقية[٢] ، لأن هذه المعرفة هي التي سوف تحمل المرء على اتباع الفضيلة وتجنب الرذيلة كما يجب تجنيب الأطفال معاشرة الأشرار حتى لا تتسرب إليهم الرذيلة وأخيراً يقتضي الأمر قبول ميول الفرد مع ما فيه من نزعات ودوافع ثم الثقة به بأنه يسعى للخير ما دامت الظروف مواتية لذلك ثم تشجيع هذه الميول الخيرة وتنميتها[٣] .

الاتجاه الثاني :يرى أن الإنسان شرير في طبيعته الأساسية :

وليس ذلك بأي حال من الأحوال ناتج الظروف والتربية بل إن جذور الشر متأصلة في طبيعة الإنسان[٤] .ومن أنصار هذا الرأي افلوطين المصري ومن تبعه من اليسوعيين[٥] ، وهورأي هوبز أيضا[٦] .

ودور التربية هنا أن تكبح جماح الدوافع الطبيعية وأن تحل محلها الدوافع الخيرة وتكوين القدرة الإرادية للوقوف أمام جماح النفس وقهرها على عمل الخيرات وذلك بالوسائل التربوية المختلفة[٧] .

(١) تهذيب الأخلاق . ابن مسكوية ص ٣٢ ، العقيدة والأخلاق دكتور محمد بيصار ص١٩٢ .

(٢) سقراط ص ١٢١ .

(٣) فلسفة التربية . فيليب فينكس ص ٨٥٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٨٦٠ .

(٥) العقيدة والأخلاق ص ١٩٣ .

(٦) الفلسفة الخلقية . دكتور توفيق الطويل ص ١٨٠ .

(٧) فلسفة التربية ٦٨١ .

الاتجاه الثالث : يرى أن بعض الناس أخيار وبعضهم أشرار بالطبع وفيهم من هو متوسط بين الأمرين .ومن أنصار هذا الرأي جالينوس فقد نقد الاتجاه الأول بأن قال :«إن كان الناس أخيارا بالطبع وإنما ينتقلون إلى الشر بالتعليم فبالضرورة إما أن يكون تعلمهم الشرور من أنفسهم وإما من غيرهم فإن المعلمين الذين علموهم الشر أشرار بالطبع ، فليس الناس كلهم إذن أخيار بالطبع ، وإن كانوا تعلموه من انفسهم فاما أن يكون فيهم القوة يشتاقون بها إلى الشر فقط فهم إذن أشرار بالطبع ، وإما ان يكون فيهم مع هذه القوة التي تشتاق إلى الشر قوة أخرى تشتاق إلى الخير إلا ان القوة التي تشتاق إلى الشر غالبة قاهرة للتي تشتاق إلى الخير ، وعلى هذا يكونون أشراراً بالطبع» .

ونقد الاتجاه الثاني قائلاً : «إن كان كل الناس أخياراً بالطبع فإما أن يكونوا قد تعلموا الخير من غيرهم أو من أنفسهم ونعيد الكلام السابق[1]» فيكون المذهب باطلاً بما أبطل به الأول . ودور التربية وفقا لهذا الرأي هو نقل من كانوا متوسطين بين الخير والشر الى الخير بالوسائل التربوية المختلفة . ويرى جالينوس أن من كانوا أشراراً بالطبع لا يمكن أن ينتقلوا بالتربية إلى الاخيار[2] .

الاتجاه الرابع :يرى أن في طبيعة الإنسان جانباً خيراً وآخر شريراً :

من انصار هذا الاتجاه أفلاطون الذي يقول«الخير والشر هما ما هما بخاصتهما في النفس التي تحويهما[3]» وهو يرجع الخير إلى العنصر الروحي في الطبيعة الإنسانية كما يرجع الشر إلى طبيعة النفس الحيوانية الوحشية فيه[4] ، إذن فالمصدر الأساسي للشر هو النفس الإنسانية بما فيها من شهوات ونزوات ، وقد عبر عنهما في أسطورة العربة بالفرسين أحدهما خير طيع والآخرشرير جامح[5] .ويرى أن نجاح الإنسان في الحياة متوقف على خضوع النفس وميولها للروح الإلهية فيه[6] ، ولهذا

---

(١) تهذيب الأخلاق .ابن مسكويه ص ٣٢ ـ ٣٣ . (٢) المرجع السابق ص ٣٣ .
(٣) مقدمة علم الأخلاق لأرسطو ص ٣٣ . (٤) المرجع السابق ص ٣٣ .
(٥) دراسات في الفلسفة الإسلامية . دكتور محمود قاسم ص ٣١ ـ ٣٣ .
(٦) جمهورية أفلاطون ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

فإن على التربية أن تعمل لإخضاع النفس بما فيها من شهوات ونزوات وميول متعارضة لحكم الروح الطاهرة. وهذا ما ينصح به المربي بستالوزي فيقول «طريق الوصول إلى هذا الغرض أن نسير في منهاج ذلك التركيب الطبيعي فنجعل أساس التربية إخضاع العنصر الجسدي الفاني الروحي الخالد[1]. وهذا هو اتجاه المتصوفة بصفة عامة. نجد هذه الفكرة مثلاً عند ابن عربي[2]، وهو يبين سبب وجوب إخضاع الجسم للروح أو للنفس الإنسانية الالهية على حد تعبيره لأنها هي التي تستطيع السمو على العالم المادي الطبيعي وتتحكم فيه وذلك لتنخرط في عالم أخلاقي[3]. بينما يبين سبب وجوب ذلك ليبنتز بأن أرواح البشر هي أكثر الجواهر الروحية قابلية للكمال لتميزها عن أرواح الحيوانات[4]. ونجد هذا الاتجاه أيضاً عند ابن عطاء الله السكندري واذ يرى بدوره أن النفس الإنسانية هي مصدر الشرور الأخلاقية وأن القلب أو الروح هو مصدر أو منبع الخير[5]، وفي رأي هذا الاتجاه أن النفس والروح يتصارعان باستمرار فقد تغلب الروح على النفس فيصبح الإنسان خيراً وقد تتغلب النفس على الروح فيصبح الإنسان شريراً، وإن دور التربية الأساسي هز مساعدة المرء وتزويده بالوسائل التي تمكنه من تغليب روحه على نفسه[6]. وهذه مسؤولية تقع على التربية فعليها كما يقول رونيه أبير «أن تقود الانسان من طبيعته المعطاة إلى جوهره المثالي وأن تعينه على التخلص من الأولى وأيضاً على استخدامها وتكييفها[7]».

أما الاتجاه الخامس والاخير: فهو أن الطبيعة الإنسانية محايدة ليست خيرة ولا شريرة في ذاتها وفي أصلها الخلقي بل هي محايدة وفيها استعداد لأن تكون خيرة أو

(١) التربية الأخلاقية. أبادير حيكم ص ١٢٣.

(٢) محي الدين ابن عربي وليبنتز دكتور محمود قاسم ص ٢٧٠.

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٣.

(٤) المرجع السابق ص ٢٥٨.

(٥) ابن عطاء السكندري وتصوفه ـ الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازاني ص ١٥٨ ـ ١٦١.

(٦) الدراسات النفسية عند المسلمين. عبد الكريم عثمان مكتبة وهبة ص ٥٦.

(٧) التربية العامة. رونيه أوبير ص ٢٦٨.

شريرة على حسب التربية وظروف البيئة لكن لا يوجد شيء في الإنسان خير بالفطرة أو شر بالفطرة على الإطلاق[1] وقد تبنى هذا الاتجاه كثير من الفلاسفة ورجال التربية المحدثين من هؤلاء الفيلسوف الألماني كانط الذي يقول في هذا الصدد عن خلق الإنسان «خلق وفي نفسه الأميال البهيمية والأهواء المختلفة ولكنه لا يوصف إذ ذاك بالخير ولا بالشر[2]» . ومنهم برتراندرسل حيث يقول مثلاً «الواقع أن الأطفال ليسوا أخياراً ولا أشراراً بالفطرة فهم نتاج العادات بتأثير البيئة والوسط[3]» ، ومنهم كذلك المربي الاجتماعي دور كايم[4] . ومن الفلاسفة المسلمين المربين نجد الإمام الغزالي يتبنى هذا الاتجاه فيقول مثلاً «والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفسية ساذجة خالية من كل نقش وصورة فان عود الخير وعلمه نشأ عليه . .وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك[5]» ، ومنهم ابن سينا الذي يقول إن كل إنسان مفطور على قوة بها يفعل الأفعال الجميلة وتلك القوة بعينها تفعل الأفعال القبيحة[6] .

ودور التربية في رأي هذا الاتجاه كبير جداً لأنها تستطيع أن تصنع من هذه الطبيعة المحايدة طبيعة خيرة لأن هذه الطبيعة المحايدة طبيعة طيعة كما يسميها المربون المحدثون ومن ثم يمكن توجيه هذه الطبيعة بالوسائل والطرق التربوية نحو الخير والغايات الخيرة باستمرار[7] .

تلك هي وجهات نظر الفلاسفة والمربين بالإجمال والإيجاز الشديد فيما يتعلق بهذا الموضوع . ولننظر الآن إلى وجهة نظر الإسلام .

---

(١) فلسفة التربية فيليب هـ . فينكس ص ٨٦٣ .

(٢) كتاب التربية لكانط ص ٧٨ .

(٣) في التربية . برتراندرسل . لجنة التأليف والترجمة ص ٣٤ .

(٤) التربية الأخلاقية دور كايم ص ١٤٠ .

(٥) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٧٢ .

(٦) علم الأخلاق ابن سينا ص ١٩٧ .

(٧) فلسفة التربية . فيليب هـ . فينكس ص ٨٦٤ .

وإذا رجعنا إلى دراسة وجهة نظر الإسلام فإن الأمر كما اتضح من دراستنا السابقة أن كل ما في الطبيعة الإنسانية من غرائز ودوافع لا يمكن أن تعد في حد ذاتها شراً بل يمكن أن تعد خيراً بحكم ضرورتها لدوام الحياة الإنسانية وبحكم الغايات التي خلقت من أجل تحقيقها . فإذا نظرنا إلى أنها مجرد قوى وطاقات يمكن استخدامها في الخير وفي الشر معاً فإنها كالآلة لكن إذا علمنا أن صانع الآلة صنعها لتحقيق الخير فإننا نقول أنها آلة الخير وتأتي بالخير إذا استخدمت في الغاية التي صنعت من أجلها ، وكذلك هذه الطبيعة بما فيها من ميول ودوافع مختلفة خلقت من أجل الخير وتصبح خيرة إذا استخدمت في الخير ، والشر يأتي من سوء استخدامها في الغايات التي لم تخلق من أجلها أو يأتي الشر منها نتيجة الجهل بها وبعدم معرفة طريقة استخدامها للاهتمام الزائد ببعض الميول والدوافع أكثر من غيرها أو إهمال بعضها تماماً وتجاهلها . عندئذ تطغى بعض الدوافع على الأخرى وتتحكم في الطبيعة حسب هواها ، ولهذا يجب إعطاء كل دافع حقه بقدر ما قدر له من الحقوق دون الزيادة أو النقصان ، ولهذا أيضاً يدعو أفلاطون إلى أن يكون الإنسان عادلاً في معاملة غرائزه ودوافعه كعدالة الحاكم في أفراد مجتمعه . فيقول «إن العدالة لا تتناول مظاهر أداء الإنسان لعمله الخاص وإنما تتناول البواطن التي تخص الرجل نفسه ومصالحه الخارجية بحيث لا يسمح الرجل العادل لعناصره المتعددة أن تعمل عملاً غير عملها ولا للطبقات الميمزة في نفسه أن يتدخل بعضها في بعض ، ولكنه ينظم بيته حقاً وبالتحكم في نفسه ينظم خلقه[1]» .

وعلى هذا يجب على الإنسان أن يعد كل دوافعه أو ميوله الفطرية كمجتمع وأن يعرف لكل واحد حقه ووظيفته ، وأن يعرف ما يصلحه وما يفسده ، وبذلك يعامل كل واحد ويعطيه بقدر ما يحتاج إليه ويبعده عما يفسده ، ويوجهه إلى وظيفته ويجعل قوته العاقلة أو العاملة حاكمة على مجتمعه هذا . وكما أن عدم العدالة في المجتمع يؤدي إلى فساد الحياة الاجتماعية فكذلك عدم العدالة في مجتمع غرائزه

---

(١) جمهورية أفلاطون ص ٨١ .

يؤدي إلى فساد الحياة الباطنية ، وإذا فسدت الحياة الباطنية فسدت الحياة الظاهرة للإنسان فإنه يعيش في شر محيط به من كل جانب ثم يبحث عن مصدر الشر فيتوه فيه ويبحث عن المخرج ولا يجد مخرجاً . ولهذا فقد نصح الإسلام بإعطاء كل ذي حق حقه من هذه الدوافع أو الحاجات الإنسانية الأساسية ووضع تشريعاً لذلك ، فقال الرسول مثلاً في هذا الصدد وهو ينصح عبد الله ابن عمرو بن العاص عندما علم أنه انقطع للحياة الروحية تاركاً الحياة المادية على جانب ، فقال «يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل قلت نعم قال فلا تفعل صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقاً وإن لعينك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقا[1]» ، وقال «انك إذا فعلت ذلك هجعت له العين ونفهت له النفس[2]» ، وجاء في حديث آخر «إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فاعط كل ذي حق حقه[3]» ، كما دعا الإسلام إلى الاعتدال في كل الأعمال والتصرفات فقال الرسول «يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون[4]» حتى الاعتدال في العبادة فقال تعالى «فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا[5]» وكذلك الاعتدال في المأكل والمشرب «كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين[6]» ذلك أن كثيراً من الأمراض الجسمية والنفسية والعصبية والعقلية يصاب بها الإنسان نتيجة عدم الاعتدال في تلك الأمور كما يقرر الأطباء[7] .

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الصوم ج٥ ص١٢١ .

(٢) المرجع السابق كتاب الصوم باب ٥٩ رقم الحديث١٩٧٩ ج٤ ص٢٢٤ .

(٣) المرجع السابق ج٥ ص ١٢٨ .

(٤) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين ج١ ص٥٤٠ .

(٥) سورة التغابن ١٦ .

(٦) سورة الأعراف ٣١ .

(٧) وكمثال لذلك ارجع إلى المراجع الآتية :

(أ) المرشد الطبي الحديث . مجموعة من الدكاترة ص ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

(ب) أسس الصحة والحياة . دكتور عبد الرزاق الشهرستاني ص ٢٥٧ .

(جـ) تأملات في سلوك الإنسان . دكتور ألكسيس كارل ص ١٧٧ .

إذن فإن الشر لا يرجع إلى ذات الطبيعة وإنما يرجع إلى سوء استخدام هذه الطبيعة وهذا ما يقرره أيضاً فيلون الإسكندري إذ قال «ليس الإنسان في أصله وفطرته طيباً أو شريراً بل خلق والفضيلة فيه بالقوة ثم أصبح إما سيئاً أو شريراً بالسقوط في اللذة أو طيباً بمقاومتها عن طريق المجهود[١]» .

ولا ننسى هنا إغراء الشيطان بالسقوط في الرذيلة أو الشر كما ورد في حديث «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها[٢]» ، وفي رواية أخرى «كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن الحجاب[٣]» وغير ذلك من الأحاديث المتشابهة في اللفظ[٤] ، فإنه حتى على فرض صحة الحديث فإن للشيطان وإغراثه أمرين خارجيين عن الطبيعة الإنسانية ولهذا يقول الإمام القرطبي في معنى الحديث السابق «هذا إبتداء تسلط الشيطان على ابن آدم الا اذا حفظه الله منه»[٥] ثم ان مقابل لمس الشيطان أو لمته كما ورد في حديث آخر توجد لمة الملك فقال الرسول «إن للشيطان لمة ابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان[٦] ، ثم قرأ «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء[٧]» . وكل من الملك والشيطان يتخذ العناصر الطبيعية لمساعدته على تحقيق رغباته ، فالملك يتخذ العناصر الروحية أمرين خارجيين أساساً من الطبيعة الإنسانية ، ولهذا فإن الإسلام وضع وسائل لإنقاذ الإنسان من تصارع الميول الطبيعية الداخلية وسوء استخدامها لإنقاذ الإنسان من الشر الداخلي ووضع كذلك وسائل لإنقاذ الإنسان من تصارع الإغراءات الخارجية

---

(١) الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الإسكندري . تأليف أميل بريبه ص ٣٤٥ .
(٢) فتح الباري كتاب أحاديث الأنبياء ج٧ ص ٢٨٠ .
(٣) المرجع السابق كتاب بدء الخلق ـ باب صفة إبليس ج ٧ ص ١٥٠ .
(٤) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٩ .
(٥) المرجع السابق ج٧ ص ٢٨٠ .
(٦) سنن الترمذي كتاب : تفسير القرآن ج٤ ص ٢٨٨ .
(٧) سورة البقرة ـ ٢٦٨ .

لإنقاذ الإنسان من الشر الخارجي لأن هناك عدة مصادر تأتي منها الشرور ستتكلم عنها وعن آراء الفلاسفة والمربين حولها فيما بعد عند الكلام عن الوسائل التربوية .

أما دراستي هنا فهي خاصة بالطبيعة الإنسانية ومدى علاقتها بالشرور التي نراها في الحياة الإنسانية ، ثم مدى إمكان تغيير هذه الشرور وإبدالها بالخيرات عن طريق توجيه هذه الطبيعة بعد معرفتها أو تربية الإنسان تربية أخلاقية .

وقد علمنا الآن حقيقة هذه الطبيعة من حيث صلتها بالخير وبالشر في حد ذاتها ، ولنبحث الآن النقطة الأخيرة في هذا الموضوع وهي مدى قبول هذه الطبيعة التغيير والتربية بوجه عام والتربية الأخلاقية بوجه خاص لأننا لا نستطيع أن نقدم على التربية إلا إذا علمنا بالتحديد مدى إمكانية التربية لنستطيع استخدام كل هذه الإمكانات ، ولأهمية هذا الموضوع لا بد من التعرض لآراء فلاسفة التربية ومقارنة رأي الإسلام بها ، ثم نقرر الرأي النهائي ، ولنعرض أولاً بإجمال آراء هؤلاء الرجال ويمكن إجمال وجهات نظرهم في الاتجاهات الآتية :

أولاً : إن الطبيعة التي جبل الإنسان عليها لا يمكن تعديلها أو تبديلها وإن الفضيلة طبيعة لا تكتسب بالتعليم والتربية قال ذلك قديماً سقراط حيث يقول «إن الفضيلة لا يمكن تعلمها[(١)]» ولكن سقراط يتناقض مع نفسه عندما يقرر أن المعرفة يمكن تعلمها ، ولم يستطع سقراط أن ينقذ نفسه من هذا التناقض عندما وجه إليه بروتاجوراس هذا النقد في محاورته مع سقراط ثم إنني لم أجد نقطة ضعف في فلسفة سقراط كهذه ، ويبدو أن سقراط نفسه بدأ يشك فيما إذا كانت الفضيلة شيئاً يتعلم لكنه سلم في النهاية بضرورة وجود العلم من جهة والاستعدادات الطبيعية الغريزية من جهة أخرى وهي التي ينسبها إلى المعونة الإلهية[(٢)]» ويتكلم عن رأي سقراط قائلاً لعل ذلك كان رأيه النهائي ، «لأنه اتخذ علم المفاهيم الكلية دعامة للفضيلة لكنه كان يجعل تقدم هذا العلم خاضعاً لشرط إرادي وهو السيطرة على

---

(١) محاورة بروتاجوراس . محاورات أفلاطون . دار الكاتب العربي ص ٥٥ .

(٢) الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الإسكندري . أميل بربيه ص ٣٤٤ .

النفس[1]» . ويقول بارتلمي «إن أفلاطون وسقراط اللذين كان يظهر عليهما الاعتقاد بأن الفضيلة لا يمكن أن تتعلم فإنها إما هبة من الطبيعة وأما كسب شاق لا يكسبه الإنسان إلا بنفسه[2]» .

ومهما يكن من أمر فإنها وجهة نظر خاصة مبنية على أساس أن الطبيعة الإنسانية ثابتة لا تتغير[3] ، باعتبار أن الأخلاق طبيعة في الإنسان فإن الأخلاق أيضاً لا تتغير الأمر الذي يؤدي إلى إنكار التربية الأخلاقية[4] .

ثانياً : إن الأخلاق تقبل التغيير والتعديل في حدود استعداد الطبيعة الإنسانية ، وعلى ذلك فإن التربية الأخلاقية تمكن في حدود معينة .

ومن أنصار هذا الاتجاه أرسطو الذي يحدد بنفسه وجهة نظره في هذا الصدد ويقول : «لا توجد واحدة من الفضائل الأخلاقية حاصلة فينا بالطبع إن الأشياء بالطبع لا يمكن بفعل العادة أن تصير أغياراً ما هي كائنة ، مثال ذلك الحجر الذي هو بالطبع يهوي إلى أسفل لا يمكن أن يأخذ عادة الصعود ولو حاول المرء تصعيده مليون مرة كما طبع على هذه العادة . والنار كذلك لا يمكن أن تتجه إلى أسفل ، ولا يوجد جسم واحد يمكنه أن يفقد خاصته التي تلقاها من الطبيعة ليتخذ عادة مخالفة ، حينئذ والفضائل ليست فينا بفعل الطبع وحده وليست كذلك ضد إرادة الطبع ولكن الطبع قد جعلنا قابلين لها ، وإن العادة لتنميها وتتمها فينا ، وفوق ذلك بالنسبة للخواص التي هي ملكنا بالطبع فإننا ليس لنا بادئ الأمر إلا مجرد القدرة على استخدامها[5]» .

ومن أنصار هذا الاتجاه ابن مسكويه إذ يحدد موقفه في هذا الصدد قائلاً : «فقال بعضهم من كان له خلق طبيعي لم ينتقل عنه ، وقال آخرون ليس شيء من الأخلاق

(١) المرجع السابق ص ٣٤٤ .

(٢) مقدمة علم الأخلاق لأرسطو ص ١٤٣ .

(٣) مقدمة في فلسفة التربية . دكتور محمد لبيب النجيحي ص ٢٥٢ .

(٤) تهذيب الأخلاق . ابن مسكويه ص ٣١ .

(٥) علم الأخلاق لأرسطو ج ١ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

طبيعياً للإنسان ، ولا نقول إنه غير طبيعي ، وذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق بل ننتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعاً وإما بطيئاً وهذا الرأي الأخير هو الذي نختاره[1]» .

ومن أنصار هذا الاتجاه أيضاً ابن سينا حيث يقول «ويمكن للإنسان متى لم يكن له خلق حاصل لنفسه ومتى صادفت أيضاً نفسه على خلق حاصل جاز أن ينتقل بإرادته عن ذلك ضد ذلك الخلق[2]» .

وأخيراً من هؤلاء الإمام الغزالي الذي يحدد رأيه ناقداً بشدة الرأي المعارض فيقول «اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير . . . لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال الرسول «حسنوا أخلاقكم» ، وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الإنس ، والكلب من شره الأكل إلى التأديب والإمساك والتخلية ، والفرس من الجماح إلى السلاسة ، والانقياد ، وكل ذلك تغيير للخلق[3]» .

وأنصار هذا الإتجاه كثيرون حتى تبناه كثير ممن يذهبون إلى القول بفطرية أصل الأخلاق في الطبيعة الإنسانية ومنهم الرواقيون الذين يرون أن الناس خلقوا أخياراً بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشراراً بمجالسة أهل الشر والميل إلى الشهوات الرديئة[4] .

وبناء على ذلك فإن هناك من يرى أن أصل الإنسان متوحش وأنه مطبوع على

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكوية ص ٣١ .

(٢) علم الأخلاق لابن سينا . مطبوع ضمن مجموعة ص ١٩٧ .

(٣) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٥٥ .

(٤) تهذيب الأخلاق ص ٣٢ .

سوء الخلق ويمكن تغييره بالتربية منهم سبنسر إذ يقول مثلاً «إن ما ينسب إلى الأطفال من البراءة أمر صحيح إذا قصدت إلى براءتهم من العلم بفنون الشر لكنه خطأ إذا قصدت إلى براءتهم من غرائز السوء ، وأصدق شاهد على ذلك أن الأطفال إذا تركوا في إحدى المدارس بلا مراقب كانوا أقسى على بعضهم من الكبار وكلما صغرت سنهم زادت قسوتهم[1]» ، ولهذا يقول «لا ترج لدى الطفل حظاً وافراً من البر وكرم الطباع فإن الناس مهما بلغوا من التمدن فإنهم نسل أمم متوحشة ثم لا بد من أن يشبه ابن آدم في أصغر سنه أسلافه المتوحشين فتنم طباعه عن أخلاقهم[2]» .

ثالثاً : إنّ هناك من الناس من يمكن تغيير أخلاقهم ومنهم من لا يمكن تغيير أخلاقهم . ومن أنصار هذا الاتجاه جالينوس فقد قسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم شرير بالطبع وهم كثيرون ولا ينتقلون إلى الخير ، وقسم خير بالطبع وهم قليلون ولا ينتقلون إلى الشر ، وقسم ثالث متوسط بين هذين وهؤلاء قد ينتقلون بمصاحبة الأخيار ومواعظهم إلى الخير وقد ينتقلون بمصاحبة أهل الشر وإغرائهم إلى الشر[3] .

رابعاً : إن التربية الأخلاقية لا تمكن إلا بالرياضة الذاتية الصوفية أو أن المجهود الزهدي هو الطريق الوحيد للفضيلة كما يقول المذهب الكلبي وكما يعتقد هذا المذهب فإن الطبيعة لا تستطيع أن تعد مقدماً للفضيلة[4] .

خامسا وأخيراً : إن الطبيعة الإنسانية قابلة للتغيير والتعديل والتشكيل حسبما يريده المربي والمجتمع ومن ثم يمكن تشكيل الطفل أخلاقياً بالتربية دون أن يكون هناك أي مانع وهذه وجهة نظر التربية الحديثة[5] . يعبر بعض الدراسين عن رأي هذا الاتجاه الحديث ويقول «فالطفل في نظر التربية الحديثة ليس مزوداً بقدرات فطرية تعلن عن نفسها في الوقت المناسب وليس جهازاً ميكانيكياً يستجيب لمثيرات البيئة

---

(١) في التربية . سبنسر ص ١١٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٠ .

(٣) تهذيب الأخلاق ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٤) الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الإسكندري ص ٣٤٤ .

(٥) مقدمة في فلسفة التربية . دكتور محمد لبيب النجيحي ص ٢٥١ .

كما تستجيب الآلة عند ما تدار ، وهو ليس روحاً تسيطر على نواحي الجسم المختلفة وليس مادة تفسر على أساسها العمليات التعليمية المختلفة ولكنه كل متكامل متفاعل مؤثر متأثر بجميع أجزائه ومفهوم علم النفس الحديث مفهوم ميول مرنة متداخلة يمكن أن تتغير وأن توجه في مسالك جديدة[1]» .

تلك هي وجهة نظر الفلاسفة والمربين في حقيقة الطبيعة الإنسانية من حيث مدى قبولها التغير والتربية بصفة عامة والتربية الأخلاقية بصفة خاصة .

ولندرس الآن وجهة نظر الإسلام لنعرف موقف الإسلام من هذه المشكلة التربوية بالتحديد ، ثم نقرر مدى إمكانية التربية الأخلاقية لاستغلال هذه الإمكانية في ميدان هذه التربية عن طريق تحديد الطرق والوسائل وليكون تحديد الوسائل للتربية الأخلاقية في ضوء هذه المعرفة فيما بعد عند تحديدها ، ثم لنستطيع تقويم وجهة نظر الإسلام التربوية في ضوء الدراسات لفلسفة التربية الحديثة .

وإذا بحثنا الآن عن هذا الموضوع في الإسلام لاستخلاص فكرة في هذا الصدد وجدنا نصوصاً قليلة وغير قطعية تنفي التربية ونصوصاً أخرى كثيرة وقطعية تثبت إمكان التربية ، ومن أمثلة النصوص الأولى ما رواه الإمام أحمد عن أبي الدرداء بسند مرفوع «إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا وإذا سمعتم برجل زال عن أخلاقه فلا تصدقوا فإنه يصير إلى ما جبل عليه[2]» ويقول الإمام الحافظ السخاوي صاحب المقاصد الحسنة في الحديث إن هذا الحديث منقطع لأنه رواه الزهري عن أبي الدرداء والزهري لم يدرك أبا الدرداء[3] ، ومن تلك النصوص أيضاً ما جاء في الأمثال للعسكري عن أبي هريرة مرفوعاً «ان تغير الخلق كتغير الخلق إنك لا تستطيع أن تغير خلقه[4]» ، ومنها ما روي أيضاً «جف (وفي رواية جرى) القلم بالشقي والسعيد وفرغ من أربع : من الخلق والخلق والأجل والرزق[5]» ومنها ما

(١) المرجع السابق ص ٢٥٥ .

(٢) الجامع الصغير ج ١ص٢٩ منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمدج ١ص٢٥٨ .

(٣) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ص ١٣١ .

(٤) المرجع السابق ص ١٣١ . (٥) المرجع السابق ص ١٧٣ .

روى عن عمر بن الخطاب أنه قال «الشجاعة والجبن غرائز يضعها الله حيث يشاء[1]» .

غير أن هذه النصوص لا تساوي بأي حال من الأحوال النصوص التي تؤيد إمكان التربية لا في صحتها ولا في منطقها ولا في كثرتها . وقد قال علماء أصول الفقه إنه إذا تعارضت النصوص يرجح القطعي منها على الظني[2] . ومن هذه النصوص التي تؤيد إمكان التربية قول الرسول المشهور الذي سبق ذكره عند بيان فطرية التدين والذي رواه البخاري ومسلم وهو «ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه[3]» . .

إذن فإن الفطرة بالمعنى السابق الذي ذكرناه تقبل التوجيه وتعديل الاتجاه وقبل ذلك كنا قد بينا عندما تكلمنا عن الأسس العلمية للتربية أنه كما أن الحواس وأجهزة الجسم يمكن أن يصيبها التلف بسبب إصاباتها بالأمراض كذلك فإن الحاسة الأخلاقية وهي الوجدان في اصطلاح الأخلاقيين والقلب في اصطلاح الإسلام يمكن أن تشوه بالأمراض الأخلاقية وتفسد تماماً ومن ثم تفقد وظيفتها إذا عمها الفساد الأخلاقي ، ومن تلك النصوص أيضاً ما رواه مسلم «اني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما حللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا[4]» ،ومنها قوله تعالى «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها»[5] اذن فان للانسان قدرة على تزكية نفسه وتهذيبها وتنمية فطرتها على الصلاح والتقوى ، ومنها قوله تعالى أيضاً «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم

---

(١) المرجع السابق رواه البيهقي في السنن ص ١٧٢ .

(٢) الموافقات في أصول الأحكام الإمام الشاطبي ج٣ ص ١٠ .

(٣) هداية الباري إلى ترتيب الأحاديث البخاري ج٢ ص ١٢١ ، صحيح مسلم .كتاب القدر ج٤ ص ٢٠٤٧ .

(٤) صحيح مسلم ج٤ ص٢١٩٥ .

(٥) سورة الشمس ٧ ـ ١٠ .

ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون[1]» ، وهذه الآية توحي بأن الرسول لم يرسل لمجرد تبليغ الدعوى وإنما أرسل أيضاً معلماً ومربياً وأن المربي يستطيع تهذيب نفوس الناس وتزكيتهم بالأساليب التربوية . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى هناك نصوص أخرى تفيد أن للإنسان قدرة في الوقوف أمام غرائزه الجامحة وكبحها عندما تقتضي الأمور ،من تلك النصوص قوله تعالى «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى[2]»ومنها أيضاً قوله تعالى «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون[3]» ثم مدح الله تعالى الذين يغالبون نزعاتهم وينتصرون على دوافعهم في سبيل الفضيلة «الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين[4]» .

وبين الرسول أن الإنسان يستطيع مصارعة نزعاته وكان يشجع على ذلك فقال مثلاً ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب[5] ، كما طالب بإزالة جميع النزعات المنحرفة فقال «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام[6]» . وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يغير شيئاً من نفسه وأن يقف أمام نزعاته عاجزاً فمن العبث أن يطلب منه ذلك أو أن يكلف الله بذلك لأن التكليف يكون عندئذ فوق الطاقة وهذا يتعارض مع قوله تعالى «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها[7]» .

وحاشا أن يتناقض الله مع نفسه أو في مبادئه «لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا[8]» ، ولماذا نجول في النظريات ونحن نجد هذه القدرة في نفوسنا

(١) سورة البقرة ١٥١ .
(٢) سورة النازعات ٤ .
(٣) سورة التغابن ١٦ .
(٤) سورة آل عمران ١٣٤ .
(٥) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج٢ ص١٠٧ ، صحيح مسلم ج٤ص٢٠١٤ .
(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج٣ ص١٨٩ .
(٧) سورة البقرة ٢٨٦ .
(٨) سورة النساء ٨٢ .

في الواقع والفعل معاً ، ثم إن الخلق واحد بالنسبة لجميع الناس في نظر الإسلام فإن الله خلق الناس جميعاً من أصل واحد ، والعناصر التي خلق منها الجميع هي العناصر نفسها لاتختلف من إنسان إلى آخر ، كما ارتأت الفلسفة البراهمية التي قسمت الناس إلى طبقات حسب وجهة نظرها في تعدد العناصر التي خلق منها الناس فادعت أن بعض الناس خلقوا من فم الإله وبعضهم من فخذه وبعضهم من رجله كما سبق أن بينا . بل إن الإسلام بين أن الناس جميعاً من أصل واحد ومن سلالة واحدة هي سلالة آدم ، وآدم خلق من عنصر مادي وعنصر روحي كما بينا ذلك أيضاً . وكما سبق أن ذكرنا الحديث القدسي الذي بين الله فيه أنه خلق الناس كلهم حنفاء وأن الشياطين هي التي كانت سبب الفساد والشر . وإذا كان الأمر كذلك فإن بعض الناس لم يخلقوا أخياراً وبعضهم الآخر أشراراً كما ادعى بعض الفلاسفة ومن ثم ، فإن الناس فيما يتعلق بقبول طبيعتهم التوجيه والتربية سواسية فلم يخلق الله طبائع قابلة للتربية وطبائع أخرى غير قابلة للتربية كما يدعي بعض الفلاسفة أيضاً .

هذا فيما يتعلق بالأساس التربوي الخاص بالطبيعة الإنسانية بالنظر إلى طبيعة الخلق والفطرة ، لكن هناك أساس تربوي آخر خاص بالطبيعة وهي سيكولوجية الفروق الفردية بين الناس فيما يتعلق بالاستعدادات العامة لقبول التربية فمن الناس من يوجد عندهم استعداد للتربية أكثر من غيرهم ، ولكن ذلك يرجع إلى طبيعة النشأة لا إلى طبيعة أصل الخلقة إذ يرجع ذلك إلى العوامل الوراثية وإلى البيئة التي نشأ فيها الطفل منذ صغره ، فالطفل كالشجرة فإن كان هناك نقص في بذرته أو في البيئة التي زرع فيها ولم يلق الرعاية والعناية اللازمة ولم يحفظ من العوامل المفسدة فلا يمكن أن يكون هذا الطفل في قبوله التربية واستعداده لها كالطفل الآخر الذي ولد من أبوين صالحين جسماً ونفساً وروحاً ونشأ في بيئة صالحة ، ووجد كل الرعاية والعناية اللازمة من الناحية التربوية ، ولهذا فإن الإسلام وضع مبادئ تربوية أساسية يجب على الآباء مراعاتها قبل أن ينجبوا وبعد أن ينجبوا أيضاً ، وذلك مثل أن يكونوا صالحين في أنفسهم أولاً ومثل حماية الذرية من الفساد الأخلاقي في البيئة الإجتماعية .

وقد بينا هذه الأمور عندما تكلمنا عن الأسس العلمية ودعمنا رأي الإسلام هناك بآراء العلماء المحدثين . وسوف نتكلم بشيء من الإيجاز أيضاً عندما نتكلم عن مراحل التربية الأخلاقية وخاصة المرحلة الأولى والثانية لهذه التربية .

وهنا نجد رأي العالم الكبير الذي درس الطبيعة الإنسانية وميولها ودوافعها دراسة مفصلة ثم انتهى إلى نتائج عظيمة يتفق مع ما ذهب إليه الإسلام في كليته في هذه الناحية ، ذلك العالم السيكولوجي المربي المشهور هو وليم مكدوجل الذي يقول عن مدى قابلية الميول الطبيعية للتعديل والتربية «إن كل نزعة من النزعات الفطرية ينبوع من الطاقة . أما أن هذه الطاقة ستتجه إلى الخير أو إلى الشر فأمر يتعلق بتوجيهها إلى غايات نبيلة أو وضيعة كما يتعلق بالتحكم الرشيد في هذا التوجيه[1]» ، «إن كل النزعات الفطرية قديرة على فعل الخير والشر[2]» وبناء على ذلك يرى أن الغرائز قابلة للتعديل بل يرى إمكان ذلك حتى في الحيوان ، إذ يندر أن يوجد حيوان في نظره يتحدد سلوكه تماماً بناء على فعل الغرائز بصورتها الخام دون أن تدخل عليها الخبرات أي تعديل إلا أنه يرى أن هناك قوانين يتم بموجبها هذا التعديل وهذه القوانين هي :

١ ـ كلما ارتفعت مرتبة النوع الحيواني في سلسلة التطور إزدادت غرائز أفراده قابلية للتعديل عن طريق الخبرات التي يمر بها هؤلاء الأفراد .

٢ ـ قابلية الغريزة للتعديل أثناء حياة الفرد تتوافر في جزئيها المورد (أو الحسي) والمصدر . (أو الحركي) أما الجزء المركزي فغير قابل للتعديل . ومعنى ذلك أن العمليات المعرفية التي تستثار عن طريقها الغريزة في الإنسان قد تتنوع وتتعقد كما أن الحركات الجسمية التي تبلغ الغريزة عن طريقها غايتها قد تتعقد وتتنوع إلى مدى بعيد .

٣ ـ تتفاوت الغرائز فيما بينها في قابلية كل منها للتعديل ، وفي الإنسان نلاحظ

---

(١) الأخلاق والسلوك في الحياة . وليم مكدوجل ص ٣٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨ .

أن قليلاً من الغرائز تنضج بعد الميلاد بفترة وجيزة مثل الامتصاص والحبو وإغماض العين أمام الجسم المقترب ، هذه الغرائز لا تكاد تدخل عليها تعديلات تذكر . أما الغرائز الرئيسية فمعظمها لا ينضج إلا في سن متأخرة ، وهذه تجري عليها تعديلات متعددة[1] ، بل إن هذه النزعات تنمو وترقى بعد الميلاد ولا تبقى كما هي ، فيقول : «كل نزعة من هذه النزعات تنمو وتترقى بطريقة سوية وليس بينها واحدة ناضجة تمام النضج عند الميلاد وتتجلى كل منها في البداية بشكل ضعيف غامض ثم تزداد قوة وتحديداً ثم تخبو وتخمد كما تضعف وتخبو طاقتنا الحيوية في الشيخوخة[2]» ويرى أنه لا بد من الاعتراف بهذه الحقائق في ميدان التربية مبدئياً ولهذا يقول «ان تقوية هذه النزعات بالمران حقيقة ، للاعتراف بها أهمية بالغة للآباء ولكل من لهم علاقة بالأطفال مثل مالها من أهمية في رياضة المرء لنفسه وتهذيبها ، فالإخفاق في فهم المبادئ التي تنطوي عليها هذه الحقيقة وإهمالها يؤدي إلى كثير من التعاسة وإلى تشويه النمو[3]» .

ثم يتكلم عن خطورة اصطراع النزعات المختلفة وما ينجم من ذلك من شرور كما بينا ذلك في الإسلام فيقول «ان خطر الميول غير المتزنة أنها بطبيعتها تدخل في نطاق حلقة مفرغة فإذا زادت حدة إحدى النزعات الفطرية زيادة مفرطة فإنها تميل إلى أن تقوى وتشتد ، زيادة على قوتها وشدتها عن طريق الإسراف في مزاولتها واستخدامها فثم منافسة معينة بين النزعات[4]» ، ومن ثم «فجدير بكل واحد منا إذن أن يلاحظ ميله الفطري حتى يستطيع أن يكبح جماح أي نزعة يبدو فيها عنف يزيد عن الحد لئلا تشوه ترقيه ونضجه وتتلف حلقة بإفراطها في النمو ، إفراطاً لا يستطيع معه كبحها ، ولما كانت المراحل الأولى في النمو هي التي يمكن أن تعمل فيها الكثير فإن من واجب الآباء أن يدرسوا ميول أطفالهم ويطبقوا عليها ما يستطيعون تطبيقه من ألوان الإصلاح والتقويم[5]» .

---

(١) مقدمة لعلم النفس الاجتماعي . دكتور مصطفى سويف ص ٢٠١ .
(٢) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ٢٦ . (٣) المرجع السابق ص ٢٦ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٩ . (٥) المرجع السابق ص ٣٩ .

بعد هذا يتكلم عن طريق تعديل الميول وتوجيهها فيقول «فما السبيل إذن إلى تقويم الميول الفطرية أو إعادة تشكيلها؟ ناحيتان أو مظهران جد مختلفين لا يمكن أن يستغنى عن أحدهما فعلينا أن نثبط من حدة النزعات العنيفة عن الحد وننشط النزعات الضعيفة أكثر مما يجب[1]» ، أما كيف ذلك؟ فذلك يتعلق بالطرق والوسائل التربوية وهذا ليس موضوعنا الآن .

وبعد هذا كله يمكن استخلاص أهم مبادئ التربية الأخلاقية الأساسية المتعلقة بالطبيعة الإنسانية في نظر فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية وهي الآتية :

أولاً : يجب أن يؤمن المربي مبدئياً بإمكان تهذيب الطبيعة الإنسانية وتربيتها وتوجيهها إلى حيث يريد ، إذا تزود بالمعرفة الدقيقة لأسرار هذه الطبيعة ، وإذا تزود بعد ذلك بمعرفة حقائق التربية وطرقها ووسائلها .

كما يجب إقناع المتربي بإمكان قبول طبيعته للتربية لكن لا يمنع ذلك من أن يتزود المتربي هو الآخر بمعرفة طبيعته وأن يبذل الجهد الشخصي متعاوناً مع المربي في تربية نفسه .

ثانياً : أن تكون هذه التربية في ضوء علاقة الأخلاق بالطبيعة الإنسانية في نظر التفكير الأخلاقي الإسلامي ، وتحدد هذه العلاقة بأن القوانين الأخلاقية تعد صورة أو قالباً للسلوك الطبيعي ، والسلوك الصادر من الإنسان المادة الأخلاقية ، لكن هذه المادة ينبغي أن تتكيف وتتهذب وأن تصاغ وفقاً للقالب الأخلاقي . إذن الأخلاق بصفة عامة قالب للحياة الإنسانية الطبيعية والحياة بقوانينها الطبيعية مادتها ودور التربية الأخلاقية هو تهذيب السلوك المادي بحيث يتناسب مع القالب الأخلاقي وتوجيه الإنسان وتزويده بإمكانيات تربوية يستطيع بها تكييف نفسه مع المبادئ الأخلاقية والسير باستمرار في طريق الأخلاق ، ثم تنمية استعدادات الإنسان الأخلاقية ليستطيع أن يكمل نفسه على نحو ما يراد من الإنسان أن يرتقي إليه في هذه الحياة ، ويتفق ما أقرره هنا مع ما قرره من قبل رونيه أوبير حيث قال «فالطبيعة

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠ .

ليست سوى مادة ، علينا أن نعطي لها الصورة التي تلائمها والتي لا تشتمل عليها مع ذلك من قبل ، ولو اشتمالاً كامناً ، لأن هذه الصورة ليست من طراز بيولوجي نفسي فحسب ، أو إذا شئت ليست من طراز الموضوع وإنما من طراز عملي وخلقي ، بل لعله أكثر من هذا . فعلينا إذن أن نجاوز الطبيعة ، تلك الطبيعة التي تظل خارجية بمعنى من المعاني ما دامت معطاة وأن نصل إلى جوهر الكائن وغايته النهائية[1]» .

ثالثاً : الاعتراف بالميول والغرائز أو الدوافع الفطرية على أساس أنها ليست شراً ولا خيراً في ذاتها وإنما هي قوى وطاقات واستعدادات ضرورية لدوام حياة هذه الطبيعة ، ومن ثم لا يجب محاولة خلعها من جذورها أو محاربتها حرباً شعواء بل يجب توجيهها إلى غايتها في إطار القوانين الأخلاقية ، ذلك أن خلعها أو تبديلها غير ممكن أولاً ، ثم إنه ليست من مصلحة الحياة ثانياً . وربما أمكن ذلك بطريقة طبية حديثة مثل استئصال الغدد الخاصة بها لكن الإسلام منع مثل هذه المحاولات بدليل منع الرسول الاختصاء[2] مثلاً لأنه قضاء على غريزة التناسل ، ومنع أيضاً مواصلة الصوم[3] لأنه محاولة للقضاء على غريزة الأكل الذي لا حياة بدونه ، كما منع الترهيب والتبتل[4] لأنه محاربة لحياة الغريزة الجنسية ومجابهة هذا وذاك يعد محاربة للحياة ومحاربة لدوام حياة النوع ، لأن من أهداف الأخلاق المحافظة على هذه الحياة . لكن ليس معنى ذلك ترك هذه الغرائز تتخبط تخبطاً عشوائياً وتتصارع فيما بينها دون توجيه وتربية وإلا لما كانت هناك حاجة إلى التربية ، بل لما كان هناك حاجة إلى أخلاق تنظم هذه الغرائز وتهذبها ، ولهذا يقول هنا دوركايم «إذ إنها (الأخلاق) لو كانت تطلب إلينا أن نتبع طبيعتنا فحسب لما كان بها من حاجة إلى أن تأمرنا بشيء أو تفرض علينا شيئاً فالسلطة لا تلزم إلا لكي تحد من قوى متمردة

(١) التربية العامة . رونيه أوبير ص ٧٨ .
(٢) فتح الباري بشرح البخاري ج ١١ ص ١٩ ، صحيح مسلم ج٢ ص ١٠٢ .
(٣) فتح الباري بشرح البخاري ـ كتاب النكاح ج ١١ ص١٩ .
(٤) المرجع السابق ـ كتاب الصوم ج ٥ ص ١٠٥ .

وتكبح جماحها لا لكي تدعو قوى معينة إلى السير في طريقها المعتاد ، ولقد قيل إن مهمة الأخلاق هي أن تمنع الفرد من أن يطأ المناطق المحرمة عليه ولعمري أن هذا الرأي قد أصاب في بعض نواحيه قلب الحقيقة[(١)]» .

إذن فإن التربية الأخلاقية لا يجب أن تدعو اتباع الغرائز ومحاربتها والوقوف أمامها سداً منيعاً بل يجب أن تمسك بيد هذه الغرائز وتسلك بها الطريق الخير الذي تتحقق فيه أغراضها وأغراض الأخلاق ، وهذا ما يقرره أيضاً رونيه أوبير فيقول «فالتكوين الخلقي إذن تكوين مناقض لطبيعته وملائم لطبيعته معاً ، فهو مناقض دوماً لطبيعته الواقعية وملائم لطبيعته المثالية أو جوهره المثالي ، إنه مناقض لما فيه من معطى ولما يرجع فقط إلى القوى العمياء التي تنتقل إليه بالوراثة أو إلى تأثير القوى الخارجية بل إلى الصور التي حقق عليها ذاته ، وهو ملائم للصبوة التي تدفعه إلى أن يصهر نفسه من جديد دوماً على مدى إمكاناته الخلقية[(٢)]» .

رابعاً : تقتضي التربية الأخلاقية للطبيعة الإنسانية التربية الداخلية لهذه الطبيعة أي تربية الغرائز كل واحدة على حدة بحيث تأخذ حقها بطريق مشروع ولا تطغى على حقوق غيرها . كما يجب العناية بنموها بقدر اللازم وهذا هو إعطاء كل ذي حق حقه كما ورد في الحديث السابق[(٣)] وإلا نشأ صراع بينها يشتت شخصية المرء ، وإنقاذه من هذا الصراع وتوحيد ذاته عن طريق إقامة التنسيق بين ميوله المختلفة أمر لا بد منه قبل كل شيء لتوجيهه إلى الطريق المستقيم الواحد وتمكينه من الالتزام به دائماً ، ولهذا يقول رونيه أوبير أيضاً عندما يتكلم عن وظيفة فلسفة التربية «وفلسفة التربية قبل كل شيء فلسفة الإنسان وبهذا الشرط وحده تستطيع أن تؤدي رسالتها وهي العمل على تنظيم الكائن الإنساني ووحدته وتأليفه تأليفاً جديداً ومستمراً وحمايته قبل كل شيء من القوى المختلفة التي تتنازعه في اتجاهات متباينة ووقايته من مخاطر تشتت فكره وانحلال إرادته[(٤)]» .

---

(١) التربية الأخلاقية دور كايم ص ٤٢ . .
(٢) التربية العامة ص ٢٨٨ .
(٣) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الصوم ج٥ ص١١٤ .
(٤) التربية العامة ص ٧٩ .

خامساً : وأخيراً أن تكون التربية الأخلاقية على أساس مدى استعداد قبول هذه الطبيعة التغير والتهذيب والترقية والنمو ومدى طاقتها لتحمل التدريبات الأخلاقية بحسب مراحل نمو دوافعها وقدراتها المختلفة في كل مرحلة من مراحل نموها الطبيعي مع ملاحظة طبيعة سيكولوجية الفروق الفردية في كل مرحلة من تلك المراحل .

هذه النقطة في غاية الأهمية ، وتجاهلها يؤدي إلى إخفاق التربية الأخلاقية في النهاية ، ولا ننسى هنا قول الرسول «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة[1]» ، وقال «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم[2]» .

ثالثاً : أساس حرية الإرادة في الإنسان :

إن وجود حرية الإرادة والحرية الأخلاقية أساس لوجود التربية الأخلاقية . بل لا يمكن أن توجد التربية الأخلاقية أو تكون عديمة الجدوى على أقل تقدير بدون تحقق الحرية الأخلاقية من حيث حرية الإرادة ومن حيث تنفيذ ما اختارته هذه الإرادة الحرة ، ولا بد من الإيمان بذلك من قبل المربي ومن قبل المتربي أيضاً ، لأن الحرية والقيم الأخلاقية ـ كما يقول فيليب فينكس ـ «ترتبطان ارتباطاً مباشراً بطبيعة نمو الذات أكثر من ارتباطهما بالظروف البيئية التي يحدث فيها النمو الإنساني[3]» ، لأنهما ضروريان أولاً للتربية الأخلاقية من حيث إن التربية «هي عملية توجيه نمو الأفراد وحيث إن الحرية أساسية في تحقيق الذات الحقيقية[4]» .

ولكن هل حقيقة توجد الحرية من حيث الإرادة ومن ناحية التنفيذ معاً أم إنهما ضرب من الوهم أو مجرد ادعاء لا حقيقة له في الواقع ونفس الأمر؟ . لا أريد أن

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص٧٦ ، صحيح مسلم تحقيق عبد الباقي ج ١ ص ١١ .
(٢) كشف الخفاء ج ١ ص٢٢٥ .
(٣) فلسفة التربية ص ٤١٢ .
(٤) المرجع السابق ص ٤١٣ .

أطيل في بحث الموضوع حيث إنني قد عالجته بإفاضة في بحث آخر[١] ، ولهذا سأتعرض له بإيجاز كي لا نقيم أمراً على أساس ليس له وجود فعلي في موضوعنا هنا .

عندما ننظر الى الدراسات الفلسفية في هذا الصدد نجد فيها ثلاثة اتجاهات بارزة :

الأول : الاتجاه الجبري أو الحتمي وهذا الاتجاه ينقسم إلى قسمين الأول الجبرية الميتافيزيقية ، والثاني : الجبرية الطبيعية ، فالأول يرى أن الإنسان مجرد من حرية الإرادة وحرية الفعل تماماً ، وأنه بين يدي الخالق يتصرف فيه كما يشاء كالريشة في مهب الريح وهذا ما ذهب إليه الجبرية من المتكلمين المسلمين ، والثاني يذهب إلى أن الإنسان مجبور أمام القوانين الطبيعية : قوانين الطبيعة البشرية والطبيعة الكونية . ومن أنصار هذا الاتجاه فولتير الذي يقول «إننا عجلات في آلة كبرى وعقولنا تفكر كما لو كانت حرة[٢]» . ومنهم أيضاً سبنسر وشوبنهور[٣] .

وعلى هذا الأساس فلا جدوى من التربية ، وما التربية إلا تمثيل لوجود مسبق ، وكما تهدم هذه النظرة التربية الأخلاقية ، تهدم كذلك المسؤولية الأخلاقية .

الاتجاه الثاني : اتجاه حرية الإرادة الذي يرى أن الإنسان حر في إرادته وحر في تنفيذ مراده . ومن أنصار هذا الاتجاه أرسطو[٤] ، وليبنتز[٥] ، وكانط[٦] ، ومنهم المعتزلة من المتكلمين المسلمين[٧] .

---

(١) انظر الاتجاه الأخلاقي في الإسلام دراسة مقارنة ص ١٩٦ وما بعدها
(٢) مشكلة الحرية . دكتور زكريا إبراهيم ص ٥٥ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) علم الأخلاق لأرسطو ج ٢ص٢٩٦ .
(٥) (بالإيطالية) Enciclopedia Filosofica 3/1447. Filorans.1967.
(٦) تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق . كانط ص ٧٦ ـ ١١٦ .
(٧) موقف البشر تحت سلطان القدر . مصطفى صبري ص ٥٢ . انظر كذلك اللمعة للمذاري . تحقيق محمد زاهد الكوثري ص ٥٢ .

ويدخل في هذا الاتجاه أيضاً بصفة عامة اتجاه الماتريدية مع وجود فروق بينهم وبين غيرهم في بعض النواحي ، فهم يقولون إن الله خلق في الإنسان قدرة وأن الإنسان له حرية استخدام هذه القدرة في الخير أو في الشر[1] . وهذا الرأي يمكن أن يكون أساساً للتربية الأخلاقية .

أما **الاتجاه الثالث** فلا يعطي للمرء حرية مطلقة ولا يحرمه منها بصفة عامة ومن أهم المذاهب التي تمثل هذا الاتجاه من الناحية الميتافيزيقية مذهب الأشاعرة . ويمكن أن نقول إن الأشاعرة يقسمون الحرية فيعطون نصفها للإنسان ويحرمونه من النصف الآخر ذلك أنهم يعطونه حرية الإرادة ولا يعطونه حرية التنفيذ[2] .

ومن أنصار هذا الاتجاه أيضاً : ابن مسكويه الذي يقول : «إن وجود الجوهر الإنساني بقدرة فاعلة وخالقة وأما تجويد جوهره فمفوض إلى الإنسان وهو متعلق بإرادته[3]» ومن هؤلاء أيضاً الغزالي[4] ، وابن رشد كذلك[5] . وهناك وسطية في الحرية في إطار الواقع وقوانين الطبيعة إذ الإنسان وفقاً لذلك حر في قدراته التي منحتها له الطبيعة وفي إطار الظروف الواقعية المحيطة به[6]

وقد تأثرت النظريات التربوية بالاتجاهات الفلسفية السابقة في الحرية ، ومن ثم اختلف المربون في مدى التأثير الذي يمكن أن تحدثه التربية في نمو الأفراد ومن النواحي المختلفة ، لكن معظم المربين الكبار وخاصة المحدثين منهم يبنون رأيهم على أساس التفريق بين عالم الإنسان النفسي أو الروحي وعالم الطبيعة المادي ، فإذا كانت الحتمية تسود في هذا العالم الأخير لتحكم القوانين الطبيعية الصارمة فإن العالم النفسي تسوده الحرية والاختيار الحربين الأسوأ والأفضل . وعلى أساس

---

(١) اللمعة ص ٤٨ .

(٢) اللمعة ص ٤٧ .

(٣) تهذيب الأخلاق ص ٣٩ .

(٤) المقصد الأسني ص٤٦ ، إحياء علوم الدين ج٤ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦ .

(٥) مناهج الأدلة في عقائد الملة ابن رشد ص ٢٢٢ .

(٦) فلسفة التربية ص ٤٢٠ .

التميز في طبيعة وجود العاملين المتميزين ينكرون دراسة الأمور الإنسانية على غرار دراسة سلوك الأشياء المادية ، ويرون أن سبب الفشل في السيطرة على الأمور الإنسانية في مقابل النجاح في السيطرة على الطبيعة ناتج أساس عن الخلط بين الوجودين ، ثم عن الخلط في أسلوب وطريقة الدراسة [١] . ومن أنصار هذا الاتجاه في ميدان الفلسفة ليبنتز يقول ازفلد كولبه مؤيداً رأي ليبنتز في هذا الصدد «وقد أصاب ليبنتز عندما فرق بين كون الفعل نتيجة لباعث أخلاقي وكونه نتيجة لأسباب ميكانيكية ضرورية فإن حرية الاختيار في الإنسان واستقلال إرادته في فعله عن المؤثرات الخارجة عنه لا يظهر فيهما ذلك الإطراد ولا تلك البساطة اللذان نجدهما في العلاقات العلمية بين الأشياء كما يفهمها المذهب الميكانيكي[٢] .

وفي ميدان التربية يؤيد هذه الفكرة فيليب فينكس حيث يقول مثلاً «الحرية إحدى العلاقات المميزة لطبيعة الإنسان فلكي يكون الفرد إنساناً يجب أن يكون قادراً على اختيار ما سيكونه وما سيقوم به ، لا أن يتبع تبعية مجردة أوامر الضرورة الفطرية أو الآلية . فالمادة غير العضوية تتحرك بطريقة وصفتها قوانين الطبيعة ، ويتحدد سلوك الكائنات الحية بمبادىء بيولوجية[٣]» . ويرى أن واجب التربية ليس تقرير هذه الحرية للإنسان فحسب ، بل تنميتها أيضاً فيقول : «حيث التربية هي عملية توجيه نمو الأفراد ، وحيث أن الحرية أساسية في تحقيق الذات الحقيقية فإن من أهداف التربية نمو الحرية فناتج التربية يجب أن يكون الإنسان الحر[٤]» .

---

(١) المرجع السابق ص ٤١٥ ـ ٤١٦ .

(٢) المدخل إلى الفلسفة . ازفلد كولبة ص ٢٣٤ .

(٣) فلسفة التربية ص ٤١٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٤١٣ .

وجهة نظر الإسلام :

وإذا بحثنا عن رأي الإسلام في هذا الموضوع وجدنا فيه نصوصاً مختلفة المفاهيم من حيث الظاهر يمكن أن نؤيد بها كل اتجاه وكل مذهب من المذاهب السابقة ، لو أردنا أن نكون مذهبيين فنجد مثلاً نصوصاً تؤيد الاتجاه الأول ونصوصاً أخرى تؤيد الاتجاه الثاني وثالثة تؤيد الثالث بحسب مفاهيمها الظاهرة .

لكن هل معنى ذلك أن بينها تعارضاً وتناقضاً؟ ! قد يبدو هذا في أول وهلة وقد يصبح حقيقة إذا أردنا أن نعالجها في ضوء مذهب فكري معين ، ولكن إذا عالجناها من زاوية الفلسفة الإسلامية عموماً أو في ضوء نظرية الإسلام في الحرية على أقل تقدير فيزول هذا التعارض والتضارب وينجلي الغموض ويتحدد مجال كل فكرة ، ومن ثم نستطيع أن نفسر كل آية دون أن يتعارض معناها مع معاني النصوص الأخرى .

ويمكن تحديد نظرية الإسلام في الحرية الأخلاقية أو الحرية الإنسانية عن طريق تحديد النقط الآتية :

أولاً : كما نعلم يقرر الإسلام أن الله خلق السماء وخلق الأرض وخلق الإنسان وخلق قوانين السماء وقوانين الأرض وقوانين الطبيعة الإنسانية ، ووضع نظام الأخلاق وفقاً لهذه القوانين أو مراعياً لها ووفقاً لهدف الخلق بوجه عام وخلق الإنسان بوجه خاص .

إذن فإن لهذا الخلق غاية لا بد من أن تتحقق ولكي تتحقق لا بد من أن يسير النظام الموضوع لها بدقة «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون [(١)]» ، «وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير[(٢)]» . «سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً[(٣)]» .

---

(١) سورة المؤمنون ١١٥ .

(٢) سورة الأنعام ٧٣ .

(٣) سورة الأحزاب ٣٨ .

وبناء على غايته في الخلق خلق الخلق وقدره تقديراً ينتهي إلى غايته «إنّا كل شيء خلقناه بقدر[1]» ، «وخلق كل شيء فقدره تقديراً[2]» .

وعندما قدر هذا وذاك أوجد ما قدره وقضاه . وعلى هذا الأساس يبنى الفلاسفة الغائيون والميكانيكيون والعلميون مذهبهم في القول بوجود جبرية في الكون[3] .
وإذا نظرنا في ضوء ذلك إلى مصير الوجود بوجه عام ومصير الإنسان بوجه خاص ، وجدنا جبرية أو حتمية المصير إذ لا بد يوماً أن يتلاشى نظام الكون ولا بد من أن يموت كل إنسان ، وأن يحيا مرة أخرى «هو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم[4]» ، ثم إن حياة الإنسان مقيدة بإطار معين من أطر جبرية الكون أو بقوانين الطبيعة عموماً وبقوانين الطبيعة البشرية خصوصاً . فلا يستطيع الحياة في خارج هذه الأطر ولا يستطيع أن يخرج عليها ، تلك مشيئة إلهية مسبقة ومشيئته هي تلك القوانين التي قدرها وقضاها . ثم إن كل مشيئات الناس لو تحققت لاختل نظام الحياة بل قد لا تبقى هناك حياة . إذ قد يرغب كل إنسان أن يكون ملكاً أو رئيساً وكما قد يرغب كل واحد أن يهلك عدوه أو أن يبيده ، وكل مجتمع قد يكون له عدد من المجتمعات الأخرى المعادية له .

ولذلك كانت مشيئة الله سابقة لمشيئة الإنسان من حيث إنها إرادة سابقة للإنسان ولنظام الكون ، ثم إنها سابقة ، لأنها حكمة لا بد من أن تسبق إرادة الإنسان ورغباته المختلفة ، «وما تشاؤون إلا أن يشاء الله[5]» ومن ثم جاءت النصوص التي تثبت المشيئة المطلقة والحرية الكاملة لإرادة الله في فعل كل ما يشاء .

وكما يقرر هذا النوع من النصوص الإسلامية النظام الحتمي والمشيئة المسبقة يعبر أيضاً عن علم الله تعالى سابقاً لما تكون عليه الأمور ، لأن الله تعالى يعلم حاضر

---

(١) سورة القمر ٣٠ .

(٢) سورة الفرقان ٢ .

(٣) المدخل إلى الفلسفة ، ازفلد كولبة ص ٢٢٢ .

(٤) سورة الحج ٦٦د

(٥) سورة الإنسان ٣٠ .

شيء ومستقبله ولا يمكن أن يتغير علمه ولا يمكن أن يغير ما كتب بناء على هذا
ملم ولهذا قال الرسول «جف القلم على علم الله[1]» .

لأن العلم هو معرفة الأسباب وما تؤدي إليه وإذا كان الله خلق الأسباب فإنه
ملم مقدماً نتائجها . ويعتبر ابن رشد تلك الأسباب وما تؤدي إليه هي القضاء
القدر لأن الأسباب لا تتخلف عن نتائجها ، ويسمى العلم بتلك الأسباب علم
غيب ، فيقول «النظام المحدود في الأسباب الداخلة والخارجة (داخل الإنسان
خارجه) أعني التي لا تختل هو القضاء والقدر الذي كتبه الله على عباده وهو
لوح المحفوظ وعلم الله تعالى بهذه الأسباب وبما يلزم عنها هو العلة في وجود هذه
أسباب ولذلك كانت هذه الأسباب لا يحيط بمعرفتها إلا الله وحده ، ولذلك كان
و العالم بالغيب وحده على الحقيقة . كما قال تعالى «قل لا يعلم من في السموات
الأرض الغيب إلا الله[2]» وإنما كانت معرفة الأسباب هي العلم بالغيب لأن الغيب
و معرفة وجود الموجود في المستقبل أو لا وجوده[3]» . وعلى أي حال فإن رأي ابن
شد مبنى على أساس قانون العلية في الكون الذي كان سبب قول الفلاسفة
لجبرية الطبيعية[4] .

إلا أن هذه الكتابة بناء على العلم لا تدل على حتمية السلوك المعين للفرد لأن
تقدير بناء على العلم ، لا بناء على الجبر ، فإن الإنسان البصير قد يرى أعمى يسير
حو هاوية فيستطيع أن يعرف مصير هذا الأعمى ولو أنه كتب هذا المصير وقضى بأنه
سيقع ووقع ما كتب فلا يكون بذلك قد أجبره على الوقوع . إذن سلوك الإنسان
النسبة إليه سلوك حر مبنى على اختياره وهو بالنسبة إلى الله حتمي وقضاء وقدر .
يمكن أن نضرب لذلك مثلاً آخر بمعلم يضع أسئلة الامتحان مسبقاً وعلم أن أحد
تلاميذ لم يذاكر ثم حكم بأنه سيرسب ورسب فعلاً فإن حكمه مبني على معرفة

---

١) التاج كتاب الزهد ص ١٩٣ .
٢) سورة النمل ٦٥ .
٣) مناهج الأدلة في عقائد الملة ص ٢٧٧ .
٤) المدخل إلى الفلسفة ازفلد كولبة ص ٢١٠ .

الإسباب وما تؤدي إليه وليس مبنياً على الجبر والقهر فالعلم لا يدل على الجبرية أو القهر وهذا ما يقرره الفيلسوف الألماني وابن عربي ويعبر عن رأيهما أستاذنا المرحوم الدكتور محمود قاسم «علمنا تبعاً لليبنتز ولابن عربي أيضاً أن الله قد علم منذ الأزل أن هذا المخلوق حر بطبيعته وأنه يستطيع التنكر لخالقه وأنه سيميل إما إلى الخير وإما إلى الشر فالسبب الأول هو أنه حر[1]» ، لأن القول بالجبرية على أية صورة كانت يتعارض مع المعايير الأخلاقية ومع العدالة الإلهية في الجزاء والثواب ، كما يتعارض مع العدالة الإنسانية . وهذا ما يقرره ليبنتز أيضاً[2] .

ثانياً : تتحدد حرية الإنسان بموقفه من قوانين الطبيعة وقوانين الأخلاق فهو مأمور بتطبيق قوانين الأخلاق أدبياً وخاضع لقوانين الطبيعة واقعياً ولكنه يملك القدرة والاستعداد للخروج على القوانين ، وذلك بناء على إحساسه بحرية الاختيار في داخل نفسه وشعوره بالقدرة على تنفيذ ما اختاره . وهذا الإحساس بالحرية والقدرة ليس مجرد وهم بل حقيقة يصدقها الواقع وهو خروجه على هذا وذاك في بعض الأحيان فلو كان مجبوراً بالطبيعة كالحيوان لما خرج عليهما ولو كان مجبوراً بقانون الله الأخلاقي كالملائكة لما خرج عليه أيضاً ، ومن هنا نجد أنه لا يتعارض وجود الحرية الإنسانية والجبرية والطبيعية .

وبناء على هذه الحرية أصبح الإنسان مسؤولاً أمام الله ومطالباً بالسير على منهاج الله وطريقه الذي رسمه له فلو كان مجبوراً على السير في طريق معين ولم تكن له القدرة على الخروج عليه لكان عبثاً من الله أن ينزل الوحي ويطالبه بالسير على هداه وتعالى الله عن ذلك العبث علواً كبيراً .

ولهذا فإن كل الآيات التي جاءت مثبتة الحرية وإرادة الاختيار للإنسان تعبر عن حرية الإنسان في إرادته وتصرفه في إطار معين بين السير على طريق الأخلاق أو الخروج عليه وبين اختيار الإيمان أو الكفر ، والعمل وفقاً لهذا أو ذاك في هذه الحياة .

---

(١) محيي الدين بن عربي وليبنتز ص ١٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤١ .

وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر[1]» ، «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون[2])» ، «إن هو إلا ذكر للعاملين لمن شاء منكم أن يستقيم[3]» ، «وهو الذي جعل الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً[4]» .

والتربية الأخلاقية تقوم أساساً على هذه الفكرة في حرية الإرادة والقدرة على تنفيذها «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها[5]» هذا فيما يتعلق بقدرة المرء على تزكية نفسه إذا أراد ، كما يمكن أن يربي ويطهر المربي نفسية المتربين «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها[6]» . وعلى هذا الأساس أرسل الرسول ليعلم وليربي «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون[7]» ، وتقرير الإسلام هنا قدرة الإنسان على تربية نفسه وتربية غيره كما سبق أن بينا في الطبيعة الإنسانية لا يتعارض إطلاقاً مع وجود الأسباب والمسببات التي تمثلها القوانين الطبيعية وصلة القوانين الأخلاقية بها بل إن التربية الأخلاقية متوقفة عليها من حيث ضرورة معرفتها للمربي ليستطيع التحكم في الطبيعة الإنسانية ، كما أننا لا نستطيع التحكم في الطبيعة الخارجية إلا من خلال معرفتنا بها وهذا ما يقرره هاربرت أيضا[8] .

ثالثاً : إن هناك أعمالاً تتدخل فيها إرادة الإنسان وقدرته وتتدخل فيها أيضاً إرادة

(١) سورة الكهف ٢٩ .

(٢) سورة الأنعام ١٤٨ .

(٣) سورة التكوير ٢٧ ـ ٢٨ .

(٤) سورة الفرقان ٦٢ .

(٥) سورة الشمس ٧ ـ ١٠ .

(٦) سورة التوبة ١٠٣ .

(٧) سورة البقرة ١٥١ .

(٨) المدخل إلى الفلسفة ص ٢٢٦ .

الله وقدرته، فتدخل إرادة الإنسان يبدأ من نيته لعلم ما إيجابياً أو سلبياً، وتدخل إرادة الله يبدأ بتوجيهه وتوفيقه فيما تتجه إليه نيته وإرادته. «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم[1]»، «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً[2]»، «ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً. ولأوْضَعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين[3]». «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم[4]». «أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم[5]»، «إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب[6]». أي يضل من يشاء الضلالة ويهدي من يشاء الإنابة والهداية.

كما يتدخل الله في عمل الإنسان بناء على أخلاقه من صلاح أو فساد «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق[7]»، «إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب[8]». «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى[9]»، «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب[10]»، «يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين[11]»، «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم[12]»، «إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى[13]»، «ويزيد الله الذين اهتدوا هدى[14]».

وأخيراً يتدخل في عمل العبد بناء على علمه به وما يكون عليه مستقبله «ولو

---

(١) سورة الصف ٥.
(٢) سورة البقرة ١٠.
(٣) سورة التوبة ٤٦، ٤٧.
(٤) سورة الرعد ١١.
(٥) سورة محمد ٢٩.
(٦) سورة الرعد ٢٧.
(٧) سورة الأعراف ١٤٦.
(٨) سورة غافر ٢٨.
(٩) سورة الليل ٥ ـ ١٠.
(١٠) سورة الطلاق ٢ ـ ٣.
(١١) سورة البقرة ٢٦.
(١٢) سورة محمد ١٧.
(١٣) سورة الكهف ١٣.
(١٤) سورة مريم ٧٦.

علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون[١]» ، «فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم[٢]» .

وفي ضوء هذه الفكرة نستطيع أن ندرك مغزى الآيات التي تجمع بين الجبرية والحرية أو بين المشيئة الإلهية وبين حرية الإختيار الإنسان . والأساس التربوي في هذه الفكرة هو أن الله يوفق من يريد أن يربي نفســه وأن يطهــرها من الرذائل الأخلاقية . فقال الرسول «من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله بينه وبين الناس ومن أصلح جوانيه أصلح الله برانيه[٣]» . ومن لم يرد أن يطهر نفسه من الرذائل الأخلاقية لم يرد الله أيضاً أن يطهر قلبه ، ولهذا قال تعالى : «يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم[٤]» .

وعلى المرء بعد الإرادة الصادقة في تربية نفسه أن يستعين بالله لينصره على أهواء نفسه ويحفظه من زلاتها ويطهرها من رذائلها ، ولهذا كان الرسول يدعو الله قائلاً «اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها[٥]» . ولا يؤتي الله للنفس تقواها ويصلح للإنسان عمله إلا إذا أراد الإنسان أولاً إصلاح نفسه عن إخلاص وصدق «يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما[٦]» .

---

(١) سورة الأنفال ٢٣ .

(٢) سورة الفتح ١٨ .

(٣) رواه الديلمي . منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج ١ ص١٣٦ .

(٤) سورة المائدة ٤١ .

(٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٥١٦ .

(٦) سورة الأحزاب ٧٠ ـ ٧١ .

رابعاً : إن هناك إرادة إلهية جبرية أو قهرية ، وإرادة إلهية اختيارية فهو يستعمل أحياناً الأولى وأخرى الثانية بحسب ما يقتضي عدله وحكمته ، فبالأولى يجبر الناس على عمل معين قهراً كما قهر قوماً على أخذ ما أتى به رسولهم «وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون[1]» . «وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له[2]» . ولكن الله لا يريد سوءاً بقوم إلا إذا أفسدوا «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون[3]» .

لكن الله لم يرد أن يقهر الناس على كل ما يريد أن يفعلوه وإن أراد منهم أن يفعلوه ، وهذه هي إرادة الاختيار لا إرادة القهر والجبر . ولهذا قال تعالى «ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا[4]» . «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين[5]» ، ولو شاء الله أن يقهر الناس على الإيمان لفعل «إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لهم خاضعين[6]» .

وهكذا فإن الله لم يرد أن تكون إرادة الجبر قاعدة عامة في تنفيذ كل شيء وتوجيه الناس إلى أعمالهم سواء كان الجبر الداخلي أو الجبر الخارجي بل أراد أن تكون إرادة الاختيار هي الأساس في شؤون حياة الإنسان إذ إنه نصب له دلائل الخير والشر وبين له طريق الهدى والضلال وبين عاقبتهما في الدنيا والآخرة وخلق فيه قوة البصيرة والإدراك والتمييز ليستطيع التفرقة بين ما يضره وما ينفعه إن عاجلاً أو آجلاً ، ولهذا اقتضت إرادته ألا يقهر الناس بعد ذلك على أحد الطريقين وشاءت

---

(١) سورة الأعراف ١٧١ .

(٢) سورة الرعد ١١ .

(٣) سورة هود ١١٧ .

(٤) سورة الرعد ٣١ .

(٥) سورة يونس ٩٩ .

(٦) سورة الشعراء ٤ .

حكمته أن يبين للناس أنه سيحاسبهم على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر على اختيارهم لأحد الطريقين وهذا الثواب أو العقاب قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة ولكن الحساب العادل والجزاء الوافي الكامل سيكون في الآخرة ، «يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون[1]» ، «من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً[2]» ، «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً[3]» .

ولا يلزم من إرادة الاختيار عجزه سبحانه وتعالى عن تنفيذ مراده بل إن هذا يعتبر تنفيذاً لمراده لأنه هكذا أراد فكان ما أراد .

ولا يلزم أيضاً أنه بذلك أراد الشر ، إنه ترك حرية للإنسان أن يفعل الخير أو الشر مع خلق القدرة لهذا وذاك وإذا كان هذا يعتبر إرادة الشر من جهة فإن إرادة الشر هنا ليست من الله لأن الله يريد الخير ويريد من الإنسان اتباع الخير «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم[4]» «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون[5]» . بل الشر يأتي من الإنسان إلى الإنسان «إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون[6]» . فإن الله قد خلق العالم بما يناسب الإنسان وخلق فيه كل ما يحتاج إليه بحكم خلقته وطبيعته ويقول ابن عربي هنا «واعلم أن الإنسان فيه مناسب من كل شيء في العالم فيضاف كل شيء إلى مناسبه بأظهر وجوهه[7]» . وعلى الإنسان إذن أن يتصرف بما يناسبه ويوافقه وما هو خير له ولا

(١) سورة يونس ٢٣ .
(٢) سورة الإسراء ١٥ .
(٣) سورة الإسراء ١٣ .
(٤) سورة النساء ٢٦ .
(٥) سورة المائدة ٦ .
(٦) سورة يونس ٤٤ .
(٧) ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق ابن عربي ص ٩٥ .

يخالف نظام الطبيعة ، ولا يخرج عن الطريق المستقيم حتى لا يصاب بالشر ولكن نتيجة جهله حيناً وتصرفاته الخاطئة واصطدامه بالقوانين الطبيعية وخروجه عن الجادة يصيبه الشر ، فالشر إذن منه وإليه .

وأخيراً لا يلزم من علمه تعالى أن الإنسان سيرتكب الشر ، إنه بذلك أراد الشر بل إن علمه هذا لا يعد إرادة إذ إن الإنسان قد يعلم ما سينال الآخر من شر نتيجة ارتكابه الخطأ ولا يرجع إليه شيء من الإثم انه علم ما سيكون مصير المخطىء لخطئه وكذلك الأمر بالنسبة إلى الله بناء على علمه بالحق والخطأ أرشد الإنسان إلى الحق ونهى عن الخطأ ولا يكون بذلك مريدا للظلم «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين[1]» .

ثم إن الله أراد بإرادته الاختيار ، إعطاء الحرية للإنسان وبهذه الحرية قد أعطاه الكرامة ، إن الحرية تكريم وبهذا فضل الإنسان على الحيوان لأن الإنسان إذا ملك القدرة وملك الحرية في أن يتبع الخير والشر ومع ذلك إذا اتبع الخير فإن الفضيلة تظهر هنا «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً[2]» ، فمن أصبح في هذه الدنيا كالحيوان لا يميز بين الخير والشر ولا يتبع الحق فيصبح كالأعمى وتصبح آخرته أضل من حياة الأعمى «أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هُم الغافلون[3]» ، «وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون[4]» .

ومبدأ التربية الأخلاقية الذي يوضع على أساس هذه الفكرة هو أن يريد المتربي أولاً وقبل كل شيء التكامل الأخلاقي في نفسه . وأن يختار بإرادته الطريق

(١) سورة آل عمران ١٠٨ .

(٢) سورة الإسراء ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ .

(٣) سورة الأعراف ١٧٩ .

(٤) سورة غافر ٥٨ .

الأخلاقي طريق الخير والعزم على السير فيه ، وذلك يتطلب إعداد العدة واتخاذ جميع الوسائل اللازمة للمضي فيه ما دام الإنسان حياً «وكذلك أنزلنا آيات بينات وأن الله يهدي من يريد[1]» أي الذي يريد الهداية «ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً[2]» ، «ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة[3]» .

والآن بعد هذا العرض والتحليل لهذا الموضوع ، هل نستطيع أن نقرر من هذا أن للإنسان مطلق الحرية؟

في الحقيقة عندما نوجه نظرنا إلى تقريراتنا السابعة نجد هناك حرية وهناك جبرية ولكل من الجبرية والحرية درجات ولكل منهما بناء على ذلك مجالات . ولنذكر أولاً : درجاتهما ومجالاتهما لأن كلا منهما يرتبط بالآخر ، ثم نقرر الرأي النهائي .

أما درجات الجبرية فهي ثلاث :

الدرجة الأولى : جبرية مطلقة :

وهي ميتافيزيقية وطبيعية في الوقت نفسه ، وهي آخر الحد من القهرية لا يمكن أن يفلت منها الإنسان أو أن يخرق حدها مثل حتمية الموت المقضى به على كل إنسان ، فكل إنسان لا بد من أن يموت ولا يستطيع إنقاذ نفسه من الموت بأي حال من الأحوال ، وكذلك البعث بعد الموت فكل إنسان مجبور على أن يبعث أو يحيا مرة أخرى ، لأن هذا قضاء سابق لا بد من أن ينتهي إليه بحكم القضاء السابق وبحكم طبيعة الخلقة «الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم[4]» ، «قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون[5]» . وهذه الجبرية ميتافيزيقية من حيث إنها قضاء سابق على وجود الإنسان وهي تعد جبرية طبيعية أيضاً لأنها تتم بواسطة القوانين الطبيعية التي لا تتخلف .

---

(١) سورة الحج ١٦ . (٢) سورة الإسراء ١٩ .
(٣) سورة التوبة ٤٦ . (٤) سورة الروم ٤٠ .
(٥) سورة الجاثية ٢٦ .

الدرجة الثانية : جبرية طبيعية :

وهي أقل صرامة من الأولى إذ من الممكن تعدي حدودها وقوانينها إلى حين بشكل من الأشكال ، مثل حاجة الإنسان الطبيعية إلى التغذية فإذا امتنع عن ذلك فسيموت بعد حين لكن للإنسان قدرة على أن يمتنع عن الأكل حتى الموت مع وجود ما يؤكل . هنا نجد للإنسان مجالاً لحرية الإرادة إذ إن الإنسان يستطيع أن يختار أحد الأمرين وينفذ اختياره بين إدامة الحياة بالتغذية والقضاء عليها بالكف عنها . وليست له هذه القدرة والحرية أمام الجبرية الأولى ويقول عمر الخيام في رباعياته تعبيراً عن الجبرية الأولى «جئت إلى هذه الحياة من غير إرادة وسأنتقل عنها أيضاً من غير إرادة ولا أدري كيف جئت وكيف انتقل[1]» .

الدرجة الثالثة : جبرية أقل درجة من الثانية :

ويستطيع الإنسان مواجهتها طول الحياة لا لمدة زمنية معينة ، وتستمر حياته مع ذلك مع تحمل بعض الأضرار الناجمة عن ذلك مثل عدم خضوعه للدافع الجنسي ودافع الأمومة أو الأبوة ، إذ من الممكن أن يحيا الإنسان من غير تحقيق حاجات هذه الدوافع .

الدرجة الرابعة : جبرية القوانين الأخلاقية أو الضرورات الأخلاقية :

وهذه القوانين تستمد سلطتها وجبريتها من ثلاث جهات :

الأولى : من جهة اتصالها بالقوانين الطبيعية فمثلاً الاعتدال في السلوك قانون أخلاقي وهو في الوقت نفسه له صلة بالقانون الطبيعي ، من حيث إن الإنسان يمكن أن يخالف هذا القانون ويفرط في الأعمال لكن هناك خوفاً من الخروج عليه من حيث أن مخالفة ذلك تؤدي إلى بعض الأمراض الناجمة عنها ، مثل النظافة ، فهي قانون أخلاقي ومتصل في الوقت نفسه بالقانون الطبي لأن مخالفته تؤدي إلى أمراض لأن كثيراً من الأمراض سببها عدم النظافة . فالخوف من المرض سلطة يكتسبها القانون الأخلاقي من سلطة القوانين الطبيعية .

(١) رباعيات الخيام أحمد رامي ط٢ص ٧٢ ، ٩٥ .

الجهة الثانية : من حيث اتصالها بالأمر الإلهي وما يقترن ذلك بالتهديد بالعقاب بالنار في الآخرة . وعدم العناية والرعاية به في الدنيا .

وأما الجهة الثالثة : فمن حيث اتصالها بالعرف والعادات الاجتماعية أي من حيث اتصالها بالسلطة الاجتماعية .

وعلى ذلك يمكن أن نحدد ما للإنسان من حرية فإنه ليست له حرية إزاء القوانين من الدرجة الأولى في الجبرية وله قليل جداً من الحرية أمام الدرجة الثانية وله حرية أكثر اتساعاً من السابقة أمام الدرجة الثالثة . أما حريته أمام الدرجة الرابعة فهي أكثر شمولاً وأوسع ميداناً لأنه يستطيع مخالفة القوانين الأخلاقية ، وإن كان هناك تفاوت أيضاً في الحرية إذ إن هذه الحرية هنا تقاس بمدى إلزامية القانون ، ثم بمدى الإحساس الأدبي أو الضمير الأخلاقي الذي يتمتع به كل فرد ثم بمدى معرفة كل فرد لكل ما يترتب من الشرور على مخالفة كل قانون من تلك القوانين ، وأخيراً تقاس تلك الحرية بمدى إلزام الجماعة أفرادها بالإلزام بتلك القوانين الأخلاقية ، لكن مهما كانت صور ذلك لإلزام والإلتزام فإن للإنسان حرية الإلتزام أو عدم الإلتزام من الناحية الفعلية ، وإن كانت سعادته وشقاوته تقاس بمدى تكييف حياته مع تلك القوانين بصورة عامة فمن تقيد بها في حياته سعد فيها ومن لم يتقيد بها شقى فيها .

والآن بالنظرة إلى كل ما سبق نستطيع أن نلخص أسس الحرية الأخلاقية في النقط الآتية :

الأساس الأول :

وجود حرية الإرادة والاختيار في الإنسان في جميع الميادين الأخلاقية والتشريعية ، وكان لا بد من أن تكون هذه الحرية لتكون هناك مسؤولية . والمسؤولية تكون بقدر ما للإنسان من حرية .

الأساس الثاني :

وجود القدرة والاستعداد في الإنسان لتطبيق حرية الإرادة المكفولة له . بدليل مخالفة الناس تلك القوانين في الحياة العملية فلو لم تكن لهم الحرية في ذلك لما استطاعوا مخالفتها .

ومن كل ما سبق من تقرير الحقائق نستطيع أن نستخلص المبادئ الأساسية الآتية للتربية الأخلاقية الخاصة بالحرية :

أولاً : إن التربية الأخلاقية تبدأ من إيمان الفرد بإمكان اختيار السلوك الأفضل أو الأحسن وترك السلوك السيء والأسوأ ، ثم الإيمان بوجود قدرة على تنفيذ هذا السلوك الأفضل .

كما يجب أن يحصل عند المربى أولاً الإيمان بإمكان إحداث التغيير في سلوك الأطفال . وإذا كان الأمر كذلك فيجب تكوين هذا الإيمان الضروري لدى المربين والمتربين قبل البدء بالتربية لأنه أساس أولي . لا للتربية الأخلاقية فحسب بل للتربية عموماً .

ثانياً : إن الإيمان بحرية الإرادة والإيمان بالقدرة على تنفيذ الإرادات الحرة ينمو ويزداد كلما تمت المعرفة الإنسانية بالقوانين الطبيعية المادية والحيوية وقوانين النفس البشرية ، فإن الإنسان عن طريق معرفته للقوانين الطبيعية الصارمة استطاع أن يزداد إيمانه باتساع مجال حريته وقدرته على التحكم في الطبيعة إذ أصبح بتلك المعرفة يغوص في البحار أكثر من الأسماك ويطير في الهواء أسرع من أي طائر حتى وصل إلى كواكب كان من المستحيل أن يصل إليها يوماً في نظر الناس الجهال ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بمعرفة قوانين النفس الإنسانية فكلما زادت معرفة العلماء بها زاد إيمانهم بإمكان التحكم في سلوك الإنسان وقدرة الإنسان على توجيه سلوكه إلى حيث يشاء .

إذن فإن الإيمان بوجود القوانين الحتمية في الطبيعة لا يجب أن ينقص من إيمان

الناس بحرية الإنسان على وجه الأرض في هذه الحياة وإذن فإن تقرير الآيات التي ذكرناها من النوع الأول والتي تقرر وجود الحتمية الطبيعية والغاية الكونية ، كان ضرورياً لهذا الأمر ، ولتحديد مجالات حرية الإنسان في هذا الكون أيضاً ومن جهة أخرى فإن معرفة القوانين الأخلاقية وصلتها بالقوانين الطبيعية مهمة في ميدان التربية الأخلاقية من حيث إن المتربي يجب أن يعرف أن أي خروج على القانون الأخلاقي يعقبه ضرر أو عقاب أخلاقي طبيعي كما يصيبه أذى إذا خرج على أي قانون طبيعي إن عاجلاً أو آجلاً وإن كان له إمكانية الخروج على ذلك ، لكن على العاقل الذي يريد أن يعيش آمناً ألا يصطدم بها كما يتجنب الاصطدام بالأشياء الظاهرة ليحمي نفسه من الأذى ، يقول هنا أفلاطون «ليست الحرية هي أن يفعل الإنسان ما يشاء ولكن الحرية هي أن يوجه الإنسان إرادته طبقاً للعقل[1]» . ثم إن تقرير هذا المبدأ مهم من حيث دفع المرء إلى تجنب الاصطدام بالقوانين الأخلاقية ، ومهم أيضاً من حيث دفعه إلى البحث العلمي عن ميادين هذه القوانين . وهذا ما لا بد منه لدفع عجلة تقدم التربية الأخلاقية من الناحية العلمية لأن هناك طرقاً ووسائل خاصة بالطبيعة الإنسانية فالتربية الأخلاقية في حاجة إلى البحث عنها وتدعيمها تدعيماً علمياً .

ثالثا : إن مبدأ الإيمان باشتراك إرادة الله مع إرادة الإنسان في تنفيذ الإرادة الخيرة وتدخل إرادة الله لتعسير تنفيذ إرادة الإنسان الشريرة ـ كما بينا ـ أمر مهم في ميدان التربية الأخلاقية لأن شعور الإنسان بأن هناك إرادة عليا قوية مقدسة تعاونه في سيطرته على أهوائه ثم في تنفيذ مراداته الخيرة يخلق في نفسه الإرادة القوية الحرة في تنفيذ مراداته الخيرة كما يخلق ذلك الإيمان الشعور بضعف الإرادة إزاء تنفيذ الرغبات الشريرة . وهذا ما يقرره بعض رجال التربية أيضاً ويقولون إن الحرية التامة هي التي تتحقق بالارتباط بالله الذي هو الحق النهائي . . والذي نحتاج إلى مساعدته لتحقيق أي هدف[2]» ، ويقول فيليب فينكس بناء على هذه الفكرة

(١) أفلاطون . دكتور أحمد فؤاد الأهواني . دار المعارف ص ١٤٢ .

(٢) فلسفة التربية ص ٤٣٦ .

«يعتقد إذن أن أسمى مرتبة للحرية هي التي تعمل على أن تصبح الأهداف العلوية المقدسة أهداف الفرد نفسه وأن تستمد القوة من المصادر المقدسة اللانهائية لتحقيق هذه الأهداف[1]» . ثم يقول «يبدو من الواضح أن المربي يحتاج إلى الاهتمام بنوع الحرية لا بالحرية كحقيقة فحسب وتتأثر الأهداف التي نتصورها تأثراً حتمياً بالقيم السائدة في العملية التربوية[2]» .

رابعاً وأخيراً : إن على التربية الأخلاقية أن تعمل لتنمية حرية الإرادة الطبيعية في ميدان الحرية الأخلاقية لدى المتربي موجهاً تلك الإرادة وهذه الحرية في نفسه نحو القيام بأعمال أخلاقية جبارة لا للخروج على القوانين الأخلاقية .

وهذا له قيمة تربوية كبيرة ذلك أننا إذا نمينا تلك الإرادة في نفسه فربما يستخدمها في الخروج على القوانين الأخلاقية إذا إن هذه القدرة الإرادية يجب أن تطبق في اختيار الأعمال الأخلاقية العظيمة وتنفيذها كما ينبغي ويجب ، وأن يدرب على ذلك مختلف الميادين الأخلاقية .

ثالثاً : أساس الشعور بالمسؤولية الأخلاقية :

إذا كان تقرير وجود الحرية الأخلاقية أساساً ضرورياً للتربية الأخلاقية ، كما بينا عند الكلام عن حرية الإرادة . فإن تكوين الشعور بالمسؤولية الأخلاقية ضروري أيضاً من حيث إنه نتيجة طبيعية لتقرير الحرية أولاً ثم لا يمكن أن يكون المرء صاحب خلق ما لم يتكون عنده شعور عام بالمسؤولية بصفة عامة ، ولهذا كان هذا الموضوع جديراً بجعله أساساً من أسس التربية الأخلاقية ولهذا أيضاً يقول الدكتور عبد العزيز القوصي «من هذا نرى أن تربية الشعور بالمسؤولية أمر على أكبر جانب من الأهمية في بناء الفرد والمجتمع[3]» ، «ولا أغالي إذا قلت إن هذا الموضوع يأتي في المرتبة

(١) المرجع السابق ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٣٧ .
(٣) تربية الشعور بالمسؤولية عند الأطفال كونستانس فوستر ص ٨٠ .

الأولى بالنسبة لموضوعات التربية[1]» وهذا حق ، ذلك أن كل الجرائم وكل إهمال وكل خلل في سير النظام في المجتمع والتأخر فيه أساسها عدم سيادة الشعور بالمسؤولية في أفراد المجتمع بصفة عامة ، وفي هؤلاء الجناة والمهملين بصفة خاصة ، ولا يمكن علاج هذه المشكلة عن طريق الإكثار من التشريعات والعقوبات وأخذ الاحتياطات ، كما فعلت الدول المتقدمة ، فبالرغم من ذلك لا نجد الجرائم تقل فيها بل تزداد ، وما ذلك إلا لأن العلاج ظاهري لا باطني ، وموطن هذا الداء البواطن لا الظواهر ، ولهذا إذا أردنا علاجه يجب البداية من الباطن لمن أصيبوا بهذا الداء والعلاج الوقائي لمن لم يصابوا بعد لكيلا ينشأ عندهم هذا المرض أو يتعدى إليهم من غيرهم وذلك لا يكون إلا بتربية الشعور بالمسؤولية من البداية لكل فرد من أفراد المجتمع ، لكن كيف ذلك؟

إذا نظرنا إلى الآراء الفلسفية والتربوية في هذا الميدان وجدناها تختلف من حيث أساس المسؤولية ومن حيث طرق تربية الشعور بالمسؤولية .

أما فيما يتعلق بأساس المسؤولية فالاختلاف هنا راجع أساساً إلى اختلاف الفلاسفة حول حرية الفرد أو جبريته .

فالجبريون يدعون أن الإنسان مجبور في فعل الإجرام بحكم طبيعته الفطرية أو الوراثية أو الاجتماعية النفسية إذ إن هناك من الناس من طبع على ارتكاب جريمة القتل ، ومنهم من طبع على ارتكاب جريمة الزنى ، ومنهم من طبع على ارتكاب جريمة السرقة وما إلى ذلك ، ومن أنصار هذا الرأي سبنوزا وستوارت مل ولمبروزو ، وبناء على ذلك يرون أن خير العلاج لذلك هو العقوبة باعتبارها علاجاً وإصلاحاً ومن ثم يجب أن تختلف العقوبة الإصلاحية بحسب نفسية المجرم إذ قد يكون ذلك بإبعاد المجرم نهائياً عن المجتمع إذا فسد طبعه ولا يمكن علاجه ، أو بإبعاده مدة معينة يعالج فيها إذا كان ذلك لأمراض نفسية عقلية أو يكون ذلك بتغيير البيئة إذا كانت بيئته فاسدة أو يكون بتخويف المجرم بشدة العقوبة لاستئصال الشيء من نفسه أو

---

(١) المرجع السابق ص ١٢ .

يكون بتربيته وتهذيبه في مؤسسات تربوية خاصة[1] .

وأما أنصار حرية الإنسان فيدعون أن الجريمة ناتجة أساساً من اختيار المرء الحر ، إذ أن في إمكانه أن يحدث العمل أو لا يحدثه ، ومن ثم تجب معاقبته قصاصاً وتكفيراً عن الخطيئة الروحية ، ولهذا يشرعون أنواع العقوبات على حسب أنواع الجرائم ومن أنصار هذا الرأي أفلاطون وليبنتز وبنتام[2] . هذا فيما يتعلق بعلاج المشكلة بعد وقوعها .

أما فيما يتعلق بعلاج المشكلة قبل وقوعها وهو الاتجاه التربوي وهو الأساس لعلاج المشكلة من أساسها فقد اتفق التربيون على أن الوسيلة الوحيدة لذلك هي إيقاظ الشعور بالمسؤولية في كل ضمير ، لكنهم اختلفوا أيضاً في هذا الصدد على مدى المسؤولية وحدودها ومجالها الذي يجب ايقاظه في كل ضمير ، فالمذاهب ذات النزعة الأخلاقية الفردية ترغب في تكوين مسؤولية كل فرد أمام نفسه . وبناء على ذلك تبذل في تربية الضمير الفردي كل الجهود اللازمة .

والمذاهب ذات النزعة الروحية الصوفية ترغب في تكوين مسؤولية الإنسان أمام الله وبناء على ذلك تحاول تكوين المسؤولية عن طريق تربية الشعور الديني .

والمذاهب ذات النزعة الاجتماعية تقرر المسؤولية أمام الأمة ولذلك تهتم بتربية الضمير أو الوجدان الإجتماعي لتكوين مسؤولية اجتماعية[3] .

ومن هذه الزاوية يقرر الدكتور عبد العزيز القوصي أننا «من هذا نرى أن تربية الشعور بالمسؤولية أمر على أكبر جانب من الأهمية في بناء الأفراد والمجتمعات والشعور بالمسؤولية لفظاً مجرداً ، فله ميادينه فهناك شعور الفرد بمسؤوليته نحو المجتمع ونحو أسرته ونحو نفسه وهناك الشعور بالمسؤولية نحو مهنته ونحو فكره[4]» وعلى هذا الأساس يحدد مجالات التربية بالمسؤولية ويقول «وفكرة

---

(١) المسؤولية والجزاء . دكتور علي عبد الواحد وافي ص ١٢٤ ـ ١٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٣) في الدين والأخلاق والقومية . دكتور محمد عبد الله دراز ص ٢٦ .

(٤) تربية الشعور بالمسؤولية عند الأطفال ص ٨ ـ ٩ .

المسؤولية ليست مقصورة على التربية في البيت أو على التربية في المدرسة وإنما هي تمتد إلى تربية المجتمعات[1]» .

بعد هذا ينصح التربويون بأن تكون المسؤولية محددة بمقدار ما تستلزمه مراعاة مراحل نمو الفرد ومقدار استطاعته لتحمل المسؤوليات ، فيقول هنا مثلاً الدكتور عبد العزيز القوصي «ومن شأن التربية لتحمل المسؤولية أن يشعر فيها الشخص بقيمته واحترامه لنفسه واستمتاعه بالحياة . وبالطبع تكون المسؤولية نفسها بمقدار ، فإن زادت على حدها أو بكرت عن موعدها كانت ضرراً وإن قلت كانت ضرراً كذلك[2]» .

ويحدد كونستانس فوستر ما يجب أن يكون عليه شعور الشخص المسؤول بقوله «وقد يرى كثير من الناس الشخص المسؤول هو الذي يغلو في جده مع ميل طفيف إلى العبوس والذي يبدو كما لو كانت أعباء العالم فوق كتفيه ، أما غير المسؤول فكثيراً ما تصوره بأنه شخص مرح محب للهو والهزل ويميل الناس إلى اغتفار ما يصدر منه لأنه غير مسؤول ، لكن تعريف المسؤولية على هذا النحو قد ثبت خطأه من البحوث التي قام بها قادة علم النفس والإجتماع ، فالشخص السعيد المتكيف تكيفاً كاملاً هو من يحس بالمسؤولية إحساساً متزناً سواء أكان ذلك نحو نفسه أم نحو الآخرين ، أما غير المسؤول فهو في الغالب لا يثق بنفسه ولا بالعالم المحيط به ويركز اهتمامه حول نفسه[3] ، كما يحدد سمات الشخص الذي تكون عنده الإحساس بالمسؤولية من الناحية العملية بقوله «أنه يهتم بنفسه ويحترمها كما يهتم بغيره من الناس ويحترمهم ، يرغب في تحمل نصيبه من العمل وينجز التزاماته ، ويعتمد على نفسه دون أن يسبب لغيره متاعب لا لزوم لها . يعرف قدر نفسه ويتحمل مسؤولية آرائه وشعوره وتصرفاته ، لا ينتظر أن يصيب شيئاً دون مقابل ، مجد في عمله ويكون والداً فاضلاً وزميلاً صادقاً وجاراً طيباً[4]» ، ذلك هو مجمل الاتجاهات المختلفة ولننظر الآن إلى رأي الإسلام .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١١ .
(٣) المرجع السابق ص ١٤ .
(٤) المرجع السابق ص ١٣ .

وجهة نظر الإسلام :

يقوم الشعور الأخلاقي في نظر الإسلام على دعامتين أساسيتين :

إحداهما تقرير الإسلام ابتداء وجود حاسة أخلاقية في الطبيعة الإنسانية .

وثانيتهما : تقريره حرية الإرادة وحرية تنفيذ المختار ، والعدالة تقتضي وجود المسؤولية المترتبة على تلك الحرية وأن تكون هذه المسؤولية بقدر تلك الحرية وقد بينا تلك الحاسة الأخلاقية عند دراسة الطبيعة البشرية . كما بينا عند الكلام عن الحرية مدى ما أتيح للإنسان من الحرية الأخلاقية وإذا كان الأمر كذلك فمن السهل تحديد المسؤولية وأبعادها .

ويتطلب تحديد المسؤولية من جميع الجوانب القيام أولاً بتحديد معناها ثم تحديد المسؤول وشروط مسؤولياته ، وأخيراً مجالاتها ودرجاتها .

أما من جهة معناها فهو تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله في الدرجة الأولى وأمام ضميره في الدرجة الثانية وأمام المجتمع في الدرجة الثالثة .

وسوف يتضح ما أقصده من هذا التعريف بالتحديد خلال عرض جوانب هذا الموضوع بصورة متكاملة .

والشخص الذي تحمل المسؤولية يجب أن يكون أهلاً لها وذلك بأن يكون إنساناً عاقلاً قد بلغ سناً معينة بحيث يكون واعياً لطبيعة ذاته ولسلوكه وأهدافه ونتائج تصرفاته مما يعود على نفسه أو على غيره من نفع أو ضرر إن عاجلاً أو آجلاً وأن تكون له حرية الإرادة فيما يختاره والقدرة على تنفيذ تصميماته واختياراته .

وهذه الشروط مجتمعة تحدد المسؤول ، ولا يمكن الإستغناء عن أي واحد منها ذلك إن المسؤول إذا لم يكن واعياً بنفسه ومقاصده من أفعاله وما سينجم عنها فلا معنى لجعله مسؤولاً عن تصرفاته ، ولهذا لم يجعل الإسلام الحيوانات مسؤولة وإنما جعل الإنسان مسؤولاً عن تصرفاته «فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا

يعملون[1]» ، «ولتسألن عما كنتم تعملون[2]» ، «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً[3]» . وكذلك لم يجعل الأطفال والمجانين والنائمين مسؤولين عن مسالكهم فقال الرسول : «رفع القلم عن ثلاثة عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم[4]» ، كما أنه إذا لم يكن المرء مختاراً في سلوكه لا يكون مسؤولاً عن فعله كمن كان مضطراً أو مجبوراً سواء كان اضطراره لظروف أو لسلطة قاهرة . «فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه[5]» ، «وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه[6]» . وكما أنه لا مسؤولية بدون حرية الاختيار كذلك لا مسؤولية بدون الاستطاعة لتنفيذ المختار «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها[7]» ، «فاتقوا الله ما استطعتم[8]» .

وفي حدود حرية الاختيار واستطاعته لتنفيذ المختار أصبح الإنسان أهلاً لتحمل المسؤولية وتميز بذلك عن باقي المخلوقات الأخرى التي لا تملك حرية الاختيار ، أو لا تستطيع تنفيذ المختار لأنها مقضي عليها بسلوك معين ، فلو أعدنا النظر إلى السماء والأرض وما بينهما مرة أو مرتين لما وجدنا فيهما وما بينهما مخلوقاً واحداً شبيهاً بالإنسان في القيام بأعمال مختلفة لا حدود لها تحدد لون سلوكه ولا شكل أعماله وإنجازه فهو يغوص في البحار كالأسماك ويطير في الجو كالطيور ويسير في الأرض كالمخلوقات البرية ويصنع أشياء مختلفة لا حدود لها . فكل حيوان له نمط من السلوك وله نمط من الصنعة لا تغيير فيه ولا تبديل فالنحل يعمل عسلاً واحداً ويصنع

---

(١) سورة الحجر ٩٢ .

(٢) سورة النحل ٩٣ .

(٣) سورة الإسراء ١٣ .

(٤) الجامع الصغير ج ١ ص ٢٤ .

(٥) سورة البقرة ١٧٣ .

(٦) سورة الأنعام ١١٩ .

(٧) سورة البقرة ٢٨٦ .

(٨) سورة التغابن ١٦ .

نمطاً واحداً من الشهد وكل طير يعمل نمطاً واحداً من العش أما الإنسان فيصنع آلافاً مختلفة من الأجهزة العلمية والأطعمة والمساكن ، ولهذا فإن الإنسان بهذه الإمكانية أكبر وأقوى من جميع المخلوقات ، إنه يستطيع أن يسخر كل المخلوقات الحية وغير الحية لنفسه ولغيره ويستطيع أن يستخدم كل هذه الإمكانيات في الخير أو الشر . وبذلك فقد تحمل أكبر المسؤولية التي خافت منها السماوات والأرض وأهلها وصدق الله العظيم إذ قال «إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ، ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً[1]» .

والأمانة هي كل الواجبات التي يجب على الإنسان أن يقوم بأدائها نحو الله والناس بحكم تلك الإمكانيات من الحرية والقدرة وقد جاء تفصيل هذه الأمانة في آية في سورة الأنفال التي نزلت قبل الآية السابقة وهي قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون[2]» .

ويقول الفخر الرازي بعد عرض الآراء المختلفة في هذه الأمانات «معنى الآية إيجاب أداء التكاليف بأسرها على سبيل التمام والكمال من غير نقص ولا إخلال وأما الوجوه المذكورة في سبب نزول الآية فهي داخلة فيها ، لكن لا يجب قصر الآية عليها ، إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[3]» . كما جاء ذلك مفصلاً في سور مختلفة عند المناسبات «فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته[4]» ، «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها[5]» ، «والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون[6]» .

(١) سورة الأحزاب ٧٢ ـ ٧٣ .
(٢) سورة الأنفال ٢٧ .
(٣) تفسير الفخر الرازي ج١٥ ص١٥٢ .
(٤) سورة البقرة ٢٨٣ .
(٥) سورة النساء ٥٨ .
(٦) سورة المعارج ٣٢ .

لكن الإنسان ظلم نفسه عندما خان الأمانة وتعدى الحدود التي رسمها الله «تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون[1]» لكنه تعدى تلك الحدود لقدرته على التعدي ولجهله حيناً «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً[2]» . ولضعفه أمام النزوات والشهوات حيناً آخر «وخلق الإنسان ضعيفاً[3]» . ولعدم تدقيقه فيما يترتب على أعماله من خير أو شر «ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً[4]» . ثم لعدم خوفه من تجرع الظلم وما يترتب عليه من العواقب الوخيمة «إن الإنسان لظلوم كفار[5]» .

لكل هذه الأمور ولغيرها ظلم الإنسان نفسه لتحمله هذه المسؤولية الخطيرة كما يقال لإنسان يا جاهل ظلمت نفسك إذا تحمل أمراً عظيماً خطيراً يخاف عليه من أي تقصير فيه لما يترتب على ذلك من أضرار عظيمة وهذه الآية تعبر تعبيراً تمثيلياً عن إمكانياته الطبيعية بالقوة لا بالفعل كآية الفطرة على التدين ، وكآية الإشهاد على الربوبية ، وكآية الطاعة من الأرض والسماء للخضوع على النظام «فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين[6]» . لأنهما لا تملكان بطبيعتهما الخروج عن النظام المفروض عليهما .

ومما يؤيد وجهة نظرنا هذه الآية وهي التالية لآية الأمانة السابعة وهي قوله تعالى «ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً[7]» ، وكانت الغاية من خلق الإنسان على النحو المذكور الامتحان فيما أسند إليه من الأعمال والأمانات فمن أداها يثب عليها ومن خانها يعاقب عليها كما جاء في كثير من الآيات منها قوله تعالى «تبارك الذي بيده الملك وهو على كلْ شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً[8]» ومنها أيضاً قوله تعالى «وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم

(١) سورة البقرة ٢٢٩ .
(٢) سورة الإسراء ٨٥ .
(٣) سورة النساء ٢٨ .
(٤) سورة الإسراء ٣٦ .
(٥) سورة ابراهيم ٣٤ .
(٦) سورة فصلت ١١ .
(٧) سورة الأحزاب ٧٣ .
(٨) سورة الملك ١ ـ ٢ .

فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب[1]» ، وأخيراً منها كذلك «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه[2]» ، ولهذا فقد ذكر ابن كثير في صدد تفسير آية الأمانة حديثاً عن ابن عباس فقال «الأمانة الفرائض (وفي رواية الطاعة) عرضها الله على السماوات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا منها من غير معصية ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا بها ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها (من ثواب وعقاب وخير وشر) «وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً[3]» .

وإذا ثبت أن في الإنسان أهلية للقيام بمثل هذه المسؤولية فلا ينبغي أن يؤدي ذلك إلى الشعور بالحمل الثقيل عليه وأن هذه المسؤولية بلاء وعذاب وأن الله لم يفرض ذلك ليشقى الإنسان في هذه الحياة «طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى[4]» ، «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون[5]» ، «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر[6]» .نعم إنها مسؤولية كبيرة ولكن القيام بهذه المسؤولية شرف للإنسان وكلما كانت المسؤولية أكبر ، نال من اضطلع بها شرفاً أكبر وأجراً أعظم ولهذا قال الرسول «أجرك على قدر نصبك ، وفي رواية على قدر تعبك[7]» وقال علماء أصول الفقه «ما كان أكثر فعلاً كان أكثر فضلاً[8]» ، إذ لا بد من بذل الجهود ولا بد من اجتياز المخاطر والصعوبات لينال الإنسان ذلك الفوز العظيم ، أما إذا لم يقبل المرء مثل تلك المسؤوليات ولم يرض بتحمل الصعوبات

---

(١) سورة الأنعام ١٦٥ .

(٢) سورة الإنسان ٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ج٣ص ٥٢٢ .

(٤) سورة طه ١ ـ ٤ .

(٥) سورة المائدة ٦ .

(٦) سورة البقرة ١٥٨ .

(٧) كشف الخفاء ج١ ص ١١٢ .

(٨) الأشباه والنظائر . الإمام السيوطي ص ١٤٣ .

في سبيلها فلن ينال ذلك الشرف ، ولهذا فإن المخلوقات الحية التي لم تتحمل مثل هذه المسؤولية التي تحملها الإنسان لم تنل الشرف الذي ناله الإنسان ولهذا أيضاً يقرر الفلاسفة تفضيل الإنسان الخير على الملائكة على أساس أن الإنسان يبذل جهداً كبيراً ليفعل الخير فهو يجاهد مع نزعاته الداخلية ويجاهد مع الظروف الخارجية لفعل الخيرات ، أما الملائكة فإن طبيعتهم خلقت للخير ولا يستطيعون فعلاً خلاف ذلك ولهذا لا يجاهدون ولا يلاقون صعوبة يلاقيها الإنسان[(١)] «وبناء على هذه الفكرة أيضاً فضل علماء المسلمين الإنسان الخير على الملائكة[(٢)]» بل إنه خير خلائق الله «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية[(٣)]» . ولهذا أيضاً أمر الله الملائكة بالسجود لآدم «وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين[(٤)]» . ونضيف إلى ذلك أن من أسباب تفضيل الإنسان أن فيه نفخة من روح الله وليس هناك مخلوق آخر غير الإنسان دخل في طبيعة خلقه روح الله وإن كانت تلك الإضافة لمجرد إفادة التفضيل أضافها الله إلى نفسه تشريفاً وتكريماً للإنسان . كما يقول الإمام القرطبي في تفسير الآية[(٥)] ، وقد بين الله أنه خلق الجان من نار «والجان خلقناه من قبل من نار السموم[(٦)]» ، وخلق الملائكة من النور وخلق الشيطان من النار فقال الرسول «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم[(٧)]» ولقد تجاهل ابليس أو غفل أن في الإنسان نفخة إلهية إلى جانب طبيعته ونظر إليه على أنه مادة ترابية «قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين[(٨)]» .

(١) المدخل إلى الفلسفة ص ٢٣١ . انظر الهامش أيضاً ، ازفلد كولبه .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ج١ ص٢٨٩ ، ج٢٠ ص١٤٥ .
(٣) سورة البينة ٧ .
(٤) سورة الحجر ٢٨ ـ ٢٩ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن ج٦ ص ٢٢ ، ج١٠ ص ٢٤ .
(٦) سورة الحجر ٢٧ .
(٧) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق ـ باب في أحاديث متفرقة ج٤ ص ٢٢٩٤ .
(٨) سورة الأعراف ١٢ .

هذا إذا كان الإنسان خيراً كما قلنا أما إذا أصبح شريراً مع ما فيه من نفخة إلهية ومع ما فيه من قدرة على أن يصبح خيراً فيكون عندئذ شر الخليقة «إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية[1]» .

ولهذا كله فإن الإنسان الذي يقوم بتلك المسؤولية يجب أن يشعر بالجدارة إذ أن المسؤولية الخطيرة والكبيرة لا تسند إلا إلى من يوثق به وبجدارته وإمكانياته للإضطلاع بها ، ولهذا فنحن لا نسند إدارة الدولة إلا إلى من نتوقع منهم الكفاءة العالية والقدرة الفذة لإدارة دفة الأمور ، وذلك شرف لذلك المسؤول الكبير الذي نوليه أمرنا ، ولهذا أيضاً فإن على الإنسان أن يجاهد ويكافح لأداء مسؤولياته والأمانات التي تحملها لينال رضا الله وشرفاً إنسانياً عظيماً ، وإن الله سينصره ويهديه من كان على هذه العزيمة العظيمة «وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير[2]» .

هذا الوعي بتحمل المسؤولية ضرورة نظرية كأساس للتربية بالمسؤولية لأنه من الخطأ تربوياً أن نجعل الناس ـ عن طريق هذه التربية ـ وكأنهم يحملون على أكتافهم ليل نهار حملاً ثقيلاً يرزحون تحته ومن ثم يعيشون حياة شقية بوجوه عابسة .

وأضيف هنا أمراً مهماً وهو أن من يتحمل المسؤوليات عن جدارة وعن رغبة في أدائها لتحقيق ذاته الإنسانية ونيل رضا الله العلي القدير فإنه عندئذ يشعر بسرور داخلي وانشراح قلبي كلما أدى مسؤولية وحقق واجباً يقع عليه وكلما زادت أعماله من هذا زاد سروره .

ثم إن تحمل المسؤولية أمر ضروري للحياة الفردية والاجتماعية الإنسانية مع ذلك فإن الإسلام راعى عند تحديدها وبيان مجالها وأقسامها ألا تكون بصورة ثقيلة

---

(١) سورة البينة (لم يكن) ٦ .

(٢) سورة الحج ٧٨ .

وفوق مستوى قدرة الطبيعة لكيلا يشقى الناس بحملها ، هذا وذاك سيتبين بصورة واضحة من خلال تحديدنا مجالها وأقسامها وأبعادها .

فمن حيث مجالها فالحياة كلها مجال المسؤولية ، وكل مكان يمكن أن يكون ظرفاً لأداء المسؤوليات فإننا نجد الإسلام قد حدد أوقاتاً متسعة لأداء كل واجب وكل مسؤولية كما أنه لم يحدد مكاناً معيناً لأداء الواجبات والالتزامات إلا نادراً لا يخرج عن قدرة الناس ، إلى جانب هذا فإنه قرر للحالات الضرورية طرقاً استثنائية لأدائها وذلك إما بإعفاء المضطر من المسؤولية أو تحملها عنه أو تأجيل وقت أدائها . هذه تشريعات بينتها مفصلاً في كتاب آخر[1] مع بيان خصائص إلزام المسؤوليات لإنني لا أريد هنا الدخول في كثرة التفصيلات وإنما أريد تناول الجوانب الأساسية من الناحية النظرية للتربية بالمسؤولية .

ومن حيث أقسام المسؤولية فأجدني مضطراً إلى تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

الأول تقسيمها من حيث المسؤوليات الإيجابية والسلبية ودرجاتها من حيث كونها كبيرة وصغيرة ولازم وألزم من حيث ضرورتهما فألزمها فرض العين ثم فرض الكفاية ثم الواجب ثم السنة المؤكدة ثم غير المؤكدة ثم النوافل وأخيراً الكماليات ، كذلك رتب المحرمات إلى كبائر وصغائر ثم المكروهات وخلاف الأولى ثم قسمها من جهة أخرى من حيث توقيتها إلى الفروض والواجبات المحددة وغير المحددة والمؤقتة وغير المؤقتة ، وكل ترك للأعمال المطلوبة يؤدي إلى مسؤولية بمقدار حكمه وضرورته كذلك كل انتهاك لأعمال محرمة يؤدي إلى مسؤولية تقاس بدرجة الفعل المحرم المنتهك . وكلها تشريعات مفصلة في الشريعة الإسلامية ،

القسم الثاني المسؤولية الفردية : ولها مجالان : المجال الداخلي والمجال الخارجي .

فالأول مسؤولية الإرادة والقصد والتصميم فليس من الضروري ظهور العمل المادي الظاهري ليكون الإنسان مسؤولاً كما في رأي القوانين بل إن العزم على فعل

---

(١) انظر الاتجاه الأخلاقي في الإسلام . ص ٢٢٣ ـ ٢٣٦ .

شيء كاف لتحمل مسؤوليته إن خيراً فخير وإن شراً فشر «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله[1]» ولهذا فمن عزم على فعل شيء ولم يستطع تنفيذه لمانع خارجي كخوفه من السلطة أو لجهله بطريق التنفيذ يكن وكأنه قد نفذه بالفعل ، وكذلك لو ترك فعلاً بالإرادة ، فإذا ترك مثلاً ارتكاب الجرم خوفاً من الله وإطاعة لأمره يكتب له حسنة ويُعَدّ ذلك له عملاً خيراً لأن الترك فعل أيضاً ، فالفعل إما أن يكون إيجابياً وإما أن يكون سلبياً ، مصداق ذلك قول الرسول راوياً عن ربه «إن الله عز وجل كتب السيئات والحسنات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة فإن هم بها وعملها كتبها عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها له حسنة كاملة فإن هو هم بها وعملها كتبها الله سيئة واحدة[2]» ، لكن ينبغي أن يكون ترك السيئة خوفاً من الله لا عجزاً عن العمل أو خوفاً من السلطة وذلك ليكون الترك لله خالصاً ولينال ثوابه ولهذا نص الرسول في حديث آخر على ذلك فقال «إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة . وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة له ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة[3]» وفي رواية صحيح مسلم «قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة (وهو أبصر به) فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جراى[4]» . وقد وردت نصوص أخرى تؤيد أن الإنسان يؤاخذ على عمل القلب إذا كان عزماً وتصميماً وإرادة للعمل السيء منها قوله تعالى «إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة[5]» ومنها قوله تعالى «ومن يرد فيه بإلحاد

---

(١) سورة البقرة ٢٨٤ . (٢) فتح الباري لشرح البخاري كتاب الرقاق ج١٤ ص١٠٦ .

(٣) فتح الباري بشرح البخاري كتاب التوحيد ـ باب يريدون أن يبدلوا كلام الله ج١٦ ص ٢٤٦

(٤) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس ج١ ص ١١٨ .

(٥) سورة النور ١٩ .

بظلم نذقه من عذاب أليم[1]» ، لأن الإرادة والتصميم من الأعمال القلبية سواء نفذت بالفعل أو لم تنفذ ، ولهذا قال الرسول «إذا التقى مسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قال فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال إنه كان حريصاً على قتل صاحبه[2]» ، ولأن الإسلام كما حرم الفواحش من الأعمال الظاهرة حرم كذلك الأعمال الفاحشة الباطنة «قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي[3]» والأعمال القلبية ليست النيات على فعل الجرائم فحسب بل أن هناك أنواعاً كثيرة مثل الحسد والبغض وسوء الظن «إن بعض الظن إثم[4]» وقال الرسول «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً[5]» . لأن كل المساوىء الأخلاقية ناشئة أساساً من الإرادات والقلوب السيئة والعلاج الناجح هو تطهير القلوب أولاً ، ولا يدخل في نطاق هذه المسؤولية ما يدخل في قلب الإنسان من خطرات الخير ووساوس الشر أو بتعبير آخر حديث النفس ، ولهذا لما هرع بعض الصحابة إلى الرسول عندما نزل قوله تعالى «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله[6]» قائلين أنكون مسؤولين عما توسوس به نفوسنا قال «إن الله تجاوز عن أمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تتكلم[7]» . وفي رواية صحيح مسلم إذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها[8]» .

---

(١) سورة الحج ٢٥ .

(٢) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج ١ ص ٣٠ .

(٣) سورة الأعراف ٣٣ .

(٤) سورة الحجرات ١٢ .

(٥) صحيح مسلم كتاب الآداب باب تحريم الظن ج٤ ص ١٩٨٥

(٦) سورة البقرة ٢٨٤ .

(٧) فتح الباري بشرح البخاري . كتاب الإيمان والنذور ـ باب إذا حنث ناسياً ج ١٤ ص ٣٥٧ .

(٨) صحيح مسلم كتاب الإيمان ـ باب إذا هم العبد بحسنة ج ١ ص ١١٧ .

وهناك روايات متشابهة في هذا الباب للترمذي والنسائي[1] ، فلا داعي لذكرها والسبب في عدم كتابة الله حديث النفس أو وسوستها أنه أمر صعب أو مستحيل أن يستطيع الإنسان أن يمنعها ، ولهذا قال تعالى «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت[2]» .

هنا نرى أن الإسلام يختلف في نظرته إلى المسؤولية عن كثير من المذاهب الأخلاقية ونظريات القانون وبعض الأديان ، وذلك لأن هذه المذاهب لا تجعل مجال الإرادة الداخلية ـ ما لم تنفذ في العمل الخارجي ـ مجال مسؤولية إطلاقاً ، كما يختلف عن نظرة بعض الأديان السابقة على الإسلام التي كانت تعتبر حديث النفس ووسوستها مجال المسؤولية كما يفهم ذلك من آخر الآية السابعة وهي «ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به[3]» .

أما المجال الظاهري للمسؤولية فهو السلوك المحسوس سواء أكان كلاماً أم فعلاً شريطة أن يحدث قصد واختيار «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان[4]» . وفي آية أخرى «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم[5]» ، وقال الرسول «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى[6]» كذلك لا يكون الإنسان مسؤولاً عن سلوكه إذا كان مكرهاً عليه «ومن يكرههنّ فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم[7]» أو كان مضطراً إلى ذلك «فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه[8]» .

(١) انظر الأحاديث القدسية ج ١ ص ٥٣ .
(٢) سورة البقرة ٢٨٦ .
(٣) سورة البقرة ٢٨٦ .
(٤) سورة المائدة ٨٩ .
(٥) سورة البقرة ٢٢٥ .
(٦) فتح الباري بشرح البخاري ج ١ ص ١٣ .
(٧) سورة النور ٣٣ .
(٨) سورة البقرة ١٧٣ .

وأخيراً فهناك نوع رابع من السلوك لا يحاسب فيه أيضاً وهو السلوك الذي يحصل سهواً أو خطأً بدون إرادة «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا[1]» .

كل هذه الحالات دليل على مدى مراعاة الإسلام إمكانات الطبيعة البشرية التي يظهر منها أحياناً سلوك اضطراري أو غير إرادي أو خطأً دون قصد وكل ذلك لا يدخل في نطاق إمكانات التحكم الإرادي والعملي ، لأنها لا تصدر من قلب آثم إذ لو كان الأمر كذلك لكانت هناك مسؤولية تستلزم تطهير القلب مما وقع فيه من المآثم .

وإذا كان لهذه المسؤولية مجالان تحدد بهما فإن لها بعدين تقاس بهما وهما البعد المادي والبعد النفسي أو الوجداني .

ففي البعد الأول : ينظر إلى مدى ما يترتب على السلوك فعلاً كان أو كلاماً من نفع أو ضرر ومن آثار تتبعه وتنشأ عنه مهما طال الزمن ، لأن الفعل يصبح كائناً موجوداً أو مولوداً قد يعيش أكثر من صاحبه ، ولهذا قال الرسول «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء[2]» ، وقال أيضاً «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً[3]» . وقال أيضاً «إن مما يلحق المؤمن من عمله بعد موته علماً علمه ونشره أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها في صحته وحياته[4]» . وقال أيضاً «ما من رجل ينعش

---

(١) سورة البقرة ٢٨٦ .

(٢) صحيح مسلم كتاب العلم - باب من سن في الإسلام سنة حسنة . ج٤ ص ٢٠٥٩ .

(٣) المرجع السابق ج٤ ص٢٠٦٠ .

(٤) سنن ابن ماجه ج١ ص ٢٤٢ .

بلسانه حقاً فعمل به بعده إلا جرى عليه أجره إلى يوم القيامة ثم وفاه الله يوم القيامة[1]» . وقال تعالى «إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين[2]» .

وفي البعد النفسي أو الوجداني : نظر إلى مدى ما يتخذ الفعل من القداسة أو البشاعة في أعماق وجدان الناس فالقتل مثلاً أبشع من السرقة والتضحية بالنفس من أجل الدفاع عن الدين أقدس من التضحية من أجل الدفاع عن المال ، ثم إن العمل نفسه يتغير بحسب الصورة التي يتم فيها ، فالقتل عن طريق تقطيع الأجزاء والأعضاء أبشع من القتل ضرباً بالرصاص أو شنقاً بالإعدام ، والحرق بالنار أبشع من الطعن بالسكين ، ولهذا قال الرسول «إن الله كتب الإحسان في كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فاحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته[3]» ومن أجل ذلك نهى الرسول عن القتل بالنار والقتل بالمثلة[4]» ، والمثلة هي القتل عن طريق تقطيع الأجزاء أيا كان المقتول إنساناً أم حيواناً .

والمغزى التربوي هنا هو إفهام هذه المسؤولية للمتربين لأنها من أكبر الزواجر عن ارتكاب الفساد والانحراف ومن أكبر الدوافع إلى عمل الخيرات ذلك أنه إذا كان الإنسان يحاسب على عمله السيء بقدر ما يكون له من تأثير سيء إلى يوم القيامة فكذلك يثاب على عمله الخير بقدر ما ينتفع منه الناس إلى يوم القيامة ، فكم يكون كبر العمل الفاسد وثواب العمل الخير؟ .

أما القسم الثالث من المسؤولية فهو المسؤولية عن سلوك الغير وهي المسؤولية الاجتماعية أساساً :

وفيها شيء من التعقيد والغموض وقد يبدو لبعض الناس أن ذلك شيء غير

---

(١) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج ١ ص١٤٥ .

(٢) سورة يس ١٢ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الصيد والذبائح ج٣ ص ١٥٤٨ .

(٤) التاج كتاب الجهاد ج٤ ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤ .

عادل إذ كيف يكون المرء مسؤولاً عن سلوك الآخرين ، وقد يبدو أيضاً أن هذا الأمر يتعارض مع بعض المبادىء الأخرى التي تقرر مسؤولية الإنسان عن نفسه فقط ، ولهذا يحتاج هذا الموضوع إلى شيء من التأمل والفحص حتى ينجلي ويزول التعارض .

فإذا نظرنا إلى الاتجاهات الأخلاقية والقانونية في هذه المسألة وجدنا اتجاهين بارزين :

أحدهما اتجاه فردي ، ويرى أن الفرد ليس مسؤولاً إلا عن سلوكه الخاص به . وثانيهما اتجاه جماعي يرى مسؤولية الجماعة عن سلوك الأفراد ومسؤولية الغير عن سلوك غيره ، وبالرغم من هذا الإختلاف بين الاتجاهين من الوجهة النظرية عموماً فبينهما بعض التقارب أيضاً من الوجهة العملية أو في بعض الأمور الجزئية على أقل تقدير ، ذلك أن الاتجاه الأول بالرغم من دعواه الفردية فإنه من الوجهة العملية قد قرر المسؤولية الغيرية في بعض الجرائم مثل جريمة القتل في بعض الحالات وفي بعض الظروف الخاصة . كما أن الاتجاه الثاني بالرغم من دعواه الجماعية في المسؤولية فإنه لا يجعل الجماعة مسؤولة عن كل سلوك أفرادها بل يقصرها على بعض الأفعال والجرائم[1] .

وأما من وجهة نظر الإسلام فإنا نجد نصوصاً تقرر المسؤولية الفردية بصورة مطلقة كأن الفرد مسؤول عن نفسه فقط فقال تعالى : «ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى[2]» ، «يا أيها الذي آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم[3]» .

لكن نجد أيضاً نصوصاً أخرى تقرر مسؤولية الفرد عن سلوك غيره . من هذه النصوص قوله تعالى «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن

---

(١) المسؤولية والجزاء د . علي عبد الواحد وافي ص ٦١ .

(٢) سورة الأنعام ١٦٤ .

(٣) سورة المائدة ١٠٥ .

الله شديد العقاب[1]» . وبعد أن تلا الرسول قوله تعالى «لعن الذي كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون[2]» . قال عليه السلام «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأخذنَّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم[3]» وقال «والذي نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم[4]» ، وسألت زينب يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم إذا كثر الخبث[5]» ، وذلك لأن الفساد لا يقتصر ضرره على الفاسد بل لابد من أن ينتقل إلى غيره أيضاً ، ولهذا فقد شبه الرسول الحياة الاجتماعية بحياة جماعة في سفينة في البحر وشبه عمل الفاسدين فيها بعمل خرق لجدار السفينة إذ إن هذا العمل عندئذ لا بد من أن يؤدي إلى غرق السفينة وضياع حياة الجماعة فقال «مثل القائم على حدود الله والواقع فيهما كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا[6]» .

ولهذا جعل الرسول إزالة المنكر والأخذ على يد الفاسدين من الإيمان فقال «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان[7]» ، وقال «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته

---

(١) سورة الأنفال ٢٥ .

(٢) سورة المائدة ٧٨ـ ٧٩ .

(٣) رياض الصالحين ـ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ١٠٤ .

(٤) المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٥) المرجع السابق ص ١٠٢ .

(٦) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج٢ ص ١٢٦ .

(٧) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج ١ ص٦٩ .

حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل[1]» وإنكار المنكر بالقلب ليس هو مجرد السكوت على المنكر بل هو عدم إبداء أية معاملة حسنة للفاسق ومقاطعته في المعاملة كما فعل الرسول مع الذين تخلفوا عن الحرب حتى ضاقت بهم الأرض من هذه المقاطعة وتابوا عما فعلوا حتى نزلت الآية «وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إنَّ الله هو التواب الرحيم[2]» والمغزى التربوي هنا هو التربية الأخلاقية بالجماعة فإذا لم يجد المنحرف أية معاملة بل مقاومة ومحاربة من المجتمع الذي يعيش فيه يرتدع عن الانحراف أما إذا عومل الفاسق في المجتمع من المعاملة الحسنة كما يعامل الصالح فإن هذا يؤدي إلى الشعور بأنه لا فرق بين المحسن والمسيء وبين من يبني وبين من يهدم ثم يؤدي الأمر إلى استفحال الفساد وعلى هذا الأساس ينبغي أن يمرن من يراد تربيته من الصغر على ممارسة مقاومة الفساد والانحراف بين زملائه وفي مجتمعه بقدر طاقته وإمكاناته .

ويجب أن تغرس في قلبه تلك المفاهيم في المسؤولية ومدى أهمية ذلك في الحياة الاجتماعية .

لكن ينبغي أن نفرق هنا بين مسؤولية الفرد عن عمل غيره ومسؤولية صاحب العمل نفسه ، فصاحب العمل مسؤول عن إضلال غيره بآرائه وتوجيهاته أو سلوكه الفاسد ، والآخر مسؤول عن اتباعه لآراء غيره وتقليد الفاسد ، ثم لعدم مقاومته لهذه الضروب من الفساد الصادرة من غيره ، إذن فالمسؤولية مزدوجة من حيث إنه أحدث عملاً فاسداً ثم أصبح الفاسد سبباً بعمله الفاسد ، لعمل الآخرين مثل عمله ولهذا قال تعالى «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٧٠ .

(٢) سورة التوبة ١١٨ .

بغير علم الاساء ما يزرون[1]» .

وتحمل الإنسان مسؤولية سلوك الغير في هذا الإطار ليس فيه أي غرابة في التفكير الأخلاقي ذلك أن الإنسان ليس مسؤولاً فقط عن فعل الشر بل هو مسؤول أيضاً عن دفع الشر لأن هدف الأخلاق تحقيق الخير والخير يتحقق عن طريقين : طريق إحداث الخير وتنميته ، وطريق إزالة الشر ووقاية الخير من طغيان الشر عليه . ثم إن هناك مسؤولية أخرى لا يمكن أن يتحملها الإنسان وهي أن وزر أعمال الآخرين لم يكن سبباً لا يمكن أن يتحمله الإنسان وهو أن وزر أعمال الآخرين لم يكن سبباً لأعمالهم ولم يكن في إمكانه أن يحول بينهم وبين أعمالهم الفاسدة أو أن يتحمل هو عن قصد كما يتحمل ديونه كأن يقول مثلاً لآخر افعل هذا فإن كان منه عليك وزر فأنا أتحمله ، ولهذا قال تعالى «ولا تزر وازرة وزر أخرى[2]» . كما أن الإنسان إذا دعا الضال إلى الهدى فلم يتبع هدايته فلا يكون هو بعد ذلك مسؤولاً عن ضلال الضال ما دام لا يملك سلطة يقهره بها على الهدى ولهذا قال تعالى «لا يضركم من ضل إذا اهتديتم[3]» ، «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر[4]» .

كما ينبغي أن نفرق بين مسؤولية المسلم عن كفر الكافر وبين مسؤوليته عن فساد المسلم وفعله المنكر أمامه . فالمسؤولية إزاء الكفر قاصرة على الدعوة إلى الإيمان وليس عليه إكراهه على الإيمان «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين[5]» ، «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي[6]» ، ولهذا فإن الرسول لم يكره أهل الديانات من اليهود والمسيحيين حتى بعد امتداد سلطانه عليهم ، وكان يتعامل معهم ، فقد روى أن الرسول «اشترى طعاماً من يهودي إلى أجل ورهنه درعاً من حديد[7]» .

(١) سورة النحل ٢٥ .
(٢) سورة الأنعام ١٦٤ .
(٣) سورة المائدة ١٠٥ .
(٤) سورة الغاشية ٢٢ .
(٥) سورة يونس ٩٩ .
(٦) سورة البقرة ٢٥٦ .
(٧) فتح الباري بشرح البخاري ج ٥ص ٢٠٦ كتاب البيوع انظر كذلك صحيح مسلم كتاب المساقات ـ باب الرهن جـ٣ ص١٢٦ .

أما مسؤوليته إزاء فساد المسلم والمجتمع الإسلامي فالأمر يختلف هنا ذلك أن المسؤولية هنا لا تقتصر على مجرد الدعوة والإرشاد بل تشمل أيضاً مقاومة الفساد وتغيير المنكر بالقوة وارجاع المنحرف عن انحرافه بالإكراه إن أمكن ذلك فيجب أن يستخدم في هذا السبيل كل ما يمكن أن يستخدمه من قوة اليد أو اللسان وبمقاطعته وعدم التعامل معه بأية صورة من الصور وهذا هو الإنكار بالقلب الذي جاء في الحديث الذي ذكرناه آنفاً . فإذا قاوم الفساد بهذه الصورة على حسب استعداده وقوته فلا يكون بعد ذلك مسؤولاً عن فساد غيره أما إذا رضي بالفساد والواقع أو لم يقاوم وهو يرى الفساد أو يسمع به فهو مسؤول ، يقول الرسول «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كمن شهدها[1]» أما إذا لم يشاهد ولم يسمع فهو ليس بمسؤول طبعاً كما أنه ليس مسؤولاً عن البحث عن خطايا الناس وفسادهم تاركاً عمله ومهملاً أموره وإنما يدخل هذا في إطار مسؤولية الحاكم المسلم ، لأن هناك فرقاً بين مسؤولية فرد عادى في المجتمع عن فساد المجتمع ومسؤولية الحاكم ، كل في مجال إمكاناته ، ولهذا قال الرسول «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، والأمير راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته[2]» .

فمسؤولية الفرد العادي أقل من مسؤولية الحاكم لأن الحاكم مسؤول عن الأمة وفسادها والنصح لها «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة[3]» ، ومن ضمن الفروق بين المسؤوليتين أن الحاكم مطالب بتنفيذ العدالة بين الرعية بينما الفرد العادي مدعو إلى التجاوز عن العدالة والعفو عمن ظلمه ، لأن العدالة القصاص في مجال معاملة الأفراد وهو فضيلة في مجال الحكم[4] .

---

(١) التاج كتاب الزهد والرقاق ج ٥ص٢٢٤ .

(٢) فتح الباري بشرح البخاري كتاب النكاح باب المرأة راعية في بيت زوجها ج ١١ص ٢١١

(٣) التاج كتاب البر والأخلاق باب أعظم الظلم ج٥ ص٢٢ .

(٤) عالج الدكتور محمد عبد الله دراز هذه القضية باستفاضة في كتابه «الدين والأخلاق والقومية» ص ٢٧ .

فمثلاً لو اقتص الفرد من ظالمه لما كان فاضلاً في ذلك ، لأنه أخذ حقه كاملاً وبذلك كان عادلاً لكن العدالة هنا ليست فضيلة فإذا عفا عنه وتجاوز عن حقه يكون عندئذ فاضلاً ، ولهذا دعا الإسلام إلى الفضيلة في هذا الميدان لا إلى العدالة بل إلى تجاوز العدالة فقال تعالى مثلاً «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى . . . فمن عُفِيَ له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان[1]» إذن العفو هنا إحسان ، أما في مجال الحكم فإن الحاكم أمر بالعدل وليس له حق التجاوز عن الحقوق لأنها حقوق الناس وليس له حق العفو إذن ، ولهذا قال تعالى «وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين[2]» ، وقال أيضاً «اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله[3]» . إذن فكل حق يخص الآخرين يجب أن يكون الإنسان بمنزلة الحاكم إزاءه لهذا أسند إليه أمر ارجاعه إلى أصحاب الحقوق . ثم إن الإنسان سوف يسأل ويحاسب أمام الله يوم القيامة عن كل امكانياته المادية والمعنوية من مال وجاه وعلم أين صرفها وبذلها وفي أي طريق استخدمها أفي الخير أم في الشر فقال الرسول : «لا تزال قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن خمس عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وماذا عمل فيما علم[4]» .

ومسؤولية الإنسان عن علمه تدخل فيها مسؤوليته عن التربية والتعليم وليست تربيته لنفسه ولأولاده فحسب بل تربيته لأبناء الجيران أيضاً ، ولهذا فقد روى عن الرسول أنه قال «والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويفطنونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفطنون أو لأعاجلنهم بالعقوبة في دار الدنيا[5]» . وفعلاً كان الرسول يأمر جماعة من المتعلمين بتعليم وتربية جيرانهم

---

(١) سورة البقرة ١٧٨ .

(٢) سورة المائدة ٤٢ .

(٣) سورة المائدة ٨ .

(٤) جامع الأصول في أحاديث الرسول ج ١١ ص ١٠٢ .

(٥) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد حديث من رواية البخاري ج ١ ص ١٥١

يحدد لهم مدة مثل ما فعل مع الأشعريين ليقوموا بمسؤوليتهم فيها كما كان يأمر الجهال إلى أن يذهبوا إلى أهل العلم ليتعلموا منهم ويتفهموا ويتفطنوا[1] ويفهم من هذا أيضاً مسؤولية أخرى وهي مسؤولية الحكومة وصاحب السلطة عن إجبار المعلمين والمربين بتربية جيرانهم وأقوامهم .

ما أسمى قيمة هذا المبدأ الذي يقرر هذا النوع الثلاثي من المسؤولية عن التربية والتعليم ، وربما لا نجد مبدأ تربوياً يقرر هذه المسؤولية التربوية بهذه الصورة في أية معاليم فلسفية ولا في أية مناهج تربوية في أية دولة من دول العالم ، أقول هذا بعد أن تخصصت في هذا الميدان واطلعت على المناهج التعليمية بصفة عامة ، وكم تظهر قيمته العلمية لو طبق ذلك عملياً . هل يمكن أن يبقى في المجتمع جاهلاً وغير مترب لو طبق هذا المبدأ؟ وذلك باستخدام السلطة في إجبار المعلمين والمربين على تعليم جيرانهم وإجبار الجهال وغير المتربين بالسعي إلى المربين للتربية ، بل أكثر من هذا دعا الإسلام إلى أن يعلم الناس وأن يربوا الخادمين واليتامى في بيوتهم ، فقال الرسول مثلاً «من كانت عنده أمة فأدبها وأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها كان له أجران[2]» . وكما قال «من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة[3]» . وقال «ليتعلم خيراً أو يعلمه[4]» وكان أهم شيء يجب أن يشتغل به الإنسان باستمرار أحد الأمرين إما التعلم أو التعليم .

وإذا كان الأمر كذلك فكيف تكون مسؤولية المرء عن تربية أبنائه؟

ذلك سبق في الحديث السابق وهو «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته والأمير راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته[5]» .

١) المرجع السابق ج١ ص ١٥١ .
٢) فتح الباري بشرح البخاري باب تعليم الرجل أهله وأمته ج ١ ص ٢٠٠ .
٣) سنن أبي داود كتاب الأدب ، باب فصل من عال يتيماً ج٤ ص ٤٥٩ .
٤) سنن ابن ماجه باب الحث على العلم ج١ ص ١٧ .
٥) فتح الباري بشرح البخاري ج١١ ص ٢١١ .

ولهذا أيضاً قال الرسول «ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن[1]» وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي ذكرناها عندما تكلمنا عن أهمية التربية الأخلاقية في الفصل الأخير من الباب الأول .

بعد أن فرغنا من هذه الدراسة نستنتج منها أهم المبادىء الأساسية لتربية الشعور بالمسؤولية ونلخصها في المبادئ الآتية :

أولاً : إن المسؤولية في نظر الإسلام بقدر استطاعة الإنسان وهي تراعي الظروف والحالات الاستثنائية بحسب الزمان والمكان ، ولهذا يجب أن تراعي أساليب تربية الشعور بالمسؤولية ومقدرة الأطفال وظروفهم الخاصة في مختلف مراحل التربية .

ثانياً : المسؤولية ليست مقررة أساساً لجعل الإنسان شقياً تعساً في حياته وذلك بإثقال كاهله بمسؤوليات تجعله في ضيق وحرج مستمر ، وإنما وضعت بقدر استطاعته لجدارته بحمل هذه المسؤولية ولضرورتها لدوام الحياة الفردية والاجتماعية ويجب مراعاة ذلك في أساليب تدريب الأطفال لتكوين الشعور بالمسؤولية وتكوين وعي نظري بالغايات السامية من حمل الإنسان المسؤوليات الفردية والاجتماعية .

ثالثاً : المسؤولية لها جوانب وأبعاد مختلفة من حيث الظاهر والباطن وامتدادها وأثرها في النفوس والوجدان وفي ضوء ذلك يجب ألا يقتصر تدريب الشعور بالمسؤولية على نوع واحد من حمل المسؤولية بل يجب أن يتدرب الأطفال على أنواع مختلفة لحمل المسؤولية .

رابعاً : أن المسؤولية التي يقررها الإسلام من حيث مصدر السلطة لها ثلاثة مصادر : وهي المسؤولية أمام الله أولاً ، ثم أمام الضمير والوجدان ثانياً ، ثم أمام المجتمع ثالثاً . ويجب إدخال هذه السلطات في وعي الأطفال ، لأنه كلما كانت مصادر السلطة متعددة كان ذلك أكثر تأثيراً ودفعاً .

---

(١) سنن الترمذي كتاب البر والصلة ج٣ ص ٢٢٧ .

خامساً : إن التربية نفسها من ضمن المسؤوليات الفردية ، إذ يجب على المرء أن سعى إلى المربين ليتربى أو يربي نفسه كما يجب على المربي بعد ذلك أن يسعى تربية غيره ، وأخيراً يجب على الحاكم العمل على تربية مجتمعه وأن يجبر في سبيل ذلك المربين لتربية الناس .

سادساً : إدخال كل هذه المفاهيم النظرية عن المسؤولية ومجالاتها في وعي التلاميذ عن طريق التدريبات العملية في مختلف المراحل التربوية بحسب نمو مداركهم العقلية .

وهناك أساليب كثيرة لتربية الشعور بالمسؤولية . عرض نماذج منها (مونتاجيو)[1] ، وسنعرض نماذج من التدريب على المسؤولية خلال دراستنا لمراحل وطرق ووسائل التربية المقبلة .

سابعاً : يجب تنمية الشعور بالمسؤولية في نفس المتربي على أساس تميز الإنسان بطبيعته بما يمتلك من القدرة الأخلاقية المتكونة من الحاسة الأخلاقية الطبيعية والحرية الإرادية الأخلاقية .

ذلك أنه بقدر ما يزاد المرء من القدرة على تحمل المسؤولية والشعور بالمسؤولية بقدر ما يكون شجاعاً في القيام بالأعمال الأخلاقية الإيجابية ومندفعاً إلى القيام بها في المجالات المختلفة .

(١) كيف تساعد الأطفال على تنمية قيمهم الخلقية . اشلي مونتاجيو . ترجمة علي الجمال ص ٩٢ .



الفصل الرابع

الأساس الجزائي

أولاً : وجهات نظر العلماء في الموضوع

إذا كانت الحرية تستلزم المسؤولية فإن المسؤولية بدورها تستلزم الجزاء أيضاً
ذلك بصرف النظر عن ماهية الجزاء وكونه عاجلاً أو آجلاً .

وهذا ما يقرره المفكرون من الناحية الأخلاقية ، لكن مع ذلك اختلف المفكرون
الأخلاقيون في جعل الجزاء أساساً لبناء الأخلاق ، وإن كان معظمهم يجعلونه
أساساً للأخلاق ، وهذا سائد بصفة خاصة في الأخلاق الدينية ، وهناك وجهة نظر
تختلف قليلاً عن تلك التي سبقت وهي نظرة الرواقيين وكانط وأنصار كانط ، إذ
إنهم لم يرضوا بجعل الجزاء أساساً للواجب الأخلاقي على أساس أنهم ارتأوا أن
الجزاء مكنون في باطن المبادىء الأخلاقية ، لأن الفضيلة بطبيعتها تؤدي إلى السعادة
وأن الرذيلة بطبيعتها تؤدي إلى الشقاوة كما بينت ذلك بإيجاز عند تحديد غاية التربية
الأخلاقية ، وكما بينت آراء بعض الفلاسفة والعلماء عند الكلام عن الأسس العلمية
كيف أن الله وضع ثوابه وعقابه في القوانين الطبيعية الأخلاقية .

وما أقرره هنا يقرره أيضاً الأستاذ ج . هـ . جويو حيث يقول مثلاً في هذا الصدد
«نظرت الإنسانية ـ دائماً تقريباً ـ إلى القانون الأخلاقي وجزائه على أنهما شيئان لا
ينفصلان : فمعظم الأخلاقيين يرون أن الرذيلة تستدعي الألم بطبيعة الحال كما أن
الفضيلة تستدعي السعادة ، ولذلك كانت فكرة الجزاء إلى الآن من الأفكار الأساسية
في كل أخلاق[1]» . ويتكلم عن رأي اتجاه آخر وهو رأي الرواقيين والكانطيين قائلاً

(1) الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء ج . هـ . جويو ص ١٧٣ .

«إن الجـزاء لدى الرواقيين والكانطيين ليس أساسـاً للواجب لكنه مع ذلك متـمم ضروري له فكانط يرى أن الفكر في كل كائن عاقل يجمع قبلياً بين الشقاء والرذيلة وبين السعادة والفضيلة[1]» . ومن الغريب أن بعض الجبريين يقرون أيضاً بوجوب الجزاء لكل عمل أخلاقي وهذا ما يقرره باحثنا ج . جويو أيضاً حيث يقول « بل أن بعض الأخلاقيين الجبريين أنفسهم ممن ينكرون الاستحقاق وغير الأستحقاق يرون في ميل الإنسانية هذا إلى اعتبار كل فعل متبوعاً بجزاء حاجة عقلية مشروعة[2]» .

بعد هذا هناك وجهة نظر ثالثة لا ترى تقرير الجزاء أمراً ضرورياً للأخلاق على الإطلاق لأن الأخلاق واجب طبيعي أي إن في الطبيعة الإنسانية قوة فياضة تدفع الإنسـان بطبيعتها إلى العمل البناء يفيض منه الخير لنفسه ولغيره ولا يستطيع أن يكف خيره عن الناس لأن هذه القوة بمثابة شعاع يفيض منه لأنها القوة الطبيعية الفياضة ، ولهذا فالواجب الأخلاقي عبارة عن القدرة التي تصير بالضرورة إلى الفعل ثم لا تعمل هذه القوة الغاية للذة ، كما يرى أصحاب اللذة وإنما اللذة تأتي نتيجة العمل أما القوة فهي فوق غاية اللذة إنها تريد أن تعمل وتنفق لا للذة الإنفاق بل لأنه لا بد من هذا الإنفاق .

ولهذا فإن الجزاء الأخلاقي في العمل نفسه ينتج عنه كما ينتج المعلول من العلة . فالعمل علة والجزاء معلول[3] ، وصاحب هذا الرأي هو الأستاذ ج . جويو الذي يقول بعد عرض رأيه «وأخيراً كما أن الحياة تضع لنفسها واجب العمل من قدرتها على العمل فإنها كذلك تضع لنفسها الجزاء من العمل ذاته ، ذلك أنها إذ تعمل تلتذ بذاتها فإذا عملت أقل التذت أقل وإذا عملت أكثر التذت أكثر[4]» .

ويتبين مما سبق أن جميع الأخلاقيين يتفقون في شيء واحد وهو أن للأخلاق جزاءً ضرورياً ، لكنهم اختلفوا في هذا الجزاء هل هو جزاء خارجي يجب أن تضعه

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢٨ ـ ٢٣٢ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٣٢ .

سلطة التي تكون مصدر المسؤولية سواء أكان الله أم المجتمع ، أم السلطة لحكومية ، أم هو جزاء أخلاقي باطني على أساس اعتبار المسؤولية الأخلاقية أمام ضمير أو الوجدان فقط ، إذ إن الضمير هو الذي يجازي بالسعادة من كان فاضلاً بالشقاوة من كان مجرماً ، ويرى آخرون أن هذا الجزاء طبيعي يأتي من العقل نفسه هنا رأيان :

الرأي الأول : رأي الطبيعيين الذين يرون أن القوانين الأخلاقية لها علاقة بالقوانين لطبيعية ومن ثم فإن مخالفة تلك القوانين الأخلاقية يترتب عليها شرور طبيعية كما ترتب الشرور على مخالفة القوانين الطبيعية سواء بسواء ، وأن مراعاة تلك القوانين ترتب عليها حياة خيرة آمنة من شر الطبيعة .

والرأي الثاني : رأي الطبيعيين الذي يرون أن القوة العاملة في الطبيعة الإنسانية تدفع الإنسان إلى العمل لا لنفسه فحسب بل لغيره أيضاً أي إن قوته الدافعة زائدة عن حاجة العمل لنفسه ومن ثم فمن عمل بمقتضى هذه القوة فإن الطبيعة الحيوية تكافئه عندئذ ، لأنه حقق حاجة الطبيعة الحيوية في نفسه ومن لم يصرف أو يبذل هذه القوة فقد حرم هذه الحيوية الطبيعية من تحقيق حاجتها ومن ثم يصاب الاضطراب والكآبة والضيق ، وبقدر ما يبذل من هذه القوة الحيوية في الأعمال لبناءة بقدر ما يزيد شعوره بالسرور والبهجة واللذة .

ومن ثم يتبين لنا من هذا أن للأخلاق جزاءً لا ينفصل عنها ، ذلك أنه إذا كانت تمثل القوانين الإلهية التي وضعها الله أساساً لتنظيم الحياة الإنسانية فإن العدالة الإلهية والعدالة الإنسانية أيضا تقتضيان معاً الجزاء بالإحسان إلى المحسن والإساءة إلى المسيء ، أو بإثابة الأول وعقاب الثاني وإلا لا تكون هناك قيمة أخلاقية أو قيمة معيارية نميز على أساسها بين الخير والشر ، كما تفقد الأخلاق عندئذ سلطتها لإلزامية . وأما إذا كانت القوانين الأخلاقية نوعا من القوانين الطبيعية أو قوانين طبيعة الحياة الإنسانية فإن المخالفة لأي من هذه القوانين لا بد من أن يترتب عليها عقاب طبيعي وهو عبارة عن الشر الناجم عن مخالفة أي قانون من القوانين

الطبيعية ، وكذلك يترتب الثواب أو ينتج الخير نتيجة مراعاة هذه القوانين وهي سلامة الحياة الإنسانية من الشرور نتيجة مخالفة تلك القوانين .

هذا هو الجزاء المنطقي والواقعي الذي لا يخلو منه العمل الأخلاقي ويلتقي عنده جميع الأخلاقيين بصرف النظر عن مصدر الجزاء . ولا يهمنا هنا مصدر الجزاء بقدر ما يهمنا وجود الجزاء نفسه الذي يترتب على العمل الخلقي ، وعلى هذا تؤسس الأخلاق وتؤسس التربية الأخلاقية .

لكنني أجدني هنا مضطراً إلى التفريق بين الجزاء كأساس وبين الجزاء كوسيلة فنية عامة للتربية عموماً وللتربية الأخلاقية خاصة على أساس أنه لا بد من إقناع المتربين مبدئياً أن لكل عمل أخلاقي جزاءً مترتباً عليه كترتب المعلول على العلة لا بد من أن يلقاه عاجلاً أو آجلاً مباشرة أو غير مباشرة وهذا له مغزى تربوي نظري أساسي لا ينبغي التغافل عنه بأي حال من الأحوال ، ولهذا أخصص هذا الفصل لهذا الجانب ، أما الجانب الآخر وهو العقاب الفني التربوي فسوف أدرسه فيما بعد عندما أدرس معيارية الوسائل التربوية للتربية الأخلاقية .

ثانياً : وجهة نظر الإسلام في الأساس الجزائي :

فالجزاء الذي أقصده في هذا الصدد : هو ما يجب أن يناله الإنسان بحكم عمله الحر الناتج عن إرادة واختيار ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وسواء أكان ذلك الجزاء مادياً أو معنوياً مباشراً أو غير مباشر عاجلاً أو آجلاً ، في هذه الحياة الدنيا أو في الحياة الآخرة .

هذا المفهوم هو ما أجعله أساساً من أسس التفكير الأخلاقي في نظر الإسلام ومن أسس التربية الأخلاقية النظرية أيضاً ، وجعله أساساً لهذا لا يقتضي أن يلتزم الإنسان بالأخلاق لمجرد نيل الثواب أو للخوف من العقاب ، بل لأنها ضرورية للحياة الإنسانية التي تمتاز فيها حياة الإنسان عن حياة الحيوان لأنها تمثل تشريع الله ومنهجه

لذي وضعه للحياة الإنسانية السعيدة . ومنطقية الجزاء أساساً لبناء الأخلاق من
نواحي الآتية :

١ـ إن العدالة تقتضي الجزاء لأنه يفرق بين الذي يبني بعمله والذي يهدم به أو بين
لصلح والمفسد والخيِّر والشرير ثم إن العدالة تقتضي الجزاء أيضاً وإلا استوى الطيب
والخبيث «قل لا يستوي الخبيث والطيب[١]» ، وليس من العدالة أن نجعل الصالح
مثل الفاجر «أم نجعل المتقين كالفجار[٢]» ، «إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي
جحيم[٣]» وعدالة الجزاء التي قررها الدين كانت من أكبر الدعائم التي جعلت
الأخلاقيين يقررون ضرورة تأسيس الأخلاق على المفهوم الديني للجزاء الوافي
لكامل[٤]» .

٢ ـ إن الجزاء عامل مشوق ودافع إلى التمسك بالقيم الأخلاقية لأن الإنسان
يجب أن يرى ثمرة أعماله وكفاحه سواء كانت هذه الثمرة مادية أو معنوية بل إن
الطبيعة نفسها لاتسوى بين الصالح والمفسد فتعطي العامل الصالح الباني وتحرم
الذي يهدم ويهمل فالذي يزرع يحصد ومن لا يزرع لا يحصد . ومن يق نفسه من
المفاسد ينجها من المهالك وشر الأمراض ومن لا يتقيها تعاقبه الطبيعة بشر
الأمراض ، ولهذا كان الجزاء أساساً مهماً في التربية الأخلاقية لأنه يعطي أولاً قيمة
للمبادىء الأخلاقية إذ إن من مبادىء التربية الأخلاقية أن يكون المبدأ الذي يراد أن
يشبع به روح المتربي معقولاً وقيماً وهذا يجعل الأخلاق أمراً محبوباً وكل محبوب
مشوق ودافع إلى العمل من أجله وهو أمر لا غنى عنه لا في مجال التربية الأخلاقية
فحسب بل إنه أساس في التربية عموماً . وكلما كان الجزاء دافعاً إلى الالتزام بالقيم
الأخلاقية ورادعاً عن الانحراف عنها كان له قيمة تربوية أكبر وخاصة إذا ارتبط

---

(١) سورة المائدة ١٠٠ .

(٢) سورة ص ٢٨ .

(٣) سورة الإنفطار ١٣ ـ ١٤ .

(٤) (بالتركي) Ahlak, S.48 Hilmi Ziya ülker, istanbul

الجزاء الأخلاقي المباشر بحياة المتربين في المراحل الأولى .

٣ـ إن التمسك بالقيم الأخلاقية عمل مقدس لأنه يمثل أوامر الله وإرادته وإن من يقدس الخالق ويحترم أوامره يلتزم بهذه القيم ، والتزامه بها في ضوء هذه المشاعر يضفي على حياته قوة معنوية وبهجة روحية ، بطبيعة الشعور . ثم إنه كلما كان شعور الإنسان بأنواع الجزاء المختلفة الناجمة عن العمل الأخلاقي أو المترتبة عليه أقوى كان ذلك أكثر دفعاً له إلى القيام بأعمال أخلاقية خلاقة وكان رادعاً في الوقت نفسه عن الانحراف ومخالفة القوانين الأخلاقية وخاصة إذا كانت هذه الجزاءات متنوعة حسب المسؤوليات التي تحملها هذه الأخلاق على الإنسان وتلقيها على كاهله .

ولهذا نجد الإسلام قد نوع الجزاءات على أساس هذه الفكرة وعلى أساس هذا المنطق ، ومن ثم نجده يقرر الجزاءات المختلفة التي تحيط بالعمل الأخلاقي .

ثالثاً : انواع الجزاءات وتأثيراتها في التربية الأخلاقية :

١ ـ الجزاء الإلهي :

وينقسم هذا الجزاء بحسب النوع إلى ثواب وعقاب : الثواب في حالة الاستقامة والعقاب في حالة الانحراف ، كما ينقسم إلى قلة وكثرة بحسب درجة المسؤولية .

وأخيراً ينقسم إلى قطعي وغير قطعي ، وكامل وناقص بحسب الزمان والمكان في الدنيا والآخرة . هذه الأمور واضحة بوجه عام وإذا كان هناك أمر يحتاج إلى الشرح فهو هذا التقسيم الأخير ، وهو ما نريد أن نشرحه ، وفي خلال معالجتي لهذا وذاك سأتعرض للنقط الأخرى ومعالجتي هنا ربما تستدعي التعرض للمذاهب الكلامية إلا أنني لما لم أكن مقلداً لمذهب معين فسوف أقتصر على بيان رأيي خوف الإطالة بذكر آراء هذه المذاهب ومناقشتها ، ولا يهمني بعد ذلك أن يوافق رأيي مذهباً من المذاهب أو يخالفه أو يتفق معه في نقطة ويختلف معه في أخرى دون قصد مبيت للمخالفة .

فمن حيث الإثابة قد قطع الله على نفسه بإثابة المحسن على إحسانه ووعد الله حق لا يتخلف «وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون[1]» ، «لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد[2]» ولا يكتفي بإثابة المحسن بقدر إحسانه بل يضاعف إلى ما شاء الله لمن شاء «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم[3]» .

أما عقاب المسيء ففيه تفصيل ، وذلك أن هناك ذنوباً لا بد من أن يعاقب عليها صاحبها مثل الكفر والإشراك بالله «إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم[4]» ، «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[5]» . ولا يغفر الله كذلك إذا كانت الإساءة إلى العباد لأن هذا حق الناس لا حق الله ولا يغفر الله ما للناس على الناس ، ولهذا قال الرسول «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلل منه قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه[6]» ، وقال تعالى «ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار[7]» .

وهناك مساوئ ترك الله غفرانها لمشيئته مثل الذنوب الكبائر في حق الله لأنها دون الشرك إلا أن هذا ليس وعداً قاطعاً ويدخل هذا في قوله وتعالى «لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً[8]» . وهذه الآية مخصصة بقوله تعالى «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» ، وبناء على ذلك فلا يدخل الشرك في ضمن هذه الذنوب .

---

(1) سورة الروم ٦ . (2) سورة الزمر ٢٠ .
(3) سورة البقرة ٢٦١ . (4) سورة محمد ٣٤ .
(5) سورة النساء ٤٨ .
(6) التاج : أعظم الظلم إضرار الخلق ج٥ ص٢٠ .
(7) سورة إبراهيم ٤٢ . (8) سورة الزمر ٥٣ .

وهناك ذنوب صغيرة يسميها الله أحياناً بالسيئات وأخرى بالصغائر وثالثة باللمم ، لقد وعد الله بغفرانها إذا تجنب صاحبها الكبائر فقال تعالى «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم[١]» . «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم[٢]» .

وأخيراً هناك إساءة لا بد من أن يعاقب صاحبها بناء على وعده تعالى وهو الإنسان الذي قد أحاطت به خطيئاته بسبب استمراره في المعاصي وتعدي حدود الله وارتكابه كبائر الذنوب والفواحش مع عدم التوبة توبة نصوحاً أو تاب ولكن عند الاحتضار . «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[٣]» . «وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً[٤]» .

ولا يناقض غفران الله بعض الذنوب قوله تعالى «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[٥]» ، لأن هذه الآية تعبر عن حالة الحساب في الآخرة ، فهناك حساب لكل عمل وجزاء له بقدره ، ولو كان مقدار ذرة أما إذا غفر له في هذه الحياة فلا يدخل في نطاق الحساب في الآخرة .

وبعد فهل غفران الله بعض ذنوب المؤمنين أو كلها أسباب داعية بناء على وعده بذلك يعد إخلافاً لوعده أو لوعيده وتبديلاً لكلامه كما يدعي بعض المتكلمين؟

لقد رأينا المواضع التي وعد الله فيها بالعقاب والتي وعد فيها بالغفران والتي ترك فيها لنفسه حرية الاختيار بين العقاب إن لم يصدر من العبد ما يسبب الغفران وبين الغفران إن صدرت منه أسبابه وبناء على ذلك فليس إخلافاً للوعد ولا للوعيد بل

(١) سورة النساء ٣١ .
(٢) سورة النجم ٣٢ .
(٣) سورة البقرة ٨١ .
(٤) سورة النساء ١٨ .
(٥) سورة الزلزلة ٨ .

كل ما فيها تنفيذ لما وعد ولما أوعد ، وأخيراً تنفيذ لمشيئته المختارة . وبناء على ذلك فالجدال الطويل العريض الذي دار بين المتكلمين قد دار في فراغ لا على مادة حقيقية .

وجزاء الله ليس كله في الآخرة بل في الدنيا أيضاً ، يقول الرسول «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا[1]» . كما يجازي جزاء حسناً الذين يعملون الخير في هذه الحياة الدنيا «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون[2]» . وذلك للزجر عن ارتكاب الشرور وللدفع إلى فعل الخيرات ، ولهذا فقد ضرب مثلاً بأقوام سابقة كيف عاقبهم لما ظلموا وارتكبوا الآثام «ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين [3]» . «وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً[4]» . «فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية[5]» ، «أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين[6]» ، «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون[7]» . والجزاء الإلهي الدنيوي ليس دائماً الهلاك بل قد يكون مرضاً وقد يكون عدم التوفيق والهداية وما إلى ذلك كما ذكرتها في موضوع حرية الإرادة ، ثم إن الله تعالى وعد رسوله بعدم إهلاك أمته كلية بسبب ذنوبها كما أهلك بعض الأمم السابقة حيث يقول الرسول «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة . سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها[8]» .

---

(١) التاج ج٥ ص ٢٢٤ .
(٢) سورة النحل ٩٧ .
(٣) سورة الأنعام ٦ .
(٤) سورة الكهف ٥٩ .
(٥) سورة الحاقة ٥ ـ ٦ .
(٦) سورة الدخان ٣٧ .
(٧) سورة النمل ٥٢ .
(٨) صحيح مسلم كتاب الفتن ج٤ ص٢٢١٦ .

ولهذا فإن الجزاء الحقيقي الأوفى سيكون في الآخرة «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى[1]» ، «وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون[2]» ، «فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون[3]» ، «يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[4]» .

٢ـ الجزاء الوجداني :

وهو تلك الحركة الشعورية التي نحس بها في أعماق قلوبنا بالفرح أو التأنيب مباشرة بعد كل فعل نعتقد أنه فعل حسن أو قبيح ، ولا يكون هذا الشعور في درجة واحدة بين الناس وذلك لاختلاف الناس في درجة صفاء وجداناتهم من الرذائل والجرائم ، ثم لاختلافهم في درجة استعدادهم الفطري والوراثي وبيئتهم التربوية ، وكلما كان الوجدان قوي الحساسية بحكم الاستعداد الفطري والتربوي وكلما كان نظيفاً وصافياً من الرذائل كان ذلك سبباً لشدة التأثر ولشدة الإحساس بألم الضمير وتأنيبه إذا ما أصابه شيء من الذنوب . وقد يحاول بعض الناس إخفاء ما في وجدانهم من ألم كما يحاولون إظهار مرارة إحساسهم بآلام الأمراض الأخرى إلا أن هذا حقيقة إن استطاعوا أن يخفوه على غيرهم فلا يستطيعون إخفاءه على أنفسهم . ويقول هنا «فيلون الإسكندري» إن أثر الضمير على النفس متعدد وهو تابع لدرجة تقدم الإنسان في طريق الفضيلة ، فعند الشرير ليس الضمير غائباً بحال من الأحوال ، ومعرفته للخير تزيد خطيئته ، وربما بدا مظهر الشرير مبتسماً ، لكنه في قرارة نفسه يشعر بالفزع من العقاب الذي ينتظره والذي بينه له الضمير ، هو يعلم رغم أنفه أن جميع الأعمال البشرية موضوعة تحت مراقبة طبيعية أعلى منها وعقاب الشريرين هو في الحزن والخوف اللذين يحدثهما لهما هذا التهديد[5] ، وإذا

(١) سورة النجم ٤١ . (٢) سورة البقرة ٢٧٢

(٣) سورة آل عمران ٢٥ .

(٤) سورة الزلزلة ٦ ـ ٨ .

(٥) الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الإسكندري ص ٣٨٠ .

كان الضمير هو رجل الله في قلب البشر يذكر الإنسان بخطيئته كما يرى فيلون[١] فإنه محكمة عدل إلهي لا تخطئ في حكمها كما يرى كانط حيث يقول مثلاً «إن الذي أقام الميزان وبث العدل في العالم وهيأ لنا محكمة عليا يحاكمنا فيها لم يشأ أن يتركنا في الأرض بلا محكمة فجعل لكل نفس حاكماً من داخلها فالرذائل التي يعذب بها الإنسان في هذه الحياة يعذب بنفس هذه المحكمة الإلهية[٢]» .

وعدالة جزاء المحكمة تقتضي أن يزيد الجزاء بقدر زيادة الجرم وهذا ما تفعله محكمة الضمير لهذا كلما ازداد المرء خطيئة وجرماً ازدادت المحكمة عقاباً حتى الموت وهذا ما يقرره الدكتور عادل العوا الذي درس الوجدان دراسة خاصة فيقول مثلاً «أما عذاب الوجدان فإنه يبدو أول ما يبدو وكأنه أخرس طفيف يمسك الحياة بتلابيب صاحبه فيكاد لا يعرب عنه بلغة الجوارح ، ولكن هذا الألم المعنوي الأخلاقي ألم عميق في الواقع وهو يستولي على النفس كلها بصورة تدريجية ويتصف عندئذ بأنه لا يزول ولا يهدأ أو لا يمحى أبداً ، لأن عملاً من الأعمال الخارجية لا يقدر التأثير في هذا الألم تأثيراً مباشراً ولهذا فإنه يشبه لظى جحيم لا يبرد إلا من تلقاء ذاته وعلى مر الأيام والسنين وربما صحبه انحطاط عضوي يشتد ويقوى حتى يفسد الجسم ويتلف أعضاءه وينذر بأمراض خطيرة قد تؤدي إلى الموت[٣]» وقد يقضي هذا الألم الوجداني على الإنسان من جهة أخرى وهي إقدام المرء من شدة الألم على الانتحار وهذا ما يقرره دور كايم[٤] ، وهذا حق انتهت إليه تحليلات نفسية لكبار علماء النفس مثل فرويد[٥] ، ومنجر[٦] .

وفعلاً من يدرس حالات المنتحرين والمقدمين على الانتحار ممن انغمسوا في

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٠ .

(٢) كتاب التربية لكانط ص ٨٩ .

(٣) الوجدان ص ١٧٨ . عادل العوا .

(٤) التربية الأخلاقية ص ٤٣ . دوركايم .

(٥) مشكلة الانتحار . منشورات جماعة علم النفس بإشراف الدكتور يوسف مراد ص ٦٣ .

(٦) المرجع السابق ص ٦٥ .

الرذيلة ويدرس تقاريرهم يجد ذلك حقاً ، ولهذا كان من مبادئ الصحة النفسية الابتعاد عن الرذيلة والجريمة فيقول فرويد مثلاً «إن الإحساس بالذنب والإحساس بالعار والإحساس بالنقص ثالوث نجده دائماً وراء كل مرض نفسي[1]» .

والإسلام قد قرر هذه الحقيقة من قبل هؤلاء العلماء فقال الرسول مثلاً «من ساء خلقه عذب نفسه ومن كثر همه سقم بدنه[2]» وقال أيضاً «من شقاوة ابن آدم سوء الخلق[3]» .

ثم إن الجزاء الوجداني أكثر تأثيراً من الجزاء المادي لأن هذا الأخير وقتي وقد يصيب المخطئ وقد يقع على البريء وقد يكون مكافئاً للعمل أو لا يكون ، أما الجزاء الوجداني فهو لا يخطئ ومستمر ولهذا قال بعض علماء النفس إن المجرمين تحت عقاب مستمر وإن نجوا من العقاب القانوني[4] . ، ولهذا قال الرسول «البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت فكن كما شئت فكما تدين تدان[5]» .

وهذا حق لأن المجرمين تعتريهم ثلاث حالات وجدانية مؤلمة :

أولها : حالة الخوف المستمر من انكشاف الجريمة وهذا الخوف يقلقهم ويجعلهم يضطربون ويتحرجون عن الكلام في الموضوعات التي ارتكبوا فيها الآثام ويظهر في لسانهم التلعثم واللحن والارتباك وصدق الله العظيم «ولتعرفنهم في لحن القول[6]» .

وثاني هذه الحالات : تأنيب ضمير أو وخز ضمير مستمر ، وإحساس بذنب يخدش وجدان المجرم وتحقير للنفس يجعله يشمئز من نفسه ومن هذا وذاك تعتريه حالات كئيبة لا تنفرج سريرته ولا سيما في حالات تذكر تلك الجرائم والآثام التي ارتكبها .

---

(١) سيكولوجية الشذوذ النفسي . فرويد ص ٢١١ .
(٢) منتخب كنز العمال على هامش مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٥٨ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٥٨ .
(٤) منبعا الأخلاق والدين هنري برجسون ص ٢٧ .
(٥) كشف الخفاء ج ١ ص ٣٣٦ .
(٦) سورة محمد ٣٠ .

والحالة الثالثة : افتقاد المذنب الشعور باستحقاقه التقدير والأهلية الاجتماعية ، ذلك أنه يشعر في قرارة نفسه بأنه لم يعد أهلاً لذلك التقدير والمودة التي يبديها الناس نحوه لجهلهم بحقيقة أمره ، وبعد انكشاف حقيقة أمره فإنه يفقد تلك الأهلية ظاهراً وباطناً ومن ثم يصبح غريباً بين أهله وأحبابه فيعيش في عزلة من الناس وكأنه في جزيرة خالية . بل يكون إحساسه بالعزلة أكثر من ذلك ، وهذا له وقع شديد على النفس وخاصة إذا كان الشخص له شهرة ووجاهة بين الناس .

وهذا ما يقرره أيضاً الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون حيث يقول «وبعد أن يفر المجرم بإخفاء جريمته عن الناس لا يستطيع أن يخفيها عن نفسه فهو ما زال يعرف أنه مجرم . . . إنه يعرف أن الاحترام الذي يوجه إليه الآن إنما يوجه إلى شخصه السابق الذي لم يعد موجوداً ، ويعرف أن المجتمع لا يخاطبه هو بل يخاطب شخصاً آخر فيعيش بين الناس وهو أكثر عزلة مما لو كان يحيا في جزيرة خالية لأنه في عزلته يحمل معه صورة المجتمع التي تحف به وتسنده أما الآن فقد انقطع عن المجتمع وعن صورته معاً[1]» .

خلاف هذه الحالة حالة إنسان لم يرتكب الجرائم والآثام فإن صفاء وجدانه يجعله يشعر بالابتسامة الداخلية ويحس في قرارة نفسه بصفة دائمة بالخيرية الذاتية والسرور المستمر ويؤثر هذا وذاك في سماته الشخصية الظاهرة ، وشتان بين الوجدانين ، والوجدان الآثم العليل والوجدان الصافي الحي وشتان بين شخصيتين : الشخصية المجرمة والأخرى الخيرة الطيبة ، إذ إن الإنسان إذا كان مجرماً فاسد الخلق يظهر ذلك في سيماه فيصبح وجهه مظلماً قاتماً واجماً عبوساً يعبر عن ظلام حياته الباطنية ، بينما إذا كان خيراً يصبح وجهه باسماً ناضراً يعبر عن تلألؤ حياته الباطنة وصدق الله العظيم إذ يقول في وصف هؤلاء وأولئك «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله

---

(١) منبعا الأخلاق والدين هنري برجسون ص ٢٧ .

عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[1]» ، ولهذا قال تعالى «يعرف المجرمون بسيماهم[2]» ، «سيماهم في وجوههم من أثر السجود[3]» ، وبتلك الأوصاف السابقة يحاول علم النفس الجنائي التعرف على الجناة ، وإذا كان الأمر كذلك فما السبيل إلى الاحتفاظ بصحة الوجدان ووقايته من كل سوء يؤدي إلى مرضه؟ ليس هناك من سبيل إلا أن يكون الإنسان فاضلاً بعيداً عن سوء الخلق ، ولكن ما الوسيلة إلى ذلك؟ الوسيلة الوحيدة إلى ذلك هي التربية الوجدانية الأخلاقية لأن التربية لها وظيفتان إحداهما الوقاية مما يضرها ويفسدها والثانية تقويتها وتنميتها ولهذا نجد بعض المختصين يقرر هذه الحقيقة قائلاً «تربية الوجدان هي التي تسعى إلى تجنب الضمير عثرات الشك والحيرة والضلال والوسواس وتحرض على الحفاظ على صحة الوجدان دون أن يصاب بالخلل والتهافت والمرض والإجرام ليمسي المرء سيد نفسه ويبدع ضروب سلوكه الأخلاقي[4]» .

وكما أن التربية الأخلاقية ضرورة لصحة الوجدان فإن التربية الوجدانية ضرورية بدورها للتقدم الأخلاقي بل أساس فيه ، ولهذا ينصح كانط بالابتداء بالتربية الأخلاقية من الوجدان حيث يقول «إننا إذا علمنا الطفل يجب علينا في مبدأ الأمر أن نبدأ بالقانون الكامل في نفسه (أي الضمير الذي هو مستمد من النور الإلهي) إن الذين يتصفون بالرذائل يحقرون أنفسهم ويحسون بهذا الاحتقار في داخلها وفي غرائزهم الكامنة فيهم فهذا الشعور المؤلم معذب لصاحبه سواء أقلنا إن الله حرم الفواحش مثلاً أم لم نقل ذلك . . . وبناء على هذا أقول يجب أن يعلم الناس أنهم لا يستحقون السعادة في الحياة إلا باستقامتهم في أعمالهم[5]» وهذا ما يقرره أيضاً

---

(١) سورة يونس ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) سورة الرحمن ٤١ .

(٣) سورة الفتح ٢٩ .

(٤) الأستاذ الدكتور عادل العوا في كتابه الوجدان ص١٨٥ ـ ١٨٦ .

(٥) كتاب التربية لكانط ص ٨٦ ـ ٨٧ .

فيلون الاسكندري الذي ينصح بدوره هو الآخر بالبدء من الوجدان أو الضمير كما يسميه لأن التقدم الأخلاقي مرتبط بتقدم الضمير الباطني من حيث إنه مبدؤه الوحيد[1] . بل يرى أكثر من هذا الضمير «هو العالم الأخلاقي في مقدور النفس النفوذ إليه ، إنه المكان الحقيقي للتقدم الأخلاقي[2]» .

٣ ـ الجزاء الطبيعي :

وهذا الجزاء مبني على أساس ارتباط القوانين الأخلاقية بالقوانين الطبيعية ، ولهذا فهو جزاء صارم صرامة القوانين الطبيعية التي لاتعرف مغفرة ولا توبة ولا تزيل آثاره التوبة وهو حقيقة واقعية كحقيقة الجزاء المادي الناتج عن اصطدام القوانين الطبيعية وتقاس نوعية الجزاء هنا بنوع القوانين فقد يكون قليلاً أو كثيراً وقد يكون مباشرة أو غير مباشرة كالآثار الناتجة عن الاصطدام بالقوانين الطبيعية المختلفة سواء بسواء .

ومهما يكن أمر الجزاء فإنه حقيقة واقعة لاتقبل المناقشة ، ويقول هنا أحد الدارسين لهذه الحقيقة : «وليست الخطيئة وهماً إلا إذا اعتبرنا السل أو السرطان أو الجنون أوهاماً هي الأخرى . . . وليس من العسير أن نفهم أن الخطيئة انتهاك إرادي أو غير إرادي لقوانين الحياة ، وقوانين الحياة صارمة صرامة قوانين اختلاط الغازات أو سقوط الأجسام ، ولما كان انتهاك هذه القوانين لا يعاقب عليه إلا بعد مضي زمن ما من وقوعه وبطريقة خفية فإن الإنسان لم يدرك بعد فداحة النتائج التي تترتب على الخطيئة فكل خطيئة تؤدي إلى اضطرابات عضوية أو عقلية أو اجتماعية وهي اضطرابات لا يمكن علاجها على وجه العموم ، وإذا كانت التوبة لا تشفي تليف الأنسجة لدى السكير أو الأمراض العصبية لدى أولاده فإنها تعجز أيضاً عن اصلاح الاضطرابات الناجمة عن الحسد والإسراف الجنسي والغيبة والنميمة والبغضاء كما أنها كذلك لا تبعد الشقاء عن الشواذ الذين يولدون لأبوين مصابين بالعيوب . فالخطيئة تؤدي إن عاجلاً أو آجلاً إلى التدهور والموت ، التدهور والموت للجاني

(١) الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الإسكندري ص ٣٧٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٤ .

نفسه أو للوطن أو للنوع ، ولهذا يجب على كل فرد أن يكون قادراً على التمييز بين الخير والشر[١]» .

ويمكن أن يعد هذا الجزاء جزاء إلهياً من حيث إن الله عندما وضع القوانين الأخلاقية بناها على أساس القوانين الطبيعية ليحيا حياة طيبة من يراعيها بطبيعة الحال ، ولهذا قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم[٢]» ، لأن القوانين الأخلاقية تحفظ الحياة وتقيها من كل ما يهددها ، ولأنه ليس من الضروري ـ كما يقول كانط ـ أن يعاقب واضع القوانين الخارجين عليها مباشرة بل يعاقب عليها بطريق غير مباشر ، ولهذا فهو بدوره يدخل العقاب أو الجزاء الأخلاقي الطبيعي في الجزاء الإلهي فيقول في هذا الصدد «فليس من شرط واضع القانون أن يقوم هو بتنفيذ العقوبة على تركه كلا فربما يصدره ويكل لغيره التنفيذ ، ألا ترى إلى الأمراء ورؤساء المقاطعات فإنهم يحرمون السرقة من مقاطعاتهم حفظاً للأمن ويبينون من الذي سينفذ القانون من رجال حكوماتهم . . . إن القانون الأدبي له نتائج محققة على مقتضى مقدماتها كالقانون الطبيعي سواء بسواء فليس هناك فرق بين القانونين[٣]» .

وبعد ، فلا أريد الإطالة ، حيث إنني قد شرحت هذا بشيء من التفصيل في مناسبات كثيرة وخاصة عند بيان رأي الإسلام في العلاقة بين القوانين الطبيعية والأخلاقية عندما أقمت التربية الأخلاقية على الأسس العلمية ، ومشابهة الأمراض الناشئة عن مخالفة القوانين الأخلاقية بالأمراض الناشئة عن مخالفة القوانين الطبيعية . وذكرت هناك عديداً من النصوص . منها قول الرسول «ولم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع[٤]» .

ومن الغريب أن هناك أطباء يقررون أن مجرد الأفكار والنيات السيئة تؤدي إلى

---

(١) الدكتور الكسيس كارل في كتابه تأملات في سلوك الإنسان ص ٩٤ ـ ٩٥ .
(٢) سورة الأنفال ٢٤ .
(٣) كتاب التربية لكانط ص ٨٧ ـ ٨٨ .
(٤) سنن ابن ماجه ج٢ ص١٣٣٣ .

اختلال العقل والأعصاب ثم اعتلال الجسم ويقولون ولكي نكفل لذواتنا جهازاً عصبياً وجسماً معافى سليماً يجب أن نروض عقولنا على الأفكار الصالحة البريئة من الآثام لأن الأفكار الشريرة الدنسة تضعف العقل وتفسده وتجره إلى الجنون[1]» هذا إلى أن العقاب الإلهي الطبيعي قد يخلق أسباباً مثل انتشار القحط أو تسلط الأعداء وما إلى ذلك كما ورد مفصلاً في حديث رواه ابن ماجة [2] ، ومن ثم يعم العذاب بلداً بأكمله وينال المذنبون عن استحقاق وغير المذنبين لعدم مقاومتهم الفساد ، ولهذا قال الرسول «إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم[3]» .

٤ ـ الجزاء الإجتماعي :

وهذا الجزاء بدوره ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الجزاء غير المباشر :

وهو ما يجده كل فرد في المجتمع من جراء انتشار الانحلال الأخلاقي مثل الكذب والنفاق والبغض والمحاباة والخيانة والمحسوبية والرشوة والحسد وعدم الإخلاص والأنانية وما إلى ذلك . فالحياة الاجتماعية تصبح عندئذ جحيماً لا يطاق إذ تزول عندئذ من هذه الحياة كل بهجة ومودة ومحبة وأمن وطمأنينة ، ويسود لديها البغض والكراهية والعداوة فكل فرد يصبح عدواً للآخر وعندئذ يكره الفرد الناس والمجتمع ولا يجد لذة أو طعماً في الحياة بل يرى أن الحياة أصبحت جحيماً لا يطاق . وصدق الله العظيم إذ قال «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون[4]» ، ولهذا فقد أرجع علماء الاجتماع

---

(١) المرشد الطبي الحديث ألفه مجموعة من الأطباء ص ٤٤ .

(٢) سنن ابن ماجه كتاب الفتن ج٢ ص ١٣٣٣ .

(٣) التاج كتاب الفتن ج٥ ص ٣٠١ .

(٤) سورة آل عمران ١٠٣ .

بعض الأمراض الاجتماعية ومنها مشكلة الانتحار إلى انحلال العلاقات الاجتماعية الأخلاقية[1]» .

القسم الثاني : هو ما يقرره المجتمع من عقاب للمنحرف ومكافأة للمستقيم الصالح :

وقد قرر الإسلام عقوبات مختلفة للمنحرف حسب جريمته وطلب من المجتمع تنفيذها «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين[2]» ، وذلك أن الجزاء الجماعي أشد وقعاً على النفوس ثم إنه يكشف للجمهور الفاسقين والفاجرين ، والفاسق إذا عرف أن الناس كشفوا فسقه يذل نفسه ويحتقرها أكثر مما لو لم يعرف الناس حقيقته ، ولهذا شدد الله عقوبة هؤلاء المفسدين فقال «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم[3]» ، ولعدم تقرير مثل هذه العقوبات انتشرت المظاهر المفسدة في المجتمع ، كما قرر الإسلام إلى جانب ذلك مكافأة المحسنين سواء أكانت مادية أو معنوية ، ولهذا قال الرسول «من أسدى إليكم معروفاً فكافؤوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له[4]» ، لأن ذلك تشجيع للناس على الفضيلة .

القسم الثالث : الجزاء الأدبي :

وهو عدم الاعتداد بشخصية الفاسقين وعدم الثقة بهم وقبول شهاداتهم ويترتب عليه عدم إسناد الوظائف الهامة إليهم «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون[5]» .

---

(١) مشكلة الانتحار ص ٩١ ، التربية الأخلاقية ـ دوركايم ص ٤٣ .

(٢) سورة النور ٢ .

(٣) سورة المائدة ٣٣ .

(٤) كشف الخفاء رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح ج٢ ص ٣١٢ .

(٥) سورة النور ٤ .

وهذا الجزاء ليس أمراً سهلاً ذلك أن المجرم يفقد عندئذ شخصيته الأدبية في المجتمع إنساناً يعتمد عليه ويوثق به ، زد على ذلك أنه لا يجد الاحترام والقبول من الناس كما كان من قبل ، وهذا أمر صعب على النفس الإنسانية وبصفة خاصة على الذين يتمتعون بالإحساس الأدبي الرفيع في مجتمعهم .

وبمقابل إسقاط القيمة الأدبية للفاسقين أمر الإسلام برفع القيمة الأدبية للصالحين ورفع درجاتهم بحسب درجة صلاحهم وأخلاقهم فقال الرسول «أنزلوا الناس منازلهم من الخير والشر[1]» ، ثم دعا إلى التعامل مع الصالحين وترك التعامل مع الطالحين ، فقال الرسول «إنما مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة[2]» .

بل أكثر من هذا فقد أوصى الرسول بعدم التسليم على فاسق[3] ، ومعلوم أن الرسول أمر أصحابه بمقاطعة الذين تخلفوا عن الحرب حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت قال تعالى : «وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم[4]» .

بعد هذا العرض والتفصيل للجزاء الأخلاقي يمكن أن نستخلص منه المبادئ والأسس التربوية الأخلاقية الآتية :

أولاً : إشعار من يراد تربيتهم بوجود التلازم بين الأخلاق والجزاء وأنه في كل خطيئة جزاء أو جزاءات إن استطاع أن ينجو من بعضها لا يستطيع أن ينجو من بعضها الآخر ، مثل الجزاء الوجداني والجزاء الطبيعي ، وأن ذلك نتيجة طبيعة

---

(١) كشف الخفاء حديث ٢٢٩ ج١ ص ٢٤٨ .
(٢) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج٢ ص١٢٣ .
(٣) كتاب الأدب المفرد للإمام البخاري باب لا يسلم على فاسق ص ٢٦٣ .
(٤) سورة التوبة ١١٨ .

للخطيئة ، فكما أنه كلما لمس الإنسان النار لازمه الاحتراق ، فكذلك الأمر فيما يتعلق بالقوانين الأخلاقية لأنها مرتبطة بالقوانين الطبيعية أو القوانين العلمية ، ومن ثم فكما أنه إذا عاش الإنسان جاهلاً بهذه القوانين الأخيرة يحيا عليلاً بالأمراض المختلفة فكذلك إذا عاش بعيداً عن القوانين الأخلاقية يصاب بالأمراض النفسية والجسمية ثم يصبح في شقاء دائم .

وذلك ليشعروا أن القوانين الأخلاقية ثابتة كالقوانين الطبيعية .

ثانياً : ينبغي ألا تفوت خطيئة من غير جزاء وأن تكون المجازاة بطريقة طبيعية لا بطريقة مباشرة أو بطريقة الإنتقام ، وذلك ليشعر أن هذا الجزاءات أمر ناتج من طبيعة المخالفة للقوانين الأخلاقية لا من نتيجة المخالفة لأمر المربى ، وذلك ليتكون عنده شعور بالتلازم الدائم بين كل خطيئة وبين الجزاء الناتج عن طبيعة هذه الخطيئة ، كما ينبغي أن يعرف بأن الله واقف بالمرصاد لأفعال المرء ، فكلما عاد إلى الخطيئة عاوده بالعقاب «وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا[1]» ، ثم إن الله إن لم يعاقبه في هذه الدنيا فسوف يعاقبه في الآخرة . فهذا الشعور بعدم النجاة من عواقب الخطيئة إن عاجلاً أو آجلاً يكون سياجاً أمام الانحراف عن الجادة وزاجراً عما تحدثه به نفسه من المساوئ .

ثالثاً : إنه كلما كان العقاب المنتظر من جراء الخطيئة أشد وأكبر كان ذلك أكثر ردعاً وزجراً من الانحراف ولهذا فإن الإسلام حدد الجزاءات والعقوبات التي سيلاقيها المنحرفون أو المرتكبون للخطايا وخاصة في الآخرة .

رابعاً : إشعارهم بأن نتيجة الالتزام بالقوانين الأخلاقية أو ثمرتها هي السعادة كما أن نتيجة الانحراف هي الشقاوة ليس في الدنيا فحسب بل السعادة والشقاوة الدائمتان في الآخرة أيضاً «يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ، فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين

---

(١) سورة الإسراء ٨ .

فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ[1]» .

خامساً : إن ربط الإسلام مصير الإنسان من حيث السعادة والشقاوة في حياة الدنيا والآخرة بالعمل الأخلاقي أو اللاأخلاقي له مغزى تربوي وهو جعل الأخلاق محبوبة والرذائل منبوذة ، والإنسان يحب بالطبيعة أن يلتزم بالأفعال التي لها نتائج خيرة ، أو الأفعال التي تجلب الخير وينفر من الأفعال التي تجلب الشر . وبذلك تمتاز على الأخلاقيات التي لا تربط نهايتها بالجزاء أيّاً كان لونه أما الأخلاق الإسلامية فتربط نفسها بالجزاء المادي والمعنوي في العاجل والآجل .

وبذلك تمتاز الأخلاق الإسلامية عن الأخلاقيات الأخرى التي تربط نفسها بالجزاء المادي العاجل فحسب والأخلاقيات التي لا تربط الأخلاق بالجزاء إطلاقاً ، إذ كلما كانت المكافأة أكثر أنواعاً وأكبر حجماً كانت أكثر جاذبية وأكثر دفعاً إلى الأعمال التي تؤدي إليها ، فالأخلاق من غير جزاء كالشجرة من غير الثمرة ، ثم إن هذه الأخلاق التي تثمر كل تلك الفواكه المختلفة أي الجزاءات المادية والمعنوية تتلاءم مع ميول الفروق الفردية ، إذ إن من الناس من يسعى لنيل رضا الله فحسب ، ومنهم من يسعى ليسعد في الآخرة ومنهم من يسعى ليكون سعيداً في الدنيا ومنهم من يرغب في سعادة الدارين معاً ، ثم إن مثل الأخلاق التي لا ترتبط بالجزاء وإن رضي أن يلتزم بها بعض ذوي الإحساسات الأدبية الرفيعة لمجرد تقديس القيم الأخلاقية فهذا لا يتناسب إلا مع القلة من الناس . والإسلام جاء للناس عامة ولهذا جاء بأخلاق تتناسب مع الناس كافة .

وقيمة كل مبدأ تقاس بمدى ما يجلبه لأكبر قدر ممكن من الناس من الخيرات ، ومدى تلاؤمه في الوقت نفسه مع ظروف وإمكانات الناس بصفة عامة ولهذا كانت المبادئ الأخلاقية التي جاء بها الإسلام أصلح المبادئ للناس .

ولهذا أيضاً كانت الأخلاق الإسلامية أعظم الأخلاق وأكملها وأصلحها ، وصدق

---

(١) سورة هود ١٠٥ ـ ١٠٨ .

الرسول إذ قال «إنما جئت لأتمم صالح الأخلاق[1]» وفي رواية أخرى «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[2]» ، وصدق الله العظيم إذ قال معبراً عن عظمة الأخلاق التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها «وإنك لعلى خلق عظيم[3]» ، ومن تبع أصلح الأخلاق وأكملها لا يضل في هذه الحياة ولا يشقى ، ولهذا قال تعالى «فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى[4]» .

وذلك على أساس أن بناء الأخلاق من أهم أهداف الرسالة الإسلامية بل إن الرسول حصر هد ف بعثته في اتمام مكارم الأخلاق أو صالح الأخلاق كما هو الواضح من الحديثين السابقين ، وهذا الهدف لا يتم أو لا يمكن تحقيقه إلا بالتربية الأخلاقية لجميع أفراد المجتمع أو الأمة .

ولتحقيق هذا الهدف خصص هذا الجزء .

(١) مسند الإمام أحمد ج٢ ص ٣٨١ .

(٢) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج ١ ص ١٣٢ .

(٣) سورة القلم ٤ .

(٤) سورة طه ١٢٣ .

الباب الثالث

معايير التربية الأخلاقية الإسلامية

وطرقها ومراحلها

ويشمل الفصول الآتية:

الفصل الأول:
معايير التربية الأخلاقية.

الفصل الثاني:
طرق التربية الأخلاقية.

الفصل الثالث:
مراحل التربية الأخلاقية.



الفصل الأول

معايير التربية الأخلاقية

أولاً : أهم معايير التربية الأخلاقية

إن تحديد معايير التربية الأخلاقية مهم جداً لنجاح هذه التربية ، لأنه بمثابة موازين يقيس بها المربي مدى صلاحية الأساليب والوسائل التي يستخدمها لتحقيق هذه التربية إذ ليس كل وسيلة يظن أنها تربوية هي تربوية فعلاً ، بل هناك وسائل قد تؤدي إلى عكس الغرض ، ولهذا كان عدم تحديد معايير تربوية سبب إخفاق كثير من المربين في هذه التربية .

إذن لا بد من تحديد معايير لقياس مدى صلاحية الأعمال التربوية فلا بد من أن يكون هناك مثلاً معيار يقاس به مدى صلاحية الوسائل التي تتخذ للتربية الأخلاقية كما لا بد من معيار يتخذه المربي لمعرفة مدى تحقق التربية الأخلاقية لدى المتربين ، ثم لا بد من معيار لقياس مدى أخلاقية السلوك الصادر منهم .

وبناء على هذا رأيت ضرورة تحديد أربعة معايير عامة : أولها معيار لقياس مدى اتفاق الوسائل مع الغايات ، والثاني معيار لقياس مدى اتفاق الطرق والوسائل مع إمكانيات الطبيعة البشرية وسيكولوجية الفروق الفردية والثالث معيار لقياس مدى اكتمال التربية الأخلاقية أو مدى تكون الخلق عند المتربين ، والرابع والأخير معيار لقياس مدى أخلاقية السلوك الصادر من المتربي .

المعيار الأول : تلاؤم الوسائل مع الغاية الأخلاقية أو بتعبير آخر اتفاق الوسائل مع الغايات الأخلاقية ، ذلك أننا لو اتخذنا وسائل غير أخلاقية للتربية الأخلاقية لأدى الأمر إلى تكوين إنسان غير أخلاقي ، لأن الغايات الأخلاقية لا

تتحقق إلا بالوسائل الأخلاقية بصفة عامة ، ولهذا يجب أن تكون كل وسيلة تتخذها للتربية الأخلاقية أخلاقية بدورها ، وهذا يقتضي أن تكون الوسائل خيرة كالغايات تماماً ، وإلا ترتب عليه ارتكاب الشرور من أجل تحقيق الخيرات ، ومن ثم لا يمكن تخليص البشرية من الشرور إذ الشر لا ينتج إلا شراً .

وبالرغم من أهمية هذا الموضوع فقد اختلف فيه المفكرون والمربون إلى ثلاثة اتجاهات :

الأول : يرى أن الغاية تبرر الوسيلة : أي يمكن اتخاذ أية وسيلة ولو كانت شراً للتربية الأخلاقية إذا كان تكوين الأخلاق هو الغاية في هذا الميدان ، لأن المهم الغاية وليست الوسيلة ، ولهذا نرى أولدس هكسلي يهاجم هذا المذهب قائلاً : «يتصورون أن الغاية النبيلة يمكن أن تتحقق بوسائل دنيئة إنهم يعبدون الطريق إلى جهنم وهم لا يشعرون[1]» ويقول عنهم أيضاً «وكلهم يعتقد أن الغاية النبيلة يمكن أن تتحقق بوسائل دنيئة أنهم يختلفون عن الفاشست كل الاختلاف في أهدافهم بأغراضهم غير أنهم يسلكون الطريق عينها[2]» .

الاتجاه الثاني : يرى أن تكون الوسيلة طيبة كالغاية الطيبة . أو أن تكون الوسيلة شريفة لتحقيق غاية شريفة ، من أنصار هذا الإتجاه أولدس هكسلي يقول «إن الأغراض الطيبة لا يمكن تحقيقها إلا بالوسائل الطيبة وحدها . ولا يمكن تحقيقها بالوسائل الخبيثة إن الغاية لا تبرر الوسيلة ، وذلك لأن الوسائل التي نستخدمها تحدّد طبيعة الغاية التي تنجم عنها[3]» ومنهم أيضاً رونيه أوبير حيث يقول مثلاً : «إن الوسائل لا تأخذ معناها وقيمتها كوسائل إلا إذا نسبت بالدقة إلى غايتها[4]» .

---

(١) الوسائل والغايات ـ الدوس هكسلي . ص ٣٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٩ .

(٤) التربية العامة ص٢٦٩ .

الاتجاه الثالث : يرى أنه كما يجب أن تتفق الوسائل مع الغايات يجب أيضاً تحديد وسيلة خاصة لكل غاية ، إذ لكل غاية وسيلة لا ينبغي أن يستخدم غيرها ، وعلى هذا الأساس فالوسيلة والغاية متصلتان . وليستا منفصلتين ، فالغاية امتداد للوسيلة والوسيلة بداية لغاية .

ومن أنصار هذا الاتجاه : فيليب فينكس فهو يعبر عن اتجاهه مثلاً قائلاً : «وترتبط الأهداف والوسائل على أساس أن الهدف في العملية المستمرة يمكن أن يعتبر وسيلة لأهداف أبعد ، وبذلك لا يكون الهدف من الناحية اللفظية هدفاً ما ، بل فرصة لبداية جديدة وتعتبر الوسائل لذلك أهدافاً مباشرة أو تقريبية وتعتبر الأهداف وسائل أكثر نهائية . وبذلك يكون التمييز الحاد بين الأهداف والوسائل لا أساس له[1]» ويقول أيضاً «والوسائل والأهداف يمكن أن تدخل في علاقة مثمرة مع بعضها بعضاً بحيث تقدم الوسائل الأدوات الفعالة لتحقيق الهدف وتقدم الأهداف البصيرة والدوافع لاستخدام أفضل الوسائل ، فالأغراض دون وسائل لتحقيقها نوع من الرؤية الباطلة[2]» .

ومن أكبر فلاسفة هذا الاتجاه جون ديوي حيث يقول مبيناً أصل نشأة هذه الفكرة وخطورتها «فقد أدى الاعتقاد بوجود قيم ثابتة إلى حدوث انقسام في الغايات إلى ذاتية ووسيلة ، إلى غايات قيمتها في نفسها حقاً وأخرى أهميتها في أنها وسائل لدرك ضروب من الخير ذاتية ، وكثيراً ما رأى الناس أن عمل هذا التقسيم يعد بداية الحكمة ، بداية التمييز الأخلاقي . وهو تقسيم يبدو في الحق هاماً من الوجهة (الديالكتية) ولا ضرر من ورائه في الظاهر ، ولكن إذا ما نفذناه وعملنا به كانت له نتائج بالغة الخطورة»[3] ، ولهذا فهو في ميادين التربية الأخلاقية ينصح بعدم اتخاذ أي هدف خلقي قبل معرفة الوسيلة الضرورية لتحقيقه ، وإلا كان ذلك على

---

(١) فلسفة التربية ص ٨٢٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٧٨ .

(٣) تجديد في الفلسفة . جون ديوي ص ٢٨٠ .

حساب هدف أو أهداف خلقية أخرى ، فمثلاً قد يعمل المرء من أجل تحقيق هدفه على حساب مصلحة أصدقائه وقد يعمل لكسب مال على حساب شرفه أو يجعل شرف وطنه وسيلة لكسب شرف لنفسه[1] .

وإذا نظرنا الآن إلى رأي الإسلام في هذا الموضوع وجدناه ينصح باتخاذ الوسائل لتحقيق الأهداف أو الوصول إلى الغايات والآمال ، ولهذا قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون[2]» ، فالآية تدعو إلى اتخاذ الوسائل لوقاية الإنسان نفسه من المعاصي للوصول إلى الله ، لكن يجب أن تكون هذه الوسائل من جنس الواجبات أو من الأمور المشروعة لا المحرمة ، ولهذا قال تعالى في حديث قدسي «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه» إلى آخر الحديث[3] .

ذلك أن الخير لا يأتي إلا بوسيلة خيرة وأنه إذا اتخذ الشر وسيلة لجلب الخير فإنه قد ينتج عنه شر بدل الخير ، بل قد يكون الشر الناتج أكثر بكثير من ذلك الشر الذي اتخذ وسيلة لتحقيق ذلك الخير ، ولهذا أجاب الرسول عندما سألوه أو يأتي الخير بالشر قائلاً : «الخير لا يأتي إلا بالخير أما الشر فقد يأتي بأشر منه[4]» .

وبناء على ذلك فقد قرر الإسلام دفع الشرور بوسائل خيرة ، ذلك أنه إذا كانت الغايات التي يسعى إليها المرء يجب أن تكون خيرة دائماً وأبداً فإن دفع الشر بالشر لا يؤدي إلى الخير ولا إلى تحقيق غايات خيرة ، وإنما يؤدي إلى الشر . ومن ثم كانت

---

(١) النظرية الأخلاقية عند جون ديوي . ومدى صلاحيتها للتربية المصرية ، للدكتور محمد لبيب النجيحي . مخطوط ص ٦١ ـ ٦٣ .

(٢) سورة المائدة ٣٥ .

(٣) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج ١ص ١٠٢ الأحاديث القدسية ج ١ص ٨١ .

(٤) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الجهاد باب فضل النفقة في سبيل الله ج٦ ص٣٨٩ انظر كذلك نفس المرجع كتاب الرقاق ج ١٤ص ٢٠ ـ ٢١ .

القاعدة الإساسية في الإخلاق الإسلامية دفع الشر بالخير والإساءة بالحسنى «ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم [١]» ، «ادفع بالتي هي أحسن السيئة[٢]» ولذلك اتخذ علماء الشريعة قاعدة «الضرر لا يزال بالضرر[٣]» ومن ثم نجد الإسلام حرم اتخاذ الأمور المحرمة وسيلة لتحقيق الأمور المشروعة مثل التداوي بالمحرمات[٤] . وعلى هذا الأساس قال علماء الفقه الغاية لا تبرر الوسيلة لأن الأمر عندئذ يؤدي إلى الشرور ، إذ من الممكن أن يرتكب الناس الجرائم مدعين أنهم يستهدفون من وراء ذلك تحقيق غايات خيرة ، ولهذا كله قال علماء أصول الشريعة يجب في الوسائل والأسباب التي تتخذ لتحقيق غايات شرعية أن تكون مشروعة كغاياتها ، هنا يقول الإمام الشاطبي «فإن الشارع لم يجعل أسباباً مقتضية إلا مع وجود شرائطها وانتفاء موانعها ، فإذا لم تتوفر لم يستكمل السبب أن يكون سبباً شرعياً . . . ، لأن معنى كونها أسباباً شرعية هو أن تقع مسبباتها شرعاً ، ومعنى كونها غير أسباب شرعاً ألا تقع مسبباتها شرعاً[٥]» ، لكن عند اتخاذ الوسائل التربوية تسامح الإسلام بعض التسامح مع المربي في أن يعاقب المتربي بالضرب بحيث لا يؤدي إلى التلف أو لا يكون ضرباً مبرحاً إذا لم ينفعه أسلوب اللين والقول الحسن ، وذلك للتنبيه لا لإيذائه ، وهذا شريطة أن يبلغ سناً معينة وألا يكون ذلك الضرب في الوجه فقال الرسول «علموا الصبي الصلاة ابن سبع واضربوه عليها ابن عشر[٦]» وقال أيضاً «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب أو دعا بدعوى الجاهلية[٧]» وسوف نشرح هذه النقطة بشيء من التفصيل عند بيان وسائل التربية ، وفي ضوء ذلك قرر علماء الأصول بأنه «يغتفر في الوسائل ما لا يغتفر في

---

(١) سورة فصلت ٣٤ .

(٢) سورة المؤمنون ٩٦ .

(٣) الأشباه والنظائر للإمام السيوطي ص ٨٦ .

(٤) الجامع الصغير ج ١ ص ٧٢ .

(٥) الموافقات ج٢ ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٦) سنن الترمذي كتاب الصلاة ج ١ ص ٢٥٣ .

(٧) صحيح مسلم باب تحريم ضرب الخدود ج ١ ص ٩٩ .

المقاصد[1]» ، وعلى ذلك سمح الإسلام إذا عسر اتخاذ الوسيلة المطلوبة أو الوسيلة الواجبة لتحقيق غاية ما بالعدول إلى وسيلة بديلة لها ، ففي تأديب الزوجة مثلاً يتخذ أولاً وسيلة خيرة تماماً وهو الوعظ والإرشاد وبيان ما يترتب على النشوز من شر وعاقبة سيئة ، فإذا لم تفد هذه الوسيلة يبدلها بأخرى وهي الهجر ، وإذا لم تفد هذه بدورها أيضاً يلتجئ إلى أخرى أصعب من السابقة وهي الضرب فقال تعالى «واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا[2]» .

في ضوء ذلك نقرر أن الإسلام يدعو أول ما يدعو إلى اتخاذ الوسائل الخيرة للغايات الخيرة وهو لا يقرر في ذلك وجوب اتخاذ وسيلة واحدة لكل غاية تربوية ، بل يقرر عدة وسائل أحياناً وذلك ليتخذ المربي الوسيلة التي يراها ناجعة بحسب الشخص الذي يريد تربيته ، لأن التربية واجب المربي ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب أيضاً كما يقرر ذلك علماء أصول الشريعة فيقول مثلاً «القرافي» : وعندنا وعند جمهور العلماء ما لا يتم الواجب المطلق إلا به وهو مقدور للمكلف فهو واجب لتوقف الواجب عليه[3]» .

المعيار الثاني : وجوب مراعاة الفروق الفردية بحسب السن والاستعدادات عند اتخاذ الطرق والوسائل التربوية ، لأن هناك فروقاً فردية في شتى النواحي ، قد يرجع ذلك إلى السن أو إلى الطبيعة أو إلى التربية[4] فيقول عنه رونيه أوبير «من الواجب أن تتلاءم التربية الخلقية مع اهتمامات الطفل في كل مرحلة من مراحل تطورها»[5] ويقول أيضاً «إن وسائل التربية الخلقية نفسها وروح هذه التربية ينبغي أن يختلفا باختلاف الأعمار . إن الطفل يفهم ما يستطيع هضمه ولا يستطيع أن

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ١٥٨ .
(٢) سورة النساء ٣٤ .
(٣) شرح تنقيح الفصول في الأصول للقرافي ص ١٦٠ .
(٤) سيكولوجية الفروق الفردية ص ١٩ .
(٥) التربية العامة ص ٤٩٧ .

يهضم إلا ما يوافق اهتماماته في كل مرحلة من مراحل نموه»[1] وكان أرسطو أيضاً أيد ذلك من قبل قائلاً مثلاً : «متى كانت التربية خاصة فالعناية التي تطبق حينئذ على كل فرد بخصوصه يظهر أنها أتم ما دام كل طفل يلقى شخصياً نوع العناية التي هي ملائمة له»[2] لكن أرسطو يرجع مع ذلك معرفة المربي القواعد العامة التي تتلاءم مع أكبر قدر ممكن من الأطفال الذين يمثلون نمطاً واحداً أو مستوى واحداً أو مرحلة واحدة[3] .

وأخيراً ممن يؤيد هذه الفكرة فيليب فينكس حيث يقول «ومن المهم في تربية الطفل أن نبدأ من حيث يقف وأن نقتبس طرقاً مناسبة لسنه ونضجه وقدراته واهتماماته ، وهذا لا ينفي اعتبار أهداف الكبار ـ الآمال والمثل العليا الوالدية ، لما سيصبح عليه الطفل يوماً من الأيام ـ على شرط أن تكون هذه الأهداف غير متعارضة مع الاهتمام الواقعي بالخطوات التالية ، وعلى شرط أن تخضع الأغراض البعيدة المدى للمراجعة طبقاً للمجرى الحقيقي للنمو»[4] .

بعد ذلك نجد هذا المعيار التربوي بصورة أوضح وأدق لدى مفكر ومرب معلم وهو الإمام الغزالي ، ولنستمع إلى ما يقول عن هذا المعيار للتربية الأخلاقية بعد أن شبه عمل المربي هنا بعمل الطبيب من حيث أن الطبيب يحتاج إلى معيار لمعرفة مقدار العلاج اللازم لكل واحد من المرضى على حسب طبيعة مرضه فإن المربي كذلك لا بد أن يكون له معيار لتربية الناس المختلفين خلقاً فيقول «ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد فكذلك النقائص التي تعالج بالأخلاق لا بد لها من معيار ، وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة حتى أن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهي ضعيفة أم قوية فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن

(١) المرجع السابق ص ٥٠٣ .
(٢) علم الأخلاق لأرسطو ج٢ ص ٣٧٢ .
(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٧٢ .
(٤) فلسفة التربية ص ٨٢٨ .

وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطبب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي ألا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم ، وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك الشيخ لو أشار على جميع المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم ، بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبني على ذلك رياضته»[1] ، «فإذا عرف ما هو الغالب على المريد من الخلق السيء وعرف مقداره ولاحظ حاله وسنه وما يحتمله من المعالجة عين له الطريق»[2] ثم إنه كلما زادت معرفة المربي بهذه الفروق الفردية سهل عليه تدريب التلاميذ وهذا ما يقرره أيضاً بعض المربين قائلاً «كلما زادت معرفة المدرس بهذه الفروق سهل عليه تدريب التلاميذ وتوجيههم نحو تحقيق الأغراض التربوية المختلفة»[3] .

وإذا بحثنا الآن عن هذا المعيار في نظر الإسلام وجدناه مؤيداً ومدعماً بكثير من النصوص ، وقد ذكرنا بعض تلك النصوص خلال دراستنا لموضوعات سابقة وسأشير هنا إلى ما ذكرته وأذكر ما لم أذكر بالتفصيل لتكتمل الفكرة وليصبح المعيار محسوساً مشخصاً .

كنا قررنا بعد دراسة الأسس العلمية والواقعية والطبيعة البشرية بوجوب مراعاة الإمكانيات الطبيعية ومستوى قدرات واستعدادات الطفل المختلفة عند التربية سواء عند تلقين الأفكار الأخلاقية أو عند استخدام وسائل التدريب والتربية .

فمن الناحية الأولى قلنا أن يكون الكلام على قدر إدراك الطفل إذ ليس من الحكمة أن يكون الكلام وأسلوب الخطاب للكبير نفسه للصغير وأن يكون الخطاب

---

(١) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٦١ .

(٢) ميزان العمل الإمام الغزالي ص ٦٥ .

(٣) الأستاذ الدكتور إبراهيم وجيه محمود في كتابه الفروق الفردية في القدرات العقليةص١٢

للذكي نفسه للغبي أو المأفون مثلاً والأصدق ما روى عن الرسول بأن من يحدث قوماً حديثاً لا تدركه عقولهم كان ذلك الحديث فتنة لبعضهم[1] ، ولهذا أيضاً روى عن الرسول أنه قال : «يا ابن عباس لا تحدث قوماً حديثاً لا تحتمله عقولهم»[2] وبناء على هذا وذاك أمر الأنبياء في تعاليمهم بمراعاة هذه الفروق العقلية فقال الرسول «إنا معاشر الأنبياء وفي رواية أمرنا معاشر الأنبياء أن نحدث الناس على قدر عقولهم»[3] ، ذلك أن الإنسان لا يندفع لتطبيق فكرة إذا لم يقتنع بها ولا يمكن أن يقتنع بها إلا إذا أفهم بطريقة يفهم بها وأسلوب يقتنع به ، ولذا يرى كانط أيضاً أن لإيضاح الفضيلة المجردة في نفس الطفل أثر أقوى من جاذبية السعادة وأنه ليكفي للإنسان أن يبين له الواجب في كل صفاته مجرداً عن المنفعة ليعترف به ويخضع له لا في أفعاله فحسب ، بل في نواياه أيضاً[4] .

ومن الناحية الثانية لا بد من مراعاة استعداد الطفل عند تدريبه على الأعمال الأخلاقية وهذا يتطلب تحديد الوسيلة وفقاً لاستعدادات الطفل لأن الوسيلة التي تستخدم في التربية إذا تطلبت عملاً فوق طاقته فإنها لا تفيده ، بل تجعله يكره العمل الأخلاقي ومن ثم يكره الفضيلة بكاملها ، ولهذا نجد أرسطو يقرر هذه الحقيقة قائلاً «كل فضيلة أياً كانت تتكون وتفسد بالوسائل عينها والأسباب عينها[5]» ويشرح ذلك بقوله «إن الحال هنا على ما نرى كالحال بالنسبة لقوة البدن وللصحة فإن الشدة المفرطة في التمرينات البدنية أو التفريط فيها كلاهما يودي بالقوة على السواء كذلك الحال أيضاً في الشرب والأكل ، بل إن كثرة الأطعمة فوق اللازم أو قلتها إلى أقل من اللازم تفسد الصحة ، أما على ضد ذلك إذا أخذت بالقدر اللازم فإنها توجد

---

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ١١ .
(٢) كشف الخفاء ج ١ ص ٢٢٦ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٢٦ .
(٤) مقدمة علم الأخلاق لأرسطو ص ١٤٣
(٥) علم الأخلاق لأرسطو ج ١ ص ٢٢٧ .

الصحة وتنميها وتحفظها ، والحال كذلك تماماً بالنسبة للعفة والشجاعة وجميع الفضائل الأخرى[(١)]» .

ولهذا كله نجد هذه الحقائق مقررة في الإسلام بالتأكيد فيقول الرسول مثلاً «خذوا من العمل ما تطيقون[(٢)]» وقال في حديث آخر مبيناً علة ذلك «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك فإن المنبت لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى [(٣)]» وقال أيضاً «لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه (قيل كيف يذل نفسه يا رسول الله؟) قال يتعرض من البلايا لما لا يطيق[(٤)]» ، ولهذا كله قال «يا أيها الناس عليكم بالقصد عليكم بالقصد فإن الله لا يمل حتى تملوا[(٥)]» ولهذا نهى عن الإفراط والتشدد في التعبد وأمور الدين فقال «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة «سير الليل[(٦)]» . وبناء على هذا أيضاً أمر بمراعاة الظروف والإمكانيات الصحية للناس في صلوات الجماعة فقال «إن منكم منفرين فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة[(٧)]» .

بل أكثر من هذا فإن الإسلام أمر بمراعاة كل غريزة من الغرائز الطبيعية والإعتدال والعدالة في تحقيق حاجتها بطريق مشروع ، وبناء على ذلك نهى عن صوم الوصال والانقطاع الكامل للحياة الروحية ثم أمر بإعطاء كل ذي حق حقه من الحاجات الطبيعية كما بينا ذلك بالتفصيل عند البحث عن أساس الطبيعة البشرية ، لأن عدم إعطاء حق الحاجات الإنسانية أو تكليف الإنسان فوق طاقته أو خطابه بما لا يفهم يجعل الإنسان يكره هذا العمل ولو كان خيراً في ذاته .

---

(١) علم الأخلاق لأرسطو ج ١ ص ٢٣١ .
(٢) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الصوم ج ٥ ص ١١٧ .
(٣) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج ١ ص ١٤٠ .
(٤) المرجع السابق ص ١٣٨ .
(٥) المرجع السابق ج ١ ص١٣٨ .
(٦) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج ١ ص ١١٠
(٧) المرجع السابق ج ١ ص ٢٠٩ .

وهذا يقتضي أيضاً من الناحية التربوية عدم التشديد والضغط والعنف في ميدان التربية ، لأن العنف لا يولد إلا العنف كما يقول أولدس هكسلي[١] وإن كان بعضهم ينصح باستخدام العنف وسيلة للإصلاح كما يرى بارتلمي[٢] فإن ذلك في نظر الإسلام وسيلة أخيرة أو قاعدة استثنائية تستخدم في حالة عدم تأثير التوجيه بالرفق والحسنى كما رأينا في مسألة تعديل سلوك الزوجة الناشزة ، أما الأسلوب الأساسي في نظر الإسلام فهو أن تكون الوسيلة متسمة بالرفق واللطف وبصفة خاصة في معاملة الأطفال وتربيتهم ، ولهذا كان الرسول يقول «إن الله يحب الرفق في الأمر كله[٣]» وكان يقول لعائشة «عليك بالرفق فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شأنه[٤]» إذ إن طريقة الغلظة والعنف والقسوة في التربية تكون إنساناً غليظاً قاسياً عنيفاً يحمل في نفسه الحقد والضغينة على مربيه ثم هو نفسه يتخذ نفس الأسلوب في التربية عند الكبر ، لأن كل أسلوب تربوي غير أخلاقي يكون بدوره نمطاً من السلوك غير أخلاقي عند المتربين ، ولذا كان الرسول ينصح بالتيسير والتبشير في التربية والتعليم وكان يقول «علموا وبشروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا[٥]» وفي رواية «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا[٦]» كما كان ينصح أن يكون المربي كالوالد الرحيم بالنسبة للمتربي وكان يقول «أنا لكم مثل الوالد لولده أعلمكم[٧]» وأخيراً كان ينصح أن ينزل المربي إلى مستوى المتربي فيقول مثلاً «من كان له صبي فليتصاب له[٨]» ومعروف عنه أنه كان يفعل ذلك بنفسه إذ كان يداعب الأطفال ويلاطفهم[٩] وكان يقول «من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا

---

(١) الوسائل والغايات ص ٢٧ . (٢) المرجع السابق ص ٢٧ .
(٣) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج ١ ص ١٥٩ .
(٤) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٠٤ .
(٥) مسند الإمام أحمد كتاب العلم ج ١ ص ١٢٥ .
(٦) فتح الباري بشرح البخاري كتاب العلم ج ١ ص ١٧٢ .
(٧) الجامع الصغير ج ١ ص ١٠٣ .
(٨) فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ٦ ص ٢٠٩ ، الجامع الصغير ج ٢ ص ١٧٩ .
(٩) سنن أبي داود كتاب الأدب ج ٤ ص ٢٤٢ .

فليس منا[1]» وما أحسن ما قال معاوية بن الحكم السلمي عن أسلوب تربية الرسول «بأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني[2]» وليس هذا ببعيد لأنه ليس رسول التبليغ فحسب بل رسول التربية والتعليم أيضاً ، ولهذا كان يقول «إن الله تعالى لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً[3]» حتى كان تبليغه تربوياً ولهذا قال «إن الله أرسلني مبلغاً ولم يرسلني متعنّتاً[4]» .

وهذا الأسلوب التربوي الدقيق خاضع أساساً للقاعدة الأساسية وهي مراعاة الطبيعة النفسية للإنسان ، لأن علم النفس من أساسيات التربية الإسلامية كما بينا في الفصل الثاني في باب أسس التربية الأخلاقية .

من هذا كله يتحدد لنا المعيار الثاني وهو مراعاة الطبيعة المادية والطبيعة النفسية وطبيعة النمو وطبيعة الفروق الفردية للمتربين عند اتخاذ الأساليب والوسائل التربوية وقياس كل التدريبات الأخلاقية به لمعرفة ما إذا كانت تربوية أو غير تربوية .

المعيار الثالث : الالتزام بالسلوك الأخلاقي الكامل . وهو الخاص بقياس مدى اكتمال التربية الأخلاقية عند المتربي وهو أن يلتزم بالسلوك الخير حباً في الخير وأن يتجنب الشر كرهاً له واشمئزازاً منه في السر والعلن في الظروف المختلفة سواء أكانت هذه الظروف مساعدة للالتزام الأخلاقي أم غير مساعدة أو كانت تدعو إلى الانحراف الأخلاقي ، لأن التربية الأخلاقية أساساً هي تكوين استعداد كامل للالتزام بالأخلاق مهما كانت ظروف الحياة التي يعيش فيها .

ولأهمية هذا المعيار في ميدان التربية نجد المربين تعرضوا له بصورة أو بأخرى سواء كان ذلك لمعرفة المرء مدى تكون الأخلاق في نفسه أو في غيره ممن رباهم ،

---

(١) سنن أبي داود كتاب الأدب ج٤ ص ٣٩٢ .

(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٨١ رقم الحديث ٥٣٧ والكهر بمعنى القهر والزجر .

(٣) الجامع الصغير ج١ ص ٧٢ .

(٤) صحيح مسلم ج٢ ص١١١٣ رقم الحديث ١٤٧٥ .

فيقول الغزالي مثلاً : «فإذا قلت فبماذا أعلم أن الحاصل هو الخلق الجميل ، وهو الوسط المعتدل بين طرفي الإفراط والتفريط ، فطريقك أن تنظر في الأفعال التي يوحيها ذلك الخلق الذي فيه مجاهدتك فإذا التذذت بفعله فاعلم أن الخلق الموجب له راسخ في نفسك[1]» ويضرب مثلاً لذلك بصفة الجود قائلاً : «وهو أن يتيسر عليك بذل ما يقتضي الشرع والعقل بذله عن طوع ورغبة ، ويتيسر عليك إمساك ما يقتضي الشرع والعقل إمساكه عن طوع ورغبة وكذا في سائر الصفات ، والواحد منها كاف في المثال[2]» .

ويبدو من كلامه هنا وفي مواضع أخرى أن علامة اكتمال التربية الأخلاقية هي أن تصير الأخلاق طبعاً له فتصدر عنه بسهولة ويسر دون روية وفكر وأن يصير السلوك الأخلاقي محبباً إليه وأن يتنعم به ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بأن يصبح هذا وذاك «هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية[3]» وأن يكون ذلك على الدوام في جملة العمر ، وليس من دلالة التربية أن يلتذ المرء بالعمل الأخلاقي وأن يكره المعصية زماناً دون زمان أو أن يلتزم بالأخلاق ويتجنب سوء الأخلاق زماناً دون زمان ، بل أن يصبح هذا وذلك عادة وطبعاً[4] من الشعور باللذة في الحالة الأولى والكره في الحالة الثانية على الدوام من حيث السلوك ومن حيث الشعور . وعند ابن مسكويه أن تصبح الأخلاق هيئة أو حالاً للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية[5] . وعند ابن سينا أن معيار تمام هذه التربية عند المرء هو أن تحصل في النفس هيئة أخلاقية استعلائية تتحكم في جميع نوازع البدن وتدفع الإنسان إلى السلوك الأخلاقي باستمرار .

فيشرح ذلك قائلاً «الخلق هيئة تحدث للنفس الناطقة من جهة انقيادها وغير

---

(١) ميزان العمل ص ٦٦ .

(٢) ميزان العمل ٦٦ ـ ٦٧ .

(٣) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٥٣ .

(٤) إحياء علوم الدين ج٣ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٥) تهذيب الأخلاق ص ٣١ .

انقيادها له ، فإن العلاقة التي بين النفس والبدن توجب بينهما فعلاً وانفعالاً، فالبدن بالقوى البدنية يقتضي أموراً ، والنفس بالقوى العقلية تقتضي أموراً مضادة لكثير منها ، فتارة تحمل النفس على البدن فتقهره وتارة يسلم البدن فيمضي في فعله ، فإذا تكرر تسليمها له حدث من ذلك هيئة إذعانية للبدن حتى يعسر عليها بعد ذلك ما كان لا يعسر قبل ممانعته وكفه عن حركته ، وإذا تكرر وقوعها له حدث منه في النفس هيئة استعلائية عالية يسهل عليها بذلك من مفارقة البدن فيما يميل إليه ما كان لا يسهل قبل . وإنما تقوم هيئة الإذعان في وقوع الأفعال من طرف واحد في النفس أو الإفراط وتقوم هيئة الاستعلاء بأن تجري الأفعال على التوسط فسعادة النفس في كمال ذاتها من الجهة التي تخصها هو صيرورتها عالماً عقلياً وسعادتها من جهة العلاقة التي بينها وبين البدن أن تكون لها هيئة استعلائية[1]» .

على أية حال فخلاصة رأيه أن دلالة اكتمال التربية الأخلاقية هي أن تصبح الأخلاق عند المرء «ملكة تصدر عن النفس أفعال ما بسهولة من غير تقدم روية[2]» وأما الفارابي فيرى أن دلالة اكتمال التربية الأخلاقية أو اكتمال الأخلاق عند المرء هي أن تصبح الأخلاق كالسلوك الطبيعي بكثرة المران والاعتياد[3] أما معيار اكتمال التربية الأخلاقية عند أرسطو فهو أن تكون الأخلاق عادة عند الفرد[4] .

ويمكن أن توضع كل هذه الآراء السابقة في اتجاه واحد وهو أن تصبح الأخلاق هيئة راسخة أو عادة كالطبيعة بحيث يلتزم بالأخلاق دون تكلف وبسهولة من غير فكر ولا روية ، ويزيد على ذلك الغزالي بأن يتم ذلك عن حب للفضيلة وعن كره للرذيلة .

وإذا بحثنا الآن عن هذا المعيار في الإسلام وجدناه يقرر أن الذي تربى تربية أخلاقية يلازم العمل الأخلاقي ، بل لا يستطيع ترك الفضيلة إطلاقاً ما دام يستطيع

---

(١) علم الأخلاق لابن سينا مطبوع ضمن مجموعة طبعة كردستان ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٢) أحوال النفس لابن سينا ص ١٣٥ .

(٣) الجمع بين رأيي الحكيمين للفارابي ، ص ١٧ ـ ١٨ .

(٤) علم الأخلاق لأرسطو ج٢ ص ٢٠٣ .

فعلها ، لأن الفضيلة كالشجرة إذا زرعت في النفوس لا بد من أن تخضرَّ وتثمر بطبيعتها ، لهذا شبه الرسول المسلم بالشجرة التي لا يسقط ورقها «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وأنها مثل المسلم[1]» لأنه يعمل الخير باستمرار ولو قليلاً فالقليل يكون كثيراً بالاستمرار ، ولهذا قال الرسول «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل[2]» ولما سئلت عائشة عن عمل الرسول فقالت «كان عمله ديمة[3]» ، ولهذا أيضاً كانت عائشة إذا عملت عملاً لزمته[4] .

ولكي يستطيع الناس الاستمرار أو ملازمة الأعمال الخيرة وسع الإسلام مجالات الأعمال الخيرة ليستطيع الناس أن يعملو خيرات على حسب قدراتهم وإمكانياتهم ، وظروفهم ، ولهذا قال الرسول «على كل مسلم صدقة ، قيل أرأيت إن لم يجد؟ قال يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق ، قيل أرأيت إن لم يستطع؟ قال يأمر بالمعروف أو الخير ، قيل أرأيت إن لم يفعل؟ قال يمسك عن الشر فإنها صدقة»[5] وقال أيضاً «تعدل بين الإثنين صدقة وتعين الرجل على دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة والكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة[6]» وإذا لم يجد إنساناً بحاجة إلى الخير يعمل الخير للحيوان قال الرسول «وفي كل كبد رطبة أجر[7]» بل حتى مجرد بسمة في وجه الإنسان صدقة فقال «وبسمتك في وجه أخيك لك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة . وإرشادك الرجل في أرض الضلالة لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة . . وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة»[8] ،

(١) هداية الباري إلى ترتيب صحيح البخاري ج١ ص ٢٠٣ .
(٢) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على العمل ج١٤ ص٧٨ .
(٣) المرجع السابق كتاب الرقاق ج١٤ ص ٧٩ .
(٤) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين ج١ ص ٥٤١ .
(٥) صحيح مسلم كتاب الزكاة ج٢ ص ٦٩٩ .
(٦) المرجع السابق ج٢ ص ٦٩٩ .
(٧) صحيح مسلم كتاب السلام ـ باب فضل ساقي البهائم المحترمة واطعامها ج٤ص ١٧٦١ .
(٨) تحفة الأحوذي بشرح الجامع الترمذي باب ما جاء في صنائع المعروف ـ كتاب الشرب ج٦ ص ٨٩ .

وينبغي أن يكون التلازم والاستمرار في عمل الخيرات وفي السر والعلانية فقال الرسول «أوصيك بتقوى الله تعالى في سر أمرك وعلانيته»[1] وقال تعالى «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[2]» ، «والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار»[3] ، «قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية»[4] . ولا يكفي أن يكون ملازماً للسلوك الأخلاقي في السر والعلن ، بل يجب أن يكون التزامه إلى جانب ذلك عن حب ورغبة بدون الشعور بالكلفة والضيق مما يفعل ، وإلى هذا أشار قوله تعالى «والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»[5] .

هذا الحب للفضيلة والتقدير لقيمتها هما اللذان يجعلان المرء يضحي في سبيلها بكل غال ومحبوب ، لأن قيمة الفضيلة ما دامت أفضل وأكثر من قيمة أي شيء عنده فإنه سوف يضحي بكل شيء ما عداها في سبيلها ، وهذا ما يدل على حبه للفضيلة وتشبعه بها «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»[6] ، «ولكن البر من آمن بالله . . وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل»[7] .

ولذلك فقد آثر يوسف عليه السلام البقاء في السجن من أجل الفضيلة عندما هددته امرأة العزيز بالسجن إن لم يحقق رغبتها فقال «رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه»[8] بل يضحون بأغلى ما لديهم وهو الحياة في سبيل الحق ، ولهذا لما

---

(١) الجامع الصغير ج١ص ١١١ . (٢) سورة البقرة ٢٧٤ .
(٣) سورة الرعد٢٢ .
(٤) سورة ابراهيم ٣١ .
(٥) سورة الحشر ٩ .
(٦) سورة آل عمران ٩٢ .
(٧)سورة البقرة ١٧٧ .
(٨) سورة يوسف ٣٣ .

هدد فرعون أصحاب موسى بالتقتيل إن لم يعدلوا عن الحق آثروا البقاء بجانب الحق والثبات عليه على البقاء في الحياة . فقال فرعون في تهديده «فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا»[1] .

أما الذين لم تؤثر فيهم التربية ولم يتشبعوا بروح الفضيلة فإنهم لا يجدون لذة في فعل الفضيلة ، بل إذا فعلوا شيئاً من ذلك لا يفعلونه رغبة في الفضيلة لذاتها وإنما لانتظار مقابل أو لمواضعات اجتماعية ، ولهذا يكرهون الفضيلة وتكون نفوسهم متحسرة في فعلها ، لأنهم يبذلون شيئاً من مالهم وجهدهم قد لا يجدون ما يقابلها ، بل يحسبون أن ما ينفقونه باسم الفضيلة مال ضائع وجهودهم في سبيل الفضيلة جهود ضائعة أيضاً ، ولذا قال تعالى عنهم «ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون[2]» ، «فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون[3]» .

ومقابل ذلك فإن الذين يحبون الفضيلة يكرهون الرذيلة بالطبع لأنهما أمران متناقضان وطريقان مختلفان في البداية والنهاية ، ومن وصل إلى مرحلة يحب فيها الفضيلة ويلتزم بها عن إيمان بقيمتها ورغبة فيها ، يكره الرذيلة ويتجنبها عن كره لها وعن إيمان بعدم جدواها ـ فقد تربى وأصبح إنساناً راشداً ، وإلى هذا أشار قوله تعالى «واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون[4]» .

---

(١) سورة طه ٧١ ـ ٧٢ .

(٢) سورة التوبة ٥٤ .

(٣) سورة التوبة ٨١ .

(٤) سورة الحجرات ٧ .

لكن إذا التزم الإنسان بالفضيلة عن حب ورغبة ، لعلمه أنها أسلم طريق في الحياة يجنب الإنسان فيها من المهالك ويؤدي إلى النجاح والسعادة أن يمكن أن يلتزم بالفضيلة حباً في نتائجها ولما تؤدي إليه من منافع ، هل يكون عندئذ انساناً فاضلاً وهل يكون مثل هذا السلوك سلوكاً أخلاقياً؟ وهذا هو مرجع المعيار الرابع .

المعيار الرابع : القياس بالمردود والأخلاقي الواقعي والنفسي

تختلف وجهات نظر الفلاسفة في هذا الموضوع ويمكن إجمالها في اتجاهين :

الأول : الإتجاه الخارجي الموضوعي الذي يقيس الأعمال الأخلاقية بالمعايير الخارجية التي لا تمت إلى باطن الإنسان بصلة . وقد انقسم أنصار هذا الإتجاه إلى مذاهب مختلفة :

فمنها المذهب البرجمتي الذي يقيس السلوك الأخلاقي بمدى ما يقدم من نفع ونجاح عملي مادي أو معنوي وسواء أكان هذا النفع خاصاً بالفرد أو بالمجتمع وكلما عاد النفع إلى أكبر قدر ممكن من الناس زادت درجة أخلاقية الفعل النافع[1] أي أن المقياس هنا الأثر المترتب على السلوك فهو يقيس الأعمال بآثارها ونتائجها فحسب ولا يضع معياراً آخر للسلوك الأخلاقي .

ومنها مذهب التكيف البيئي الذي نادى به سبنسر ويرى أن المعيار الأخلاقي هو التوافق مع البيئة ، فكلما كان الفعل أكثر اتفاقاً مع البيئة كان أكثر أخلاقية ، لأن التوافق خير وعدم التوافق شر ، فالأول ينتج اللذة والسرور والثاني ينتج الألم والشقاء[2] . ومنها المذهب الواقعي والتجريبي الذي يرى أن معيار العمل الأخلاقي هو التجربة فهي التي تميز بين العمل الأخلاقي وغير الأخلاقي أي لكي نعرف أن هذا العمل أو ذاك أخلاقي أو غير أخلاقي نجربه عملياً فإذا جلب لنا نفعاً مادياً أو معنوياً فهو أخلاقي وإذا جلب لنا ألماً حسياً أو معنوياً فهو غير أخلاقي[3] .

---

(١) الفلسفة الخلقية . دكتور توفيق الطويل ص ٢٧٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦٥ .

الإتجاه الثاني يجمع بين الظاهر والباطن ، إذ لا يكفي في نظره انطباق السلوك على القانون الأخلاقي الظاهر كالقوانين الأخرى ، بل لا بد مع ذلك من عمل باطني ، هو عمل القلب والارادة الخيرة ، إذ إن الإرادة الخيرة هي التي تضفي على السلوك الأخلاقي صبغة أخلاقية لأنها لا يشوبها شر إطلاقاً ، ومن أنصار هذا الاتجاه أرسطو حيث يقول مثلاً «الأفعال التي تنتجها الفضائل ليست عادة ومعتدلة بسبب أنها على صورة ما ، بل يلزم فوق ذلك أن يكون الفاعل في اللحظة نفسها التي يفعل فيها على استعداد أخلاقي ما ، فالشرط الأول أن يعلم ماذا يفعل . والثاني أن يريد بالاختيار التام ، وأن يريد الأفعال التي ينتجها ولذاتها ، وأخيراً الثالث هو أنه عند الفعل يفعل بتصميم ثابت لا يتزعزع على ألا يفعل خلافاً لذلك البتة[1]» ، ومن أبرز الفلاسفة الغربيين في ميدان التكفير الأخلاقي الذي يضع للسلوك الأخلاقي معياراً حسياً ظاهرياً ومعياراً آخر معنوياً باطنياً الفيلسوف كانط ، بل إننا نجد أن كانط يهتم بالمعيار الباطني أكثر من المعيار الظاهري ويتمثل المعيار الباطني في نظره في الإرادة الخيرة فيقول في هذا الصدد مثلاً «لا يوجد شيء يمكن عده خيراً على وجه الإطلاق دون قيد اللهم إلا شيء واحد هو الإرادة الخيرة[2]» ويرى أن الإرادة الخيرة شرط يتوقف عليه كل خير آخر[3] ومن ثم يرى أنه إذا لم يتم السلوك الأخلاقي بنية أخلاقية لا يعد أخلاقياً لأنه من الممكن أن يتم بنية التجارة أو لأي غرض آخر[4] هذا إلى أن معيارية الإرادة الأخلاقية تقتضي عنده ألا يشوبها دوافع أو ميول أو رغبات أخرى في صدور الفعل الأخلاقي وألا يتدخل شيء من تلك الدوافع في شعور المرء بوجوب أداء الأعمال الأخلاقية لا لشيء إلا أنها واجب[5] ، أما المعيار الخارجي الحسي للأخلاق عنده فيتحدد بالقواعد الأخلاقية الأساسية وأهمها قاعدتان الأولى

---

(١) علم الأخلاق لأرسطو ج ١ ص ٢٣٨ .

(٢) تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، كانط ص ١٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٤) المرجع السابق ٢٣ ـ ٢٤ .

(٥) المرجع السابق ص ١٧ ـ ٢٢ .

ونصها «لا تفعل الفعل إلا بما يتفق مع المسلمة التي تمكنك في نفس الوقت من أن تريد لها أن تصبح قانوناً عاماً[١]» .

الثانية ونصها «أفعل الفعل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي شخص كل إنسان سواك بوصفها دائماً وفي نفس الوقت غاية في ذاتها ولا تعاملها أبداً كما لو كانت مجرد وسيلة[٢]» .

ثم نجد هذا المعيار بصورة أكثر تحديداً لدى الفيلسوف الإسلامي الإمام الغزالي ، إنه يحدد رأيه في معيار السلوك الأخلاقي قائلاً «هو أن يكون موزوناً بميزان الشرع والعمل[٣]» ويشرح ذلك في مكان آخر بقوله «وهو أن تيسر عليك بذل ما يقتضي الشرع والعقل بذله عن طوع ورغبة ويتيسر عليه إمساك ما يقتضي الشرع والعقل إمساكه عن طوع ورغبة وكذلك في سائر الصفات[٤]» وهو بدوره يركز على الجانب الباطني في تعريفه للأخلاق لأنه أساساً منبع ومصدر السلوك الأخلاقي ، ولهذا يقول عند تحديد المفهوم الأخلاقي «فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً[٥]» وبناء على ذلك كان تقويمه للسلوك الأخلاقي خاضعاً للمعيار الباطني أساساً ، ولهذا يقول «وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء[٦]» .

ويمكن أن نضيف إلى هذا معياراً آخر يقاس به مدى درجات الاكتمال لدى

---

(١) المرجع السابق ص ٦١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣ .
(٣) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٥٩ .
(٤) ميزان العمل ص ٦٦ ـ ٦٧ .
(٥) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٥٣ .
(٦) المرجع السابق ج٣ ص ٥٣ .

المتربي وهذا المعيار هو درجات الإخلاص في السلوك الأخلاقي وهذا المعيار نجده لدى الاتجاه الصوفي بصفة عامة .

وأول درجة الإخلاص ألا يخالط عمله أي رياء ، وعلامات الرياء ثلاث كما حددها الإمام علي بقوله : «للمرائي ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده ، ويصلي النوافل جالساً ، وينشط إذا كان مع الناس ، يزيد في العمل إذا مدحوه كما ينقص منه إذا ذموه[1]» ، وسألوا ذا النون المصري متى يعلم العبد أنه من المخلصين فقال إذا بذل المجهود في الطاعة وأحب سقوط المنزلة عند الناس[2]» ، وقال الإمام القرطبي عند تفسير قوله تعالى «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون» الإخلاص حقيقته تصفية القلب عن ملاحظة الناس»[3] وبين الهروي درجات الإخلاص بثلاث :

الدرجة الأولى : إخراج رؤية العمل من العمل ، والخلاص من طلب العرض على العمل والنزول عن الرضا بالعمل .

الدرجة الثانية : الخجل من العمل مع بذل المجهود وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود . ورؤية العمل من نور التوفيق من عين الجود .

الدرجة الثالثة : إخلاص العمل بالتخلص من رؤية العمل وأن تدعه يسير مسير العلم وتسير أنت مشاهداً للحكم حراً من رق الرسم»[4] .

وإذا بحثنا عن هذا المعيار الأخلاقي في نظر الإسلام وجدناه قد وضع معيارين أساسين ، الأول المعيار الموضوعي الخارجي ، والثاني المعيار الداخلي الباطني .

أما الأول فهو عبارة عن تلك المبادئ أو القواعد الأخلاقية العامة التي جاء بها

---

(١) تنبيه المغترين ص ٩ للإمام الشعراني ، دار إحياء الكتب العربية .

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج٢ ص ١٤٦ .

(٤) منازل السائرين للهروي ص ١١ ، وانظر كذلك التمكين في شرح منازل السائرين ص٨٨ للأستاذ محمود أبو الفيض المنوفي ،دار نهضة مصر .

الإسلام والتي ترسم أو تحدد بصفة عامة الطريق السوي الخير للحياة الإنسانية في هذه الحياة الدنيا .

ولقد وضع الله هذا المعيار الظاهري ليكون الإنسان معياراً للمسلك الصحيح وميزاناً يميز الخير والشر في السلوك وبين الهدى والضلال والنور والظلام في هذه الحياة «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين[1]» ، «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور[2]» .

وتلك المبادئ والقواعد الأخلاقية قد جاءت مبينة مفصلة في القرآن والسنة النبوية فقال الرسول «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله»[3] وقد ذكرت أهم قواعد الأخلاق الإسلامية في كتاب آخر[4] ، ولا أريد الإطالة هنا بسردها لأنني تناولت أهم جوانبها بالتحديد الموجز عند تحديد مفهوم الأخلاق في الباب الأول .

وأما المعيار الداخلي الباطني فهو الإرادة والنية والباعث والإخلاص والغاية . ويجدر بنا قبل بيان دور هذا المعيار الأخلاقي أن نحدد هذه المصطلحات .

فحقيقة الباعث هي اندفاع داخلي نحو الأشياء والأفعال وقد يكون المثير له العوامل البيولوجية أو السيكولوجية أو العوامل الأيديولوجية الاجتماعية[5] ومهما كان من أمر عامل الباعث فإنه يتم غالباً تحت إثارة أو ضغط أحد العوامل السابقة لا تحت نور العقل والفكر والإخلاص للعمل الخلقي ، ولهذا فإن قيمة الباعث في المعيارالأخلاقي لا أهمية له كثيراً .

وحقيقة النية كما عرفها بعض العلماء «قصد الشيء وعزم القلب عليه»[6] ،

---

(١) سورة المائدة ١٥ .

(٢) سورة إبراهيم ١ .

(٣) التاج ج ٤ ص ٤٧ .الترمذي ج٤ ص ١٥١ .

(٤) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام دراسة مقارنة ص ٢٧٩ ـ ٢٨٥ .

(٥) الدراسات النفسية عند المسلمين ص ٢٢٧ . د . عثمان أمين .

(٦) نهاية الأحكام في بيان ما للنية من أحكام أحمد محمد الحسيني ص ٧ .

وقسموها إلى قسمين : القصد وهو إرادة الفعل حالاً ، والعزم وهو إرادة الفعل مستقبلاً ، وقالوا إن الإرادة والنية شيء واحد أو الإرادة تشملهما ، وبناء على هذا فالقصد والعزم جزء كإطلاق النية[1] ثم إن الإرادة أو النية قد تنصب على الفعل ذاته وقد تنصب على شيء خارج عنه أي على النتيجة أو الغاية منه . أما حقيقة الإخلاص فكما عبر القرطبي «تصفية القلب عن ملاحظة المخلوقين[2]» وأما الغاية فهي آخر ما يهدف إليه الإنسان من وراء فعله ، إذن الغاية هي الهدف البعيد من الفعل ، وإذن الغاية والإرادة قد تشتركان في هذا المعنى فهناك عموم وخصوص من وجه بينهما . وقياس العمل الأخلاقي مرتبط بالمعنيين معاً ، ذلك أن المعنى الأول ضروري لأن من ضروريات العمل أن يكون مقصوداً مراداً حتى يدخل في مجال المسؤولية الأخلاقية ، والمعنى الثاني ضروري أيضاً لتحديد درجات المسؤولية والجزاء الأخلاقي ، ولمعرفة مدى إخلاص المرء للعمل الأخلاقي فالغاية تضفي على العمل الأخلاقي حسناً أو قبحاً بحسب نوعها خيرة أو شريرة .

فدور الإرادة والغاية في السلوك الأخلاقي هام إذ لا يكفي أن يكون السلوك مطابقاً للقانون الأخلاقي من حيث الصورة الخارجية ، بل لا بد للسلوك الأخلاقي من شكل ومضمون معاً أو مادة وروح معاً .

ولهذا قال الرسول «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه[3]» .

وقد بينا في المسؤولية أن مجالها قسمان : ظاهري وباطني ظاهرها الفعل المادي وباطنها النية والغاية فمن نوى نية حسنة فله أجر العمل بها وإن لم يستطع إلى ذلك سبيلاً ، وكذلك من نوى نية سيئة فعليه وزر العمل بها إذا حال بينه وبين العمل بها حائل خارجي ، والنية الحسنة تجعل حتى الأعمال العادية المباحة عبادة يثاب عليها

---

(١) المرجع السابق ص ٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ص ١٤٦ .

(٣) فتح الباري بشرح البخاري كتاب بدء الوحي ج ١ ص ١٣ .

فاعلها ، فإذا نوى مثلاً عند الأكل أنه إنما يأكل لأداء واجباته الأخلاقية في الحياة يثاب ، حتى إتيان الرجل امرأته فإذا نوى عند ذلك أنه بذلك يؤدي حقاً إليها فيثاب وكأنه قد فعل خيراً ، ولهذا قال الرسول «وفي بضع أحدكم صدقة قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال فكان له أجر[1]» ومن يكسب لينفق على أهله ففيه أجر فقال الرسول «وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك[2]» .

وهنا لا ينبغي أن ننسى مدى اهتمام المتصوفين بالمعيار الداخلي من شدة الإخلاص وجوب انطباق الظاهر على الباطن بحيث تتساوى السريرة مع العلانية في الخير . وقد تكلم الإمام الشعراني عن رأيهم في هذا الموضوع ، ويطول بنا المقام لو ذكرنا ذلك[3] .

وبناء على ذلك كله نقرر أن حياة المؤمن يمكن أن تصبح عبارة عن أعمال خيرة ما دام يعيشها لله وغايته فيها ارضاؤه ، ولهذا قال الرسول «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لله إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له[4]» وقال «ما يصاب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه[5]» وذلك طالما يحيا لله مسلماً وجهه له فقال تعالى « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين[6]» .

لكن هل الإرادة الخيرة تجعل الأعمال كلها خيرة ولو كانت شراً والإرادة السيئة تجعل الأعمال كلها قبيحة ولو كانت حسنة؟ .

(١) رياض الصالحين ص ٧١ .
(٢) فتح الباري بشرح البخاري كتاب النفقة ج٦ ص ٢٩٦ .
(٣) تنبيه المفترين وما بعدها ، الإمام الشعراني . دار إحياء الكتب العربية ص ٨ ، ١٤ .
(٤) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق ج١٨ ص ١٢٥ .
(٥) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج ١ ص١٢٣ .
(٦) سورة الأنعام ١٦٢ ـ ١٦٣ .

في الحقيقة إن الإرادة ليست كل شيء في العمل الأخلاقي وإنما هي ركن فيه فالعمل الأخلاقي له كيان مادي ومعنوي كما قلنا . كما أن الضوء المسلط على الوجه القبيح لا يجعله جميلاً .

أما كون النية الحسنة تجعل الأعمال العادية المباحة حسنة وعبادة فذلك لأن هذه الأعمال ليست قبيحة ولا حسنة في ذاتها فهي لذلك لا تعتبر صورة حسنة ولا قبيحة ولكن تسلط النية الحسنة عليها يحسن من منظرها ، كما أن الضوء يحسن شيئاً من منظر شيء لا هو قبيح ولا حسن ، ولكن لا يكون الحسن الناتج هنا كالحسن الناتج عن منظر حسن تتسلط الأضواء عليه . وهنا نجد ابن سبعين يرى أن الباعث الأخلاقي يتصف إما بالخير أو بالشر ، وذلك بالإضافة إلى شرف أو خسة الموضوع الذي يتعلق به[1] ، ولهذا يزيد مقدار الثواب الذي يناله الإنسان من الواجب الأخلاقي عن مقدار الثواب الذي يناله من العمل المباح العادي بالنية الحسنة ، ولهذا قال الرسول في حديث قدسي «إن الله عز وجل قال ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه . . إلخ[2]» .

إن النية الخيرة لا تحول فعلاً شريراً في ذاته إلى فعل خير ، بل تحول الفعل الذي ليس شراً في ذاته إلى درجة من الخير لا إلى الخيرية الكاملة .

ولكن ماذا تكون النتيجة إذا أخطأت النية الخيرة أو الصورة الأخلاقية؟ .

الجواب المنطقي واضح وهو أن يأخذ المرء عندئذ نصف أجر ما لو أصابت نيته ، لأنه عندئذ أوجد أحد الركنين فقط ولم يوجد الركن الثاني ، ولهذا قال الرسول «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر[3]»

---

(١) ابن سبعين وفلسفته الصوفية د . أبو الوفا التفتازاني . ط بيروت ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ .

(٢) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج ١ ص١٠٢ .

(٣) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الإعتصام بالكتاب والنسة ـ باب إذا اجتهد الحاكم فأخطأ ج١٩ ص ٨٣ .

وإذا أصاب في الفعل وأخطأ في الإرادة كأن يطأ الرجل زوجته ظناً أنها أجنبية أو كمن سرق ما له ظناً أنه مال غيره ، فإنه في هذه الحالة مسيء في إرادته وغير مسيء في عمله ، يقول الإمام الشاطبي هنا «فإذا نظرنا إلى فعله لم تقع به مفسدة ولا فاتت به مصلحة ، وإذا نظرنا إلى قصده وجدناه منتهكاً حرمة الأمر والنهي فهو عاص في مجرد القصد غير عاص بمجرد العمل ، وتحقيقه أنه آثم من جهة حق الله غير آثم من جهة حق الادمي[1]» ، ومن ناحية المسؤولية والجزاء فقد شرحنا هذا الموضوع في المسئولية عندما درسنا حالة إذا وجدت الإرادة والنية ولم يتحقق العمل .

ولنتصور الآن القضية من جهة أخرى وهي إذا ما وجدت مادة الأخلاق ولم توجد روحها أي إذا وجد العمل بدون نية وغاية ، كما لو طبق الإنسان المبادئ الأخلاقية في حياته جرياً على العادة لا ابتغاءً لوجه الله ، في هذه الحالة يجد ثمرة العمل وجزاءه في الدنيا ، لأن الأخلاق تجازي صاحبها بقدر ما يتخلق المرء ، إذ جزاء الفضيلة في نفسها كما يقولون وكما بينا في الفصل الخاص بالجزاء الأخلاقي ، لكن لا نصيب لهم من مكافأة الله لأنهم لم يقصدوا من ذلك وجه الله ولا وجه الآخرة بل قصدوا وجه الدنيا فينالون جزاءهم من الدنيا فقال تعالى في حقهم «إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً[2]» ، «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً[3]» ، «مَن كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب[4]» ، وقال الرسول «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه[5]» ، ولقد بين الله صورة هذا الاخلاص عن طريق ذكر أعمال بعض عباده المخلصين ليكونوا قدوة لغيرهم فقال :

(١) الموافقات ج١ ص٢٤٩ .
(٢) سورة الإنسان ٢٧ .
(٣) سورة الإسراء ١٨ ـ ١٩ .
(٤) سورة الشورى ٢٠ .
(٥) الجامع الصغير ج١ ص٧٤ .

«ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً[1]» ، «والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار[2]» .

لكن لا يتعارض هذا الإخلاص لله مع العمل من أجله خوفاً من عقابه أو رغبة في نيل رضاه وثوابه ثم نيل السعادة التي أعدها لعباده الصالحين في الدار الآخرة؟ لأن الله هو بنفسه رغب عباده إليه بالترغيب والترهيب بإسعاد الطائعين وتعذيب العاصين ، ويقول الإمام الشاطبي بعد دراسة هذا الموضوع «فقد ظهر أن قصد الحظ الأخروي في العبادة لا ينافي الإخلاص فيها ، بل إذا كان العبد عالماً بأنه لا يوصله إلى حظه من الآخرة إلا الله تعالى فذلك باعث له على الاخلاص قوي ، لعلمه أن غيره لا يملك ذلك وأيضاً فإن العبد لا ينقطع طلبه للحظ لا في الدنيا ولا في الآخرة على ما نص عليه أبو حامد رحمه الله لأن أقصى حظوظ المحبين التنعم في الآخرة بالنظر إلى محبوبهم والتقرب منه والتلذذ بمناجاته . . . والإخلاص البريء من الحظوظ العاجلة والآجلة عسير جداً لا يصل إليه إلا خواص وذلك قليل فيكون هذا المطلوب قريباً من تكليف ما لا يطاق وهذا شديد[3]» .

ويقسم الغزالي رتبة إخلاص العابدين إلى ثلاثة أقسام ، الأولى : من يرغب في ثوابه الموصوف له في الجنة أو يخاف من عقابه الموعود له في النار وهذه الرتبة للعامة وهم الأكثرون ، والثانية : رجاء حمد الله ومخافة ذمه أعني حمداً وذماً في الحال من جهة الشرع وهذه منزلة الصالحين وهي أعلى من الأولى بكثير ، . والثالثة : وهي العزيز الفذ رتبة من لا يبتغي إلا التقرب إلى الله تعالى وطلب مرضاته

---

(١) سورة الإنسان ٨ ـ ١٢ .

(٢) سورة الرعد ٢٢ .

(٣) الموافقات ج١ ص١٥٦ ـ ١٥٧ .

وابتغاء وجهه والالتحاق بزمرة المقربين إليه زلفى من ملائكته وهو درجة الصديقين[١] ، ولذلك قال تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه[٢]» .

ثم إن تقرير هذه الحقيقة له ما يبرره من الناحية التربوية ، ذلك أن الناس ليسوا متساوين في علو الهمة وفي تقدير الواجبات وتقديسها ، فمنهم من لا يعمل ولا يؤدي الواجبات ويترك المعاصي إلا لكسب ثواب أو لتجنب عقاب فإذا كان ذلك مرتبطاً برجاء الثواب من الله والخوف من عقابه لا من غيره فهو مقبول لأن الله تعالى مدح أنبياءه بقوله «إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين[٣]» إذن لا يتناقض ذلك مع الإخلاص ما دام المرء مخلصاً في ذلك لا ينتظر من مخلوق جزاءً ولا شكوراً وإنما يفعل ذلك رغبة في ثواب الله وخوفاً من عقابه .

والمغزى التربوي هنا هو أننا نرغب الناس في الأعمال الصالحة ونكره إليهم المعاصي بحسب مستواهم واستعداداتهم النفسية فمن يُرِدْ أن يفعل هذا وذاك لنيل ثواب وخوفاً من عقاب نشجعه على ذلك بذلك كما فعل الله تعالى فقال «إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى[٤]» ومن يرد الأعمال الصالحة وترك العصيان تقديساً لله بتقديس أوامره لا لأي شيء آخر نرغبه ونشجعه على ذلك لأن ذلك يعد أقوى دافع إلى التمسك بالفضائل وأقوى زاجر عن الرذائل . ولا شك أن هؤلاء لا يستوون مع أولئك «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

(١) ميزان العمل ص ٨٢ .
(٢) سورة الكهف ٢٨ .
(٣) سورة الإنبياء ٩٠ .
(٤) سورة طه ٧٤ ـ ٧٦ .

ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين[١]» .

ويظهر المغزى التربوي هنا أكثر إذا أخذنا في الاعتبار مراحل التربية وفقاً لمراحل النمو ، لأن الأطفال في المراحل الأولى يكون إحساسهم الفضائل بالثواب العاجل في هذه الدنيا «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة[٢]» ثم عندما يبلغون إلى مرحلة بعدها وينمو عندهم الإحساس الأدبي والشعور بالشرف والتلذذ بالحمدة والتألم بالمذمة نشجعهم على الفضيلة بالمحمدة ونحذرهم من الرذيلة بالمذمة «أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون[٣]» ، «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم[٤]» وإذا وصلوا إلى مستوى أعلى من المرحلة السابقة عندئذ يمكن أن نشجع فيهم روح التقديس لله عن طريق تقديس أوامره ونواهيه بصرف النظر عما يترتب على ذلك من الطيبات في هذه الحياة الدنيا ونقول كما قال تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا[٥]» .

ويشير الإمام الغزالي إلى قيمة هذا التفاوت من الناحية التربوية قائلاً «وهذا التفاوت يعهد لكل شخص من صباه إلى كبره إذ هو في بدء صباه لا يمكن زجره وحثه بالحمد والذم ، بل بمطعوم حاضر أو ضرب ناجز يحس به فإذا صار مميزاً مقارباً للبلوغ أمكن زجره وحثه بالمحمدة والمذمة ، فطريق زجره مذمة المزجور عنه وتقبيح حال متعاطيه وطريق ترغيبه في تعلم الأدب وغيره بكثرة الثناء على آتيه وكثرة الذم

---

(١) سورة آل عمران ١١٣ ـ ١١٤ .

(٢) سورة النحل ٩٧ .

(٣) سورة آل عمران ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(٤) سورة آل عمران ١٧٣ ـ ١٧٤ .

(٥) سورة الكهف ٢٨ .

لمجتنبيه فيؤثر ذلك تأثيراً ظاهراً . وأكثر الخلق لا يتجاوزون هاتين المرتبتين إلى المرتبة الثالثة . . . التي هي العزيز الفذ رتبة من لا يبتغي إلا التقرب إلى الله وطلب مرضاته وابتغاء وجهه[1]» وقيمة مبادئ التربية تقاس بمدى صلاحيتها لمختلف مراحل النمو ولمختلف طبائع الناس . وهناك شيء مهم بعد ذلك وهو تطبيق تلك المعايير .

ثانياً: أهم مبادئ تطبيقات تلك المعايير

١ـ يجب معرفة المربي لهذه المعايير أولاً والعمل على تطبيقها بدقة .

٢ ـ يجب تعريف المتربي معنى اكتمال المرء خلقياً ومعيار السلوك الأخلاقي ثم تشويقه وتشجيعه على أن يسعى هو بدوره ليصبح إنساناً فاضلاً كاملاً .

٣ ـ وأخيراً : يجب أن يعد المربي اختبارات مختلفة من حين إلى آخر كلما اكتملت ناحية من نواحي التربية الأخلاقية فيقوم بتجارب مدى تكون الأخلاق عند متربيه فيهيء لكل واحد منهم مثلاً فرصة للاختلاس بطريق غير مباشر فإذا اختلس فمعنى ذلك أنه لم يترب بعد ، ويعد له كذلك موقفاً يدعو إلى الكذب فإذا كذب فمعنى ذلك أنه لم يتكون عنده مبدأ الصدق وهكذا يفعل اختبارا ت وتجارب للمبادىء الأخلاقية كلها .

والاختبارات مهمة في ميدان التربية الأخلاقية دعا إليها قديماً أفلاطون فيقول مثلاً «نهيئ لهم أعمالاً مجهدة ومضايقات ومباريات نلاحظ فيها أعراض الخلق[2]» ونجد مبدأ الاختبار مقرراً في الإسلام يقول تعالى مثلاً «وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم[3]» «وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم[4]» «ونبلوكم بالشر والخير فتنة[5]» «لنبلوهم أيهم أحسن عملاً[6]» .

٤ ـ يجب تعريف الناشئ أساليب تقويم نفسه خلقياً .

---

(١) ميزان العمل ص ٨٢ .
(٢) الجمهورية ص ٦٣ .
(٣) سورة النساء ٦ .
(٤) سورة آل عمران ١٥٤ .
(٥) سورة الأنبياء ٣٥ .
(٦) سورة الكهف ٧ .

الفصل الثاني

طرق التربية الأخلاقية

أولاً : وجهة نظر المربين في طرق التربية الأخلاقية

إن هذا الموضوع له أهميته وخطورته لأنه يتوقف عليه نجاح التربية أو إخفاقها ، كموضوع تحديد معايير التربية الأخلاقية .

ولنبين أولاً بإيجاز ما وصلت إليه الدراسات التربوية في هذا المجال ثم نعقبه بما قدم الإسلام فيه وقيمة ما قدم بالنسبة إلى تلك الدراسات ، وأساس اختلاف وجهات نظر المربين في تحديد الطرق هنا أساس فلسفي ، ذلك أنه إذا كانت فلسفة التربية تخضع للفلسفة التي تتبعها كما بينا في أول الرسالة ، فإن طريقة التربية تخضع لفلسفة التربية ، وإذا كانت كل فلسفة تحتاج إلى فلسفة التربية ، لأنها الوجه العلمي للفلسفة ، فإن الطريقة التربوية توضح الوجه الذي تتحول به فلسفة التربية إلى التنفيذ ، ومن ثم تتحدد الطرق تبعاً لتعدد فلسفات التربية ، بل قد تتعدد الطرق وفقاً لوجهة نظر فلاسفة فلسفة واحدة لوضعهم طرقاً متعددة لتحويل تلك الفلسفة إلى واقع عملي وتنفيذ غايات تلك الفلسفة في تكوين المربي ، لذا نرى بعض الدارسين يقرر «أن طرق التربية تتعدد وتتنوع تبعاً لتعدد الفلسفات وتنوعها ، بل إن الفلسفة الواحدة قد تؤدي عند محاولة تطبيقها إلى أكثر من طريقة تبعاً لاختلاف وجهات النظر في تفسيرها وطرق الاستفادة منها[1]» لكن ما معنى الطريقة بالتحديد وما الذي يميزها عن المنهج؟

كان المنهج قديماً يطلق على مجموعة المواد الدراسية أو المقررات التي يدرسها

---

(١) الأستاذ الدكتور الدمرداش سرحان في كتابه « الطريقة في التربية ص ١٤ .

التلاميذ[1] . أما حديثاً فيطلق على مجموعة الخبرات التي تهيؤها المدرسة لتلاميذها داخلها وخارجها ليتحقق النمو الشامل في جميع النواحي[2] .

أما الطريقة فإنها كانت تطلق على «مجموعة من القواعد التي يطلب إلى المدرس استخدامها والاستعانة بها عند تدريس موضوع من الموضوعات[3]» أما في معناها الحديث فتختلط أو تتصل بالمنهج بمعناه الحديث ويحدد معناها الأخير الدكتور الدمرداش سرحان مبيناً صلتها بالمنهج وبالفلسفة بقوله «فالفسلفة تُحدد الأهداف التي توجه العملية التربوية ، وعلم النفس التعليمي يساعدنا على فهم خصائص نمو الأطفال ونفسياتهم وسلوكهم ، والمناهج تحدد أنواع الخبرات التي ترى المدرسة أنها كفيلة بتحقيق أهدافها ، والطريقة تعتمد على هذه الميادين وتعين المربي على تحقيق أهدافها ، والطريقة تعتمد على هذه الميادين وتعين المربي على تحقيق رسالة المدرسة[4]» ويحدد تعدد الطرق بقوله «وتتعدد طرق التربية تبعاً لتعدد الفلسفات والنظريات السيكولوجية وتبعاً لتفسيرات مختلفة ، لكل من هذين العاملين ، ويحتاج المدرس إلى دراسة الطريقة التربوية لكي يستعين بها على بلوغ الغايات التي تستهدفها التربية[5]» .

والحقيقة أن الطريقة بصفة عامة تتحدد وفقاً لغاية فلسفة التربية التي تتبعها ووفقاً لنظرية هذه الفلسفة في طبيعة سيكولوجية الطفل ومدى تفاعلها مع الخبرات والمعلومات التي يراد تكوينه وتنشئته بها وفي ضوئها .

وطريقة التربية الأخلاقية ذلك المنهج العام الذي تحدده فلسفة التربية التي تتبعها التربية الأخلاقية والتي تدعو المربي إلى أن يلتزم بذلك المنهج العام في التربية الأخلاقية .

---

(١) التربية والمناهج ، فرنسيس عبد النور ص ٧٩ .
(٢) المرجع السابق ص٨١ .
(٣) الطريقة في التربية ص ١٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٥ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٥ .

وبناء على ذلك تكون هناك طرق في التربية الأخلاقية بقدر ما هناك من فلسفات تربوية ونظرتها في طرق التربية الأخلاقية . ولكثرة تلك الطرق يطول بنا المقام لو حاولنا تفصيلها وبيان مميزات كل منها ، ولهذا رأيت من الأفضل تصنيفها في ثلاث مجموعات عامة كما اتخذ ذلك الأسلوب في العرض بعض المربين المحدثين : أمثال رونيه أوبير[١] .

١ ـ الطرائق التلقينية :

وقوام هذه الطرائق في التربية الأخلاقية الاعتقاد أنه من الممكن . بل من الضروري مخالفة الطبيعة الإنسانية وميولها ونوازعها في تكوين إرادة أخلاقية مستقلة ، إذ الأخلاق لها وجود واقعي مستقل مؤلف من منظومة من الوقائع والقيم خارج إطار طبيعة الإنسان ووعيه ، وعلى التربية إدخال الأخلاق بالمفهوم السابق على وعي الطفل ، لتنظيم سلوكه وتكييفه بالقوالب أو المبادئ الأخلاقية حتى تصبح الأخلاق طبيعة ثانية له قلباً وقالباً ، وذلك عن طريق التلقين والممارسة من الصغر ، وترى هذه الطرائق جملة أنه لا بد من استخدام السلطة لجبر الطفل على السلوك الأخلاقي وليست سلطة المدرسة فحسب ، بل سلطة الأسرة والمعلمين أيضاً ، ولا ترى بأساً بالضغط الخارجي إذا لزم بأن يزجر الطفل وتكبت نوازعه الفطرية وأن يعاقب إذا خرج عن النظام الأخلاقي .

والفلسفات التي تؤيد هذه الطرائق وتدعو إليها تلك التي ترى أن الأخلاق منظومة من المبادئ ليست نابعة من الطبيعة الإنسانية ، وإن كان في الطبيعة الإنسانية استعداد عام لتقبلها والتطبع بها ، مثل الفلسفة الروحية والفلسفة الاجتماعية ، ولهذا لا ترى إطلاقاً أن التربية الأخلاقية يمكن أن تتم عن طريق تفتيح قوى الطبيعة الإنسانية ، بل بالأحرى ترى أن تتم عن طريق سلطة الراشدين وإجبارهم الأطفال بالسلطة والضغط الخارجي على السلوك الأخلاقي[٢] .

---

(١) التربية العامة ص ٦٦٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦٥ ـ ٦٦٨ .

ثانياً ـ الطرائق الحدسية الطبيعية :

وهي طرائق تلك الفلسفات التي تؤمن بأن طبيعة الطفل خيرة وعن طريق التفتيح الداخلي بالطريقة الطبيعية الخاصة ينمو الطفل نمواً أخلاقياً سليما ، كما أن بذرة الشجرة تنمو وتصبح شجرة كاملة إذا أنبتت نباتاً طبيعياً ووجدت الرعاية اللازمة والكاملة ، ولهذا فإن هذه الفلسفات تؤمن بالتربية الأخلاقية التي تتم عن طريق تفتيح القوى الطبيعية من الداخل ، من داخل الطفل ، لأنها قوى خيرة وتنمية تلك القوى ومراعاتها تؤدي إلى نمو الطفل نمواً أخلاقياً كاملاً ، ثم يصبح إنساناً كاملاً .

ومن أهم هذه الطرق طريقة جان جاك روسو [١] وأنصاره الذين يرون أن يترك المربي جانباً من الحرية للقيادة الذاتية والحياة الطبيعية الحرة وخاصة في المراحل الطفولية الأولى ، كما سبق بيانه وأن يمارس المربي دوره مرشداً وموجهاً وأن يعد الأطفال لبيئة طبيعية طيبة طاهرة . ولا يسمح بأي حال من الأحوال بأن تتسرب الرذيلة إلى نفوسهم من أي جهة أخرى .

والتربية في هذا الاتجاه ليست مجرد طريقة الإعداد للحياة ، بل هي الحياة نفسها ، وهناك طريقة المربي هامبورغ[٢] وأنصاره الذين يؤمنون بالحرية المطلقة للطفل وذلك ليتفتح تفتحا أخلاقياً كاملاً من الداخل وذلك لثقتهم الكاملة بطبيعة الطفل والنمو الأخلاقي .

وهناك من الحدسيين من يلغي الغاية من التربية وجميع القيود الخارجية فيها ، لأن طبيعة الطفل الخيرة هي التي تحدد الغاية والنمو السليم من جميع النواحي ، فالمرشد الأمين هو ذاتية الطفل وطبيعته ، وكان أول من مثل هذه الطريقة في التربية الأخلاقية في أوروبا المربي إيلين كي Ellen Key وكان يعتقد أن الطبيعة البشرية لا تفسد إلا تحت تأثير الظروف الخارجية وتحت تأثير التربية الخاطئة . وخير عامل

---

(١) المرجع السابق ص ٦٦٤ ـ ٦٦٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٨٢ .

يؤثر به المربي في الطفل تأثيراً تربوياً هو القدوة الشخصية الحسنة[١] .

ومن كبار المفكرين المربين البارزين المؤيدين للطريقة الطبيعية في التربية الأخلاقية المربي والفيلسوف سبنسر حيث إنه بدوره يؤكد إيمانه بأن الطريقة الوحيدة للتربية الأخلاقية هي الطريقة الطبيعية ، وإن هناك شيئاً من الفرق بينه وبين غيره فهو يرى مثلاً ترك الحرية للطفل وإيقاع العقاب الطبيعي في الوقت نفسه لتعليمه حدود الخير والشر ولتعليمه أيضاً أن الثواب والعقاب الأخلاقيين طبيعيان وضعهما الله في القوانين الطبيعية[٢] .

٣ ـ الطرائق الفعالة :

تتم التربية الأخلاقية بموجب هذه الطرائق بالممارسة الفعلية للمبادئ الأخلاقية في الحياة الاجتماعية وذلك بإرشاد المربي وتوجيهه بالقدر اللازم بحسب قدرة الطفل واستطاعته عقلياً وجسدياً في كل مرحلة من مراحل النمو ويجب أن تقل سلطة المربي كلما زاد نمو الطفل كما يجب أن تعطي حرية أكثر في المجالات العملية ومع تحميله مسؤوليات حرياته وأعماله ، كما ينبغي تدريبه على القيادة الذاتية والإدارة الجماعية عندما تبدأ اهتمامات الطفل الاجتماعية ، وذلك عن طريق تكوين الزمر الاجتماعية في المدرسة وخارجها تتوزع فيها الأعمال مع تحمل مسؤولياتها .

ويقترن التوجيه في كل مرحلة من مراحل النمو بوضع نموذج ومثال أخلاقي أمام المتربي ليحتذيه في ممارسته للأعمال الأخلاقية كما ينبغي أن يكون كل من التوجيه والتلقين والدروس الأخلاقية متمشياً مع نمو مدارك الطفل الطبيعي والثقافي ، وذلك كله ليكون الطفل بناءه الأخلاقي بخبراته الأخلاقية فكرياً وعملياً معاً ، لا بمجرد بيان أن المعاني الأخلاقية كامنة أو مرسومة في بنية وعيه الشخصي كما يرى ذلك بعض رجال التربية وعلماء النفس . هذا إلى أن هذه الطرائق تأخذ أشكالاً مختلفة بحسب نوعية الأطفال الذين يراد تربيتهم ، لأن هناك أطفالاً

---

(١) المرجع السابق ص ٦٧٨ ـ ٦٧٩ .

(٢) التربية . لسبنسر ص ٩٠ وما بعدها ، ٤٦ وما بعدها .

متخلفين وهناك أطفال منحرفون وهناك أطفال أسوياء ، ولهذا فقد تتخذ وسائل معينة للنهوض بالأطفال المتخلفين وقد تتخذ مجموعة وسائل لتربية الشعور بالمسؤولية الأخلاقية لدى المنحرفين ، وقد يكون ذلك عن طريق اسناد إدارة دفة التنظيمات الاجتماعية أو المؤسسات الإنتاجية إليهم ، وقد يستهدف من ذلك تكوين رؤساء واعين بواجباتهم الإجتماعية ، ولهذا فإن المدارس التي تتبنى هذه الطرائق تختلف بناء على ذلك في إتاحة مجالات العمل والممارسة وتحميل المسؤوليات عن الأطفال الذين يراد بناء شخصياتهم بناءً أخلاقياً ، ومن أشهر المرين الذين قاموا بتطبيق هذه الطرائق في ميدان التربية «جون فرنسيس» وألبير آيم Ehm Elbert[1] .

وإذا ما أعدنا النظر إلى هذه الطرائق الثلاث وجدنا هناك فروقاً واضحة بينها :

وأهم هذه الفروق بين هذه الطرائق من ناحية تقويم النتائج التربوية ما يلي :

فيما يتعلق بالطرائق التلقينية يقرر المربون أنها تكون شخصية أخلاقية صورية محددة لا تتجاوز حدود الصور الأخلاقية الملقنة بها في حياتها العملية ولا تكون بصيرة أخلاقية تؤدي إلى إبداع وابتكارات أخلاقية كما أنه من المستحيل أن يجد الفرد الذي يرتبط بهذه الطريقة الانسجام والوئام بين أثر الأخلاق الملقنة وأثر الأخلاق التي يكونها نتيجة خبراته في الحياة ، ومن ثم يكون شعوره نحوها بالسلطة والقهر ثم يحاول تدريجياً التملص منها والتمرد عليها ، كما يدخل في شعوره وأعماله الأخلاقية النفاق والرياء والكذب ، وذلك أنه يشعر عندئذ بأن تلك الأخلاق تمثل إرادة زمرة أو أفراد معينين وليست لها صلة أساسية بقوانين الطبيعة أو قوانين الحياة ، ويمكن الاستغناء عنها دون أن يصيبه أي نقص من قيمة الحياة ، لأنها لا تحقق له حاجة أساسية في الحياة .

ولهذه النتائج ولما لاقت من نقد لاذع من المربين حاول بعض أنصار هذه الطرائق ربطها بالدروس الأخلاقية وتبيان أن النظام الأخلاقي كما هو نظام خارجي فهو نظام

---

(١) التربية العامة ص ٦٩٢ ـ ٦٩٣ وما بعدها .

طبيعي ثاو في نفس كل إنسان ، لا شك أن هذه الإضافة إيجابية لكن مع ذلك لا بد من أن يتمـاشى إفهام هذه الحقائق للأطفال مع مستوياتهم في النمو العقلي والعلمي معاً .

والعنصر الإيجابي الآخر في هذه الطرائق اهتمامها بالقدوة الحسنة في ميدان التربية الأخلاقية ثم أن التلقين نفسه له دور إيجابي في المراحل الأولى من حياة الأطفال لكن لا ينبغي الاكتفاء به في المراحل المتأخرة ،وآخر نقد وجيه وجه إليها أنها تأخذ في التربية أسلوب العنف والقسر الخارجي والإلزام والضغط قبل الإقناع ، ولهذا فإن الذين تربوا في ضوئها إذا شعروا في المراحل المتأخرة بزوال تلك السلطة وغياب أصحابها عنهم أو إذا وجدوا طريق التملص والنجاة منها لا يتجنبون إطلاقاً ارتكاب الأفعال المناقضة للأخلاق ولا يجدون في نفوسهم أي شعور بالالتزام الدائم بالفضيلة وهذا هو السر الذي نجده في الانحلال السريع لدى الشبان ظاهراً وباطناً وخاصة عنما يغيب عنهم آباؤهم أو إذا ابتعدوا عن آبائهم وعن أعين المربين ومن بيدهم السلطة فإن أهم شيء في التربية تكوين ضمير أخلاقي متشبع بقيمة الفضيلة وشعور بضرورة الالتزام بها في كل زمان وفي كل مكان لقيمتها الذاتية لا لأنها مجرد مطالب من الآباء والمربين[1] .

أما فيما يتعلق بالطرائق الحدسية الطبيعية فيقررون أن إعطاء المتربي الحرية الكاملة بدعوى أن ذلك يساعده على نموه نمواً كاملاً سوف يترتب عليه أن هذه الحرية ستجعله أسير طبيعته العفوية وخاصة عندما تتاح الحرية للغرائز الطبيعية المختلفة ثم إن هذه الحرية التي تعطيها هذه الطرائق ليست إلا حرية اللحظة الراهنة وليست الحرية الحقيقية التي يمكن أن تبقى أو تدوم لأنه سوف يخرج إلى مجتمع منظم يجبره على الخضوع للنظام ، إذ الأمر يقتضي من المبدأ تكوين روح الخضوع للنظام وضبط النفس والوقوف أمام دوافع الغرائز ، بل أكثر من هذا فإنها عندما تعوده على الحرية الطبيعية من البداية فإنها تيسر السبيل لجميع مزالق النزوات الفردية فيما بعد .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٦٨ ـ ٦٧٤ .

ومما يوجه إليها من النقد الوجيه أيضاً أنها تعتقد خطأ ببساطة طبيعة الطفل دون التفريق بين غرائزه وحاجاته ومطالبه ، كما أن بعضها لا يجعل للتربية غاية وهذا يؤدي لا محالة إلى عزل المتربي عن الحياة الإنسانية ، كما أنها تجعل لكل مرحلة حياة مستقلة عن الأخرى دون ملاحظة أن مراحل العمر مرتبطة والحياة الحاضرة تؤثر في الحياة المستقبلة ، حقاً إن لكل مرحلة ميزاتها لكن للوصول إلى درجة الكمال لا بد من أن تكون كل مرحلة إعداداً للتالية أيضاً .

ثم إن إعطاء الحرية للأطفال لا يجعلهم يستطيعون التحمل للتكاليف والواجبات فيما بعد كما أن عدم تحديد مثل أعلى لهم يحذون حذوه لا يساعد على الوصول إلى الكمال الأخلاقي ، إذ لا يمكن الوصول إلى الكمال الأخلاقي بالصدفة أو بالخبرات العفوية مصادفة ، ثم إن الأبحاث العلمية اكتشفت أخيراً أن الأطفال لا يرفضون النظام الدقيق ولا يشعرون إزاءه بالقسر والضيق ، بل هم يطالبون به وبما فيه من جزاء ويبحثون عن وسيلة للتكفير عن ذنوبهم إذا ما شعروا بالإساءة والخطيئة في أفعالهم . كما يحبون أن يعاقبوا المسيئين أكثر من الكبار ، ولهذا يقرر بعضهم «بأن الشعور بالإثم إذا لم يخفف عنه بالعقاب يمكن أن يؤدي إلى كبت لا يقل خطراً على النمو الأخلاقي من كبت سائر النزعات الطبيعية[1]» ، ومن ثم يقررون أنه إذا كان عيب الطرائق التلقينية أنها تؤدي باستخدامها السلطة والقسر الخارجي إلى كبت كثير من النوازع والميول والقوى الطبيعية فإن عيب هذه الطريقة هي عدم استخدامها أية سبل للسلطة والقهر وترك الحبل على الغارب ، ثم عدم التدخل لتنمية القوى الخاصة في كل مرحلة مما يؤدي إلى ما أدت إليه الطريقة الأولى مع فارق واحد وهو أن نزعة الطفولة تمكث في الحالة الأولى مضمرة بينما هنا تبقى ظاهرة[2] .

وأخيراً : أما الطرائق الفعالة فقد حاولت تفادى عيوب الطريقتين السابقتين

---

(١) التربية العامة ص ٦٨٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٨٢ ـ ٦٨٦ .

واتخذت نهجاً وسطاً بأن جعلت الجهد الذي يجب أن يبذله الطفل في ميدان التدريب الأخلاقي متلائماً مع اهتماماته النفسية ولا تتجاوز تلك الاهتمامات قدراته في كل مرحلة ولا تطلب من جهة أخرى أن يستخدم المربي السلطة القهرية ، بل لا يتدخل إلا بالقدر اللازم لتوجيه الطفل وقيادته ووضع مثال أخلاقي أمامه ليحتذيه ، ولا تعطيه الحرية المطلقة ، بل ترى أن الحرية ينبغي أن تطبق طرداً مع مقدار النضج الإخلاقي للمتربي وأن يطبق مبدأ السلطة عكساً مع ذلك النضج الأخلاقي كما يرى كرشنستاينر Kerschensteiner[1] .

والآن ، وبعد هذا كله ، فبالنظرة العامة إلى تلك الطرق نجد أن في كل واحدة منها جوانب إيجابية وجوانب سلبية ، ويمتاز بعضها بأن جوانبها الإيجابية أكثر من جوانبها السلبية وربما كانت الطرائق الفعالة أكثرها تكاملاً ، مع ذلك فإنها لا يزال ينقصها بعض الجوانب ، أهمها : تكوين رقيب مستمر على ضمير الفرد وتصرفاته وتكوين دافع أخلاقي قوى يدفعه باستمرار إلى الالتزام الدائم بالفضائل في كل الظروف والأحوال . ولننظر الآن إلى الإسلام ماذا قدم من طرائق لإكمال التربية الأخلاقية؟ .

ثانياً : وجهة نظر الإسلام في تحديد طرق التربية الأخلاقية :

فإذا نظرنا إلى الإسلام وجدناه قد تعرض لجميع الجوانب الإيجابية لطرق التربية الأخلاقية ، وذلك على أساس وجهة نظره في الطبيعة الإنسانية وفي طبيعة الأخلاق ودور التربية في تشكيل هذه الطبيعة الإنسانية وفي طبيعة الأخلاق ودور التربية في تشكيل هذه الطبيعة تشكيلاً أخلاقياً وكل ذلك في إطار فهمه لطبيعة التربية الأخلاقية وهدفها ، وهذا وذاك يقتضي طريقة خاصة في هذه التربية . وتمتاز هذه الطريقة بأنها تضم الجوانب الإيجابية من تلك الطرائق في سياق وانسجام ، ومن ثم تصبح طريقة تختلف عن تلك الطرائق في كليتها ولنحلل ذلك الآن بادئين بطريقة التلقين وجوانبها التي يهتم بها الإسلام ، فقد اهتم الإسلام بالطريقة التلقينية في

(١) المرجع السابق ص ٦٨٧ .

تكوين العناصر الأخلاقية الأساسية في نفس الطفل في بعض المراحل دون الأخرى ، لأن التلقين له تأثير في نفس الطفل إذا كان في المراحل المتقدمة من هذه التربية كما سنشرح ذلك عند الكلام عن مراحل هذه التربية .

وأول تلك العناصر التلقينية وجود السلطة الأخلاقية الملزمة ، وذلك بغرس المربي الخشية الإلهية في قلب الطفل بحيث يعلم من البداية أن الله يعلم سلوك المرء في السر والعلن ويحاسبه عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر مهما قل الفعل أو كثر أينما كان وحيثما وجد كما كان لقمان يلقن ابنه ذلك «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . . . يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير[1]» «وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون[2]» «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله[3]» «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[4]» .

وببيانه أن الأخلاق نظام إلهي يمثل إرادة الله فيما ينبغي أن يكون عليه سلوك عباده في هذه الحياة ، ولهذا فإن الله يولي عباده الذين يسيرون وفق إرادته بالرعاية والإنعام والنصر ، فقال تعالى في حديث قدسي «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه[5]» .

ويعذب الذين يخالفون أوامره ويتنكبون عن طريقه المستقيم أو ينافقون في

(١) سورة لقمان ١٣ ، ١٦ .

(٢) سورة الأنعام ٣ .

(٣) سورة البقرة ٢٨٤ .

(٤) سورة الزلزلة ٧ ـ ٨ .

(٥) الأحاديث القدسية ج١ ص ٨١ .

الأخلاق فقال تعالى «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد[1]» «الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون[2]» .

كما منح الإسلام السلطة الاجتماعية لتنفيذ العقاب على المنحرفين والفاسدين وهذا يقتضي تلقين السلطة الاجتماعية فقال تعالى «إنما جزاء الذي يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم[3]» ، وذلك ليدخل في روع المرء وقلبه أنه ليس هناك سلوك غير أخلاقي إلا وهو معلوم عند الله ومجزى به كما أن هناك سلطة اجتماعية تعاقب المنحرفين في هذه الحياة .

والعنصر الثاني التلقين بأن الأخلاق لها قداسة يجب احترامها في كل مكان لأنها نازلة من السماء نابعة منها ، لا من الأرض أساساً وهي موافقة تماماً لطبيعة العنصر القدسي الموجود في الإنسان وهو الروح التي نفخها الله في طبيعة الإنسان من روحه بعد خلق الإنسان لأن المبادئ كلما كان لها هالة من التقديس كانت أكثر وقعاً في النفوس وأكثر تأثيراً وقبولاً ومدعاة للطاعة ويصعب اختراقها ومخالفتها وخاصة إذا كان ذلك في مرحلة تأثير الكبار ، ولهذا فإن الله بين أن مبادئ الأخلاق نور يضيء جوانب الطريق المستقيم ، والرذيلة ظلام مضلل عن ذلك الطريق طريق الهدى والنور وطريق الحياة والسعادة فقال تعالى : «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور

---

(١) سورة البقرة ٢٠٤ ـ ٢٠٦ .

(٢) سورة البقرة ٢٧ .

(٣) سورة المائدة ٣٣ .

بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم[1]» .

وهذا الطريق المستقيم هو طريق السعادة في الحياة لأنه يحرم كل ما هو خبيث ضار في حياة الفرد والمجتمع ويحل كل ما هو طيب نافع للناس ويأمر بكل ما هو خير للناس وينهى عن كل ما هو شر لهم ، وإذا اتبع الإنسان منهجاً في الحياة فيه كل ما هو طيب نافع خير وترك كل ما هو خبيث ضار شر في حق حياة الفرد والمجتمع ، كان ذلك الطريق طريق السعادة لا محالة ، ولهذا قال تعالى : «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون[2]» «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً[3]» .

ثم إن القيم الأخلاقية هي الموازين التي يزن بها الإنسان في الحياة الأمور لتمييز الحق من الباطل ، وليعرف بها الطيب والخبيث وليميز الخير من الشر «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله منْ ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز[4]» «الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان[5]» ، وأمر الله الناس أن يزنوا الأمور بميزانه لا بميزان يضعونه بأنفسهم ، لأنهم لا يحيطون بكل خير وبكل شر في الحياة حتى يستطيعوا وضع ميزان يعرفهم كل الخير والشر في الكون وطريق النجاة والفلاح في الحياة ، ولهذا أمر الله تعالى الناس أن يزنوا الأمور كلها بميزان الله الذي وضعه اللناس بكل دقة وعناية ورعاية في الوزن فقال تعالى «والسماء رفعها ووضع

(١) سورة المائدة ١٥ ـ ١٦ .

(٢) سورة الأعراف ١٥٧ .

(٣) سورة النساء ١٧٤ .

(٤) سورة الحديد ٢٥ .

(٥) سورة الشورى ١٧ .

الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان[1]» .

العنصر الثالث : تكوين عاطفة أخلاقية بالتلقين ، وهي عبارة عن جعل الطفل يحب الفضيلة ويكره الرذيلة ويتقزز منها كما يتقزز من القذارة عن طريق استخدام العوامل النفسية بالتلقين ، لأن العاطفة لها دور كبير في ميدان الأخلاق كدافع إلى فعل الخيرات والالتزام بالفضائل وتجنيب المرء الشرور والرذائل .

ويمكن استخدام هذه الطريقة من الصغر ، بل لا بد من البدء به من الصغر وأن يستمر بشكل من الأشكال إلى نهاية مراحل التربية .

ونجد الإسلام قد استخدم هذه الطريقة لهذه الغاية بشكل واضح في أساليب مختلفة منها أسلوب التشبيه والتمثيل ، تشبيه الفضائل بأشياء محبوبة جميلة وتشبيه الرذائل بأشياء قبيحة منبوذة تعافها النفس مثل تشبيه الله الصدقة في سبيل الله ومضاعفة الله المكافأة عليهاوزيادة ثوابها بالجنة وتشبيه غيبة الإنسان أخاه بأكل لحمه ميتاً . وما إلى ذلك من الوسائل العاطفية التي سنذكرها عند الكلام عن الوسائل التربوية بصفة عامة ، وسنذكر عندئذ كثيراً من النصوص الإسلامية التي وردت في هذا الصدد .

العنصر الرابع : تكوين صورة كاملة عن الأخلاق في ذهن المتربي وذلك يكون بتلقين وتعليم المبادئ الأخلاقية المتمثلة في القرآن والسنة بصورة قانونية وتربوية ، فقال الرسول «تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما إن تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسول الله[2]» ، وقال في دعوته إلى التمسك بسنته مخاطباً لمتربيه أنس بن مالك «**يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل . . . يا** بني وذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحياني ومن أحياني كان معي في الجنة[3]» ، وكان الرسول خير من يمثل أخلاق القرآن وكان خير قدوة في ذلك ،

(١) سورة الرحمن ٧ ـ ٩ .

(٢) التاج كتاب الإسلام والإيمان ج ١ ص٤٧ .

(٣) سنن الترمذي كتاب العلم ج٤ ص ١٥١ .

ولهذا لما سئلت عائشة عن أخلاق الرسول فقالت «كان خلقه القرآن[1]» ومن ثم يجب أن نعتبر الشخصية الأخلاقية المثالية التي تتمثل في شخصية الأخلاق الإسلامية الحية ، وإذا كنا نحن بحاجة في ميدان التربية أن نضع أمامهم شخصية أخلاقية مثالية تمثل ذلك المثل الأخلاقي فإن علينا أن نتخذ شخصية الرسول شخصية أخلاقية مثالية في ميدان التربية ليكون المثال الأخلاقي واضحاً أمام المتربين من الناحية النظرية والعلمية ، ولهذا دعا الله سبحانه إلى اتخاذ الرسول قدوة ومثالاً فقال «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة[2]» .

ولكن هذا لا يتم إلا بتلقين كل المبادئ الأخلاقية المتمثلة في القرآن والسنة كما لا بد من اتخاذ سيرة الرسول صورة حية تتجسد فيها شخصية الأخلاق الإسلامية في مختلف الأحداث التي مثلها الرسول فيها من الناحية التطبيقية خير تمثيل .

كل ذلك جوانب إيجابية في طرائق التلقين التربوية يمكن الاستفادة منها في تحقيق تلك العناصر الأساسية في التربية الأخلاقية الإسلامية .

ولننظر الآن أيضاً إلى الجوانب الإيجابية في الطرائق الحدسية الطبيعية وموقف التربية الإسلامية منها ورأيه فيها .

وقد درسنا وجهة نظر الإسلام في علاقة الطبيعة الإنسانية بالأخلاق وبينا أن الأخلاق ليست منظومة مرسومة في هذه الطبيعة وليس وجود الأخلاق فيها كوجود الشجرة في البذرة بالقوة تنشأ عنها بالطبيعة كما يدعى الحدسيون الطبيعيون ، لكن النظام الأخلاقي ليس ضد هذه الطبيعة وليس كذلك تابعاً طبيعياً للميول والغرائز الطبيعية وإنما مساير للطبيعة ومنظم لميولها ، ثم إنه يوجد في الطبيعة الإنسانية استعداد للتخلق والتشكل بأخلاقيات مختلفة وهنا نجد اختلاف طبيعة الإنسان عن طبيعة الحيوان في قبولها صورة الأخلاق والتطبع بها والخضوع بخلاف طبيعة الحيوان . لكن مع ذلك فالطبيعة في فطرتها خامة وفيها حاجات مختلفة

---

(١) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين ج ١ ص ٥١٢ .
(٢) سورة الأحزاب ٢١ .

تدفع الإنسان لإشباعها ، ومن ثم كانت التربية الأخلاقية الإسلامية الطبيعية تعمل من جهة تنمية تلك الاستعدادات الطبيعية وتفتيحها وتنميتها من الداخل على نحو يتفق تماماً مع النظام الأخلاقي الصوري الخارجي الموضوعي .

وعلى عكس ذلك تتحدد طبيعة طريقة التربية الأخلاقية الإسلامية الخاصة بالطبيعة الإنسانية في كلمتين التفتيح والتنمية من الداخل والتوجيه الخارجي ، وذلك لتكون التنمية موجهة في إطار أخلاقي ، لأن التفتيح والتنمية من غير تحديد هدف أو من غير تحديد نمط أخلاقي لهما قد يكونان ضد النظام الأخلاقي أو بعيداً عنه ، وقد يكونان متلائمين معه ، فلضمان التلاؤم لا بد من توجيه خارجي بعد تحديد هدف مثالي لتحقيقه في شخصية الطفل المتربي ، وهو في عملية التربية بالتنمية والتوجيه يراعي الطبيعة الإنسانية من حيث إمكانياتها واستعداداتها ومراحل نموها ، فلا يلقنها مفاهيم أخلاقية فوق مستوى إدراكها ، ولا يكلفها بالتدريب على مبادئ فوق طاقتها ، أو التدريب على أعمال أخلاقية بطريق القهر والغرض دون مراعاة اهتماماتها ، أو دون خلق اهتمامات وميول نحوها .

وأخيراً ، فلا يقف المربي ضد هذه الرغبات والميول والغرائز الطبيعية لكبتها أو خلعها من جذورها ، أما خلقها فهذا أمر مرفوض في نظر الإسلام كما بينا عند دراسة الطبيعة الإنسانية . وأما كبتها ، وذلك بعمل سد أمام قوة طبيعية نامية لها روافد جارية فلا بد من أن يؤدي إلى هدم هذا السد الذي يقف ضدها إذا زادت القوة أو أن تفتح لنفسها مجرى غير طبيعي أو غير سوي ، وهذا لا محالة يؤدي يوماً ما إما إلى الكبت دائماً وإما إلى الانحراف والشذوذ ، وإما إلى التمرد على النظام الأخلاقي أو على السلطة التي تقف وراءه . هنا يقول «الشهير بوسيه» «إن الشهوات كالنهر المتدفق من علوه عسير إيقاف تياره بسد مجراه ولكن من الميسور تحويل مجراه[1]» ثم يخترع وسيلة لتفريغ تلك الطاقة بقوله «إن أنجح وسيلة للوقاية من الرذيلة شغل الذهن بالمبادئ الحكيمة ، والتعاليم الصالحة وخاصة في أيام الشباب الغض حتى إذا أتت الرذائل وجدت المكان مشغولاً[2]» .

---

(١) أصول الفلسفة . محمد أمين واصف مطبعة القاهرة (د .ت .)ص٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٦ .

وأما إذا عمل لإضعاف روافد هذه القوة لتذبل أو لتضعف أو لإزالتها فإن الأمر يؤدي إلى تشويه النمو عندئذ إذا كان في الصغر أو في مرحلة النمو ، ثم إلى إضاعة الطاقة وتبديدها دون الاستفادة منها مع إمكان الاستفادة منها إذا أحسن استخدامها في المجالات النافعة أو إيجاد ميادين الأعمال الخيرة التي تسخر فيها تلك الطاقة فيؤدي إلى تحقيق الخير للناس ، هذا ما يريد الإسلام أن يفعله بهذه الطاقة في عملية التربية فيعمل من جهة على تنمية تلك الميول الطبيعية وزيادة طاقتها ، وفي الوقت نفسه يجد لها مجاري خيرة أو مساراً لتفريغها وتبديدها في أعمال أخلاقية خيرة ، ومن ثم فيكون النمو سليماً ويكون النفع كثيراً .

وقد عالجنا ما أجملناه هنا خلال دراستنا السابقة وبصفة خاصة في موضوع الطبيعة الإنسانية ، وسوف يتضح ذلك بصورة عملية عند الكلام عن مراحل التربية الأخلاقية وطريقة تربية الإسلام الغرائز المختلفة عند ظهورها . أما الآن فلنواصل رسم الخطوط العريضة لطريقة التربية الأخلاقية الإسلامية .

ولننتقل إلى موقف التربية الأخلاقية الإسلامية من الطرائق الفعالة :

فقد علمنا فيما سبق أن هذه الطرائق تركز أساساً على التربية الأخلاقية عن طريق الممارسة الفعلية والخبرة الذاتية للمبادئ الأخلاقية في مجالات العمل المختلفة على أساس أن الإنسان عندما يطبق مبدأ أخلاقياً في الحياة العملية يجد أثره في حياته ويزيد تقديراً له ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إذا واجه الإنسان مشكلة من المشكلات وعمل لإيجاد حل لها ثم اهتدى إلى الحل عندئذ تكون الخبرة أكثر تأثيراً في ثبات المبدأ الأخلاقي في نفسه .

ولهذا يرى بعض المربين الذين يؤيدون التربية عن طريق الخبرة أو التجربة أن تتم التربية عن طريق حل مشكلات تحدد أو توضع مسبقاً أمام المتربي ويوجه إلى حل المشكلة بنفسه شريطة أن تكون المشكلة في مستوى نموه الجسمي والعقلي وأن توضع المشكلة في صورة تثير في نفسه الميل والرغبة في حلها والتطلع إلى معرفة سر المشكلة[1] .

---

(١) أ ـ الخبرة والتربية . جون ديوي ص ٩٨ ـ ٩٩ .

ب ـ الطريقة في التربية . دكتور الدمرداش سرحان ص ١٧٤ .

ثم لا بد بعد ذلك في النهاية من أن يوجه المربي إلى أن يربط بين السبب والمسبب والوسيلة والغاية[1] ومن المبادئ التربوية المهمة في هذا الصدد أنه إذا ألقى المبدأ الأخلاقي في ذهن المتربي بعد معاناته في مشكلة من المشكلات يكون أوقع في نفسه مما لو ألقى عليه وهو لم يعان مشكلة عملية خاصة بذلك المبدأ .

وإذا بحثنا الآن عن هذه الجوانب الإيجابية في طرائق التربية الأخلاقية الإسلامية وجدناها شديدة الوضوح فيها .

ويمكن تحديد عناصر التربية الأخلاقية الإسلامية المتعلقة بالطرائق الفعالة في أربعة عناصر عامة :

الأول : خلق ظروف ومواقف تشجع على التطبيق العملي للمبادئ الأخلاقية .

الثاني : الممارسة المستمرة للمبادئ الأخلاقية .

الثالث : تلقين المبادئ الأخلاقية بعد خبرة يمارسها في مشكلات يجد الحل السليم لها في المبدأ الأخلاقي .

الرابع : التدرج في عملية التدريب والممارسة ثم التدرج في التربية الأخلاقية بصفة عامة .

أما فيما يتعلق بالعنصر الأول فأهم وسيلة لذلك هي استخدام الترغيب والترهيب : الترغيب في الفضائل بما يعود عليه من نفع في الحياة وبما يتحقق له من السعادة في حياته العاجلة والآجلة وبما يجعل الله راضياً عنه ويكون له نصيراً في ملمات الحياة ويجعل له من أمره يسراً ، ونجد كثيراً من الآيات والأحاديث في هذا المجال وقد ذكرنا كثيراً منها خلال معالجتنا لكثير من الموضوعات السابقة .

والترهيب من السقوط في الرذيلة وكيف يسبب ذلك آلاماً نفسية بسبب ما يلحقه من جراء ذلك من الخزي والعار مما يجعله يفقد شخصيته الأدبية في المجتمع

---

(١) أ ـ الخبرة والتربية ص ١٠٥ . ب ـ الطريقة في التربية ص ١٥٠

وبسبب ما يلحقه من عذاب الوجدان المستمر وما ينتج عن ذلك من الأمراض النفسية الكثيرة التي تكون سبباً للأمراض الجسمية كما سبق بيانه في الباب الأول ، ثم ما يستوجب ذلك إضافة إلى هذا من العذاب الدائم في الآخرة بسبب نيله غضب الله وسخطه . ويجب استخدام جميع الوسائل النفسية والعقلية والعلمية لخلق دافع قوي إلى الفضائل وخلق رادع وزاجر قويين عن ارتكاب الجرائم والرذائل .

إلى جانب ذلك يجب خلق مواقف اجتماعية وميادين لتطبيق تلك الفضائل الأخلاقية : وذلك بعمل المشروعات الخيرية وعمل المسابقات فيها بين المتعلمين في المدارس سواء في ميدان التقدم في إنجاز أكبر قدر ممكن من الفضيلة أو في ميدان تقديم مشروعات مبتكرة ومخترعة لتحقيق أكبر قدر ممكن من الخيرات لأكبر قدر ممكن من الناس . وذلك حسب مستويات المتربين وإمكانياتهم الطبيعية والمكتسبة ، ثم يضرب لهم أمثلة بشخصيات بطولية خيرة في الميادين المختلفة . وكيف عملوا مشروعات ومخترعات خيرة لغاية تحقيق الخير للناس .

أما فيما يتعلق بالعنصر الثاني وهو الممارسة المستمرة للمبادئ الأخلاقية فهو أمر ضروري لهذه التربية من حيث ضرورة الاستمرار في ممارسة ما تقضيه مبادئ التربية الأخلاقية لاكتساب مزيد من الخبرات في الميادين الأخلاقية ، وكلما زادت خبراته في هذه الميادين زادت استعداداته وقدراته الأخلاقية ، ثم إن الممارسة المستمرة ضرورية أيضاً لاكتساب عادات أخلاقية ، وتكوين العادات الأخلاقية مهم في ميدان التربية الأخلاقية من حيث إن الاعتياد يجعل الأعمال الأخلاقية والتزامها أمراً سهلاً على نفس المرء . هنا نجد ابن سينا يقرر هذه الحقيقة ويشرح كيف يجعل الاعتياد على الأعمال الأخلاقية سهلة على المرء عن طريق تأثيره على الهيئة النفسية بطريقة تجعل البدن خاضعا للنفس الناطقة ، يقرر هذه الحقيقة ابن سينا بقوله : «الخلق هيئة تحدث للنفس الناطقة من جهة انقيادها للبدن أو غير انقيادها له فإن العلاقة بين النفس والبدن توجب بينهما فعلاً وانفعالاً . . . فتارة تحمل النفس على

البدن فتقهره وتارة يسلم البدن فيمضي في فعله . . . وإذا تكرر قمعها له حدث منه في النفس هيئة استعلائية عالية يسهل عليها بذلك من مفارقة البدن فيما يميل إليه ، ما كان لا يسهل من قبل[1]» .

لكن لكون ذلك التأثير للاعتياد يجب أن يتم في رأيه من الناحيتين المادية والمعنوية ، فمن الناحية المادية ينصح بأن يفعل الإنسان الفضائل الأخلاقية مراراً ، وأن يستمر عليه زماناً طويلاً حتى يحصل به الإنسان لنفسه الأخلاق ويكسبها متى لم يكن له أخلاق أو إذا أراد أن ينقل نفسه من أخلاق إلى أخرى فيقول : «والذي يحصل به الإنسان لنفسه الخلق ويكسبه متى لم يكن له أو ينقل نفسه عن خلق صادف نفسه عليه هو العادة وأعني بالعادة تكرير فعل الشيء الواحد مراراً كثيرة زماناً طويلاً في أوقات متقاربة فإن الخلق الجميل إنما يحصل عن العادة وكذلك الخلق القبيح . . ولذلك إذا اعتدنا من أول الأمر أفعال أصحاب الأخلاق الجميلة حصل لنا باعتيادها الخلق الجميل»[2] ، ومن الناحية المعنوية ينصح ابن سينا أن يقترن العمل المادي بالعمل النفسي الفكري ، وذلك بأن يترك الرذائل فكراً وخيالاً يقول : «يحجر على النفس ما لا ينبغي إذ لا فائدة فيه فضلاً عن فعله حتى يصير تخيل الواجب والصواب هيئة نفسانية ، وكذلك هجر الكذب قولاً وتخيلاً حتى تحدث للنفس هيئة صدوقة فيصدق في الأحكام والفكر[3]» ، وهذا إدراك عميق من ابن سينا لحقيقة الاعتياد المؤثر يجب أن نشيد به لكننا نجد هذه الحقيقة قررها الإسلام من قبل ، ولهذا فقد أمر الإسلام بالاستمرار في ممارسته الفضائل في كل الأزمان على حسب قدرته فقال الرسول : «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ[4]» وسئلت عائشة عن عمل الرسول فقالت : «كان عمله ديمة[5]» وغير ذلك من النصوص[6] .

---

(1) علم الأخلاق لابن سينا مطبوع ضمن مجموعة ، طبعة بومباي سنة ١٣١٨ هـ ص ٢٠١ .
(2) علم الأخلاق طبعة بومباي ص ٢ .
(3) المرجع السابق ص ٣ .
(4) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الرقائق ج ١٤ ص ٨٧ .
(5) المرجع السابق كتاب الرقائق ج ١٤ ص ٧٩ .
(6) صحيح مسلم ج ١ ص ٥٤١ .

ولنأخذ مبدأ من مبادئ الأخلاق وهو مبدأ البذل والعطاء والكرم كيف يستطيع الإنسان أن يلازمه أو كيف نستطيع أن نقود الطفل إلى ملازمته ، فلو أنه أعطى كل يوم مما عنده لنفد وقد لا يجد المرء ما ينفق ويتصدق . إن مفهوم العطاء واسع فليس من الضروري أن يعطي الإنسان مالاً أو درهماً ، بل يدخل في العطاء والبذل والكرمَ ما يعطيه مما يملك من الطاقة ، فإعطاء المال صدقة وإعطاء شيء من وقته لمعاونة إنسان في أي ناحية عطاء والكلمة الطيبة عطاء لأنها قد تدخل في نفس الآخر سروراً أكثر مما تدخله دراهم من الذهب ، ثم إزالة الأشياء التي تضر الناس من أي مكان وأية جهة تعد عطاء وهكذا ، ولهذا لما قال بعض الصحابة للرسول ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم ، فقال الرسول «كل معروف صدقة»[1] وقال أيضاً : «على كل مسلم صدقة قيل أرأيت إن لم يستطع قال يعين ذا الحاجة الملهوف قيل أرأيت إن لم يستطع قال يأمر بالمعروف أو الخير قال أرأيت إن لم يفعل قال يمسك عن الشر فإنها صدقة[2]» وفي رواية أخرى يعد معاونة إنسان في حمله على دابته صدقة ، وهناك نصوص عديدة من هذا القبيل يعد منها مثلاً الكلمة الطيبة صدقة وإماطة الأذى عن الطريق صدقة[3] وما إلى ذلك من النصوص التي ذكرنا كثيراً منها خلال دراستنا السابقة ، ولا أريد تكرارها خشية الإطالة .

وفيما يتعلق بالعمل النفسي فقد بينا في فصل المعايير الخلقية أنه لكي يعد السلوك الصادر من الشخص أخلاقياً ، فلا بد من اقتران العمل الظاهر مع النية والغاية الخيرتين والنية والغاية من الأعمال النفسية ويترتب عليهما من المسؤولية ما يترتب على الأعمال المادية الظاهرة كما بينا في المسؤولية «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله[4]» «قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة جـ ٢ ص ٦٩٧ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الزكاة ج ٢ ص ٦٩٩ .

(٣) المرجع السابق ج٢ ص٦٩٩ .

(٤) سورة البقرة ٢٨٤ .

والإثم والبغي[1]» .

وكان الإسلام دقيقاً عندما اشترط أنه لكي تحصل عادة الفضيلة في أي فعل أخلاقي لا بد من أن تشارك الإنسان في فعله زمناً طويلاً بقلبه وجسمه ، ولهذا كله ، فعلى المربي أن يوسع ميادين العطاء عند تربية الأطفال من الصغر ليستطيعوا الاستمرار في ممارسة العطاء في مختلف المجالات وعندما يعطون بالمعنى السابق يجب أن يشاركوا في العطاء أو في الفعل بظاهرهم وباطنهم معاً : أي أن يفعلوه بأنفسهم وجسمهم ، فمن لم يعط بقلبه لا يعد كريماً ، ولهذا قال الرسول : «إنما الكرم قلب المؤمن[2]» .

كما يجب على المربي أن يهتم عندما يدرب المتربين على الممارسة بإدخال الوعي التربوي في أذهانهم ليشتركوا في الممارسة المستمرة للفضائل بظاهرهم وباطنهم بالروح والفكر والخيال حتى تكون الممارسة مربية .

أما فيما يتعلق بالعنصر الثالث وهو تلقين المبادئ الأخلاقية بعد وضعها في صورة مشكلات يعانيها المتربون ويجدون الحل النهائي لكل مشكلة في تطبيق المبادئ الأخلاقية .

فإذا تأملنا في طريقة تربية الرسول الرعيل الأول من الصحابة ودرسنا أسباب نزول الآيات ووقت نزولها وجدنا أن معظم الآيات نزلت عقب مشكلات عاناها الصحابة أو في خلال أحداث وظروف ومشكلات محرجة بحثوا فيها أولاً عن حل وفي أثناء ذلك نزلت الآيات بالأحكام . ولذلك كانت لها وقع في نفوسهم وفهموا مغزاها فهماً واضحاً ودخلت معانيها في روعهم . فلو أن القرآن نزل جملة واحدة ما كان لآياته دلالة واضحة في نفوسهم ، وما كانت تلك الآثار في قلوبهم .

ولقد لفتت هذه الحقيقة نظر الدكتور محمد عبد الله دراز وبعد وعيه لها وعياً

---

(١) سورة الأعراف ٣٣ .

(٢) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الأدب ـ باب قول النبي إنما الكرم قلب المؤمن ج١٣ص١٨٦ .

دقيقاً عبر عنها في أسلوب وجيز له قيمة علمية حيث عبر عن أن هذه الأجزاء المبعثرة من القرآن قد اتبعت في نزولها تخطيطاً تربوياً مسبقاً فقال: «إن هذا التطور إذن كان متفقاً مع خطة تربوية وتشريعية موضوعة في وقت سابق في إجمالها وتفصيلها بمعرفة منزل الوحي سبحانه وتعالى، فإذا كانت هذه النصوص ذاتها التي كانت تتبع في نزولها تخطيطاً تربوياً ممتازاً قد تحولت بمجرد نزولها التاريخي، لكي تتوزع وتتجمع في شكل آخر على هيئة إطارات محددة ومختلفة الأطوال، بحيث يظهر من هذا التوزيع المقصود في النهاية كتاب يقرأ مكون من وحدات كاملة لكل منها نظامه الأدبي والمنطقي، لا يقل روعة عن النظام التربوي عامة، فهذا هو التخطيط المزدوج الذي لا يمكن أن يصدر عن علم بشر»[1].

ولنأخذ الآن بعض الآيات القرآنية وندرسها كمثال عملي للتربية بالخبرة أو بالتجربة. نحن نعلم ما حدث من حادثة مؤلمة في غزوة أحد التي انهزم المسلمون فيها وكانت الهزيمة مؤلمة، وعندما بدأوا يدرسون أسباب الهزيمة ودخلت في نفوس البعض بعض الظنون: كيف يجعل أهل الشرك ينتصرون عليهم، ولكن الله أراد أن يريهم أن هناك أسباباً ومسببات في الحرب فإذا لم يتخذ المسلمون أسباب النصر يهزمون وأن الأسباب تؤدي إلى مسببات دائماً، وذلك ليتخذوا حذرهم دائماً، وأن من أسباب الهزيمة في المعركة ألا يسعى كل واحد إلى تحقيق مطامعه تاركاً هدف الجماعة الأساسية ونصح القائد، وأن الاختلاف في الجماعة والانشقاق في صفوفها من أسباب الهزيمة والفشل، وخاصة إذا كان القتال لأغراض شخصية أو من أجل إنسان لا لمبادئ ثابتة، ولهذا نزلت هذه الآيات بعد غزوة أحد مباشرة «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين . . . ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم

(١) مدخل إلى القرآن الكريم، دكتور محمد عبد الله دراز ص ١٢٤ .

ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين[1]» وفي غزوة حنين كذلك انهزم المسلمون لا لضعف ولا لقلة وإنما لظنهم أن الكثرة هي كل شيء في النصر ثم إن افتخارهم بكثرة العدد والعدة جعلهم يستهينون بالعدو ولا يلتجؤون إلى القوة المعنوية وهي الاعتماد على الله وطلب العون منه ، وبعد الهزيمة نزلت هذه الآية «ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين[2]» ولكن بعد هذه الهزيمة مباشرة لما التجأ الذين التفوا حول الرسول إلى الله مع قلتهم واعتمدوا عليه وطلبوا منه النصر كان النصر معهم «ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين[3]» .

وهكذا نجد دروساً في التربية العملية التجريبية إذا درسنا على هذا المنوال الأحداث والغزوات الأخرى وخاصة غزوة بدر وتبوك ، بل أكثر من هذا يجب دراسة سيرة الرسول كلها دراسة تربوية أيضاً ، لأن السيرة كلها تربية عملية تجريبية .

أما فيما يتعلق بالعنصر الرابع وهو التربية بالتدرج فهو من العناصر البارزة والمميزة في التربية الإسلامية ، ونجد ذلك بصورة واضحة في آيات القرآن من ناحيتين . الأولى : أن آيات القرآن نزلت بالتدريج في مدة ثلاث وعشرين سنة وبضعة أشهر وهي أقل مدة يمكن أن يتم فيها تربية جيل ، وقد استطاع الرسول أن يربي خلال هذه الفترة جيلاً من أصحابه خير تربية ظهرت وخير ثمرة أثمرت وما كان لذلك أن يتم بين يوم وليلة وليست هناك تربية تمت بهذه السرعة ، فنحن عندما ندرس تربية الرسول لأصحابه نجده أنه رباهم بالتدرج في تلك المدة بالتجارب

---

(١) سورة آل عمران : الآيات ١٤٢ ـ ١٤٤ ، ١٥٢ .
(٢) سورة التوبة ٢٥ .
(٣) سورة التوبة ٢٦ ـ ٢٧ .

والأحداث ، ويجب أن نضع في الاعتبار الأول ذلك التدرج العام في التربية الإسلامية وخاصة عند تقسيم التربية إلى مراحل مختلفة .

وأما الناحية الثانية في التدرج فهي الخاصة باتخاذ أسلوب التدرج في التربية بكل مبدأ التربية الأخلاقية أي التدريب المتدرج على كل مبدأ من المبادىء الأخلاقية ، سواء كان ذلك عند التحلي بالفضائل أو التخلي عن الرذائل : التدرج في تكوين كل فضيلة والتدرج أيضاً في ترك كل رذيلة ، وليس التدرج في التربية فحسب ، بل التدرج في استمالة الناس إلى التربية وللاقناع أيضاً ، ولنضرب لذلك مثلاً للتوضيح بالآيات التي نزلت في حق الخمر ابتداءً من أولها قوله تعالى «وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون»[1] .

لأننا إذا أردنا أن نعالج أمراً في شخص يجب استدراجه أولاً إلى البحث عن شأن هذا الأمر ، «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون»[2] وهذا مثل قوله تعالى «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين»[3] في استدراج الكفار للبحث عن الحق لأنه ليس من السهل أن يسمع ما يلقى عليه ويتفكر فيه إذا كان ذلك يخالف عداوة متأصلة في نفسه أو عقيدة راسخة دخلت في عقله ، ومن الصعب حينئذ أن يتركه مرة واحدة ، ولهذا نجد في الآية السابقة استدراجاً حيث إنها توحي بالبحث عن أمر الخمر هل هو رزق حسن فعلاً كاللبن والشراب؟ وفعلاً عندما نزلت تلك الآية تساءلوا هل الخمر رزق حسن نافع مثل اللبن وسألوا الرسول «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما[4]» هذه الآية بينت أن ضرره أكبر من نفعه فنشأ بذلك استعداد نفسي سلبي نحوه ثم بعد ذلك حدث

---

(١) سورة النحل ٦٦ .

(٢) سورة الأعراف ١٨٢ .

(٣) سورة سبأ ٢٤ .

(٤) سورة البقرة ٢١٩ .

أن شرب أحدهم ودخل في الصلاة وهو سكران ونطق فيها بالقول الفاحش فنزل قوله تعالى «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى[1]» وهذه الآية من هذه الحادثة خلقت في نفوسهم كرهاً نحو الخمر أكثر مما سبق ، وبعد ذلك شرب أحدهما وعربد واعتدى على آخر حتى تمنى بعضهم أن تنزل آية وتحرم الخمر عندئذ نزل قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون[2]» فنجد هنا أن هذه الآية حرمت الخمر مع الإشارة إلى الحادثتين البشعتين اللتين أثارتا في نفوسهم الاشمئزاز والنفور ، ولهذا لما نزلت هذه الآية أراقوا ما عندهم من الخمور وقالوا انتهينا يا رب ، فلو أن القرآن اشترط تحريم الخمر قبل دخول الناس في الإسلام ربما ابتعدوا عنه لأنه يحرم عليهم ما هو لذيذ في نفوسهم ومألوف لديهم ، ولكن التحريم نزل بعد تمهيدات نفسية وعقلية وإيمانية بحيث أصبحوا على استعداد لتركه دون أسف عليه ودون أو يجدوا في تركه صعوبة ، ولذلك فإن معظم المحرمات نزلت متأخرة ، بل بعد الهجرة ومنها الزنى . وكذلك التشريعات التي شرعت متأخرة وبالتدرج ، ونجد هذا التدرج بشكل آخر في الزنى حيث أن أول الآية ذكرت الزنى بصراحة عند بيان صفات عباد الرحمن ومن تلك الصفات بينت الآية أنهم لا يزنون وتلك الآية هي قوله تعالى «ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون[3]» لكن دون سبق حكم بتحريمه ولا بالتخويف العظيم ، غير أن الآية توحي بأنه أمر غير مرغوب فيه ثم نزلت الآية الثانية «ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً[4]» ، نجد هنا بيان علة عدم الاقتراب منه لما فيه من مضار تجعل حياة الإنسان شيئاً سيئاً . وبعد ذلك نزلت آيات سورة النور التي تذكر أحكاماً هائلة مخيفة

---

(١) سورة النساء ٤٣ .

(٢) سورة المائدة ٩٠ ـ ٩١ .

(٣) سورة الفرقان ٦٨ .

(٤) سورة الإسراء ٣٢ .

بالنسبة للزناة وتلك هي «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ، والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون[1]» .

وآخر آية نزلت وفيها بيان أن حكم الزنى من الكبائر وتشترط على الرسول أنه إذا أراد نساء مبايعته يتعهدن بألا يأتين الكبائر ومنها الزنى «يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن[2]» ، فلو أن هذه الأحكام نزلت أول ما نزلت بهذا التهويل والتخويف قبل تثبيت العقيدة في القلوب وقبل ذلك التدرج في أعداد النفس لقبول تحريمه وتركه بناء على ذلك فربما لم يتسجيبوا للدعوة ، وإلى هذا أشار قوله تعالى عندما سألوا عن سبب عدم نزول القرآن جملة «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً[3]» «وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً[4]» وقالت عائشة «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا أثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنى[5]» .

ولم يكن ذلك التدرج فقط في تحريم المحرمات ، بل كان ذلك في فرض الواجبات أيضاً مثل الزكاة والصلاة[6] ، ولهذا يقرر ذلك بعض المتخصصين في

---

(١) سورة النور ٢ ـ ٤ .

(٢) سورة الممتحنة ١٢ .

(٣) سورة الفرقان ٣٢ ـ ٣٣ .

(٤) سورة الإسراء ١٠٦ .

(٥) فتح الباري بشرح البخاري كتاب فضائل القرآن ـ باب تأليف القرآن ج١٠ ص٤١٤ .

(٦) الجامع لأحكام القرآن . القرطبي جـ١ ص ٢١٠ .

الشريعة الإسلامية بقوله «والتدرج في أنواع ما شرع من الأحكام ظاهر من أن المسلمين لم يكلفوا في أول عهدهم بالإسلام بما يشق عليهم فعله أو ما يشق عليهم تركه ، بل سلك بهم سبيل التدرج وأخذوا بالرفق حتى تكون استعدادهم واستأهلوا للتكليف . ففي أول أمرهم لم تفرض عليهم الصلاة خمس فرائض في اليوم والليل وركعات محدودة في كل فريضة ، بل طلبت منهم صلاة مطلقة بالغداة والعشي ،ولم تفرض عليهم الزكاة والصيام إلا بعد الهجرة بسنة وكان التكليف قبيل ذلك بما استطاعوا من صدقة وصوم ، ولم يحرم عليهم الخمر والميسر وكثير من عقود الزواج والربا والمعاملات التي كانوا يتعاملون بها في جاهليتهم إلا بالمدينة ، والحكمة في هذا التدرج في أنواع الأحكام أنه هو العلاج لإصلاح النفوس الجامحة والوسيلة لتقبل التكاليف وامتثالها من غير ضجر ولا عنت وهو من الحكمة في الدعوة»[1] وأنا أقول ، بل هو من أحكم الحكم في التربية الأخلاقية الناجحة .

هذا إلى أن هناك نوعاً آخر من التدرج في التربية الأخلاقية وهو الانتقال من الأهم إلى ما هو دونه ومن الفروض إلى الواجبات ومن الواجبات إلى السنن أو من عظائم الأمور كما يسميها القرآن إلى ما هو دونها وهكذا إلى أن يصل الأمر إلى الحركات والسكنات والتصرفات الصغيرة .

ويجب ألا ننسى هنا قبل هذا تركيب المحرك الأول في القلوب ، المحرك الذي بدونه لا يستطيع أن يتحرك المتربي إلى الالتزام الدائم والمستمر بالفضائل ويحرص على تجنب جميع الشرور والرذائل ، ذلك المحرك الدافع هو الإيمان الراسخ القوي بالله باعتباره مطلعاً على أعمال عباده لا تخفى عليه خافية ولا يفوت عليه عمل بدون الجزاء إن خيراً فخير وإن شراً فشر ولو كان مقدار ذرة . لا بد من ترسيخ هذه

---

(١) الأستاذ عبد الوهاب خلاف في كتابه : علم أصول الفقه ص ٢٨٩ .

العقيدة في قلب المتربي أولاً وقبل كل شيء وبعد ذلك لابد من تطبيق المبدأ التدريجي ، وقد أعطى القرآن نموذجاً من هذا النوع المتدرج في التربية الناجحة ، وذلك في قصة تعليم لقمان لابنه حيث نجد أن لقمان قد بدأ بترسيخ تلك العقيدة في قلب ابنه وتركيبها فيه . ولقد ضرب الله مثلاً بتربية لقمان التدريجية في عديد من آيات سورة لقمان ولنعرض بعض تلك الصور مع التحليل ، يقول تعالى : «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»[١] .

عندئذ يجب أن يلقن الطفل بأن المبادئ الأخلاقية مرسومة له من قبل الخالق وأنه إن أطاعها لا يطيعها وكأنها مبادئ رسمها والده ، ليكون ارتباطه بالله وبطبيعة الفضيلة دائماً لا بوالديه ، ولا ينبغي أن يطيع والديه ولا غيرهما إذا أمرا بشيء يخالف تلك المبادئ الأخلاقية ، وينبغي أن يلقن المتربي بتلك المبادئ وكأنها توحي إليه مباشرة من الله الخالق العظيم .

ومن هنا نجد مجيء الآية الثانية بعد الآية السابقة موحية بذلك : «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون»[٢] .

كما يجب التنويه بعد ذلك بأن الله لا يضيع عنده عمل عامل من خير ولو كان مقدار ذرة أينما كان وهذا ما ما أراد لقمان أن يوحي به إلى ابنه بقوله «يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير»[٣] .

وبعد ترسيخ العقيدة في القلوب وغرسها في الأفئدة وتثبيتها في الجنان وإدخالها

---

(١) سورة لقمان ١٣ .

(٢) سورة لقمان ١٤ ـ ١٥ .

(٣) سورة لقمان ١٦ .

في قلب المتربي ودمجها في لحمه ودمه بحيث تجري في عروقه كما يجري فيها الدم ، وبعد أن نصور أمام عينه عظمة الله وعلمه الدقيق وقدرته الهائلة تصويراً يرتعش له الوجدان البشري وتقشعر الجلود من ذكره تعالى .

بعد هذا كله ينتقل المربي إلى أمر متربيه بالواجبات الهامة وعظائم الأمور ثم إلى ما هو دونها في الأهمية والواجب . وهذا ما فعله لقمان بابنه فقال : «يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير[1]» .

ولعل هذا التدرج الأخير في التربية الأخلاقية هو أهم جانب في طريقة التربية الأخلاقية الإسلامية ، ولعدم اتخاذ هذا التدرج وهذا الأسلوب التربوي الحكيم ولتغافل المربين المحدثين عنه في التربية في الشرق والغرب كان ذلك أهم نقص ترتب عليه إخفاقهم في جعل المتربين يلتزمون بالمبادئ الأخلاقية في حياتهم العملية . أما الإسلام فقد عرف السر المكنون وعرف الذرة التي بتفجيرها تخلق طاقة جبارة تدفع المرء إلى الالتزام الدائم في السر والعلن بالمبادئ الأخلاقية .

بعد هذا كله نرى أن طرائق التربية الأخلاقية الإسلامية تتناول كل الجوانب الإيجابية من الطرائق التربوية وتوقع على كل وتر من أوتار الطبيعة الإنسانية بانسجام كامل لتوجيه متناسق للإنسان بكليته وبجميع طاقته البشرية بعد التنسيق بين جميع ميوله وغرائزه المختلفة تنسيقاً أخلاقياً ، وذلك ليستطيع الإنسان أن يتوجه بكليته وجهة أخلاقية وليستطيع السير المنتظم المستمر في طريق الأخلاق . وذلك بعد التدريب الأخلاقي التدرجي من الصفر على حسب نمو ميوله وقدراته وتكامل استعداداته البشرية سواء كان ذلك التدريب للتعود على الفضيلة أو للتطبع بها قلباً وقالباً ، أو كان ذلك التدريب لترك الرذائل إذا كان المتربي قد تعود عليها سابقاً كما

---

(١) سورة لقمان ١٧ ـ ١٩ .

أننا نجد طرائق التربية الأخلاقية الإسلامية تسير على ذلك النحو معتمدة أساساً على استخدام أهم أسرار الطبيعة البشرية وهو تفجير طاقة محركة دافعة وملزمة وهي طاقة الإيمان بالله وبالقيم الأخلاقية .

ومن ثم نجد أن هذه الطرائق تمتاز بالتكامل من حيث جمعها جميع الجوانب الضرورية لاكتمال التربية الأخلاقية التي ارتأى المربون المحدثون بعد أبحاث طويلة ضرورتها وإن كانوا لا يزالون يغفلون بعضها .

ولهذا كله فإن طريقة التربية الأخلاقية تعد أكمل الطرائق وأنجحها للتربية الأخلاقية حتى في هذا العصر عصر التقدم في التربية الحديثة وفي العلوم الإنسانية والمعارف الحديثة .

والآن وبعد تحديد معايير عمليات التربية الأخلاقية وطرائق هذه التربية بصورة عامة علينا أن ننتقل إلى بيان مراحل هذه التربية وتحديدها .

الفصل الثالث

مراحل التربية الأخلاقية ومراتبها

أولاً : وجهة نظر المربين في الموضوع عموماً

إذا نظرنا إلى الدراسات التربوية في هذا الموضوع وجدناه يشغل اهتمام المربين كثيراً وخاصة المحدثين منهم لأن من أهم قواعد التربية السليمة بصفة عامة أن تخضع هذه التربية لقانون النمو العام للطبيعة الإنسانية ، ذلك أننا لا نستطيع أن نلقن المتربي أية فكرة في أية مرحلة من مراحل نموه ، وإن ادعى هذا وذاك بعض الدارسين مثل «مالبرانش» حيث يرى أنه ليس هناك مراحل خاصة في التربية ، بل إن الطفل قادر على إدراك الحقائق والتطبع بأنواع السلوك في أي وقت منذ أن يصبح قادراً على الكلام[1] ، لكن هذا القول مبالغ فيه وتكتنف المبالغة الجانب التعليمي أكثر من الجانب السلوكي ذلك أن هناك مراحل النمو العقلي لدى الطفل فإنه لا يمكن أن تكون قدراته على الإدراك في بداية نموه العقلي كقدرته تلك التي يصل إليها في نهاية نموه العقلي وكذلك فيما يتعلق بالسلوك فإنه وإن كان استعداده هائلاً لمحاكاة سلوك الكبار فإنه لا يستطيع أن يقوم بالأعمال التي يمكن أن يقوم بها الكبار .

هذا هو رأي معظم التربويين ، ولذلك كان الرأي أن تساير عملية التربية مراحل النمو الطبيعي بصفة عامة ونمو الميول والاستعدادات والاهتمامات بصفة خاصة وإلا فسوف يؤدي الأمر إلى أضرار بالغة الخطورة لا يدركها إلا التربويون ، ولإدراك التربويين لهذه الخطورة قسموا التربية إلى مراحل ، لكنهم اختلفوا في تحديدها وفقاً لوجهات النظر التي بنوا عليها تقسيماتهم ووفقاً لنوعيات التربية التي تقتضي

(١) تاريخ التربية . دكتور عبد الله عبد الدائم ص ١٦٠ .

مراحل خاصة ، ولنذكر بإيجاز أهم تلك التقسيمات فيما يلي :

أولاً : تقسيم مراحل التربية الأخلاقية بحسب مراحل النمو العام للطبيعة الإنسانية وبالرغم من وجود بعض الاختلافات الفرعية بين بعض المربين في التقسيمات الفرعية المنضوية تحت هذا التقسيم فإنني أحاول أن يكون تقسيمي شاملاً لجميعها ، وهو ما يلي :

١ ـ مرحلة ما قبل الميلاد وتبدأ من حدوث الحمل وتنتهي عند الوضع ، لأن هناك عوامل تؤثر على نمو الطفل الجسمي والنفسي والخلقي وهو في بطن أمه ، وقد تكون تلك العوامل إيجابية أو سلبية وعلى الأم أن تتجنب تلك العوامل السلبية لكيلا يولد الطفل ناقص النمو من تلك النواحي التي قد لا يمكن تفاديها إطلاقاً بعد الولادة ، ولهذا يقول بعض المربين «هذه التجربة الخاصة التي يحصل الجنين عليها أثناء تطوره والتي يجلبها معه حين يأتي لهذه الدنيا تشكل أساساً لا يمحى تدخل فيه جميع الانطباعات التالية[١]» .

٢ ـ مراحل الطفولة : وقسموها إلى مراحل أو فترات وهي فترة الرضاعة وهي تنتهي بنهاية العام الثاني ، وفترة الطفولة المبكرة : وهي تبدأ من السنة الثانية إلى نهاية العام الخامس أو السادس وهي تقابل مرحلة مدرسة الحضانة . ثم فترة الطفولة المتأخرة وهي تمتد ما بين (٦ ـ ١٢) .

٣ ـ مرحلة المراهقة : وهي الفترة ما بين (١٢ ـ ١٨) ويسمي أرسطو المرحلة ما بين (٧ ـ ١٧) مرحلة التربية الجادة كما يسمى المرحلة ما بين (١٧ ـ ٢١) مرحلة التربية الكمالية .

٤ ـ مرحلة الشباب : ويسميها بعضهم مرحلة الرشد المبكر وهي تمتد ما بين (١٨ ـ ٢٥) سنة ويخصص بعضهم ذلك ما بين (٢١ ـ ٤٠) ويسمى بعضهم هذه المرحلة بمرحلة الرجولة والأمومة [٢] . وينبغي أن ننبه هنا إلى أن هذا التحديد لهذه

---

(١) التربية العامة ، رونيه أوبير ص ١٦٠ .

(٢) انظر في ذلك المراجع الآتية : (أ) التربية العامة ص ١٥٩ ـ ١٩٦ رونيه أوبير . =

المراحل غير حاسم إذ إن هناك تداخلاً واتصالاً بين كل مرحلة وأخرى ، وهذا ما اعترف به وقرره أولئك الذين حددوا تلك المراحل ، وإنما قسموها إلى تلك المراحل ، لأن كل مرحلة بصفة عامة تقتضي مطالب وواجبات يجب أن يتعلمها المرء فيها وإذا فاته الأوان لتعلم أمر ما أو في تحقيق حاجة ما يختصان بمرحلة معينة يكون من الصعب تعليمه في المرحلة التالية ويكون من الصعب أيضاً تعويض نقص النمو الذي نتج من جراء عدم تحقيق حاجة من حاجات النمو في المرحلة السابقة كما يؤدي إلى صعوبة تحقيق مطالب أخرى تتعلق بتلك الحاجة ، وهذا ما يقرره «هافيجرست» Havighurst[1] وما يقرره غيره أيضاً[2] .

وبناء على ذلك حددوا مطالب النمو الخاصة بكل مرحلة ـ ويهمنا هنا ما يخص التربية الأخلاقية ـ ، ففي نهاية الطفولة المبكرة يجب أن يكون الطفل قد تعلم بدء التفرقة بين الصواب والخطأ والخير والشر وتكوين الضمير ، كما يجب أن يكون قد كون الضمير والقيم الأخلاقية والمعايير السلوكية على امتداد مرحلة الطفولة المتأخرة ، وفي مرحلة المراهقة يجب أن يكون قد تعلم تحمل المسؤوليات الأخلاقية وتكوين قيم سلوكية تتفق مع العلم والعقل[3] .

ثانياً : تقسيم مراحل التربية الأخلاقية بناء على تطور اهتمامات الطفل ونمو هذه الاهتمامات ، لأن التربية خارج اهتمامات الطفل ودون استخدام هذه الاهتمامات لا تستطيع أن تؤثر ثم يكون الجهد التربوي ضائعاً ، وهناك عدة تقسيمات للمربين في هذا الصدد بناء على وجهة نظرهم في أهم تطورات اهتمام الأطفال لا أريد

=(ب) الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة للدكتور فؤاد البهي السيد ص٨٨ ـ ٩٧ . (جـ) سيكولوجية الطفولة والمراهقة دكتور مصطفى فهمي ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(د) السياسة لأرسطو ص ٢٨٣ وما بعدها .

(١) الأسس النفسية للنمو ص ٩٥ .

(٢) الدكتور فؤاد البهي السيد في كتابه : الأسس النفسية للنمو ص ٩٦ .

(٣) الأسس النفسية للنمو ص ٩٧ ، انظر أيضاً ، سيكولوجية الطفولة والمراهقة ص ١٩٩ للدكتور فهمي .

الإطناب بذكرها كلها[1] هنا وربما كان أوسع تقسيم تقسيم وليم مكدوجل ، ولهذا سأذكره بإيجاز شديد : فقد قسمها إلى أربعة مستويات متطورة : الأول مستوى اللذة والألم الحسيين وهذا ما يهتم به الطفل في السنوات الخمس الأولى من حياته ومن ثم فإن الخير والشر في نظره مرتبطان بالألم واللذة فقط ، وفي المستوى الثاني يقوم سلوك الطفل على أساس الثواب والعقاب وهذا ما يحصل في المرحلة الثانية من الطفولة . وفي المستوى الثالث يقوم سلوكه على أساس المدح والذم وهذا ما يحصل في مرحلة المراهقة وذلك نتيجة لتكون القيم عنده في هذه المرحلة ، وفي المستوى الرابع والأخير يكون اهتمامه بالقيم لذات القيم لا للثواب والعقاب ولا للذم والمدح وهذا ما يتم في مرحلة الرشد غالبا[2] وذلك على أساس أن اهتمامات الطفل تتركز أساساً حول ذاته في مرحلة الطفولة الأولى وتتركز حول المجتمع في مرحلة الطفولة الثانية ، وأما في مرحلة البلوغ فتتجه اهتماماته نحو القيم ونحو المعاني المجردة والمثل العليا[3] .

ثالثا : تقسيم مراحل التربية الأخلاقية بحسب ظهور قوى الطفل المختلفة .

وعلى هذا الأساس لا ينبغي تلقين المبادئ الأخلاقية الخاصة بكل قوة من قوى الجسم والنفس والعقل قبل ظهورها أو نموها وإلا لا تكون هذه التربية ناجحة ، فمثلاً التربية الخاصة بالجنس لو أخذت العناية في المرحلة الأولى من حياة الطفل لن تفيد لأنه لا يفهم ما يقال في هذا الميدان ، ومن هنا نجد أرسطو قد قسم التربية الأخلاقية بناء على أطوار نشأة أهم قوى الطبيعة الإنسانية إلى ثلاثة أقسام : الأول طور نشأة القوى الجسمية والثاني طور نشأة القوى النفسية والثالث طور نشأة القوى العقلية ، ولما كانت القوى العقلية والأخلاقية يبدأ ظهورها في نظره بعد السنة الخامسة من عمر الطفل فإن التربية الفكرية والأخلاقية تبدأ بعد هذه السن لكن مع ذلك يرى عدم اهمالها قبل ذلك تماماً[4] . والأمر الذي جعل أرسطو يسمى المرحلة

(١) التربية العامة ص ٤٩٧ ، الصحة النفسية ص ٢٨٣ ـ ٢٨٧ ، ٨٢ للإمام الغزالي .

(٢) التربية وطرق التدريس ، صالح عبد العزيز . دار المعارف ج٢ ص٢٤٣ .

(٣) التربية العامة ٤٩٧ ـ رونيه أوبير ، ميزان العمل ص ٨١ .

(٤) تاريخ التربية . دكتور عبد الله عبد الدايم ص ٤٧ ـ ٤٩ .

ما بين (٥ ـ ٦) من عمر الطفل مرحلة التربية التمهيدية ومرحلة ما بين (٨ ـ ١٧) مرحلة التربية الجادة ومرحلة ما بين (١٧ ـ ٢١) مرحلة التربية الكمالية[١] ، ولهذا أيضاً يخص المرحلة الأولى بالتربية الجسمية أساساً ، أما فيما يتعلق بالتربية الأخلاقية في هذه المرحلة فيصح أن تكون سلبية أي حماية الطفل من تسرب الرذائل إلى نفسه[٢] .

وكذلك نجد الإمام الغزالي يهتم بتقسيم التربية الأخلاقية على حسب ظهور تلك القوى الطبيعية اهتماماً كبيراً[٣] وسوف أذكر كثيراً من أقواله في هذا الصدد عند الكلام عن رأي الإسلام . وعلى ذلك الأساس رتب الإمام الغزالي القوي الإنسانية حسب تطور نشأتها إلى القوى أو الصفات البهيمية والسبعية والشيطانية والربانية[٤] ثم يرتبها باسم الشهوة بحسب نوعيتها فتظهر أولاً في رأيه شهوة الطعام ثم شهوة الوقاع ثم شهوة الجاه والرياسة ثم شهوة المعرفة وينصح بتأديب كل شهوة عندما تظهر بالآداب الخاصة وإلا فإذا فات أوانها صعب تأديبها[٥] وكذلك نجد ابن مسكويه[٦] ورفاعة الطهطاوي[٧] ينصحان بذلك .

رابعاً : تقسيم مراحل التربية الأخلاقية بحسب نوعية هذه التربية :

ويوجد هنا عدة تقسيمات لهذه التربية منها تقسيمها إلى تربية أخلاقية سلبية وأخرى إيجابية وهذا اتجاه التربية الطبيعية[٨] ونجده بصورة واضحة لدى جان جاك

---

(١) كتاب السياسة لأرسطو ص ٢٨٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٨٤ .
(٣) إحياء علوم الدين ج٣ ص٧٢ ـ ٧٣ .
(٤) كتاب الأربعين في أصول الدين للغزالي ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .
(٥) تهذيب الأخلاق ص ٢٦٠ .
(٦) تهذيب الأخلاق ص ٢٦ .
(٧) مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية . رفاعة الطهطاوي ص ٦٨ .
(٨) التربية الوظيفية ، ادوارد كلاباريد ص ٩٨ ـ ٩٩ ، ١٠٤ ، الأصول التربوية في بناء المناهج دكتور حسين سليمان قورة ص ١٦٤ .

روسو حيث يرى أن تمتد المرحلة الأولى إلى الخامسة عشرة[1] والتربية السلبية عنده عبارة عن إبعاده عن البيئة الفاسدة[2] أما التربية الإيجابية وهي تكوين بصيرة أخلاقية بالتعليم والتلقين فتمتد ما بين (١٥ ـ ٢٠) من عمر الطفل[3]. ومن هذا النوع من التقسيم تقسيم كانط هذه التربية إلى ثلاثة أقسام : الأولى تربية أخلاقية نفسية وأخرى عقلية وثالثة ذاتية ، فالأولى عبارة عن تلقين الطفل المبادئ والقيم الأخلاقية وهي تربية عائلية تمتد إلى السنة الثامنة[4] والتربية الأخلاقية العقلية تبدأ بعد الثامنة عندما يذهب الطفل إلى المدرسة وتستمر إلى السنة السادسة عشرة وهذه التربية تتم بشرح المبادىء الأخلاقية شرحاً عقلياً علمياً مقنعاً[5] ، أما التربية الذاتية فهي استمرار المرء في تربية ذاتية حسب القواعد الخاصة وهي تبدأ بعد المرحلة السابقة[6] ، ومن هذا القبيل أيضاً تقسيم التربية إلى تربية طبيعية وأخرى صناعية تركز الأولى على إكمال القوى الطبيعية في الطفل والثانية تركز على تهذيب تلك القوى الطبيعية وإكمالها صناعياً وهذا رأي جلال الدين الدواني[7] .

خامساً وأخيراً : تقسيم مراحل التربية الأخلاقية بحسب مراتبها ودرجاتها : وقد قسمت التربية الأخلاقية من هذه الجهة إلى عدة تقسيمات من أهمها تقسيم الصوفية إلى مرحلة التخلية وإلى مرحلة التحلية .

فمن الناحية الأولى : يجب تخلية نفس المتربي أولاً من جميع الشرور وتطهيرها من جميع الرذائل والنيات السيئة فيقول التستري هنا أول ما يؤمر به المريد المبتدئ

---

(١) أميل ، روسو ص ٩٧ـ ١٧٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٤ ، ٨٣ـ ٩٩ ، ١٠٣ .
(٣) التربية الوظيفية ص ١٠٤ .
(٤) كتاب التربية لكانط ٦٦ .
(٥) المرجع السابق ص ٦٨ .
(٦) المرجع السابق ص ٣٠ ، مقدمة لعلم الأخلاق لأرسطو ص ١٥٥ ـ ١٦٣ .
(٧) لوامع الإشراق في مكارم الأخلاق والمعروف بأخلاق جلالي . جلال الدين الدواني . طبعة بومباي ١٢٨٣ هـ .(بالفارسية) ص ١٣٠ ـ ١٣٣ .

التبري من الحركات المذمومة ثم النقل إلى الحركات المحمودة[1] ويعلل لسان الدين ابن الخطيب سبب وجوب البدء بتطهير النفس من الرذائل أولاً بأن النفس الإنسانية كالأرض والتربة الأخلاقية كالزرع : فكما يجب خلع أعشاب الأرض الشيطانية قبل زرع النباتات المثمرة فكذلك يجب خلع أعشاب الرذائل الأخلاقية قبل زرع الفضائل الأخلاقية[2] .

ومن **الناحية الثانية** : فالتحلية بجميع الفضائل وغرسها في النفوس تحتاج بعد خلع النباتات الضارة إلى معرفة المربي كيف يغرس تلك الفضائل وهذا يحتاج إلى معرفة الأوقات المناسبة للزرع لأن النفس الإنسانية لا تكون مستعدة للغرس في كل وقت ومن هنا نجد ابن الخطيب يشبه أحوال النفس بأحوال الأرض ومناخاتها المختلفة بعضها صالحة للغرس وبعضها غير صالحة . فكذلك للنفس أحوال من خطرات وهيجان وتوتر وغضب وكما لا تصلح الأرض للزرع في أي وقت ويتخير الزارع أحسن أوقات الزرع فكذلك على المربي يجب أن يختار أفضل الأوقات المناسبة لزرع الفضائل ، ويرى أن أحسن أوقات زرع الفضائل وقت سكون النفس وهدوء الأعصاب[3] ومن ثم قسموا النفوس التي تتناول بالرياضة والتربية إلى ثلاث مراتب : الأولى نفوس العامة والثانية نفوس الخاصة والثالثة خاصة الخاصة[4] ومن هذا القبيل أيضا تقسيم جلال الدين الدواني حيث قسمها إلى قسمين : الأول خاص لإزالة الرذائل والثاني لحفظ الفضائل[5] .

ومن أهم التقسيمات لهذه التربية بحسب مراتبها في التربية الحديثة تقسيم رونيه

---

(١) عوارف المعارف للسهروردي ، المنشور مع ذيل إحياء علوم الدين ج٥ ص ٢٥٢ .
(٢) الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب بقلم الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله ص ٦١ ـ ٦٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٦٢ ـ ٦٣ .
(٤) عوارف المعارف في ذيل إحياء علوم الدين ج٥ ص ٢٥٢ .
(٥) لوامع الإشراق في مكارم الأخلاق ص ١٣٤ ، جلال الدين الدواني . (بالفارسي) .

أوبير فهو قد قسمها إلى ثلاث مراتب :المرتبة الأولى جعل الطفل يعيش مع المبادئ الأخلاقية حتى يعتادها ويألفها من الناحية الموضوعية .

المرتبة الثانية تكوين الوعي في ذهن الطفل بالمبادئ الأخلاقية بحيث يصدر عنه السلوك الأخلاقي عن وعي وإدراك وتعقل وتصور للمعايير الأخلاقية .

المرتبة الثالثة تكوين الشعور العاطفي والانسجام بين المبادئ الأخلاقية من ناحية والجانب النظري والوعي لها من ناحية أخرى وبينهما وبين التطبيق العملي من ناحية ثالثة(١) .

تلك هي أهم وجهات النظر التربوية في تقسيم التربية الأخلاقية إلى مراحل مختلفة فإذا أعدنا النظر إليها نظرة فاحصة وقومناها من الناحية التربوية لاختيار ما هو صحيح وترك ما هو باطل فإنني لا أستطيع القول بأن واحدة منها صحيحة والباقية باطلة ، ولا أستطيع القول كذلك بأن واحدة منها ينبغي أن تختار وندع الأخرى ، ذلك أن كل واحدة منها لها وجاهة يجب أخذها في الاعتبار عند تقسيم التربية الأخلاقية ، لكن كيف ذلك وما هو أفضل تقسيم لمراحل التربية الأخلاقية التي يمكن أن يستفاد فيها من تلك الآراء التربوية القيمة في مجموعها؟ .

قبل أن نقرر ذلك لننظر إلى وجهة نظر الإسلام في تقسيم مراحل التربية .

---

(١) التربية العامة ، رونيه أوبير ص ٥٠١ ـ ٥٠٣ .

ثانياً :مراحل التربية الأخلاقية في نظر الإسلام

فإذا نظرنا الآن إلى وجهة نظر الإسلام في تقسيم مراحل هذه التربية وتنظيمها وجدناها غاية في العمق والشمول بالنسبة إلى وجهات النظر تلك ويمكن تمييزها في أمرين مهمين :

أولهما تقسيم تلك المراحل بحسب النمو العام لخلقة الطفل .

وثانيهما أن تؤخذ في الاعتبار اهتمامات الطفل وظهور كل قوة من قواها ثم ما يمكن من التربية في كل مرحلة حسب استعداد الطفل مع وضع أهمية وأولوية كل مبدأ من مبادئ هذه التربية وترتيبها في الاعتبار . وعلى ذلك يمكن أن نقسم مراحل هذه التربية في ضوء وجهة نظر الإسلام إلى ثلاث مراحل عامة وبارزة :

الأولى : مرحلة ما قبل الولادة .

والثانية : مرحلة التربية النظامية .

والثالثة : مرحلة التربية الذاتية والاجتماعية العامة .

وأهمية الأولى إن لم تزد على الثانية فلا تقل عنها ، ذلك أن الأولى هي الأساس فإذا لم يكن الأساس سليماً فإن ما بني عليه لا يمكن أن يكون سليماً أيضاً ، بل قد لا يمكن البناء عليه على الوجه المطلوب .

وأساسيات المرحلة الأولى - كما بينا في الأسس العلمية للتربية الأخلاقية - أن يكون الأبوان من ذوي الأخلاق الحميدة ، لأن الطفل كما يرث من الأبوين

الخصائص البيولوجية والسيكولوجية كذلك يرث الخصائص الأخلاقية ، كما تكلمنا عن الأساسيات العلمية لهذه الحقيقة .

ذلك أن الطفل كالنبتة فإذا أردنا أن ننبت نباتاً حسناً فلا بد من معرفة اختيار بذرة صالحة ولا بد مع ذلك من معرفة اختيار أرض صالحة لهذه البذرة وزرعها فيها ، ذلك أنه مهما كانت البذرة صالحة فإذا كانت الأرض غير صالحة فلا ينفع الزرع وبقدر صلاحهما يكون صلاح الزرع ، ولهذا أنبت الله مريم نباتاً حسناً لتنتج ثمرة طيبة وكانت تلك الثمرة هي عيسى عليه السلام «وأنبتها نباتاً حسناً[(١)]» وكما تكون الشجرة تكون الثمرة ، ولهذا قال الرسول «إن لكل شجرة ثمرة وثمرة القلب الولد[(٢)]» ولا ينبغي أن ننسى هنا قول أحد المتخصصين في هذا الصدد «نحن نعرف اليوم أن الزواج بين أولاد الأشقياء أو السكيرين أو المصابين بالزهري أو حاملي العيوب العقلية الوراثية يعتبر جريمة جديرة بالعقاب . . . ، ولذا يعتبر انتاج ذرية من المرضى أو المنحلين أو اللصوص أو المعتوهين جريمة كبرى وهكذا يعد سوء الذرية من أكبر الخطايا[(٣)]» ولا ننسى هنا كذلك تقرير المجلس المختص بالجرائم في نيويورك «بأنه كلما زادت خطورة الجرم زاد احتمال وجود أقارب من أرباب السوابق وقد تبين من احصاءات هذا المجلس ٦٦٪ من المجرمين من عائلات المتهمين بالجرائم الخلقية ، ٨٢٪ من عائلات المجرمين الخطرين وكل هؤلاء يوجد بين أفراد لهم سوابق في الإجرام[(٤)]» .

والإسلام أثبت ذلك أيضاً فقال الرسول «الناس معادن والعرق دساس وأدب السوء كعرق السوء[(٥)]» وفي رواية «الناس معادن في الخير والشر[(٦)]» .

---

(١) سورة آل عمران ٣٧ .

(٢) مجمع الزوائد كتاب البر والصلة ج٨ ص١٥٥ .

(٣) الدكتور الكسيس كارل في كتابه تأملات في السلوك الإنساني ص ٧٨ .

(٤) علم النفس والتربية الحديثة . س . ل . برسي ص ٤٢١ .

(٥) كشف الخفاء حديث رواه ابن عباس مرفوعاًج٢ص ٤٣٢ .

(٦) المرجع السابق حديث ٢٧٩٣ ج٢ ص ٤٣٢ .

وإلى هذه الحقيقة أشار الله سبحانه وتعالى في مسألة مريم «يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا[1]» إذ إن انتقال أخلاقيات الآباء إلى الأبناء لا تكون عن طريق المحاكاة فحسب ، بل عن طريق الوراثة أيضاً .

ولهذا أمر الإسلام باختيار شريك صالح لانتاج ذرية صالحة فقال الرسول «تخيروا لنطفكم[2]» وقال أيضاً «تزوجوا في الحجز الصالح فإن العرق دساس[3]» ونصح بالزواج بالمتدينات لأنهن لا يرتكبن الرذائل الأخلاقية فقال «لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ولكن تزوجوهن على الدين ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل[4]» ، كما أمر باختيار أزواج صالحين لبناتهم فقال الرسول «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ألا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض[5]» لأن الناس إذا لم يراعوا الصلاح في الزواج فإن الذرية تأتي فاسدة ثم يفسد الجيل ومن ثم الأمة ، ولهذا قال أيضا «انكحوا الصالحين والصالحات[6]» وقال تعالى «وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله[7]» .

وهذه إشارة من الله إلى أن يكون أساس الإختيار الصلاح لا المال والجاه ولقد شبه الرسول تشبيهاً دقيقاً كيف أن الأصل يؤثر في الفرع إن كان سيئاً حين نهى عن الزواج من امرأة حسناء نشأت في أسرة سيئة فقال «إياكم وخضراء الدمن قيل وماذا يا رسول الله؟ فقال المرأة الحسناء في المنبت السوء «وفي رواية فإنها تلد مثل أصلها

---

(١) سورة مريم ٢٨ .
(٢) المستدرك على الصحيحين في الحديث ج٢ ص ١٦٣ .
(٣) منتخب كنز العمال ج٦ ص٣٦٤ .
(٤) سنن ابن ماجه كتاب النكاح (والخرماء مقطوعة الأنف مثقوبة الأذن) ج ١ ص ٥١٧ .
(٥) سنن الترمذي ج٢ ص ٢٧٤ كتاب النكاح .
(٦) سنن الدارمي ج٢ ص ٦١ .
(٧) سورة النور ٣٢ .

وعليكم بذات الأعراق[1] ، وقال تعالى «والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ، أولئك مبرؤون مما يقولون»[2] ، ثم إن الوراثة أمر ثابت علمياً كما أيدها العلماء وكما أثبتها أخيراً الدكتور كاربنتيه عميد أكاديمية العلوم في بلجيكا الذي قرر أن الصفات الخلقية والمواهب والجمال تنتقل بالوراثة[3] . وهو أمر معقول في نفس الوقت ذلك أن الإنسان له كيان نفسي ومادي معاً وكما تنتقل الصفات الجسمية إلى الذرية فإن الصفات النفسية يجب أن تنتقل أيضاً . كل هذه أساسيات أولية لتوريث الأخلاق الحسنة إلى الذرية وهي أفضل عمل مبدئي يقوم به الآباء نحو أبنائهم ، ولهذا قال الرسول «ما ورث والد ولداً خيراً من أدب حسن»[4] .

بعد هذه الأساسيات تبدأ مراحل التربية الأخلاقية ما قبل الميلاد وأول مرحلة هنا تبدأ منذ التلقيح الأول إذ يجب أن تكون نفسية الوالدين ونياتهما صافية سليمة عند التلقيح وأن يكونا متفائلين وألا يختلج في نفوسهما شيء من الغضب وسوء الظن والشر وألا يكونا مخمورين فإن الدكتور كاربنتيه رئيس أكاديمية العلوم في بلجيكا قرر في مؤتمر زيوريخ أن من يقترب من زوجته ويخيل إلى نفسه أنه مصاب بمرض خطير يأتي بولد به مركب النقص . السكران أو المنفعل يأتي بولد أحمق وعصبي المزاج . المتفائل ينجب أولاداً متجردين من الخوف والهواجس والعادات السيئة ، الغضب يورث طفلاً عصبي المزاج ، حالة المرأة الجسمية والنفسية تؤثر على الحمل»[5] وهذا ما يقرر أيضاً الدكتور الكسيس كارل حيث يقول «لكن جودة الصفات الوراثية لا تكفي لإنجاب أطفال من نوع جيد ، بل يجب فضلاً عن ذلك ألا يكون الأبوان المستقبلان نفساهما مصابين بالزهري أو مدمنين للخمر أو المورفين أو الكوكايين فسكر الزوج أو الزوجة في لحظة التلقيح جريمة حقيقة ، لأن الأطفال

---

(١) أ ـ منتخب كنز العمال ج٦ ص ٣٩٦ ، ب ـ كشف الخفاء ج١ ص ٣١٩ .
(٢) سورة النور ٢٦ .
(٣) أسس الصحة والحياة . دكتور عبد الرزاق الشهرستاني ص ٣٣٥ .
(٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد كتاب الأدب ج٨ ص ١٠٦ .
(٥) أسس الصحة والحياة دكتور عبد الرازق الشهرستاني ص ٣٣٦ .

الذين يولدون من مثل هذا التلقيح كثيراً ما يعانون أمراضا عصبية وعقلية لا يرجى لها شفاء[1]» .

وبعد الإخصاب تبدأ مرحلة التربية الأخلاقية الأولية للجنين في مرحلة الحمل وهي مسؤولية الأم أساساً ، لأن حالة المرأة الجسمية والنفسية تؤثر على الحمل «كما يقرر الدكتور كاربنتيه[2] وكما يقر علماء النفس ، فإن القلق النفسي والضعف الشديد للمرأة مدة الحمل يؤثران على الطفل [3] ويقرر ذلك كله الدكتور الكسيس كارل بقوله «فهناك قواعد علمية لصنع السيارات أو تربية المواشي ، وكذلك هناك قواعد لحمل الأطفال وتكوينهم ، يجب أن تعلّم هذه القواعد لجميع العنصر النسوي من السكان في مدارس متخصصة لهذا الغرض ، وهكذا تعرف كل أم من أمهات المستقبل السلوك الذي تتبعه أثناء الحمل والمواد الغذائية التي تتناولها وإلى أي حد تعمل . . . ويجب أن ينبهن إلى الخطر الذي يتعرض له الطفل من جراء إسرافهن في التدخين وشرب القهوة وتعاطيهن المورفين والمشروبات الروحية أثناء الحمل والرضاع[4]» .

والمبادئ الإسلامية المتعلقة بهذا الجانب ضامنة لإنجاب ذرية صالحة وتربية الطفل وهو جنين في بطن أمه من الناحية النفسية والأخلاقية والجسمية ، لأن الإسلام اشترط أولاً كما سبق أن يتم الزواج بين الأبوين الصالحين ، وأمر الزوج بحسن معاملة زوجته لكيلا تصاب الزوجة وهي حامل مثلاً باضطرابات نفسية فيتأثر بها الجنين من جراء سوء معاملة الزوج لزوجته ، يقول تعالى «وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً[5]» كما أن الإسلام ضمن رزق المرأة وجعله على الزوج لكي لا تعمل ولا تجهد نفسها

(١) تأملات في سلوك الإنسان . دكتور الكسيس كارل ص ١٠٩ .

(٢) أسس الصحة والحياة ص ٣٣٦ .

(٣) علم النفس والتربية الحديثة . س . ل . برسي ، الإنجلو المصرية ص ٤١٩ .

(٤) تأملات في سلوك الإنسان ص ١١٠ .

(٥) سورة النساء ١٩ .

وخاصة أيام الحمل فقال تعالى «وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده[1]» ومن حيث السكن قال تعالى «اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم[2]» كما دعا الإسلام إلى أن يكون كل مسلم أباً كان أو أماً حسن النية باستمرار ، سواء بالنسبة إلى الناس أو بالنسبة إلى الله أيضاً وأن يكون متفائلاً كما بينا ذلك عند الكلام عن غاية التربية الأخلاقية ليكون أثر حسن النية خيراً لحياتهم وحياة ذرياتهم أيضا . كما نجد الإسلام حرم تناول الأطعمة والأشربة الضارة بالصحة لأنها كما تضر صحة الوالدين تضر أيضاً صحة الذرية وخاصة الجنين لأنه يتغذى بغذاء الأم . ثم أحل الإسلام كل الأطعمة والأشربة الطيبة النافعة ، ولهذا قال تعالى «يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات[3]» «يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث[4]» ويجب أن ننبه هنا إلى أنه كلما نما الجنين في بطن أمه زاد تأثره بحياة الأم المادية والنفسية والأخلاقية .

أما مرحلة التربية النظامية بعد الولادة فتنقسم إلى مراحل بارزة هي :

١ ـ مرحلة الرضاعة :

وأهم العوامل المؤثرة على أخلاق الطفل في هذه المرحلة هي الرضاعة فيقرر المربون أن الطفل يتأثر بلبن المرضعة وبأخلاقية المرضعة عن طريق لبنها ومن ثم يقتضي الأمر ألا ترضع امرأة سيئة الخلق الطفل فيقول جان جاك روسو مثلاً «ويجب أن تكون المرضع أيضاً جيدة الصحة حسنة المزاج هادئة فإن العنف والانفعالات والكدر كلها تفسد اللبن وإذا قصرنا اهتمامنا على الجسم لم نحقق إلا نصف هدفنا فقد يكون اللبن جيداً والمرضع سيئة . فحسن الطبع ضروري كحسن التكوين . . . والأشرار لا يصلحون لأي عمل مهما كانت الأحوال وتزداد أهمية اختيار المرضع متى علمنا أن الوليد سيكون موكولاً إليها كلية في مدة

(١) سورة البقرة ٢٣٣ .

(٢) سورة الطلاق ٦ .

(٣) سورة المائدة ٤ .

(٤) سورة الأعراف ١٥٧ .

الرضاعة[1]» .

وكذلك يركز الإمام الغزالي على أهمية أخلاقية المرضع وأثر لبنها على أخلاقية الطفل وينصح بعدم السماح للطفل أن يرضع من امرأة سيئة الخلق فيقول «بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فإذا وقع عليه نشو الصبي تعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث[2]» .

ويقول ابن سينا «إن من حق الولد على والده إحسان تسميته ثم اختيار ظئر له كيلا تكون ورهاء (أي ذات خرق وسوء رأي) ولا ذات عاهة فإن اللبن يعدي[3]» ، ومن قبل هؤلاء وأولئك بين الرسول أهمية الرضاعة في أخلاقية الطفل وأن الطفل يرث عن طريق اللبن صفات أو خصائص المرضع ، ولهذا روى عن عائشة أن الرسول قال «لا تسترضعوا الورهاء (الحمقاء) وفي رواية أخرى لا تسترضعوا الحمقاء فإن اللبن يورث[4]» وروى عن عمر أن الرسول نهى عن إرضاع الحمقاء[5] .

ويثبت كذلك بعض العلماء أن الرضاعة الصناعية من العوامل المعوقة للتربية الأخلاقية من هؤلاء وليم مكدوجل فيقول مثلاً «وإني لأرى أمة بأسرها تقوم تربيتها على التغذية الصناعية لا بد أن يتجلى في أفرادها خشونة في الطباع وفتور وصرامة في علاقاتهم بعضهم ببعض وقصور في تأثير عامل الحنان الذي يرقق الخلق ويهذبه . . . وإني لأقترح أن تصبح زجاجة الطفل موضوع تحريم قومي عام يستند إلى أسباب أوجه بكثير مما يبديه الآباء من أسباب[6]» ، ولهذا يهاجم المرأة العصرية

---

(١) أميل ص ٥٦ ـ ٥٧ .
(٢) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٧٢ .
(٣) كتاب السياسة لابن سينا . نشر ضمن مجموعة مقالات فلسفية ص ١٢ .
(٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد كتاب النكاح ـ باب الرضاع ج٤ ص ٢٦٢ .
(٥) المرجع السابق ج٤ ص ٢٦٢ .
(٦) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ٦٧ .

التي لا تقوم بوظيفتها التربوية ولا تتنازل لإرضاع ولدها بثديها وتحرمه من عطف حضنها[١] .

ومن الأمور الهامة المتعلقة بالتربية الأخلاقية في مرحلة الرضاعة تعليم الطفل الانتظام وذلك بإرضاعه في أوقات معينة وتنظيم نومه ويقظته في أوقات معينة كذلك ، لأن ذلك وسيلة لتعليم النظام ثم عن طريق تعويده على النظام يمكن تعليمه العادات الحسنة وإبعاده عن العادات السيئة ، كما أنه يؤدي إلى تقوية إرادته بطريق غير مباشر . وبذلك يتعلم الصبر أيضاً ، لأنه يتعلم من ذلك كله أنه ليس كل ما يرغب فيه في أي وقت يستجاب لرغبته ، ومن ثم لا ينتظر ذلك من المجتمع عندما يخرج إليه فيما بعد . وعندما لا يجد من يستجيب لطلباته لا يعيش متبرماً ساخطاً على الناس كشأن من لم يتعود على ذلك . وإذا لم يتعلم الطفل ذلك كله من صغره أدى الأمر إلى عكس ما ذكرنا تماماً ، ولهذا يقرر برتراند رسل هذه الحقائق ويقول «لقد وضح أن تربية الخلق يجب أن تبدأ منذ الولادة[٢]» .

ومدة مرحلة الرضاعة في نظر الإسلام سنتان ولهذا قال تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة[٣]» وهذه وظيفة الأمهات فإذا لم يؤدين وظيفتهن ترتبت على ذلك كل تلك النتائج الضارة التي ذكرناها وبينها المربون .

٢ ـ مرحلة الحضانة :

أي الرعاية والتربية وتستمر إلى السنة السابعة وهذا رأي معظم أهل الفقه والشريعة ويقول ابن قدامة وقيدناه بالسبع لأنها أول حال أمر الشارع فيها بمخاطبته بالأمر بالصلاة[٤] .

ويجب أن يكون من يتولى أمر رعاية الطفل وتربيته في مرحلة الحضانة من

(١) المرجع السابق ص ٦٦ .

(٢) في التربية . براتراند رسل ص ٢٧ .

(٣) سورة البقرة ٢٣٣ .

(٤) المغني كتاب القضاة ـ باب الحضانة . لابن قدامة ج ١٠ ص ١٢٥ .

ذوي الأخلاق الحميدة وقرر الفقهاء أنه يسقط حق الحضانة بالنسبة للفاسق ولو كان من أقرب الناس إلى الطفل ، وألا يكون الحاضن كذلك معتوهاً لأنه لا يستطيع رعاية الطفل وتربيته[1] ، وقرر الإسلام أن تكون الحضانة في يد الأم لأنها أكثر رفقاً وعطفاً ورحمة بالطفل وذلك لينشأ الطفل عطوفاً رقيقاً رحيماً بالناس لأن من عومل بالقسوة في الصغر يكون قاسياً في الكبر ومن حرم من عطف الأبوين لا يكون عطوفاً على الناس في الكبر . ، ولهذا لما عمل علماء التربية والنفس إحصاءات ليروا الفرق بين الأولاد الذين عاشوا في الملاجئ بعيدين عن عاطفة الآباء والأمهات وبين الذين عاشوا في حضن أمهاتهم وبين دفء عاطفة الآباء ورحمة الأمهات وجدوا فرقاً شاسعاً في أخلاقياتهم فوجدوا أن معظم الأطفال من النوع الأول قد أصيبوا بالأمراض النفسية والاضطرابات العصبية والنقص في النمو الطبيعي في بعض نواحي النمو أو كلها[2] ، كما وجدوا أن أغلب المجرمين والمنحرفين والشواذ من هؤلاء ثم انتهوا أخيراً إلى أنه لكي يكون النمو سليماً يجب أن يعيش الطفل في الحضانة الطبيعية بين عاطفة الأم الرؤوم ورعايتها وبين إشفاق الوالد الرحيم ورعايته وتربيته[3] ، ولهذا نجد خطأ تربوياً فاحشاً يرتكبه الآباء في حق أبنائهم عندما يقضون معظم أوقاتهم خارج البيت بعيداً عن أبنائهم لا لأمور ضرورية فحسب ، بل للهو والعبث فالأم تقضي أوقاتها مع أصدقائها في مواطن اللهو واللعب وأماكن الترفيه والأب كذلك ويهملان تربية أبنائهما والإشراف عليهم ويحرمانهم من الجو العاطفي والروح العائلية الدافئة ، ونتيجة لذلك قد تحولت البيوت إلى شبه فنادق يحضر إليها الآباء للنوم فقط ، يقول هنا أحد الدارسين «إن في انشغال النساء المتزوجات بالمصانع والمحلات عدداً كبيراً من الساعات إهمالاً مؤكداً لواجب الأم نحو الطفل وهو ما أدى إلى تزايد الأحداث الهائمين على وجوههم في الشوارع وارتفاع نسبة الجرائم بين الأحداث عموماً ، وليس من شك

---

(١) المرجع السابق ج١٠ ص١٢٠ .
(٢) كيف نساعد الأطفال على تنمية قيمهم الخلقية . اشلي مونتاجيو ص ٦٠ .
(٣) علم النفس والتربية الحديثة ج١ ص٢٤٠ .

في أن الأم التي تجد نفسها مضطرة إلى أن تقضي عدداً كبيراً من الساعات بعيداً عن بيتها لا يمكن أن تجد متسعاً من الوقت للإشراف على شؤون بيتها وإعطاء أبنائها الصغار القسط اللازم من العناية والرعاية ، وكيف يتسنى للأبناء أن ينعموا بعطف أمهم وأن يتلقوا عنها تربية صحيحة إذا كان جل وقتها ضائعاً بين المصنع والنادي أو بين المكتب وحلقات الميسر . . . الخ[1]» .

ولقد أدركت هذه الخطورة الدول التي حاولت إلغاء نظام الأسرة وتنشئة الأطفال في الحضانة الصناعية بعيداً عن الآباء والأمهات ، وكانت روسيا من أكثر الدول تحمساً لذلك ، ثم عدلت عن اتجاهها وبدأت تشجع الأبوة والأمومة وتمنح للمرأة التي لها أولاد مزايا وحقوقاً وبدأت الصحافة تتكلم عن لذة الحياة العائلية ودورها البطولي في تنشئة الأطفال وتربيتهم[2] وهكذا أدركوا بعد تجربة ضرورة تفرغ المرأة لتربية أطفالها وخاصة في مرحلة الحضانة ونادوا بأنهم يأملون أن يأتي يوم تدرب فيه كل أم على تربية أطفالها وتتوفر الإمكانيات اللازمة لرعايتهم في المنزل وتتقدم اقتصاديات البلاد فتستغني المرأة عن العمل في خارج البيت لتتفرغ لتربية أطفالها في البيت إذا كانوا في مرحلة الحضانة[3] .

ويزيد الطين بلة أن كثيراً من النساء المتعلمات اليوم يرون أنفسهن أسمى بكثير من أن ينزلن بأنفسهن إلى مستوى الحضانة ويتركن الأمر للخادمات أو للحاضنة الصناعية في المؤسسات .

بل الأمر أدهى وأمر ، فإن المرأة اليوم بالرغم من تعلمها وتخرجها في الجامعات لا تتعلم أخص الوظائف الخاصة بها وهي تربية الأولاد وهذه المسؤولية ترجع أساساً إلى وزارة التربية والتعليم حيث لا تعد المرأة للوظيفة الطبيعية التي يجب أن تقوم بها مستقبلاً ، ومن ثم تترتب علس ذلك شرور اجتماعية يغيب عن المسؤولين تقدير حجمها كماً وكيفاً ، ولهذا نجد الدكتور الكسيس كارل يهاجم هذا الوضع في نظام

(١) الدكتور زكريا إبراهيم في كتابه : الزواج والاستقرار النفسي ، مكتبة مصر ص ١٠٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١١٢ .
(٣) دراسات في التربية المقارنة . دكتور وهيب سمعان ص ٢١١ .

التعليم والتربية قائلاً «فيجب علينا منذ الآن أن نزود أبناء المستقبل من جهة وطلبة مدارس المعلمين من جهة أخرى بالمعلومات التي تنقصهم حول سلوكهم في حياتهم الخاصة وحول تربية صغار الكائنات البشرية ومع ذلك فإن كل من يرغب في تربية بعض الحيوانات لا بد أن يقضي فترة تدريب في إحدى المزارع أو مدارس الزراعة ولو خطر لأحد أن يعد نفسه لهذا العمل بدراسة الآداب والرياضيات أو الفلسفة يعد مجنوناً، ومع ذلك فإن هذا النوع من الجنون هو الذي ترتكبه فتيات اليوم، فمعظمهن لا يعرفن شيئاً في حقيقة الأمر غير ما اشتملت عليه مناهج المدرسة، ونرى الواحدة منهن تصل إلى سن الزواج وهي على تمام الجهل بمهمتها كامرأة، فمن البديهي أنه لا بد من وجود مدارس خاصة لتعليم الشبيبة النسوية وظيفتها النوعية في المجتمع فتتعلم الفتيات في هذه المدارس واقع الحياة وتكوين الأطفال بالطريقة العقلية . . لأن المرأة في النوع البشري تختلف في تركيبها العضوي والعصبي والعقلي عن الرجل فجعل التربية واحدة بالنسبة للصبيان والبنات فكرة رجعية وبقية من فترة ما قبل العلم في تاريخ البشرية .

لقد كانت نظرة علماء عصر النهضة بالنسبة إلى مشاكل التربية أكثر عمقاً وصدقاً من نظرة علماء التربية في القرن العشرين فكان (ايراسم) يرى أنه يجب تعليم المرأة من أجل نفسها ومن أجل زوجها ومن أجل أطفالها على السواء، إذ إن واجبها لا يقتصر على إرضاع صغارها بل أيضاً في تزويدهم بتربيتهم الأولى وفي النهاية تجعلهم أهلاً للسلوك في الحياة[1]» .

ويقول المربي المشهور بستالوزي «أيتها الوالدة كما أنك مصدر حياتي الجسدية فعليك وبواسطتك تدب في قلبي أول العواطف الإنسانية والفضائل الأخلاقية وبدونك لا يتسنى لي المحافظة على طهارة نفسي ومحبتي وطاعتي مهما بلغت قوتي البدنية وشوكتي في هذا العالم، أيتها الوالدة أرجو إذن أن تكوني على الدوام بجانبي تنشلني يداك ما دام لك يدان وتضمينني إلى فؤادك ما بقي لك قلب

(١) تأملات في سلوك الإنسان ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

وحنان !! وإن كنت لم تعرفي للآن ماهية هذا العالم وصروفه التي يرميني الدهر بين أنيابها فتعالي لنتعلم معاً ما كان يجب عليك معرفته من قبل وما أنا مضطر أن أتعلمه[1]» .

وقال بعض رجال التربية «يكون الرجال كما يريد النساء فإذا أردتم أن يكون الرجال عظماء فضلاء فعلموا المرأة ما هي العظمة وما هي الفضيلة[2]» .

وإن المرأة لا يجب أن تستهين بوظيفتها الطبيعية وهي تربية الأولاد فإننا عندما نقول للرجل إنه مرب فهذا وصف جليل له والمرأة إذا علمت وظيفتها وقامت بها فتكون مربية مدرسة البيت ومربية مدرسة البيت مربية الأجيال العظيمة .

ولهذا كله شجع الإسلام على تعليم البنات وتربيتهم كما شجع على تعليم الأولاد وتربيتهم كما سبق بيان ذلك عند بيان أهمية التربية ودورها في بناء الفرد والمجتمع وبعد ذلك جعل الإسلام المرأة مسؤولة عن تربية أبنائها بعد أن جعل مقرها البيت فقال الرسول «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته والأمير راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته[3]» .

وأهم خصائص التربية الأخلاقية في مرحلة الحضانة هي التربية الأخلاقية السلبية أولاً ، أي عدم ترك الطفل تتسرب إليه الرذائل ، لأن الأمراض الأخلاقية كالأمراض الأخرى فإذا تسربت إليه فمن الصعب معالجته فيما بعد وخاصة إذا رسخت في نفسه تلك الأمراض الأخلاقية ، وخير العلاج هو الوقاية ، لأن الطفل لا يستطيع التمييز بين الخير والشر في السلوك وبين الحق والباطل في الأفكار وعلينا وقايته من أن يدخل في نفسه الأفكار السيئة وألا نتركه يسلك سلوكاً شريراً وهذا يكون بإبعاده عن قرناء السوء أو البيئة المصابة بالأمراض الأخلاقية بحيث لا تقع

---

(١) التربية الأخلاقية . أبادير حكيم ص ١٢٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤ .
(٣) فتح الباري بشرح البخاري كتاب النكاح ـ باب المرأة راعية في بيت زوجهاج ١١ص ٢١١

عينه على الأفعال الذميمة ولا يسمع الأقوال الفاحشة ، فيقول ابن سينا هنا «فإذا فطم الصبي عن الرضاع بدئ بتأديبه ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة وتفاجئه الشيم الذميمة فإن الصبي تبادر إليه مساوئ الأخلاق وتنثال عليه الضرائب الخبيثة فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة ولا عنه نزوعاً ، فينبغي لمعلم الصبي أن يجنبه مقابح الأخلاق وينكب عنه معايب العادات بالترهيب والترغيب والإيناس والإيحاش وبالإعراض والإقبال وبالحمد مرة وبالتوبيخ أخرى ما كان كافياً[١]» ويؤكد هذا المعنى الإمام الغزالي أيضا بقوله «ويمنع الطفل من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والشتم ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسري لا محالة من قرناء السوء وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء[٢]» ، بل أكثر من هذا فإن الغزالي يقرر حقيقة مهمة في ميدان التربية وهي أن الطبيعة الإنسانية تسرق من الأخرى فيقول الغزالي هنا مؤكداً ومعللاً قوله السابق «إذ الطبع يسرق من الطبع الخير والشر جميعا[٣]» ، ويعبر بعض علماء النفس المحدثين عن هذه الحقيقة بالعدوى مثل تارد Tarde فإنه يقرر بدوره أن السلوك الإجتماعي والأخلاقي ينتقلان من فرد إلى آخر بالعدوى وأساسه التقليد[٤] والأساس في هذا كله أن طبيعة الطفل تكون مرنة تقبل التشكيل والتطبع بسرعة عن طريق تفاعلها مع البيئة المحيطة به وهذا من أهم العوامل المساعدة للتربية الأخلاقية والإجتماعية في نظر التربية الحديثة[٥] ولهذا فإذا وضع الطفل في بيئة صالحة يتطبع بالصلاح بسرعة وإذا وضع في بيئة فاسدة يتطبع بالفساد أيضاً بسرعة فائقة .

ولهذا كله أمر الإسلام بالابتعاد عن البيئة الفاسدة وعن قرناء السوء كي لا يتعدى

---

(١) كتاب السياسة لابن سينا ـ مطبوع ضمن مجموعة مقالات فلسفية ص ١٢ .

(٢) إحياء علوم الدين ج٣ ص٧٣ .

(٣) المرجع السابقج ٣ ص ٦٠ .

(٤) الأسس النفسية للنمو ص ٣٣٨ .

(٥) الأسس الاجتماعية للتربية ص ١٢٢ .

الفساد إلى الأبرياء فقال الرسول «لا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره[1]» وقال أيضاً «إياك وقرين السوء[2]» وبين كيف أن الإنسان يتأثر بقرينه إن خيراً فخير وإن شراً فشر عند ما شبه الخير ببائع المسك وشبه الشرير بنافخ الكير فقال «مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة[3]» .

وبين الله تعالى كيف يندم الإنسان يوماً على اتخاذه سيء الأخلاق صديقاً فقال «ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا[4]» وبناء على ذلك قال الرسول «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل[5]» ، ولهذا أمر الرسول ألا يصاحب الإنسان إلا مؤمناً صالحاً فقال «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي[6]» ، ولا نجد أبلغ تعبيراً وأدق تصويراً من تعبير قوله تعالى وتصويره عن أثر البيئة في أخلاق الطفل عندما قال «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً[7]» .

اذن هناك جانبان مهمان من التربية الأخلاقية في هذه المرحلة وهما الجانب السلبي وهو عبارة عن إبعاد الطفل عن قرناء السوء بصفة خاصة ومن البيئة الفاسدة بصفة عامة ، وأما الجانب الآخر وهو الجانب الإيجابي وهو عبارة عن إيجاد صحبة صالحة وبيئة طيبة للطفل لأن الطفل لمرونة طبعه ولوجود قوة المحاكاة عنده يتطبع بسرعة بالأخلاق الحسنة التي يجدها مع معاشريه وخاصة إذا كانوا أطفالاً مثله ،

(١) كشف الخفاء ج٢ ص ٢٢٥ .
(٢) المرجع السابق ج١ ص ٢١٩ .
(٣) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج٢ ص ١٢٧ .
(٤) سورة الفرقان ٢٧ ـ ٢٨ .
(٥) المستدرك على الصحيحين في الحديث ج٤ ص ١٧١ .
(٦) سنن أبي داود كتاب الأدب ج٤ ص٥٢٩ .
(٧) سورة الأعراف ٥٨ .

ولهذا نجد ابن سينا يركز على هذه الناحية بقوله : «وينبغي أن يكون مع الصبي صبية من أولاد الجلة (عظام وسادة) حسنة آدابهم مرضية عاداتهم فإن الصبي عن الصبي ألقن وهو عنه آخذ وبه آنس وانفراد الصبي الواحد بالمؤدب أجلب الأشياء لضجره فإذا راوح المؤدب بين الصبي والصبي كان ذلك أدنى للسآمة وأبقى للنشاط وأحرص للصبي على التعلم[1]» .

والسر في أن الطفل يتأثر كثيراً بسلوك المحيطين به هو ما يقرر علماء النفس والتربية من أنه من حاجات الطفل النفسية الحاجة إلى التقدير ثم هو يظن في السنوات الأولى من حياته أن كل ما يفعله الناس المحيطون به حسن وعليه أن يقلدهم لينال تقديرهم وليجد القبول والترحيب منهم ، ولهذا فهو يحاول أن يحاكيهم بالضبط كالمثل تماماً ويساعده على ذلك أن ما أوتي الطفل من قوة المحاكاة لا يقل عن قوة المحاكاة الموجودة لدى الممثل الماهر ، لذا يجب استغلال هذا الاستعداد الموجود لدى الأطفال وعلى المربي أن يعلق على الأفعال الجميلة التي يأتيها الأطفال بالاستحسان الذي يتناسب مع ما يبذلون من جهد لأعمال حميدة . يقرر هذه الحقيقة أيضاً أحد المتخصصين في التربية ويقول : «والطفل في السنوات الأولى يميل إلى أن نشعره بذاتيته وبأنه فرد يستطيع أن يقوم بأعمال ، ولذلك نراه كثيرا ما يلفت نظر من حوله ليشاهدوا ما يقوم به من أعمال ويحسن إذ ذاك أن نعلق على هذه الأعمال بكلمات الاستحسان والتشجيع . فالطفل إذ يقوم بنشاط معين إنما يريد أن يشبع حاجاته النفسية وأعني بها الحاجة إلى التقدير[2]» كما يقرر المربون أن الطفل في هذه المرحلة المبكرة يقبل كل ما يلقن لسذاجته ويعتقد أن ذلك صحيح ولهذا تكون التربية في هذه المرحلة ميسورة بالتلقين والإيحاء والقدوة الحسنة ممن حوله[3] ، ولهذا نجد في الإسلام مبدأ القدوة الحسنة ، وبناء على ذلك فعلى المربي أن يمثل في حياته ما يدعو إليه كما كان عليه الرسول في تعاليمه «لقد كان لكم في

---

(١) كتاب السياسة لابن سينا نشر مجلة المشرق عدد ٣ ص ١٠٧٤ .

(٢) دكتور مصطفى فهمي في كتابه الصحة النفسية ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

(٣) مجلة التربية الحديثة مجلد ١٤ ـ ص ٨٨ .

رسول الله أسوة حسنة[1]» فلو لم يكن الرسول خير قدوة لغيره فيما يدعو إليه لما استطاع أن يربي أصحابه على النحو الذي نعرفه ، ولهذا السبب نفسه تفسد أخلاق الطفل بسرعة إذا كان المحيطون به سيئي الأخلاق ، ولهذا يقول وليم مكدوجل «لذا كان تطبيق مبدأ التجنب هاماً وواضحاً هنا أيضاً ، وقد أشار إلى ذلك المثل السائر القديم «إن عشرة السوء تفسد الأخلاق الحميدة» فأخلاق الكثير من الأطفال تفسد في سن مبكرة بسبب عشرة السوء في هذا المحيط الذي تعتبر فيه المراقبة اليقظة واجباً لا يمكن للآباء أن يكلوه لغيرهم . فالطفل الذي يترك أمره لرعاية الخدم معرض لأخطار جسام ، فكم من طفل في أول عتبات الطفولة أصيب بمبادئ الانحراف التي تتلف حياته كلها فيما بعد وتقضي عليها في كثير من الحالات[2]» .

هذا إلى أن التربية الإيجابية في هذه المرحلة تقتضي تدريب الطفل على السلوك المؤدب الذي يستطيعه والذي يتعلق بأكثر الحاجات ظهوراً عنده سواء أكانت هذه الحاجات جسمية أو نفسية وبالآداب المتعلقة بتلك الحاجات ، لأن ذلك يكون أكثر تأثيراً ويجد قبولاً أكثر ، فمن الحاجات الجسمية الواضحة مثلاً الحاجة إلى الأكل والشرب ولذا يجب أن يلقن آداب الأكل والشرب و يدرب على ذلك ، وهذا ما كان يفعله الرسول مع الأطفال فقد روى عمر بن أبي سلمة مثلاً أنه قال «كنت غلاماً في حجر[3] رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدي تطيش في الصفحة فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك فما زالت تلك طعمتي بعد[4]» . ومن الآداب المتعلقة بهذه الحاجة أيضاً النظافة والطهارة فيجب تدريبه عليها لأنها من المبادىء الأخلاقية الهامة في نظر الإسلام ، ذلك أن لها قيمة عظيمة من الناحية الإنسانية والطبية والاجتماعية والجمالية ، كما

---

(١) سورة الأحزاب ٢١ .

(٢) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ٤١ .

(٣) جاء في شرح الحديث أن معنى الحجر بالفتح لا يطلق إلا على الحضانة .

(٤) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الأطعمة ج ١١ ص ٤٥٠ .

شرحنا بعض ذلك في الباب الأول عندما تكلمنا عن السعادة والصحة النفسية . .

ومن الحاجات النفسية الهامة التي تظهر بوضوح في هذه المرحلة الحاجة إلى العطف والمحبة والرحمة ، فإذا حرم الطفل من هذه الحاجات وعومل بالقسوة في صغره يكون في المستقبل إنساناً قاسياً في معاملته للناس وهذا ما يقرره علماء النفس المحللون[١] ، ولهذا كان الرسول رحيماً بالأطفال في معاملته لهم وعطوفاً عليهم وكان يقبلهم ويحتضنهم ، فقد روى أنه مرة قبل الحسن فقال له أحد أصحابه إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً فقال الرسول عندئذ «من لا يرحم لا يرحم[٢]» ، هذه إشارة لطيفة سبق بها الرسول علماء النفس لأن من لا يرحم صغيره لا يرحمه عند كبره لأنه لم يجد منه رحمة ليرحمه ، بل يعاديه ، فنحن إذا حرمنا الأطفال من العطف والرحمة في صغرهم فهم لا يرحموننا ولا يعطفون علينا عند كبرهم ، ولهذا فلم يكن عطف الرسول على أحفاده فحسب ، بل كان شاملاً لأطفال أمته ، فقد روى «أنه خرج يوماً إلى المسجد وعلى عاتقه أمامة بنت أبي العاص فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها[٣]» .

وبمثل هذا الأسلوب التربوي نكون قد قمنا بأمرين معاً أحدهما إشباع حاجات الأطفال من العطف والتقدير ، والآخر تربيتهم بمبدأ العطف والرحمة بطريق غير مباشر . ويقرر هنا ليترون . ١ . سوروكن» أن تنشئة الأطفال على أيدي آباء عطوفين تساعد الأطفال على أن يشبوا على التعاون والشعور بالمسؤولية[٤] .

---

(١) الصحة النفسية ص ٦٧ ـ ٧٠ .

(٢) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الآداب ج١٣ ص٣٥ .

(٣) المرجع السابق ج١٣ ص ٣٥ .

(٤) تربية الشعور بالمسؤولية عند الأطفال كونستانس فوستر ص ١٧ .

٣ ـ مرحلة الطفولة المتأخرة :

وتقابل مرحلة التعليم الإبتدائي وهي تبدأ من السنة السابعة وتنتهي بالبلوغ .

وتمتاز هذه المرحلة بأن الطفل يزداد نمواً من النواحي الجسمية والنفسية والعقلية أكثر من المرحلة السابقة ويستطيع أن يتعلم أشياء كثيرة كما يستطيع أن يقوم ببعض الواجبات وأن يتحمل بعض المسؤوليات وبناء على ذلك يجب أن يبدأ بالتعليم المناسب لقدراته وأن يبدأ بالتدريب على القيام ببعض الواجبات التي يستطيع القيام بها ليعتادها . ولكن دون قسوة أو قهر وإنما بالتشجيع وبشيء من الحزم والجدية .

وكما يقرر رجال التربية أن الأطفال في هذه المرحلة أو ما بين السادسة والعاشرة من العمر يمتازون عن المرحلة السابقة بأنهم يذهبون إلى المدرسة ويخرجون إلى المجتمع ويتصلون بالزملاء ويكونون أصدقاء ويتكون عندهم قانون الصداقة ، ومن ثم يقبلون كل ما يقال لهم كقضية مسلمة تماماً كما كانوا من قبل ، ويهتمون بالصفات البطولية وقصص الأبطال الحقيقيين لا بالقصص الوهمية كما كانوا في المرحلة السابقة ، كما يستطيعون تحمل قدر معين من المسؤولية ويتكون عندهم روح النزوع إلى السلوك ، ويفهمون التناقض بين الأقوال والأفعال ، ولهذا ينبغي أن يكون المربي خير قدوة لهم ليحاكوه في أفعاله ويجب أن يتجنب التناقض بين السلوك والقول ويجب استغلال وسيلة الثواب والعقاب لدفعهم إلى الفضائل وتحذيرهم من الرذائل ، كما يجب تحديد الأفعال الفاضلة والأفعال المرذولة وتحديد ما هو جميل وقبيح والتفريق بين ما هو حلال وحرام وأن يكون كل ذلك مفهوماً واضحاً في أذهانهم ويجب أن تكون التربية عن طريق تطبيق ذلك في أفعالهم وفي حياتهم الاجتماعية[1]» .

ولهذا كله نجد الرسول يأمر بتعليم وتدريب الأطفال على بعض الواجبات والمسؤوليات المستطاعة ابتداء من السنة السابعة فقد روى أنه قال : «مروا الصبيان

---

(١) مجلة التربية الحديثة مجلد ١٤ ص ٨٨ ، كيف نساعد الأطفال على تنمية قيمهم الخلقية ص ٧٤ وما بعدها .

بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها في عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع[1]» وفي رواية الترمذي أنه قال: «علموا الصبي الصلاة ابن سبع واضربوه عليها ابن عشر[2]»، هنا نجد الرسول يفرق بين تكليف الصبي بالواجبات في السنة السابعة وبين تكليفه في سن العاشرة إذ إنه في السابعة يؤمر فقط دون قسر أو ضرب وفي العاشرة يعاقب بالضرب إذا رفض كما أنه يعيد من الصلاة الفائتة عليه كما جاء في حديث آخر «ما ترك الغلام بعد عشر من الصلاة فإنه يعيد[3]»، وذلك حتى يتدرب على الالتزام الكامل بالواجبات ولأنه يستطيع عندئذ الالتزام بذلك، كما نجده يأمر بالتفريق بين المضاجع، لأن الطفل في أواخر هذه المرحلة يكون عنده شيء من الإدراك للأمور الجنسية ولهذا أمر الإسلام بالبدء بالتربية الأخلاقية الخاصة بالأمور الجنسية عندما يقترب من البلوغ، ولهذا أمر الناس بتعلم الصبيان الاستئذان قبل الدخول على الكبار وخاصة في الأوقات التي يحتمل أن تقع عيونهم على العورات فقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم[4]» يقول الإمام القرطبي هنا عند تفسير الآية «أدب الله عز وجل عباده في هذه الآية بأن يكون العبيد إذ لا بال لهم والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم إلا أنهم عقلوا معاني الكشفة ونحوها يستأذنون على أهليهم في هذه الأوقات الثلاثة وهي الأوقات التي تقتضي عادة الناس الإنكشاف فيها وملازمة التعري[5]» كما أمر المربين والمصلحين ألا يثيروا التناقض بين أقوالهم وأفعالهم بل عليهم أن يفعلوا ما يدعون إليه فقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون[6]».

---

(١) المستدرك على الصحيحين في الحديث كتاب الصلاة ج ١ ص ١٦٣.
(٢) سنن الترمذي ج ١ ص ٢٥٣، مختصر سنن أبي داود ج ١ ص ٢٧٠.
(٣) سنن الترمذي، مختصر سنن كتاب الصلاة ج ١ ص ٢٥٤.
(٤) سورة النور ٥٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ج ١٢ ص ٣٠٤. (٦) سورة الصف ٢ ـ ٣.

٤ ـ مرحلة البلوغ أو المراهقة كما يسميها علماء النفس والتربية :

وقد اختلف العلماء والمربون في تحديد بداية هذه المرحلة ونهايتها وكان الاختلاف طبيعياً ومبرراً ، ذلك أن هناك فروقاً من الناحية البيولوجية والسيكولوجية بين الذكر والأنثى أولاً ، كما أن هناك فرقاً بين الأنثى والأنثى وبين الذكر والذكر ومن هنا يقول الدكتور فؤاد البهي السيد «يختلف المدى الزمني لمرحلة البلوغ تبعاً لاختلاف الجنس ذكراً كان أم أنثى ويختلف أيضاً تبعاً لاختلاف العوامل الوراثية التي تحدد السلالة التي ينحدر منها الفرد وتبعاً لاختلاف البيئة الجغرافية الطبيعية التي يعيش الفرد في إطارها ، إذ من المعروف الآن أن سكان المناطق المعتدلة يبلغون أسرع من سكان المناطق الحارة والباردة ومن المعروف أيضاً أن سكان المدن يبلغون قبل سكان القرى[1]» . وهو يفرق بين معنى البلوغ ومعنى المراهقة وفقاً لتحديد Harriman بقوله «بأن البلوغ مرحلة من مراحل النمو الفسيولوجي العضوي التي تسبق المراهقة وتحدد نشأتها وفيها يتحول الفرد من كائن لا جنسي إلى كائن جنسي قادر على أن يحافظ على نوعه واستمرار سلالته[2]» . «ثم يتطور البلوغ إلى مرحلة المراهقة التي تمتد حتى تصل بالفرد إلى اكتمال النضج في سن الرشد وذلك عندما يبلغ العمر الزمني حوالي ٢١ سنة[3]» ، وبناء على ذلك يحدد فترة البلوغ بالنسبة للذكر والأنثى بقوله «ومهما يكن من أمر هذه النواحي فالفتاة تبلغ مثل الفتى وتمتد بها مرحلة البلوغ من حوالي سن العاشرة إلى أن يصل عمر الفتاة إلى ١٣ سنة ، ويتخلف الفتى عنها فلا يبلغ حتى يصل عمره ١٢ سنة وتمتد به هذه المرحلة إلى أن يصبح عمره مساوياً ١٤ سنة[4]» .

ويحدد الدكتور مصطفى فهمي معنى المراهقة بأنه «التدرج نحو النضج البدني والجنسي والعقلي والانفعالي «ويحدد معنى البلوغ بأنه «نضوج الغدد التناسلية

---

(١) الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى المراهقة ص ٢٥١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٥١ .

واكتساب معالم جنسية جديدة تنتقل بالطفل من فترة الطفولة إلى فترة الإنسان الراشد»[1] . وبناء على ذلك يقسم دور المراهقة إلى المراحل الآتية : أولاً بما قبل المراهقة وتبدأ عادة من سن العاشرة وتنتهي في سن الثانية عشرة وهذه المرحلة تقابل مرحلة البلوغ بناء على تقسيم الدكتور فؤاد البهي السيد .

ثانياً : المراهقة المبكرة (١٣ ـ ١٦) عاماً . ثالثاً : المراهقة المتأخرة (١٧ ـ ٢١) عاماً[2] وأما علماء الشريعة فيقرر بعضهم بأن الحد الأدنى من إمكان البلوغ بالنسبة للولد بعد استكمال التاسعة أي في بداية العاشرة وقيل في نصف العاشرة ، وأما بالنسبة للبنت قيل في أول التاسعة وقيل في نصفها[3] وأما بالنسبة للحد الأقصى فاختلف أصحاب المذاهب بناء على اختلاف أحاديث مروية فقال أبو حنيفة : سن البلوغ تسع عشرة أو ثماني عشرة للغلام وسبع عشرة للجارية ، وقال أكثر المالكية حده فيهما سبع عشرة أو ثماني عشرة ، وقال الشافعي وأحمد وابن وهب والجمهور حده فيهما استكمال خمس عشرة سنة[4] على ما في حديث ابن عمرو وهو أنه لما عرض على رسول الله وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يقبل أو فلم يجزه ثم لما عرض يوم الخندق وهو ابن خمس عشرةسنة أجازه[5] ولما علم عمر بن عبد العزيز هذا الحديث جعل هذه السن حداً بين الصغير والكبير[6] .

بعد هذا كله نقرر بداية هذه المرحلة بالسن العاشرة بصفة مبدئية ونهايتها بالثامنة عشرة بصفة نهائية والتكاليف في نظر الإسلام محددة بالبلوغ والبلوغ محدد بالاحتلام وبه يصبح الإنسان مسؤولاً عن تصرفاته ويدخل تحت طائلة القانون فقال

---

(١) سيكولوجية الطفولة والمراهقة ص ٢٠٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٥ .

(٣) الأشباه والنظائر للإمام السيوطي ص ٢٢٣ ، فتح الباري بشرح البخاري كتاب الشهادة ج٦ ص ٢٠٥ .

(٤) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الشهادة باب بلوغ الصبيان واشهادتهم ج٦ ص٢٠٥ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) سنن أبي داود كتاب الحدود ج٤ ص١٩٩ .

الرسول «رفع القلم عن ثلاث عن المجنون حتى يعقل وعن المبتلى حتى يفيق وعن الصبي حتى يحتلم ، وفي رواية أخرى حتى يشب»(١) وفي رواية لأبي داود حتى يكبر»(٢) وكذلك رواه أحمد والنسائي وابن ماجة(٣) وليس هذا الاختلاف إلا في اللفظ في نظري ، لأن من يحتلم فقد أصبح شاباً ومن أصبح شاباً فقد كبر ودخل في عداد الكبار ، ولهذا فقد خاطب الرسول البالغين بالشباب عندما قال «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج»(٤) وإذا حددنا الآن مرحلة البلوغ بين بدايتها ونهايتها ما بين (١٠ ـ ١٨) نكون قد جمعنا معظم الآراء ، كان ذلك من حيث تحديد بداية المرحلة ونهايتها وحد الكاليف . أما من حيث التربية الأخلاقية في هذه المرحلة فإن هذه المرحلة أهم مراحل التربية الأخلاقية الإيجابية وهي أخطر مرحلة لانحراف الشباب فيها وانزلاقهم عن سواء السبيل لنمو الدافع الجنسي ، وهي أهم مرحلة لبث الوعي الأخلاقي لأن النمو العقلي من أبرز خصائص هذه المرحلة أيضاً ، كما أن من خصائص هذه المرحلة البارزة ظهور الحياء ثم الاهتمام بالبطولة ، وذلك لنمو شعور الاعتداد بالذات .

فمن ناحية نمو العقل يكون عقل المراهق أكثر نضجاً وإدراكاً عما كان عليه من قبل وخاصة إذا علمنا أن نمو الذكاء الطبيعي يتوقف في الثامنة عشرة من سن الإنسان ، هذا ما يقرره معظم علماء النفس المحدثين فيقرر أحدهم مثلاً قائلاً : «إن نمو الذكاء في الطفولة المتوسطة بخط مستقيم يظل يستطرد في نموه حتى المراهقة ثم ينحني بعد ذلك في انحناءة حتى الرشد ثم يثبت على ذلك حتى بدء الشيخوخة . . . . ولقد تواترت نتائج الأبحاث الإحصائية التجريبية على تقرير أن الذكاء يكاد يقف في نموه عند الأغبياء في حوالي الرابعة عشرة من عمرهم وعند المتوسطين في حوالي السادسة عشرة وعند الممتازين في حوالي الثامنة عشرة»(٥) .

---

(١) المستدرك على الصحيحين في الحديث ج٤ص ٣٨٩ .

(٢) سنن أبي داود ج٤ ص ١٩٧ .　　(٣) الجامع الصغيرج ٢ ص ٢٤

(٤) فتح الباري بشرح البخاري كتاب النكاح ج١١ ص٨ .

(٥) الدكتور فؤاد البهي السيد في كتابه الأسس النفسية للنمو ص ٩٤ .

إذا علمنا هذه الحقيقة فإننا نستطيع أن نربي المراهق تربية أخلاقية عقلية كاملة إلى نهاية هذه المرحلة لأن المراهق عند وصول نمو عقله الطبيعي يستطيع أن يفهم كل المعاني التجريدية والرمزية ، ولهذا يقول هنا الدكتور فؤاد البهي السيد «وتقترب مفاهيم المراهقين في مستوياتهم العليا الصحيحة من التعميم الرمزي ولهذا يستطيع المراهق أن يفهم معنى الخير والفضيلة والعدالة بينما يعجز الطفل عن ادراكه لهذه المفاهيم المعنوية[١]»

ولهذا فإن التربية الأخلاقية في هذه المرحلة يجب أن تقوم أساساً على الوعي العقلي لا مجرد المحاكاة والتقليد والعادة كما كان في الطفولة وذلك عن طريق تعليم مبادئها وقوانينها وعللها وما يترتب على الفضيلة والرذيلة من خير وشر إن عاجلاً أو آجلاً ومدى ضرورة الفضيلة لحياة الأفراد والجماعات واعطاء صورة كاملة عن مبادئ الفضيلة وعن المحرمات والرذائل على حد سواء ، إنه يستطيع ادراك ذلك ويستطيع أن يتعقل عواقب الفضيلة أو الرذيلة ، ولهذا يقول الإمام الغزالي «ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش وكل ما يغلب على الصبيان فإذا وقع نشوه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور»[٢] .

ثم إنه لا يمكن أن تكون التربية الأخلاقية مجدية في النهاية ما لم يتشبع عقل المتربي بالأسس العقلية العلمية التي يقوم عليها التفكير الأخلاقي ، ولهذا يقول سقراط «فالفضيلة الحقة هي التي تكون مصحوبة بالفكر»[٣] ويرى أن الفضيلة التي لا تقترن أو لا تقوم على أساس فكري فهي خداع للبصر وهي فضيلة ذليلة»[٤] .

وهذا ما يقرره أيضاً من جهة أخرى وليم مكدوجل عندما يقول «إن العقل والخلق يتداخلان أحدهما في الآخر وثمة مجموعة من الصفات يشترك في إنتاجها

(١) المرجع السابق ص ٢٧٤ .

(٢) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٧٤ .

(٣) الأصول الأفلاطونية ص ٤١ .

(٤) المرجع السابق ص ٤١ .

العقل والعوامل الخلقية الفطرية مثل الميل والمزاج والطبع فهي التي تظاهر الخلق وتعاونه»[1] ، ولهذا فإن من أهم ميزات أو خصائص التربية الأخلاقية في هذه المرحلة جعل عقل المراهق يتشبع بالفضيلة ويتكون عنده وعي أخلاقي عقلي ، أما في المرحلة السابقة فكان من أهم ميزات التربية الأخلاقية جعل نفس الطفل تتشبع بالفضيلة وتكره الرذيلة عن طريق المحاكاة والتلقين . وأكثر الانحرافات في مرحلة المراهقة تحصل نتيجة عدم اقناع المراهق فكرياً بضرورة الالتزام بالقواعد الأخلاقية كضرورة الالتزام بالقوانين الطبيعية العلمية ولعدم جعله يدرك بذكائه تلك الأسرار الأخلاقية العلمية[2] وهذا ما يقرره أيضاً الإمام الغزالي بقوله «المانع من السلوك عدم الإرادة والمانع من الإرادة عدم الايمان وسبب عدم الايمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء بالله تعالى الهادين إلى طريقه[3]» .

وإذا نظرنا الآن إلى رأي الإسلام نجده يضيف في هذه المرحلة مبدأ ثالثاً في التربية الأخلاقية وهو بيان حكمة المبادئ وأسرارها وعللها بعد تطبيق مبدأ التطهير النفسي وتزكية النفس من الرذائل وتعليمها ما هو خير وما هو شر ، نجد هذه الحقيقة في قوله تعالى «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون[4]» وطالب الإسلام العلماء بالاقتداء بالرسول وأن يبينوا ما يجب تبيينه للناس «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه[5]» وأن يقتفوا أثره في أساليب التربية في تكوين الأمة كما كان رسولنا والرسل من قبله ، «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده[6]» .

ومن مميزات مرحلة المراهقة أيضاً ظهور نمو الدافع الجنسي وهو من أكبر عوامل وقوع الشباب في الرذيلة ومن ثم يكون من أهم خصائص التربية الأخلاقية في هذه

(١) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ١٤١ .
(٢) كيف نساعد الأطفال على تنمية قيمهم الخلقية ص ٥٣ .
(٣) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٧٥ .
(٤) سورة البقرة ١٥١ .
(٥) سورة آل عمران ١٨٧ .
(٦) سورة الأنعام ٩٠ .

المرحلة التربية الأخلاقية الخاصة بالجنس يقول هذا المربي بستالوزي «فالشاب مع ما فطر عليه تركيبه البدني ولرجاحة كفة قوة البدن في هذا الدور من العمر على كل قوة أخرى فيه ، نراه سريع الانقياد لشهوات الجسد تؤثر عليه وتتغلب على نفسه المؤثرات المادية على اختلاف أنواعها وأشكالها ، فتراه يصبو إلى ملذات هذه الحياة ويزهو بزهوها وينخدع بسرابها ، لذلك يكون من الخطل في الرأي والنقص الفاضح في نظام التربية أن يهمل شأن تربية الأخلاق في هذا الدور ، ولا يبذل في تقوية عنصره الروحي الذي لا يتم لنفسه وعقله التغلب على قوى بدنه وشهوات جسده إلا بتدريبها وتهذيبها ، وإلا فالشاب لا محالة منحدر في تيار هذا العالم تلعب به أمواج مطامعه ومفاسده وتجرفه آثامه ، وبذلك يقضي على نفسه وأخلاقه قضاء مبرماً ، بهذا الإهمال تضيع من نفس الإنسان ملكة التعقل والتنبه الأخلاقي التي تحفظه من السقوط وتوصد في وجهه أبواب الفضائل ومكارم النفس ، وتسير به شهوات الجسد في طريق بعيد يقطع كل اتصال ويفصم كل رابطة بين العقل والضمير ، وبانفصام عروة هذه الرابطة تنقطع كل رابطة بين العقل والضمير ، وبانفصام عروة هذه الرابطة تنقطع كل علاقة بين الإنسان وخالقه تعالى وفي قطع هذه العلاقة الشريفة الضربة القاضية على نفسه التي هي المميز الوحيد للإنسان عن الحيوان ، بهذا يصبح الإنسان حيواناً عالماً مفكرا ، وبئس العلم والتفكير ، لأنهما ينقلبان سيفي نقمة على غيره لأن محبة الذات تقوى فيه إلى درجة تجعل المعاملة معه جحيماً ومتى انتشرت هذه الروح في وسط قضت عليه ونزلت بأهله إلى الدرك الأسفل ، لكل ذلك نحار ونتألم لهذا الإهمال المخيف ، إهمال أمر هذه خطورته ، وفي العناية به قطع لشأفة مصدر هذا الشقاء . نعم نحار لعدم استعمال الناس مواهبهم وعلمهم وذكاءهم في محاربة هذا الإهمال الشنيع ، وفي السير في تربية الأجيال المقبلة»[1] .

ولأهمية التربية الجنسية يقتضي الأمر معالجة الموضوع بشيء من التفصيل ،

---

(١) التربية الأخلاقية . أبادير حكيم ص ١٢١ .

تقوم هذه التربية في نظر الإسلام على مبادى تربوية ذات أهمية كبيرة في ميدان التربية ومن أهم هذه المبادئ هي :

تكوين وعي أخلاقي راسخ على الأسس العقلية وذلك ببيان حكمة المبادئ الأخلاقية وأسرارها ومدى ضرورتها للحياة الفردية والاجتماعية على النحو السابق .

وتكوين إيمان قوي بالله يزجر المرء عن أن تتحدث نفسه بارتكاب المعاصي في الرذيلة الذي ينال به غضب الله ونقمته ويكون سبباً لدخوله في الجحيم . وذلك على الأسس التي بينتها في الفصل الأول من الباب الثاني .

ثم تنمية دافع الحياء الذي يظهر في هذه المرحلة بصورة أوضح ثم استخدامه وسيلة لتجنيب الرذائل بصفة عامة ، ومن حسن الحظ أنه سيقترن ظهور غريزة الجنس في هذه المرحلة كما يقرر ذلك المربون[(١)] .

ولعل إلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى في قصة آدم وحواء «فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة[(٢)]» .

ولأهمية الحياء جعله الإسلام من الإيمان فقال الرسول «الحياء من الإيمان[(٣)]» ، لأن الحياء يقتضي الخجل من الله أن يفعل الإنسان الرذائل ، والخجل من الناس مما يستنكره الناس ثم الخجل من نفسه من ضميره الأدبي أن يفعل أمراً يرفضه قلبه وضميره ، ولهذا قال الرسول «إذا لم تستح فاصنع ما شئت[(٤)]» ، ثم إن الحياء يقتضي الوقار والسكينة من الإنسان في تصرفاته وكلامه مع الناس ولهذا قال الرسول «إن من الحياء وقاراً من الحياء سكينة[(٥)]» .

---

(١) الأسس النفسية للنمو د . فؤاد البهي السيد ص ٢٩٦ .

(٢) سورة الأعراف ٢٢ .

(٣) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الأدب ج١٣ ص ١٣٨ .

(٤) المرجع السابق ج١٣ ص ١٣٩ .

(٥) المرجع السابق ج١٣ ص ١٣٨ كتاب الأدب باب الحياء .

ولهذا كله يجب استغلال غريزة الحياء منذ أول ظهورها وتنميتها بالتربية الأخلاقية بصفة عامة وللتربية الجنسية بصفة خاصة ونجد الإمام الغزالي يشيد هنا بالاهتمام بالحياء في ميدان التربية الأخلاقية فيقول مثلاً «ومهما رأى (المربي) فيه مخايل التميز فينبغي أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهوراً أوائل الحياء فإنه إذا كان يحتشم ويستغني ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء وهذه هدية من الله وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه[1]» .

كماينصح بالمحافظة على حيائه وعدم إزالته أو هتكه بكثرة اللوم والشتيمة لأدنى بادرة تخالف الحياء أو عند كل تصرف غير لائق لأن كثرة اللوم يعوده على تحمله وكثرة هتك حيائه يجعله لا يبالي بالحياء ، هذا إلى أنه يجب تشجيعه كلما ظهر منه أفعال حسنة ومجانبته القبائح فيقول مؤكداً ذلك «ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أن يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه ، فإن إظهار ذلك عليه ربما يفسده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة ، فعند ذلك إن عاد ثانية فينبغي أن يعاتب سراً ويعظم ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس ، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه[2]» وذلك اقتداء بأسلوب الرسول الذي كان إذا علم خطأ أحد أصحابه لم يكن يكاشفه أمام الناس ، بل كان يشنع بالفعل دون تعيين صاحبه[3] .

---

(١) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٧٢ . (٢) المرجع السابق ج٣ ص ٧٣ .

(٣) سنن أبي داود ج ٤ ص ٢٥٠ كتاب الأدب حديث ٤٧٨٨ .

ومن تلك المبادئ أيضاً تنمية أو تقوية روح التسامي والاستعلاء على الغرائز الجنسية وغرس علو الهمة وروحه .

وذلك ببيان قيمة العفة في حياة الإنسان وببيان الأمراض الناتجة عن الفوضى الجنسية والشذوذ وما إلى ذلك من الفواحش الضارة ضرراً خطيراً لحياة الفرد والمجتمع ، فمن حيث التسامي عن طريق رفع قيمة العفة يجب بيان منافع العفة أولاً في حياة الفرد . فالعفة لا تقتصر فائدتها على منع الإنسان من السقوط في الرذيلة وانقاذ شرفه لدى المجتمع بل أكثر من هذا فإنها تحفظ الطاقة الجنسية التي يعدها بعض العلماء ماء الحياة والنشاط ومنبع البهجة وتزيد قيمة العفة إذا استخدمت هذه الطاقة في الأمور النافعة مثل العلوم والفنون والآداب . إذ يقر العلماء بمدى قيمة الطاقة الجنسية في مضاعفة النشاط العملي والعلمي[1] ولنستمع إلى واحد من هؤلاء الباحثين وهو الدكتور فردريك كهن ، ماذا يقول عن أثر العفة وفوائدها العملية يقول «تعتبر العفة من الناحية النظرية الصرفة أفضل حل للمشاكل الجنسية التي تهدد العزاب[2]» ثم يذكر منافعها مثل إنقاذ الإنسان من الأمراض الزهرية والاضطرابات النفسية ، ومثل تقوية الحياة الداخلية بما يشعر الإنسان من المتعة لسيطرته على نوازعه التي تدفعه إلى السقوط[3] ، ثم يتكلم عن أثر العفة في القيمة الخلقية باعتبار العفة نابعة من الداخل وقاضية على التنازع الداخلي والتردد واستعلاء الذات على النوازع الجنسية يقول «ليست للعفة قيمة خلقية ما لم تهدف إلى رفع الشأن . . . والأعمال التي تنشأ هي التي توجهها نحو الخلقية التي ترفع من شأنها فلا قيمة حقيقية لها إذا لم تساعدنا كي ننتصر على ذلك التنازع القائم بين الشهوة الجنسية الجامحة وبين الفرد[4]» «فالعفة تفيد الشباب من الناحية الخلقية لا من ناحية تخزين العصارة الثمينة فالحياة الجنسية والاستمناء يسببان انحطاطاً

---

(١) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ١٣ ـ ١٥ .

(٢) حياتنا الجنسية ص ٣٣٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٣٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٣٤ .

عصبياً . أما العفة فهي تزيد الشعور الداخلي وتقوي الأخلاق[1]» .

ومن حيث الاستعلاء عن طريق التسامي على النزعات الجنسية يفرقون بين من يعف مكبوتاً أي الذي يريد أن يمارس الفاحشة لكنه لا يستطيع ذلك لخوفه من العار أو لعدم تيسر السبيل إلى ذلك ومن ثم يضيق ويشعر بالكآبة وبين من لا يريد الفاحشة تسامياً عليها ولشعوره بالاستعلاء عليها فهذا لا يجعله يضيق من عدم فعله الفاحشة ، بل يفرح لذلك ويخطىء هؤلاء الذين يتكلمون باسم علماء النفس أن العفة تؤدي إلى الكبت والكآبة النفسية وقد أشاعوا في ذلك رأي فرويد مع أن فرويد يرجح التسامي والاستعلاء ويقرر هذه الحقيقة أيضاً العالم النفسي المشهور وليم مكدوجل ويدافع عن فرويد بقوله «لسوء الحظ انتشرت بين الناس مبادىء فرويد بشكل غامض انتشاراً واسعاً ، وكذلك انتشرت استنتاجات خاطئة منها وأيدها كثير من المؤلفات . فمن بين هذه التأويلات الخاطئة كانت أخطار الكبت ومساوئه الضارة هي التي انتشرت بين الناس انتشاراً واسعاً وحظيت منهم بالقبول ، وذلك لأنها أجازت للناس الانهماك في إشباع رغباتهم بلا قيد ، وأعفتهم من كل جهد لضبط النفس . فلا غرو إن سمعنا كثيراً من اللغو عن سلوكنا في الحياة على فطرتنا وعن حرية التعبير عن الذات وحقوقنا في المجتمع وبخاصة حقوق المرأة في سبيل السعادة واكتساب التجارب وما إلى ذلك كما سمعنا الكثير عن التعليقات الزارية على التقاليد القديمة والقيود البالية[2]» ثم يؤكد خطأ فهم الناس كلام فرويد في هذا الموضوع بقوله «ولأني لأؤكد للقارىء بأنني بذلت جهدي لكي أستوعب كل ما هو سليم في تعاليم فرويد وقد جاهدت ببسالة لفهم الحقائق المتصلة بنظرية الكبت وأحب أن أؤكد للقارىء أيضاً أن لا فرويد ولا غيره من المحللين النفسيين العقلاء يستصوب تلك الاستنتاجات الشائعة التي أشرت إليها ، بل هم يدركون أن قمع الانفعالات هو أساس المدنية ، كما قال أحد رجال التحليل النفساني في صيغة بليغة موجزة : فبدون القمع بمعناه الواسع العام وبدون كبح النزعات وضبط النفس

(١) المرجع السابق ص ٣٣٥ .

(٢) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ٥٤ .

ويدون اختيار مقصود بين الخير والشر وبين الخير الأسمى وبين الخير الأدنى منه وبغير القوانين والتقاليد والآداب المرعية لا يمكن أن يكون هناك سوى الفوضى والتوحش في أسوأ صوره»[١] .

وإني أؤكد بدوري كلام وليم مكدوجل عن رأي فرويد وأحيل من لا يقتنع بكلامنا هنا إلى قراءة كتاب فرويد نفسه عن سيكولوجية الشذوذ النفسي بين الجنسين حيث يجد فيه نصائح فرويد بعد تحليلاته كيف أن الناس أصيبوا بأمراض نفسية نتيجة انسلاخهم عن القواعد الأخلاقية وارتكابهم الجرائم الأخلاقية والفواحش وكيف يدعو في النهاية إلى الالتزام بالقواعد الأخلاقية والالتجاء إلى الله والحياة الأخلاقية الروحية السامية .

ومن ثم نجد وليم مكدوجل يعطي أهمية كبرى للاستعلاء على الغرائز وتكوين خلق راق عن طريق التسامي ببيان فائدة مثل هذه الأخلاق[٢] ويقول «لكن عملية التسامي لا تحدث فقط في نطاق عاطفة فإن الخلق المتماسك مجموعة مؤتلفة من العواطف يتسامى في نطاقها نشاط كل النزعات فإذا اكتسبت العواطف الأخلاقية الحميدة وحيكت في نسيج الخلق بمؤازرة مثل من الأمثلة العليا فإن جميع النزعات ستقوم بوظيفتها على الأغلب في تطابق مع المستوى الأخلاقي أو بمعنى آخر يتسامى بها صاحبها[٣]» ويؤكد قيمة الاستعلاء في رأيه ورأي فرويد بقوله «فالإعلاء عملية من عمليات التكوين الخلقي ونتيجة من نتائجه ومع أن كتابنا الأوائل لم يغفلوا أمره فإن فرويد وأتباعه قد أصروا على عظم شأنه[٤]كما يقرر أهمية الإعلاء جون ديوي[٥] وغيره[٦]» .

بعد هذا التقرير العلمي في قيمة العفة نستطيع أن ندرك قيمة التفكير الإسلامي

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١١٢ ـ ١١٦ .
(٣) المرجع السابق ص ١١٦ .
(٤) المرجع السابق ص ١١٢ .
(٥) الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني ص ٣١ .
(٦) صحة النفس ص ٣٦ . الدكتور إبراهيم وجيه ، انظر أيضاً كتاب «أخلاق محسني (بالفارسي) تأليف حسين الكاشفي ص١٥ ـ ١٧ .

في دعوته إلى العفة ورفع شأنها ، ومع ذلك فإن الإسلام لا يعتبرها الوسيلة الوحيدة لحل مشكلة الجنس وللوقوف أمام دوافعه ، بل إذا نظرنا إلى رأي الإسلام في هذه الفكرة نجده يدعو أولاً إلى الزواج لأن الزواج خير علاج للمشكلة الجنسية كما يقولون[1] إذا توافرت الإمكانيات ، ولهذا نجد الرسول يدعو الشباب إلى الزواج ويقول «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[2] »

ومن لم يجد امكانيات الزواج دعاه الاسلام الى امرين أحدهما الاقلال من قوة الشهوة الجنسية بالصوم كما سبق في الحديث السابق أو الإقلال من كثرة الأكل والشرب وخاصة أكل الأطعمة أو الأغذية المقوية للشهوة الجنسية فقال الرسول «إن المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء[3]» وقال أيضاً «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه[4]» .

وثاني الأمرين الاستعلاء على الغرائز بالاستعفاف فقال تعالى «وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله[5]» «والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم[6]» والاستعفاف غير قاصر على الأمور الجنسية ، بل مطلوب في الأمور كلها . فنجد ذلك في المال مثلاً فقال تعالى «للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم[7]» .كما دعا الإسلام إلى الاستعلاء بفعل الفضائل العليا فقال

---

(١) حياتنا الجنسية . دكتور فردريك كهن ترجمة : أنطوان فيلوص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ .

(٢) فتح الباري بشرح البخاري كتاب النكاح ج ١١ ص ١٣ .

(٣) المرجع السابق ج ١١ ص ٤٥٦ .

(٤) كشف الخفاء ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٥) سورة النور ٣٣ .

(٦) سورة النور ٦٠ .

(٧) سورة البقرة ٢٧٣ .

الرسول «اليد العليا خير من اليد السفلى[1]» وقال أيضاً «إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها[2]» إذ إن من يضع لنفسه الأهداف العليا الشريفة يتكون عنده علو الهمة، ومن ثم لا يرضى أن يتسفل بالأمور السفلية.

ثم إن الإسلام بعد هذا لم يكتف بمجرد الاستعفاف أي اختزان الطاقة الجنسية وعدم صرفها وتبددها في الفوضى الجنسية، بل دعا إلى صرف هذه الطاقة إلى الأعمال الخيرة والأهداف العليا، وذلك بالقيام بجهود في ميدان تقديم الخيرات إلى الناس، فقال تعالى «فاستبقوا الخيرات[3]» وجعل التسابق إلى القيام بالأعمال الخيرة ميادين للتسابق بين الناس فقال تعالى «لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر[4]» «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون[5]» وهذا يؤدي إلى التسامي لا إلى التسفل.

ومن تلك المبادئ: أيضاً ما أمر به الإسلام من الاحتشام ومنع التبرج.

عل ذلك يجب تربية الفتيات أولاً على لبس الحشمة وعدم إظهار مفاتنهن سواء بالكشف أو بالحركة أو بالكلام لأن ذلك يثير الهيجان الجنسي لدى الشباب وقد يدفع ذلك إلى السقوط في الرذيلة فقال تعالى في أمر هذه الحشمة «وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون[6]». فيجب ألا يظهر من الفتاة إلا الوجه والكفين، فقد روى أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على الرسول وعليها ثياب رقاق

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الرقاق ج ١٤ ص ٣٦.
(٢) الجامع الصغير ج ١ ص ٧٥.
(٣) سورة البقرة ١٤٨.
(٤) سورة المدثر ٣٧.
(٥) سورة المطففين ٢٦.
(٦) سورة النور ٣١.

فأعرض عنها وقال : «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفه[1]» . وإذا نظرنا من زاوية هذا الحديث إلى لبس بعض النساء في العصر الحديث اللبس الذي يظهر منه جميع مفاتنهن ، بل إن هناك لباساً رقيقاً من جنس أجسامهن فهو من حيث الطول يمتد من الرجل إلى العنق ولكن من حيث الرقة لا يخفي ما تحته ، نجد الرسول قد عبر عن وضعهن وكأنه عاش في عصرهن فقال «ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها[2]» وما أدق تعبير الرسول «كاسيات عاريات» لأنهن من حيث اللباس لابسات ومن حيث ظهور عوراتهن عاريات لأن كل مفاتنهن ظاهرة عارية ، فهن يدخلن في حكم العاريات لا في حكم اللابسات أو الكاسيات . كما أمر الإسلام بعدم الإثارة بالكلام فقال تعالى «فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً[3]» .

وأخيراً أمر الإسلام بغض البصر لأن النظرة قد تهيج الشهوة كما تهيجها العوامل الأخرى فقال تعالى «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها[4]» أي الوجه والكفين كما سبق في حديث أسماء بنت أبي بكر .

وآخر تلك المبادئ ما أمر به الإسلام بالاستئذان عند الدخول على الغير لكي لا يقع بصره على عورات الآخرين فيؤدي الأمر إلى الوقوع في الرذيلة . فقال تعالى : «وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم[5]» فإذا أمر الذين من قبلهم أي قبل البلوغ بالاستئذان ، فذلك للتدريب على التربية ، أما هنا فالأمر للوجوب فيجب الالتزام بالإستئذان باستمرار .

---

(١) التاج كتاب اللباس ج٣ ص ١٦٨ .

(٢) صحيح مسلم كتاب اللباس والزينة ج٣ ص ١٦٨٠ .

(٣) سورة الأحزاب ٣٢ .

(٤) سورة النور ٢٠ـ ٢١ .

(٥) سورة النور ٣٠ـ ٣١ .

إذن يحق لنا أن نقرر أن الإسلام يريد أن تتم كل التربية الأخلاقية الخاصة بالجنس في مرحلة نمو القوة الجنسية بأن تبدأ ببدايتها وتنتهي بنهايتها .

ومن المظاهر البارزة في مرحلة المراهقة بعد مظهر النمو العقلي والجنسي مظهر نمو الاعتداد بالذات ومحاولة إبرازها بين الناس عن طريق الاهتمام بالبطولات واختيار بعض الأبطال مثالاً يحتذي حذوه ، ويقرر بعض الباحثين أن ذلك يبدأ بعد الخامسة عشرة من العمر[1] ويعبر وليم مكدوجل عن نمو هذا المظهر عند المراهق بعاطفة اعتبار الذات ويعدها بصفة عامة منبع السلوك الأخلاقي[2] ويدعو إلى استغلال تلك العاطفة وسيلة للتربية الأخلاقية فيقول : «انني وإن كنت أعزو الرغبة في المثل الأعلى لهذا المنبع فلست أخترع شيئاً جديداً ولا أكشف عن عنصر ظل حتى الآن غير معروف في طبيعتنا ، فكل منا يعرف أن الإنسان السوي الذي يتصرف بأدب وظرف إنما يحترم نفسه ، كما أنه معروف لدينا كذلك أن احترام الذات له أهمية بالغة كمنظم للسلوك بمعنى أنه إذا ساء حظ إنسان لدرجة أنه فقد احترام ذاته فقداناً تاماً كان في حالة سيئة وأن أول شيء يجب أن نفعله لمساعدته على التجديد الخلقي هو أن نرد له احترام الذات إذا كان ذلك مستطاعاً[3]» .

لكن مجرد وجود عاطفة اعتبار الذات القوية لا تكفي للنمو الأخلاقي ما لم تستغل للتربية الأخلاقية ولهذا يقول «شيئان إذن جوهريان للتخلق القوي الكريم زيادة على حيازة العواطف الخلقية الملائمة ، وأعني بهما أولاً إدماج الصفات المحمودة عن وعي وتعمد في مثل أخلاقي أعلى على أن يكون ذلك مصحوباً ببعض تقدير ثابت لقيمها النسبية .

وثانياً : عاطفة احترام الذات مرهفة قوية تجدد على الدوام المجهود الذي يبذل لتحقيق هذه الصفات وتدعمه في سلوك الفرد وخلقه[4]» .

---

(١) الأسس النفسية للنمو ص ٣٢١ .
(٢) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ٨٠ .
(٣) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ٨٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٨٥ .

والإسلام دعا أيضاً إلى تقوية شعور الاعتداد بالنفس وبين أن من انحرف عن الإسلام قد سفه نفسه وأسقط اعتبارها «ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه[1]» وإن الله يذل الذين ينحرفون عن طريقه السوي وهذا ما فعل بالذين انحرفوا فقال تعالى عن فعله بهم «وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون[2]» ، ثم أمر المجتمع بعدم الاعتداد بشخصية المذنبين وعدم الثقة بكلامهم وشهاداتهم «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون[3]» .

ثم شجع الإسلام على رفع قيمة ذاتية المتقين وذلك ليدفعهم إلى القيام بالتحلي بالفضائل الأخلاقية العليا حتى بين الله أن من يعتدي على أمثال هؤلاء يعلن الله الحرب بنفسه عليه ويدافع عن أولئك ويحميهم فقال تعالى في حديث قدسي «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه[4]» .

إذن يربط الإسلام سقوط اعتبار الذات بالسقوط في الرذيلة وارتفاع شأن الذات بارتفاعها بالرقي الأخلاقي ، ويقتضي ذلك استغلال اهتمام المراهق بالبطولات بأن نضع أمامه شخصيات مثالية فيهم الصفات الأخلاقية المثالية ليتقمصها ويتحلى بصفاتها ويحتذي حذوها في حياته ، ولهذا نجد في القرآن ذكر شخصيات تاريخية بطولية تحلت بالصفات الأخلاقية العليا وكيف أن الله يدافع عنهم ويحميهم من كل سوء في النهاية إذا هم تعرضوا للخطر في سبيل الفضيلة .

---

(١) سورة البقرة ١٣٠ .

(٢) سورة البقرة ٦١ .

(٣) سورة النور ٤ .

(٤) الأحاديث القدسية . طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ج ١ ص ٨١ .

من هذه الشخصيات مثلاً يوسف عليه السلام الذي رضي أن يضحي بكل مصلحته المادية في سبيل الفضيلة واستطاع أن يتغلب على نوازعه الجنسية في سبيل الفضيلة واستطاع أن يتغلب على نوازعه الجنسية في سبيل الحفاظ على شرفه وعفته ، ثم رضي أن يطرد من القصر الملكي الذي كان يعيش فيه مترفاً منعماً ورضي أن يسجن بدل أن يرتكب الفاحشة مع امرأة الملك لأنه رأى أن الشرف أغلى من كل ذلك ، والعذاب في سبيل الشرف أحلى من السقوط في الرذيلة . فماذا قال عندما راودته الملكة عن نفسه وماذا حدث «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون[١]»عندئذ هددته الملكة بالطرد والسجن إن لم يستجب لرغبتها الآثمة وقالت «لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين[٢]» عندئذ ماذا أجاب يوسف «قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين[٣]» ثم نصره الله على كل تلك العوامل الدافعة على السقوط في الرذيلة واستجاب دعاءه بالنصر «فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم[٤]» «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين[٥]» ثم كانت النهاية العلو ليوسف لعلوه على غرائزه «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين[٦]» .

وهناك بطولة أصحاب موسى الذين وقفوا بجانب الحق في وجه فرعون وآثروا الحق على الباطل ولو كلفهم ذلك الحياة كلها ، وتحدوا تهديدات فرعون بتعذيبهم وقتلهم أشد التعذيب والقتل وذلك عندما قالوا « آمنا برب هارون وموسى ، قال

(١) سورة يوسف ٢٣ .
(٢) سورة يوسف ٣٢ .
(٣) سورة يوسف ٣٣ .
(٤) سورة يوسف ٣٤ .
(٥) سورة يوسف ٢٤ .
(٦) سورة يوسف ٥٦ .

آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا[1]» .

وهكذا نجد هناك قصصاً كثيرة في القرآن فيها بطولات يجب أن يضرب بها المثل أمام المتربين في هذه المرحلة ليتخذوها مثالاً وقدوة يتمثلون بها في حياتهم العملية وذلك يكون تربية عملية على المبادئ الأخلاقية عن طريق تحقيق اهتمامهم بالبطولات في الأعمال البطولية ووضع أمثلة من الشخصيات الأخلاقية البطولية أمامهم ليتقمصوها في حياتهم .

٥ ـ مرحلة ما بعد البلوغ أو الشباب وهي مرحلة الأشد والرشد .

وتبدأ من سن الثامنة عشرة وتنتهي بالأربعين ونحدد تلك المرحلة بهذه الفترة وفقاً لما ورد من نصوص منها قوله تعالى «حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين[2]» والأشد هو بداية المرحلة وقد حدده ابن عباس بثمان عشرة سنة[3] وهذا ما يفسره أيضاً قوله تعالى «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده[4]» وفسر في آية أخرى الأشد ببلوغ مرحلة النكاح فقال تعالى «وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح[5]» وإذا كان الأشد بداية بلوغ القوة البدنية والقوة الإدراكية والمعرفية فإن سن الأربعين نهاية بلوغ الإنسان قوته البدنية والعقلية ، ولهذا حدد بعض العلماء أيضاً مرحلة الشباب بين البلوغ والأربعين عند تفسير معنى الشباب الذي ورد في حديث الرسول «يا معشر

(١) سورة طه ٧٠ ـ ٧٢ .
(٢) سورة الأحقاف ١٥ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ج١٦ ص١٩٤ .
(٤) سورة الأنعام١٥٢ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن ج٧ ص١٣٥ .

الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج[1] وقال ابن كثير في تفسيره قوله تعالى «حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة» أي قوي وشب وارتجل «وبلغ أربعين سنة» أي تناهى عقله وكمل فهمه وحمله ويقال إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين[2]» وفكرة بلوغ الإنسان أوج الأشد أو أوج القوة في الأربعين من الناحية النفسية والعقلية والجسمية قد أيدها كبار المربين والمفكرين أمثال أرسطو مثلاً قديما[3]» .

أما فيما يتعلق برأي المربين في المرحلة العامة بعد مرحلة المراهقة فحددوها كالآتي :

أولاً : مرحلة الرشد المبكر من ٢١ سنة إلى ٤٠ سنة[4] وقال بعضهم إنها تبدأ من السابعة عشرة أو الثامنة عشرة[5] ويسمي بعضهم ما بين (١٨ ـ ٢٤) مرحلة الشباب[6] .

ثانيا : مرحلة وسط العمر ـ من ٤٠ سنة إلى ٦٠ سنة .

ثالثاً : مرحلة الشيخوخة ـ من ٦٠ سنة إلى نهاية الحياة[7]

وإنما حددت من ناحية التربية الأخلاقية مرحلة ما بعد المراهقة فيما بين (١٨ـ٤٠) لأن هذه الفترة فترة الشباب والقوة والنشاط[8] والرجولة والأبوة .

ولا يزال الإنسان بحاجة إلى مزيد من الوعي التربوي سواء لتربية ذاته أو

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري ج ١١ ص ٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٥٧ .

(٣) كتاب السياسة لأرسطو ص ٢٧٨ .

(٤) الأسس النفسية للنمو ص ٣ .

(٥) التربية العامة ص ١٩٠ .

(٦) سيكولوجية الطفولة والمراهقة ص ٢٩ .

(٧) الأسس النفسية للنمو ص ٩٧ .

(٨) يقول بعض الباحثين إن ذروة النشاط العقلي في النواحي المختلفة تظهر في المرحلة الزمنية الممتدة من ٢٠ إلى ٤٠ سنة ، انظر الأسس النفسية للنمو ص ٤١١ .

الاستمرار فيها أو لتربية أبنائه باعتبار أن هذه الفترة فترة الأبوة والأمومة أيضاً .

ثم إن الإنسان ما دام في هذه المرحلة من الشباب والقوة والرجولة والأنوثة لا يستطيع أن يأمن على نفسه من ألا تدفعه إلى الوقوع في الرذيلة وإن كان وقوعه في الرذيلة أقل احتمالاً بكثير من وقوع المراهق ويقل احتمال وقوعه في الرذيلة كلما تمت تربيته في المراحل السابقة بصورة أكمل وأتم ، ذلك أنه تشبعت نفسه بالأخلاق في مرحلة الطفولة وحفظت من أن تتسرب إليها الرذائل واعتاد ممارسة الفضائل بعد ذلك كما اعتاد أن يتلذذ بفعل الفضائل وأبغض إلى نفسه جميع الرذائل ثم بعد ذلك إذا رسخت عقيدة الأخلاق على أساس عقلي ثابت وحكمة راسخة في مرحلة المراهقة وآمن نتيجة لهذا أن طريق الفضيلة هو أسلم طريق ناجح في الحياة والسبيل الوحيد لسعادة الدنيا والآخرة ، إذا حصل هذا كله فإنه يكون تربى تربية أخلاقية منظمة ونادراً ما يتعرض لأن تزل قدماه ويقع في الوحل ، وذلك إذا استخدمت كل الطرق والوسائل للتربية الأخلاقية المتكاملة بدقة وعناية حسب المواصفات التربوية كما سنشير لذلك بشكل أكثر تحديداً وتفصيلاً في الفصول القادمة .

لكن مع ذلك لضمان عدم الانحراف ولدوام أثر التربية نحتاج إلى مرحلة جديدة من التربية الأخلاقية وهي مرحلة التربية الذاتية والاجتماعية وتشجيع كل من تمت تربيته على النحو السابق على الاستمرار في التربية الذاتية وفقاً لقواعد خاصة بهذه التربية ، ذلك أن الصحة الأخلاقية كالصحة الجسمية فكلما زادت العناية بها بالاستمرار على تطبيق قواعد الصحة المتكاملة زادت مناعتها ومقاومتها للعوامل المرضية الهدامة في مختلف الظروف والأحوال . وكذلك الأمر تماماً فيما يتعلق بالصحة الأخلاقية ، فيجب أن يزداد الإنسان علماً بأسرار التربية الأخلاقية وأن يزداد علماً بالوعي الأخلاقي وأن يلم بجميع قيم المبادئ الأخلاقية كما عليه أن يلم بجميع مضار الرذائل وطرق تسربها إلى نفس الإنسان كتسرب جراثيم المرض . وكما أن الصحة تقتضي الابتعاد عن المرضى فكذلك الصحة الأخلاقية تقتضي الابتعاد عن الذين أصيبوا بالأمراض الأخلاقية ودنسوا أنفسهم بالرذائل .

ولتصوير ضرورة استمرار التربية الأخلاقية الذاتية نضرب المثل الآتي : فالتربية الأخلاقية كالتربية الصحية فلو أننا ربينا الأطفال إلى نهاية المراهقة بالتربية الصحية وحفظنا صحتهم من ترسب أي مرض إليها وبنينا لديهم صحة قوية سليمة كما كونا عندهم الوعي الصحي بالعوامل التي تؤدي إلى الإخلال بالصحة ومرضها وانهيارها فإن المرء إذا لم يحافظ على صحته بعد ذلك وفقا لقواعد الصحة ولم يتجنب أسباب الأمراض فإنه بلا شك يضيع صحته ويهدم بذلك ما بناه في مدة ثمانية عشر عاماً .

وكذلك التربية الأخلاقية فإذا لم يحافظ على الاستمرار في تطبيق القواعد الأخلاقية وتجنيب نفسه من تسرب الرذائل إليها من معاشرة مرضى الأخلاق فإنه بلا شك سيهدم ما بناه طوال تلك الأعوام الماضية . ولكن ما هي مبادئ ووسائل التربية الذاتية؟ هناك عدة مبادئ ووسائل للاستمرار في ذلك ، منها مثلاً :

أن يجعل من ضميره رقيباً على نفسه وتصرفاته كلها باستمرار فلا يسمح لنفسه أن يقوم بأي سلوك ما دام ضميره أو قلبه لا يوافق عليه ولا يفعل شيئاً من الفضيلة رياءً أو نفاقاً ، وتنفيذ ما كان الرسول ينصح به دائماً وهو استفتاء الضمير أو القلب عند كل سلوك ، فقد روى عن وابصة أنه قال أتيت الرسول وأنا أريد ألا أدع شيئاً من البر والإثم إلا سألته عنه فقال لي الرسول جئت تسألني عن البر والإثم قلت نعم فقال «يا وابصة استفت نفسك ، البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس[1]» وهناك أحاديث شبيهة بهذا رواها مسلم[2] وغيره ذكرناها عند بيان وجود الضمير الأخلاقي أو الحاسة الأخلاقية في طبيعة الإنسان عندما تكلمنا عن الطبيعة الإنسانية .

ومن تلك الوسائل أيضاً أن يستعين بالله دائماً وأن يطلب منه العون ليعينه على التغلب على الغرائز الشهوية فإن من لا يريد الرذيلة ويطلب من الله العون فإنه لا

---

(١) مسند الإمام أحمد ج٤ ص ٢٢٨ .

(٢) صحيح مسلم كتاب البر ج٤ ص١٩٨٠ .

محالة يسعده وينصره كما فعل مع يوسف عليه السلام ، حين دعاه واستعاذ به ليصرف عنه السوء والفحشاء إنه كان من الصالحين وكان يريد الصلاح دائماً ، فإن الله إذا أصبح لإنسان ملجأ أولاً وأخيراً في السراء والضراء فإن الالتجاء إليه يقوي عزيمته وإرادته ويدفعه باستمرار إلى طريق الفضيلة والطريق المستقيم . كما يدفعه إيمانه إلى تحمل الصعوبات في سبيل الالتزام بالفضيلة ويمنحه الشعور بالعزة والكرامة في نفسه والرضا في قلبه والفرح والسرور في نفسه إذ إنه روي عنه أنه ما كان يقوم من مجلس إلا كان يدعو لأصحابه بهذا الدعاء وهو «اللهم أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا[1]» .

وليبقى ارتباط الإنسان بالله قوياً وصلته به متينة عليه الالتزام بثلاثة أمور : الالتزام بالفضائل والالتزام بعبادته وأخيراً التفكير في آيات الله في الأرض وفي السماء وفي الكون كله ، هذا هو منهج الله لبقاء صلة عبده به ، ونجد ذلك مرسوماً في قوله تعالى «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار[2]» .

ومن وسائل ذلك الاستمرار في التربية الذاتية الاتصال بالمربين ليزداد علماً بالوسائل التربوية وكلما شعر ضعفاً في مقاومته للإغراء أو داعية إلى السوء استشار

---

(١) سنن الترمذي ج٥ ص ١٨٩ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٠ـ١٩٣ .

مربيه ليزوده بوسيلة الدفاع والوقاية ، ولهذا قال تعالى «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون[1]» وأهل الذكر هم أهل التخصص ، كما على الإنسان أن يلتجئ إلى الطبيب كلما شعر بعرض من أعراض المرض أو ألم في ناحية من نواحي جسمه فكذلك عليه أن يفعل مع المربي كلما شعر بعرض من أعراض الأمراض الخلقية ليعالج نفسه أو يقيها قبل أن تدخل جرثومة المرض الأخلاقي ويستفحل المرض في نفسه ، والاتصال بالمربين قد يكون بالمعاشرة وقد يكون بالاتصال بكتبهم أي القراءة المستمرة للكتب التربوية بصفة عامة . لكن يفضل أن يكون الاتصال بالدرجة الأولى بالمربين أنفسهم لأنهم أدرى بأسباب الأمراض الأخلاقية وعلاجها السريع وأن على الفتى أن يذكر للمربين بصدق وأمانة كل ما يعتور نفسه من النزعات والأفكار المناقضة للإخلاق والدافعة إلى الانحراف عن الطريق المستقيم ليزيل عن نفسه تلك الأفكار والنزعات والوساوس الشيطانية ، ولأهمية اتخاذ الإنسان لنفسه مربياً نجد المتصوفين يهتمون بذلك في مجال التربية حتى قالوا من لم يكن له شيخ بصير بعيوب النفس فشيخه الشيطان ، فيقول الإمام الغزالي هنا «من لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة[2]» ، ولهذا ينصح بالاتصال المستمر بشيخ مرب بصير يهديه ويبصره بعيوب نفسه ويرشده إلى علاجها ، وعليه أن يتبع توجيهاته وإرشاداته وينبغي أن يكون ذلك دائماً شأن المريد مع شيخه وشأن التلميذ مع أستاذه[3] ومن لم يستطع أن يجد مثل ذلك الشيخ البصير المربي أو الأستاذ المربي ، ينصح الإمام الغزالي بعلاج آخر أو وسيلة أخرى للتربية الذاتية وهي أن يراقب الناس ويخالطهم وكلما رآهم يذمون صفة ما في شخص ما فليتركها إذا وجدها في نفسه يقول الغزالي في هذا الصدد «ومن فقد شيخاً عارفاً ذكياً بصيراً بعيوب النفس مشفقاً ناصحاً في الدين فارغاً من تهذيب نفسه مشتغلاً بتهذيب عباد الله ناصحا لهم فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه

---

(١) سورة الأنبياء ٧ .

(٢) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٧٥ .

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٦٤ .

من مرضه وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده[١]» وإذا فقد ذلك الشيخ فعليه «أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى ، فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرين الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه فليتفقد نفسه وليطهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديباً فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب[٢]» كما ينصح السهر وردى بمصاحبة الأبرار وأن يذكر كل واحد نواقص صاحبه[٣] .

ونجد الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون يؤيد أن الطريق الصوفي في التربية الأخلاقية طريق تربوي وذلك حيث يقول «هناك طريقتان أمام المربي الأولى طريقة الترويض بأعلى معاني هذه الكلمة والثانية طريقة التصوف بأبسط معاني هذه الكلمة . بالطريقة الأولى نلقن الأخلاق المكونة من العادات غير الشخصية وبالثانية نكتسب محاكاة الشخص باتصال روحي[٤]» .

وأخيراً فمن أهم مبادئ الاستمرار في التربية الذاتية اتباع كل السبل والطرق المقوية للإرادة بصفة عامة والإرادة الأخلاقية بصفة خاصة لأن قوة الإرادة هي الكفيلة بدوام السير في الطريق المستقيم في مختلف الظروف والأحوال ، وكلما قويت إرادته سهل عليه السير في هذا الطريق ولهذا فقد عقدت فصلاً خاصاً في الباب القادم لبيان وسائل تقوية الإرادة .

وما نقرره هنا من أهمية التربية الذاتية أو الاستمرار في تربية الإنسان نفسه يتفق مع ما يقرره كثير من كبار المفكرين والمربين الآخرين أمثال أرسطو[٥] والرواقيين وكانط وأيدهما أخيراً بارتلمي فيقول هذا الأخير معبراً عن رأيهم ومؤيداً كانط في

(١) المرجع السابق ج٣ ص ٦٥ .
(٢) المرجع السابق ج٣ ص٦٥ .
(٣) عوارف المعارف مطبوع مع الجزء الخامس في الإحياء ص ٢٠٤ .
(٤) منبعا الأخلاق والدين ص ٩٤ .
(٥) علم الأخلاق لأرسطو ج٢ ص٣٦٩ .

رأيه «وإني أتخذ مع كانط قولة الرواقيين ولكني أوضحها توضيحاً أكثر مما فعل ، من البين أنه إذا كان الطفل قدر ربته العائلة ثم المعلمون ثانياً على القواعد الطاهرة المتينة التي أوصى بها الحكيم وإذا كان قد عود باكراً بالقانون وشد ساعده بالشغل ، وإذا كأن الشاب قد عمل مخلصاً بالنصائح التي تلقاها والتي أقرها عقله مع فضيلته ، إذا تم كل ذلك لم يبق عليه بعد ذلك ما يتعلمه وهو رجل ، إلا الشيء القليل ، وهو اطراد حظه الأخلاقي مستقيماً مهما كانت العوائق التي تعترضه من غير أن يستطيع شيء أن يحوله عن مجراه فإن إحساس الخير يكون قد تأصل في قلبه وإدراك الواجب قد وضح لعقله وصارت إرادته من القوة بحيث يرجو بقدر الوسع الإنساني ألا يسقط بعد ذلك أبداً ، إن العادة تقوى الفضيلة أكثر مما تقوى الرذيلة ، وإن المثابرة على طريق الخير أيسر من التولج فيه ، ومع ذلك لا ينبغي أن يغيب عن النظر ما لدينا من الضعف الإنساني ، ومهما تكن دواعي الظفر فلا بد لتحقيقه من تصور دواعي الهزيمة»[1] .

ثم يذكر أهم تلك القواعد للحياة الأخلاقية التي يجب الاستمرار في مراعاتها وتطبيقها لتكون التربية الأخلاقية مستمرة ويقول :

«فالقاعدة الأولى للحياة الأخلاقية هي إذن المراقبة المستمرة لأنه إذا لم يحسن المرء فهم الأسباب التي يسعى لبولغها تعرض لخطر الزلل وإن كانت نيته تبقى دائماً طاهرة فإن الإنسان لا يهتدي إلى النور إلا بتمثل القانون في كل نزاهته بدون أن يمل ذلك أبداً»[2] .

أما القاعدة الثانية فخاصة باحتمال الفضائل يقول هنا «متى جمع المرء بين إحساس حقيقي بالواجب وتعلق معتدل بالأشياء الدنيوية وإيمان بالعناية الإلهية لا يتزعزع ، ونفس قوية قدر الكفاية لا يكاد يوجد من الشرور ما لا يستطيع التغلب عليه بسهولة ، فإن الشرور الذي تأتي من ناحية الرذيلة يمكن اتقاؤها بالتباعد عن

(١) مقدمة علم الأخلاق لأرسطو ص ٥٥- .
(٢) المرجع السابق ص ٥٦- .

الرذيلة ، وأن الفضيلة ولو لم تكن فوق إنسانيته تستطيع أن تتقي تلك الشرور جميعها»[1] .

فإذا توفرت تلك الشروط فيكون الاحتمال سهلاً سواء كان ذلك الاحتمال في سبيل تحمل المشقات أو في سبيل إنجاز الفضائل أو كان ذلك في سبيل اتقاء الرذائل ومقاومة النزوات من أجل ذلك ، إنه ألفها من الصغر ثم إنه يقوم بإيمان بقيمة الفضائل ومستعيناً بالله . في ضوء هذا يتراءى للمرء أنه لا بد من الاحتمال ولأن الإحتمال في هذا السبيل أسهل من السقوط في الرذيلة وضياع حياة الدنيا والآخرة معاً .

أما القاعدة الثالثة فهي المصاحبة الدائمة للأخيار ويجب ألا يرى فيه قيمة أخرى للناس غير قيمتهم الأخلاقية ويقيم صلته وصداقته على ذلك الأساس وعلى الأسس الأخلاقية ، ويقول هنا أيضاً : «ما دامت الفضيلة هي كل ما للإنسان فأي مقياس آخر نستطيع أن نقيس به تلك العلاقات ، وكما أننا بالفضيلة نقدر أنفسنا قدرها كذلك بالفضيلة نقدر الأغيار ، فلا ينبغي أن يستهوينا في أمر الثروة والملكات ولا الذكاء ولا العبقرية ، بل ولا بوادر الجاذبية التي نشعر بها نحوهم . فإن الجانب الأسمى الذي يربط بيننا وبينهم الأواصر الشديدة إنما هو قيمتهم الأخلاقية»[2] كما يقول في هذا الصدد «فيلزم تمييز القيمة الأخلاقية حتى لا يعتمد إلا عليها اعتماداً ثابتاً والعلم حق العلم بأنه لا صداقة أكيدة إلا بين أهل الخير اتباعاً للقاعدة القديمة»[3] .

وأنا أقول يجب مراعاة ذلك اتباعاً للقاعدة القديمة والحديثة لأن الفلاسفة والحكماء قديماً وحديثاً أقروا ذلك ودعوا إليه واعتبروا ذلك أيضاً من عوامل سعادة الإنسان في هذه الحياة[4] .

(١) المرجع السابق ص ١٥٦ .
(٢) المرجع السابق ص ١٦٢ .
(٣) المرجع السابق ص ١٦٤ .
(٤) السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية . أبو الحسن العامري ـ طبع في ألمانيا سنة ١٩٥٦ ص ٤٢٦ ـ ٤٥٤ .

لكن لاستمرار التربية الذاتية وأثر التربية النظامية لا بد من أن تكون البيئة الاجتماعية عاملاً مساعداً لذلك ، بل يجب تنظيمها بطريقة تصبح بها وسيلة من وسائل التربية الأخلاقية .

والآن بعد هذه الدراسة كلها لموضوع مراحل التربية الأخلاقية الإسلامية علينا أن نستخلص ونقرر أهم ما يجب تقريره من مبادئ التربية الأخلاقية الخاصة في هذا الموضوع وألخصها في النقاط التالية :

أولاً : إن نجاح التربية الأخلاقية ودوام أثرها متوقف على وعي الآباء والمربين والمتربين والمسؤولين عن تنظيم الحياة الاجتماعية ومؤسساتها وتقع على كاهلهم جميعاً مسؤولية نجاح هذه التربية أو إخفاقها .

ففيما يتعلق بالآباء فإن عليهم أن يراعوا القواعد الأساسية لهذه التربية وهي إنجاب ذرية صالحة تتوافر فيهم العوامل الطبيعية الوراثية الأخلاقية التي يأتي بها الطفل إلى الدنيا وفيه كافة الاستعدادت الأساسية لنموه أخلاقياً نمواً كاملاً وعليهم مراعاة مبادئ هذه التربية الخاصة بمرحلة الرضاعة والحضانة .

وأما فيما يتعلق بالمربين فعليهم الإدراك الحقيقي لذور مراعاة مراحل التربية الأخلاقية من حيث النمو الطبيعي العام للأطفال أو من حيث مراعاة ظهور القوى والاستعدادات الخاصة بموضوع التربية الأخلاقية ، ذلك أنه من المستحيل مثلاً أن ننتظر من الطفل وهو في الخامسة من عمره أن يعي المثل العليا الأخلاقية وأن يسلك سلوكاً أخلاقياً حباً في ذات الأخلاق وإدراكاً لقيمها الحقيقية ولو حاولنا إفهامه ذلك ولكن من الممكن أن ندفعه إلى السلوك الأخلاقي ونحببه إليه عن طريق استغلال اهتماماته الحسية والعاطفية في الأفعال الأخلاقية ، وذلك بوضع منافعه السارة في الفضائل ووضع آلامه في الرذائل باستمرار لتتكون عنده عاطفة حب الفضائل وعاطفة كره ومقت الرذائل من الصغر وهذا مهم جداً في المراحل الأولى من التربية الأخلاقية ومن الصعوبة بمكان تكوين ذلك في المراحل الأخيرة ، لأن عاطفة الحب

للأفعال لا تتكون عند المرء إلا إذا كانت خبراته فيها سارة على التوالي ، وكذلك بغض الأفعال والمبادئ لا تتكون عنده هذه العاطفة إلا إذا كانت خبراته إزاءها أليمة وغير سارة مدة طويلة كما يقرر ذلك علماء النفس والتربية[1] ومن الغريب أننا نجد هذه الحقيقة قد قررها المربون القدماء مثل أفلاطون وأرسطو حيث يقول هذا الأخير مثلاً «ما دام أن طلب اللذة هو الذي يدفعنا إلى الشر وخوف الألم هو الذي يمنعنا من فعل الخير ، من أجل ذلك ينبغي منذ الطفولة الأولى كما يقول بحق أفلاطون أن نوجه بحيث نضع مسراتنا وآلامنا في الأشياء التي ينبغي أن نضعها ، وفي هذا تنحصر التربية الطيبة وفوق ذلك فإن الفضائل لا تظهر البتة إلا بالأفعال والميول فلا عمل ولا ميل إلا نتيجة إما اللذة وإما الألم وهذا هو دليل جديد على أن الفضيلة تتعلق فقط بآلامنا ولذاتنا»[2] . وإذا كان الأمر كذلك فعلى المربين أن يتخذوا وسائل تكوين عاطفة حب الفضائل ووسائل عاطفة بغض الرذائل في تربية الصغار وأن تتناسب تلك الوسائل مع نمو اهتمامات الأطفال وتطور عواطفهم وظهور استعداداتهم المختلفة في كل مرحلة من مراحل النمو كما بينا ذلك خلال عرض هذه المراحل .

وأما فيما يقع على المتربين فإن عليهم بعد انتهاء التربية النظامية أن يواصلوا جهودهم في الاستمرار في التربية الذاتية لأن الإنسان بحاجة إلى هذه التربية ما دام في هذه الحياة وأن يسعى ليزداد وعياً بأسرار هذه التربية ليستطيع الترقي صعداً إلى الكمال الأخلاقي . .

وأخيراً ، ففيما يتعلق بالمسؤولين عن تنظيم شؤون الحياة الاجتماعية فإن عليهم أن يضعوا في الاعتبار التربية في هذا التنظيم للحفاظ على استمرار التربية النظامية ولمساعدة الأفراد على النمو الأخلاقي باستمرار .

ثانياً : إن على المربين أن يتموا في كل مرحلة من مراحل هذه التربية ما يجب

---

(١) الصحة النفسية . دكتور مصطفى فهمي ص ٢٨٢ .

(٢) علم الأخلاق لأرسطو ج ١ ص ٢٣٣ .

اتمامه فيها لأن ما فات وقته من الصعب تعويضه في ميدان التربية .

ثالثا : إن كل الأخلاقيات الخاصة بكل دافع من الدوافع أو الحاجات الطبيعية ينبغي أن تبدأ من بداية نمو تلك الدوافع والحاجات وأن يتناسب مستوى درجات تلقين تلك المبادئ مع مستوى ذلك النمو العام والخاص .

رابعاً : أن يكون الآباء والمربون وكل المحيطين بالطفل خير قدوة في الحياة الأخلاقية وخير مثال يحتذى به في تطبيق المبادئ الأخلاقية ، ذلك أن نقص القدوة ، كما يكون عاملاً مثبطاً لأثر التربية فإنه يضع المتربي في حالة تناقض ويجعله يشك في قيمة المبادئ التي تلقى عليه .

ولكن كيف يتم ذلك كله وما الوسائل التي يجب تطبيقها لتحقيق ذلك . هذا ما سوف نعالجه في الباب الآتي :

الباب الرابع

وسائل التربية الأخلاقية الإسلامية

ويتضمن الفصول الآتية:

الفصل الأول :
الوسائل البيئية الاجتماعية.

الفصل الثاني:
الوسائل التبصيرية العقلية.

الفصل الثالث:
الوسائل الوجدانية والعاطفية.

الفصل الرابع:
الوسائل الإرادية.



الفصل الأول

الوسائل البيئية الاجتماعية

أولاً : وجهة نظر المربين في الموضوع عموماً

قبل بيان تلك الوسائل أحب الإشارة إلى آراء المربين حول أهمية البدء بالتربية الأخلاقية وإصلاح الأفراد عن طريق البيئة الاجتماعية . فلقد اختلف المربون حول أولية البدء : هل نبدأ بإصلاح المجتمع من تربية الأفراد أو من تربية المجتمع أم منهما معاً؟

ففريق يرى الأول على أساس أن المجتمع عبارة عن الأفراد وتربية الأفراد يؤدي بالطبع إلى تربية المجتمع . ثم إن تربية الأفراد تبدأ من إصلاح الباطن وهو الأساس الهام في الإصلاح ، أما تربية الأفراد عن طريق إصلاح المؤسسات الاجتماعية فهو إصلاح ظاهري قد لا يمت إلى باطن الأفراد بشيء . فيقول جون ديوى هنا معبراً عن رأي هؤلاء «فإذا ما اعتبرنا النفس شيئاً مكتملاً قائماً بذاته أمكننا أن نقول بسهولة إن التغيرات الباطنية الأخلاقية وحدها هي الأمر الهام الأساسي في كل إصلاح عام ، أما التغيرات التي تجري في المؤسسات فتعتبر مجرد تغيرات خارجية ليس إلا ، . . ولكنها لن تستطيع أبداً أن تستحدث إصلاحات أخلاقية[1]» . ثم يقول مقوماً هذا الرأي ومتهكماً على أنصاره «وقال الناس لنعمل أولاً على استكمال أنفسنا من الباطن ولسوف تحدث التغيرات اللازمة في المجتمع من تلقاء نفسها فيما بعد في الوقت المناسب ، وهكذا فبينما القديسون (أو المصلحون) مشغولون بالتأمل فيما يجري في نفوسهم كان الخاطئون المستهترون يتولون تدبير شؤون العالم[2]» .

---

(١) تجديد في الفلسفة ص ٢١٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٣١٧ .

وفريق آخر من المربين المصلحين يرون البدء من المجتمع على أساس أن إصلاح المجتمع عن طريق مؤسساته مثل الأسرة والمدرسة والمساجد والسينما والراديو وما إلى ذلك ، هو الوسيلة الوحيدة لإصلاح الأفراد ، لأن المؤسسات الاجتماعية لها تأثير تربوي فعال ولأن الأفراد تابعون للمجتمع بما له من عادات وتقاليد ومعتقدات وأخلاقيات تحدد سلوك الفرد وتؤثر فيه[1] .

وفريق ثالث يرى الجمع بينهما على أساس أن هناك تفاعلاً بين الفرد والبيئة . يقول هنا أحد أنصار هذا الرأي «على أننا نتخذ موقفاً وسطاً بين هاتين النظريتين فنقول بأن السلوك هو تفاعل بين عناصر من الطبيعة الإنسانية وبين عناصر من البيئة الطبيعية أو الاجتماعية ، فهناك في الواقع قوى في داخل الإنسان كما أن هناك قوى في خارجه وإن الإصلاح يتمثل في ذلك التفاعل الذي يحافظ على بيئة تكون فيها الرغبة الإنسانية والاختيار الإنساني ذوي معنى [2]» ، «إن السلوك الإنساني هو حصيلة التفاعل بين الطبيعة الإنسانية والظروف البيئية المختلفة وعندئذ نربط بين المؤسسات وبين الأفراد ونربط بين الإصلاح الداخلي وإصلاح المؤسسات وهنا نجمع بين النظريتين فالتغير الذي يحدث في داخل الفرد هو وسيلة لتعديل الظروف البيئية عن طريق العمل ، والمؤسسات الاجتماعية لها تأثير تربوي مصلح إذا نظرنا إليها من حيث طراز الأفراد الذين نعمل على تكوينهم ويصبح بذلك الاهتمام بالإصلاح الأخلاقي في الفرد والاهتمام باصلاح المؤسسات الاجتماعية أمراً واحداً[3]» .

وهذا ما قد سبق أن أيده جون ديوي أيضاً حيث قال «إذا اعتبرنا مسألة النفس عملية نشيطة أدركنا أن الإصلاحات الاجتماعية هي الوسيلة الوحيدة لخلق شخصيات متغيرة جديدة ، وعندئذ ننظر إلى المؤسسات من حيث ما لها من تأثير مرب مصلح حقاً ، أي من حيث طراز الأفراد الذين نعمل على تكوينهم ، ويصبح

---

(١) مقدمة في فلسفة التربية . دكتور محمد لبيب النجيحي ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

(٢) الدكتور محمد لبيب النجيحي في كتابه مقدمة في فلسفة التربية ص ٣٥٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٦٠ .

الاهتمام بالإصلاح الأخلاقي في الفرد والاهتمام الاجتماعي بإصلاح الأحوال الاقتصادية والسياسية إصلاحاً موضوعياً أمراً واحداً[١]» .

وما من شك في أن تضافر الوسائل في آن واحد يكون أكثر تأثيراً وأسرع في الوصول إلى النتائج فإذا استطعنا أن نجمع بين الوسائل البيئية الاجتماعة والوسائل الفردية للتربية الأخلاقية كان ذلك أفضل في ميدان التربية الأخلاقية ولكن إذا اضطررنا إلى اختيار أحد الأمرين فاختيار الوسائل البيئية الاجتماعية كأساس أولي أمر لا بد منه ذلك أن تنشئة الطفل الصالح كتنشئة الزرع الصالح ، وكما أنه لا يمكن تنشئة الزرع الصالح قبل تهيئة الأرض واصلاحها كذلك لا يمكن أن ننشيء أطفالاً ونربيهم تربية أخلاقية صالحة في مجتمع فاسد . كما بينا ذلك عند الكلام عن مراحل التربية الأخلاقية الأولى ، وقد بينا قبل ذلك في الأسس العلمية ، أن الأمراض الخلقية كالأمراض البيولوجية تنتقل بالعدوى كذلك الأمراض الاجتماعية الأخلاقية تنتقل بالعدوى الاجتماعية وبالمحاكاة والتقليد إذ لا يمكن أن يبقى شخص سليماً إذا كان يعيش في بيئة اجتماعية موبوءة بالأمراض . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالأمراض الأخلاقية إذ لا يمكن وقاية الأطفال الذين نريد تربيتهم تربية أخلاقية من فساد المجتمع الذي يعيشون فيه ، وصدق الله العظيم إذ قال وما أصدق وأدق ما قال «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً[٢]» . وكما يقول بعض المربين «وطفل الطبيعة البسيط السليم يصبح فاسداً عن طريق المجتمع مع كل أنواع الخداع والعادات والتقاليد الخادعة[٣]» . ويؤكدون أثر المجتمع على حياة الطفل بل يؤمنون بأن طبيعة الطفل خيرة في الأصل «ولا يصبح شريراً إلا نتيجة التأثرات المعارضة المنحطة عن بيئته الاجتماعية[٤]» .

ثم إننا لا نستطيع تربية الطفل بعيداً عن بعض المؤسسات الاجتماعية كالأسرة

(١) تجديد في الفلسفة ص ٣١٧ .
(٢) سورة الأعراف ٥٨ .
(٣) فلسفة التربية فيليب فينكس ص ٨٦٨ .
(٤) المرجع السابق ص ٨٦٨ .

والمدرسة مثلاً ، لأن التربية الأخلاقية لا يمكن أن تتم في النهاية إلا بالتربية العلمية في مضمون اجتماعي ، وفي اطار مجتمع ما مهما كان صغيراً ولو كان في بيت واحد ، ثم إن المؤسسة الاجتماعية المربية لها تأثير خاص لا يمكن أن يعوض إذا أبعدنا الطفل عن المجتمع ، وربما يكون إبعاد الطفل عن المجتمع وتربيته تربية سلبية مفيداً كما يرى بعض أصحاب طريقة التربية الطبيعية السلبية لكي لا يفسده فساد المجتمع ولينمو نمواً طبيعياً خيراً من الداخل ، وربما يكون ذلك مفيداً بعض الوقت ولكنه ما دام الطفل يضطر في النهاية إلى الخروج إلى المجتمع فإن الفساد لا محالة يسري إليه .

ولهذا نجد هناك مربين ينقدون تلك الطريقة من الأساس من حيث إمكان تربية الطفل بعيداً عن المجتمع فيقول مثلاً فيليب فينكس ناقداً تلك الطريقة «ومثل هذه النظرية للتربية السلبية ليست صحيحة تماماً ، لأنه ثبت أن الشخصية لا تستطيع أن تنمو إلا داخل مضمون من العلاقات الإنسانية ، وصورة طفل الطبيعة النقي الذي لا يقبل حلول الوسط والذي نما دون تدخل إنساني هو خيال رومانتيكي لا يتفق مع الحقائق ، وإذا كان المجتمع ضرورياً للتربية فإن الطريقة الوحيدة لتقليل أثر الشرور الاجتماعية أن نؤكد أن المجتمع ـ وله أثره التربوي ـ خير ما أمكن ، ويتطلب هذا مجتمعا تربوياً مثالياً يعمل داخل نظام اجتماعي أوسع ، والمفروض أن هذه هي وظيفة المؤسسات الاجتماعية كالمنزل والمدرسة [١]» . ويؤكد ذلك أيضاً رونيه أوبير بقوله «فلا تربية بلا مجتمع [٢]» . ويقول أفلاطون كلاماً دقيقاً في هذا الصدد «فكما أن البذور وكل ما ينمو من نبات أو حيوان إذا فشل في ايجاد غذائه وجوه وتربته المناسبة له ، يفقد فضائله بدرجة تناسب شدته ، والشر يعارض الخير ، أكثر مما هو ليس خيراً ، فكذلك أسمى الطباع يصيبها الضرر إذا ما تعرضت لغذاء غير مناسب أكثر من الطباع المنحطة [٣]» .

هذا إلى أنه ولو قبلنا فرضاً إمكان التربية الأخلاقية في بيئة اجتماعية فاسدة لا

---

(١) فلسفة التربية فيليب فينكس ص ٦٨٩ .

(٢) التربية العامة رونيه أوبير ص ٦٧ .

(٣) الجمهورية أفلاطون ص ١٠٤ .

يمكن أن نطمئن إلى استمرار أثر هذه التربية ، لأن المغريات الفاسدة لا بد من أن تغلب على المتربي يوماً إذا كانت أقوى من إرادته ، ولا بد من أن تضعف هذه الإرادة يوماً بعد يوم بكثرة العراك والصراع مع قوى الشر المحاطة بها من كل جانب ثم مع ذلك إذا قلنا بإمكان استمرار أثر تلك التربية فإنه لا يمكن أن تؤدي إلى الغاية الأخلاقية في النهاية ، لأن من مقتضيات هذه الغاية أن يعي لا محالة في ضيق وصراع طويل مستمر بين قوته الذاتية الخيرة وبين القوى الشريرة الفاسدة السائدة في الوسط ، المليء بالتناقضات الإجتماعية وصراعاتها ، ثم يعيش في وسط فساد يأباه ضميره فكيف يسعد فيه ، ولهذا كله لا بد من اتخاذ الوسائل البيئية الاجتماعية الآتية للتربية الإخلاقية :

أولاً ـ تطهير البيئة الاجتماعية من جميع المظاهر المفسدة :

ذلك أن كل ظاهرة فاسدة تلقن درساً فاسداً بطريق مباشر أو غير مباشر وكل مؤسسة تظهر الفساد تعد مدرسة للفساد ، وإذا نظرنا الآن من هذه الزاوية الى بيئتنا الاجتماعية كم نرى فيها من مظاهر الفساد ومن مدارس تعلم الفساد وربما لا نستطيع أن نعدها وأن نحصيها . يقول هنا سير ريشارد لفنجستون «فإن كل شريط سينمائي وكل دورية وكل صحيفة من الصحف وكل صفحة إعلانات وكل رصيف من أرصفة السكك الحديدية معلم يحوي درساً فاسداً[(١)]» ، «ففي هذا العجيج الصاخب تختنق الأصوات الخافتة التي تهمس بتحكيم العقل ووزن القيم بميزانها الصحيح ، بل ويصم الإنسان أذنيه عن سماع نداء الذوق الفطن[(٢)]» .

ولهذا نجده يهاجم أصحاب تلك المظاهر المفسدة قائلاً «إن أصحاب الإعلانات لا تخزهم خلجة ضمير في تحقيق هدفهم ولا يشعرون باحترام للضمائر الرفيعة ولا يقيمون وزناً لوساوس الوجدان ولا يزعجهم ما لأعمالهم من آثار سيئة في الأخلاق ، إنهم يملكون سلعاً وليس لهم مقصد سوى بيعها[(٣)]» .

---

(١) التربية لعالم حائر ص ١٤٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤١ .
(٣) المرجع السابق .

كذلك نجد أولدكس هكسلي يهاجم المظاهر المفسدة في المؤسسات الاجتماعية مثل الإذاعة والسينما والموسيقا والإعلام وما إلى ذلك فيقول مثلاً «ما برحت إلى اليوم تظهر الصحف والكتب المتبذلة والقصص الوضيعة والأشرطة السينمائية المنحطة ، وهناك إلى جانب ذلك الراديو يذيع الموسيقا الوضيعة والدعاية الكاذبة ليل نهار وهذه أدوات كان يمكن أن تستغل لخير البشر ولكنها تستغل لنشر السخافات والأباطيل وهذه هي الثمار الخلقية والذهنية لنظامنا التعليمي لقد آن الآوان لأن نقوم بعمل نبدل له طبيعة الشجرة التي تحمل هذه الثمار[١]» .

ولهذا كله نجد الدكتور الكسيس كارل يدعو الحكومة إلى تطهير هذه المؤسسات من تلك المظاهرة المفسدة وأن تحاربها كما تحارب الأمراض وأسبابها لوقاية الناس من شرها لتكوين وسط تربوي ملائم فيقول معللاً ذلك «لأن الحكومة وحدها هي التي تملك السلطة الضرورية لمساعدة التربية على أداء رسالتها ، وتكييف الوسط الاجتماعي تبعاً لضرورات التربية يتطلب أولاً تطهيراً شاملاً : فلا بد من الرقابة الفعلية على السينما والراديو وإغلاق معظم المراقص والكباريهات والحانات ، وتعديل ثقافة المجلات لدورية ، التي يتغذى منها الأطفال والشبان في هذا العصر . لقد منعت الحكومة منذ زمن طويل أكل لحوم الحيوانات المصابة بالسل أو الحمى الفحمية أو الإلتهاب المخاطي ، فمن واجبها اليوم أن تتبع نفس الطريقة لحماية الشبان من السكر والزهري والأمراض الخلقية التي تنشرها الأفلام والراديو والصحف والمجلات وإذا ما تمت عملية التطهير هذه وجب القيام بتربية الوالدين والمربين[٢]» .
ومن الغريب أن أرسطو قديماً طلب تطهير المجتمع من كل ألوان الفساد حتى القول الفاحش فقال «بما أننا ننهى عن الأقوال الفاحشة فلننه كذلك عن التمثيل والصور المنافية للآداب» ثم يقول بعد ذلك «فليجنب الأطفال كل ما يحمل طابعاً سيئاً وعلى الخصوص أن يبعد عنهم كل ما يشعر بالرذيلة[٣]» .

(١) الوسائل والغايات ص ١٤٧ .
(٢) تأملات في سلوك الإنسان ص ٢٠٥ .
(٣) السياسة أرسطو ص ٢٨٥ .

وإذا نظرنا الآن إلى رأي الإسلام في ذلك وجدناه يدعو إلى تطهير المجتمع لا من المظاهر المفسدة فحسب بل من الأمور الباطنية المفسدة أيضاً . ويأمر كل فرد أن يترك بنفسه أولاً كل مظاهر الفساد ظاهرها وباطنها حتى لا يظهر الفساد ولا يرى ولا يشم رائحته فقال تعالى «وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون[1]» ، لأن الله حرم كل المفاسد والفواحش ما ظهر منها وما بطن «قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي[2]» ويقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية «فقوله ما ظهر نهي عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي «وما بطن» ما عقد عليه القلب من المخالفة[3]» وقال تعالى أيضاً «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن[4]» قال ابن عباس في تفسير الآية «كانوا يكرهون الزنى علانية ويفعلون ذلك سراً فنهاهم الله عنه علانية وسراً[5]» ويقول الإمام الفخر الرازي في تفسير الآية بعد ذكر قول ابن عباس «والأولى ألا يخصص هذا النهي بنوع معين بل يجري على عمومه في جميع الفواحش ظاهرها وباطنها ، لأن اللفظ عام والمعنى الموجب لهذا النهي وهو كونه فاحشة عام أيضاً ومع عموم اللفظ والمعنى يكون التخصيص على خلاف الدليل[6]» . بل أكثر من ذلك فإننا نجد الإسلام يضاعف ذنب وعذاب من يرتكب الإثم ظاهراً ويعلن عن فساد عمله فقال الرسول «كل أمتي معافى إلا المجاهرين وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا[7]» . وقال تعالى : «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً[8]» ، لأن الضرر الناتج عن إعلان الفساد ضعف الضرر الناتج عن اخفائه

(١) سورة الأنعام ١٢٠ . (٢) سورة الأعراف ٣٣ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ج٧ ص ١٣٣ .
(٤) سورة الأنعام ١٥١ .
(٥) تفسير الفخر الرازي ج١٤ ص ٢٣٣ .
(٦) تفسير الفخر الرازي ج١٤ ص ٢٣٣ .
(٧) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاريج ٢ ص ٦ .
(٨) سورة النساء ١٤٨ .

وخاصة إذا نظرنا إلى ذلك من الناحية التربوية . ثم بعد أن نهى الإسلام كل فرد عن الأفعال الفاسدة ظاهراً وباطناً ، وبعد أن نهى من وقع فيها عن إعلانها أو الجهر بها أمر كل فرد بإزالة ما يراه من مفاسد في المجتمع وتطهير البيئة عن كل فاحشة تقع عيناه عليها ، وجعله مسؤولاً عن ذلك بقدر استطاعته ونفوذ حدود سلطانه فقال الرسول «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان[1]» . ثم أمر بالتعاون من أجل إزالة المنكرات من المجتمع فقال الرسول «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب من قبل أن يموتوا[2]» . وليس الواجب مجرد التغيير ، بل لقد أمر بقتال المفسدين وتعذيبهم أشد ألوان العذاب فقال تعالى «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم[3]» .

وبناء على هذا كله نقرر بأنه يجب تطهير البيئة الاجتماعية ومؤسساتها من جميع المظاهر المفسدة كما يجب منع الأفلام التي تثير الشهوات وتجعل أبطالها من المجرمين الفساق مغلوبين على أمرهم وتجعل الفاسدين والفاسقين وكأنهم يعيشون في سعادة مع أنهم في واقع حياتهم وفي ضمائرهم يعيشون في عذاب دائم . وكذلك يجب أن يفعل بالكتب القصصية والأدبية التي تعطي بظاهرها وباطنها درساً في الفساد . ومن الغريب أن أفلاطون دعا إلى ذلك قديماً حيث يقول مثلاً «إن هذه القصص يجب أن تمنع وإلا ولدت في شبابنا نزعة كبيرة للفساد ، والشعراء وكتاب النثر سواء في الخطأ عندما يتحدثون عن الناس فيجعلون الكثير منهم سعداء ولو أنهم ظالمون[4]» .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الايمان ج ١ ص٦٩ .

(٢) التاج . كتاب الرقاق ج١٥ ص٢٢٤ .

(٣) سورة المائدة ٣٣ .

(٤) الجمهورية . مرجع سابق ص ٥٤ .

ثانيا :ـ اتخاذ جميع المؤسسات الاجتماعية وسائل تربوية :

وذلك بترشيد تلك المؤسسات ، فبدلاً من أن تلقن دروساً في الإفساد الأخلاقي فعلينا أن نجعلها تلقن في كل من مظاهرها دروساً في التربية الأخلاقية فالسينما مثلاً يمكن أن تكون وسيلة للتربية الأخلاقية إذا تخلت عن الصور العارية وجعلت أبطالها وشخصياتها شخصيات مثالية في العفة وفي الخير وفي التضحية من أجل المجتمع وفي اختراع المشروعات الخيرة التي يعم نفعها المجتمع وما إلى ذلك . وكذلك نستطيع أن نفعل مثل ذلك في المسرح وذلك بأن نجعل جانب الخير والفضيلة يغلب على الشر والرذيلة فيه ، ونجعل مصير الأبطال الأخيار والفضلاء خيراً باستمرار ويمكن جعل ذلك في أفلام التليفزيون وفي الكتب القصصية وتشجيع المؤلفين والكتاب والأدباء لينحوا ذلك النحو في كتاباتهم . وقد دعا إلى هذا أفلاطون من قبل بقوله «ينبغي أن نراقب الشعراء ونحملهم على أن يبرزوا في انتاجهم صور الخلق الخير . . وأن يمتد الإشراف إلى أساتذة جميع الحرف الأخرى بالمثل ونمنعهم من إبراز الوضاعة والانحلال والتسفل[1]» .

بعد ذلك يجب أن نعلم كل معلم ومدرس التربية الأخلاقية ونجعل التربية الأخلاقية مادة أساسية في ميدان التربية والتعليم عامة لتدريس الأخلاق ، إذ إن هناك فرقاً كبيراً بين تعليم الأخلاق كما هو الآن في المدارس وبين التربية الأخلاقية على النحو الذي حددناه في هذه الدراسة . وبذلك تصبح المدرسة مؤسسة من المؤسسات الإجتماعية للتربية الأخلاقية . بل يجب أن تكون المدرسة أهم مؤسسة للتربية الأخلاقية فلا تربي الأطفال التربية الأخلاقية فحسب بل تعلمهم أيضاً كيف يربون تلاميذهم وأبناءهم في المستقبل تربية أخلاقية . ومن الغريب أننا نعلم التلاميذ أشياء لو حذفت من المنهج الدراسي لما ترتب على ذلك أي شر في المستقبل ولا نعلم التربية الأخلاقية التي يترتب على حذفها معظم الشرور في الحاضر والمستقبل .

---

(١) المرجع السابق ٥٥ ـ ٥٦ .

وكذلك الأسرة أو البيت من أهم المؤسسات الاجتماعية للتربية الأخلاقية لكن لا يمكن أن يقوم البيت بوظيفته ولا يكون مدرسة للتربية الأخلاقية إذا جهل الآباء والأمهات تربية أولادهم بهذه التربية ، ولهذا يجب تعليم الآباء والأمهات التربية الأخلاقية أولاً لأنها من أهم وظائف الآباء . لكن كيف نستطيع أن نجعل كل الآباء والأمهات خبراء في التربية الأخلاقية لتكون الأسرة المدرسة الأولى لهذه التربية كما تكون المدرسة مدرسة ثانية فيها؟ إن ذلك لا يمكن إلا بعد تربية الآباء والمعلمين على حد سواء وتعليمهم أيضاً كيف يربون بهذه التربية ، وهذا ما يقرره الدكتور ألكسيس كارل أيضاً ويرى أنه يجب أن تبدأ التربية من تربية الآباء والمعلمين لأنهم لا يستطيعون أن يربوا إذا هم لم يتربوا قبل ذلك[1] .

إذن هناك طريقان لتعميم التربية الأخلاقية على كل أفراد المجتمع : الطريق الأول والأهم هو كما قلت تعميم التربية الأخلاقية في جميع الميادين التعليمية وجعل مادة تعليم التربية الأخلاقية إجبارية كتعليم العلوم الأخرى . الطريق الثاني اتخاذ المؤسسات الأخرى مثل الراديو والتليفزيون والمسرح وتأليف كتب مختلفة في ميدان التربية الأخلاقية وسيلة تربوية لتزويد الآباء بطرق التربية الأخلاقية ووسائلها في مختلف مراحل نمو الأطفال . وبذلك نستطيع أن نساعد أبناءنا لكي يتربوا على الفضيلة ، ويكونوا بارين ، بناء على قول الرسول «أعينوا أولادكم على البر[2]» ، وذلك بإكرامهم بإحسان تربيتهم ولهذا قال الرسول «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم[3]» عندئذ تصبح البيئة كلها عاملاً مساعداً على نشأتهم نشأة أخلاقية ذلك أنهم يجدون عندئذ في البيت تربية علمية صالحة من الآباء المربين وإذا ذهبوا إلى المدرسة يجدون التربية نفسها وإذا ذهبوا إلى السينما أو المسرح ، أو نظروا إلى التليفزيون يجدون درساً في التربية الأخلاقية بطريق مباشر أو غير مباشر وإذا قرءوا كتباً أدبية يجدون فيها أدباً وخلقاً في ألفاظها ومعانيها ولا يشاهدون في المجتمع إلا ما

(١) تأملات في سلوك الإنسان ص ٢٠٦ .

(٢) مجمع الزوائد كتاب الصلة والبر ـ باب إعانة الولد على البر ج٨ ص١٤٦ .

(٣) سنن ابن ماجه . كتاب الأدب ج٢ ص ١٢١١ .

هو جميل وخير وهذا ما يدعو إليه المربون المصلحون فيقول سير رتشارد لفنجستون مثلاً «وأي شيء ألزم للمجتمع من أن يعرف المواطن خير الأمور وأن يرغب فيها ، خير ما في الفن وهندسة البناء وخير ما في الأدب والفكر وخير ما في السياسة والصناعة والتجارة ، وخير المثل العليا المهنية وخير ما في خلق الناس . وفي الجماعة الكاملة الثقافة ، يستطيع القادة على الأقل ويستطيع العامة إلى حد كبير أن يبصروا هذه الرؤى النبيلة لا في أعمالهم الخاصة فحسب بل في ميادين أخرى كثيرة . وكل ما تستطيعه المدارس والجامعات هو أن تبدأ بهذا العمل . . . نعم إنه يجب البدء به في المدرسة ولكن من الضروري أن يواصل العمل فيه وأن يستكمل في مراحل العمر القادمة ، ويتطلب منا إعداد العدة لتعليم الكبار . . . وما أبعد التربية عن الصواب إذا لم تحاول بعث هذه الرؤى . . . ، ذلك أن أحوج ما نحتاج إليه من زاد في الحياة هو طائفة من المثل العليا الصالحة التي يضمن الظفر بها غاية في السهولة ، وهي أن نعيش في بيئة تحوي خير الأمور في العالم وأجمل الصور وأحسن المباني وأفضل النظم والمؤسسات الاجتماعية والسياسية وصفوة الناس[1]» .

وبذلك يستطيع الشباب أن يستقوا الخير من جميع منابعه في المنطقة السليمة التي يقطنونها ، فيأخذون بعيونهم وآذانهم كل ما ينبثق من الأعمال الشريفة كما يقول أفلاطون[2] .

إن هذه المؤسسات الاجتماعية تعد بمثابة جداول مياه تنصب كلها في بحيرة واحدة نشرب منها جميعاً . فكما يجب أن نراقبها من منبعها إلى مصبها لكي لا تحمل القاذورات والجراثيم أولاً ، وأي مواد أخرى ضارة بصحتنا وإلا كان في ذلك هلاكنا ، جميعاً فكذلك يجب مراقبة هذه المؤسسات لكيلا تحمل إلى المجتمع القاذورات الأخلاقية وجراثيمها ، وأن نعمل جميعاً ونحملها كرهاً على ألا تحمل إلى

---

(١) التربية لعالم حائر ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٢) الجمهورية . مرجع سابق ص ٥٦ .

بحيرة المجتمع إلا أخلاقاً خيرة يعم نفعها الجميع ، ويجب ألا نسمح إطلاقاً لهؤلاء الفاسدين بأن يريقوا في تلك الجداول العصارة القدرة لرغباتهم السيئة المتعفنة التي تلقح كل فرد في المجتمع بجميع الجراثيم الأخلاقية السيئة المعدية .

ولهذا كله فإننا عندما نمعن النظر مرة أخرى في الميادين الأخلاقية في نظر الإسلام وتوجيهاته الأخلاقية إلى الأفراد والجماعات نجد أنه كما منع ظهور أي سلوك سيء فاسد من أي فرد أو جماعة في الحياة الاجتماعية ، فإنه إلى جانب ذلك شجع على أن تكون كل الحركات والسكنات وكل الأفعال الفردية والجماعية مراعية الأخلاق الفاضلة وهادفة إلى غاية أخلاقية نبيلة وسامية نافعة ، وقد ضربنا لذلك أمثلة كثيرة وأتينا بأدلة ونصوص من الآيات والأحاديث عند تحديد مفهوم الأخلاق وغايتها وأهميتها ودورها في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية .

ثالثاً : تكوين جماعة لها سلطات إدارية تمنحها الحكومة للتربية الأخلاقية العامة في المجتمع :

ويكون أعضاء هذه الجماعة مزودين بالخبرات النظرية والعملية للتربية الأخلاقية ويعيشون داخل المجتمع باستمرار بدون التميز بزي خاص أو علامة لكي لا يعرفوا ولكي يعرف الناس أن هناك سلطة مربية تأخذ على يد المفسدين وأنه من الممكن أن يكون أي فرد عادي منهم . وتكون وظيفتهم الأساسية تربية المجتمع وذلك بإزالة كل المظاهر المفسدة الصادرة من الأفراد أو المؤسسات الاجتماعية في المجتمع ومراقبة البيئة العامة مراقبة أخلاقية فإذا ما رأوا أي تصرف خاطىء أو حركة غير أخلاقية من أي إنسان ينكرون عليه ويوجهونه توجيهاً تربوياً إلى ما هو صواب وأفضل دون عقاب أو تجريح في البداية بأبسط الطرق وأسهلها ، وإذا لم ينفع ذلك يؤخذ إلى مركز الإدارة التربوية ويمسك هناك إلى حين أن يقنع بأن ذلك التصرف خطأ وأن يعتذر عنه ويتعهد بعدم العودة إلى أمثاله مرة أخرى كما يوجه توجيهاً تربوياً إلى أن يختار دائماً أفضل السلوك وأمثله . وإلى أن يكون إنساناً خيراً في المجتمع . أن أي إنسان يمكن أن يتحول من سلوك سيء إلى سلوك خير إذا وجه توجيهاً تربوياً على

الأسس التربوية العلمية السليمة واستخدمت في ذلك الوسائل التربوية القيمة وذلك بأن يوجه إلى السلوك الأفضل بعد تحديده وبعد بيان الطريق إليه وبعد بيان وسائل تقوية الإرادة ، وبعد تغليب النزعة الخيرة في نفس الإنسان على النزعات والنزوات الغالبة عليه . ولو كان ذلك بعد حين ، ولأهمية وجود مثل هذه الجماعة المربية دعا الإسلام إلى تكوينها وسماهم بالمفلحين أي الذين يصلحون الناس بالتربية بإبعادهم عن المنكرات ودعوتهم ودفعهم إلى الخيرات فقال تعالى «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون[1]» . وأمرهم أن تكون دعوتهم إلى السبيل الخير بالحكمة والموعظة الحسنة وبطريقة الإقناع الحسنة فقال تعالى «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين[2]» . ويفضل أن يتعاون مع هؤلاء أفراد المجتمع عندما يقتضي الأمر لأن ذلك مسؤولية كل فرد أيضاً في حدود إمكاناته وسلطانه . وهنا نجد أرسطو يقول مثلاً «الأحسن هو أن يكون منهاج التربية عمومياً وأن يكون موضوعاً بحكمة وأن يقدر على تطبيقه ، وحيثما أهملت هذه العناية العامة وجب على كل فرد من أفراد المدينة أن يجعل واجبه الشخصي حمل أولاده وأصحابه على الفضيلة أو على الأقل يجب عليه أن يعتزم ذلك بعزيمة ثابتة . الوسيلة الحقيقية للاستعداد للقيام بهذا الواجب هي على حسب ما قلت آنفاً أن يقيم المرء نفسه مقام الشارع متى كانت العناية بالتربية عمومية وشركة بين الناس[3]» .

رابعاً : اتخاذ وسائل اجتماعية للتربية الأخلاقية غير المباشرة :

يختلف المربون في مدى قيمة وسائل التربية الأخلاقية غير المباشرة بالنسبة للوسائل المباشرة عندما يقسمون تلك الوسائل بوجه عام إلى قسمين الوسائل المباشرة ، والوسائل غير المباشرة . والمباشرة تلك التي تتم في الفصول الدراسية عن

---

(١) سورة آل عمران ١٠٤ .

(٢) سورة النحل ١٢٥ .

(٣) علم الأخلاق لأرسطو ج ٢ ص ٢٧٠ .

طريق تخصيص دروس خاصة في الأخلاق وفي المناهج الدراسية . أما الوسائل غير المباشرة فهي تلك التربية التي تتم عن طريق الخبرة وفي المواقف الاجتماعية بغرس الشعور بالمسؤولية والأمانة والصدق وما إلى ذلك عن طريق إسناد الوظائف إليه أو عن طريق الألعاب وما إلى ذلك . فمن المربين من يرجح التربية الأخلاقية بالوسائل غير المباشرة على أساس أن الوسائل المباشرة تعتمد على التلقين ولا تساعد النشء على فهم طبيعة السلوك الأخلاقي ، ثم إن المثل العليا التي تعتمد عادة على مجرد الألفاظ في بثها في النفوس قد تصبح عديمة القيمة وقد تتحول إلى مجرد سفسطة لأن هذه المثل تصبح عديمة المعنى إذا فصلت عن الخبرة ، ومن ناحية أخرى إن مجرد العلم بالأخلاق وبالفضيلة لا يستدعي تكون الأخلاق الطيبة ، لأنه يبقى نظرية في أذهانهم ، هذا إلى أنها قد تساعد على تحديد السلوك في بعض المواقف ولكنها لا تساعد على انتقال أثر التدريب ، ثم أنها تؤثر على العقل ولا تؤثر على الوجدان ، يضاف إلى ذلك أنها تحاول تعليم الأخلاق للنشء قبل الأوان دون إتاحة الظروف لفهم مغزى وقيم الأخلاق . وأخيراً إنها تتجاهل الفروق الفردية في التربية ، لهذا كله عدل كثير من المربين ـ وخاصة المربين الأمريكيين ـ عن الطريقة التلقينية ووسائلها إلى اتخاذ الوسائل المباشرة[1] . ومهما يكن من أمر الخلاف فإنه يرجع أساساً إلى الاختلاف في أفضلية طرق التربية العامة مثل الطريقة التلقينية والطريقة الفعالة والطريقة الطبيعية وقد تكلمنا عنها في فصل الطرق التربوية وبينت موقف التربية الإسلامية منها ، وبناء على ذلك فإني أرى أنه كما أن هناك وسائل غير مباشرة ضرورية فهناك وسائل مباشرة ضرورية أيضاً لاكتمال التربية الأخلاقية .

ولهذا سوف أعرض في هذا الباب أهم الوسائل المباشرة وغير المباشرة على حد سواء . ومن الوسائل الاجتماعية غير المباشرة التي يجدر بنا أن نعرضها في هذا الفصل للمناسبة اتخاذ الألعاب الاجتماعية المختلفة وسيلة للتربية الأخلاقية في مختلف المراحل التربوية .

---

(١) التربية وطرق التدريس ج٢ ص ٢٢٧ وما بعدها .

اختلف المربون في طبيعة اللعب وسبب ميل الإنسان والطفل بوجه خاص إليه ، ثم الغاية التي يجب اتخاذ الألعاب وسيلة إلى تحقيقها ، واختلفوا بناء على ذلك في قيمة الألعاب من الناحية التربوية إلى وجهات فنظر متعددة أذكر هنا أهمها ، وخاصة ما يتعلق منها بالتربية الإخلاقية .

فمنها : أنها وسيلة طبيعية لاستنفاد الطاقة الزائدة عن الحاجة[١] وخاصة الطاقات الشهوية فإذا لم تستنفد في أعمال نزيهة شريفة فلا بد من أن تؤدي أو تدفع الإنسان إلى الانحراف وخاصة إذا تذكرنا هنا قول «الشهير بوسيه» : «إن الشهوات كالنهر المتدفق من علو عسير ايقاف تياره بسد مجراه ولكن من الميسور تحويل مجراه[٢]» ولهذا يقول : ت . ب . نن «ان ميادين الألعاب تساعد على تكوين الشباب من الناحيتين الاجتماعية والخلقية[٣]» .

ومنها : أن اللعب وسيلة من وسائل الاستعلاء على الغرائز . واخلاء السبيل أمام النزعات المكبوتة المضادة للحياة الاجتماعية . وهذا رأى فرويد[٤] .

وعلى هذا يجب استخدام اللعب وسيلة للتنفيس عن الرغبات المكبوتة الضارة وتفريغ شحنات القسوة والرذيلة المكبوتة وعن طريق اللعب يستعلي على تلك الغرائز والميول الضارة ويكون لذلك قيمة خلقية . يقول هنا ستانلي هول «فالإنسان لا يمكن أن يتخلص نهائياً من ميوله للقسوة أو الرذيلة ولكنه عن طريق اللعب يتمكن من أن ينفس عن هذه النزعات الضارة وفي الوقت نفسه يمكنه عن طريق اللعب إعلاء هذه النزعات إلى أخرى ذات قيمة خلقية[٥]» .

ومنها أيضاً : أنها تعبير عما يود الأطفال أن يعملوه لو كانوا كباراً ، ولهذا نجدهم يمثلون في ألعابهم الأطباء والممرضات وأعمال الآباء والأمهات ومهنهم وغالباً يمثل

---

(١) مجلة التربية الحديثة مجلد ٩ ص ٢٥٩ ، التربية مادتها ومبادئها الأولية ص ٧٨ .

(٢) أصول الفلسفة محمد أمين واصف بيك ص ٣٥ .

(٣) التربية مادتها ومبادئها الأولية تأليف ت . ب . نن ص ٧٩ .

(٤) مجلة التربية الحديثة مجلد السنة التاسعة ص ٢٥٦ .

(٥) التربية مادتها ومبادئها الأولية ص ٨١ .

الأبناء أعمال الآباء والبنات أعمال الأمهات وهذا رأي كارل جروس[1] .

ومنها كذلك : أن الألعاب وسيلة للترفيه ولتعويض النشاط المستنزف يقول هنا ، ت . ب . نن عميد معهد التربية بجامعة لندن «لأن الدوافع التي تستمد منها النفس طاقتها قد استنزفت فالذي نراه هو أن هذه الحركات يمكن أن ننقذها من العناء إذا حولت إلى نوع آخر من أساليب التعبير عن النفس المتصلة بالاستعدادات الفطرية للكائن الحي ذي الطاقة المتجددة ونحن إذا قبلنا هذا التفسير وجدنا أنه يمتاز عن غيره بمميزات تمت بصلة إلى نظرية اعلاء الغرائز . هذا فضلاً عما له من أثر في نظريات التربية أعظم من أثره في اللعب[2]» .

ونجد الإمام الغزالي يؤيد هذه الفكرة أيضاً ويدعو المربين إلى إتاحة الفرصة للأطفال للعب للترفيه عن أنفسهم ولتجديد نشاطهم فيقول «وينبغي أن يؤذن له (للطفل) بعد الإنصراف من المكتب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب ، فلأن منع الصبي من اللعب وإرهاقه في التعليم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً[3]» .

وأخيراً منها أنها وسيلة للتدريب على المبادئ الأخلاقية مثل الشجاعة والنظام وقوة الاحتمال وروح الإنصاف وما إلى ذلك من المبادئ الأخلاقية وهذا رأي سيرتشارد لفنجستون[4]» .

والآن بالنظرة الفاحصة إلى تلك الآراء جميعاً نجد كل واحد منها له وجاهة وله قيمة إذا قومناه من خلال نظرتنا إلى سيكولوجية الفروق الفردية وإلى اختلاف الناس في الغاية من الألعاب بصفة عامة ، لهذا يجب أن نفيد منها جميعاً شريطة أن نجعل الألعاب بصفة عامة وسيلة للتربية عامة وللتربية الأخلاقية خاصة . وهذا

(١) الأخلاق والسلوك في الحياة . وليم مكدوجل ص ١٥٩ .

(٢) التربية مادتها ومبادئها الأولية ص ٨٣ .

(٣) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٧٣ .

(٤) التربية لعالم حائر ص ٦٦ .

يقتضي أن ننظمها تنظيماً تربوياً لتحقيق أغراض تربوية لا لمجرد شغل الشبان لإغراض تافهة أو بدون غرض ، لأن مثل هذا لا يؤدي إلى التربية الأخلاقية أو الإجتماعية وإنما يؤدي إلى تضييع أوقات الشباب في اللهو والعبث وتشجيعهم على حب اللعب لا لشيء إلاّ لأنه في ذاته لعب أو لأنه وسيلة لإظهار شخصية اللاعب بطلاً من أبطال الألعاب .

ولهذا يقول ت . ب . نن عند تقويم اللعب من الناحية التربوية «وليس من المبالغة أن نقول إننا إذا فهمنا طبيعة اللعب استطعنا أن نحل جميع المشكلات العملية في التربية . . . . وإننا لنخطىء أشد الخطأ إذا تصورنا أنه ليس للعب الترفيهي ولا للاستجمام أي هدف سوى التخلص من أعباء الحياة الواقعية ومتاعبها[١]» ثم يدعو إلى أن يكون للعب أهداف مثالية وإلى إلغاء الألعاب التي تتخذ لمجرد التسلية وملء الوقت أو شغله فيقول «على أن الذوق السليم ربما لا يتقبَّل بسهولة الهدف المثالي ولكي نثبت صحة ما نقول يجب أن نفصل بعض الشيء ما سبق أن تناولناه عن العلاقة بين اللعب والشغل وأن كلاً منهما يتضمن مظاهر لأنشطة متباينة ذات قيم متفاوتة فهناك نوع من اللعب ليس له أي هدف مطلقاً سوى مجرد التسلية وتمضية الوقت وهناك نوع آخر من اللعب يرمي إلى أهداف تربوية محدودة ونوع ثالث مليء بمهام الأمور وجديتها[٢]» .

وإذا نظرنا إلى رأي الإسلام في اتخاذ الألعاب وسيلة اجتماعية للتربية الأخلاقية وجدناه يشجع على ذلك ولكن بشروط وقيود تحقق الغاية التي تتخذ وسيلة لذلك ، ولذلك نجده يحرم الألعاب الضارة مثل القمار وما أشبه ذلك . فقال تعالى في القمار «إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون[٣]» ومثل الشطرنج والنرد لأنه يلهي الإنسان ويشغله عن أوقات يمكن أن يقضيها في أمور نافعة ولهذا قال الرسول «من لعب بالنرد شير فكأنما صبغ

(١) التربية مادتها ومبادئها الأولية ص ٩٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٥ .
(٣) سورة المائدة ٩٠ .

يده في لحم خنزير و دمه[1] »قماراً أو أي لعب آخر فهو يدخل في القمار أو الميسر ويأخذ حكمه فقد روى عن ابن عباس أنه قال «كل شيء فيه قمار من نرد وشطرنج فهو الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب[2]» . وقال الإمام الشاطبي في اللعب «إذا كان الفعل مكروهاً بالجزء كان ممنوعاً بالكل كاللعب بالشطرنج والنرد بغير مقامرة وسماع الغناء المكروه فإن مثل هذه الأشياء إذا وقعت على غير مداومة لم تقدح في العدالة فإن داوم عليها قدحت في عدالته وذلك دليل على المنع بناء على أصول الغزالي ، وقال محمد بن عبد الحكم في اللعب بالنرد والشطرنج إن كان يكثر منه حتى يشغله عن الجماعة لم تقبل شهادته وكذلك اللعب الذي يخرج به عن هيئة أهل المروءة والحلول بمواطن التهم لغير عذر وما أشبه ذلك[3]» .

بعد ذلك شجع الإسلام على الألعاب التي تتخذ وسيلة لتنمية الشعور بالأخوة والمساواة والمودة بين الأطفال لأنها عندئذ تنمي المبادئ الأخلاقية في نفوسهم من الصغر بطريق غير مباشر من ذلك جعل أبناء ذوي المناصب العالية يلعبون مع أبناء طبقة العوام ، لأنه ينمي الشعور بالمساواة الإنسانية ويحول دون تكون الشعور بالتمايز بين أبناء الشعب ، ولهذا نجد الرسول كان يشجع على ذلك بطريق مباشر إذ كان يترك أحفاده يلعبون مع صبيان أفراد الأمة . فقد روى عن أسامة بن زيد أنه «كان الرسول يأخذني على فخذه ويقعد الحسن بن علي على فخذه الآخر ثم يضمهما ويقول اللهم ارحمهما فإني أرحمهما[4]» .

وكان الرسول يدع حفيديه الحسن والحسين يلعبان مع أترابهما ، إذ قد روى «أنه استقبل الرسول أمام القوم وحسين مع غلمان يلعب فأراد رسول الله أن يأخذه فطفق الصبي هنا مرة وههنا مرة فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضاحكه

(١) صحيح مسلم ج٤ ص ١٧٧٠ كتاب الشعر (قال العلماء النردشير هو النرد المعروف شير حلو) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٥٢ (والكعاب فصوص النرد) .
(٣) الموافقات ج١ ص٨٠ .
(٤) فتح الباري بشرح البخاري ج١٣ ص ٤٠ كتاب الأدب .

حتى أخذه فوضع إحدى يديه على قفاء والأخرى تحت ذقنه فوضع فاه على فيه فقبله[1]» وخرج مرة فرأى الحسن يلعب مع الصبيان فحمله على عاتقه وقال «بأبي شبيه بالنبي لا شبيه بعلي وعليّ يضحك[2]» وكان الرسول يدعو الصبيان إلى اللعب فقال مرة لطفل حضر المسجد «يا غلام اذهب والعب[3]» لكن شريطة أن يكون الصبيان الذين يشتركون معهم في الألعاب من الأبرياء أو من الذين لم تتسرب إليهم الرذائل الأخلاقية كي لا تتسرب إليه الرذيلة أيضاً ، لأن الغاية من الألعاب هي النمو الاجتماعي الأخلاقي السليم . وقد بينا أثر الصحبة الطيبة في النمو الأخلاقي كما ينبغي أن نراقب الصبيان بحيث إذا صدر من أحدهم سلوك غير مؤدب أو كلمة فاحشة استطعنا أن ننبه إلى عدم العودة إلى ذلك السلوك وإلى تلك الكلمة مرة أخرى وأن نوجهه بالحسنى إلى سلوك أفضل وكلمة أحسن .

بعد هذا سمح الإسلام باتخاذ الألعاب وسيلة للتدريب على أداء الواجبات في حياة مستقبلة ، لأن من أهداف طبيعة ميول الأطفال إلى الواجبات في حياة مستقبلة ، تكوين استعداد للحياة المستقبلة فيقول هنا ت .ب . نن عميد معهد التربية في جامعة لندن «فحنين البنت الصغيرة لعروسها وعنايتها بها ليس إلا استعداداً لحياتها الجدية في المستقبل وينطبق هذا على الكثير من الألعاب التي يقوم بها الأطفال مهما اختلفت جنسياتهم وأزمانهم[4]» .

ونجد هذه الحقيقة مقررة في الإسلام قبل ذلك بقرون فقد روى عن أبي سلمة عن عائشة قالت : «قدم رسول الله من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها[5] ستر فهبت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة للعب فقال ما هذا يا عائشة؟ قالت بناتي فقال ما هذا الذي أرى وسطهن؟ قالت فرس ، قال وما هذا الذي عليه

(١) مسند الإمام أحمد ج٢ ص٤٨٣ .
(٢) فتح الباري بشرح البخاري كتاب المناقب ج٧ ص٣٧٥ .
(٣) مسند الإمام أحمد ج٤ ص ١٧٢ .
(٤) التربية مادتها ومبادئها الأولية ص ٨٠ .
(٥) السهوة الصفة تكون بين يدي البيت شبه الرف يوضع فيه الشيء .

قالت جناحان قال فرس له جناحان قالت أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة قال فضحك حتى رأيت نواجذه[1]»

وفي رواية البخاري روى عن عائشة أنها قالت «كنت ألعب بالبنات عند النبي صلى الله عليه وسلم وكان لي صواحب يلعبن معي فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل ينقمعن منه فيسر بهن إلي (أي يرسلهن إلي) يلعبن معي[2]» ، ويقول العسقلاني في شرح هذا الحديث «استدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور للبنات واللعب من أجل لعب البنات بهن وخص ذلك من عموم النهي عن اتخاذ الصور وبه جزم عياض ونقل عن الجمهور وإنهم أجازوا بيع اللعب للبنات لتدريبهن من صغرهن على أمر بيوتهن وأولادهن[3]» ، وهذا يتفق مع ما يقرره أيضاً أشلي مونتاجيو حين يقول «وغالباً يكون لعب الأطفال مبنياً على ما كانوا يودون أن يعملوه لو كانوا كباراً فتراهم يمثلون الأطباء والممرضات والآباء والأمهات وأصحاب الحوانيت والزبائن وتساعد هذه الرغبة في تحسين السلوك الخلقي للطفل وتدفعه إلى محاولة تقليد من حوله من الكبار . ولما كان الآباء هم نماذج للأبناء فإننا نرى الأولاد الصغار يقلدون آباءهم والبنات يؤدين في لعبهن واجبات البيت التي تؤديها أمهاتهن[4]» .

ومن وسائل التربية الاجتماعية غير المباشرة للتربية الأخلاقية تكوين صحبة صالحة أو عشراء ذوي أخلاق حميدة وطبائع طيبة : وتكوين صحبة ضرورة لكل إنسان لأن كل إنسان يتأثر بغيره تأثرا إيجابيا أو سلبياً بطريق غير مباشر ودون أن يشعر ، وتكون أهمية اتخاذ عشراء صالحين في المراحل الأولى من حياة الإنسان أكثر ضرورة وخاصة مرحلة البلوغ وما قبلها ، لأن التأثر في ذلك الوقت يكون أكثر وأسرع ولهذا بينا مدى ضرورة ذلك عندما تكلمنا عن مراحل التربية الأخلاقية

---

(١) سنن أبي داود كتاب الأدب ـ باب في اللعب بالبنات ج٤ ص ٣٨٩ .

(٢) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الأدب باب ٨١ ج١٠ص٥٢٦ .

(٣) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الأدب .ج١٠ص٥٢٦ .

(٤) كيف نساعد الأطفال على تنمية قيمهم الخلقية ص ٤٣ .

وذكرنا كثيراً من آراء المربين ورأى الأسلام أيضاً ونضيف هنا أمراً آخر وهو أن الآباء يجب أن يساعدوا أبناءهم في تكوين هذه الصحبة ، وأن يختاروا لهم أصدقاء من أبناء الأسر المشتهرة بالصلاح والأخلاق ، لأن الصداقة تقتضي التزاور والاختلاط مع باقي أفراد الأسرة ، ولهذا فالأمر يقتضي أن يكون الآباء صحبة صالحة بأنفسهم ولأنفسهم أولاً ثم يشجعوا أبناءهم بطريق غير مباشر باستمرار لا بطريق الأوامر على الإختيار الحسن لأن الأبناء لا يطيقون كثرة الأوامر . كما أن ذلك يؤدي إلى تقليل الثقة بالنفس لدى الأبناء ويوضح وليم مكدوجل طريقة تكوين العشراء الصالحين وطريقة إبعادهم عن عشراء السوء بقوله «فإذا تأكدنا أن أحد معارفنا وغد من الأوغاد أو أنه ارتكب فعلة تنبىء عن خبث طويته فإن من واجبنا ألا نبدي له أي مظهر من مظاهر الود والإخلاص أو ندعوه لزيارتنا أو نظهر أننا نود أن نوثق معرفتنا به . . . كما أننا إذا وجدنا سبباً وجيهاً يدعونا إلى الإعجاب بسلوك شخص آخر أو بأخلاقه وجب علينا أن نبذل جهدنا في أن نعبر بطريقة ما مهما كانت بسيطة عن امتناننا وإعجابنا[١]» وكلما كان العشراء من ذوي الأخلاق العالية في مختلف مراحل نموهم كان ذلك عاملاً مساعداً لتكون الأخلاق العالية في نفسه وكذلك استمرار معاشرته لمستويات الأخلاق المتلائمة دور كبير في النمو الأخلاقي وهذا ما يقرره أيضاً المربون المحدثون ويقولون «الطفل الصغير لا يعرف من المستويات الأخلاقية إلا ما يدركه في الدائرة المحدودة بأسرته ومعارفهم الذين يقضي أغلب أوقات حياته بينهم ، ولكن تقدمه في السن يمهد له الانضمام إلى جماعات أخرى لها مستويات خلقية خاصة بها وفي هذه الحالة يجد الطفل أنه لا بد وأن يوائم نفسه مع هذه المستويات الجديدة لكي يحتفظ بمكانه من هذه الجماعة . وكلما زاد التضارب بين المستوى الخلقي في العائلة أو المجتمع وبين هذه المستويات كثرت المشكلات التي يتعرض لها الطفل[٢]» وخاصة إذا تذكرنا هنا تقرير ابن سينا بأن الصبي يتأثر بأخلاق أصدقائه الصبيان أكثر حيث قال «فإن الصبي من الصبي ألقن

(١) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ١٥٩ .

(٢) علم النفس الحديث والتربية ج ١ ص ٤٢١ .

وهو عنه آخذ وبه آنس[1]» وكذلك إذا تذكرنا قول الإمام الغزالي «بأن الطبع يسرق من الطبع الشر والخير معاً[2]» . ويعبر وليم مكدوجل عن هذا التأثر بأخلاق غيره بعملية الامتصاص من غيره ولهذا ينصح بأنه يجب أن نضمن أن يكون المحتكون بالطفل المحيطون به من ذوي الأخلاق الحميدة[3] .

ومن تلك الوسائل الاجتماعية غير المباشرة تكوين قدوة صالحة أمام الطفل :

يجب أن يكون أمام المتربين شخصية أو شخصيات قدوة في الأخلاق في حياتهم العملية ويفضل أن تكون القدوة من المربين والآباء في الدرجة الأولى ، لأن عيون الأطفال معقودة عليهم ، وشخصياتهم ماثلة أمام ناظرهم في حالة المشاهدة وفي خيالهم في حالة غيابهم ثم أن تأثيرهم عن طريق القدوة تأثير نفسي عاطفي ، يحرك مشاعرهم ويدفعهم إلى السلوك أكثر من تأثير أوامرهم المباشرة يقرر ذلك أيضاً رونيه أوبير بقوله : «والمربي يصوغ أفكاره وأنظاره ـ إن صح التعبير ـ من العواطف التي يوحي بها نحوه وبذلك يؤثر في الكائن كله حتى ولو اقتصر على تقديم المعلومات له أو على الحد من بوادر سلوكه . فهو حامل القيم وما وراءها من مثل أعلى شديد العدوى ، لأن كلامه دعوة للطفل تهيب به أن يفكر هو ، ولأن سلوكه نداء له لينسج على غراره ، ولأن كلامه وسلوكه محملان بالعطف الذي يشعر به الطفل والذي يدركه الطفل عفواً ، إن التربية الخلقية انصهار وعيين أو أكثر على مستوى لا تدركه التربية الفكرية أو التربية العملية[4]» . ومن ثم تظهر هنا أهمية الإتفاق والتلاحم بين قول المربي وعمله وأما إذا قال ولم يعمل بقوله يضع ذلك الأطفال في موقف متناقض وفي صراع بين تقليد كلامه أو عمله ، ولهذا قال تعالى مستنكراً عمل أو مسلك من يقول ولا يعمل بقوله «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون[5]» .

---

(١) كتاب السياسة لابن سينا نشرة مجلة المشرق مجلد ٢٣ ص ١٠٧٤ .

(٢) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٦٠ .

(٣) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ٦٥ .

(٤) التربية العامة ص ٥٠٠ .

(٥) سورة الصف ٢ ـ ٣ .

ولهذا أيضا نجد مروبيل ينصح الآباء بأن يكونوا خير قدوة لابنائهم في الاخلاق «لأن الإنسان والطفل على الخصوص من أشد الحيوانات تقليدا وأكثرهم تأثرا بالقدوة»[1] .

ولهذا كله فإن الإسلام لم يكتف بدعوته إلى أن يكون الإنسان قدوة لغيره في الجمع بين القول والعمل بل أنذر الذين يأمرون بالمعروف ولا يفعلون بأنفسهم ما يأمرون به غيرهم «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب [2]» وبين الرسول كيف سيعذب هؤلاء يوم القيامة بقوله «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه[3]» . بل أكثر من هذا فيجب أن يكون خير قدوة في تمثيل المثل الأعلى الأخلاقي في حياته العملية خير تمثيل لأن المربي إذا لم يمثل أو لم يطبق على أقل تقدير المبادئ الأخلاقية في سلوكه فإنه يجعل المتربي يشك في قيمة هذه المبادئ كما أنه لا يستطيع أن يؤثر على المتربي بل إن المتربي يستهزئ به إذ هو لا يعمل بما يدعو إليه ، فإن المربي إذا أراد أن يربي بطريق غير مباشر يجب أن يطبق جميع المبادئ الأخلاقية خير تطبيق ليكون تطبيقه مثالاً للتطبيق أمام المتربي وبذلك تصبح شخصيته أمام المتربي شخصية أخلاقية مثالية .بعد ذلك يجب أن يضرب المربي أمثلة من الشخصيات المثالية التاريخية والواقعية في مختلف مناحي الحياة الأخلاقية لتكون تلك الشخصيات أمثلة حية وهداة يقتدي بهديهم وبحياتهم المثالية «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده[4]»

هذا إلى أنه يجب أن تكون شخصية الرسول خير قدوة أمام المربين والمتربين على حد سواء ، فيجب أن يكون خير قدوة للمربين في تمثيله الحياة الأخلاقية لدرجة أن

---

(١) التربية الأخلاقية . أبادير حكيم ص ٤٧ .

(٢) سورة البقرة ٤٤ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق ج٤ ص ٢٢٩١ .

(٤) سورة الأنعام ٩٠ .

المرء يستطيع أن يقرأ المبادئ الأخلاقية في حياته ، لهذا لما سئلت عائشة عن أخلاقه قالت «كان خلقه القرآن[1]» ، كما يجب أن يتخذه المربي قدوة في أساليب تربيته مربياً ومعلماً «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة[2]» . أما وجوب كون الرسول خير قدوة للمتربين فإن التربية الأخلاقية تقتضي وضع شخصية أخلاقية مثالية تكون نموذجاً حياً يقتدون بها ويهتدون بهديها ولن نجد هناك شخصية أخلاقية أكثر مثالية من شخصية الرسول ، ولهذا قال تعالى «وإن تطيعوه تهتدوا[3]» ، وذلك ليتخذوه قدوة دائمة في حياتهم كلها ، ولهذا دعا الله تعالى إلى اتخاذ شخصية الرسول قدوة حسنة للمربين والمتربين على حد سواء عندما قال «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة[4]» .

وأهمية القدوة تختلف من مرحلة إلى أخرى فأهميتها تزداد في المراحل الأولى من حياة الطفل ولهذا أبدى المربون الاهتمام الكبير بأن يكون المحيطون بالطفل خير قدوة للحياة الأخلاقية لأن الأطفال في هذه المرحلة يعتقدون أن ما يفعله الكبار أمامهم حق وخير وأن ما يتركونه باطل وشر ولهذا يرون وجوب اتباعهم في مسلكهم ومن ثم يحاولون محاكاتهم وتمثيل حياتهم بكل دقة ، ولتأثير قدوة المحيطين بهم وخاصة الآباء من الناحية العاطفية يصعب عليهم ترك ما كان عليه آباؤهم الذين نشأوا على محاكاتهم حتى ولو أدركوا بعد ذلك خطأ مسلك آبائهم ولهذا عاند الكفار دعوات الأنبياء بحجة أنهم لم يروا ذلك من آبائهم وقالوا «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون[5]» .

ولما للقدوة من هذه الأهمية البالغة لا يكفي أن يكون المربون والمحيطون بالمتربين

---

(١) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين ج١ ص ٥١٣ .

(٢) سورة الجمعة ٢

(٣) سورة النور ٥٤ .

(٤) سورة الأحزاب ٢١ .

(٥) سورة الزخرف ٢٣ .

قدوة حسنة في الأخلاق إذا أردنا أن تكون التربية الأخلاقية ناجحة فحسب ، بل لا بد من أن يكون المجتمع كله قدوة حسنة فلا يظهر فيه ما ينافي الأخلاق وكل ما يقع يجب أن يكون متفقاً مع المبادئ الأخلاقية ولهذا وجدنا اهتمام المربين باتخاذ البيئة الاجتماعية كلها قدوة لتكون وسيلة للتربية الأخلاقية . لكن ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كانت هناك القوانين والتشريعات التي تساعد على ذلك .

خامساً : وأخيرا : وضع تشريع تربوي عام للمجتمع :

ذلك أن القوانين تحمي التربية وتعززها وتقف وراء المربين وتساندهم كما تساند ضعفاء الإرادة إذا نزعتهم نزوة إلى الانحراف ، إذ إنهم إذا تذكروا أن هناك قانوناً يحول بينهم وبين الانحراف ويعاقبهم عليه فإن ذلك يقف أمام النزوات حداً ويساند الإرادة الإخلاقية ، فبدون سن القوانين المشجعة على الفضيلة والمانعة من الرذيلة والفساد والإغراءات المختلفة إلى الإنحراف والسقوط ـ بدون هذا كله يكون من الصعوبة بمكان تحقيق التربية العامة والإبقاء على أثر التربية النظامية ، وخاصة إذا كانت القوانين تتعارض مع القيم الأخلاقية وتحلل ما تحرمه هذه القيم فإن الأمر يؤدي عندئذ إلى صراع مع الوضع الاجتماعي كما يؤدي إلى أن يحيا المتربون في صراع بين النزعة الروحية إلى الفضيلة وبين الإغراءات الخارجية الداعية إلى الرذيلة ويزيد الطين بلة أن تكون هناك وسائل اعلامية تؤكد أو تظهر أن اللذائذ والسعادة في الرذيلة والآلام في الفضيلة ولهذا كله يجب أن يمنع هذا التشريع أولاً كل مظاهر الإغراء التي تثير الغرائز الشهوية أو تجذب الناس إلى الرذائل بإظهارها ممتعة ولذيذة للناس وكأن السعادة في الرذيلة لا في الفضائل . كما يقتضي هذا التشريع أن يعالج الإنسان الذي ظهر منه الانحراف أو بوادر الانحراف علاجاً تربوياً قبل عقابه في المعتقلات بل يجب أن تكون هناك مؤسسات أو دور للتربية يوضع فيها المنحرفون للتربية .

ولأهمية وضع التشريع التربوي نجد أفلاطون دعا إليه قديماً بشكل ضمني فقال «فينبغي أن نراقب الشعراء ونحملهم على أن يبرزوا في إنتاجهم صورة الخلق الخير

وإلا عاقبناهم بالحرمان من التأليف وأن يمتد الإشراف إلى أساتذة جميع الحرف الأخرى بالمثل . ونمنعهم من إبراز الوضاعة والإنحلال الخلقي والتسفل وكل ما تكون طبيعته شريرة ، وبالجملة نقضي على من لا يستطيع غير هذا بعدم العمل في مدينتنا حتى لا ينشأ حراسنا بين صور الرذيلة فتتجمع في نفوسهم الباطنة كتلة كبيرة من الشر دون أن يشعروا ، وبالعكس ينبغي أن نبحث عن فنانين من طراز آخر يستطيعون بقوة النبوغ أن يتتبعوا طبيعة الشيء العادل الوقور فيستطيع الشباب أن يستقوا الخير من جميع منابعه في المنطقة السليمة التي يقطنونها فيأخذ بعيونه وآذانه كل ما ينبثق من الأعمال الشريفة[1]» .

ومن بعد أفلاطون نجد أرسطو يدعو إلى وضع قانون تربوي بشكل صريح فيقول « لا يكفي أن يتلقى الناس في شبابهم تربية صالحة وتعليماً كما ينبغي بل نظراً إلى أنه من الواجب أن يستمروا على هذه العينة ويتخذوها عادة ثابتة متى بلغوا سن الفتوة فلا بد لنا للوصول إلى هذه النتيجة من مساعدة القوانين وعلى جملة من القول يلزم أن يكون القانون وراء الإنسان طول حياته ، لأن أكثر الناس يخضعون للضرورة أكثر من العقل وللعقوبات أكثر من الشرف ، من أجل ذلك قد أحسن صنعاً من افتكر أن الشراع يجب عليهم أن يجذبوا الناس إلى الفضيلة . . . وأن يطهروا المملكة نهائياً من أولئك الذين لا برء لهم من فساد الأخلاق[2]» .

ويرى أرسطو أن التشريع التربوي يساعد الشبان على التعود على الفضيلة والتعود يجعل السلوك الأخلاقي سهلاً على النفس فيقول في هذا الصدد «من الصعب أن يسلك الإنسان كما ينبغي نحو الفضيلة منذ طفولته إذا لم يكن سعد حظه بأن ربى تحت سلطان قوانين صالحة . . من أجل ذلك كان اللازم أن ننظم بالقانون تربية الأطفال وأعمالهم لأن هذه الأوامر لن تكون بعد شاقة عليهم متى صارت عادات[3]» .

---

(١) جمهورية أفلاطون ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(٢) علم الأخلاق لأرسطو ج٢ ص ٣٦٩ .

(٣) علم الأخلاق لأرسطو ج٢ ص ٣٦٨ .

ثانياً ـ وجهة نظر الاسلام في الموضوع:

لقد وضع الاسلام تشريعات تربوية لتربية الأجيال .

ولا أستطيع هنا تناول جميع أطراف ذلك التشريع وقد تعرضت خلال دراستي السابقة لبعض مبادئه عند المناسبات وسأتعرض لبعضها الآخر في دراستي المقبلة عند المناسبات أيضاً .

ولهذا أريد هنا أن أتعرض لأهم جوانبه النظرية من النواحي الآتية :

أولاً : قرر الإسلام إقامة مجتمع نظيف طاهر ولما كانت إقامة مثل هذا المجتمع تتطلب أولاً تكوين أفراد نظاف مطهرين من الأنجاس والرذائل الظاهرة والباطنة دعا إلى التربية العامة والشاملة فدعا أولاً الآباء إلى تربية أبنائهم وأن يربي كل رب أسرة كل من في أسرته من أبنائه ومن يعولهم من الأطفال والخدم . وقد شرحت ذلك بالتفصيل عندما تكلمت عن ضرورات التربية الأخلاقية في الفصل الأخير من الباب الأول .

بعد ذلك طالب الأسر أن تربي وتعلم بعضها بعضاً وطالب بشدة أن تذهب الأسرة المتعلمة وتعلم الأسر المجاورة الجاهلة ، كما طالب الأسر الجاهلة بأن تسعى وتذهب إلى الأسرة المتعلمة وتتعلم منها وأوعد الرسول بالعقاب من كان مقصراً في ذلك . كما شرحنا ذلك عند الكلام عن مسؤولية التربية .

ثانياً : قرر الإسلام منع أية ظاهرة فاسدة تظهر في المجتمع سواء كان ذلك الفساد ظاهراً أو باطناً ، لهذا منع تبرج النساء وإظهار مفاتنهن أو أية حركة اغرائية منهن ، كما منع صناعة الخمور وبيعها وشراءها . ومنع الذين يشيعون الفاحشة بين الناس ووضع لذلك تشريعات خاصة ثم أنذر الذين يفسدون في الأرض والذين يحبون أن يظهر الفساد ، بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة فقال تعالى «إن الذين يحبون أن

تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون[١]» .

ثالثاً : أعطى السلطة الاجتماعية الحق في قتال المفسدين ، أو ابعادهم عن المجتمع فقال تعالى «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم[٢]» .

رابعاً : أعطى الإسلام السلطة لكل فرد للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر في المجتمع ثم جعله مسؤولاً بقدر استطاعته وسلطته عما يجري في المجتمع وما يجب أن يجري . وقد حددت حدود هذه المسؤولية في الفصل الخاص بالمسؤولية ويكفي هنا أن نذكر قول الرسول «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان[٣]» .

خامساً : أمر الإسلام بالتعاون من أجل نشر الخير والفضيلة والتعاون من أجل إزالة الفساد وكل منكرات تظهر في المجتمع ، وذلك بجميع الوسائل اللازمة لذلك «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان[٤]» .

سادساً : وضع الإسلام مبدأ تشريع سد الذرائع . وبناء على ذلك حرم كل ما يؤدي إلى الفساد لأن الإسلام يريد القضاء على جميع مصادر الفساد في المجتمع ويريد أن يستأصل شأفة كل المفاسد والشرور من حياة الفرد والمجتمع ولا يمكن ذلك إلا بإقرار مبدأ تشريعي كمبدأ سد الذرائع لمنع جميع وسائل الفساد ، يقول هنا الإمام القرافي عندما يتكلم عن سد ذرائع الفساد في الشريعة «الذريعة الوسيلة للشيء ومعنى ذلك حسم مادة وسائل الفساد دفعاً له ، فمتى كان الفعل السالم عن المفسدة وسيلة إلى المفسدة منعناه عن ذلك الفعل[٥]» وذلك أن جميع موارد أحكام

(١) سورة النور ١٩ . (٢) سورة المائدة ٣٣ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب الإيمان ج ١ ص ٦٩ .

(٤) سورة المائدة ٣ .

(٥) شرح تنقيح الفصول في الأصول للقرافي ص ٤٤٨ .

الشريعة منحصرة أساساً في أمرين الأول المقاصد والأمر الثاني الوسائل : يقول هنا القرافي «موارد الأحكام على قسمين : مقاصد ، ووسائل وهي الطرق المفضية إليها ، وحكمها حكم ما أفضت إليه من تحريم أو تحليل غير أنها أخفض رتبة من المقاصد في حكمها فالوسيلة إلى أفضل المقاصد أفضل الوسائل وإلى أقبح المقاصد أقبح الوسائل وإلى ما هو متوسط متوسطة[1]» .

وبناء على ذلك قرر علماء الأصول «أن وسيلة المحرم محرمة كما أن وسيلة الواجب واجبة» يقول هنا القرافي «واعلم أن الذريعة كما يجب سدها يجب فتحها ويكره ويندب ويباح ، فإن الذريعة هي الوسيلة فكما أن وسيلة المحرم محرمة فوسيلة الواجب واجبة[2]» .

وبناء على ذلك أيضاً نقرر أن من حقنا وضع تشريع تربوي مفصل حسب الظروف التي نعيش فيها في ضوء المبادئ التربوية ونقر فيه أن كل وسيلة تحقق إصلاحاً للفرد أو المجتمع نقررها ، وكل وسيلة نجد فيها أو يترتب عليها مفاسد نمنعها .

ولأهمية هذا المبدأ التشريعي اعتبره بعض أئمة المذاهب مصدراً أساسياً من مصادر التشريع الإسلامي كالمالكية[3] ، والحنابلة[4] ، وإذا كان هناك من خلاف بين المذاهب الفقهية فإنما هو الخلاف في بعض التطبيقات الفرعية . يقول هنا القرافي «أما الذرائع فقد أجمعت الأمة على أنها ثلاثة أقسام أحدها معتبر اجماعاً كحفر الآبار في طريق المسلمين وإلقاء السم في أطعمتهم وسب الأصنام عند من يعلم حاله أنه يسب الله تعالى عندئذ ، وثانيهما ملغى اجماعاً كزراعة العنب فإنه لا يمنع خشية الخمر ، والشركة في سكنى الدار خشية الزنى . وثالثها مختلف فيه كبيوع الآجال

(١) المرجع السابق ص ٤٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، أصول التشريع الإسلامي ص ٣١٩ . على حب الله ، أصول الفقه . محمد زكريا البرديسي ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

(٤) في تاريخ التشريع الإسلامي . ابراهيم الدسوقي الشهاوي ص١٧٢

اعتبرناه نحن (المالكية) الذريعة فيها وخالفنا غيرنا ، فحاصل القضية أنا قلنا بسد الذرائع أكثر من غيرنا لا أنها خاصة بنا[1]» .

ولهذا نجد الإسلام منع كل ما يثير الفتنة أو يؤدي إلى الفساد عادة إن عاجلاً أو آجلاً وعلى هذا الأساس حرم على المرأة إظهار مفاتنها وحرم عليها كل الحركات المثيرة ولو كانت كلمة منها وأوجب عليهن الاحتشام كما بينا ذلك . ومنع أيضاً سفرها وحدها بدون محرم ، حيث يقول الرسول «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة ثلاث ليال إلا ومعها ذو محرم[2]» . وعلى هذا الأساس منع أيضاً اختلاء الرجل بامرأة أجنبية فقال الرسول «لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم[3]» وقال أيضاً في هذا الصدد «إياكم والدخول على النساء[4]» ، وقال «إذا خلوا بمحارم الله وانتهكوها[5]» ولعدم مراعاة مثل هذه الأمور فقد تفشى الفساد في المجتمع وبانتشار الفساد صعب على من يريد الالتزام بالفضيلة تضمن إرادته .

والآن نستخلص من هذا كله أن الإسلام يريد أن يجعل البيئة كلها قائدة في التربية الأخلاقية وخير قدوة لها . وذلك بعدم السماح أولاً : أن تظهر فيها أية ظاهرة مفسدة أو أي أمر من الأمور يمكن أن يؤدي إلى الفساد فيما بعد .

ثم بجعل جميع المؤسسات الاجتماعية وسائل موجهة إلى التربية الأخلاقية وذلك بجعلها تلقن درساً في الفضيلة وتوجيهاً إلى الالتزام بها . وأخيراً بوضع تشريع تربوي عام يكون موجهاً إلى ذلك ومسانداً له ودافعاً إليه وحامياً لآثار التربية النظامية .

(١) شرح تنقيح الفصول في الأصول ص ٤٤٨ .
(٢) صحيح مسلم ج٢ ص٩٧٥ .
(٣) فتح الباري بشرح البخاري كتاب النكاح ج ١١ ص٢٤٦ .
(٤) المرجع السابق ج ١١ ص ٢٤٤ .
(٥) سنن ابن ماجه . كتاب الزهد ج٢ ص١٤١٨ .

الفصل الثاني

الوسائل التبصيرية العقلية

بعد إعداد البيئة للتربية الأخلاقية بحيث تكون عاملاً موجهاً ودافعاً إلى الفضيلة من الخارج وقدوة صالحة للالتزام بالفضيلة يجب البحث عن وسائل أخرى تكون موجهاً داخلياً نحو الإلتزام بالفضائل وترك الرذائل ، لأننا نحتاج إلى توجيه خارجي وتوجيه داخلي أيضاً وإذا تضافر العنصران كان ذلك كفيلاً بتكوين إنسان له اتجاه سليم نحو الفضيلة يستطيع الدفاع عنها ويتحمس لها . وتكوين عنصر التوجيه الداخلي يكون بتكوين بصيرة أخلاقية عقلية وذلك بالكشف عن الحقائق الأخلاقية وقيمها المختلفة من الناحية العقلية والعلمية ، ثم بتحديد حدود الخير والشر ومعاييرهما معاً في نظر المتربي وذلك كله ليستطيع توجيه سلوكه بدقة نحو الخير عن علم وبصيرة وحكمة دقيقة وهذا هو موضوع هذا الفصل .

أولاً : وجهة نظر المربين في الموضوع

ولأهمية هذا الموضوع في ميدان التربية الأخلاقية تعرض له الفلاسفة والمربون من عدة جوانب ، منها من حيث اتخاذ العلوم والمعرفة عامة وسيلة أساسية للتبصير بالحقائق الأخلاقية وبيان قيمها المختلفة .

لأن تكوين البصيرة الأخلاقية أهم عنصر في التربية الأخلاقية أولاً بل إن كانط يرى أن تكوين البصيرة الأخلاقية هو هدف التربية الأخلاقية . يقول في هذا الصد «إن هذا التعليم (التعليم الأدبي) يراد به أن يكون للإنسان بصيرة يعرف بها ما هو حسن نافع وما هو قبيح ضار[1]» .

(١) كتاب التربية لكانط ص ٥٤ .

ولأهمية تلك الحقائق العلمية ودورها الفعال يدعو كانط إلى تعليم العلوم لأنها الوسيلة أولاً للتمييز بين الحق والباطل ، ذلك أن الحقائق أساس الخير ، والباطل أساس الشر ولهذا يقول يجب «تعليمه الحقائق في أنفسها لتتربى الأخلاق الفاضلة من ذات نفسه لا من الخارج[1] ، وذلك شريطة أن يكون التعليم بالفطنة والبصيرة[2] ، وشريطة أن يمرن الصبي في ضوء ذلك أن يعرف بنفسه الحسن والقبيح والخير والشر والنفع والضرر»[3] .

ولتكوين تلك البصيرة الأخلاقية ينصح جون ديوى أيضاً بتعليم الحقائق الأخلاقية عن طريق تعليم العلوم في المدرسة على أساس أن الحقائق الأخلاقية كحقائق العلوم الأخرى . ويقرر ذلك بقوله القيم «إن الشيء الوحيد الذي نحن بحاجة إليه هو أن نعترف بأن القوانين الأخلاقية واقعية بنفس المعنى الذي ترى به القوانين الأخرى واقعية أيضاً وأنها فطرية في حياة الجماعة وفي مجرى نظام الفرد . . . وسيجد المعلم الذي يعمل بهذا الإيمان فرصاً أخلاقية ، في كل فرع من فروع الدراسة وفي كل خطة من خطط التعليم وفي كل عارضة من عوارض الحياة المدرسية من أول يوم فيها إلى آخر يوم[4]» ، ثم إنه يعد الإدراك السليم أحد العوامل أو الملامح البارزة للأخلاق الحسنة[5] ، ثم يفصل جون ديوي وجهة نظره بطريقة تطبيعها في المدرسة وكيف يمكن استخلاص درس أخلاقي من كل علم ومن كل معرفة . فيقول في تدريس التاريخ مثلاً «وسوف تقاس القيمة الأخلاقية لتدريس التاريخ بمدى معالجته كمادة لتحليل العلاقات القائمة أعني بمقدار ما يقدمه من بصيرة لما يقوم عليه بناء المجتمع وطريقة عمله[6]» ، وفي دراسة الجغرافيا يمكن أن يعرض على أنه دراسة لميدان التفاعل الاجتماعي الأخلاقي بين الناس[7] .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤ . (٢) المرجع السابق ص ٢١ .
(٣) المرجع السابق ص ٦٨ .
(٤) المبادىء الأخلاقية في التربية . جون ديوي ص ٦١ .
(٥) المرجع السابق ص ١٩ .
(٦) المرجع السابق ص ٤٣ . (٧) المرجع السابق ص ٤١ .

وفيما يتعلق بدراسة اللغة والأدب يمكن أن تكون أداة أو وسيلة اجتماعية وكذلك الرياضيات فيقول «إن الرياضيات تؤدي أو لا تؤدي غرضها الأخلاقي الكامل طبقاً لطريقة عرضها أو عدم عرضها كأداة اجتماعية[١]» ، ويرى أنه لكي تكون الرياضيات والحساب وسيلة للنمو الأخلاقي يجب تعليمها على أساس أنها أداة لتقديم خدمات اجتماعية ولا يمكن تعليم أخلاقي في إطار هذه العلوم إذا أصبحت دراسة ذاتية وغاية في نفسها عندئذ تكون علاقتها بالتعليم الأخلاقي كتعليم السباحة بعيداً عن الماء[٢] .

وبناء على هذا كله يرى جون ديوي أنه يجب أن يكون تنظيم المدرسة أساساً لتحقيق الأهداف الأخلاقية في النهاية وعلى قدر تحقيق المدرسة تلك الأهداف الأخلاقية تعتبر المدرسة منظمة على أسس أخلاقية[٣] . وعلى ذلك يمكن تكوين بصيرة أخلاقية عن طريق تعليم العلوم من ناحيتين : الأولى بتبصير التلميذ بالحقائق الأخلاقية والثانية تبصيره بالإمكانيات والوسائل لتقديم الأعمال الأخلاقية . كما كان حريصاً على هذا الاتجاه سير رتشارد لفجستون وذهب إلى أنه يجب أن يكون هدف التربية عموماً تهذيب الأخلاق وتنميتها[٤] . ودعا إلى استخدام العلوم والمعارف لتهذيب الأخلاق عن طريق تبصير النشء بأفضل ما في العلوم وأحسن وأجمل وأسمى ما في الأشياء والحقائق ، لأنها ضرورية في رياضة الخلق ولأنه لا يمكن التربية على الخلق دون أن نعود المتربين على رؤية العظيم والجميل من الأمور[٥] . ثم إنه يرى وجوب الرياضة الأخلاقية عن طريق الرياضة الفكرية إلى جانب الرياضة الأخلاقية بالوسائل والأساليب الأخرى . والرياضة الفكرية لا تكون إلا بالعلوم[٦] . ثم يشير إلى نقطة مهمة أيضاً وهي أنه لا يكفي أن يفعل الإنسان

(١) المرجع السابق ص ٤٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٨ ـ ٤٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٦٦ .
(٥) المرجع السابق ص ٦٦ .
(٦) المرجع السابق ص ٦٦ .

الصالح والصواب بل يجب أن يعرف لماذا كان صالحاً ولماذا كان صواباً وهذه المعرفة جزء من الأخلاق[1] . ولا شك أن العلوم تلعب دوراً كبيراً في ذلك .

وكذلك نرى الإمام الغزالي يدعو إلى اتخاذ العلوم وسيلة للتربية الإخلاقية ويقول في هذا الصدد «لا يغني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ولكن المباشرة دون العلم غير الممكن[2]» . بل أكثر من هذا وذاك نرى جماعة اخوان الصفا يجعلون التربية الأخلاقية الغاية الأساسية من تعليم العلوم جميعاً حتى تعليم تلك العلوم التي يظن عادة أنها بعيدة الصلة عن هذا الميدان مثل الرياضيات والجغرافيا وعلم الفلك ، فيجعلون الغاية من تعليم الرياضايات هدى النفوس ، بالانتقال من المحسوسات إلى المعقولات والغاية من تعليم الجغرافيا تبصير بما نصبه الله من دلائل على قدرته والغاية من تعليم علم الفلك تشويق النفوس إلى الصعود إلى عالم الافلاك وكذلك العلوم الطبيعية التي تكشف عن تدرج الموجودات وآخرها رتبة الإنسان متصلة بأول مرتبة الملائكة إذن فإن الإنسان يمكن أن يتدرج في سلم الرقي الأخلاقي إلى أن يصبح خيراً كالملائكة تماماً . وبناء على ذلك يرتبون العلوم على أساس أن أشرفها أقربها إلى ترقية الإنسان وإصلاحه ثم ترقيته إلى الله ولهذا كانت معرفة االإلهيات والأخلاقيات أشرف المعارف[3] .

حقاً إننا بحاجة إلى مختلف العلوم لتكوين بصيرة أخلاقية خاصة عندما نحاول تبصير القيم الأخلاقية وخطورة الانحلال الأخلاقي ، وحاجتنا إلى كل علم تقدر بمدى ما يسعفنا في ذلك . فنحن بحاجة إلى علم النفس لتبصير المتربين بالأمراض النفسية الناشئة عن ارتكاب الجرائم الأخلاقية وما تؤدي إليه الأمراض النفسية تلك من أمراض جسمية ، ثم تبصيرهم بما يؤدي إليه الالتزام بالفضائل قلباً وقالباً من الطمأنينة النفسية والسرور النفسي ثم من السعادة . ونحن بحاجة أيضاً إلى الطب لتبصيرهم بالأمراض البيولوجية الخاصة بالانحلال الأخلاقي وترك المبادئ

---

(1) المرجع السابق ص ٥٤ .

(2) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٥٤ .

(3) الفلسفة الخلقية في الفكر الإسلامي - دكتور أحمد صبحي ص ٣٠٢ وما بعدها .

الأخلاقية ، وكيف أن هناك أمراضاً معدية تنتقل إلى الناس بسبب الانحلال الأخلاقي وما خطورة تلك الأمراض ، فلو صورنا أمام أعينهم كيف أن بعض تلك الأمراض مثل الزهري يعد من أبشع وأخطر الأمراض التي تهدد حياة الجيل وحياة الذرية وكيف تزداد نسبة انتشاره بنسبة ازدياد الاتصالات الجنسية غير الشرعية . ونحن بحاجة كذلك إلى علم الوراثة لنبصرهم كيف أن الأمراض الخلقية المختلفة تنتقل إلى الذرية وتهدد حياة النسل . ونحن بحاجة كذلك إلى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي لنبصرهم كيف أن الانحلال الخلقي يقلل الروابط الاجتماعية ويزيل من المجتمع الطمأنينة النفسية والاستقرار النفسي ويحول هذه الحياة إلى جحيم لا يطاق ، وكيف أن سيادة الأخلاق الفاضلة في المجتمع تبني مجتمعاً شامخ البنيان وتجعل حياته مستقرة آمنة مطمئنة ، ومن ثم تجعلها في سعادة دائمة ، ونحن بحاجة إلى التاريخ لنضرب مثلاً كيف أن الأمم انهارت بسبب انهيار أخلاقها وسادت بسمو أخلاقها وكيف ساد الخير وعم الأفراد عندما تعاون أفراد تلك الأمم على تحقيق الخيرات وعندما تعاونوا على إزالة المفسدات المهلكات .

ومنها تعليم الأخلاق كعلم مستقل من بين العلوم الأخرى :

تتشعب مذاهب التربية الأخلاقية عموماً إلى ثلاثة مذاهب في هذا الصدد فالأول : يرى أن الدين هو الوسيلة الوحيدة للتربية الأخلاقية والثاني : يرى أن تدريس علم الأخلاق كعلم مستقل هو الوسيلة المثلى والثالث : يرى الجمع بينهما[1] .

وكان سقراط ممن يرى أن معرفة الفضيلة والرذيلة على حقيقتهما وسيلة وحيدة للالتزام بالفضيلة وتجنب جميع ألوان الرذيلة ، لأنه كان يرى أن سبب الوقوع في الإثم أحد أمرين :

(١) التربية الأخلاقية . أبادير حكيم ص ١٥٨ .

أولهما : خطأ الموازنة بين اللذة الحاضرة وبين الآلام المستقبلة التي هي أكبر منها .

وثانيهما : ناشيء عن الجهل بطبائع الأشياء[1] ، وكان يرى أن الفضيلة ميسورة للذي يجمع بين عقل مستنير وشهوات هادئة[2] . وعلى هذا الأساس كان يرى تلميذه أفلاطون «أن الفضيلة هي العلم وأن معرفة الخير كافية لإتيانه[3]» .

ونجد بعد ذلك اسبينوزا يؤيد هذه الفكرة ويقول «وما الخطأ دائماً إلا نقص في المعرفة وخلط في الأفكار[4]» . وبصرف النظر عن تطرف وجهة النظر تلك في عموميتها في هذا المجال فإنه يجب علينا أن نعترف بأن المعرفة الحقيقية للحقائق الأخلاقية وسيلة من الوسائل الهامة للتربية الأخلاقية . وفي إطار هذه الفكرة أيد معظم المربين دور المعرفة الأخلاقية في النمو الأخلاقي ولا ننسى هنا ما قاله سير رتشرد لفنجستون في هذا الصدد من أن الإنسان إذا أراد أن يتقدم في أي مجال من مجالات العلم أو الفن يجب أن يحيط بذلك علماً أولاً ، وقال بالنص «لأن المعلم لا يستطيع أن يعلم شيئاً ما تعليماً وافياً ما لم يعرف ما يحوي هذا الشيء من عظمة وسمو وما لم يكن راغباً في أن يظهر تلك العظمة وهذا السمو لتلميذه وكيف تستطيع أن تعلم جراحاً ما لم تظهر له أحسن ما في فن الجراحة .إن معرفة أفضل الإشياء في كل لون من ألوان الدراسات ضروري للنجاح ، وإذا كان هذا واجباً في ميادين الطب والتعليم وما إلى ذلك أفليس هو واجباً في رياضة الخلق[5]» . كذلك أيد الإمام الغزالي هذه الفكرة بقوله «إذا عرف أن السعادة تنال بتزكية النفس وتكميلها وأن تكميلها باكتساب الفضائل كلها فلا بد من أن يعرف الفضائل جملة وتفصيلاً فأما الفضائل بجملتها فتنحصر في معنيين أحدهما جودة والتميز والآخر حسن الخلق[6]» وأخيراً يؤيد ابن مسكويه أيضاً دور عامل المعرفة في النمو

(١) مقدمة علم الأخلاق لأرسطو ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٤) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ١٨٢ .

(٥) التربية لعالم حائر ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٦) ميزان العمل ص ٦١ .

الأخلاقي ويرى أن كمال الإنسان يتم بقوتين : القوة العالمة والقوة العاملة لكن لا بد من توفر القوة العالمة أولاً ، لأنها الأساس فيقول في هذا الصدد «فإذن الكمال الأول منزلته منزلة الصورة والكمال الثاني العملي منزلته المادة وليس يتم أحدهما إلا بالآخر لأن العلم مبدأ والعمل تمام والمبدأ بلا تمام يكون ضائعاً والتمام بلا مبدأ يكون مستحيلاً»[1] .

وأهم ما في التبصير الأخلاقي هو تحديد صورة النظرية الأخلاقية بصورة عامة أو تحديد روح التفكير الأخلاقي الذي يسري في جميع المبادئ والأحكام الأخلاقية وعن طريق ذلك نستطيع أن نعرف حكم الأخلاق في المواقف المختلفة في الحياة العملية ، أما مجرد الإحاطة بالجزئيات دون العلم بالفلسفة الأخلاقية الأساسية التي تربط بين تلك الجزئيات فهذا لا يكون تبصيراً أخلاقياً وإنما يكون تلقيناً لأحكام أخلاقية فقط ولأهمية هذه المعرفة الكلية لأي علم من العلوم ينصح المربون بإحاطة المتربي أولاً بكليات العلوم فيقول ابن مسكوية مثلاً «إن الإنسان يصير إلى كماله ويصدر عنه فعله الخاص به إذا علم الموجودات كلها أي يعلم كلياتها وحدودها التي هي ذواتها لا أعراضها وخواصها التي يقرها بلا نهاية فإنك إذا علمت كليات الموجودات فقد علمت جزئياتها بنحو ما لأن الجزئيات لا تخرج عن كلياتها[2]» . وهذه الفكرة أيدها جماعة من المربين المحدثين وهي جماعة الجشطالت مثل كولر ، وكوفكا وغيرهما ممن وضعوا نظرية في التعليم تعرف بنظرية الجشطالت ، وهذه النظرية ترى أن الإنسان يتعلم عن طريق الإدراك الكلي أولاً للموضوع ثم ينتقل إلى الجزئيات عن طريق ادراكه العلاقات الرابطة بين الأجزاء الداخلة في الموضوع الواحد الكلي بناء على ذلك يجب تعليم العلوم عن طريق الاستبصار الكلي للموضوع وتبصير العلاقة الكلية التي تربط بين أجزاء الموضوع الواحد[3] . لكن لا ينبغي أن يكتفي بذلك بل لا بد بعد ذلك من تبصير بقيمة كل مبدأ من المبادئ

---

(١) تهذيب الأخلاق ص ٤١ .

(٢) المرجع السابق ص ٤١ .

(٣) علم النفس التربوي . دكتور أحمد زكي صالح ص ٧٤٠وما بعدها .

الأخلاقية تبصيراً علمياً فيبين قيمة كل مبدأ من زاوية العلوم المختلفة المتصلة به مثل زاوية علم النفس والطب وعلم الإجتماع كما يجب توضيح كل المضار المترتبة على ترك كل مبدأ من المبادى الأخلاقية .

ومنها اتخاذ التربية الفكرية وسيلة للبصيرة الأخلاقية :

والتربية الفكرية ليست هي تكديس المعلومات وتخزينها في العقل وإنما هي في الحقيقة تمرين العقل على الرؤية الصادقة ، وعلى التمييز بين الحق والباطل وأن يبقى الإنسان صادقاً مع تلك الرؤية وسائراً في ضوئها كما يرى البيرايم[1] ، والرؤية الصادقة للحقائق والقيم عنصر أساسي للتربية الإخلاقية ومن هنا يربط رونيه أوبير بين التربية الفكرية والتربية الأخلاقية قائلاً «إنه لا توجد تربية خلقية مستقلة عن التربية الفكرية[2]» ، لأن التربية الفكرية كما يعللها «تقدم عوناً مسبقاً في هذا المجال حين تفرش الفكر بمعلومات قوية البنيان ، وحين تزوده بطرائق التفكير المخصبة وحين تؤكد فيما بعد حسه النقدي بعيداً عن كل استباق وتعجل وحين تقوى ـ فوق هذا وقبل هذا ـ فضيلة الصدق الفكري وهي الشرط الأول لكل فضيلة[3]» ، ولأن التربية الفكرية تفتح فضيلة الصدق وترهف الأخلاق السامية وتوسعها[4] ، ولأهمية التربية الأخلاقية عنده يجعل التربية الفكرية ، بل التربية كلها في خدمة التربية الأخلاقية ويقول : «إن هدف التربية بلوغ السلوك الخلقي بواسطة ذلك الطريق الثلاثي طريق امتلاك الصحة الجسدية ، ونمو التفكير السديد وتنظيم جملة من العادات الصحيحة[5]» .

لكن ما السبيل إلى تكوين الرؤية الصادقة الصائبة؟

هناك عدة مبادئ تربوية لا بد من تطبيقها في هذا الصدد :

---

(١) التربية العامة ص ٤٢٠ رونيه أوبير .
(٢) المرجع السابق ص ٤٨٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٩٨ .
(٤) المرجع السابق ص ٤٩٩ ـ ٥٠١ .
(٥) المرجع السابق ص ٥٠١ .

المبـدأ الأول : مبدأ التدرج في إدراك الحقائق العليا ، ففيما يتعلق بالحقائق الأخلاقية ينبغي أن يتدرج المتربي في إدراك تلك الحقائق على حسب نمو مداركه وأن نقدم إليه تلك الحقائق بادئين بأبسطها ومتدرجين إلى أعلاها عندما تكتمل القوة الإدراكية ثم قيمها العليا بعد تجربتها مع نفسه ، وشبيه بهذا ما يراه رونيه أوبير[١] .

المبدأ الثاني : تقديم الحقائق العلمية إلى الطفل لا لذاتها بل من أجل أن يتفاعل بها ويمثلها في حياته ويستخدمها في الخير ، وهذا يحتاج إلى توضيحها على حسب مستواها وبيان قيمها في الحياة الإنسانية هذه الطريقة في تلقين المعارف هي التي تنمي الفكر وتجعل الطفل يتفاعل مع المعلومات في حياته العملية وهذا يؤيده أيضاً بعض رجال التربية[٢] .

المبدأ الثالث : الربط بين صدق الرؤية وصدق الإرادة وصدق السلوك ، أي تمرين الطفل على السلوك يتفق مع رؤيته الصادقة تجاه الأشياء وتجاه الناس وتجاه ذاته . وهناك علاقة وثيقة بين هذه الحقائق وبين التربية الأخلاقية يقرر هذه العلاقة ويوضحها رونيه أوبير بقوله «والصدق فضيلة الذكاء الكبرى ، كما أن الشجاعة فضيلة الإرادة الكبرى وإذا أردنا أن نمنح الطفل الطاقة الخلقية الأولية التي هي شرط كل ما عداها فعلينا أن نعنى بالصدق والشجاعة على أن بين الإثنين نسباً وقرباً ، لأن الصدق شجاعة الذكاء ولأن الشجاعة صدق الإرادة . . . وبدون هاتين الخصلتين لا يمكن أن يبنى شيء ذو شأن في المستويات العليا من العاطفة الخلقية . . . كذلك تفقد أدق ألوان العاطفة قيمتها بدون إرادة الشجاعة ، والكذب والجبن ـ وينضاف إليهما الخبث فيما بعد ـ هما المنبعان الأصيلان لكل فساد خلقي[٣]» .

المبدأ الرابع : التجربة وهي جعل المتربي يجرب بنفسه قيم الأفكار والحقائق المقدمة إليه ، ذلك أوقع في نفسه وأقرب في إدراك قيم تلك الحقائق والأفكار ،

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤١٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٠٤ .

يقول هنا الدكتور غوستاف لوبون «يجب أن تسند التربية الخلقية ككل تربية على التجربة ، . . . . . . ويكون كل تعليم خلقي ناقصاً ما جهل المعلم تعليم التلميذ بالتجربة أن يفرق بين الخير والشر وأن يدخل إلى ذهنه مبدأ الواجب ويجب أن تشتق عناصر تربية التلميذ الخلقية من تجربته الشخصية ، فالتجربة وحدها هي التي تربي الرجال[1]» . وكذلك نجد الفيلسوف سبنسر قد دعا إلى مثل هذه التجربة وبين أن طالب العلم الطبيعي يستطيع بعد طول التجربة أن يربط العلاقات الثابتة بين الأسباب والمسببات في الطبيعة وبين المبادئ الأخلاقية وجزائها الطبيعي[2]» .

ولهذا نقول إن التربية الفكرية تنمي الذكاء وتزود قدراته الإدراكية وذلك من عوامل النمو الخلقي ، إذ أن هناك علاقة بين مستوى الإدراك وبين السلوك الأخلاقي ، فإن أكثر الناس إدراكاً وبصيرة أكثرهم احتمالاً للاستقامة ، وإن أقلهم إدراكاً أكثرهم انحلالاً ، هذا ما انتهت إليه بعض الدراسات الإحصائية لتحديد العلاقة بين القدرات العقلية والنمو الخلقي[3] ، يقول هنا الأستاذ الدكتور إبراهيم وجيه محمود «ومن ثم نتبين علاقة انخفاض مستوى الذكاء بالمشاكل التي تؤدي بالفرد إلى الجنوح أو الجريمة فالفرد ضعيف العقل لا يستطيع أن يميز بين الطرق السوية وغير السوية في تحقيق أغراضه ، وقد ينقاد إلى الإغراء من غير تبصر ولا يدرك النتائج التي تترتب عليه . وينتهي به الأمر إلى الانحراف وارتكاب الجريمة ، وقد ثبتت صحة هذا الفرض نتيجة عدد من الأبحاث التي اتجهت إلى دراسة العلاقة بين لذكاء وبين الانحراف الخلقي[4] .

ومنها كذلك تبصيره بوسائل تحكيم العقل على السلوك الأخلاقي وتحكمه فيه :

إن أول وسيلة إلى ذلك هي الإقناع بأن الأخلاق بصفة عامة أمر منطقي خاضع للعقل ، ذلك أن أي سلوك إذا لم يعتمد على أساس من المنطق المقنع لن يجد الدافع

---

(١) روح التربية دكتور غوستاف لوبون ص ٣٣٨ .
(٢) التربية لسبنسر ص ٤٧ ـ ٤٨ .
(٣) الفروق الفردية في القدرات العقلية . الدكتور وجيه محمود ص ١٧٧ ـ ١٧٨ .
(٤) المرجع السابق . دكتور إبراهيم وجيه محمود ص ١٧٧ .

الذاتي الكافي والجذب النفسي الذي يشد الإنسان إلى النزوع إليه ومن ثم لن يكون صاحبه عازماً وحازماً في سيره على طريق الفضيلة .

لكن ذلك لا يمكن أن يتم بدون إيجاد سند عقلي قوي فلا يكفي أن يقتنع به المتربي بنفسه بل ينبغي أن يكون قادراً على الدفاع المنطقي عن الأخلاق إذا ما وجه نقد إلى أي مبدأ من مبادئها فهذا هو السبيل الوحيد للوقاية الدائمة من أن تتسرب إلى نفسه أية جرثومة شك عن طريق نشر الشكوك التي ينشرها سفهاء الناس في الأوساط الاجتماعية .إذن يجب إقناع المتربين أولاً بفلسفة الأخلاق عامة . على أنها تتفق مع ما يقرره العقل والمنطق ثم إقناعهم بمنطقية كل مبدأ من مبادئها وضرورته العقلية . ولهذا كان الفلاسفة المربون قديماً يقررون ذلك ويلحون على ضرورته ، نجد ذلك عند سقراط وأرسطو إذ يقول هذا الأخير مقرراً ذلك وذاكراً لما قاله سقراط من قبله «وعلى جملة من القول فإن سقراط كان يرى أن الفضائل كانت كلها أنواعاً مختلفة للعقل لأنها على رأيه جميعها أنواع من العلوم وأما نحن فإنا نرى إنه لا فضيلة إلا مقترنة بالعقل[1]» . بل كان أرسطو يرى أن الفضيلة «هي العادة المطابقة للعقل المستقيم[2]» .

ثم إن الإرشاد العقلي في ميدان التربية الأخلاقية أحد عاملين لاستمرار التربية الأخلاقية يقرر ذلك أرسطو بقوله «وإذا كان من اللازم بعد ذلك (أي اعتياد الفضيلة من الصغر) أن يستمر العيشة في الأعمال الممدوحة دون أن يأتي الشر أبداً لا طائعاً ولا مكرهاً فإن هذه النتائج الباهرة لا يمكن أن تحصل إلا إذا أكره الناس على ذلك إما بنوع من إرشاد العقل وإما بنوع من الأمر المنظم ذي القوة اللازمة لأن يطاع[3]» . ويرى أرسطو أن التبصير العقلي ضروري للتربية الأخلاقية من حيث إنه أحد العاملين الأساسين في الطبيعة الإنسانية لكسب الفضيلة يبين ذلك بقوله «بالنسبة لهذا الجزء من النفس الذي ليس حظه إلا الرأي المجرد توجد ملكتان متميزتان الكيس

(١) علم الأخلاق لأرسطو ج٢ ص١٥٢ .
(٢) المرجع السابق ج٢ ص١٥٢ .
(٣) المرجع السابق ج٢ ص ٣٧٠ .

والتدبير ، كذلك توجد اثنتان أيضاً بالنسبة للجزء الخلقي إحداهما التي هي الفضيلة الطبيعية والغريزية المحضة والأخرى التي هي الفضيلة بالمعنى الخاص وهذه الفضيلة العليا لا تحصل بدون التبصير والتدبير[1]» . وكذلك نجد وليم مكدوجل يقرر عنصر العقل في الأخلاق ويقول «العقل والخلق يتداخلان أحدهما في الآخر[2]» . لكن لا يكفي أن نقول إن الأخلاق خاضعة للمنطق والعقل السليم أو المستقيم على حد تعبير أرسطو إذ إن ذلك مجرد تلقين وليس تبصيراً لمعقوليتها . إذ لا بد من تبصير معقولية الأخلاق بصفة عامة ومعقولية كل مبدأ من مبادئها بالطريقة التبصيرية الكلية كما بينا عند جماعة الجشطالت وبالطريقة التبصيرية الجزئية كما يبينها وليم مكدوجل بقوله «لنتأمل ونقودهم (أي الأطفال) معنا إلى التأمل في الصفات الخلقية ولنفكر بصفاء وأمانة في هذه الصفات حتى نستطيع أن نقدر قيمها النسبية ونرتبها ترتيباً معقولاً ثم نحاول أن نحقق الصفات المستحسنة في نفوسنا وأن نشجع أولادنا على أن يحذوا حذونا[3]» . ويقول أيضاً في هذا الصدد «تتكون العواطف الأخلاقية كما رأينا في الشباب الباكر بتأثير الشخصيات التي نعجب بها ولكننا في نضجنا يمكننا بالتفكير أن نفعل شيئاً في سبيل تقويمها وتكييفها فعن طريق التفكير يستطيع كل منا أن يفلح في وضع الصفات الخلقية في أقرب مكانة جديرة بها في سلم القيم الأخلاقية وبذلك نقيم مثلنا الأعلى وهذا هو العمل الجوهري للعقل في عملية تكوين الخلق[4]» . بعد ذلك ينصح ليبنتز بأن ينظم الإنسان حياته على الأسس العقلية وفق معرفته لخصائص طبيعة نفسه ثم يستمر عليه بكل حزم وعزم[5] .

---

(١) المرجع السابق ج٢ص ١٥١ .

(٢) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ١٤١ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٦ .

(٤) المرجع السابق ص ١٣٦ .

(٥) آثار ليبنتز الفلسفية ج١ ص ١٤٨ وما بعدها (بالفرنساوي) .

Oeuvres philosophiques par leibniz, I/148 Paul Janet.

ثانيا: وسائل التربية الأخلاقية التبصيرية العقلية في نظر الإسلام

نحن نعرف أن الإسلام بنى دعوته أساساً على الحقائق «وبالحق أنزلناه وبالحق نزل[1]» ، «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق[2]» . لكن كان خلقه لغاية ولم يكن عبثاً «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين[3]» . ثم خلق الإنسان لغاية أيضاً «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون[4]» ثم رسم للإنسان طريقاً بناءً على تلك الحقائق ليسعى إلى غايته ، بعد ذلك ربط الإسلام جزاء الإنسان السلوكي بالحق «وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون[5]» وإذا كان الإنسان وكل شيء خلق بالحق فيجب أن يرتبط الإنسان بسلوكه بالحق ، وأن يتبع الحق بالعلم لا بالظن وإلا سيعاقب لخروجه على الحق «إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا[6]» .

وبناء على كل هذا رسم الإسلام طريقاً مستقيماً للناس ودعا المعلمين أن يبصروا الناس بتلك الحقائق ويدعوهم إليها بالبصيرة «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني[7]» . وقال تعالى «وأبصرهم فسوف يبصرون[8]» .وقد جاء الإسلام ببصائر مختلفة لتبصير الناس بالحقائق التي جاء بها «قد جاءكم بصائر من

(١) سورة الإسراء ١٠٥ .
(٢) سورة الحجر ٨٥ .
(٣) سورة الدخان ٣٨ .
(٤) سورة المؤمنون ١١٥ .
(٥) سورة الجاثية ٢٢ .
(٦) سورة النجم ٢٨ .
(٧) سورة يوسف ١٠٨ .
(٨) سورة الصافات ١٧٥ .

ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ[1]» . قال الإمام الفخر الرازي في معني الآية «والبصائر جمع بصيرة وكما أن البصر اسم للإدراك التام الكامل الحاصل بالعين التي في الرأس فالبصيرة اسم للإدراك التام الحاصل في القلب ، قال تعالى «بل الإنسان على نفسه بصيرة»[2] (أي له من نفسه معرفة كاملة) وأراد بقوله «قد جاءكم بصائر من ربكم» الآيات المتقدمة وهي نفسها ليست بصائر إلا أنها لقوتها وجلالتها توجب البصائر لمن عرفها ووقف على حقائقها فلما كانت هذه الآيات أسبابا لحصول البصائر سميت هذه الآيات أنفسها بالبصائر والمقصود من هذه الآية فيما يتعلق بالرسول هو الدعوة إلى الدين الحق وتبليغ الدلالة والبينات فيها ، والمراد من الإبصار هنا العلم ومن العمى الجهل ونظيره وفي قوله تعالى «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور[3]» . وقال تعالى أيضاً «هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون[4]» . ثم جعل الإسلام الإنسان بعد ذلك مسؤولاً عن السير السوي وفقاً لتلك البصيرة التي آتاها الله هدى للإنسان بعد جعله فيه قدرة لإدراك تلك الحقائق فقال تعالى «ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً[5]» .

ولكن ما الوسائل التبصيرية التي يرى الإسلام ضرورة استخدامها؟

أول هذه الوسائل التشجيع على التدبر والتفكر والتعقل في الأمور التي يراد تكوين بصيرة منها لأن التدبر والتفكر والتأمل في أمر ما تؤدي إلى الإحاطة به علماً ، ومعرفة ما فيه من حق أو باطل ، وما يترتب عليه من خير أو شر ولهذا قال تعالى «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب[6]» ، «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً[7]» ، شريطة أن

---

(١) سورة الأنعام ١٠٤ .

(٢) القيامة ١٤ .

(٣) تفسير الفخر الرازي ج١٣ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

(٤) سورة الأعراف ٢٠٣ .

(٥) سورة الإسراء ٣٦ .

(٦) سورة ص ٢٩ .

(٧) سورة النساء ٨٢ .

يكون التدبر بقلوب مفتحة لتبصر ما في الأمر من حقيقة لا تدس عليه آراء لا يحتملها لأغراض عاطفية مسبقة ولهذا قال تعالى «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها[1]» ، لأن إرادة التعقل ومحاولة اتخاذ مسلك حكيم إزاء موقف ما وسيلة لتبصر الحقائق المحيطة بذلك المسلك وذلك الموقف ، وهذه الإرادة هي التي تكون الاستعداد الأولي للتبصر بالرؤية الواضحة وعدم إرادة ذلك يعمي القلب من أن يبصر الحق كما أن عدم إرادة رؤية الشيء يعمي البصر من رؤيته أحياناً . بل قد تؤدي مثل تلك الإرادة إلى العمى الكلي وهذا مرض نفسي معروف في علم النفس لا يعالج مثل هذا العمى إلا عن طريق علم النفس ، ولهذا قال تعالى «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور[2]» لأن تعقل المبدإ أو المبادئ دافع إلى التمسك بها وعدم تعقلها سبب إهمالها وتركها ولهذا قال أهل النار «لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير[3]» ، وقال الرسول : «والله لقد سبق إلى جنات عدن أقوام ما كانوا أكثر الناس صلاة ولا صياماً ولا اعتماراً ، ولكنهم عقلوا عن الله مواعظه فوجلت قلوبهم واطمأنت إليه نفوسهم وخشعت منهم الجوارح ، ففاقوا الخليقة بطيب المنزلة وبحسن الدرجة عند الناس وعند الله في الآخرة[4]» .

والوسيلة الثانية : التبصير بما يترتب وما ترتب بالفعل على ارتكاب الخطايا والوقوع في الرذائل وضرب الأمثلة لذلك من وقائع الماضي والحاضر وقد دعا إلى ذلك الإسلام لأنها أدلة حية واقعية وقد تكون مشاهدة حسية كشاهد العين والبصر ، ولهذا قال تعالى «ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون[5]» ، وكيف أن هناك أمماً ضاعت وهلكت بسبب انغماسها في الرذائل والمفاسد «ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا . .

---

(١) سورة محمد ٢٤ .
(٢) سورة الحج ٤٦ .
(٣) سورة الملك ١٠ .
(٤) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج ١ ص ١٧٣ .
(٥) سورة القصص ٤٣ .

كذلك نجزي القوم المجرمين[1]» ، «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون[2]» ، «ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين[3]» ، «فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية[4]» ، «كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا[5]» ، «فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون[6]» ، وقد بينا آراء المربين كيف أنهم بدورهم ينصحون بتبصير المتربين بالحقائق التاريخية لهذا الغرض ، وينبغي أن نبين أنه ليس من الضروري أن يأتي عقاب مفاجىء من الله لكل أمة فاسدة بل إن الفساد نفسه سبب طبيعي يؤدي إلى فساد حياة الفرد والمجتمع كما أن المرض سبب لفساد الجسم بالطبيعة ، وقد فصلنا القول في ذلك عند بيان الجزاء الطبيعي .

الوسيلة الثالثة : التبصير بخيرية الخير وشرية الشر ولماذا كانت الفضيلة خيراً والرذيلة شراً ، لا يكفي إطلاقاً أن نقول إن الفضيلة خير وأن الرذيلة شر بل يجب أن نكشف مدى ما في كل مبدأ من المبادئ الأخلاقية الفاضلة من خيرات تعود على نفس الفرد والمجتمع ، ومن منافع وقيم مختلفة ، وكذلك لا بد من كشف مدى ما في كل رذيلة من شرور تعود على حياة الفرد والمجتمع حتى يتبين للمتربين لماذا كانت الفضيلة طيبة والرذيلة خبيثة ، ولهذا دعا الإسلام إلى هذا التبصير والتمييز فقال تعالى «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب[7]» وضرب لذلك مثلاً بالتميز بين خباثة الشح والبخل وبين طيبة البذل والكرم فقال تعالى «ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم

---

(١) سورة يونس ١٣ .

(٢) سورة النمل ٥٢ .

(٣) سورة الأنعام ٦ .

(٤) سورة الحاقة ٥ ـ ٦ .

(٥) سورة يونس ٣٣ .

(٦) سورة البقرة ٥٩ .

(٧) سورة آل عمران ١٧٩ .

بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة[1]» ، كما يجب توضيح كيف يكون البخل شراً على حياة الإنسان النفسية وكيف يكون البذل خيراً على حياة الإنسان النفسية بما يترتب على الحالة الأولى من ضيق وخوف ضياع المال وعما يترتب على الحالة الثانية من سرور وانشراح نفسي ثم تقويم ذلك من زاوية علم النفس عندئذ نقول لهم انظروا إلى مدى الفرق بين الطيب والخبيث وهل يستويان مثلاً «قل لا يستوي الخبيث والطيب . . . فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون[2]» ، ثم بعد ذلك نقول لهم ولذلك حرم الله الرذائل لخباثتها وأحل الفضائل وأمر بها لطيبتها وخيرها ونفعها «يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث[3]» .

وإذا بينا لهم كل المبادئ الأخلاقية على النحو السابق وبصرناهم بوضوح كيف أن الفضائل كلها تساعد على انعاش الحياة الإنسانية الظاهرة والباطنة المادية والنفسية وكيف أن الرذائل إهدار لهذه الحياة وإفساد لها فنقول لهم في النهاية إن الفضائل تحيي الإنسان وأما الرذائل فتميته ولهذا قال تعالى «استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم[4]» .

الوسيلة الرابعة : الكشف عن موازين يعرف بها كل عمل وكل سلوك ما إذا كان خيراً يدخل في الطيبات أو إذا كان شراً يدخل في الخبائث ، وسأذكر فيما يلي أهمها :

الميزان الأول : صلاحية المبدأ للعموم :

فإذا أردت أن تعلم أن الفعل أو المبدأ الذي تريد تطبيقه خيراً أو شراً افترض أن يطبقه كل فرد في المجتمع فإذا أدى تطبيقه إلى صلاح حياة المجتمع كان خيراً وإذا أدى

(١) سورة آل عمران ١٨٠ .
(٢) سورة المائدة ١٠٠ .
(٣) سورة الأعراف ١٥٧ .
(٤) سورة الأنفال ٢٤ .

إلى فساده كان شراً . ولنأخذ لذلك مثلاً على الانتحار فإذا انتحر كل الناس ضاعت الحياة الاجتماعية ولنأخذ لذلك مثلاً آخر القتل فلو أن كل واحد قتل الآخر لضاعت حياة الناس أيضاً ، أما إذا حافظ كل إنسان على حياته وعلى حياة غيره دامت الحياة واستمرت ، وهكذا كل فعل هدام ضار بالحياة النفسية أو المادية سواء كان ضرره ينتقص هذه الحياة أو يحول دون انتعاشها في حياة الفاعل ذاته أو حياة غيره ، ولهذا حرم الإسلام الحسد والبغضاء حتى إخافة الناس أو إثارة الشؤم فيما بينهم فقال الرسول «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه[1]» ، وقد أوردنا عند الحديث عن السعادة أحاديث كثيرة تدعو إلى التبشير لا التنفير وإلى التفاؤل لا التشاؤم لأن الحياة لا تزدهر في ظل التنفير والتشاؤم . كما دعا من جهة أخرى إلى كل الأعمال البناءة التي تبني ولا تهدم وتنعش الحياة ولا تنقص من حيويتها . .

وفي ضوء ذلك نرى الإسلام يشجع الناس على إنعاش الحياة المادية لدى الآخرين بكل وسيلة ممكنة ولو باعطاء قطعة سكر أو فاكهة حلوة ، وإنعاش الحياة النفسية أيضاً ولو ببسمة في وجه الآخرين أو بكلمة طيبة أو بشرى تدخل السرور في نفسه وتشرح قلبه كما ذكرنا أحاديث في ذلك عند الحديث عن السعادة ، كقول الرسول في الهبة مثلاً «لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة[2]» وقال أيضاً «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق[3]» ، وقال «اتقوا النار ولو بشق تمرة[4]» . فقال «لو دعيت إلى ذراع او سراع لأجبت»[5] .

الميزان الثاني :

إذا أراد الإنسان أن يعرف ما إذا كانت المعاملة التي يعامل بها الآخرين أخلاقية أو لا فليضع نفسه موضع الآخر فإذا رضي أن يعامله الآخر بالمعاملة نفسها فإنها

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب ج٤ ص٢٠٢٠ ، انظر كذلك هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج٢ ص ٢١٩ .
(٢) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الهبة جـ ٥ ص ١٩٧ .
(٣) صحيح مسلم كتاب البر والآداب ج٤ ص٢٠٢٦ .
(٤) كشف الخفاء ج١ ص ٤٢ . (٥) فتح البارى جـ ٥ ص ١٩٩ .

أخلاقية وإلا فلا ، ولهذا قال الرسول «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[1]» .

الميزان الثالث :

إذا اجتمع في أمر نفع وضرر ، وضرره أكثر من نفعه فهو يدخل في الخبائث أو الرذائل وإذا كان نفعه أكثر من ضرره فهو يدخل في الطيبات ونفع هذا الشيء أو ذاك لا يقاس بالنسبة للفرد فحسب وإنما بالنسبة إلى المجتمع عندما نفرض أن فعله أصبح سائداً في المجتمع . وعلى هذا الأساس حرم الإسلام الخمر وغيره من الخبائث فقال تعالى في حق الخمر «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما[2]» ومعلوم أن نفعه في التجارة بها ثم ما يثير من نشوة وقتية ، وضرره فيما يعود على الشاربين من الخسارة المالية وضياع العقل وما يترتب عليه من ارتكاب الجرائم ثم لما ينتج من الأمراض الكثيرة في المدمنين وما يؤثر ذلك من ضعف عقلي في ذريتهم[3] ، ثم ما يترتب على ذلك من ظهور الجرائم والفساد الاجتماعي الأخلاقي .

الميزان الرابع :

إذا ترتب على فعل شيء ضار أو فساد في حق الفاعل أو في حق غيره ولو في المستقبل البعيد فإنه يدخل في الخبائث ويكون الفعل محرماً ، ولذلك وضع الإسلام مبدأ سد الذرائع الذي تحدثنا عنه في الفصل الأول ، وإذا ترتب على ذلك الفعل منافع للناس ولو في المستقبل فهو يدخل في الأعمال الخيرة والطيبة .

الميزان الخامس : الميزان العقلي الأخلاقي :

وذلك أمر ضروري ، لأن المرء مهما استطاع أن يعرف عدد المبادئ الأخلاقية فإنه في كثير المواقف العملية لا يعرف حكم الأخلاق فيها وخاصة إذا وجد نفسه أمام

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان كتاب الإيمان ج ١ ص ١٠ .
(٢) سورة البقرة ٢١٩ .
(٣) تأملات في سلوك الإنسان ص ١٠٢ .

أحداث جديدة أو عندما يدخل في مجالات جديدة من الحياة العملية ، وقد يقف مبهوتاً أمام بعض الأحداث لا يعرف إذا كان الموقف الذي تتطلب منه الظروف أن يقف فيه موقفاً أخلاقياً أم لا؟ كل ذلك يستدعي تكوين نظرية أخلاقية عقلية يزن في ضوئها الأعمال ، ولهذا نجد الرسول كان يدرب أصحابه على الاستنباط العقلي للحكم على الأعمال والمواقف المختلفة ، والأمثلة لذلك كثيرة ، منها ما روي أن الرسول عندما أراد أن يرسل معاذ بن جبل قاضياً إلى اليمن قال له : «بماذا تقضي قال أقضي بما في كتاب الله ، قال فإن لم يكن في كتاب الله ، قال فبسنة رسول الله قال فإن لم يكن في سنة رسول الله ، قال أجتهد برأيي قال الرسول عندئذ الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله[1]» .

وروى أيضاً «أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي يوماً تستفسر عن جواز أداء الحج عن أمها فقالت يا رسول الله إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال نعم حجي عنها أرأيت لو كان عليها دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء[2]» ولهذا فقد جاءت آيات كثيرة توحي باستخدام النظر والعقل لقياس مواقف وأحكام بنظيراتها في الأحكام والمبادئ المنصوصة عليها . فمنها قوله تعالى «هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار[3]» . فقد ترك الله لنا في هذه الآية أن نستنبط عن طريق النظر أننا إذا فعلنا فعل اليهود فسوف يلحق بنا ما لحقهم بعينه لأن قوانين الله وسنته الخارجية في الكون ماضية بأسبابها فلكل شيء سبب وإذا وجد السبب وجد المسبب وهذا ما يؤكده قوله تعالى «وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً[4]» ، ولهذا

(١) التاج . كتاب الإجتهاد ج٣ ص ٦٦ .
(٢) التاج كتاب الحج ج٢ ص ١١٠ .
(٣) سورة الحشر ٢ .
(٤) سورة الكهف ٨٤ ـ ٨٥ .

كان الرسول يبصر بأسباب الأحكام الأخلاقية ليمكن معرفة الحكم الأخلاقي على القضايا الأخرى الشبيهة بالقضية المنصوص عليها ، من ذلك ما روى أن رجلاً سأله عن حكم مشروب عندهم فقال الرسول : أو مسكر هو فقال نعم قال الرسول عندئذ كل مسكر حرام ، وفي رواية كل مسكر خمر وكل خمر حرام[1] . وهكذا يجب أن يعمل المربي على تكوين بصيرة عقلية أخلاقية عند المتربي لمعرفة الأحكام الأخلاقية على مختلف الأفعال والأحداث .

الوسيلة الخامسة : التبصير بموضوعية علم الأخلاق وتكوين العلم اليقيني به وذلك بأن نغرس في نفس المتربي وفي عقله الباطن أن الأخلاق علم ولها قوانين كقوانين العلوم الأخرى من حيث ثباتها ومن حيث لزوم نتائجها بإثباتها بالأدلة على أن الأخلاق ليست عبارة عن عادات لا مانع من تغيرها وتعديلها بحسب الظروف والزمان كما هو في رأي بعض الناس السذج الذين لا يستطيعون التفريق بين العادات والقيم الأخلاقية ، ولقد أثبتنا علمية الأخلاق عندما تكلمنا عن آراء العلماء والفلاسفة في علمية الأخلاق ، ثم لا ينبغي أن نكتفي هنا بإقناع المتربي بعلمية الأخلاق والكشف عن قواعدها الأساسية بل فوق ذلك يجب اقناعه بأن علم الأخلاق فوق العلوم وإكليلها كما يقول ديكارت وكما بينا ذلك عند الكلام عن الأساس العلمي ، لأن الأخلاق من أهم العلوم ثم إن حقائقها وقيمها لا تنجلي ولا تتبين بوضوح إلا عن طريق كشفها بواسطة تلك العلوم المتصلة بها ، ويقول المربون أنه لتكوين اتجاه لدى المتربين نحو أي موضوع أو فكرة يجب تقديم ذلك الموضوع بصورة واضحة تبرز قيمته العلمية بعيداً عن العنصر الشخصي . ويقولون إنه كلما كانت هذه الحقائق بعيداً عن العنصر الشخصي والتحيز كان إكساب الاتجاه سريعاً وقوياً[2] .

وبعد ذلك لا بد من إتمام البناء الفكري الأخلاقي نظرياً في ذهن المتربي أولاً ،

---

(١) صحيح مسلم كتاب الأشربة ج٣ ص١٥٨٧ ـ ١٥٨٨ .

(٢) الأسس النفسية للتعليم الثانوي . دكتور أحمد زكي صالح ص ٤٠٩ .

وإحاطته علماً بجميع جوانب هذا العلم أو البناء الأخلاقي ولأهمية هذا البناء المتكامل فقد جاء الرسول لإتمام ما بدأ به الرسل السابقون ، ولهذا فقال الرسول «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[1]» .

الوسيلة السادسة : استخدام الحقائق العلمية لإبراز الحقائق الأخلاقية وقيمها المختلفة لأن العلم يضفي على الشخص أولاً الخشوع من الوقوع في الرذائل لإدراكه ما يترتب عليه من المضار ، والخشوع من الله لما يعرف من البراهين القاطعة ولهذا قال تعالى «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون[2]» وقال أيضاً «إنما يخشى الله من عباده العلماء[3]» كما قال « إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً يبكون ويزيدهم خشوعاً[4]» ، ذلك أنه لا يستوي إطلاقاً من يعرف مضار المحرمات وقيم الفضائل المختلفة ومن يجهلها ، فالذي يعرف مدى ضرر الخمر على صحة المرء من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية ومدى خطورة الأمراض التي تنتقل عن طريق ارتكاب الفاحشة في حياة المرء وحياة نسله وكذلك أضرار الرذائل بصفة عامة في نفس المرء والأمراض النفسية التي تترتب عليها ومدى أثر الانحلال الأخلاقي في انهيار الحياة الاجتماعية ، لا يمكن أن يتساوى موقفه مع موقف الجاهل بكل هذه الحقائق ، فمعرفة العلماء بالله تكون دافعاً إلى الفضائل ورادعاً عن الرذائل ومعرفتهم بحقائق المبادئ الأخلاقية ، تكون دافعة إلى التمسك بالفضائل وزاجراً عن الرذائل ، لأنها تكون لديهم دافعاً ورادعاً من جهتين ، أضعافاً مضاعفة مما لدى الجهال .

وبناء على ذلك كله يجب استخدام الحقائق العلمية المختلفة من الطب وعلم النفس وعلم الاجتماع في تبصير النشئ بالحقائق الأخلاقية وأنه من الصعوبة بمكان تبصير الحقائق الأخلاقية بوعي أخلاقي كما يجب بدون تعليم تلك العلوم أو بدون اتخاذها وسيلة للشرح والتوضيح والبيان .

---

(١) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) سورة العنكبوت ٤٣ .

(٣) سورة فاطر ٢٨ .

(٤) سورة الإسراء ١٠٧ـ١٠٩ .

ومن أجل ذلك كله فقد دعا الإسلام إلى تعلم العلوم ودعا المعلمين إلى بذل الجهود لتعليم الناس وقد بينا ذلك في الفصول السابقة وخاصة عند الكلام عن أثر التربية الأخلاقية في بناء الحضارة .

الوسيلة السابعة : تبصيره بطريقة تحكيم العقل وتحكمه في النوازع البشرية ، ذلك أن التبصير بالحقائق الإخلاقية وقيمها المختلفة لا يكفي ليستطيع المرء تحكيم العقل وتحكمه في سلوكه إذ لا بد لتحقيق ذلك من تطبيق المبادئ التربوية الآتية :

أولاً : إبعاد تخيل وتصور الملذات في الرذائل الأخلاقية إذ إن ذلك يؤثر في رؤية الحقائق الأخلاقية وقيمها المختلفة كما يؤثر في تهييج النزوات والشهوات التي قد تقوى بصورة تكون أشد دافعية من دافعية العقل ومن ثم يضطر إلى السير في طريق الرذيلة . ولهذا دعا الإسلام إلى تزكية النفس وتطهيرها من الرذائل أولا وهو المبدأ الأولي للتربية الأخلاقية ، وهذه التزكية لا يمكن أن تتم إلا بإشراك المربي والمتربي معاً في الجهد المطلوب لهذا التطهير والتزكية فعلى المتربي أن يضع في المبدأ تبصير المتربي وإقناعه بأن الرذائل ليست لذيذة وإبعادها أيضاً من تخيله وتصوره ولهذا فإننا نجد الإسلام يلقي على المربي مثل هذه التزكية «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم[1]» ، كما يقع على المتربي العمل لتزكية نفسه لأن فلاحه متوقف على تزكية نفسه «قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها[2]» . «ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير[3]» وعلى المربي أن يبصر المتربي بوسائل تطهير نفسه وتزكيتها من تلك الرذائل . ومن وسائل التطهر إرادة التطهير أولاً لأن من لا يريد تطهير نفسه لا يستطيع أحد أن يطهرها ذلك أنه لا يستطيع أحد أن يدخل في نفس الآخر فمن أراد الطهارة فإن الله يساعده على ذلك «فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين[4]» لأن الله إذا أحب ما يريده عبده ساعده على تنفيذ إرادته «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا[5]» .

---

(١) سورة البقرة ١٥١ . (٢) سورة الشمس ٩ ـ ١٠ .
(٣) سورة فاطر ١٨ . (٤) سورة التوبة ١٠٨ .
(٥) سورة العنكبوت ٦٩ .

ومن تلك الوسائل أيضاً الالتجاء إلى الله إذا وسوس إليه الشيطان بتلك التخيلات والتصورات اللذيذة في الرذائل وذلك بتذكر عقاب الله وغضبه والإستعاذة به من ذلك «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون[1]» .

ومن تلك الوسائل أيضاً إبعاد النظر عما يثير الشهوات ، ويصور له الملاذ في الرذائل ولهذا أمر الإسلام بغض البصر «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ،وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها[2]» .

ومن أهم هذه الوسائل : عدم التردد على مواقع الفسق والفجور وأماكن اللهو والعبث وما إلى ذلك لأن ذلك أدعى إلى التأثير على رسوخ تلك التخيلات والتصورات الملاذية في الفحشاء والمنكرات التي تجعل نور العقل ينطفئ ، فلا يستطيع رؤية الحقائق ، لأن تلك التخيلات تغشي العقل وتغطي نوره وبصيرته ومن ثم تجعله يرى السعادة في الرذيلة ولا يرى العواقب الوخيمة ثم يقع في الحرام ، ولهذا نجد الإسلام أمر بالابتعاد عن مثل هذه الأماكن وخاصة الذين وقعوا في الرذيلة من قبل لأن وقوعهم فيها يكون أسرع ولا يستطيعون أن يتملكوا إرادتهم ويستخدموا عقولهم تحت وطأة ضغط الشهوات على عقولهم وإرادتهم ، ولهذا قال تعالى «والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً[3]» .

ثانياً : تنمية القوى العاقلة لتكوين قوة مسيطرة على قوى الطبيعة الأخرى وهذا يكون بتزويده بالعلوم والحكم لأنها تجعل المرء يرى الأمور على حقيقتها رأي العين وكلما كانت رؤيته واضحة لقيم الأمور كان ذلك أدعى إلى الالتزام بها وترك الأمور الضارة في العاجل أو الآجل ، ولهذا أرسل الله تعالى رسوله مزكياً ومعلماً الحكمة

(١) سورة الأعراف ٢٠٠ ـ ٢٠١

(٢) سورة النور ٣٠ ـ ٣١ .

(٣) سورة النساء ٢٧ ـ ٢٨ .

أيضاً ، «يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة[1]» ، ودعا رسوله إلى أن يدعو إلى الإسلام بالحكمة «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة[2]» ، لأن الحكمة تجعل الإنسان يخضع لحكم العقل لا لحكم الهوى ، والخير في الخضوع للعقل لا للهوى ، ولهذا قال تعالى «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً[3]» ، وذلك لأن الحكمة هي العمل بمقتضى العلوم والمنطق والعلم أو تنظيم السلوك وفقاً لذلك فمن لم يؤت الحكمة مع العقل والعلم فقد لا يجد الخير في حياته من ذلك ، وهنا يقول أرسطو «الحكمة علم وعقل فإنه ليس ينبغي للحكيم أن يعلم ما يعلم من المبادئ فقط لكن ينبغي أن يصدق بما في المبادئ[4]» .

ثالثا : على المربي أن يبصر المتربي بكل الوسائل التي تساعد على تحكيم القوى العاقلة في القوى الطبيعية الأخرى وهناك كثير من تلك الوسائل ينصح بها المربون المسلمون فمن تلك الوسائل :

الوسيلة التي يمكن بها تحكم القوى العاقلة في القوى الحيوانية أو الشهوانية والنوازع الأخرى ، والسبيل إلى ذلك عند الغزالي هو التمييز أولاً بين إشارة العقل وإشارة الهوى والوسيلة لهذا التمييز هي المعرفة بالعلوم ، يقول الغزالي هنا «فيما تميز بين إشارة العقل وإشارة الهوى ، فاعلم أن هذا مطلب عويص ولا خلاص عنه إلا بالعلوم الحقيقية[5]» ، ثم يشير بعد ذلك إلى بعض علامات إشارة العقل وإشارة الهوى التي ينبغي أن يلتجئ إليها في حالات التحير ويقول «ولكن القدر الذي ينبغي أن يفزع إليه عند التحير أن يعلم أن العقل في أكثر الأمور يشير بالإصلاح للعواقب وإن كان فيه كلفة ومشقة في الحال ، والهوى يشير بالاستراحة وترك

---

(١) سورة الجمعة ٢ .

(٢) سورة النحل ١٢٥ .

(٣) سورة البقرة ٢٦٩ .

(٤) السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية تأليف أبو الحسن بن أبي ذر العامري النيسابوري ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٥) ميزان العمل ص ٥٤ .

التكلف، فمهما عرض عليك أمران ولم تدر أيهما أصوب فعليك بما تكره لا بما تهواه فأكثر الخلق في الكراهة»[1]، ثم يستدل على ذلك بقول الرسول «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات[2]»، وبقوله تعالى «فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً[3]»، «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم[4]».

ومن وسائل تغليب العقل على الهوى عند الغزالي استخدام الفكر ووضعه في خدمة العقل لا في خدمة الهوى، لأنه إذا استخدم العقل غلب به على الهوى وإذا استخدم الهوى غلب به على العقل وأيهما سبق باستخدامه تغلب به على الآخر يقول الغزالي هنا «والفكرة مترددة بين الشهوة والعقل، العقل فوقها والشهوة تحتها فمتى مالت الفكرة نحو العقل ارتفعت وشرفت وولدت المحاسن وإذا مالت إلى الشهوة تسفلت إلى أسفل السافلين وولدت القبائح[5]».

ومن تلك الوسائل أيضاً تلك التي ينصح باستخدامها ابن مسكويه اتخاذ القوى الغضبية كسلاح لدى العقل للتغلب على القوى البهيمية والتحكم فيها وبذلك يؤيد أفلاطون الذي سبقه إلى ذلك فيقول ابن مسكوية في هذا الصدد «وأما النفس الناطقة أعني العاقلة فهي كما قال أفلاطون بهذه الألفاظ (فإن آثرت الفعل الجميل في وقت وجاذبتك القوى الأخرى إلى اللذة وإلى خلاف ما آثرت فاستعن بقوة الغضب التي تثير وتهيج بالأنفة والحمية واقهر بها النفس البهيمية[6]» وينصح بعدم قبول أو اعتبار العقل مهزوماً إذا انهزم مرة أو مرتين أمام القوى البهيمية بل ينبغي مراودته مراراً حتى تكون الغلبة للعقل فيقول «فإن غلبك مع ذلك ثم ندمت وأنفت فأنت في طريق الصلاح فتمم عزيمتك، واحذر أن تعاودك بالطمع فيك والغلبة لك،

(١) المرجع السابق ص ٥٤ .
(٢) صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها ج٤ ص٢١٧٤ .
(٣) سورة النساء ١٩ .
(٤) سورة البقرة ٢١٦ .
(٥) ميزان العمل ص ٥٦ .
(٦) تهذيب الأخلاق ص ٥٦ .

فإن لم تفعل ذلك ولم تكن العقبى في الغلبة لك كنت كما قال الحكيم الأول : إني أرى أكثر الناس يدعون محبة الأفعال الجميلة ثم لا يحتملون المؤونة فيها على عملهم بفضلهم فيغلبهم الترفه ومحبة البطالة ، فلا يكون بينهم وبين من لا يحب الأفعال الجميلة فرق إذا لم يحتملوا مؤنة الصبر ويصبروا على تعلم تمام ما آثروه وعرفوا فضله . واذكر مثل البئر التي تردى فيها الأعمى والبصير فيكونان في النهكة سواء إلا أن الأعمى أعذر[1]» ثم ينصح المتربي بعد الظفر في صراعه مع القوة الشهوية بوسيلة تسليح القوة العقلية بالقوة الغضبية بأن يربي غيره بالطريقة التي تربي بها نفسه فيقول «ومن وصل من هذه الآداب إلى مرتبة يعتد بها واكتسب بها الفضائل التي عددناها فقد وجب عليه تأديب غيره بإفاضته ما أعطاه الله على أبناء جنسه[2] .

ومن ناحية أخرى ينصح ابن مسكويه بتقوية القوى العاقلة بالعلوم لتستطيع التغلب على القوى الشهوية ذلك أن هذه القوى الأخيرة كما تقوى بأغذيتها المادية فإن الأولى تقوى بالعلوم والمعارف لأنها غذاؤها ، ولا بد من أن تكون القوى العاقلة أقوى من القوة الشهوية لتستطيع التغلب عليها فيقول هنا «كما يغذو تلك بأغذيتها الملائمة لها فإن غذاء هذه بالعلم والزيادة في المعقولات والارتباط بالصدق في الآراء وقبول الحق حيث كان ومع من كان والنفور من الكذب والباطل كيف كان ومن أين جاء . فمن اتفق له في الصبا أن يربى على أدب الشريعة ويؤخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعود ثم ينظر بعد ذلك في كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن في نفسه بالبراهين ثم ينظر في الحساب والهندسة ، حتى يتعود صدق القول وصحة البرهان فلا يسكن إلا إليها ثم يتدرج (كما رسمنا في كتابنا المرسوم بترتيب السعادات ومنازل العلوم) حتى يبلغ إلى أقصى مرتبة الإنسان فهو السعيد الكامل[3]» .

ومن تلك الوسائل أيضاً أن يدرس الإنسان السلوك الأخلاقي في الموقف الذي

(١) المرجع السابق ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٥١ .

يسلك فيه هذا السلوك قبل أن يسلكه ، فإذا اقتنع به تماماً فإنه سيقوم به دون الرجوع عنه ، يقرر هذا الراغب الأصفهاني بقوله «للإنسان فيما يتحراه من الخير والشر حالتان حالة يتمكن فيها من الارتداد على أدباره فيما يتعاطاه إن خيراً وإن شراً وذلك قبل أن يمعن في سيره ويتناهى في ممره ، وحالة يتعذره عليه الارتداد على أدباره بل لا يكون له سبيل إلى الرجوع ، وذلك إذا أمعن في سيره وتناهى في ممره[1]» .

وأخيراً من تلك الوسائل لتحكم القوى العاقلة في القوى الحيوانية التمرن مدة طويلة باتباع أوامر الهوى حتى تحصل هيئة الاستعلاء للقوى الناطقة وتحصل هيئة الإذعان في القوى الحيوانية .

وهذا ما ينصح به ابن سينا وقد ذكرنا في بعض المناسبات السابقة بعض النصوص له في ذلك ولا داعي لتكرارها[2] .

ونجد الإسلام هنا ينصح بتطبيق مبدأين ، أحدهما عدم اتباع الهوى اطلاقاً «ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله[3]» ، وثانيهما عدم مصادقة الذين يتبعون هواهم وعدم اتباعهم اطلاقاً ، ولهذا قال تعالى «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه[4]» . «ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن[5]» .

وبعد دراسة الوسائل العقلية التبصيرية للتربية الأخلاقية لدى فلاسفة التربية ، وفي نظر الإسلام نستخلص هذه النتائج الهامة الآتية :

أولاً : تلتقي وجهة نظر فلاسفة التربية مع وجهة نظر الإسلام في الوسائل الأساسية لتكوين البصيرة الأخلاقية .

---

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين الراغب الأصفهاني ص ٩٨ .
(٢) رسالة العهد . ابن سينا مطبوع ضمن مجموعة بمطبعة كزار حسني ـ بومباي سنة ١٩١٨هـ ص ٩٤ .
(٣) سورة ص ٢٦ .
(٤) سورة الكهف ٢٨ .
(٥) سورة المؤمنون ٧١ .

ثانياً : اتضح لنا من دراستنا السابقة أنه لا يمكن تحقيق البصيرة الأخلاقية عن طريق تلك الوسائل التبصيرية السابقة إلا بالتنسيق المنهجي بين منهج التربية الأخلاقية ومنهج التربية والتعليم بصفة عامة ومنهج التربية الفكرية والعلمية بصفة خاصة في مختلف المراحل التعليمية ، وخاصة بعد مرحلة التعليم الإبتدائي التي تحتاج فيها التربية الإخلاقية إلى تكوين البصيرة الأخلاقية والتي يصبح المتعلمون بعدها أكثر قدرة على البصيرة بالحقائق الأخلاقية وقيمها وعلاقتها بالعلوم ثم إنهم بحكم نمو القدرات العقلية في هذه الفترة يحتاجون إلى الدعم العلمي والمنطقي والفلسفي للنظرية الأخلاقية بصفة عامة ولمبادئها بصفة خاصة لأنهم في هذه الفترة وفترة المراهقة يخضعون لحكم المنطق أكثر مما يخضعون للأمور الخارجية كما أنهم لا يتحمسون لأي مبدأ إلا إذا وجدوه يقوم على الأسس العلمية والمنطقية أو العقلية .

ثالثاً : وبناء على هذا يجب أن يدرك المربون أنه لا يمكن أن يتم التبصير الأخلاقي وتكوين بصيرة أخلاقية لدى المتربين في فترة قصيرة أو في مرحلة معينة من مراحل التربية الأخلاقية ، كما لايمكن توقع تحقق ذلك بعزل التربية الأخلاقية عن التربية العلمية والفكرية بصفة عامة وعن تعليم العلوم الأخرى .

رابعاً : يمتاز اتجاه الإسلام في التربية الأخلاقية الخاصة بتكوين البصيرة بالوسائل التبصيرية في تزويده المتربين بإمكانات معنوية باطنية باستخدام وسائل مادية ومعنوية تجعلهم هذه الإمكانات قادرين على تحكيم القوى العاقلة وتحكمها في سلوكهم في مختلف الظروف والأحوال دون أن يسقطوا في الرذيلة أسرى للقوى الطبيعية الأخرى .



الفصل الثالث

الوسائل الوجدانية والعاطفية

بعد تكوين البصيرة الأخلاقية نحتاج إلى تكوين وجدان أخلاقي حساس وعاطفة أخلاقية قوية لأن الأول بمثابة ضوء كاشف لجنبات الطريق المستقيم وبمثابة تكوين قيادة حكيمة ، والثاني بمثابة طاقة دافعة ولا بد مع وجود قيادة عاقلة حكيمة من وجود طاقة فعالة دافعة إلى السير في الطريق حتى النهاية .

وهذا الفصل يتناول هذين الجانبين :

(أ) وسائل التربية الأخلاقية الوجدانية .

(ب)وسائل التربية الأخلاقية العاطفية .

وذلك على أساس أن الوجدان حاسة أخلاقية غريزية أو حدسية والعاطفة مكتسبة ، والوسائل العاطفية وسيلة للتنمية الوجدانية من جهة أخرى إلى جانب كونها طاقة أخلاقية .

أولاً: الوسائل الوجدانية للتربية الأخلاقية

(أ) الوسائل الوجدانية في نظر المربين

وقبل تحديد تلك الوسائل الوجدانية يحسن بنا أن نحدد معنى الوجدان ودوره في التكوين الأخلاقي والنمو الأخلاقي . يختلف المفكرون بعض الاختلاف في تحديد الوجدان من حيث الشكل والمضمون : فمن حيث الشكل ، منهم من يعبر عنه بالضمير ومنهم من يعبر عنه بالحاسة الأخلاقية ومنهم من يعبر عنه بالوجدان ،

ومن حيث المضمون فيرى كانط أن الضمير محكمة إلهية عليا أقامها الله في نفوسنا يحاكمنا فيها ويعذبنا بها إذا ارتكبنا الرذائل . فيقول مثلاً في هذا الصدد «إن ذلك القانون الكامل في نفوسنا نسميه ضميراً إن هذا الضمير أو الذمة أو شرف النفس كل هذه أسماء لمسمى واحد يدفعنا ويحثنا على أن نوجه أعمالنا لتكون على مقتضاه ولكن الضمير الذي في نفوسنا لن يكون له أثر ما في أقوالنا وأعمالنا ولا لتوبيخنا على مخالفتنا له ما لم نعلم أنه يمثل فينا القوة القدسية الإلهية العليا ، إن الذي أقام الميزان وبث العدل في العالم وهيأ لنا محكمة عليا يحاكمنا فيها لم يشأ أن يتركنا في الأرض بلا محكمة فجعل لكل نفس حاكماً من داخلها ، فالرذائل التي يعذب بها الإنسان في هذه الحياة بنفس هذه المحكمة الإلهية[1]» .

ويقول لالاند محدداً الوجدان «فالضمير الأخلاقي أو الوجدان خاصة تمكن الفكر البشري من إطلاق أحكام معيارية عفوية ومباشرة على القيم الأخلاقية لبعض الأعمال الفردية المحددة[2]» ويقول أيضاً «وهو شعورنا الغريزي بالخير والشر من قبل أية دراسة أخلاقية[3]» .

ويعرف الحدسيون الضمير بأنه «قوة فطرية كامنة في طبيعة البشر تدرك الخير والشر حدسياً من غير خبرة سابقة[4]» ، ويقولون «إن ما تتضمنه قوانين الأخلاق من قوة موجبة للعمل وما تتصف به الأحكام الخلقية من عمومية وصدق مطلق يشهدان بأنها ترتد إلى فطرة البشر ووراثتهم[5]» .

وهذا الوجدان بالرغم من فطريته فإنه يتأثر بالعوامل الاجتماعية والثقافية والتربوية كالميول والقوى الطبيعية الأخرى ووفقاً لذلك قد تقوى وظيفته وقد تقل وقد يضل ولا يؤدي وظيفته ، ولهذا فإن اختلاف الناس في الحاسة الأخلاقية لا يدل

---

(١) كتاب التربية لكانط ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٢) الوجدان . دكتور عادل العوا ص ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧ .

(٤) الفلسفة الخلقية . دكتور وفيق الطويل ص ٣٥٦ .

(٥) المرجع السابق ص ٣٥٦ .

على عـدم فطرية الوجدان ، وذلك بـالرغم مما ذهب إليه التجريبيـون من أن ذلك الشعور الوجداني بالألم عند عصيان الواجب واللذة عند اتيان الفعل الخير أو أداء الواجب ليس فطرياً في الطبيعة الإنسانية وإنما هو مكتسب «يرجع إلى التعاطف الوجداني والحب والخوف ، وخاصة مع الوجدان الديني كما يرجع إلى خبرات الإنسان الماضية في حياته الاجتماعية وإلى تقدير الإنسان لنفسه ورغباته وميله إلى تقدير الآخرين[١]» .

وكما يختلف الباحثون في طبيعة الوجدان أو نشأته يختلفون أيضاً في أقسامه وعناصره المكونة له فمنهم من يقسمه من حيث مظهره إلى لذة وألم ومن حيث طبيعة عنصرية إلى عقلي وحسي أو مادي ، ويعرفون الوجدان العقلي بأنه «هو كل وجدان نشأ عن إدراك معنى من المعاني السارة أو المؤلمة كالحب والبغض والفرح والحزن[٢]» ، «وأما الوجدان المادي فهو ذلك الذي ينشأ عن مشاهدة الأشياء الجميلة أو القبيحة وسماع الأصوات الحسنة أو القبيحة[٣]» ، ذلك تقسيم عام للوجدان ، أما التقسيم الخاص فهو أنهم يقسمون عناصر الوجدان إلى مجموعتين الأولى فردية والثانية اجتماعية .

وأهم العناصر الفردية هي العاطفية والفكرية والإرادية ، ويشرح أحد الدارسين ذلك بقوله «فمن الناحية العاطفية يضم الشعور الأخلاقي أحوالاً انفعالية متنوعة تبدو كلها وكأنها ردود فعل إزاء الخير والشر ، ذلك أن أحدنا يشعر بعواطف الفخر والإرتياح والغبطة والفرح كما يشعر بعواطف الأسف أو الخجل أو التأنيب أو اللوم[٤]» .

وأما العناصر الفكرية «فهي الأحكام التي ينبغي لها منطقياً أن تسبق العواطف

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٧ .
(٢) الحياة الوجدانية . د . محمد حب الله ص ١٣ .
(٣) المرجع السابق ص ١٤ .
(٤) الدكتور عادل العوا في كتابه الوجدان ص ٥٥ .

الوجدانية لأن على الإنسان العاقل أن يسأل قبل قيامه بالعمل عن القيمة الأخلاقية للمشاريع التي ينتوي اختيار أحدها وتحقيقه فيقول في نفسه هل هذا الأمر الذي سأقوم به واجب أم مباح أم مكروه أم ممنوع ويترتب على الضمير بعد قيام الإنسان بعمله أن يعترف بمسؤوليته وما ينجم عنها ، ويتم ذلك بأحكام تصحب عواطف مختلفة وتنجب انفعالات شديدة[(١)]» .

وأما العناصر الإرادية فهي عبارة عن اشتهاء الخير أو اشتهاء القيم الخلقية والرغبة في تحقيقها بعد الأحكام العقلية الفكرية التي تسبقها وتقرر ما هو شر ويقول عن قيمة العناصر الإرادية في تكوين العواطف الأخلاقية «هذه العناصر اشتهاء الخير واشتهاء القيم الخلقية والتطلع إلى تحقيقها . والواقع أن العواطف الأخلاقية كلها لا تخرج عن أن تكون صدى رضى الإرادة الطيبة أو عدم رضائها[(٢)]» .

أما مجموعة العناصر الإجتماعية فهي تختلف قوة وضعفاً باختلاف درجات مشاعر الأفراد الوجدانية إزاء القيم الإخلاقية وباختلاف البيئة الإجتماعية بحسب مدى اهتمامها بالمبادئ الأخلاقية وتقديسها للبطولات الأخلاقية وتقبيحها للجرائم والرذائل فبقدر هذا تظهر العناصر الاجتماعية من البيئة والحضارة والتربية في قوة الشعور الوجداني لدى الأفراد إزاء الفضائل والرذائل . والحقيقة أن هناك عناصر وعوامل عديدة تؤثر في تكوين الوجدان ، أولها عامل الغريزة ، فإن الشعور الأخلاقي غريزة ثابتة في الطبيعة الإنسانية كما قررنا ذلك عند بيان حقيقة هذه الطبيعة ، يضاف إلى ذلك عامل العقيدة الدينية ومدى ارتباطها بالعقيدة الأخلاقية ثم دور العناصر العقلية ورؤية المرء مدى ضرر الرذائل وقيمة الفضائل في حياة الفرد والمجتمع ثم العوامل الاجتماعية مثل الاتجاه العام العاطفي والتشريعي للمجتمع إزاء القيم الاخلاقية ومثل التربية وأثرها في تنمية الوجدان الأخلاقي ، وكلما تضافرت هذه العوامل المكونة للوجدان الأخلاقي ، زادت درجة الانسجام بين العناصر

---

(١) المرجع السابق ص ٦٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٦١ .

المكونة للوجدان وكان لهذا دور كبير في تكوين قوة وجدانية أخلاقية تصبح قوة موجهة ومسيطرة على سلوك الإنسان وتصرفاته ، فمن هذه الزاوية أعطى المربون والمفكرون الدور الكبير للوجدان الأخلاقي في نمو المرء ورقيه وتكامله أخلاقياً . فيرى فيلون الإسكندري مثلاً أن الضمير هو المبدأ الوحيد للتقدم الأخلاقي[1] .

ويرى اسبنوزا أن الوجدانات من اللذة والألم الطبيعة الأولى وهي الأساس الذي نشأت عنه كل الانفعالات الشخصية والسلوك الأخلاقي يقول في هذا الصدد «إن اللذة والألم هما اللذان يحددان كل تصرفات المرء وأعماله وأنهما المصدر الوحيد الذي تنشأ عنه كل صفة نفسية وكل أعمال خلقية[2]» .

ويقول الدكتور عادل العوا «إن الوجدان هو الحاكم الذي بيده القول الفصل وهو آخر مرجع يلجأ الفرد إليه وكأن ليس في التخلق سوى واجب واحد هو إطاعة الوجدان والخضوع لأوامره والتقيد بأحكامه[3]» ، ويقول أيضاً «فالوجدان أمر ملزم وتلك صفة بديهية يشعر بها كل ذي وجدان مرهف يقظ شعوراً حدسياً مباشراً وهذا الإلزام ضرورة تمس إرادتنا ومقاصدنا وربما جاز التخلص من إلزام الوجدان من الناحية المادية ولكن من المحال أن يتخلص المرء من وجدانه في أعماق نفسه[4]» .

ودور أو أثر الوجدان الأخلاقي في أفعال الإنسان يمكن تحديده في ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى :

ما قبل الفعل ويتجلى أثره هنا في ناحيتين ، الأولى فكرية والثانية عاطفية . أما الفكرية فتظهر في تقويم الفعل من الزاوية الأخلاقية من حيث البحث عن مبرراته ومحظوراته الأخلاقية وأما العاطفية فتتجلى في دفع عزيمة المرء إلى الإقدام على الأفعال الجيدة والأعمال الصالحة كما تتجلى في إثارة النفور والاشمئزاز من الأفعال القبيحة .

---

(١) الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الإسكندري ص ٣٧٣ .

(٢) الحياة الوجدانية د . محمود حب الله ص ١٦ .

(٣) الوجدان ص ٤٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٢ .

المرحلة الثانية :

تأثيرها أثناء تنفيذ الفعل : إذا شرع الإنسان في ضوء الوجدان الأخلاقي الواضح يصبح شعوره واضحاً بحريته في اختيار أفعاله وأنه سيد نفسه وأفعاله ولذلك يشعر بالمسؤولية عن تصرفاته كلها .

وأما إذا شرع في الفعل عند طغيان الأهواء على وعيه فيقل احساسه بالحرية ، ويجد نفسه وكأنه منساق إلى الوقوع في الرذيلة تحت ضغط النزوات والأهواء .

المرحلة الثالثة :

مرحلة ما بعد الفعل ويتجلى أثر الوجدان هنا بالحكم على الفعل فإما أن يكون ذلك الحكم بالموافقة والقبول لما تم وينتج عن ذلك الفرح والامتداح ، أو يكون بالمخالفة والاستنكار وينتج عن ذلك شعور بالأسف والندم أو التأنيب أو وخز الضمير[1] .

ولكي يكون أثر الوجدان قوياً متحكماً في تصرفات الشخص ، وموجهاً إلى الفضيلة باستمرار بعيداً عن دوافع الأهواء والنزوات ، وطغيان الغرائز الأخرى وإضلالها ، ولكي ننمي حساسية الوجدان الأخلاقية فإننا نحتاج إلى التربية الوجدانية ، ذلك أن الوجدان باعتباره غريزة إحساس أخلاقي في أساسه يختلف قوة وضعفاً بحسب اختلاف الناس في غرائزهم الأخرى ، وكما أنه يمكن تقوية وتنمية وظيفة تلك الغرائز وحساسيتها بالوسائل التربوية كذلك يمكن أن تضعف ثم تذبل وأخيراً قد تتعطل عن أداء وظيفتها لأسباب خاصة بها ، وكما قد يصبح البصير أعمى والعاقل مجنوناً لأسباب أخرى ، فالأمر كذلك تماماً بالنسبة للوجدان الغريزي . وأهم الأسباب التي تضعف الوجدان وتفقده بصيرته هو ابقاؤه مهملاً على عفويته وسذاجته الغريزية ، وأيضاً الانغماس في الخطيئة من أهم الأسباب المرضية للوجدان .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣ .

ويقرر بعض الدارسين هنا أن تشويه الوجدان أو فقدان وظيفته يحصل في المراحل الأولى من نموه أو عندما يكون ساذجاً بسيطاً أما إذا ترقى وتسامى بالنمو والرقي فقلما يحدث ذلك[١] .

ولهذا فليس هناك وسيلة لإنقاذ الوجدان وإبعاده عن تلك التهلكة ، ولتزويد قدراته على استجلاء الحقائق الأخلاقية وعلى تحكمه في تصرفات المرء سوى التربية الوجدانية السليمة ؛ ذلك أن تربية الوجدان كما يقول أحد الدارسين «هي التي تسعى إلى تجنيب الضمير عثرات الشك والحيرة والضلال والوسواس وتحرص على الحفاظ على صحة الوجدان والحيلولة دون أن يصاب بالخلل والتهافت والمرض والإجرام ليمسي المرء سيد نفسه ويبدع ضروب سلوكه الأخلاقي لا باتباع العادة والتقاليد الذائعة ولا الزي ولا الأنموذج أو العرف وإنما بوعي ما يفعل وبمعرفة الغرض الذي يرجوه بفعله وبالقدرة على شرح عمله أو حكمه أمام أي إنسان ذكي حيادي[٢]» .

إذا كان هذا ما تهدف إليه التربية الوجدانية فبأية وسيلة أو وسائل تربوية يمكن تحقيق ذلك؟ والحقيقة إنه من العسير تحديد جميع الوسائل التربوية الوجدانية لأن تربية الوجدان تتكون نتيجة التربية الخلقية عامة لأن الوجدان الأخلاقي هو روح الأخلاق ، ولا بد من وجود جميع مكونات الأخلاق لوجود روحها . ولهذا فإن التربية الأخلاقية العامة الوسيلة الأولى للتربية الوجدانية . هنا يقول ذلك الدارس المتخصص «تربية الوجدان تنفرد بأنها لا تملك مناهج محددة كل التحديد لبلوغ الغرض المرموق كما تملك مثل هذه المناهج سائر أنواع التربية ولا سيما تربية الفكر والعقل ذلك أن تربية الوجدان هي تربية شخصية بالدرجة الأولى[٣]» .

وإذا كان الأمر كذلك فما هي الوسائل التربوية لتربية الوجدان؟

---

(١) الدكتور عادل العوا في كتابه الوجدان ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٨٦ .

كما سبق أن بينا ليس من السهل تحديد تلك الوسائل الخاصة بالتربية الوجدانية لكن من الممكن بيان بعض الوسائل التي تتصل بصميم التربية الوجدانية ، وأهم هذه الوسائل ما يأتي :

أولاً ـ تجنب الخطيئة والمآثم :

أولاً وقبل كل شيء أي وقاية الوجدان من التلطخ بالخطيئة لأنها تلوث الوجدان وتصدئ لمعانه كما تصدأ المرآة فلا تنعكس عليها الصور ثم لا تبين حقيقة ما يقع أمامها . يقول هنا دارسنا المتخصص «إن الهوى الضال يهدم الشعور الأخلاقي ويعمي الوجدان ويسخر الإرادة ويفقر النفس ، واللذة ولا سيما اللذة الشهوية تلجم طماح الضمير وتحبس جهده في إطار الإحساس وتقيده بمطلب اللحظة الراهنة وتجعل المثل الأعلى كأنه حلم بعيد المنال وتحرمه من جاذبية الطعم واللون فيمسي وكأنه غير موجود وينجم على ذلك أن يضل الوجدان فيحسب صاحبه أن الخطيئة أمر طبيعي أو كالطبيعي حتماً . وإذا تكرر اقتراف الخطيئة تضاءل عذاب الوجدان وتناقص تأنيب الضمير وغدا المجرم بالعادة والتكرار المجرم المثابر لا يقترف الشر وحسب بل يصبح هو عينه شريراً[1]» .

ثانياً ـ الندم والتوبة بالإقلاع عن الخطيئة وعدم الرجوع إليها :

فإن الندم انتفاضة على الرذيلة ، والتوبة قرار وعزيمة على عدم الرجوع إلى الرذيلة مرة أخرى وإذا كان هناك شك من بعض رجال الفكر في جدوى الندم والتوبة فإني بكل تأكيد ممن يرى جدواهما ، وهناك كثير من المربين يؤكدون دور الندم والتوبة وسيلة للتربية الوجدانية . من هؤلاء «لويس لافيل» يقول : «لا بد من التفريق بين تأنيب الضمير وبين الندم على الرغم من اشتراكهما في الرجوع إلى الماضي ذلك أن تأنيب الضمير يحبس الإنسان في دائرة ألمه مما جنت يداه من قبل ويغلق أمامه الأبواب ويسد المنافذ والآفاق . أما الندم فيعني بالماضي ابتغاء تبديل المستقبل وتغييره والندم وحده هو يغيرنا ويبدلنا وهو أصل كل تجدد وانبعاث[2]» .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٠ . (٢) الوجدان ص ٥٧ .

ومنهم أيضاً شلر الذي يقول «الندم يعني أول ما يعني انطواءنا على جزء من ماضي حياتنا لنعزو إليه معنى جديداً أو نمنح الخطيئة قيمة طريفة . . . والندم من حيث هو فعل عبارة عن تدخل في دائرة حياتنا الماضية وهذا التدخل الفعال يتناول ناحية القيمة اللاأخلاقية أي ناحية الشر من سلوكنا ويضع حداً لضغط الشعور بالاتهام الذي ينبثق من ينبوع ذاك الشر ويشع في جميع الجهات فيمنع الندم بذلك قوة هذا الانتشار التي تسعى دائماً لتوليد شر جديد[1]» .

ومنهم كذلك بول جانه الذي يقول : «الندم هو فضيلة تقريباً ووخز الضمير عقاب وقصاص وإن أحدهما يقود إلى الآخر ، لأن من لا يشعر بعذاب الضمير لا يقدر على أن يشعر بالتوبة والندم[2] .

وأخيراً منهم الدكتور عادل العوا الذي يقول : «والندم هو كذلك ألم معنوي ولكنه مصحوب بتقرير صادق بتدارك إتلاف الخطيئة أو على الأقل بالعزم على عدم الرجوع إليها والوقوع من جديد فيها ويمتاز الندم على وخز الضمير بأنه فاعل يدعو إلى تغيير السلوك وتقويم الخطى[3]» .

ثالثاً ـ الاستمرار بممارسة الفضائل :

إن أي إنسان يريد أن يتقدم في أي مجال من المجالات المهنية أو الفنية أو العلمية يجب أن يمارسها بعد إحاطته بالدراسة النظرية فإن الممارسة بعد ذلك تغذية وتنمية .

ويقول هنا الدكتور عادل العوا «ولا بد لهذا كله من السهر على سلامة الوجدان والعمل على ترعرعه في جو الصحة الأخلاقية والحس السليم ، إن استقامة التمييز وصفاءه خصلة رئيسية في طريق المعرفة بالخير . والبذل والعطاء والكرم عبر الأمانة تميز ممارسة الخير بعد معرفته ، وهذه الخصال جميعاً تتواصل وتتفاعل وتتحد في بناء الوجدان الأصيل . . . فإن الوجدان يزيد أمانة وصدقاً كلما عظمت قدرته على

(١) المرجع السابق ص ٥٩ .
(٢) الوجدان ص ٥٩ ـ ٦٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٧ .

التميز والحكم المرهف السديد[1]» ،

ويحدد لالاند ثلاث وسائل للممارسة السديدة المربية للوجدان الأخلاقي السليم وهي الآتية :

أولاً : التدقيق قدر المستطاع في معرفة الحوادث الراهنة التي تتناولها عواطفنا .

ثانياً : التساؤل عما إذا كانت عواطفنا خاضعة لظروف طارئة غريبة عن التخلق .

ثالثاً : المقارنة بقدر الإمكان بين وجداننا ووجدان من يستطيعون إنارة سبيلنا . وينبغي أن يتم هذا بإحدى طريقتين : أولاهما دراسة حياة أو آثار الذين اعترف الناس لهم بالأخلاق السامية الوجدان الرفيع البريء . وثانيتهما مصاحبة الأشخاص الممتازين في رأينا لاستجلاء الوجدانات الصادقة المثالية أو للتعرف عليها عن طريق المحادثة والمناقشة[2] .

وممن اهتم بالتربية الوجدانية من الناحية الروحية المتصوفون بل إن معظم تركيزهم في رياضتهم كان على الوجدان أو الوجد الذي عرفه النوري ، بأنه «لهيب ينشأ في الأسرار ويسنح عن الشوق فتضطرب الجوارح طرباً أو حزناً عن ذلك الوارد[3]» وقال بعضهم «معنى الوجد هو ما صادف القلب من فزع أو غم أو رؤية معنى من أحوال الآخرة أو كشف حالة بين العبد والله عز وجل[4]» .

وقالوا أيضاً هو سمع القلب وبصره قال تعالى «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» وقال «أو ألقى السمع وهو شهيد[5]» وربما لا نجد اتجاهاً تربوياً في العناية بالتربية الوجدانية كالاتجاه الصوفي ، وأهم الوسائل المبدئية

---

(١) الوجدان ص ١٨٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .
(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١١٣ .
(٤) المرجع السابق ص ١١٢ .
(٥) المرجع السابق ص ١١٢ .

العلمية لتربية الوجدان الخلقي لدى المريد عندهم كما بينها ابن عطاء الله السكندري هي أولاً اقتناع المريد بفكرة التخلص من الصفات الذميمة للوصول إلى الله وفي المرحلة الثانية البحث عن الصفات الذميمة في النفس . وفي المرحلة الثالثة اصطناع الضروب المختلفة من السلوك للتخلص من تلك الصفات[1] .

(١) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه . الأستاذ الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ص١٨٢ .

ب ـ الوسائل الوجدانية في نظر الإسلام

إذا بحثنا عن المعاني الوجدانية في نظر الإسلام وجدناها تدور حول القلب فالقلب كما يقول الحكيم الترمذي «هو معدن التقوى والسكينة والوجل والإخبات واللين والطمأنينة والخشوع والتمحيص والطهارة[١]» وقال عنه «إن اسم القلب اسم جامع يقتضي مقامات الباطن كلها[٢]» فالقلب جوهر الانفعالات النفسية كلها . ترجع إليه الطمأنينة «ليطمئن قلبي[٣]» . «وتطمئن قلوبنا[٤]» وهو مكان التقوى «أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى[٥]» كما هو مكان الطهارة «ذلكم أطهر لقلوبكم[٦]»وهو مكان الأسرار «ليمحص ما في قلوبكم[٧]» وهو مكان انفعال الخوف «وقلوبهم وجلة[٨]» ، «وجلت قلوبهم[٩]»وهو مكان الإخبات «فتخبت له قلوبهم [١٠]» ،« ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله[١١]» «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله[١٢]» . وهو مركز الانفعالات الفاسدة والنيات السيئة وإذا وردت عليه تلك الانفعالات الفاسدة يكون مريضاً «في قلوبهم مرض[١٣]» ،

(١) بيان الفرق بين القلب والفؤاد واللب ،الحكيم الترمذي ص٥٣ ـ ٥٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٣ .
(٣) سورة البقرة ٢٦٠ .
(٤) سورة المائدة ١١٣ .
(٥) سورة الحجرأت ٣ .
(٦) سورة الأحزاب ٥٣ .
(٧) سورة آل عمران ١٥٤ .
(٨) سورة المؤمنون ٦٠ .
(٩) سورة الأنفال ٢ .
(١٠) سورة الحج ٥٤ .
(١١) سورة الزمر ٢٣ .
(١٢) سورة الحديد ١٦ والخشوع هو الخوف الدائم في القلب .
(١٣) سورة البقرة ١٠ .

وإذا انتشرت تلك الانفعالات السيئة وسادت النيات السيئة عندئذ يصبح فاسداً وإذا فسد الجوهر فسد كل ما هو مرتبط به وناشئ عنه ولهذا قال الرسول «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب[1]» . ويعبر عن انفعال الحيرة والشك «وارتابت قلوبهم[2]» وهذا هو ضلال الوجدان ، ولهذا كان القلب مرجع المسؤولية «ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم[3]» ،« إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان[4]» وعلامة صحة الوجدان الحي أن يضيق بالخطيئة ويفرح بالحسنة ، يقول الرسول «من سرته حسناته وساءته سيئاته فهو مؤمن[5]» .

والقلب بالمعنى السابق أو الوجدان غريزة الأخلاق في الإنسان في نظر الإسلام ، فكان الإنسان ـ ما دام لم تفسد فيه هذه الغريزة ـ يضيق بالإثم ، ويطمئن بالخير ويعمل البر ، يقول الرسول لوابصة استفت قلبك (وفي رواية نفسك) البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك[6]» وفي رواية صحيح مسلم «البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك (وفي رواية صدرك بدل نفسك) ، وكرهت أن يطلع عليه الناس[7]» ، وفي رواية أحمد «البر ما انشرح له صدرك والإثم ما حاك في صدرك وإن أفتاك عنه الناس[8]» . غير أن هذه الغريزة الأخلاقية تختلف باختلاف الناس وباختلاف العوامل المؤثرة فيها ، يقول الرسول «القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافة وقلب منكوس ، وقلب مصفح فأما القلب الأجرد

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري ج ١ ص ١٣٤ كتاب الإيمان ج ١ ص ١٣٤ .

(٢) سورة التوبة ٤٥ .

(٣) سورة البقرة ٢٢٥ .

(٤) سورة النحل ١٠٦ .

(٥) الجامع الصغير ج٢ ص ١٧٣ .

(٦) مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٢٨ .

(٧) صحيح مسلم كتاب البر ج٤ ص ١٩٨٠ .

(٨) مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٢٧ .

فقلب المؤمن سراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه[1] .

يتبين من ذلك أن الذي يشوه الوجدان أو الضمير هو سوء الأخلاق بصفة عامة ثم التكبر للحقيقة الإلهية والنفاق . تلك هي أهم العوامل التي تؤدي إلى ضلال الوجدان وتعثره في الطريق المستقيم .

إذن ما هي أهم وسائل تربية الوجدان؟

كما قلت في مستهل هذا الفصل إن كثيراً من عناصر التربية الأخلاقية عامة تعد من وسائل التربية الوجدانية لأن الوجدان جوهر الشعور الأخلاقي ، وإليه ترجع جميع الارتكاسات الأخلاقية ، كما ترجع إليه جميع الانفعالات الأخلاقية أيضاً ، ولهذا فإن كل الوسائل التي ذكرناها للتربية الأخلاقية هي بشكل أو بآخر وسائل للتربية الوجدانية من قريب أو بعيد .

لكن مع ذلك نزيد عليه ، ونذكر بعض الوسائل التي هي أكثر صلة بجوهر التربية الوجدانية وأهمها ما يأتي :

أولاً ـ الوقاية مما يشوه الوجدان ويضعف حساسيته الأخلاقية وحيويته الدافعة إلى الفضيلة :

لأن ذلك هو الشرط الأساسي لصحة الوجدان ، كما أن الشرط الأول للصحة الوقاية من الأمراض أو جراثيم الأمراض . وجراثيم الأمراض الوجدانية هي الرذائل الأخلاقية وعلى رأسها النفاق الذي شبهه الرسول في الحديث السابق بقرحة المعدة ، وكما أن كل جرثومة إذا دخلت في الجسم تؤثر فيه حتى إذا ما كثرت تلك الجراثيم وبلغت نسبة معينة في الجسم أصيب الشخص بالمرض ، فكذلك جراثيم

---

(١) المرجع السابق ج٣ ص ١٧ .

الرذائل إذا دخلت الوجدان أو القلب أثرت فيه وإذا كثرت وبلغت نسبة معينة أصيب الوجدان بالمرض والتشويه وإلى هذا يشير الرسول في حديثه عندما قال «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه فإن زاد زادت ، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»[(١)] ، وإذا استمر الران يصبح القلب مريضاً «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً[(٢)]» وإذا استمر المرض يتعطل القلب عن أداء وظيفته ولا يميز بين الخير والشر فيصبح كالأعمى لا يميز بين الظلام والنور «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور[(٣)]» .

وبين الرسول كيف يصبح القلب أعمى عندما قال «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشر نكت (نبت) فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مرباداً (أي ممزوجاً بياضه بسواده) كالكوز مجخياً (منكوساً) لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه[(٤)]» .ولهذا «قالوا قلوبنا غلف[(٥)]» ، و«ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة[(٦)]» .

وهل يستوي الذي لم يشوه وجدانه ولم يصدئه بالذنوب والذي ارتكب الذنوب وشوه وجدانه وصدأه بالسيئات وصدق الله العظيم إذ قال «وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون[(٧)]» ، ولهذا استحق الذين شوهوا وجدانهم النار «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل[(٨)]» .

---

(١) سنن ابن ماجة ج٢ ص ١٤١٨ .
(٢) سورة البقرة ١٠ .
(٣) سورة الحج ٤٦ .
(٤) التاج كتاب الفتن ج٥ ص٣٠٩ .
(٥) سورة البقرة ٨٨ .
(٦) سورة البقرة ٧ .
(٧) سورة غافر ٥٨ .
(٨) سورة الأعراف ١٧٩ .

ولكن لنفرض أنه لم يستطع أن يتقي الخطيئة وأصيب قلبه أو وجدانه بمرض أليس هناك من دواء أو علاج كما أن الإنسان إذا لم يستطع وقاية نفسه من الأمراض أوليس هناك من علاج؟ نعم هناك علاج ولكن إذا لم يستفحل المرض، ولم يتلف أو يفسد العضو أو الجسم تماماً، أما إذا تلف العضو أو عمي البصر فلا علاج .

ثانياً ـ الوسائل العلاجية :

وهي الندم والتوبة والتكفيرات والصلوات واتباع السيئة بالحسنة . أما الندم فهو بداية التوبة والتوبة ناشئة عنه، لأن الإنسان لا يتوب عن عمل إلا إذا ندم على فعله وأنبه ضميره وربما لهذا قال الرسول : «الندم توبة[1]» وإن أنكر البعض فائدة الندم والتوبة، معاً على أساس أنهما لا يعوضان عما نتج من الخطيئة من الأضرار التي ترجع إلى المخطىء أو غيره أو هما معاً لأن آثار تلك الخطيئة لا تزول لا بالندم ولا بالتوبة ولا بالعفو عن المخطىء، كما يقول نتشه[2]، وفعلاً إن ندم القاتل على القتل لا يعيد روح المقتول وإذا كانت كل خطيئة «تؤدي إلى اضطرابات عضوية أو عقلية أو اجتماعية وهي اضطرابات لا يمكن علاجها على وجه العموم وإذا كانت التوبة لا تشفي تليف الأنسجة لدى السكير أو الأمراض العصبية لدى أولاده» كما يقول الدكتور إلكيس كارل[3] فإن التوبة لا تصلح آثار الخطيئة السابقة، ومع ذلك فإن لها فوائد عظيمة جداً لأسباب عدة :

منها : أن الندم يؤدي إلى التوبة بل إن التوبة لا تنشأ إلا عن الندم، والتوبة تضع حداً أمام استمرار الإنسان في الخطيئة ومن ثم تضع حداً أمام انتشار الفساد وازدياده كإصابة الإنسان بمرض فإنه إن لم يمكن علاجه فيمكن إيقاف مضاعفاته وإذا أصيب جزء من الجسم فيمكن حماية الأجزاء الأخرى وكذلك التوبة .

ثم إن التوبة توقظ الوجدان من سباته وتجعله يشمئز من الخطيئة وهذا يقوى

---

(١) سنن ابن ماجة كتاب الزهد باب التوبة ج٢ ص١٤٢٠ .

(٢) الوجدان د . عادل العوا ص ٥٨ .

(٣) تأملات في سلوك الإنسان ص ٩٥ .

عزيمته في محاربة الفساد ومحاربة أهوائه وهذا يزيل من الوجدان ما ران عليه فيعيد إليه صفاءه وحساسيته . وهذا ما أراده الرسول من حديثه السابق «إن المؤمن إذا أذنب نكت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه» ولهذا دعا الرسول إلى التوبة بقوله «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون[1]»

ومنها : أن الندم والتوبة يدفعان الإنسان إلى مزيد من الأعمال الحسنة لتغطية السيئات وليرجح جانب الخير على جانب الشر ، وعندئذ يشعر الشخص بأنه انتصر على الشر ، ولهذا قال تعالى : «إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين[2]» . وبين الله أن من يدفع السيئة بالحسنة ستكون آخرته الفلاح ، لأنه عندئذ يكون قد نظف وجدانه وسلمه إلى الله صافياً من الذنوب ، يقول تعالى «والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار[3]» ، ويقول الرسول «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن[4]» .

ولهذا شجع الله على التوبة وعلى مزيد من الأعمال الصالحة ووعد أن من يفعل ذلك سوف يبدل الله سيئاته حسنات فقال تعالى «إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً[5]» .

ومنها : أن التوبة تدفع المسيء إلى أن يحسن للذي أساء إليه ، أو يطلب العفو ممن أساء إليه على أقل تقدير وذلك يزيل الضغائن التي حصلت نتيجة الإساءة وهذا له دور في العلاقات الإنسانية الاجتماعية ، لذا نرى الإسلام يدعو إلى ذلك ويبين بأن الله لا يغفر ذنب الإنسان فيما يتعلق بحقوق العباد حيث يقول الرسول «من كانت له مظلمة لأحد من من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا

(١) سنن ابن ماجة كتاب الزهد باب التوبة ج٢ ص ١٤٢٠ .

(٢) سورة هود ١١٤ .

(٣) سورة الرعد ٢٢ .

(٤) سنن الترمذي . كتاب البر والآداب ج٣ ص ٢٣٩ .

(٥) سورة الفرقان ٧٠ .

درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه[1]» . وقال تعالى «ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار[2]» .

ومنها : أن التوبة يجب أن تكون وقت استطاعة العمل الحسن ولهذا لا تقبل توبة المرء عند إقدام الموت عليه أو عند الغرغرة كما يقول الفقهاء ولهذا قال تعالى «وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما[3]» وهذا دافع إلى الإقلاع عن الإساءة .

ومنها : أن التوبة لا تمحو كل سيئات الإنسان إذا كانت قد أحاطت به من كل جانب وغرق فيها فقال تعالى «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[4]» . وذلك تحذير من الاستغراق في المآثم ، لأن من غرق في الخطيئات فمعنى ذلك أنه قد مات وجدانه ولم يبق فيه أمل الفلاح كما أن العلاج لا يحيي الميت فكذلك التوبة لا تحيي مثل هذا الوجدان الميت .

ومنها أيضاً : أن التوبة المقبولة هي التوبة النصوح أي العزم الكامل على الإقلاع عن الذنب وعدم العودة إليه مرة أخرى . يقول تعالى «يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا[5]» ، ويقول الرسول عند تفسير معنى التوبة النصوح «التوبة من الذنب أن يتوب منه ثم لا يعود فيه[6]» ، ويقول المتصوفون «إن شرائط التوبة ثلاثة أشياء الندم والاعتذار والإقلاع[7] . كما أن حقائقها ثلاثة أيضاً وهي «تعظيم الجناية واتهام النفس وطلب إعذار الخليقة[8]» . ولهذا قال تعالى «فمن تاب من بعد ظلمه

(١) التاج أعظم الظلم إضرار الخلق ج٥ ص٢٠ .
(٢) سورة إبراهيم ٤٢ .
(٣) سورة النساء ١٨ .
(٤) سورة البقرة ٨١ .
(٥) سورة التحريم ٨ .
(٦) تفسير ابن كثير رواه أحمد ج٤ ص٣٩٢ .
(٧) منازل السائرين ص ٥ .
(٨) المرجع السابق ص ٥ .

وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم[١]» . وقال أيضاً «كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم[٢]» . «وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى[٣]» .

كل ذلك وسائل لعلاج الوجدان لعلاج الوجدان وإصلاحه مما يعله ويشل وظيفته .

ومنها كذلك : أن أفضل التوبة أن تكون بعد ارتكاب الإثم مباشرة وذلك لا يتأثر به الوجدان لأن الإثم كالقذارة كلما مكثت في الثياب أو الجسم كان تأثيرها أشد وكانت إزالة أثرها أصعب وكذلك الأمر فيما يتعلق بأثر الذنوب على الوجدان ولهذا دعا الإسلام إلى الإسراع في التوبة فقال تعالى : «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً[٤]» ، ولأن عدم الإسراع إلى تطهير النفس من الذنب المرتكب كعدم الإسراع إلى تطهير الجسم من القذارة إذ الأمر كما يؤدي في النهاية إلى التعود على القذارة يؤدي كذلك إلى التعود على ارتكاب الآثام وعدم التضايق منها ولهذا دعا الإسلام إلى التوبة بمجرد أن يرى الإنسان أنه ارتكب ذنباً أوتذكر ذلك ولهذا قال تعالى «والذين إذا فعلوا فاحشة إو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين[٥]» ، «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون[٦]» .

ومنها أخيراً : أن التوبة تفتح باب الصلاح والعودة إلى الرشد ، ذلك أن المذنب إذا

---

(١) سورة المائدة ٣٩ .

(٢) سورة الأنعام ٥٤ .

(٣) سورة طه ٨٢ .

(٤) سورة النساء ١٧ .

(٥) سورة آل عمران ١٣٥ـ١٣٦ .

(٦) سورة الأعراف ٢٠١ .

علم خطأه قد قفل أمامه باب النجاح والفلاح فإن هذا يدفعه إلى التمادي في الخطيئة وارتكاب جميع الفواحش كما أن المريض إذا علم أنه أصيب بمرض لا نجاة منه يدخل في نفسه اليأس والقنوط ويؤدي ذلك إلى مضاعفة مرضه ، ولهذا كان من مبادىء علم النفس الطبي عدم ادخال اليأس في نفس المريض ولا يصح أن يقول الطبيب لمريضه الذي لا نجاة له من مرضه : لا شفاء لك من هذا المرض بل عليه أن يفتح أمامه باب الأمل ، لأن الحالة النفسية لها دور في الشفاء وقد يكون دورها أحياناً أكثر من دور الأدوية في الشفاء .

ولهذا شجع الإسلام على التوبة بصفة عامة فقد روي عن الرسول أنه قال «الله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش قال أرجع إلى مكاني فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده[1]» ، ذلك أن التوبة وسيلة لإصلاح العبد نفسه والله يفرح بصلاح عبده وأوبته إلى حضرة ربه .

ثالثاً ـ ممارسة الفضائل :

وكما أن ممارسة الأعمال العلمية تنمي الذكاء وممارسة الأعمال الأدبية تنمي الاستعداد الأدبي عند المرء وممارسة الفن تزيد من قدرة الفنان الإبداعية كذلك ممارسة الفضيلة تنمي الوجدان الأدبي والحساسية الأخلاقية ، ولهذا قال الرسول «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل[2]» . وقالت عائشة لما سئلت عن عمل الرسول «كان عمله ديمة[3]» ، «وروي أن عائشة كانت إذا عملت عملاً لزمته[4]» .

هذا إلى أن استمرار الاتصال بالله عن طريق الصلوات يغسل الوجدان من كل ما يصيبه من الذنوب المصدئة له ، يقول الرسول «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمساً ما تقولون ذلك هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا لا يبقى

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الدعوات باب التوبة ج١٣ ص ٣٥٢ .
(٢) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الرقائق باب القصد والمداومة على العمل ج١٤ ص٧٨
(٣) المرجع السابق ج١٤ ص٧٩ .
(٤) صحيح مسلم ج١ ص٥٤٠ .

من درنه شيء ، قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا[1]» . وفي رواية البخاري «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقولون ذلك يبقى من درنه؟ قالوا لا يبقى من درنه شيئاً قال فذلك مثل صلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا[2]» .

رابعاً : المراقبة الدائمة لأعمال القلب ومحاسبتها :

لا يكتفي أن يحافظ الإنسان على جوارحه من فعل الخطايا وارغامها على فعل الفضائل فحسب بل يجب أيضاً أن يحفظ قلبه من تداول التصورات القبيحة والنيات والإرادات السيئة في داخل نفسه . وإلى جانب ذلك يجب تزويدها بالأفكار الخيرة ويملأها بالإرادات أو النيات الحسنة لأن ما يرد في القلب من تلك التصورات السيئة يؤثر على القلب ، ذلك أن تلك التصورات التي ترد على القلب كالغيوم السوداء التي تحيط بجبل تجعله لا يتميز فيه شيء وكذلك عندما تهاجم الخطرات والوساوس السيئة القلب يختنق القلب في وسطها ولا يستطيع أن يرى السبيل السوي وقد يكون سبباً لضلاله .

ولهذا نجد المتصوفين قد اهتموا بأعمال القلوب حتى أن الحارث المحاسبي كتب كتاباً خاصاً في هذا الشأن باسم أعمال القلوب والجوارح وبين فيه كيف يستطيع المرء دفع خطرات السوء ووساوس الشيطان عن القلب ويجاهد تلك الخطرات السيئة التي تهاجم القلب من حين إلى آخر . فيقول الحارث المحاسبي مثلاً عن المحاسبة عندما سألوه عنها فقال هي التثبت في جميع الأحوال قبل الفعل والترك من العقد بالضمير أو الفعل بالجارحة ، حتى يتبين له ما يترك وما يفعل ، فإن تبين له ما كره الله عز وجل جانبه بعقد ضمير قلبه ، وكف جوارحه عما كرهه الله عز وجل ، ومنع نفسه من الإمساك عن ترك الفرض وسارع إلى أدائه[3]» . وكذلك فعل الإمام

---

(1) صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة ج١ص ٤٦٢ .
(2) فتح الباري بشرح البخاري كتاب مواقيت الصلاة ج٢ ص١٥٠ .
(3) أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل ص ٢٠٠ .

الغزالي حيث عقد كتاباً خاصاً في الإحياء تكلم فيه عن عجائب صفات القلب وأمراضه وطرق مداخل الوساوس والخطرات السيئة والشريرة وطرق علاجه من تلك الأمراض ووسائل وقايته من دخول الخطرات والوساوس[1] .

ويقول عندما يتكلم عن كيفية تأثر القلب بما يرد عليه من تلك الخطرات والدواعي والتصورات الحسنة والسيئة يقول في هذا الصدد «اعلم أن القلب كما ذكرناه مثل قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب ، ومثاله أيضاً مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب ، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها ، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال[2]» ويتكلم عن مداخل تلك التصورات والدواعي من حيث الظاهر والباطن فيقول «أما من الظاهر فالحواس الخمس ، وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان[3]» . ثم يتكلم كيف يؤثر ذلك في القلب فيقول «فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء ، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر . والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائماً من هذه الأسباب . وأخص الآثار الحاصلة في القلب هو الخواطر ، وأعني بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار وأعني به ادراكاته علوماً إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها ، والخواطر هي المحركات للإرادات ، فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوي بالبال لا محالة ، فمبدأ الأفعال الخواطر ثم الخاطر يحرك الرغبة والرغبة تحرك العزم والعزم يحرك النية والنية تحرك الأعضاء[4]» . ثم يتكلم عن أنواع تلك الخواطر فيقول «والخواطر

---

(١) إحياء علوم الدين ج٣ ص ١ وما بعدها .

(٢) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٢٦ .

(٣) المرجع السابق ج٣ ص ٢٦ . (٤) المرجع السابق ج٣ ص٢٦ .

المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أعني ما يضر في العاقبة ، وإلى ما يدعو إلى الخير أعني ما ينفع في الدار الآخرة فهما خاطران مختلفان فافتقر إلى اسمين مختلفين ، فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً والخاطر المذموم الداعي إلى الشر يسمى وسواساً ، ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب ، فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الإستنارة . وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول الإلهام يسمى توفيقاً . والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلاناً[(١)]» .

ولهذا كانت أهم وسيلة لانقاذ الضمير والقلب أو الوجدان من تأثير السيئات فيه هي المحاسبة النفسية ، والمحاسبة قسمان :

الأولى محاسبة الخواطر لمعرفة مواردها ومنابعها فإن كانت خواطر ووساوس واردة من منابع سيئة تدعو إلى الشر أو تجعل السيئات محاسن ، وترى الرذائل ملذات فعلينا تجنبها من البداية وعدم تداولها في النفس قبل تأثيرها على القلب ، وقبل أن تبعث إرادات ونيات سيئة . ولهذا يقول أبو تراب النخشبي الصوفي «ليس من العبادات شيء أنفع من إصلاح خواطر القلوب[(٢)]» .

أما المحاسبة الثانية : فهي محاسبة النفس بعد حدوث الإثم فيه أي بعد حدوث الإرادة السيئة أو بعد حدوث الفعل السيء من الجوارح وأثر ذلك لا يزال بالتوبة والإقلاع عن ذلك من الناحية المادية : ويتكلم الهروي عن كيفية هذه المحاسبة فيقول «وإنما يسلك طريق المحاسبة بعد العزيمة على عقد التوبة والمحاسبة لها ثلاثة أركان

---

(١) المرجع السابق ج٣ ص ٢٧ .

(٢) طبقات الصوفية للسلمي ص ١٤٩ .

أحدها أن تقيس بين نعمته وجنايتك وهذا يشق على من ليس له ثلاثة أشياء : نور الحكمة وسوء الظن بالنفس وتميز النعمة من الفتنة . والثاني أن تميز ما للحق عليك مما لك أو منك فتعلم أن الجناية عليك حجة والطاعة عليك منة والحكم عليك حجة ما هو لك معذرة ، والثالث أن تعرف أن كل طاعة والحكم عليك حجة ما هو لك معذرة ، والثالث أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك وكل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك فلا تضع ميزان وقتك من يدك[1]» .

ولهذا كله فإن الإسلام قد دعا من قبل إلى محاسبة النفس أولاً لما يدور فيها من النيات السيئة والوساوس الشيطانية لتطهير النفس منها وبين أن الله يعلم ذلك كله قبل أن يتحول إلى سلوك مادي ظاهر فقال تعالى «إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله[2]» وقال تعالى أيضاً «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد[3]» وبين الله تعالى أن تلك الإرادات السيئة أمراض القلب وأن الله يعلم تلك الأمراض ولو لم تظهر في الخارج وأن الناس إن لم يعالجوا تلك الأمراض بأنفسهم بتطهير نفوسهم منها فإنه سيظهرها ، يقول تعالى «أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم[4]» وإذا كان الله يعلم ما يسرونه في نفوسهم فإنه من باب أولى أن يعلم كل أعمالهم الخفية «أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون[5]» ، ولهذا دعا الإسلام الإنسان إلى محاسبة نفسه على أعماله قبل أن يحاسبه الله فإن وجد أعماله سيئة يقلع عنها ويعمل الخيرات ليعوضها فقال تعالى «يا أيها الذين آمنوا اتقوا

---

(١) منازل السائرين ص ٥ .
(٢) سورة البقرة ٢٨٤ .
(٣) سورة ق ١٦ـ١٨ .
(٤) سورة محمد ٢٩ .
(٥) سورة الزخرف ٨٠ .

الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون[1]» . وقال الرسول «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله[2]» ويقول الترمذي ومعنى من دان نفسه حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة وقال عمر بن الخطاب أيضاً «حاسبوا أنفسكم قبل أن حاسبوا[3]» .

وهذا كله يقتضي ألا يستهين المرء أولاً بعدم المبالاة بتلك الخطرات السيئة التي ترد على الوجدان ولو كانت قليلة فإن أول الصدأ يبدأ من أول تساقط قطرات الندى على المعادن وأن أول المرض يبدأ من دخول أول جرثومة صغيرة في الجسم . فمن أراد أن يحافظ على نقاوة وجدانه وصفاته فليحفظه أولاً من قطرات خطرات السوء .

ثانياً : الوسائل العاطفية للتربية الأخلاقية:

قبل بيان تلك الوسائل يجدر بنا تحديد معنى العاطفة وأهمية تكوين العاطفة الأخلاقية في المتربي . أما من حيث تحديد معناها فيحدده بعض الدارسين بأن العاطفة «استعداد عقلي مكتسب يرتبط بموضوع ويؤدي إلى دفع الكائن الحي للقيام بأنواع من السلوك ترتبط بهذا الموضوع[4]» ويحددها البعض الآخر بأنها «صفة وجدانية» مركبة ذات مظاهر متعددة ومختلفة حسب اختلاف المثيرات وفيها تكون القدرة الإدراكية مرتبطة بميل أو ميول طبيعية بحيث أنه كلما وجد الإدراك ـ بأن أحس الشخص بموضوع من الموضوعات أو فكر فيه ـ وجدت تلك الميول الخاصة ووجدت معها انفعالاتها الملائمة لها[5] . ويحددها البعض الثالث بأنها «عبارة عن اتجاه وجداني نحو موضوع بعينه مكتسبة بالخبرة والتعلم[6]» . ومن

---

(1) سورة الحشر ١٨ .
(2) سنن الترمذي كتاب القيامة ج٤ ص ٥٤ .
(3) سنن الترمذي كتاب صفة القيامة ج٤ ص٥٤ .
(4) علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية ص ٢٢٦ .
(5) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص ٣٠ .
(6) الصحة النفسية . دكتور مصطفى فهمي ص ٢٨٢ .

حيث تعلق العاطفة بموضوع معين يقسمونها إلى أنواع حسب الموضوعات فهناك عاطفة تدور حول موضوعات مادية وأخرى تدور حول موضوعات جماعية واجتماعية وثالثة تدور حول موضوعات مجردة كعاطفة الميل نحو المثل الأخلاقية والروحية[1] .

إذن هذا النوع الأخير من العاطفة وهو العاطفة الأخلاقية هو الذي يختص بميدان دراستنا وعلى ذلك نحدد العاطفة الأخلاقية بأنها تكوين نفسي مكتسب نحو المبادئ الأخلاقية بحيث يكون ذلك التكوين قوة دافعة وزاجرة في آن واحد تدفع الإنسان إلى المشاركة القلبية أو النفسية مع المبادئ الأخلاقية الحميدة ثم تدفعه إلى السلوك الإيجابي بموجبها ، وتزجره من جهة أخرى من التعاطف مع الأخلاقية المرذولة ثم تدفعه إلى الوقوف منها موقفاً سلبياً دائماً .

أ ـ الوسائل العاطفية في نظر المربين : فيقول عنه بعض المتخصصين «إن العواطف التي تتكون تجاه هذه الموضوعات المجردة من ميل ونفور وحب وكراهية وإعجاب واحتقار هي أساس التقاليد الخلقية وهي أهم ما تتسم به الشخصية ويمتلكه الإنسان[2]» . ويرى وليم مكدوجل أن العاطفة الأخلاقية تكون أكبر دافع إلى السلوك الأخلاقي إذا أصبحت هي العاطفة السائدة ، وذلك عندما توجه عاطفة اعتبار الذات التي هي أقوى معين لدافع السلوك عندما توجه هذه الأخيرة بالمثل الأخلاقية وتوضع في قالبها . فيقول مثلاً «ولا تكتسب عاطفة مراعاة الذات هذه الفضيلة وتلك القدرة (في توجيه الذات) إلا عندما تصبح عاطفة مسيطرة مع اهتدائها بمثل أعلى من مثل الأخلاق[3]» ومن ثم يقول «فالعواطف الخلقية تعين صفات الخلق ونوع السلوك ، أما مراعاة الذات فإنها تكفل للدوافع والرغبات التي تنبع منها الطريق القويم بين الدوافع المتعارضة وبذلك تجعل السلوك منسجماً مع نفسه وتجعل الخلق مستقلاً بذاته وتساعده على أن يتجه من جديد نحو النجم

(١) المرجع السابق ص ٢٨٢ .
(٢) الدكتور مصطفى فهمي في كتابه الصحة النفسية ص ٢٨٦ .
(٣) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ٨٢ .

الهـادي في سـمـاء مـثله الأعلى وأن يتـبـعـه دائمـاً حـتى في أشق الطرق وأوعرها[1]» ،ولهذا كله نجد كثيرا من المربين غير هؤلاء يهتمون بتكوين العاطفة الاخلاقية[2]» . وأما التربية الأخلاقية العاطفية فتتم عن طريق تكوين عناصر العاطفة الأخلاقية وأهم هذه العناصر أربعة وهي الحب والكره والرغبة والرهبة ، والحب أساس الرغبة ، كما أن الكره أساس الرهبة والزجر ويدفع إلى تجنب المكروه .

ولهذا كان تكوين الحب للفضائل والكره للرذائل موضع اهتمام المربين في الدرجة الأولى كما سنرى ذلك أثناء دراستنا للموضوع ، ذلك أن حب الفضائل دافع إلى الالتزام بها أولاً . ثم إنه منبع هام يسقي الشخصية الإنسانية بروح الخير الفياض التي تجعلها تفيض بالخير على الناس ثم تصبح كالشجرة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . وكذلك كره الرذائل والنفور منها زاجر عن اقترافها بل الاقتراب منها كما يدفع كره القاذورات إلى عدم الاقتراب منها . ويجب العمل لتكوين العاطفتين (عاطفة الحب للفضائل وعاطفة الكره للرذائل) معاً بدرجة واحدة في الوقت نفسه لا بالنسبة إلى الفضائل عامة فحسب بل بالنسبة إلى كل فضيلة وضدها أو بالنسبة إلى كل صفة وضدها فإذا كونا مثلاً حباً للكرم يجب أن نكون في الوقت نفسه بغضاً للبخل وهكذا نفعل في سائر الصفات الأخرى . كما ينبغي أن نكون العاطفتين بعينهما إزاء الأشخاص الذين يتصفون بالفضيلة أو الرذيلة فيجب أن نبدي إعجابنا وحبنا للفضلاء وأن نبدي احتقارنا للأرذال أو الفجار والفساق . إذ إن ذلكم يكون عند المتربين عاطفة حب الفضيلة والفضلاء وبغض الرذيلة والأراذل على نحو أكثر تكاملاً .

ولهذا نجد وليم مكدوجل عندما يأتي في موضوع تنمية الصفات الأخلاقية عن طريق العاطفة أو اثارة العاطفة نحوها يعطي أهمية خاصة لهذا الموضوع فيقول

---

(١) المرجع السابق ص ٨٥ .

(٢) التربية العامة ص ٢٧٠ .

«وكل عاطفة خلقية ذات قطب مزدوج فإن كنت قد تعلمت أن تميل إلى صفة من الصفات كالكرم فتعجب بها إلى ان تحبها ، فمن المرجح أن تكون قد تعلمت أيضاً إلى درجة ما أن تنفر من الدناءة والخسة وتحتقرهما أو تكرههما . ويصدق هذا على كل زوج من الأضداد كالرقة والفظاظة والاعتدال والشراهة والتواضع والغرور والصراحة والخذلان[1]» .

ذلك أن العاطفة طاقة وإثارتها تحريكها واستخدامها . إذن فالحكمة تقتضي استخدام الطاقة الزائدة كلما كان العمل يحتاج إلى أكبر قدر ممكن من الطاقة والجهد أو بتعبير موجز يجب أن تتناسب إثارة العواطف في ميدان التنمية الأخلاقية مع الجهود التي تتطلب كل صفة من الصفات الأخلاقية ، فمثلاً فعل الفضيلة يتطلب جهداً أكثر من ترك الرذيلة ، لأن فعل الشيء أصعب من تركه بصفة عامة .

وعلى هذا الأساس يرجح وليم مكدوجل التركيز على الصفات الإيجابية وتنمية عواطفها أكثر من التركيز على الصفات السلبية وعواطفها ليتعادل نمو العواطف الإيجابية والسلبية معاً . ولا يعني ذلك إطلاقاً أنه يجب ألا نهتم بالرذيلة اهتمامنا بالفضيلة في ذواتهما[2] . ثم إنه لا يكفي إبداء عاطفة التقدير للفضيلة وعاطفة الاشمئزاز للرذيلة فحسب بل لا بد مع ذلك من إبداء هاتين العاطفتين للذوات الفاضلة أيضاً أي يجب أن نبدي إعجابنا للذات الفاضلة كما نبدي إعجابنا للفضيلة ذاتها ونبدي الاشمئزاز للفاجر والفاسق كما نبديه للفجور والفسوق وجميع الأفعال المرذولة أمام الناس وخاصة أمام الأطفال وهذا يقتضي عدم معاشرة هؤلاء الناس المرذولين وهذا ما يقرره وليم مكدوجل أيضاً[3] .

بل أكثر من هذا فإنه لا يجب أن نوجه تلك العواطف وأن نعبر عن تلك الانفعالات تجاه سلوك الآخرين وشخصياتهم فحسب ، بل يجب أن نوجهها

---

(١) الأخلاق والسلوك في الحياة . وليم مكدوجل ص ١٥٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٥٩ .

كذلك إلى أفعالنا وذواتنا أيضا ، فيقول هنا وليم مكدوجل «وإلى جانب هذا المبدأ يمكننا أن نضع مبدأ آخر له أهمية عملية في علاقته بأخلاقنا وفي تربية أطفالنا وأعني به أنه ينبغي أن ننبه إلى أن عواطفنا الخلقية لا تتحكم في ألوان ردود انفعالنا ومواقفنا الإنفعالية تجاه الأشخاص فحسب بل في أفعالنا أيضاً[1]» .

ومن وسائل عاطفة الحب للفضائل : والبغض للرذائل بيان ما يترتب على التمسك بالفضائل من تحقيق السعادة للفرد والمجتمع وبيان ما يترتب على السقوط في الرذائل من شرور وشقاء يؤديان إلى تعاسة الفرد والمجتمع معاً ، إذ إن النفس مجبولة على حب الخير وكره الشر وحب ما يؤدي إلى الخير وكره ما يؤدي إلى الشرور ويجب أن يكون هذا البيان أو ذاك بصورة حية تحبب إلى النفوس الفضائل وتكره إليها الشرور فعلاً لا بأسلوب خطابي تلقيني كما هو السائد بصفة عامة ، ويكون ذلك البيان حياً بأمرين :

أحدهما : تصوير عاقبة الأشرار والساقطين في الرذائل بالأساليب الفنية مثل السينما والمسرح والتليفزيون والصور المعبرة ، كأن نصور مثلاً الإنسان الذي أصيب بمرض الزهري نتيجة ارتكابه الفاحشة ذلك المنظر البشع الذي شوه جلده وقد أصبح أعمى وأصم وأصابه الشلل واختلال العقل كما يصوره بعض الأطباء بكل ما يترتب على مضاعفات هذا المرض الخبيث ، ثم كيف أن هذا المرض انتقل إلى أسرته وذريته وأصبحوا مشوهين في الخلق مثله كما يصبو رحال المصاب بالأيدز .

وثانيهما : بضرب الأمثلة الحية من التاريخ كيف أن الأمم التي سقطت في الرذيلة سقطت وانهارت حضارتها وكيف أنها عندما تمسكت بالفضائل الأخلاقية نهضت وعظمت وأصبحت صاحبة حضارة . هذا ما يقرره أيضاً كثير من المربين المحدثين[2] ، بل إن بعضهم عقد فصلاً خاصاً في كتابه باسم التدريب الخلقي عن طريق التاريخ والأدب[3] .

---

(1) المرجع السابق ص ١٥٩ .

(2) أنظر على سبيل المثال : كتاب روح التربية . دكتور غوستاف لوبون ص ٣٤٣ ، وكتاب التربية لعالم حائر سير رتشارد لفنجستون ص ٧٣ .

(3) أنظر الفصل الثالث في كتاب التربية لعالم حائر .

ومن الغريب أن أفلاطون قديماً أدرك القيمة التربوية لهذه الحقيقة وتعرض لها فيقول مثلاً «وإذا لم نميز بين العظمة والصلاح فإن في مقدور التاريخ أن يفسد كما أن في مقدوره أن يثقف وبذلك ينقطع عن أن يكون أداة التربية الأخلاقية(١) . وبناء على ذلك ينصح بعدم السماح للشباب أن يدرسوا ويقرأوا كتب التاريخ التي تبيح ارتكاب الجرائم الأخلاقية للمصلحة القومية ، أو لأن القوانين الوضعية تبيح ذلك كما ينصح بعدم السماح للصبية بقراءة كتب أدبية فيها مفاسد أخلاقية(٢) .

ومن وسائل تكوين العاطفة الأخلاقية التي ينصح بها بعض المربين ربط الأخلاق بعاطفة احترام الذات وبيان ذلك للمتربي بأنه إذا أراد أن يحترم في المجتمع عليه أن يحترم المبادئ الأخلاقية وأنه عن طريق قدرته على التسامي في سلم الفضائل يصبح من أفضل الشخصيات الاجتماعية وأكثرها احتراماً وقبولاً ، ونجد هنا وليم مكدوجل يؤيد هذه الفكرة من حيث إن عاطفة اعتبار الذات من العواطف الأساسية وعن طريق تشجيع هذه العاطفة يمكن تكوين عاطفة أخلاقية لدى الأبناء(٣) .

وأخيراً من تلك الوسائل أيضاً : ربط الفضائل الأخلاقية أساساً بشرف الإنسانية وأن من يعدل عنها ويسقط في الرذيلة يزل من نفسه شرف الإنسانية بل يسيء إلى شرف الإنسانية والضمير الإنساني وهذا ما يدعو إليه كانط حيث يدعو المربين إلى إحياء الإحساس بهذا الشرف وإنمائه ليكون ذلك الإحساس رقيباً يحاسبهم على كل شر سري أو جهري(٤) .

ب ـ الوسائل العاطفية في نظر الاسلام:

إذا درسنا الموضوع في الاسلام وجدناه قد قرر عدة وسائل هامة :

منها : تكوين المحبة لله ثم ربط هذه المحبة بالقوانين الأخلاقية باعتبارها أوامر

(١) المرجع السابق ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠١ .

(٣) الأخلاق والسلوك في الحياة وليم مكدوجل ص ٧٦ . .

(٤) كتاب التربية لكانط ص ٧٩ ـ ٨٠ .

صادرة من الله لخير العباد، إذ الإنسان إذا أحب واحداً ينبغي أن يطيع أوامره لأن المحب لمن يحب مطيع، ثم إن العاطفة تتعدى من موضوع الحب إلى كل ما يتصل بذلك الموضوع بصلة[1]، ولهذا قال تعالى لنبيه «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله[2]» لأن ما يأمر به هو ما أمر الله به، لذا ربط الله بين حبه لعباده وبين اتباعهم للفضائل فقال «وأحسنوا إن الله يحب المحسنين[3]».

ومنها: اتخاذ أسلوب التشبيه والتمثيل، تشبيه الضالّ بالأشياء الحسنة الجميلة وتشبيه الرذائل بالأشياء القبيحة الممقوتة وتمثيلها بالصور الذهنية والخيالية وقد جاء في القرآن والسنة أمثلة عديدة من هذه التشبيهات والتمثيلات، مثلاً تشبيه الله غيبة الإنسان أخاه الإنسان بأكل لحمه ميتاً فقال تعالى «ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه[4]»، ومثل تشبيه النفقات المختلفة التي يقدمها المرء خالصة لوجه الله بالجنة التي تحوي فواكه مختلفة وتؤتي ثمارها مضاعفة «ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين[5]»، وفي آية أخرى شبهت النفقة بحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم[6]»، ومثل تشبيه المستقيم الذي يسير على الطريق المستقيم بالبصير والمنحرف بالضال الأعمى «أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم[7]»، «وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون[8]».

---

(١) يقرر ذلك أفلاطون أيضاً بقوله «ان من يهيم بشيء يلذ له شيء آخر تربطه بالشيء المحبوب أقرب الصلات» (الجمهورية ص ١٠١).

(٢) سورة آل عمران ٣١.

(٣) سورة البقرة ١٩٥.

(٤) سورة الحجرات ١٢.

(٥) سورة البقرة ٣٦٥.

(٦) سورة البقرة ٢٦١،

(٧) سورة الملك ٢٢.

(٨) سورة غافر ٥٨.

ومنها : استخدام وسائل إثارة الانفعالات العاطفية ضد الأفعال غير الأخلاقية مثل إثارة الانفعال ضد التكبر والخيلاء ، يقول تعالى «ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا[(١)]» . ومثل الإثارة ضد البهتان ببيان مدى الهول والإثم الذي يرتكبه الإنسان بالبهتان وخاصة إذا كان ذلك في حق الله ولهذا نجد الله سبحانه يخوفنا بشدة من مثل هذه الجريمة بقوله «وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئاً إدّاً ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً[(٢)]» .

ومن وسائل الإثارة استخدام الأساليب اللغوية المثيرة للانتباه مثل استخدام أدوات التنبيه وتكرار الجمل وذكر الأماكن المتصلة بموضوع الإثارة كما نجد ذلك في قول الرسول عند بيان مدى حرمة التعدي على أموال الناس وأعراضهم وعلى أنفسهم في حجة الوداع «ألا إن أحرم الأيام يومكم هذا وإن أحرم الشهور شهركم هذا ألا وإن أحرم البلد بلدكم هذا ألا وإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا وفي بلدكم هذا[(٣)]» .

ويضاف إلى هذه الوسيلة وسيلة أخرى وهي قيام المربي بحركات معينة مع استخدام تلك الأدوات اللغوية وهذا ما كان يفعله الرسول من اتخاذ الأساليب المثيرة والقيام بحركات معينة عند بيان الأمور الهامة فمثلاً يروى أنه قال مرة لأصحابه «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ، قلنا بلى يا رسول الله قال الإشراك بالله وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس وقال« ألا وقول الزور وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يقولها حتى قلنا ليته سكت[(٤)]» . فنجد هنا عدة أساليب للإثارة منها أداة الاستفتاح ألا للتنبيه ثم تكرار الجملة ثم حركته من الإتكاء إلى الجلوس مثل هذه الإثارة ينصح

---

(١) سورة الإسراء ٣٧ .

(٢) سورة مريم ٨٨ ـ ٩١ .

(٣) سنن ابن ماجه كتاب الفتن باب حرمة دم المسلم وماله ج٢ ص ١٢٩٢ .

(٤) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الأدب ج١٣ ص ١١ .

بها رجل التربية في مجالات التربية لإثارة الأذهان والانفعالات العاطفية[1] .

ومن الوسائل الحديثة : التي يمكن استخدامها في تكوين العواطف الأخلاقية عمل التمثيليات المسرحية والأفلام السينمائية لهذا الغرض ، فإنها خير وسيلة لإثارة الانفعالات وإحياء المبادئ الأخلاقية في قلوب الناس ، وذلك باستخدام وسائل تشويق الناس إلى الفضائل وتنفيرهم من الرذائل بالحركات والصور الحية وعرض القصص الحية لتكوين عاطفة الحب للفضائل والبغض للرذائل .

ومنها ذكر القصص وتاريخ الأمم لتصوير كيف أن سوء الأخلاق أدى إلى سقوط الأمم وضياعها لتشمئز نفوس النشئ من الأخلاق البشعة وتتعاطف مع الفضائل التي تنهض بالأمم من رقدتها وتهيء لها عوامل البقاء والرقي .

يقول هنا الدكتور غوستاف لوبون «ونحن إذا ما تتبعنا في الأسباب التي أدت إلى انهيار الأمم وهي التي حفظ التاريخ لنا خبرها كالفرس والرومان وغيرهم وجدنا أن العامل الأساسي في سقوطها هو تغير مزاجها النفسي تغيراً نشأ عن انحطاط أخلاقها ، ولست أرى أمة واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها[2]» . وهذا ما يقرره أيضاً المؤرخ المشهور جيبون عندما يحلل تاريخ الإمبراطورية الرومانية فيرجع عظمتها إلى رفعة أخلاقها ويرجع سقوطها إلى سقوط أخلاقها وانحلالها[3] .

ولهذا نجد القرآن قد نعى على تلك الأمم التي بادت وزالت بسبب انحلال أخلاقها وانحرافها عن السنن السوية فقال تعالى عن سبب هلاك قوم صالح «ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً . . . قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة . . . وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . . . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون[4]» . «وأما ثمود

---

(١) التربية وطرق التدريس ج ١ ص٢٠٣ ـ ٢٠٩ .
(٢) السنن النفسية لتطور الأمم ص ١٧٢ .
(٣) الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ج ١ ص ٢٣٠ ـ ٢٥٩ .
(٤) سورة النمل ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٢ .

فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون[1]» .

وكذلك يتكلم عن مصير أقوام آخرين كيف انقرضوا وأصبحت مدنهم خاوية على عروشها «وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين . . . فكأي من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها[2]» . «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين[3]» ، «أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[4]» . وغير ذلك من الآيات التي تحكي تاريخ الأمم وتبين سبب زوالها وهو الفساد والظلم والإجرام والطغيان وكلها أسباب أخلاقية .

وفيما يتعلق بالقصص فإن القرآن قد أورد كثيراً منها وفي كل واحدة منها أظهر مثلاً أخلاقياً تمثله شخصية أو عدة أمثلة تمثلها عدة شخصيات . وكلها قصص تربوية تبرز شخصيات مثالية تثير في النفس انفعالاً نحوهم لمحاكاتهم في مثلهم «وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين[5]» .

كما تثير القصص في النفس انفعالاً يدفعها إلى التأمل والتفكر في أسباب الأحداث . ولهذا قال تعالى «فاقصص القصص لعلهم يتفكرون[6]» ومن ثم يمكن أن يكون ضرب القصص وسيلة لتبيان الحق من الباطل والخير من الشر «إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين[7]» وذلك إذا كانت تلك القصص حقيقية

(١) سورة فصلت ١٧ ـ ١٨ .

(٢) سورة الحج ٤٣ ـ ٤٥ .

(٣) سورة آل عمران ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٤) سورة الروم ٩ .

(٥) سورة هود ١٢٠ .

(٦) سورة الأعراف ١٧٦ .

(٧) سورة الأنعام ٥٧ .

لاخيالية وبأسلوب علمي هادف لا لهدف التسلية كشأن كثير من القصاصين وهذا الأسلوب العلمي في ضرب القصص هو الأسلوب السائد في القرآن ولهذا قال تعالى «فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين[1]» .

ولهذا كله فإن القصص القرآنية لم ترد للتسلية ، كما أنها ليست من القصص الخيالية وهي كذلك ليست من تلك القصص السيئة التي تخلط الحق بالباطل والخير بالشر وإنما وردت للفصل بين الحق والباطل وبين الخير والشر ولتبين للناس مصير الأخيار والأشرار ليكون ذلك عظة وعبرة لهم ودافعاً إلى الحق والخير عن طريق إثارة العواطف بتمثيل الشخصيات تمثيلاً حياً حسناً ، ولهذا قال تعالى «نحن نقص عليك أحسن القصص[2]» .

ففي قصة يوسف مثلاً نجد شخصية مثالية في العفة ، إنه شاب تراوده امرأة الملك عن نفسه وهو في بيتها فمأكله ومشربه ومأواه في يدها وليس له أحد ينفق عليه لأنه غريب وهي تهدده بطرده وتشريده وسجنه إن لم يفعل ما تأمره به ، مع ذلك يرفض طلبها بإباء وعزة نفس ويستعيذ بالله ويرضى بالسجن بدل ارتكاب الرذيلة قائلاً : «رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه»[3] ، فقال تعالى تعبيراً عن هذه القصة «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون»[4] . وقالت «لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ، قال رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه[5]» .

وفي قصة سحرة فرعون مثال في إيثار الحق على كل غال . فإن فرعون يهددهم بقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم في جذوع النخل إن لم يعدلوا عن إيمانهم برسالة موسى فيقولون في عزة نفس فافعل ما شئت لن نؤثرك على ما جاء به من البينات فاقض ما أنت قاض فقال تعالى معبراً عن قصتهم «فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا

---

(١) سورة الأعراف ٧ .
(٢) سورة يوسف ٣ .
(٣) سورة يوسف ٣٣ .
(٤) سورة يوسف ٢٣ .
(٥) سورة يوسف ٣٢ـ٣٣ .

برب هارون وموسى ، قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا[1]» .

ونجد كذلك في قصة جماعة من المؤمنين مثالاً في إيثار غيرهم على أنفسهم في الطعام مع شدة حاجتهم إليه فقال تعالى وهو يعبر عن إيثارهم هذا « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً» ويقولون «إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً[2]» .

وكذلك في قصة الأنصار نجد لإيثارهم المهاجرين على أنفسهم فقال الله عن قصتهم «للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون[3]» .

وهكذا نجد في كل قصة من تلك القصص وسيلة أو عدة وسائل تحبب إلى الناس الفضيلة وتكره إليهم الرذيلة .

ولننتقل الآن إلى وسائل تكوين عنصرين آخرين من عناصر العاطفة الأخلاقية وهما كما بينا الرغبة والرهبة ، الرغبة في الفضيلة والرهبة أو الخوف من الرذيلة . فإن المتربي يجب أن يخاف من الرذيلة وأن يرغب في الفضيلة لأن الرذيلة شر ويجب على الإنسان السوي أن يخاف من الرذيلة وأن يرغب في الفضيلة ، لأن الرذيلة شر ويجب على الإنسان السوي أن يخاف الشر وأنّ الفضيلة خير ويجب أن

---

(١) سورة طه ٧٠ ـ ٧٢ .

(٢) سورة الإنسان ٨ ـ ٩ .

(٣) سورة الحشر ٨ ـ ٩ .

يرغب الإنسان فيها . ولكن لتكوين هذا الشعور يجب أن نضع في الشعور من البدء المخاوف مما يجب أن يخاف منه وأن نضع الرغبات فيما يجب أن يرغب فيه وينبغي أن تتذكر هنا ما قاله أفلاطون قديماً وأيده أرسطو من بعده ، قال أرسطو «في الواقع أن الفضيلة الأخلاقية تتعلق بالآلام واللذات ، وما دام أن طلب اللذة هو الذي يدفعنا إلى الشر وخوف الألم هو الذي يمنعنا من فعل الخير . من أجل ذلك ينبغي منذ الطفولة الأولى كما يقول أفلاطون بحق أن نوجه بحيث نضع مسراتنا وآلامنا في الأشياء التي ينبغي أن نضعها فيها وفي هذا تنحصر التربية الطيبة[1]» .

ومن وسائل التخويف العقوبة وهي ألم نوقعه في نفس المتربي بعد كل رذيلة أو خطيئة يرتكبها ، وذلك لتقترن الرذيلة بالشر في عقله الباطن وفي وعيه الكامن . ومن وسائل الترغيب الإثابة ، وهي السرور الذي تدخله في نفسه عقب فعله أي فضيلة من الفضائل لتقترن بالسرور باستمرار سواء كان السرور الذي ندخله في نفسه مادياً أو معنوياً .

وأهمية هاتين الوسيلتين تزداد في السنين الأولى من حياة الطفل أكثر من السنين الأخيرة وخاصة ما كان منهما مادياً ولكن يجب عدم الاقتصار على هاتين الوسيلتين باستمرار وألا يدخل في وعي الطفل أنه سينال عاجلاً دائماً نتيجة الفضيلة والعقاب نتيجة الرذيلة ومن ثم سيكون مدللاً في سلوكه كالطفل الذي لا يعمل عملاً إلا انتظاراً للمثوبة أو خوف العقوبة ، ثم عندما يكبر فلا يجد مثوبة على فعله الحسن أو عقوبة على جرمه تتزعزع قيمة الأخلاق في نفسه كما تصبح قيمتها لا تمت إلى باطن الأخلاق بصلة كما قد تفقد قيمتها الإنسانية العليا ، ولهذا نرى بعض الدارسين ينصح بألا يكون استخدام هاتين الوسيلتين في المرحلة الأولى كالأخيرة ، كما ينصح بأن يكون استخدامها بصورة دقيقة حتى لا يفسد بهما من حيث يراد الإصلاح بهما ، يقرر هذا أحد الدارسين بقوله «الحق إن من المحال حذف أسلوب المكافأة والقصاص من هذه التربية ولا سيما في البدء غير أن من الضروري حتماً

(١) علم الأخلاق لأرسطو ج ١ ص ٢٣٣ .

إجادة استخدام هذا الأسلوب بدقة بالغة ذلك أن خطر الجزاء وتأثيره دائماً هو تأثير سلاح ماض ذي حدين فإذا طلبنا أن يتم العمل حباً في مثوبة أو خوفاً من عقاب استهدف الوجدان من عمله غرضاً خارجياً وهدفاً جاثماً في الأفق وإذا ثابرت التربية على استخدام هذا الأسلوب وحده على وجه منهجي أدت إلى اللا تخلق عن طريق إنحراف الوجدان وتشوهه أو خدره وفساده فيصبح السلوك سلوك الطفل المدلل[1]» .

ولهذه الأهمية وتلك الخطورة في استخدام المكافأة والعقوبة لتكوين عاطفة الرغبة والرهبة إزاء المبادئ الأخلاقية سواء أكانت المكافأة والعقوبة نفسية أدبية أم مادية حسية نرى أنهما وسيلتان ناجعتان إذا أحسن استخدامهما .

ولكن بالرغم من ذلك نرى المربين قد اختلفوا حول جدوى الثواب والعقاب الماديين وإن كان معظمهم ذهبوا إلى جدواهما بل إلى أهميتهما وخاصة في السنين الأولى من حياة الطفل ، وعلى ذلك نجد المربين بصفة عامة متجهين إلى اتجاهين مختلفين ، فالأول يرى ضرورة استخدامهما والثاني يرى عدم استخدامهما لعدم جدواهما . ولنعرض الآن بإيجاز آراء الاتجاه الأول . ولما كانت المكافأة بشقيها المادي والمعنوي من وسائل الترغيب والتجنب فإني بينت أثر المكافأة المعنوية في تحبيب الفضيلة من ضمن وسائل التحبيب ، ولهذا سوف أركز هنا على أثر العقوبة في تكوين عاطفة الخوف من الرذائل .

وقد انقسم المربون المؤيدون لذلك إلى آراء حسب اختلافهم في كيفيتها ومقدارها .

فالرأي الأول : يرى أن يكون العقاب أكثر من الجرم في حالة تعدي الطفل على الآخرين . وأن يتم العقاب بطريقة طبيعية بصفة عامة ما أمكن ذلك ، ومن أنصار هذا الرأي الفيلسوف المربي جان جاك روسو[2] .

---

(١) الدكتور عادل العوا في كتابه الوجدان ص ١٩٤ .

(٢) أميل . روسو ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

والرأي الثاني : يرى أن يكون العقاب بقدر الذنب وأن يكون على نمط العقاب الطبيعي ومن أنصار هذا الرأي الفيلسوف سبنسر[١] .

وأما الرأي الثالث : فيرى أن يكون العقاب المادي أقل من الذنب وهذا رأي برتراند رسل[٢] . على أنه ينصح من جهة أخرى أن يكون العقاب مثلاً بمثل فيما يتعلق بإيذاء الطفل غيره وأن يكون ذلك عاجلاً أو في الحال[٣] . ومن جهة ثالثة ينصح أن يستخدم اللوم كتأديب أدبي أقل من الثناء كمكافأة لأن الأولى للاستحقاق فقط بينما الثانية للاستحقاق والتشجيع معاً[٤] .

وأما الرابع والأخير : فيقرر أن يكون العقاب تدريجياً فيبدأ من الأخف إلى الأشد ومن الأدبي إلى المادي .

ومن أنصار هذا الرأي الإمام الغزالي . الذي يقرر أنه إن أمكن زجر الطفل عن الرذيلة بوسائل التخويف من غير ضرب كان ذلك أفضل[٥] .

ومن أنصار هذا الرأي أيضاً القابسي ويحدد العقاب بالضرب من واحد إلى عشرة وأن يكتفي من ذلك بقدر ما يكفي للزجر[٦] . وهذا رأي كانط أيضاً ويرى أن يبدأ المربي بالجزاء الأدبي أو النفسي أولاً ، فإن لم يفد ذلك ينتقل إلى العقاب الطبيعي[٧] . على أن هناك رأياً آخر في التدرج في العقوبة وهو البدء بالأشد بدل البدء بالأخف وهذا رأي ابن سينا[٨] .

وهناك صورة ثالثة من التدرج وهو أن يكون بحسب نوع الذنب وبحسب سن المتربي وبحسب الفروق الفردية في الإحساس الأدبي وهذا رأي أرسطو[٩] .

---

(١) التربية . سبنسر ص ٤٧ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٧ .
(٢) في التربية برتراند رسل ص ٦٣ . (٣) المرجع السابق ص ١٢٦ .
(٤) المرجع السابق ١٢٥ . (٥) إحياء علوم الدين ج٤ ص ١٥٧٠ـ٣ / ٧٣ .
(٦) رسالة في أحوال المعلمين وأحكام المتعلمين . القابسي ص ٣١٤ـ٣١٥ .
(٧) كتاب التربية لكانط ص ٥٦ ـ ٥٧ .
(٨) كتاب السياسة . ابن سينا . مجلة المشرق ٢٣ ص ١٠٧٤ .
(٩) علم الأخلاق . أرسطو . ج٢ ص٣٦٩ ، ج٢ ص ٣٦٧ .

وبعد ، فإننا لا ننسى هنا الدعامة الأساسية التي يقوم عليها رأي الذين يؤيدون العقوبة من المربين القدماء والمحدثين وهو أن العقوبة تعد تكفيراً لنفس المذنب ، لأن المذنب إذا لم يعاقب يكون أكثر شقاء من المجرم المعاقب ولهذا يقولون إن العقوبة علاج نفسي لهؤلاء . وهذا رأي أفلاطون قديماً[1] ورأي رونيه أوبير حديثاً ، فهو يرى أن الأطفال أكثر حاجة إلى هذا العلاج النفسي من الكبار[2] . ولعل السر في ذلك أن وجدان الأطفال أكثر نقاوة من وجدان الكبار ولهذا يعذبون بالشعور بالذنب أكثر .

وأما الاتجاه الثاني الذي لا يؤيد العقوبة فهو يرى أنها تؤدي إلى الضغينة ولأن إجرام الأطفال أو الأحداث لا يرجع إلى وجود الشر في فطرتهم وإنما يرجع إلى سوء توجيههم من الصغر ولهذا يرى العلاج في حسن التوجيه وإيجاد عمل مرغوب لكل واحد على حسب رغبتهم وتكوين الشعور بالمسؤولية لديهم من الصغر وهذا رأي هوميرلين صاحب الجمهورية الصغيرة[3] . وهو رأي المربية المشهورة الدكتورة منتسوري[4] . وأخيراً هذا ما يميل إليه أيضاً ابن خلدون[5] ، على أنه يجب أن نعلم بعد هذا كله أنه إذا كان هؤلاء لا يرون العقاب المادي فليس معنى ذلك أنهم ينكرون العقاب الأدبي أو النفسي والترهيب بالوسائل التربوية الأخرى عن الانحراف والجرائم .

والآن لننتقل إلى رأي الإسلام في اتخاذ الوسائل الترغيبية والترهيبية لتكوين عاطفة الخوف من الرذائل والرغبة في الفضائل .

أما فيما يتعلق بالوسائل الترهيبية فهناك عدة وسائل أهمها ما يأتي :

---

(١) محاورة جورجياس لأفلاطون ص ٨٠ ـ ٨٣ .

(٢) التربية العامة ص ٦٨٦ .

(٣) التربية وطرق التدريس . الأستاذ صالح عبد العزيز ج ٢ ص ٤٣ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ج ٢ ص ٥٨ وما بعدها .

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨ .

الأولى العقوبة والتهديد بها :

إن الإسلام قرر مبدأ العقوبة بأسلوب خاص يتميز في ميدان التربية عن المبادئ الأخرى بما يلي :

أولاً : إن الغاية من العقوبة هنا التهذيب وليست انتقاماً ولا قصاصاً أوحداً ولهذا سنجد الاختلاف في إيقاع العقوبة كماً وكيفاً بين ميدان التربية وميدان الحدود والقصاص .

ثانياً : إن العقوبة المادية لا توقع في كل مرحلة من مراحل نمو الطفل . فلا توقع في مرحلة الطفولة الأولى ولا الثانية حتى يبلغ السن العاشرة وقد مر الحديث الذي حدد فيه الرسول ذلك وهو قوله صلى الله عليه وسلم «مروا الصبيان بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها (لترك الصلاة) في عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع[(١)]» وفي رواية الترمذي «علموا الصبي الصلاة ابن سبع سنين واضربوه عليها ابن عشرة[(٢)]» .

وجاء في شرح الحديث ما نصه «بأن يعلموهم ما تحتاج إليه الصلاة من شروط وأركان وأن يأمروهم بفعلها بعد التعليم . . إنما أمر بالضرب لعشر لأنه حد يتحمل فيه الضرب غالباً والمراد بالضرب ضرب غير مبرح وأن يتقى الوجه[(٣)]» . والمغزى التربوي في هذا أن الإسلام لم يعد الطفل كالرجال لا من حيث المسؤولية ولا من حيث التربية ولأن الشدة على الأطفال في المراحل الأولى يكون لها التأثير الضار من الناحية التربوية كما قال التربويون وبينا آراءهم ، ولأن الشدة والضرب في المراحل الأولى يؤثر على نمو الطفل نفسياً وجسمياً وأخلاقياً .

ثالثاً : أن تكون العقوبة المادية آخر وسيلة يلجأ إليها ، إذ ينبغي أن يبدأ المربي بالنصح والتوجيه والإرشاد الجميل فإذا لم ينفع ذلك يأتي التهديد والإنذار وإذا لم

---

(١) الصحيح المستدرك في الحديث كتاب الصلاة ج ١ ص ١٩٧ .
(٢) سنن الترمذي كتاب الصلاة ج ١ ص ٢٥٣ .
(٣) تحفة الأحوذي بشرح الجامع الترمذي ج ٢ ص ٤٤٧ .

يفد التهديد والتشنيع أيضاً عندئذ ينتقل إلى الضرب وهذا ما يوحي به قوله تعالى في تأديب الزوجات «واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً[١]» . ثم إذا انتقل الأمر إلى الضرب بالضرورة فإن الضرب التأديبي مقيد بشروط .

أولها : ألا يكون في الوجه وألا يكون مبرحاً ، يقول الرسول «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب أو دعا بدعوى الجاهلية[٢]» .

وثانيها : ألا يزيد على عشرة أسواط إذا كان لتأديب الكبار ، يقول الرسول «لا يجلد أحد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله[٣]» . أما في حالة تأديب الصغار الذين بلغوا العاشرة وما فوقها فلا يزيد العقاب فوق ما يستحق أي أن يكون العقاب بقدر الذنب وهذا ما قرره الرسول عندما سأله أحد الصحابة قائلاً : «إن أهلي يعصونني فبم أعاقبهم ، قال العفو ثم قالها ثانية حتى قالها ثلاثاً ثم قال إن عاقبت فعاقب بقدر الذنب[٤]» .

رابعاً : هناك فرق بين عقوبة المخالف لأوامر المربي أو الوالدين وبين مخالفة المبادئ الأخلاقية فإن الإسلام يدعو إلى العفو في الحالة الأولى والعقاب بقدر الذنب في الحالة الثانية .

ولهذا كان الرسول يعفو دائماً إذا كانت المخالفة أو العصيان لأوامره في حقه الخاص فروى عن أنس أنه قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين والله ما قال لي أف قط ولا قال لي لشيء لم فعلت كذا أو هلا فعلت كذا[٥]» . ولهذا كان يدعو دائماً العفو والصفح في مثل هذه الأمور . أما في حالة مخالفة

---

(١) سورة النساء ٣٤ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج١ ص ٩٩ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الحدود باب التعزيز ج٣ ص١٣٣٢ .

(٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد كتاب الأدب باب تأديب الأولاد . للحافظ نور الدين الهيثمي ج٨ ص١٠٦ .

(٥) صحيح مسلم كتاب الفضائل ج٤ ص ١٨٠٤ .سنن أبي داود كتاب الأدب ج٤ ص٣٤٦ .

المبادئ الأخلاقية فكان يدعو إلى إيقاع العقوبة لترتبط الخطيئة الأخلاقية بالألم في نفوس الناس وليشعروا بالسلطة وراء المبادئ الأخلاقية دائماً ولهذا روي عن عائشة أنها قالت «ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها[1]» . والإسلام يدعو في هذا الصدد إلى ايقاع العقوبة على كل مذنب دون التفريق بين فقير وغني أو شريف ووضيع . ولهذا قال الرسول عندما طلب أسامة الشفاعة في حق المرأة المخزومية التي سرقت ، لأنها كانت من الأشراف فقال الرسول عندئذ «أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها[2]» ، لكن يجب أن نلاحظ أن الإسلام يفرق في مثل هذه العقوبة بين الصغير الذي لم يبلغ مرحلة المسؤولية وبين من بلغ تلك المرحلة ومن ثم يجب التفريق بين العقوبة بناء على المسؤولية والعقوبة لتربية الصغار إذ إنه يجب علينا في ميدان تربية الصغار أن نحاول ألا تقع منهم خطيئة أخلاقية عن طريق حمايتنا لهم بكل الوسائل من الأوساط التي يمكن أن يقعوا فيها في الخطيئة أو تتسرب إليهم الرذيلة ، هذه هي أهم وسيلة للتربية الأساسية بعد ذلك يجب أن نبين لهم ما هو حسن جميل من السلوك الذي ينبغي فعله وما هو قبيح دنيء لا يليق بالإنسان أن يفعله وإذا فعله فعليه غضب يأتيه من الله ثم عقاب طبيعي يأتيه من الطبيعة لمخالفته لقانون من قوانينها . وإذا فعل الخطيئة بعد ذلك نوقع عليه العقاب بقدر الذنب بأن نشرح أو نبين له أن ذلك العقاب لم يأته من قبلنا لأنه خالف أوامرنا وإنما جاء العقاب لأنه خالف قانوناً من قوانين الحياة التي يجب مراعاتها لنجاح حياتنا وسعادتها .

وقبل ذلك وبعده ينبغي أن يجعلهم ينظرون إلى عقوبة الذين استحقوا العقوبة

---

(١) سنن أبي داود كتاب الأدب ج٤ ص٣٤٦ .
(٢) صحيح مسلم كتاب الحدود ـ باب قطع يد السارق الشريف وغيره ج٣ ص١٣١٥ .

وأن نقول لهم انظروا كيف يعذب الذين يخالفون المبادئ الأخلاقية وهذا مصير كل من يرتكب مثل تلك الآثام والخطايا ولهذا دعا الإسلام إلى مشاهدة الناس عقوبة المجرمين ليأخذوا عبرة وليثير ذلك في نفوسهم الخوف من ارتكاب الجرائم وليحصل عندهم النفور والاشمئزاز إزاء كل الخطايا والجرائم الأخلاقية، ولهذا قال تعالى «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين[1]»، ولأن أثر المشاهدة أوقع في النفوس فليس من سمع كمن شاهد .

خامساً : إن عدم سماح الإسلام بإيقاع الضرب على الصبي إلى السن العاشرة في ميدان التربية لا يمنع من استخدام أساليب ووسائل العقوبة الأدبية حتى في تلكم المراحل الأولى مثل النظرة العابسة أو عدم إبداء الاهتمام به لمخالفته الأدب أو عدم تحقيق بعض المطالب المادية ومنعه من بعض ملذاته كل هذا جائز شريطة ألا يؤثر ذلك في نموه الطبيعي وألا يكون أكثر من قدر الذنب الذي حدده الرسول سابقاً .

سادساً : إنه إذا أعطى الإسلام المربي حق العقوبة المادية فليس من الضروري استخدام العقوبة مثل القصاص في حق المجني عليه فإذا كان الإسلام قد أعطاه حق القصاص فليس معنى ذلك أنه يشجعه عليه بل الإسلام يشجع على العفو، وهذا يقتضي أنه إذا أمكن الاستغناء عن الضرب فهو أولى .

وعلى المربي أن يقتدي في ذلك برسول الله إذ كان لا يضرب ولا يشتم لأن ذلك يجعل الأبناء يكرهون الآباء والمربين ولهذا قال معاوية بن الحكم السلمي تعبيراً عن تربية الرسول : «بأبي هو (رسول الله) وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني[2]» . وروى عن عاشة «ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خادماً ولا امرأة قط[3]» . وكان الرسول إذا رأى خطأ حدث من بعض أصحابه لا يوجه إليه التوبيخ مباشرة وإنما كان يوجه

---

(١) سورة النور ٢ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب المساجد ج٥ص٢٠ .

(٣) سنن أبي داود ج . كتاب الأدب ٤ ص٣٤٦ .

التشنيع إلى الفعل جاعلاً الفاعل مجهولاً وكأنه لا يعرفه وذلك لكيلا يخدش حياءه فيخجل من سماع التشنيع بالفعل الذي ارتكبه فقد روى عن عائشة رضي الله عنها قالت «كان النبي إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول : ما بال أقوام يقولون كذا وكذا[1]» .

وروى «أن رجلاً دخل على الرسول أثر صفرة فلما خرج قال لو أمرتم هذا أن يغسل ذاعنه[2]» . وروى عن انس رضي الله عنه أنه قال «والله لقد خدمت الرسول تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته لم فعلت كذا وكذا أو لشيء تركته هلا فعلت كذا وكذا» . وقال« كان الرسول أحسن الناس خلقا[3]» ، ولهذا روي أن الرسول كان قلما يواجه رجلاً في وجهه بشيء يكرهه[4]» . وذلك لأن مواجهة المذنب بالتشنيع أمام الناس تثير الضغينة والبغضاء ، ثم من حيث التربية يكفي التشنيع بالفعل أمام الناس لأنه يثير عاطفة الاشمئزاز في نفس كل من سمع ولا يقتصر تأثيره على الفاعل . ويحكي أنس عن أسلوب تربية الرسول فيقول «كان رسول الله من أحسن الناس خلقاً . فأرسلني يوماً لحاجة فقلت والله لا أذهب ، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله صلى الله عليه وسلم فخرجت حتى أمر على الصبيان وهم يلعبون في السوق فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفاي من ورائي قال فنظرت إليه وهو يضحك فقال : يا أنس أذهبت حيث أمرتك «قال ، قلت نعم . أنا ذاهب يا رسول الله[5]» .

والثانية : من وسائل الترهيب الترهيب بالله وبعذابه الشديد في الدنيا والآخرة :

وذلك بربط غضبه ومقته بالرذائل مما يترتب عليه طرد من ارتكب الجرائم الأخلاقية من رحمته في الدنيا وتعذيبه بالنار الدائمة في الآخرة وتلك وسيلة مهمة

(١) سنن أبي داود . كتاب الأدب ج٤ ص٣٤٧ .
(٢) المرجع السابق ج٤ ص ٣٤٧ .
(٣) صحيح مسلم . كتاب الفضائل ج٤ ص١٨٠٥ .
(٤) سنن أبي داود . كتاب الأدب ج٤ ص ٣٤٧ .
(٥) صحيح مسلم . كتاب الفضائل ج٤ ص ١٨٠٥ .

في نظر الإسلام ولهذا نجد في القرآن آيات كثيرة تعبر عن أثر تكوين عاطفة الرهبة في السلوك الأخلاقي ، ومن تلك الآيات التي تعبر عن مسلك عباد الله ازاء المواقف الأخلاقية قوله تعالى «لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين[1]» ، «قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم[2]» ، «يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون[3]» .

حقاً إنه إذا تكونت عاطفة الرهبة بالله وارتبطت تلك العاطفة بالأخلاق فإنه مما لا شك فيه يكون لها ذلك التأثير العجيب في السلوك ويتكون ذلك الدافع القوى إلى الالتزام بالفضيلة والانزجار عن الرذيلة ، لكن تكوين تلك العاطفة متوقف على استخدام بعض الأساليب والوسائل التربوية مثل بيان مدى شدة غضب الله على عصيانه ومدى تعذيبه للمجرمين والمفسدين وإنه سوف يعذبهم عذاباً لا يعذب مثله أحد «فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد[4]» . وإنه وعد بتعذيب الخارجين عن طريقه والعاصين أوامره بذلك العذاب «وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم[5]» ، وما أشد ما تثيره هذه الآية في النفس من رعب «فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق[6]» .

ومثل الإكثار من تلقين ذكر الله بصفاته وجلاله وغضبه وعذابه للعاصين والمنحرفين ، فإن تذكر الله وصفاته تلك وخاصة في مواطن الزلل وعند الخوف من السقوط في الرذيلة يثبت القلب ويردعه عن الرذيلة «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون[7]» .

---

(١) سورة المائدة ٢٨ .
(٢) سورة الأنعام ١٥ .
(٣) سورة النحل ٥٠ .
(٤) سورة الفجر ٢٥ ـ ٢٦ .
(٥) سورة التوبة ٦٨ .
(٦) سورة الحج ١٩ ـ ٢٢ . (٧) سورة الأنفال ٢ .

فإن معرفة الله مع صفاته وآثاره في الإنسان وفي الأرض وفي الكون تدعو إلى خشيته «إنما يخشى الله من عباده العلماء[١]» ، «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون[٢]» ، «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين[٣]» .

ذلك أننا إذا أردنا أن نخيف الطفل من شيء ما نذكر له صفاته المرهبة المخوفة وكلما زدنا في ذكر تلك الصفات زاد خوفه منه وكذلك نفعل إذا أردنا تخويفه من الله . ولذلك نجد في القرآن آيات كثيرة تتحدث عن الصفات الإلهية المرهبة لأنه كلما زاد خوف الإنسان من الله زاد انزجاره عن معصيته بالسقوط في الرذيلة ويتكلم الإمام الغزالي عن أثر الخوف في ارتداع الإنسان عن المعاصي فيقول «ولا تقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدرما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى[٤]» .

أما تكوين عاطفة الرغبة في الفضائل فتتم أيضاً باستخدام وسائل خاصة لذلك . فمن تلك الوسائل الترغيب عن طريق الله وذلك يتم بوسائل :

منها : تذكيرهم برعاية الله لعباده وإنعامه عليهم وإفضاله لهم وهذا يقتضي أن يشكروا الله على تلك النعم وأن يطيعوا أوامره وأن يتجنبوا عصيانه ، يقول كانط هنا «علينا أن ننسب كل شيء إلى أسبابه ثم بعد ذلك ننسبه إلى الله ثم نريه كيف أن

(١) سورة فاطر ٢٨ .

(٢) سورة الأعراف ٢٠١ .

(٣) سورة يوسف ٢٣ ـ ٢٤ .

(٤) إحياء علوم الدين ج٤ ص١٦٠ .

جميع هذه العوالم مرتبة منظمة بديعة النظام ومع هذا التظام البديع نرى هذه العوالم موجهة نحو سعادة الإنسان في حياته ، لنبدأ أولاً بتعليم الصبي معرفة الله تعالى بأن نضرب له الأمثال ونقول له إنما مثل الناس على هذه الأرض مع ربهم كمثل الأب مع أسرته كلهم يحيطهم بعنايته ويكلؤهم بعطفه ورحمته[1]» ، ثم يدعو إلى ربط الأخلاق بالله فيقول «ليكون أول التعاليم الدينية بيان الرذائل والفضائل وآخرها معرفة الله[2]» ، ثم يقول «إن الطريقة الحقيقية لتمجيدنا الله عز وجل تنحصر في أن نعمل تبعا لأوامره ولا جرم إن هذه الطريقة المثلى هي التي يجب أن نعلمها للصبيان[3]» وأخيراً يقول في هذا الصدد «إن التفكر في جمال الله عز وجل يجب أن يملأ قلوب الناس بالاحترام والتبجيل في أي وقت يسمعون فيه ذكره[4]» ثم يشرح كيفية تلقين ذلك الشعور «على الصبيان أن يتعلموا كيف يشعرون بالاحترام للذات القدسية الإلهية من حيث أنه تعالى سبحانه هو الذي يبعث الحياة في الأنفس وبعنايته أقام العوالم كلها وفوق ذلك هو الذي ساعد الإنسان على الأرض فعاش بعنايته[5]» .

وينصح الغزالي بما يشبه ذلك أيضاً[6] ، ولذلك قال تعالى «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار[7]» .

ومنها تذكيرهم بأن ذلك الإنعام يتطلب الاستجابة لأوامر الله وترك المنكرات «ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر

---

(١) كتاب التربية لكانط ص ٨٣ - ٨٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٩٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٩٤ .
(٥) المرجع السابق ص ٩٤ - ٩٥ .
(٦) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ١٤٦ .
(٧) سورة آل عمران ١٩٠ - ١٩١ .

عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . . . فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى[(١)]» ، «أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً[(٢)]» .

وهكذا ينبغي أن نبصر المتربين بنعم الله تعالى أسبغها على عباده ظاهراً وباطناً وسخر لهم الكون وما فيه ، وما يقتضي ذلك منهم من الطاعة لأوامره ، وأن نغرس في أفئدتهم رجاءه تعالى بأنه سينصر عباده المخلصين «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد[(٣)]» . وأن نذكرهم بأن الله تعالى يحب الذين يسارعون في عمل الخيرات ويرغب في تكريمهم إذا فعلوا ذلك رغبة في الله وتجنبوا الرذائل رهبة منه ، ولهذا مدح الله مثل هؤلاء بقوله «إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين[(٤)]» .

ومنها أيضاً : التذكير بأن مصير الإنسان الفاضل السعادة في الدنيا والآخرة فإن الإنسان العاقل يعد العدة للمستقبل أكثر مما يعدها للحاضر بل يضحي بالحاضر في سبيل المستقبل إذا كانت سعادته فيه ، وكلما كانت مدة تلك السعادة أطول كان ذلك أكثر دافعاً وكانت الوسائل التي تؤدي إليها مرغوبة فما بالك إذا كانت السعادة التي تتوقف على الفضيلة سعادة أبدية في الآخرة لا نهاية لها ، ثم إن تلك السعادة ليست من جنس سعادة الدنيا بل إنها صافية من كل هم وغم وحزن وفيها من المتع ما لم يخطر ببال أحد «مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم[(٥)]» وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تصف الجنة والحياة السعيدة

---

(١) سورة آل عمران ١٩٣ ، ١٩٥ .

(٢) سورة الإسراء ٥٧ .

(٣) سورة غافر ٥١ .

(٤) سورة الأنبياء ٩٠ .

(٥) سورة محمد ١٥ .

فيها بأجمل الأوصاف وأشدها تشويقاً إلى اتباع طريق الجنة في هذه الحياة وهو طريق التقوى والفضيلة «والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون[1]» ، «تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وذلك الفوز العظيم[2]» .

ومن وسائل تكوين عاطفة الرغبة في الفضائل تشجيع الإسلام الناس على الإحسان إلى المحسنين واحترامهم وتقديرهم لفضائلهم بالوسائل المختلفة مثل المكافأة والثناء والشكر لفضلهم والدعاء لهم ، إذ إن كلمة تقدير واحدة قد يكون لها تأثير تشجيعي أكثر من مكافأة مادية وخاصة بالنسبة لبعض الناس الذين يكون الإحساس الأدبي عندهم راقياً ويهتمون بالقيم الأدبية أكثر من اهتمامهم بالقيم المادية ، ثم إن الإنسان الفاضل إذا رأى الناس يقدرون فضله وفضائل الناس تتكون عنده عاطفة الرغبة في فعل الفضائل والاستمرار فيها والتحمس لها أكثر فأكثر ويكون الأمر عكس ذلك إذا سوى الناس في المعاملة بين الصالح والتقي وبين الخير والشرير فتزول قيمة الفضائل في نفوس الناس وفي مشاعرهم بطريق لا شعوري وبطريق غير مباشر ولهذا قال تعالى «أم نجعل المتقين كالفجار[3]» ، «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون[4]» ولهذا دعا الرسول إلى إكرام الفضلاء ومكافأتهم والثناء عليهم فقال «من صنع إليه معروف فليجزه فإن لم يجزه فليثن عليه فإن اثنى عليه فقد شكره وإن كتمه فقد كفره ومن تحل بما لم يعط فإنما لبس ثوب زور[5]» . وقال أيضاً «من صنع إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء[6]» . وأخيراً قال «لا يشكر الله من لا يشكر الناس[7]» .

---

(١) سورة البقرة ٨٢ .
(٢) سورة النساء ١٣ .
(٣) سورة ص ٢٨ .
(٤) سورة السجدة ١٨ .
(٥) كتاب الأدب المفرد للبخاري باب من صنع إليه معروف فليكافئه ص ٦٤ .
(٦) سنن الترمذي كتاب الأدب باب ١١ ج٤ ص٣٥٣ .
(٧) كتاب الأدب المفرد من ٦٥ باب ١١٢ .

بعد هذا كله يجدر بنا أن نشير إلى العلاقة بين جميع هذه الوسائل الأخلاقية العاطفية من حيث الوظيفة والأثر على أساس وجود علاقة مترابطة بين تلك العواطف الأخلاقية التي نريد تكوينها بتلك الوسائل ، ذلك أن من يحب شيئاً يجب أن يكره ضده فالوسيلة التي تؤدي إلى حب مبدأ تؤدي بطريق غير مباشر إلى كره ضده وأن من يحب شخصاً يخاف عصيانه ومن لم يعصه يرغب في عطفه ورحمته كما أن من يحب مبدأ يرغب في تطبيقه وكذلك من يخف شيئاً يرهب من الاقتراب إليه وإذا تكونت عاطفة الخوف إزاء شيء يأتيه شعور الرهبة منه .



الفصل الرابع

الوسائل الإرادية للتربية الأخلاقية

أ ـ طبيعة الإرادة وأساليب تقويتها في نظر المربين

لا يمكن أن تتم التربية الأخلاقية بتكوين البصيرة الأخلاقية والعاطفة الأخلاقية ما لم تتوجها بتربية الإرادة الأخلاقية القوية . وتربية مثل هذه الإرادة تتوقف على استخدام تلك الوسائل الخاصة بهذه التربية وتحديد تلك الوسائل يتوقف على معرفة طبيعة هذه الإرادة ومنابعها وبواعثها الأساسية لأن تربية الشيء تقتضي معرفة طبيعة ذلك الشيء أولاً ، وإذا كان الأمر كذلك فما طبيعة الإرادة وما هي بواعثها الأساسية؟ يختلف في ذلك الفلاسفة والعلماء والمربون بحسب اختلاف اتجاهاتهم وتخصصاتهم .

فيذكر اللغويون أن الإرادة المشيئة والقصد وحب الشي ء والعناية به[١] وحددها بعضهم بأن الإرادة هي «نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها عليه[٢]» وقالوا «النزوع الاشتياق والميل والمحبة والقصد[٣]» .

أما وجهة نظر علماء النفس في طبيعة الإرادة فقال بعضهم« الإرادة هي العملية النفسية التي ترمي إلى تكييف الاستجابة التي كان قد أدى الصراع القائم بين مجموعتين من الميول إلى إرجائها وذلك بترجيح كفة الميول التي تبدو في نظر الشخص أنها أسمى من غيرها[٤]» .

(١) لسان العرب ج٤ ص ١٧١ وما بعدها .

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ج٣ ص٣٢ .

(٣) المرجع السابق ج٣ ص٣٢ .

(٤) مبادئ علم النفس العام د . يوسف مراد ص ٣٢٣ .

فالتحديد هنا كما نرى بناءً على وظيفة الإرادة وهي اختيار عمل من بين عملين أو أعمال لتنفيذه ، أو اختيار نزوع واحد للعمل من بين النزعات .

وللإرادة عندهم مظهران : الأول الكف أو المنع . والثاني الانتباه الذي ينطوي بدوره على عمليتين الأولى الكف عن فعل أو عن اتجاه ما والثانية عملية التركيز في عمل دون غيره أو في اتجاه واحد دون غيره من الاتجاهات[1] .

وأهم مكونات الإرادة عندهم هي التكوين البيولوجي الذي يعد الباعث الأول للسلوك والتكوين السيكولوجي الذي يقوم بدور اختيار باعث واحد من بين تلك البواعث البيولوجية . ثم التكوين الاجتماعي الذي يقوم بدور تكييف عملية اختيار الباعث وفقاً للقيم[2] . وأهم مراحل الإرادة عندهم هي الكف أولاً ثم الانتباه ثم الرؤية والاختيار وأخيراً العزم والتنفيذ[3] وأهم ما يميز الاتجاه السيكولوجي في فهم طبيعة الإرادة أن الإرادة سابقة على الفكرة وأن منبع الإرادة هو الميول المتنازعة وتنشأ الإرادة عندما يتغلب ميل واحد منها على الميول الأخرى[4] .

أما وجهة نظر المتصوفين ، في طبيعة الإرادة فهي بصفة عامة تخليص القصد من الميول والرغبات البشرية الطبيعية وتوجيهها إلى الحق فيقول مثلاً الإمام القشيري عن الإرادة «فهي نهوض القلب في طلب الحق سبحانه[5]» ، ويقول الجنيد «الإرادة أن يعتقد الإنسان الشيء ثم يعزم عليه ثم يريده والإرادة بعد صدق النية[6]» ، ويقول الهروي وهو يتكلم بلسان الصوفية «الإرادة من قوانين هذا العلم وجوامع أبنيته وهو الإجابة لدواعي الحقيقة طوعاً[7]» ، والإرادة الحقيقية عندهم هي الإرادة المتجردة

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٤٤ .

(٤) الدراسات النفسية عند المسلمين عبد الكريم عثمان ص ٢٢٥ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ١٥٧ .

(٦) كشاف اصطلاحات الفنون ج٣ ص ٣٤ للتهانوي .

(٧) منازل السائرين للهروي ص ١٧ .

من البواعث النفسية والميول الطبيعية وتخضع لإرادة الحق ولهذا يقول الواسطي «أول مقام المريد إرادة الحق بإسقاط ارادته[1]» .

وأما وجهة نظر المتكلمين في طبيعة الإرادة فتختلف حسب اختلاف المذاهب الكلامية فهي عند الأشاعرة مخصصة لأحد طرفي المقدور بالوقوع في وقت معين وقالوا «ليست الإرادة مشروطة باعتقاد النفع أو بميل يتبعه كما قال المعتزلة[2]» ، وقال بعضهم «والحق أن الإرادة ترجيح أحد مقدوريه على الآخر وتخصيصه بوجه دون وجه أو معنى يوجب هذا الترجيح[3]» .

وأخيراً هناك وجهة نظر الفلاسفة العقليين في طبيعة الإرادة فإن الإرادة في نظرهم بوجه عام هي «قوة من القوى النزوعية المحركة التي تتلقى أوامرها من القوى المدركة أو النظرية أو القوى العقلية[4]» .

ويقول الفارابي «النزوع إلى ما أدركه (الإنسان) بالجملة هو الإرادة[5] وميزة مفهوم الإرادة لدى الفلاسفة أنها محكومة بالعقل والعلم لا بالشهوات والحواس الأخرى كشأن إرادة الحيوان[6] ، فالعقل والعلم منبع الإرادة أساساً ولهذا فإن العلم أو العقل يولد الإرادة ، والإرادة تولد القدرة والقدرة تولد الحركة[7] ، ويستخدم الإمام الغزالي بدل كلمة التوليد كلمة البعث أحياناً أي أن العقل يبعث الإرادة والإرادة تبعث القدرة وهكذا ، ويعلل ذلك بقوله «لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والقدرة مسخرة لداعية الإرادة والحركة مسخرة للقدرة[8]» .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٥٩ .
(٢) كشاف اصطلاحات الفنون ج٣ ص ٣٣ .
(٣) كشاف اصطلاحات الفنون ج ٨ ص ٣٣ .
(٤) أحوال النفس . لابن سينا ص ٦٣ .
(٥) آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ص ٦٠ .
(٦) إحياء علوم الدين ج٤ ص ٢٤٩ .
(٧) المرجع السابق ج٤ ص ٢٥٥ .
(٨) المرجع السابق ج٤ ص٢٥٥ .

وإذا ألقينا نظرة الآن على طبيعة وجهات النظر تلك في طبيعة الإرادة وجدناها تتفق في شيء وتختلف في شيء . تتفق في أن الإرادة قوة نزوعية محركة أو باعثة للسلوك أو الفعل . وتختلف في منبع الإرادة وباعثها الأساسي ، فعلماء النفس بصفة عامة يرجعون ذلك المصدر أو المنبع إلى العوامل البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية ، والمتصوفون يرجعون مصدر حقيقة الإرادة الإنسانية إلى القلب أو الروح والفلاسفة العقليون يرجعون ذلك إلى العقل والعلم .

وبناء على ذلك فكل اتجاه يحاول عند تربية الإرادة وتقويتها التركيز على منابعها وبواعثها ، وذلك بتقوية تلك المنابع والبواعث ، لأن القوى تقوى بتقوية باعثها وتضعف بإهماله ، وإذا كانت الإرادة الأخلاقية هي تلك القوة النزوعية الميالة إلى الالتزام بالفضائل الأخلاقية فإن وسائل تربية الإرادة الأخلاقية تتحدد بتحديد تلك العوامل التي تقوى هذه الإرادة وتلزمها بتحريك الإنسان إلى تنفيذ الفضائل الأخلاقية ويمكن تقسيم تلك العوامل إلى ثلاثة أقسام : الأول يرجع إلى منابع الإرادة وروافدها والآخر يرجع إلى الغاية التي تنصب عليها الإرادة والثالث يرجع إلى الممارسة . فالعوامل الأولى تعد دوافع للإرادة إلى السلوك والثانية تعد جواذب تجذبها إلى السلوك والثالثة تعد رياضة . وكلما كانت تلك العوامل قوية كانت الإرادة أكثر قوة وأشد انجذاباً ونزوعاً إلى السلوك .

ولهذا نجد هنا الفارابي يعلل ذلك بقوله «لأن الإرادة هي أن تنزع بالقوة النزوعية ما أدركت فإذا علمت بالقوة النظرية السعادة ونصبت غاية وتشوقت بالنزوعية واستنبطت بالقوة المروية ما ينبغي أن تعمل حتى تقبل بمعاونة المتخيلة والحواس على ذلك ثم فعلت بآلات القوة النزوعية تلك الأفعال كانت الأفعال كلها خيرات وجميلة[1]» . ولنضرب لذلك مثلاً كيف نقوى باعثاً من بواعث الإرادة ولنأخذ لذلك باعث العقل وتسلط الفكرة في عقل الفرد فيشترط وليم جيمس لتكون الفكرة دافعة للإرادة توافر عدة شروط : أولها أن تمثل الفكرة موضوعاً مشوقاً في

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة الفارابي ص ٦٢ .

النفس . والشرط الثاني ألا توجد في العقل أفكار أخرى تعارضها وتخفف من أهميتها[1] . الشرط الثالث ضرورة الإقتناع الكامل بتلك الفكرة لأن الاقتناع ماهية الإرادة في الفعل[2] ، والشرط الأخير ضرورة اقتران الإرادة بالجهد ، لأن الجهد يؤدي إلى ثلاث وظائف إرادية ، الأولى إعاقة قوة الميول الأخرى الدافعة . الثانية طرد كل الأفكار المناهضة للفكرة المطلوبة ، الثالثة الحفاظ على الفكرة من أن تضطرب وأن تتشتت وسط الأفكار الأخرى[3] .

وفي ضوء بواعث الإرادة وغايتها نجد الإمام الغزالي يحدد أسباب ضعف الإرادة ويرجع ذلك إلى الأمور الآتية :

الأول : عدم توافر الاعتقاد أو الإيمان العلمي المقنع فيقول مثلاً «فالمانع من الوصول إلى الله عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الإرادة والمانع من الإرادة عدم الإيمان وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء بالله تعالى والهادين إلى طريقه فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سبباً لخلو طريق الله من السالكين[4]» .

والسبب الثاني لضعف الإرادة عند الغزالي : هو عدم وضوح الغرض من الفعل وعدم بيان حاجة المرء إليه ، فيقول هنا «وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة لغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحو قصده[5]» .

أما السبب الثالث والأخير عنده : فهو عدم العمل وفقاً للإرادة لأن الجهد المرافق للإرادة يُقوّي الإرادة ويغذيها . يقول الغزالي هنا «وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب

---

(١) وليم جيمس . محمد زيدان . دار المعارف . ص ١٨٩ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩٠ .
(٣) المرجع السابق ص ١٩٠ ـ ١٩١ .
(٤) إحياء علوم الدين ج٣ ص٧٥ .
(٥) المرجع السابق ج٤ ص ٣٧٤ .

وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترسخ الصفة وتقوى بسببها. فالمائل إلى طلب العمل أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفاً فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع (عنه) وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق[1]» ، فنجد هنا الالتقاء بين الغزالي ووليم جيمس في النقط الأساسية في عوامل تقوية الإرادة وهي الإيمان بفكرة ووجود موضوع مشوق تحقق الإرادة فيه مطلبها المحبوب وأخيراً بذل الجهد العملي وفقاً للإرادة .

ولأهمية بذل الجهد في تربية الإرادة درس المربون كيفيات بذل هذا الجهد والتدريب العملي لذلك . لكنهم اختلفوا في بعض نواحي هذا التدريب ووسائل التربية الإرادية إلى وجهات النظر الهامة الآتية :

أولاً : اختيار ميدان من ميادين السلوك الفطري المعتاد في فترات محدودة كل يوم مثل ترك أكل بعض المشتهيات من الأطعمة التي اعتاد المرء تناولها كل يوم وكأن يحرم نفسه من بعض ألوان الترفيه الذي اعتاد ممارستها في أوقات معينة . وهذا رأي وليم مكدوجل وهذا ما ينصح به[2] .

ثانياً : اجبار الأطفال على تأدية واجبات شاقة لا يميلون إليها عادة في ساعات معينة كل يوم وذلك عن طريق ارغامهم عليها بالتهديد بالعصا أو بغيرها بألوان من القصاص ، غير أن هذه الفكرة وجدت نقداً شديداً من المربين في بداية الأمر ، وبناء على ذلك النقد تطورت تلك الفكرة إلى استخدام الثواب إلى جانب العقاب مثل تحديد المكافأة المختلفة لمن يؤدي تلك الواجبات كما يجب وذلك لتشجيع الرغبة في النجاح[3] .

---

(١) المرجع السابق ج٤ ص ٣٦٧ .
(٢) الأخلاق والسلوك في الحياة . وليم مكدوجل ص ٨٧ .
(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

ثالثاً : يجب أن يدرب الأطفال لتقوية إرادتهم على الأعمال التي يرغبون فيها ، ويجب إلغاء كل أنواع الثواب والعقاب في ميادبن التربية كما يجب أن يتم ذلك في صورة ألعاب وهذا رأي تولستوي ومنتسوري ورسولي من أنصار التربية التقدمية(١) .

رابعاً : ممارسة الواجبات والأعمال الشاقة النافعة لا بالتهديد والعقاب والخوف ولا بالمكافأة ، لأن مثل هذا التدريب لا يثمر إلا قليلاً أو لا يثمر إلا خلق العبيد ، كما أن التدريب الذي تحركه الرغبة في نيل الجوائز لا ينمي أو لايكمل الخلق أو ينمي خلقاً تسود فيه عاطفة الطموح ، ولهذا فإنه يجب أن يتدرب الطفل في أعمال يحتاج إليها مثل الأعمال التي يكتسب فيها المعرفة والقدرة العقلية والخلق ، لأن العمل الجاد في أعمال شاقة نافعة يخلق قوة الإرادة ، ويميل إلى هذا كثير من رجال التربية(٢) ، كما نجد الصوفيين يهتمون بهذا في تربية الإرادة ، ويسمون هذه الرياضة بالمجاهدة لأن فيها مكافحة النفس لترك ما تميل إليه بحكم الفطرة ولترك الكسل وترك المحرمات والرغبات والتركيز على الواجبات العظيمة(٣) .

ويقول الغزالي عندما يتكلم عن طريق اكتساب الأخلاق «اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة ، وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب ، فمن أراد أن يجعل لنفسه خلق الجود فطريقته أن يتكلف تعاطي فعل الجود وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعه ويتيسر عليه فيصير به جواداً ، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه . وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق(٤)» . وذلك أن الأعمال

---

(١) المرجع السابق ص ٨٨ .

(٢) التربية وطرق التدريس ج ١ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٣) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ص ١٦٩ وما بعدها .

(٤) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٥٨ .

الخارجية تؤثر على العمل الإرادي النفسي لما بين النفس والجسم من علاقة ، يقول الغزالي مؤيداً ذلك «فإذن قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء . وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ـ أعني النفس والبدن ـ فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة . وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر القلب والأمر فيه دور»[1] . وقد بينا سابقاً كيف قرر العالم النفسي ثورنديك هذه العلاقة بين الجسم والنفس[2] .

خامساً : تشجيع الطفل ودفعه إلى أعمال أخلاقية مرغوبة لتنمية خلق مرغوب فيه . مثل تقديم خدمات معينة إلى الناس في ساعات معينة . يقرر ذلك وليم مكدوجل بقوله «وثمة دافع آخر مشروع يمكن أن نتوسل به أيضاً لتدعيم جهود الطفل وهو دافع مشروع لأن تعاونه معنا يهدف إلى تنمية خلق مرغوب فيه وأعني به الرغبة في أن يسر الآخرين أو يقدم لهم الخدمات ، فالصبي الذي يعرف أن والديه أو مدرسيه يهتمون اهتماماً بالغاً بتقديمه ويسرهم ازدياد تمكنه من دراسته سيجد في تلك المعرفة الكثير مما يثيره ويحمسه ، وإذا أدرك في الوقت نفسه أن نجاحه في نيل منحة علمية سيخفف العبء على أولئك الذين يحبونهم صار لديه دافع مرضٍ يدفعه إلى الجد في عمله[3]» .

سادساً : تحديد هدف واضح أمام المتربي يجعله يرى أن تحقيق حاجاته الأساسية منوط بتحقيق هذا الهدف الأخلاقي بل أكثر من هذا يجب أن نبصره بأن سعادة الإنسان في هذه الحياة متوقفة على تحقيق الحياة الأخلاقية الفاضلة . ذلك أن الإنسان كلما وجد أمراً يحقق أكبر قدر ممكن من حاجاته وأمانيه قوي عزمه واقدامه عليه وتشبثه به كما قوي تحمله للصعاب في سبيله ، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بتبصيره بذلك الهدف الواضح أولاً ثم اقناعه بضرورة ذلك الهدف لتحقيقه تلك

---

(١) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٥٩ .
(٢) التعليم أسسه ومناهجه ونظرياته ص ٢٦٠ وما بعدها .
(٣) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ٨٨ ـ ٨٩ .

الحاجات حتى يحصل عنده إيمان قوي بذلك . هذا الإيمان القوي يعد منبع طاقة فياضة لا تنفد بالنسبة للإرادة . وهذا ما دعا إليه الإمام الغزالي كما ذكرنا رأيه .

سابعاً : استخدام الإيحاء لتقوية الإرادة . كثيراً ما ينصح رجال التربية باستخدام الإيحاء عامة والإيحاء الذاتي خاصة في تربية الإرادة .

يعرفه بعضهم «بأنه عمليه عقلية وهي عبارة عن تقبل فكرة أجنبية أو عرض أفكار جديدة أو آثار تجعلنا نقبل هذه الفكرة بثقة بل ونتعصب لها دون الاعتماد على أساس منطقي في قبولها أكثر الأحيان ، وتدفعنا إلى تنفيذها من تلقاء أنفسنا[١]» . ويقول عنه بعضهم بأنه «فكرة أوتنبيه عقلي ينادي المشاعر أكثر مما ينادي العقول[٢]» .

ويعرفون الإيحاء الذاتي بأنه «هو ايحاء نوجهه إلى أنفسنا[٣]» ويشترطون لتأثير الإيحاء في أي ميدان من الميادين بوجود رغبة في عمل ما قبل الإيحاء كما يجب أن تكون الرغبات والعادات الشعورية مهيأة لقبول تلك الأفكار الموحى بها . كذلك يجب ألا تتعارض تلك الايحاءات الجديدة مع الإيحاءات الأخرى العميقة التي ثبت الاقتناع بها قبل الإيحاء الجديد[٤] ، والشرط الأخير الهام لتأثير الإيحاء والإيماء بأن هذا الإيحاء أو ذاك يمكن تحقيق الرغبات به عملياً[٥] . ويتبين لنا مما سبق أن الإيحاء يمكن أن يستخدمه المربي في تربية إرادة المتربين كما يمكن أن يستخدمه المتربي نفسه وإذا اجتمع الأمران كان ذلك أفضل .

وأهم إجراءات الإيحاء الذاتي للرياضة الإرادية يمكن تلخيصها في الخطوات الآتية :

أولاً : يجب أن تتخيل بعقلك ما تريد عمله أو ما تريد أن تكونه وأن تعبر عنه

(١) الفلسفة العملية للحياة بني حاجي ديمو . ترجمة علي نور ص ١٤٧ . .
(٢) كيف تمارس الإيحاء الذاتي . سلسلة كتب علم النفس العملي . القاهرة ص ١٧ .
(٣) المرجع السابق ص ١٩ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٠ .
(٥) المرجع السابق ص ٥٨ .

بصفة إيجابية مبسطة في ورقة تعبيراً دقيقاً ثم عليك بالتأمل في ذلك التعبير ليرسخ في ذهنك تماماً .

ثانياً : يجب أن تفكر بعناية كاملة في أسباب عدم إمكان تحقيق ما تريد تحقيقه حتى هذه اللحظة . وما هي المشاعر التي تحول دون السير في طريق تحقيق رغبتك[١] .

ثالثاً : استشعر في نفسك أنك قوي وأنك تستطيع أن تعمل ما تريد عمله وكرر ذلك التعبير المحدد الذي عبرت فيه عن رغبتك بعد الاستيقاظ من النوم لمدة عشر دقائق واعمل ذلك أيضاً قبل النوم مساء ، ثم ضع نفسك في تخيلك موضع ذلك الشخص القوي الذي ينفذ إرادته دائماً حتى يزول من نفسك الشعور بالضعف[٢]» .

وبعد : فإن ذلك مجمل لأهم الوسائل التي يمكن استخلاصها من آراء الفلاسفة والمربين في ميدان تربية الإرادة وتقويتها وإذا قومنا تلك الوسائل من وجهة نظر التربية الحديثة ، ومن الممكن استخدامها كلها ما عدا الرأي الذي يجعل التهديد والتخويف والعقاب وسيلة لتربية الإرادة عن طريق تحميل الشخص الأعمال والواجبات الشاقة بذلك التهديد والتخويف ولا يصح استخدام هذه الوسيلة إطلاقاً وخاصة في المراحل الأولى من حياة الطفل إذ إن ذلك يؤثر في نموه الطبيعي .

أما التدريب الإرادي بالمكافأة والتشجيع على الأعمال المرغوبة عادة لدى الأطفال فذلك يتناسب مع المراحل الأولى للتربية لأن الأعمال أو الواجبات الشاقة غير المرغوبة ضارة في هذه المرحلة إذا ما اتخذت ذلك وسيلة للتربية الإرادية ، إذ إن ذلك يكون في أنفسهم عاطفة النفور من الواجبات الأخلاقية قبل أن يعرفوا قيمتها من جيمع النواحي كما يكون في نفوسهم عاطفة الكره بالنسبة للمربين بدلاً من أن تتكون فيهم عاطفة المودة والمحبة نحوهم .

---

(١) المرجع السابق ص ٦١ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٣ وما بعدها .

أما التدريب الإرادي عن طريق أداء خدمات معينة للناس وخاصة للناس الذين يكنون له المودة والمحبة فأمر مفيد في ميدان التربية عامة لأنها تدريب للإرادة ووسيلة لشيوع المودة بين الناس . وأما التدريب بالأعمال الشاقة والواجبات الكبيرة بدون المكافأة والتهديد فأمر يتناسب مع المراحل المتأخرة من التربية وخاصة لتربية الكبار ، وللتربية الذاتية إذا ما أراد المرء أن يدرب إرادته ليكون صاحب إرادة قوية لا تخونه عند خوضه في القيام بالأعمال الكبيرة التي ينوء بها ذو الإرادة الضعيفة كما يكون ذلك في ميدان التربية العسكرية ، لأن تكليف الجنود بالأعمال الشاقة وتدريبهم عليها يقوّي عزائمهم وإرادتهم ، لكن ينبغي أن يكون التدريب الإرادي في ميدان التربية الإرادية الأخلاقية بالواجبات الأخلاقية ، ذلك أن التربية الأخلاقية لا تتم بجميع عناصرها ومكوناتها إلا إذا كان التدريب الخاص في كل عنصر من عناصر التربية الأخلاقية في ميدان الأخلاق وبالأعمال الأخلاقية . ولا ننسى هنا أخيراً دور الوسائل العاطفية والتبصيرية والاعتقادية في تربية الإرادة وتقويتها ، ولذلك قدمت دراستها على أية حال فإن ذلك من وضع الدراسات التربوية التي انتهى إليها الدارسون . ولندرس الآن وجهة نظر الإسلام ، ثم نقرر النتائج النهائية من هذه الدراسة .

ب ـ الوسائل الإرادية للتربية الأخلاقية في نظر الإسلام

تناول الإسلام موضوع الإرادة من حيث طبيعتها وروافدها وحريتها وميادين تدريبها .

أما من حيث حريتها فقد درسناها بالتفصيل في موضوع الإرادة عند دراسة الطبيعة الإنسانية . وأما من حيث طبيعتها فإنها عبارة عن عزم وتصميم لفعل شيء أو تركه ، وعلامة الإرادة هي النزوع المباشر إلى الفعل المراد أو إلى اتخاذ أسبابها . يقول تعالى : «ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة[١]» .

ويجدر بنا هنا أن نحدد صلة الإرادة ببعض المصطلحات المستعملة في هذا الميدان . فمن هذه المصطلحات الباعث ، وحقيقته أنه اندفاع داخلي نحو الأشياء والأفعال وقد يكون المثير له العوامل البيولوجية أو السيكولوجية أو الإجتماعية . ومهما كان أمر الباعث فإنه يتم غالباً بإثارة أو ضغط أحد العوامل السابقة لا تحت نور العقل والفكر والإيمان ، ولهذا فإن قيمة الباعث في ميدان الأخلاق غير ذات بال ما لم يكن الباعث الخلقي أو الضمير الخلقي .

ومنها النية وهي كما عرفها بعض العلماء «قصد الشيء وعزم القلب عليه[٢]» وقسموها إلى قسمين القصد وهو إرادة الفعل مستقبلاً وقالوا إن النية والإرادة شيء واحد أو أن الإرادة تشملهما ، وبناء على هذا فالقصد والعزم جزءان من الإرادة وتطلق الإرادة على كل واحد منهما من إطلاق الكل على الجزء كإطلاق النية[٣] .

---

(١) سورة التوبة ٤٦ .

(٢) نهاية الأحكام في بيان ما للنية من الأحكام ص ٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٨ .

ثم إن الإرادة أو النية قد تنصب على الفعل ذاته وقد تنصب على شيء خارج عنه أي على النتيجة أو الغاية منه .

ومنها الغاية وهي آخر ما يهدف إليه الإنسان من وراء فعله ، إذن الغاية هي الهدف البعيد أو الغرض من الفعل ، وإذن فالغاية والإرادة قد تشتركان في هذا المعنى فهناك عموم وخصوص من وجه بينهما ، والعمل الخلقي مرتبط بهما معاً ، ذلك أن المعنى الأول ضروري لأن من ضروريات العمل أن يكون مقصوداً مراداً والمعنى الثاني ضروري أيضاً لأن العازم على الفعل لا بد من أن يحدد غايته منه . فكلما كانت غايته واضحة وخيرة كان أكثر دخولاً في الأخلاق ولهذا قال الرسول «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه[1]» . ورواه مسلم بلفظ «إنما الأعمال بالنية وإنما لامرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه[2]» .

وأهم الطاقات التي تزود الإرادة الأخلاقية بالقوة المحركة هي طاقة العناصر الاعتقادية والعاطفية والتبصيرية ثم التربية الإرادية الخاصة ، فالاعتقاد يدفع الإنسان إلى السلوك بموجبه والعاطفة الأخلاقية تدفع إلى الالتزام بالفضائل الأخلاقية وكذلك البصيرة بقيمة الأخلاق وغايتها السامية تجذب الإنسان إلى ممارسة تلك القيم . والإرادة القوية التي دربت تدريباً علمياً لا تخون ما ينوي الإنسان عمله ويعزم عليه إن عاجلاً أو آجلاً ، وكلما كانت تلك الطاقات المحركة قوية كان اندفاع الإنسان الإرادي إلى تنفيذ الأعمال قوياً أيضاً . ولا ننسى هنا دور مركز الإرادة الأخلاقية الأساسية الذي تنبعث منه الإرادة الأخلاقية وتقاس قوة هذه الإرادة إلى حد كبير بقدر ما ينبض ذلك المركز بالحياة الأخلاقية ألا وهو القلب منبع الضمير الأخلاقي أو الوجدان الأخلاقي .

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري ـ كتاب بدء الوحي ج ١ ص١٣ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الإمارة ج٣ ص ١٥١٥ .

فالإرادة الأخلاقية بمثابة الشجرة الأخلاقية النابتة في أرض القلب الإنساني فبقدر ما تكون هذه الأرض صالحة تمد الشجرة بالغذاء الحيوي بقدر ما تثمره هذه الشجرة ، وإذا فسدت صلاحية هذه الأرض لهذه الزراعة جف الشجر وفسد الثمر وهذا ما يمكن أن نستنبطه من قول الرسول «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإنّ لكل ملك حمى ألا وانّ حمى الله في أرضه محارمه ألا وان في الجسم مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب[1]» ، ولهذا أيضاً قال الرسول «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم (وفي رواية) وأعمالكم[2]» .

هذا إلى أن هناك وسائل أخرى عملية لتزويد قدرة الإرادة الأخلاقية وطاقتها وذلك بتدريبها بتلك الوسائل وقبل بيان تلك الوسائل التدريبية وميادين تدريبها يجدر بنا بيان شروط التدريب .

وأول هذه الشروط : عدم تكليف الطفل في ميادين التدريب فوق طاقته لأن ذلك يؤثر في نموه الطبيعي العام كما يكون في نفسه عقداً ضد المربين وضد القيم الأخلاقية ، ثم يصبح قاسي القلب حاقداً على الناس ، ولهذا لم يكلف الإسلام الصبيان بالتكاليف بل إنه لم يكلف الكبار بما لا يستطيعون كما بينا ذلك .

والشرط الثاني : عدم التكليف في ميدان التدريب الإرادي بأمور غير معقولة لأن الإسلام يريد تربية الإرادة العاقلة لا الإرادة العمياء ، ولهذا لم يكلف الصبيان بالواجبات والفرائض لأنهم لا يستطيعون تعقلها ، ولهذا لم يكلف أيضاً المجنون وقد بينا هذا في موضوع المسؤولية .

الشرط الثالث : أن يجري التدريب في الواجبات والفضائل لأن في ذلك فوائد :

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري ج١ ص ١٣٤ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الصلة والآداب ج٤ ص١٩٨٧ .

أولى تلك الفوائد : تدريب الإرادة وتقويتها بممارسة الأعمال .

وثانية تلك الفوائد : حصول الاعتياد على الفضائل ، لأن العادة تسهل العمل إذ إن هناك فرقاً بين من اعتاد من الصغر على عمل ما وآخر لم يعتد عليه ، والإسلام يريد أن تكون الفضائل سهلة على النفوس لكيلا تشعر بالضيق النفسي منها ، ولهذا أمر المربين بتدريب الصغار على الفضائل والواجبات من الصغر دون التهديد والتخويف والعقوبات وإنما عن طريق التشجيع وتحبيب تلك الفضائل إلى نفوسهم بالوسائل المختلفة حسب ما يناسب سنهم ونموهم النفسي والعقلي والأخلاقي ، وبقدر استطاعتهم أداءها بقدر ما يتعقلونها كما بينا ذلك في مراحل التربية الأخلاقية .

والفائدة الثالثة و الأخيرة : أن التدريب في ميادين الفضيلة يجلب النفع ، فالذي يتدرب في خدمة الناس ويتحمل المشاق في سبيل ذلك ينتفع الناس أيضاً من جهده التدريبي ، وهنا تختلف وجهة نظر الإسلام عن وجهة نظر قائلة بأن الإنسان ينبغي أن يدرب إرادته في شيء تافه لا معنى له ولا نفع كنقل عود كبريت من علبة إلى أخرى مدة معينة كل يوم مثلاً[1] .

وقبل بيان وجهة نظر الإسلام في ألوان التدريب الإرادي عملياً أحب أن أنبه إلى أن جميع الأساليب والوسائل للتربية الأخلاقية التي ذكرتها في الفصول السابقة تعد وسائل لتربية الإرادة الأخلاقية بطريق غير مباشر ولهذا قدمتها وأخرت تربية الإرادة المباشرة .

أما فيما يتعلق بألوان التدريب الإرادي ووسائله فإنها كثيرة ولهذا أحاول تصنيفها تحت أقسام نوعية هي الآتية :

أولاً : أنواع التدريب الإرادي الخاص بالكف أو الامتناع عن السلوك الفطري أو الإرادي الطبيعي . ذلك أن الإرادة الإنسانية يجب أن تختلف عن الإرادة الحيوانية التي لا تستطيع الكف عن السلوك الغريزي كلما وجد الحيوان ما يشبع غريزته

(١) الأخلاق والسلوك في الحياة ص ٨٦ .

وأحس بالحاجة إلى ذلك ، لأن الإرادة الإنسانية تتميز أساساً بإخضاعها المرء لصوت العقل والعلم والأخلاق لا الغرائز والدوافع الفطرية ، وهذا يقتضي تدريبها أولاً لإخضاعها لهذه الأمور وتربيتها بالسير في ضوء الحكمة والأخلاق ، لأن الإرادة إذا أصبحت حرة بدون قيد أو شرط قد تستقيم وقد تنحرف ولا ضمان للاستقامة المستمرة ما لم تتدرب على التقيد بالقيود العقلية والعملية والأخلاقية وما لم تتكون أيضاً عند الأطفال من الصغر إرادة قوية تنفذ ما توحي به إليهم المبادئ العقلية والعملية والأخلاقية ، وكثيراً ما نجد من الناس من يصابون بالأمراض بسبب الشراهة ، وذلك لإسرافهم في المأكل أو المشرب أكثر من الحاجة لعدم وجود قوة إرادية يمنعون بها أنفسهم من مشتهيات الأطعمة وكثير من الأمراض تزداد بسبب عدم استطاعة المرضى تنفيذ توصيات الأطباء ، وذلك لضعف إرادتهم أمام المشكلات لضعف إرادتهم ، وكما بينا قد قرر هذا اللون من التدريب الإرادي المربون ومنهم وليم مكدوجل ، الذي يقول «إن خيراً للرجل الذي يرغب في مزاولة رياضة خلقية أن يختار ميداناً يستطيع أن يدرب فيه إرادته على التغلب على الدوافع الفطرية[1]» .

ومن ألوان التدريب الإرادي التي قررها الإسلام في هذا الميدان الصوم عن الأكل والشرب والجنس كل سنة في شهر معين وفي ساعات معينة في كل يوم ، ثم شجع على مزيد من هذه الرياضة في أيام السنة شريطة ألا يكون صوماً وصالاً لأنه ضار بالصحة ، ولهذا منع الرسول الصوم الوصال ونهى الذين عزموا على ذلك فقال الرسول لعبد الله بن عمرو بن العاص «يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار (وفي رواية ولا تفطر) وتقوم الليل . فقلت بلى يا رسول الله ، قال فلا تفعل صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقاً وإن لعينك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام ، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها . فإن ذلك صيام الدهر كله ، فشددت فشدد علي . قلت يا رسول الله إني أجد قوة قال فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه ، قلت وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام . قال نصف الدهر» ، وكان عبد الله يقول بعد ما كبر «يا ليتني قبلت رخصة

---

(١) المرجع السابق ص ٨٧ .

النبي صلى الله عليه وسلم[1]» ، ورُوي أيضاً عن الرسول أنه نهى عن الوصال في الصوم فقال «إياكم والوصال مرتين ، . . ثم قال : أكلفوا من العمل ما تطيقون[2]» والكلف بالعمل أو الشيء الولوع به وحبه مع ما فيه مشقة .

ومن هذا القبيل أيضاً كل الممارسات الإرادية على الزهد في متع الدنيا والتقليل من العادات الضارة في المأكل والمشرب مثل الإفراط والشره والطمع والحرص على جمع المال وما إلى ذلك .

ولقد اهتم المتصوفون كثيراً بالرياضة الإرادية بالزهد لأنها خطوة أساسية لكل تصوف . ويقول أستادنا الدكتور محمد كمال جعفر معبراً عن رأيهم «يعتبر الزهد في متع الحياة الذاهبة والرفاهية خطوة أساسية في كل تصوف» ثم يعرض قول الجنيد «ما أخذنا التصوف بالقيل والقال لكن بالجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات[3]» .

ومن هذ اللون أيضاً الالتزام ببعض المبادئ الأخلاقية مثل محاولة التغلب على السلوك الفطري ، كالتغلب على الغضب وكظم الغيظ ودفع الإساءة بالإحسان للتغلب على روح الانتقام أو الثأر الذي هو سلوك فطري في الإنسان . فقال الرسول فيما يتعلق بمغالبة الغضب «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب[4]» ، وهذا الحديث يوحي بالتدريب على مغالبة الغضب كالتدريب على المصارعة . وقال فيما يتعلق بكظم الغيظ «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء[5]» ، وقال تعالى «الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب

(١) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الصوم ج٥ ص ١٢١ .

(٢) المرجع السابق كتاب الصوم ٥ / ١٠٩ .

(٣) التصوف طريقة وتجربة ومذهبا . الأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر ص ١٠١ .

(٤) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج٢ ص١٠٧ ، صحيح مسلم كتاب البر والآداب ج٤ ص٢٠١٤ .

(٥) سنن الترمذي . كتاب البر والصلة ج٣ ص ٢٥١ .

المحسنين[1]» وفيما يتعلق برد الإساءة بالإحسان قال تعالى «ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم[2]» ، كذلك دعا إلى التدريب في مغالبة شح النفس فقال تعالى «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون[3]» ، ودعا كذلك إلى مغالبة هوى النفس وقال «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى[4]» .

فإن من لم يدرب إرادته على مغالبة تلك الدوافع البيولوجية والسيكولوجية سيكون مغلوباً على أمره ولا يمكن أن يكون صاحب خلق ، لأن كثيراً من مبادئ الأخلاق لا تتكون إلا عن ذلك الطريق أي بمخالفة الدوافع الطبيعية لنظام معين وما دامت آمرة لنا فمن الواضح أن الأفعال التي تطلبها منا ليست في نطاق طبيعتنا الفردية إذ إنها لو كانت تطلب إلينا أن نتبع طبيعتنا فحسب لما كانت بها من حاجة إلى أن تأمرنا بشيء أو تفرض علينا شيئاً . فالسلطة لا تلزم إلا لكي تحد من قوى متمردة وتكبح جماحها لا لكي تدعو قوى معينة إلى السير في طريقها المعتاد . ولقد قيل إن مهمة الأخلاق هي أن تمنع الفرد من أن يطأ المناطق المحرمة عليه ، ولعمري أن هذا الرأي قد أصاب في بعض نواحيه قلب الحقيقة . فالأخلاق هي نظام من النواهي فسيح الأرجاء . ومعنى ذلك أن هدفها هو تحديد الدائرة التي يمكن أن يتحرك فيها ـ ويجب أن يتحرك ـ نشاطها الفردي وها نحن أولاء نرى فائدة ذلك التحديد الضروري[5]» .

ثانياً : أنواع التدريب الإرادي الخاصة بالقيام بالأعمال الإيجابية أو الخاصة بالبذل هو عبارة عن بذل الجهد وبذل المال ثم بذل النفس وقد بينا رأي بعض المربين مثل وليم جيمس والغزالي في فائدة بذل الجهد في تربية الإرادة ذلك أن هناك كثيراً من

(1) سورة آل عمران ١٣٤ .
(2) سورة فصلت ٣٤ .
(3) سورة الحشر ٩ .
(4) سورة النازعات ٤٠ ـ ٤١ .
(5) التربية الأخلاقية دور كايم ص ٤٢ .

الناس يريدون أن يفعلوا الخير لكن إرادتهم تخونهم وذلك لضعفها أمام الدوافع النفسية الأخرى المضادة فلا بد من تدريبها وتقويتها لتكون إرادة خيرة قوية تستطيع أن تتغلب على تلك الدوافع البيولوجية والسكولوجية ، وليتم ذلك للإرادة لا بد من تدريبها على تلك الأنواع من البذل في الميادين المختلفة . وينبغي التوسع في ميادين التدريب الإرادي بحيث يشمل جميع الميادين الأخلاقية خلال مراحل التربية الأخلاقية ، كما ينبغي أن يستمر المرء بعد ذلك في التدريب الذاتي لإرادته إذا ما أحس بضعفها ولهذا فقد قرر الإسلام ألواناً من التدريب الإرادي في جميع تلك الميادين ولنذكر من ذلك أمثلة في مختلف الميادين :

ففي ميدان بذل الجهود وسع الإسلام ميادينه وقرر أن كل جهد مبذول للخير وكل عون ومساعدة للإنسان بإرادة خيرة يعد صدقة من الذي يبذل لأخيه ولو لم يكن ذلك المبذول مالاً أو شيئاً ، ولهذا قال الرسول «على كل مسلم صدقة ، قيل أرأيت إن لم يجد ، قال يعتمل بيديه ، فينفع نفسه ويتصدق ، قيل أرأيت إن لم يستطع ، قال يعين ذا الحاجة الملهوف ، قيل أرأيت إن لم يفعل ، قال يمسك عن الشر فإنها صدقة[1]» وقال أيضاً «تعدل بين الإثنين صدقة وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة والكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة[2]» .

أما إرادة بذل المال فلا تتم إلا إذا كانت أقوى من نزعة الشح أو البخل أو أن تكون إرادة الإيثار أقوى من إرادة الأثرة ، والذي يجعل إرادة البذل والإيثار تقوى على نزعة الشح والأثرة هو تلك العوامل أو عناصر التربية الأخلاقية التي سبق معالجتها مثل تكوين البصيرة الأخلاقية والوجدان الأخلاقي وما إلى ذلك ، يضاف إلى ذلك هنا عامل البذل : بذل الجهد وبذل المال لأن ذلك يقوي إرادة البذل ويزكيها ويطهرها من نزعات الشح ولهذا قرر الإسلام دفع كل مسلم مقداراً من ماله إلى الفقراء في كل

---

(١) صحيح مسلم كتاب الزكاة ج٢ ص٦٩٩ .

(٢) المرجع السابق كتاب الزكاة ج٢ ص٦٩٩ .

عام على الأقل فقال تعالى «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها[(١)]» وسمى الإسلام هذا المقدار من المال المبذول زكاة لتزكيته إرادة البذل والعطاء فقال تعالى «فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم[(٢)]» . كما قرر الإسلام دفع مقادير معينة من الأموال كفارات عن سيئات الإنسان وتقصيراته في أداء بعض الواجبات في الصوم وفي الحج وحنث اليمين وما إلى ذلك ، فقال تعالى مثلاً في كفارة اليمين «لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة[(٣)]» .

هذا إلى أن الإسلام شجع على مزيد من بذل الأموال تفضلاً فقال تعالى «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم[(٤)]» ، ولزيادة قوة إرادة البذل ينبغي أن يقترن البذل بثلاثة أمور :

الأول : أن يكون بالإرادة الأخلاقية أي رغبة في الخير والبر .

الأمر الثاني : أن يبذل الإنسان مما يحبه ومما يحتاج إليه .

الأمر الثالث : ألا يخالط البذل شيء من الرذائل الأخلاقية مثل الرياء والمن والتكبر والافتخار ولهذا قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس[(٥)]» ، «ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين[(٦)]» وقد قال الشعبي والسدي وقتادة في معنى تثبيتاً من أنفسهم أي « تثبيتاً وتيقناً أي أن نفوسهم لها بصائر فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبيتاً[(٧)]» . وقال الإمام القرطبي «يقال ثبت فلاناً في هذا الأمر أي صممت عزمه وقويت رأيه فيه[(٨)]» .

---

(١) سورة التوبة ١٠٣ .
(٢) سورة الحج ٧٨ .
(٣) سورة المائدة ٨٩ .
(٤) سورة آل عمران ٩٢ .
(٥) سورة البقرة ٢٦٤ .
(٦) سورة البقرة ٢٦٥ .
(٧) الجامع لأحكام القرآن ج٣ ص٣١٤ .
(٨) المرجع السابق ج٣ ص ٣١٥ .

يضاف إلى هذا كله أنه يجب أن يسعف المرء إرادته بالقوى الأخرى مثل التبصر وطاقة العاطفة الأخلاقية ، لأن الإنسان كلما استطاع أن يحشد قوى تساند الإرادة الأخلاقية كان ذلك وسيلة للانتصار على القوى غير الأخلاقية ، ولهذا نرى الإسلام يستخدم قوة التبصر مثلاً فيقول تعالى «ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم[1]» ، وقال تعالى في استخدام العاطفة «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون[2]» ولا شك أن مثل هذه الشحنات العاطفية من التخويف الهائل تعد طاقة للإرادة .

بعد هذا نجد كذلك ألواناً من تدريب الإرادة في أداء فريضة الحج إذ في ذلك بذل الجهد في السفر ومناسك الحج وفيه بذل المال فرضاً وفضيلة وفيه حمل النفس على أداء أعمال غير مرغوبة لها بالطبع والواقع لأنه يذهب إلى بلاد نائية بعيدة قاحلة لا نفع له فيها وليس فيها أية مناظر تجلب أفئدة الناس إليها ، فلا يقدم على أداء مثل هذا الواجب إلا من قويت فيه إرادة الواجب على نوازع الأهواء والميول الطبيعية وإذا أدى ذلك الواجب تقوى إرادته أكثر مما كانت عليه قبل أداء تلك الواجبات الشاقة .

أما فيما يتعلق ببذل النفس فإن الإسلام لا يكتفي بتكوين إرادة قوية لدرجة الاستعداد لبذل الجهد والمال في سبل الخير عندما تقتضي الأمور بل يعمل لتكوين إرادة قوية لدرجة الاستعداد لبذل الدم والنفس إذا اقتضت الأمور ، ولهذا دعا إلى تدريب الإرادة للجهاد والكفاح لرد الظلم عن المظلومين ولرد اعتداء المعتدين أو لمحاربة قوى الشر بصفة عامة .

ولهذا دعا إلى التدريب العسكري أو التدريب للقتال ويعرف هذا بمبدأ الفروسية

---

(١) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٢) سورة التوبة ٣٤ ـ ٣٥ .

في الإسلام ، وكان الرسول يشجع على ذلك بأقواله وأفعاله فقد روي أن النبي مر يوماً بنفر ممن أسلم وهم يتنضلون بالسوق فقال «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ارموا وأنا مع بني فلان . قال الراوي لما رأوا ذلك من الرسول فأمسك أحد الفريقين عن الرمي فقال الرسول ما لكم لا ترمون فقالوا كيف نرمي وأنت معهم ، فقال ارموا وأنا معكم كلكم[١]» .

ودعا الإسلام كذلك إلى الرباط في الحدود في سبيل الله والصبر من أجل ذلك فقال الرسول «عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله[٢]» ، وقال «كل الميت يختم على عمله إلا المرابط يخوله عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتان القبر[٣]» ، وقال «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها[٤]» ، وقال تعالى «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون[٥]» ولأن المرابطة تتطلب الصبر وتحمل الصبر من أهم أسباب تقوية الإرادة أيضاً ، ثم دعا الإسلام إلى بذل الدم في سبيل الله فقال الرسول «ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين : قطرة من دموع في خشية الله وقطرة دم تهراق في سبيل الله وأما الأثران ، فأثر في سبيل الله وأثر في فريضة من فرائض الله[٦]» ، وقال أيضاً «والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حيث كلم ، لونه لون دم وريحه ريح مسك والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية[٧]» ، وقال «ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار[٨]» ، وقال «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات

(١) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج١ ص٥٧ .
(٢) التاج . كتاب الجهاد رواه الترمذي والنسائي ج٤ ص ٣٣٦ .
(٣) التاج . رواه أبو داود والترمذي ج٤ ص ٣٣٦ .
(٤) المرجع السابق رواه البخاري ج٤ ص٣٣٦ .
(٥) سورة آل عمران ٢٠٠ .
(٦) التاج . رواه الترمذي (والأثر المشي) ج٤ ص٣٣٤ .
(٧) المرجع السابق ج٤ ص ٣٢٧ .
(٨) المرجع السابق ج٤ ص ٣٢٩ .

على شعبة من نفاق[1]» وغير ذلك من النصوص الكثيرة التي تدعو إلى الفروسية والتربية العسكرية ثم إلى الجهاد وهي التربية المعروفة في الإسلام وقد كتب في ذلك بعض العلماء كتاباً متخصصاً[2] .

ثالثاً : أنواع التدريب الإرادي الخاصة بالتحمل والصبر وهو يجمع بين الصبر على كبح جماح النفس والصبر على العمل ثم الصبر على البلاء .

يقول الهروي «الصبر حبس النفس على جزع كامن عن الشكوى . . وهو على ثلاث درجات : الأولى الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد إبقاء على الإيمان وحذراً من الحرام وأحسن منها الصبر عن المعصية حياء . الدرجة الثانية الصبر على الطاعة بالمحافظة عليها دواماً وبرعايتها إخلاصاً وبتحصينها علماً . الدرجة الثالثة الصبر في البلاء بمحافظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج وتهوين البلية بعد أيادي المنعم وتذكر سوالف النعم وفي هذه الدرجات الثلاث نزلت «يا أيها الذين آمنوا اصبروا» يعني في البلاء ، «وصابروا» يعني عن المعصية «ورابطوا» يعني على الطاعة[3]» .

وشجع الرسول على الصبر مقرراً بأن المسلم ما دام صابراً فهو مثاب فقال «عجباً لأمر المؤمن ان أمره كله خير إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له[4]» . ونجد الرسول كذلك يشجع على جميع ألوان الصبر مبيناً أن من يريد الصبر يعنه الله على ذلك وأن الصبر خير ما أوتى الإنسان إذا تحلى به لأن به يستطيع الإنسان تحقيق الخيرات لنفسه ولغيره وإن لم يتعود الصبر لم يستطع أن يفعل شيئاً ولهذا قال الرسول «من يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء هو خير وأوسع من الصبر[5]» .

ثم شبه ما يجب أن يكون عليه المسلم من الصبر عند البلاء بالخامة التي تميل إذا

---

(١) التاج ج٤ ص٣٢٩ .
(٢) أنظر بالتفصيل إلى كتاب الفروسية لابن القيم .
(٣) منازل السائرين.شيخ الإسلام الهروي ص ١٣ .
(٤) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق ج٤ ص ٢٢٩ .
(٥) جامع الأصول في أحاديث الرسول.ابن الأثير جـ ١٠ ص ١٣٩ .

جاءته ريح دون الانكسار وإذا ذهبت استقامت ، أما الكافر والفاجر والفاسق فإذا جاءه بلاء فلا يستطيع الصبر ومن ثم ينكسر كالأرزة من الشجرة فقال «مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الريح مرة وتعدلها مرة . ومثل المنافق (وفي رواية أخرى الكافر ، وفي أخرى الفاجر) كالأرزة لا تزال حتى يكون انجعافها مرة واحدة[1]» وقال تعالى «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون[2]» .

رابعاً : أنواع التدريب الإرادي الخاصة بالالتزامات إزاء العهود والمواثيق والإيمان والنذر وما إلى ذلك :

ذلك أن الإنسان إذا مارس الالتزام بعهوده وتنفيذ ما حلف به ونذره باستمرار فذلك لا محالة يقوي الإرادة من ناحيتين .

أولاهما أن الالتزام يقتضي ضبط النفس وربط الإرادة وتركيزها على العمل الذي عقد العزم على تنفيذه .

وثانيتهما أن الإنسان كلما التزم بعهوده التي قطعها على نفسه ونفذ عملياً ما وعد بتنفيذه أدى ذلك إلى الشعور بقوة ذاتيته ثم إلى قوة إرادته لأن وجود هذا الشعور أساس لوجود قوة الإرادة وبقدر ما يزداد هذا الشعور قوة تزداد الإرادة بالدرجة نفسها قوة أيضاً ، وخاصة إذا ترتبت مسؤولية على عدم تنفيذ العهود والإيمان والنذر من ذنب أو غرامة أو دفع كفارات على حد التعبير الشرعي في حالة العدول عما تعهد به أو نذره إذا لم ينفذ ما وعد بتنفيذه فيكون ذلك الشعور بالمسؤولية دافعاً ثالثاً إلى الالتزام بما التزم به وتعهد وخاصة إذا ارتبط بالشعور الديني أو الاعتقادي .

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري . كتاب المرضى ج١٢ ص٢١٠ .
(٢) سورة البقرة ١٧٧ .

ولهذا كله فقد أمر الإسلام بتنفيذ العهود وأنه ان لم ينفذ ذلك يترتب عليه مسؤولية أمام الله الذي يطلع على أعمال العباد ويعلم جهرهم وسرهم فيقول تعالى «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون[1]» ، ذلك أن نقض ما عقد الإنسان العزم على فعله يشل الإرادة ويضعفها ويضيع الجهود السابقة لتقويتها كما أن نقض الغزل يضيع جهد الغازل الكبير في لحظة واحدة ، إذن فإنّ نقض العهود تضييع للمجهود أولاً ثم إن ذلك ضرب لقوة الإرادة أو شل لفاعليتها على أقل تقدير ، وأخيراً يترتب عليه مسؤولية أمام الله ولهذا قال تعالى «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً[2]» كما يؤدي ذلك إلى تقليل ثقة الإنسان بنفسه ، وعلى ذلك وعد الله بالمكافأة من ينفذ عهده فقال تعالى «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً[3]» ، بل إن نقض العهد من علامة المنافق لا من علامة المؤمن ولهذا قال الرسول «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان[4]» . وقال أيضاً في حديث آخر «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من النفاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر[5]» . وقال «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له[6]» .

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالنذور ، فقد أمر الله بتنفيذها كما أمر سابقاً بما عقد من الأيمان فقال تعالى «وليوفوا نذورهم[7]» . ومدح الذين يوفون نذرهم فينفذون

---

(١) سورة النحل ٩١ ـ ٩٢ . (٢) سورة الإسراء ٣٤ . (٣) سورة الفتح ١٠ .
(٤) هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج ١ص٦ ،صحيح مسلم كتاب الإيمان ج ١ص٧٨ .
(٥) صحيح مسلم . كتاب الإيمان ج ١ ص ٧٨ .
(٦) الجامع الصغيرج٢ ص ١٩٨ . (٧) سورة الحج ٢٩ .

أنفســهم من المسؤولية قال تعالى «يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً[1]» .

خامسا : الوسائل الخاصة بانتفاضة الإرادة وإنقاذها في حالات ضعفها :

إن الإسلام لم يغفل عوامل ضعف الإنسان في بعض الحالات وهزيمة إرادته في بعض المواقف وفي ظروف خاصة أمام رغباته ودوافعه الغريزية ، ذلك أن صراع الإرادة الأخلاقية مع تلك النوازع الطبيعية يشبه صراع المصارعين ، فقد تتحدث نفس أحد المصارعين بالضعف والانهزام أمام الآخر إذا أحس بقوة الطرف الآخر وقد ينهزم تماماً لكن الهزيمة أساساً ليست في الهزيمة مرة أو مرتين وإنما الهزيمة أساساً هزيمة الإرادة فمن لم تهزم إرادته فتعد في حالة الصراع ، وسوف تنتصر في النهاية ما لم تستسلم وما لم يشعر المرء بأن إرادته ضعيفة فإن له الظفر بها ، ولكن ما هي الوسيلة أو الوسائل لإنقاذ الإرادة من حالات الضعف ومن حالات الهزيمة وتحويلها إلى قوة منتصرة؟ نحن نعلم في مجال الواقع أن كلمة واحدة مشجعة نوجهها إلى أحد المصارعين في حالة إحساسنا بضعفه قد تحوله من الضعف إلى القوة وتكون سبباً لانتصاره وأن كلمة واحدة أيضاً قد تنقذ المهزوم اليائس إلى الأمل ثم إلى القوة والانتصار في الجولات التالية ، ولهذا نجد الإسلام وضع وسائل لإنقاذ الإرادة من ترديها وسقوطها في الرذائل ، ووسائل لانتفاضتها من الرذيلة التي وقعت فيها لسبب من الأسباب : إذن يمكن تقسيم تلك الوسائل إلى مجموعتين .

الأولى : تستخدم قبل السقوط في الرذيلة ، عندما تحدث الإنسان نفسه بارتكابها ، أو في حالة عقد العزم على ارتكابها ومن هذه المجموعة ما بين الله تعالى في حديث قدسي إن من عزم على ارتكاب الرذيلة ثم عدل عن ذلك يكتب ذلك له حسنة ويعد منه ذلك عملاً خيراً ، وإن من يريد عمل الخير ولم يستطع فعله بعد إرادته يكتب له ذلك حسنة وكأنه عمله ، وذلك لترجيح كفة الإرادة الخيرة على الإرادة السيئة لأن بداية العمل الإرادة فإذا كثرت إرادات الإنسان للأعمال الخيرة فإنه

---

(1) سورة الإنسان ٧ .

وإن لم يستطع فعل ذلك كله فإنه يؤدي بالطبع إلى أن يصبح عدد الإرادات الخيرة أكثر من عدد الإرادات الشريرة ومن ثم تكون إرادة الخير غالبة على إرادة الشر لأن الأولى تصبح عندئذ أكثر عدداً وجنداً ، ولهذا قال تعالى في حديث قدسي «إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشرة أمثالها إلى سبعمائة[١]» .

والمجموعة الثانية : تلك الوسائل التي تستخدم بعد السقوط في الرذيلة لإنقاذ الإرادة من الاستسلام للهزيمة . وهذه الوسائل وسائل عاطفية وجدانية ، لأنها هي التي تستطيع جعل الإرادة تنتفض من الرذيلة التي سقطت فيها كانتفاضة الإوزة من قطرات الماء التي بللتها إذا سقطت في بحيرة ، ولا يبقى عليها شيء من ذلك وكأنها لم تسقط في الماء .

أما الوسائل العاطفية التي يجب استخدامها في هذه الحالة فهي الوسائل العاطفية لتقبيح الرذيلة ، والتنفير منها في نفس المرء وعقله لأن الإنسان إذا اشمأز من فعل الأشياء وتقززت نفسه منها تدفع عاطفته إرادته إلى عدم فعلها والابتعاد عنها نهائياً . وقد حصل هذا في حياة كثير من كبار رجال تحولوا من حياة الرذيلة إلى حياة الفضيلة بصورة مفاجئة لوجود مثل تلك الوسائل العاطفية ، ولهذا نرى الإسلام وضع وسائل عاطفية كثيرة منفّرة من الرذائل الأخلاقية وقد ذكرنا كثيراً منها عند الكلام عن الوسائل العاطفية منها مثلاً تشبيه قيام الإنسان بأعمال ضد أخيه الإنسان بمحاولة إرادة أكل لحم أخيه وقد أصبح ميتاً فقال تعالى «ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه[٢]» . ومنها أيضاً تشبيه الله سبحانه وتعالى الزنى بالعمل الفاحش الذي تمقته النفس الإنسانية ويسوء سبيل مقترفها في الحياة بما يصاب بسببها من أمراض خبيثة ، ويكون مصيره

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري . كتاب التوحيد ج١٧ ص٢٤٦ .

(٢) سورة الحجرات ١٢ .

في النهاية كمصير مقترف الأشياء الفاحشة القذرة فقال تعالى «ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً[(١)]» .

وأما الوسائل الوجدانية التي يمكن استخدامها هنا فهي كثيرة ذكرتها في فصلها الخاص ، منها ما يمكن استخدامه لانتشال الإرادة من الرذيلة كالتوبة ، فالتوبة تفتح الأمل أمام إرادة منكوبة يائسة ، وتبث فيها من جديد روح الانتفاضة وتدفعها إلى مواصلة السير في طريق الانتصار على روح الشر والنوازع الشريرة ، ذلك أنه لولا التوبة لماتت الإرادة الأخلاقية في مستنقع الرذيلة لأنها تقول طالما وقعت لا مخرج منها فإن الموت فيها أصبح قاب قوسين أو أدنى . ومن عجائب علاج الإسلام لمثل هذه الحالات أنه يستخدم القوة العاطفية لدفع الإنسان للخروج من الرذيلة ثم يستخدم قوة الانتفاضة مقترنتين معاً الثانية بعد الأولى لأن هاتين الوسيلتين القويتين كإسعاف في بداية الوقوع ، لأن الإرادة تكون في هذه الحالة حية وقوية يمكن أن تنتفض ، ولهذا نجد الدعوة إلى التوبة تأتي غالباً بعد التنفير من الرذيلة ثم تقترن الدعوة بالتوبة بعد الوقوع في الرذيلة مباشرة . وهذا ما يقرره تعالى بصورة أكثر صراحة ووضوحاً في آيات أخرى وهي قوله تعالى «تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ، واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيما . إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن[(٢)]» .

---

(١) سورة الإسراء ٣٢ .

(٢) سورة النساء ١٣ ـ ١٨ .

وهناك شروط أخرى للتوبة لإنقاذ الإرادة من الضعف والسقوط كنت بينتها عند الكلام عن الوسائل الوجدانية . ولهذا لا أرى ضرورة إعادتها مرة أخرى .

سادساً : الوسائل النفسية الشعورية الإيحائية لتقوية الإرادة :

هذه الوسائل تشبه الوسائل الإيحائية لدى علماء النفس غير أن نظرة الإسلام تختلف من حيث المصادر التي يستوحي منها القوة أو المصادر التي يجب أن يستوحي منها الإنسان الشعور بقوة الإرادة . فإن علماء النفس إذا كانوا ينصحون بصفة عامة بالإيحاء الذاتي فإن الإسلام ينصح بهذا الإيحاء على أساس استمداده من القوة الروحية مثل الاستعانة بالله وبقوته ولهذا قال الرسول لابن عباس عندما كان صغيراً «يا غلام إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك[1]» .

ومن مصادر الإيحاء الذاتي بالقوة الاعتزاز بالإيمان بالله ، يقول تعالى «من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور[2]» . وإن من حق المؤمن أن يعتز بإيمانه بالله وباتباعه الطريق السوي طريق الهدى والصلاح وهو طريق الإسلام «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون[3]» . ولهذا أمر الإسلام أن يكون المؤمن قوياً لأن المؤمن القوي أحب إلى الله وخير من المؤمن الضعيف[4]» ولهذا كان الرسول يستعيذ من الضعف والعجز أو الشعور بالضعف والعجز وكان يقول «اللهم أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل[5]» ، ثم

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٩٣ .

(٢) سورة فاطر ١٠ .

(٣) سورة المنافقون ٨ .

(٤) صحيح مسلم . كتاب القدر باب في الأمر بالقوة ج ٤ ص ٢٠٥٢ .

(٥) الجامع الصغير ج ١ / ص ٦١ .

أوعد الله بالعذاب الذين يستضعفون أنفسهم من غير أن يكون فيهم ضعف طبيعي مثل المرض وما إلى ذلك فقال تعالى «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيمَ كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً[1]» ، لأن القوة الروحية تضيف إلى القوة الطبيعية قوة قال تعالى : «ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين[2]» ، وأن الله يمد من قوته إلى من يسير في طريقه وينصر دينه «ولينصرن الله من ينصره إن الله قوي عزيز[3]» .

على أنه لا ينبغي أن نغفل هنا رأي بعض كبار علماء النفس الذين يؤيدون أثر القوة الروحية في قوة إرادة الإنسان ومن ثم ينصحون باستمداد القوة من مصدر الطاقة الروحية عن طريق الاتصال به بالأدعية من هؤلاء مثلاً فرويد الذي يقول في نصائحه بعد تحليله العلل النفسية وأسباب الإنهيار العصبي والإرادي أمام المشكلات وما ينتج عن ذلك من الأمراض النفسية الشاذة فيقول «ادع الله دائماً حين تواجه مشكلة ما ، كما لا تنس أن تحافظ على الدعاء في حالة زوال المشكلة أي يجب أن تضع الله وهيبته وقدرته في مخيلتك دائماً[4]» . ومنهم أيضاً وليم جيمس الذي يرى علاج القلق والاضطراب في الاعتقاد بالله والاتصال به بعد أن يرجع القلق والاضطراب أساساً إلى الأخطاء التي يرتكبها الإنسان فيقول «يعني القلق والاضطراب حين نرده إلى أبسط معانيه أن فينا جزءاً خاطئاً إن نظرنا إلى أنفسنا نظرة طبيعية ، ويعني العلاج أننا ننقذ أنفسنا من هذا الخطأ بأن نعقد صلة بيننا وبين قوى عليا[5]» .

---

(١) سورة النساء ٩٧ ـ ٩٨ .
(٢) سورة هود ٥٢ .
(٣) سورة الحج ٤٠ .
(٤) سيكولوجية الشذوذ النفسي ص ٣١٩ .
(٥) ويليام جيمس . محمود زيدان ص ٢٣٤ .

وإذا كان من أسباب ضعف الإرادة القلق والاضطراب إذن فإن الإيمان والاتصال بالله القوي العزيز إنقاذاً للارادة من هذا الاضطراب والانهيار ، أمام المشكلات ولهذا شبه الرسول المؤمن بالنبتة التي تنحني أمام الرياح الشديدة ولا تنكسر وإذا ذهبت الرياح استقامت وكذلك إرادة المؤمن لا تنكسر ولا تنهار أمام المشكلات ، كما تنكسر إرادة الفاسقين والفجار أمام الفتن وتنهار أمام المشكلات ، كما بينا عند ذكر الحديث السابق .

سابعاً : البدء بالقوة : عند كل عمل يقوم به الإنسان وأن يبدو دائماً وكأنه قوي الإرادة وذلك عند جميع تصرفاته ، لأن الحالة الظاهرة تؤثر على الحالة الباطنية كما يقرر ذلك علماء النفس ، فمن هؤلاء مثلاً ديل كارينجي حيث ينصح لمن يريد أن يكون قوياً في تنفيذ أعماله ورغباته أو يبدأ برغبة قوية عنيدة(١) .

ولهذا نجد الإسلام يأمر بالبدء بالقوة عند القيام بالأعمال ونجد لذلك أمثلة كثيرة في القرآن فهذا ما أمر الله به مثلاً موسى فقال تعالى «وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها(٢)» وهذا ما أمر به أيضاً يحيى عليه السلام فقال «يا يحيى خذ الكتاب بقوة(٣)» . وأخيراً هذا ما أمر به ذو القرنين عندما أمر أصحابه ببناء السد العظيم وقال «فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما(٤)» .

ثامناً : تقوية الإرادة بالعمل الفكري : وذلك عن طريق إعمال الفكر بالإرادة مدة معينة في كل ساعة أو في كل يوم في موضوعات معينة لأن التفكير والتأمل المركز على ذلك النحو يقوي الإرادة من ناحيتين :

الناحية الأولى : أن العمل العقلي كالعمل العضوي فيما ينفق فيه من المال الجهد

---

(١) التأثير على الجماهير عن طريق الخطابة . ديل كارينيجي ص ٢١ .
(٢) سورة الأعراف ١٤٥ .
(٣) سورة مريم ١٢ .
(٤) سورة الكهف ٩٥ .

وتوجيهه إلى موضوعات معينة بإرادة ، فكلاهما رياضة بالنسبة للإرادة ولهذا نجد بعض علماء النفس ينصحون بذلك لتقوية الإرادة[1] .

الناحية الثانية : إن الإرادة تقوى إزاء عمل أو أعمال يرى الإنسان وضوح الحق فيها وزوال الشك منها ، لأن الحقيقة كلما كانت واضحة يقينية كانت أكثر جاذبية للإرادة ودافعية إلى العمل بموجبها ، وتوجيه التفكير والتأمل إلى الموضوعات وسيلة لجلاء الحقائق فيها ولإدراك ما يترتب عليها من خير أو شر وخاصة إذا كان ذلك التفكير والتأمل بالإرادة وبالمنطق الحقيقي والمنهج العلمي الموضوعي ولهذا نجد الأستاذ (يني حاجي ديمو) يقرر دور التفكير المنطقي في تقوية اىرادة قائلاً «فإذا ما كلل الإرادة منطق وطيد استطاعت أن تبسط مملكتها في كل مكان وتصل بصولجانها إلى أمد بعيد[2]» .

ولهذا كله نجد الإسلام كان يدعو باستمرار إلى التأمل والتفكر في الموضوعات المختلفة وفي المناظر المثيرة والمدهشة في الكون وفي المبادئ التي جاء بها فيقول تعالى مثلاً «قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة[3]» وقال تعالى في حق الخمر والميسر «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ، ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون[4]» .

ويبين الله أن من يتفكر في دلائل الله وآياته يهتدي إلى الحق فقال«إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار[5]» .

---

(١) الفلسفة العملية للحياة ص ١٨٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٧ .

(٣) سورة سبأ ٤٦ .

(٤) سورة البقرة ٢١٩ .

(٥) سورة آل عمران ١٩٠ ـ ١٩١ .

وقال أيضاً «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . . لآيات لقوم يعقلون[1]» ، وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تدعو إلى التفكر والتأمل في شتى الأمور وتبين أن من يتفكر في ذلك تفكيراً سليماً يهتدي إلى الحقائق لا محالة ، ثم إن الإسلام أمر المؤمن ألا يبدأ بعمل ولا يسلك مسلكاً إلا بعد دراسته وإحاطته علماً لأن العلم بشيء يقوى عزمه عليه ولهذا قال تعالى «ولا تقف ما ليس لك به علم[2]» .

تاسعا : من وسائل تقوية الإرادة العناية بالصحة بصفة عامة وصحة الأعصاب بصفة خاصة ، وذلك بتغذيتها بالغذاء اللازم ثم اتخاذ التدابير الطبية الوقائية من الأسباب التي تؤدي إلى الأمراض العصابية ، لأن الصحة بصفة عامة وصحة الأعصاب بصفة خاصة لهما دور كبير في إعطاء الإنسان الشعور بالقوة ودفعه إلى الإقدام على عظائم الأمور وأداء الواجبات الشاقة ، ولهذا نجد الأستاذ (يني حاجي ديمو) يقرر ذلك بقوله «يلزمنا أولاً أن نعتني بالجسم ونقوي أعضاءه المختلفة ففي الجسم السليم القوي تتوارى نفس قوية وروح شفافة[3]» ، ثم يتكلم عن أثر الصحة وقوة الأعصاب في قوة الإرادة في تنفيذ الأمور فيقول «ولا ينبغي إن ننسى أن القوة العصبية هي التي تنقل أوامر الوعي في المخ وغيرها من الحركات الانعكاسية إلى الجهاز العصبي كله وإذا ما قصرت هذه القوة العصبية نتيجة لمرض أو فقر الدم أو صدمة عصبية أو شذوذ نفسي أعقبتها نذر السوء[4]» .

وإذا أعدنا النظر إلى المبادئ الإسلامية الخاصة بتكوين الصحة العامة القوية التي تعرضنا لها في بعض المناسبات وخاصة عندما تكلمنا عن السعادة ودور الصحة فيها لا نحتاج عندئذ إلى مزيد من الأدلة لأن الصحة في نظر الإسلام وسيلة لدوام الحياة

---

(١) سورة البقرة ١٦٤ .

(٢) سورة الإسراء ٣٦ .

(٣) الفلسفة العملية للحياة يني حاجي ديمو . مكتبة النهضة المصرية ص ٥ .

(٤) المرجع السابق ص ١٦٤ .

الإنسانية ثم إنها وسيلة لأداء الواجبات وتنفيذ عظائم الأمور ولا يمكن أن يتحقق هذا إلا بالعناية بالصحة أو التربية الصحية .

بعد هذا كله نستطيع أن نلخص أهم الروافد التي تسقي الإرادة وتقويها وتنميها وتلك الروافد هي :

١ ـ **الروافد المادية** مثل الصحة العامة وصحة الأعصاب وقوتها لأنها تجعل المرء يشعر بالقوة والاندفاع إلى الأعمال ولو كانت شاقة وصعبة ولأن الجانب الفسيولوجي له تأثير على الجانب السيكولوجي ،

كما أن للجانب الأخير تأثيراً فعالاً على الجانب الأول .

٢ ـ **الروافد العقلية** مثل قوة المنطق والحكمة والتفكير السليم والتأمل الممعن ورؤية الأهداف على حقيقتها وتبين مدى ما تحقق من حاجات ضرورية للإنسان .

٣ ـ **الروافد الروحية** مثل الإيمان بالقوة العظمى التي تساند الإنسان في أعماله الخيرة وتعينه وتنصره ، ومثل الإيمان بالمثل العليا السامية الجذابة . فالإيمان الأول يدفع الإنسان للقيام بالأعمال العظيمة وخوض المشكلات الصعبة والوقوف أمام الأخطار بثقة وطمأنينة . والإيمان الثاني يجذب الإرادة إلى الأعمال الخيرة ، والدفع والجذب إلى اتجاه واحد قوتان دافعتان إلى تحقيق الغايات . ويقول هنا إيضاً (يني حاجي ديمو) «إن إرادة حديدية تستنير بالفكر كافية للتأثير على القوى العالمية دون استخدام عصا سحرية أو سيف مسبوك من ذهب ، وعندما تستمد القوة الحقة (غير المرئية) من القوة النفسية فإنها تستطيع أن تكفل تلك النتائج الطيبة التي نحتاج إليها لبلوغ الكمال . . . وعلى قدر الإرادة تكون قوة الإنسان ويكثر وحيه من القوى السامية[1]» .

٤ ـ **الروافد التجريبية التدريبية** : فالتجربة في تنفيذ الأمور الصعاب والأمور العظيمة والتدريب المعين لتحمل الصعاب والصبر أمام الشدائد كل ذلك يؤدي إلى

---

(١) الفلسفة العملية للحياة ص ١٤٥ ـ ١٤ .

تقوية الإرادة ما دام يتم لهدف تقوية الإرادة عن علم وخبرة ، يقول هنا (يني حاجي ديمو) «ليس هناك ما يستطيع مقاومة الإرادة المدربة إذا عرف الإنسان حقيقة الأشياء واختار الخير وعلى قدر ما يتخطى الإنسان من عوائق تقوى إرادته ، وكل ما يريده الإنسان ويدأب في سبيله يفوز به ، إذ لا يمكن لعقبة أن تقوم أبداً أمام تحقيق الإرادة ، وإذا ما كانت الفضيلة رائدة للإرادة رأينا العجب ، وقد تستحيل بعض الأمور على الإنسان لأنه مسير لمشيئة النظام الكوني ، ولكن إرادته المستنيرة تفوق قوى الطبيعة المظلمة . فاستخدموا هذه القوة التي وهبكم الله إياها حتى تنعموا بالخيرات التي تستحقونها في هذه الحياة . والإرادة الحيوية التي تتضاعف قوتها بالدربة تروض حالات النفس وشهواتها الغريزية الجامحة ، فكل شيء يخضع للإرادة القوية المطمئنة ، والممتازون ينعمون بهذه القوة فيزول الشر من أمامهم[١]» .

بعد هذه الجولة الفسيحة في أرجاء جوانب التربية الأخلاقية ومقارنتها بغيرها في تلك الميادين علينا أن نختتم دراستنا ببيان خصائص التفكير الإسلامي في تلك الميادين ثم أهم النتائج التي انتهينا إليها وأخيراً تقرير التوصيات لتعميم التربية الأخلاقية في المجتمع ، وكل ذلك سنبينه في الخاتمة .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٦ .



الخاتمة

أهم نتائج البحث والتوصيات

كان للمنهج الذي اتبعته الفضل في الخروج بالنتائج القيمة في تقديري وأهم تلك النتائج بصفة عامة هي الآتية :

أولاً : أهم النتائج المستخلصة من هذه الدراسة :

خلال دراستي السابقة لجميع جوانب أصول وفلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية برزت لي خصائص هامة في كل جانب من جوانبها بالنسبة للفلسفات الأخرى في التربية الأخلاقية وأريد هنا إيجاز أهم معالم تلك الخصائص والنتائج المستخلصة من ذلك في النقط الآتية :

١ ـ اهتمام الإسلام بالتربية الأخلاقية اهتماماً لم يبلغ مبلغه أي نظام أو فلسفة تربوية :

ذلك أن روح الأخلاق سارية في جميع جوانب الإسلام ذلك أن الإسلام جاء ليكمل البناء الأخلاقي الذي بدأ به الأنبياء السابقون ، ولأنها أساس البناء الاجتماعي بل أساس الحياة الإنسانية إذ لا وجود لهذه الحياة بدون مراعاة القوانين الأخلاقية ، ثم إن الأخلاق من أهم العناصر التي تكون سبيل السعادة للحياة الإنسانية كما بينا ، ولكن هذا لا يمكن تحقيقه إلا بالتربية الأخلاقية ومن ثم كانت هذه التربية موضع ذلك الاهتمام من الإسلام .

ونستنتج من ذلك وجوب الاهتمام بهذه التربية في جميع المؤسسات والميادين التربوية أكثر من أي نوع من أنواع التربية الأخرى . إذ يجب أن تقوم كل تربية بدورها والاهتمام بهذه التربية الاهتمام اللازم .

٢ ـ انبثاق فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية من فلسفة التربية الإسلامية العامة :

ويعني هذا استقلال فلسفة التربية الأخلاقية وتميزها عن جميع الفلسفات الأخرى للتربية الأخلاقية لأن منبعها ومشربها مستقلان ، ولا يعني اختلاف وجهة نظر الإسلام هنا عن جميع وجهات النظر التربوية الأخرى في هذا الميدان اختلافها في كل شيء وفي كل جزئية من الجزئيات وإنما يعني الاختلاف في الخصائص العامة اختلاف المنبع والمشرب ، وإلا فإننا وجدنا أثناء الدراسة التقاء وجهة نظر الإسلام مع كثير من الآراء التربوية المتفقة في كثير من موضوعات هذه التربية بل إن الإسلام يحتوى تلك الآراء المتفقة معه ويزيد عليها ويكمل جوانبها الناقصة .

ونستنتج من هذا أن فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية المتميزة لا تلتقي مع أية فلسفة للتربية الأخلاقية شكلاً وموضوعاً من بدايتها إلى نهايتها ، وهذا يقتضي خطأ أي محاولة تستهدف التوفيق الكلي بين فلسفة الإسلام مع فلسفة أخرى في هذا الميدان ، كما لا يصح إطلاقاً أي تأويل لإخضاع هذه الفلسفة لأية فلسفة تربية أخلاقية أخرى .

ولا ينال من قيمة هذه الفلسفة عدم التقائها أو عدم إمكان إخضاعها لأية فلسفة أخرى . بل علينا أن نعتز بذلك لأنها تتمتع بشخصية متميزة ومستقلة وأكثر احتواء للحقائق وأكثر كمالاً من غيرها .

٣- توسيع نطاق مفهوم التربية الأخلاقية :

إن هذه التربية لا تقتصر على تعليم المبادئ الأخلاقية وتلقينها ولا على مجرد تطهير الباطن من الرذائل وتحلية المظهر الخارجي بالفضائل المحددة بالاعتياد عليها فحسب بل تشتمل أيضاً على أهم من هذا وذاك وهو إزالة روح الشر من نفس المتربي وتكوين روح الخير في نفسه بحيث لا يسعى إلا للخير ، لخير أمته ولخير الإنسانية بل لخير كل ذي حياة غير ضار بطبيعته ، أي إنه يحترم الحياة بصفة عامة أينما كانت ولا يؤذيها وإنما يعمل لإنعاشها وتنميتها حيث كانت إذا رأى أنها بحاجة إلى ذلك ، هذا المفهوم هو أعم وأشمل مفهوم للتربية الأخلاقية عرفته الإنسانية حتى الآن .

ونستنتج من ذلك وجوب ادخال هذا المفهوم في المجالات التربوية وفي ذهن المتربين خاصة ، ثم تربيتهم وفقا لذلك وتدريبهم في جميع تلك الميادين الأخلاقية الواسعة إلى أن يتربوا ويسعوا عن رغبة أكيدة لتعميم الخير في هذه الحياة .

٤ ـ الغاية من توسيع نطاق مفهوم التربية الأخلاقية تحقيق السعادة العامة ذلك أن كل إنسان إذا كف شره عن غيره وعمل لتحقيق الخير العام نتيجة لتعميم التربية الأخلاقية على النحو الذي سبق فإن الأمر يؤدي بالطبيعة في النهاية إلى زوال الشر من الحياة الإنسانية ثم يعمها الخير ، والسعادة إنما تتحقق من زوال الشر وسيادة الخير .

ونستنتج من ذلك أن الإسلام لا يريد تحقيق السعادة لفئة من الناس أو لشعب من الشعوب فحسب وإنما يريدها للمجتمع الإنساني عامة ، ولهذا جاء الإسلام للناس كافة وكانت دعوته عامة ليحيا الناس جميعاً حياة سعيدة لذا قال تعالى «يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم[١]»وقال ايضا«فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى[٢]» .

٥ ـ تكامل هذه التربية لقيامها على القواعد أو الأسس الأساسية المتكاملة :

إذ لا يمكن أن تكون هذه التربيةمتكاملة ما لم تتكامل فيها تلك الأسس أو القواعد التي تقوم عليها أو لا يمكن أن تستمر إذا بنيت على أسس ناقصة ، كما لا يمكن أن تقوم قائمة لبناء مبني على أسس وقواعد ناقصة ، وليست هناك تربية من هذا النوع تكاملت فيها تلك القواعد الأساسية ، كما وجدنا في فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية عند دراسة تلك الأسس ، وكان ذلك النقص في تلك الفلسفات هو السبب في فشلها في هذه التربية ، فمثلاً فشلت الفلسفة الاجتماعية في هذه التربية لعدم بنائها على أساس الاعتقاد الديني ، وبالرغم من وجود الأسس الأخرى فيها . وفشلت الفلسفة الروحية لأنها أغفلت الأساس الواقعي العلمي

---

(١) سورة الأنفال ٢٤ .

(٢) سورة طه ١٢٣ .

والطبيعة البشرية المادية لأنها راعت الجانب الروحي في الإنسان فقط أو ركزت عليه أكثر من الجوانب الأخرى ومن ثم لم تستطع تكوين شخصية أخلاقية متوازنة تستطيع أن تحيا حياة إنسانية طبيعية متوازنة تجمع بين المادية والروحية على حد سواء ، وكذلك فشلت الفلسفة التي تؤمن بالجبرية وتتغافل عن أساس حرية الإرادة لأنها كونت إنساناً ضعيفاً كالريشة في مهب الريح لا إرادة له في تصريف شؤونه وتوجيه سلوكه ، كما فشلت الفلسفة التي تؤمن بالحرية الطبيعية المطلقة لأنها ربت الطفل على الحرية المطلقة ولم تعوده على الانضباط والتحكم في إرادته والتحكم في نزواته وميوله الغريزية .

ولهذا كله فإن بناء الإسلام هذه التربية على جميع تلك الأسس السليمة التي لا بد منها كان من أهم خصائص هذه التربية ومن نتائج هذه الدراسة .

ونستنتج من ذلك كله : أننا إذا أردنا أن نكون شخصية أخلاقية متكاملة وقوية يجب مراعاة تلك الأسس عند التربية مراعاة دقيقة ، وعلينا ألا نتبع أية فلسفة أخرى من تلك الفلسفات في بناء هذه التربية على أسسها وقواعدها .

٦ ـ تحديد معايير هذه التربية وطرقها ومراحلها من جميع النواحي :

إن تأكيد جميع تلك المعايير هو الضمان الأكيد لسلامة سير التربية والمرشد الأمين في طريق هذه التربية إلى النهاية ، وإن المربي إذا قاس كل عمل من الأعمال التربوية بالمعيار الخاص به ضمن مقدماً نجاح تربيته إلى نهاية المطاف . ولقد ضل كثير من المربين وانحرفت تربياتهم لعدم تحديد مثل تلك المعايير تحديدا كاملاً .

ولهذا كله نجد الإسلام قد حدد تلك المعايير في الميادين المختلفة لهذه التربية كما بيناه عند الكلام عن المعايير .

ونستنتج من ذلك أنه لا يصح إطلاقاً أن يقوم المربي بأي عمل تربوي قبل أن يزنه بالموازين التربوية التي حددها الإسلام ، إذ إن أي عمل تربوي خطأ يؤدي لا محالة إلى نتيجة خاطئة . وقد علم الإسلام سابقاً تلك الحقائق والأعمال التربوية

الناجحة ، ولتفادي أي خطأ في هذه التربية وضع تلك المعايير أمام المربين ليزنوا بها أعمالهم قبل البدء بتنفيذها وذلك تجنباً لأي خطأ محتمل الوقوع من أي مرب في أي عمل من أعماله التربوية ، وذلك كله لضمان نجاح هذه التربية التي لها تلك الخطورة والتي لها تلك الأهمية البالغة في الحياة الإنسانية ويعتمد ذلك على أساسين .

الأول أساس معالم النمو العام وطرق التربية الأخلاقية .

أما ما يتصل بتحديد مراحل التربية الأخلاقية فإن الإسلام يعتمد في ذلك على أساسين :أحدهما وجوب إحساس أخلاقي طبيعي وثانيهما نمو ذلك الشعور عبر مراحل النمو .

والثاني أساس ظهور القوى والغرائز ونموها ، فالتقسيم العام خاضع للنمو العام ، والتربية بالمبادئ الأخلاقية المختلفة ، والتأديب بالآداب الجزئية خاضع لظهور القدرات والميول والغرائز المختلفة التي تتعلق بتلك المبادئ الأخلاقية والآداب الجزئية ، وعن طريق تحديد مراحل هذه التربية بناء على الأساسين السابقين استطاعت هذه التربية احتواء معظم تلك التقسيمات الجزئية التي أشار إليها الفلاسفة ورجال التربية قديماً وحديثاً .

ونستخلص من ذلك نتيجتين مهمتين :

إحداهما أن وجهة نظر الإسلام كانت أكثر دقة وأوسع أفقاً في تحديد تلك المراحل من وجهات نظر المربين .

ثانيتهما أن فعالية التربية الأخلاقية متوقفة على مراعاة تلك الدقة وسعة النظر في تحديد مراحل هذه التربية ومراتبها وهذا يستلزم أن يربى في كل مرحلة ما يجب تربيته دون تأخير أو تقديم لتصل التربية الأخلاقية إلى نضجها النهائي وكمالها المرجو في نهاية المرحلة الأخيرة .

وأما فيما يتعلق بالطرق : فإن طرقة التربية الأخلاقية الإسلامية تجمع جميع

الجوانب الإيجابية من الطرائق التربوية المختلفة ذلك أننا وجدنا في الطريقة الإسلامية تلك الجوانب الإيجابية الموجودة في كل طريقة من الطرائق التلقينية والطبيعية والفعالية بصورة مندمجة على نحو متميز لا نجدها لدى أية طريقة من تلك الطرائق كما شرحنا ذلك عند الكلام عن طرائق التربية الأخلاقية .

ونستنتج من ذلك أنه إذا وجدنا في الطريقة الإسلامية للتربية الأخلاقية بعض الجوانب من هذه الطريقة أو تلك لا يصح القول بأنها هي الطريقة التلقينية أو الطبيعية أو التجريبية وما إلى ذلك .

كما لا يصح إذا وجدنا في الفلسفة الإسلامية بعض الجوانب التي تتفق مع بعض جوانب أخرى في فلسفة ما أو الفلسفات أن يقال إن هذه الفلسفة تتفق مع هذه الفلسفة أو تلك إذ إن هناك بعض الجوانب المتفقة بين الفلسفات والأديان وبين النظم التربوية أيضاً ومع ذلك لا نقول إن هذه الفلسفة نسخة من تلك ، أو إن هذا الدين هو ذلك الدين نفسه .

٧ ـ تنويع وسائل التربية الأخلاقية :

لقد وجدنا عند البحث عن تلك الوسائل ، وسائل كثيرة متنوعة شملت جميع العناصر الأخلاقية الأساسية بطريقة لم نجدها لدى أية فلسفة تربوية أو لدى أي مرب آخر في هذا المجال .

هذا إلى أنه لما وضع الإسلام في هذا الصدد تشريعاً تربوياً فإنه أعطى المشرع حق اختراع الوسائل لسد جميع منافذ الفساد ولنشر الفضائل ، كما شرحنا ذلك عند الكلام عن الوسائل .

ونستنتج من ذلك أمراً غاية في الأهمية وهو إمكان تطبيق فلسفة التربية الأخلاقية مهما تطورت الحياة الاجتماعية والعلمية ومهما استجد فيها من مظاهر ومخترعات .

ولا أقصد من إمكان التطبيق هنا مسايرة تطور الحياة بحيث نجعلها أداة طيعة

تكيف حسب الظروف والملابسات بل على العكس من ذلك تصبح هذه الفلسفة عاملاً موجهاً ومهذباً بحيث تجعل الأوضاع تخضع لتوجيهها فتنمي الوسائل العلمية وتدعو إلى الإكثار منها لاستخدامها في الخير ونشر الفضيلة وتمنع جميع المظاهر المفسدة مهما كان شكلها ولونها ، كما تمنع الوسائل المستجدة إذا كانت تؤدي إلى الفساد إن عاجلاً أو آجلاً بطريق مباشر أو غير مباشر .

ذلك أنه كلما أمكن العثور على قدر أكبر من الوسائل المربية أمكن تحقيق غاية هذه التربية في أقرب وأسرع وقت ممكن .

ونستنتج من هذا أصالة فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية وقدرتها على تربية الأفراد والمجتمعات في كل مرحلة من مراحل تطور الحياة البشرية والاجتماعية .

والنتيجة النهائية التي يمكن استخلاصها من كل ما سبق هي معجزة فلسفة التربية الأخلاقية وذلك بالنسبة لما تمتاز به بالنسبة إلى فلسفات التربية الأخرى في هذا الصدد من العمق والدقة والشمول والتكامل ، ولما نجدها تقرره من الحقائق العلمية التي يقررها العلماء في هذا العصر ، عصر تقدم العلوم والدراسات التربوية . وقد ذكرنا كثيراً من تلك الحقائق خلال دراستنا عند المناسبات ودعمناها بتقرير كبار الفلاسفة وعلماء التربية . وإذا كان الأمر كذلك فحق للإنسان أن يتأمل ويقف إكباراً لرجل أمي عاش في ذلك العصر الجاهلي لأنه أتى بمثل تلك الحقائق التي لم يستطع العلماء والفلاسفة حتى الآن أن يحيطوا علماً بجميعها ولم يستطيعوا أن يأتوا بفلسفة للتربية الأخلاقية بمثل ما جاء به من العمق والشمول والتكامل . فلا نستطيع أن نفسر ذلك إلا أن يكون ذلك منه معجزة .

وليس هذا شأن هذه الفلسفة التربوية في ميدان التربية الأخلاقية فحسب بل أقول عن علم وثقة إن ذلك شأن كل نوع من أنواع التربية الأخرى ويجده من يدرسه بعمق في فلسفة التربية الإسلامية مقارناً بالدراسات التربوية الأخرى .

ثانيا: أهم التوصيات الخاصة بتطبيقات التربية الأخلاقية في البلاد الإسلامية

حتى الآن حاولت القيام بالواجب نحو الدراسة العلمية المهمة وبقيت تطبيقات هذه التربية ولا أملك هذه التطبيقات سوى التوصية بها .

تكلمنا فيما سبق في الفصل الثاني من الباب الأول عن مدى أهمية التربية الأخلاقية وضرورتها لبناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية . وأريد تلخيص موجبات هذه الضرورة لبيان أهمية ما سأقرره من التوصيات .

وأول تلك الضرورات الضرورة التي تقتضيها الإنسانية ، لأن الأخلاق من أهم مميزات الإنسان عن الحيوان ، لكن الأخلاق لا يمكن أن تصبح بصورة متميزة ملازمة للإنسان ما لم يترب هذا الإنسان بالتربية الأخلاقية الكاملة .

كما أنها ضرورة أيضاً يقتضيها نجاح حياة الفرد في المجتمع وسعادته في هذه الحياة .ثم إن الأخلاق والآداب زينة الانسان بقدر ما يتحلى بها يزين نفسه .

ومن ناحية ثالثة أنها ضرورة لنجاح حياة المجتمع وليسود هذه الحياة الأمن والثقة والمحبة والمودة واحترام المشاعر الأدبية والحقوق الإنسانية لكل فرد فيه ثم الطمأنينة والاستقرار الدائمان . إذ لا بد من ذلك لضمان دوام الحياة الاجتماعية ، وعلاوة على ذلك فإن هذه التربية ضرورية لبناء الحضارة والمدنية الإنسانية الراقية التي تتوافر فيها أهم شروط الدوام مع الرقي المستمر لتحقيق الخير للإنسانية .

وأخيراً فإنها مهمة لبناء دولة راقية ومتقدمة ، ذلك أن إقامة مثل تلك الدولة متوفقة أولاً على وجود أفراد تربوا تربية أخلاقية ، يعملون بكل اخلاص لأداء ما يكلف به كل فرد من الواجبات ثم السعي للتفاضل بأداء فوق ما يجب عليهم ومراعاة الأمانة والنزاهة والعدالة والأخوة الإنسانية في كل أعمالهم . كما أنها مهمة

في هذا المجال من أجل الوقاية من الجرائم وحماية المجتمع والدولة من الاضمحلال المترتب على انتشار الجرائم في إطار المجتمع والدولة معا . ولنأخذ كمثال جرائم السرقة التي تتم بطرق شتى من أموال الدولة والتي يرتكبها الموظفون كباراً وصغاراً أثناء إقامة المشروعات العامة وعند توريد البضائع وتصديرها وما إلى ذلك ، فلو حسبنا تلك الأموال المسروقة المكشوفة وغير المكشوفة لوجدناها أموالاً ضخمة تصل إلى مئات من الملايين تخسرها الدولة سنوياً . وكذلك انتشار الجرائم الأخرى في مجال الدولة والمجتمع وعجز الدولة عن القضاء عليها أو الوقوف أمامها ثم تلك المبالغ الضخمة التي تتكلفها الدولة مباشرة والمجتمع بصورة غير مباشرة في مجال التقاضي ، والسجون ورجال الأمن فإن هذه الجرائم بجميع صورها كالأمراض سواء بسواء فإذا أردنا وقاية المجتمع من الأمراض لا يجب أن نبحث عن المبالغ لإنشاء المستشفيات بقدر ما يجب قبل ذلك تربية الأفراد تربية صحية حتى لا نحتاج إلى تلك المبالغ الضخمة للعلاج ، وكذلك الأمر في ميدان التربية الأخلاقية فإنها خير وقاية من وقوع تلك الجرائم المختلفة التي يعاني منها بطريق أو بأخرى الدولة والمجتمع وكل فرد .

وإذا كان الأمر كذلك فكيف نستطيع أن نجعل التربية الأخلاقية تشمل كل فرد من أفراد المجتمع على النحو الذي بيناه خلال دراستنا السابقة ورسمنا منهجه بصورة مطولة ومفصلة؟ . لتحقيق ذلك نضطر إلى تقرير التوصيات التالية ، والأمر متوقف أخيراً على تنفيذها وتلك التوصيات هي :

١ ـ التوصية الخاصة بالآباء والأسرة عموماً :

بما أن الأب والأم هما أصلان أو أساسان لنشأة الأسرة أو البيت وبما أنهما أساسان للتربية الأخلاقية من حيث نقل الخصائص الأساسية للذرية عن طريق الوراثة ومن حيث تنشئة الطفل وتربيته تربية أخلاقية منذ الولادة كما بينا ذلك ومعنى ذلك فإن البيت يعد المدرسة الأولى والأساسية لوضع أساسيات التربية الأخلاقية وإذا لم توجد هذه الأساسيات لا يمكن تكوين أساسيات التربية الأخلاقية لدى الطفل . وقد بينا أن بعض المربين قرروا أنه قد لا يمكن تعويض ذلك النقص التربوي الذي يرجع إلى البيت في المدرسة بعد ذلك .

هذه الحقائق تستوجب من الآباء والأمهات مراعاة أساسيات التربية الأخلاقية في البيت وتربية أبنائهم بالقدر الذي يجب عليهم تربيتهم به ، وخاصة في المراحل الأولى لكن ذلك يقتضي منهم أن يتعلموا أولاً كيف يربون أبناءهم تربية أخلاقية ويتطلب ذلك أن يعرفوا كل حقائق هذه التربية التي بيناها في هذا البحث .

ويتطلب الأمر بعد ذلك أن يربوا أنفسهم قبل تربية أبنائهم لأن فاقد الشيء لا يعطيه . فمن لم يكن صاحب خلق لا يمكن أن يربي غيره تربية أخلاقية ولو عرف كل أساليب وطرق ووسائل التربية الأخلاقية ، لأن من يريد أن يسوق غيره إلى مسلك لا بد من أن يكون هو نفسه قد سلكه من قبل ، ومن هنا تظهر أهمية القدوة كوسيلة للتربية الأخلاقية كما بينا ذلك في موضعه .

٢ ـ التوصية الخاصة بوزارات التربية والتعليم في البلاد الإسلامية :

إذا كانت للأخلاق تلك الأهمية بالنسبة للحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية ، وكان من هدف التربية والتعليم تكوين إنسان عالم خير في المجتمع فإنه ليس هناك تربية أخرى يمكن أن تكون إنساناً خيراً غير التربية الأخلاقية ، لكن التربية الأخلاقية لا يمكن أن تحقق ذلك الهدف إلا إذا أصبحت مادة أساسية في جميع المراحل التعليمية من الحضانة إلى الجامعة على أن تراعى فيها التربية المباشرة وغير المباشرة والنظرية والعملية معاً وذلك وفقا لمراحل هذه التربية ومراحل التربية والتعليم بصفة عامة ثم ان الوزارة تقرر مقررات ثقافية قنية لا ترقى في أهميتها الى اهمية التربية الأخلاقية ومع ذلك تهملها .

كما يجب ألا ينجح التلميذ ما لم ينجح في مادة التربية الأخلاقية من الناحية النظرية والعملية ، ذلك أن معظم الشرور في المجتمع لا ينتج من جهل الأفراد بقدر ما ينتج من سوء أخلاقهم . وقد تبين بوضوح أن مجرد تعليم العلوم لا يهذب شيئاً من أخلاقيات الناس ولا يطهر نفوسهم من الرذائل والشرور بل إن المتعلم الذي لم يتلق التربية الأخلاقية يضر غيره ويفسد حياة المجتمع أكثر من غير المتعلم لأنه يتولى بموجب التعلم السلطات والوظائف وقد يتولى أكبر الوظائف والمسؤوليات في

المجتمع ومن ثم قد يبيع وطنه وبلده بدراهم معدودة لمصلحته الشخصية ، وكم رأينا من فساد الموظفين الكبار والصغار في ميدان الوظيفة والحياة العامة بحيث يتعجب الإنسان من أن يسقط الإنسان الذي أضاع ربع عمره في العلم إلى هذا المستوى الحقير من الدناءة والسقوط ، ومن الأدلة على ذلك ايضا الدول المتقدمة في العلوم ولكنها مع ذلك فيها انحطاط اخلاقي في ميادين كثيرة .

ولهذا كله يجب أن يوزن المتعلم بمعيار التربية الأخلاقية مع معيار التربية العلمية والعقلية جنباً إلى جنب ، ذلك أنه لا بد من تربية العقل مع تربية القلب أو الضمير ، فإن وزارة التربية والتعليم عملت لحشو الأذهان بالمعلومات ، وأهملت الضمائر ومن ثم امتلأت الأذهان وفسدت الضمائر ، لأنها أهملت وتركت ، ومن ثم كان للفساد ما كان وأصبح المتعلمون من فساد الضمير مثل الجهال سواء بسواء ، لأن الضمير مهمل في كليهما معاً ، بل قد نجد إنساناً قد تلقى تربية أخلاقية في أسرته لكن البيئة التعليمية تفسده .

ثم إن جعل التربية الأخلاقية أساسية في نظام التربية والتعليم يقتضي تكوين مربين متخصصين في التربية الأخلاقية لا في التعليم الأخلاقي ، لأن التعليم الأخلاقي غير التربية الأخلاقية ، وقد يكون التعليم الأخلاقي جزءاً من التربية الأخلاقية النظرية إذا كان ذلك التعليم تعليماً تربوياً وهذا لا يمكن إلا بالاهتمام الكبير بالتربية الأخلاقية في كليات التربية والمعلمين عن طريق توسيع مجالات التخصص لتكوين المربين لمختلف مراحل التربية والتعليم . فكيف تستطيع وزراة التربية والتعليم تربية الجيل تربية أخلاقية إذا لم يوجد لديها الآن متخصصون في التربية الأخلاقية ، كما أن التربية الأخلاقية من حيث كونها علماً مستقلاً أو مادة مستقلة غير مقررة في أي ميدان من الميادين التعليمية ، وما المعلمون إلا تلامذة الأمس ، ومعنى ذلك أنه لا يوجد الآن من المعلمين في أية مرحلة من مراحل التربية والتعليم متخصص أو حتى دارس للتربية الأخلاقية كما درس العلوم الأخرى أثناء تعلمه .وإذا كانت التربية الأخلاقية أهم من أي علم من العلوم أفليس من المؤسف ألا تعلم وزارة التربية والتعليم أهم علم في مناهجها التعليمية .زد على هذا أنه في

ميدان التربية الأخلاقية لا يكفي أن يعرف قلة من الناس هذه التربية بل يجب أن يعرف كل معلم ليستطيع تربية نفسه بنفسه أولاً بهذه التربية قبل أن يربي غيره لأن من لم يستطع أن يصلح نفسه لا يستطيع بالتأكيد أن يصلح غيره . كما أن من لم يستطع أن يتعلم لا يمكن أن يعلم غيره ، ولهذا نجد المتعلمين - حتى الذين قطعوا مرحلة كبيرة في العلم والذين يعدون علماء عاجزين عن تربية أنفسهم وتربية أبنائهم وتلامذتهم فهم في هذا كغير المتعلمين ولهم العذر في ذلك إذ لم يتعلموا هذا العلم فهم في ذلك كغير المتعلمين ، ولهذا كله فإن هذا نقص في نظام التربية والتعليم وعلى وزارة التربية والتعليم أن تتداركه .

٣ - التوصيات الخاصة بالدول الإسلامية :

يجب على هذه الدول العناية بالتربية الأخلاقية في جميع مؤسساتها الإعلامية والتثقيفية والتعليمية . وإن أية دولة لا تعتني بالتربية الأخلاقية تجني على نفسها أولاً وتجني على شعبها ثانياً ، ذلك أن الدولة التي لا تسود الأخلاق موظفيها محكوم عليها بالانهيار والسقوط وذلك نتيجة لأن الدوائر تصاب بالشلل الوظيفي لعدم أداء الموظفين وظائفهم كما يجب ، ولانتشار الظلم بسبب انتشار الرشوة والمحاباة والتجسس ضد مصلحة الدولة بسبب تحكم الرغبات الأنانية الذاتية في تصرفات الموظفين ضد مصلحة الحكومة والوطن ، ثم تنهار من الناحية الاقتصادية أيضاً بسبب ما يحدث فيها من الاختلاسات الظاهرة والباطنة من أموال الدولة أو صرف الأموال العامة في غير وجوهها أو وضعها في غير موضعها .

كذلك تجني مثل هذه الدولة على شعبها وذلك لعدم أداء الدولة وظيفتها نحو الشعب بسبب انحراف موظفيها أخلاقياً وبسبب ما يكثر في المجتمع من الجرائم بمختلف أشكالها وألوانها التي ترجع كلها إلى سوء الأخلاق وما يقتضي ذلك من صرف المبالغ الضخمة للتقاضي وللسجون ثم ما يؤدي هذا وذاك من الصراع المستميت بين الأفراد من جهة ثم بين الشعب والحكومة من جهة أخرى ، ثم ما يترتب على ذاك من زوال روح التعاون من أجل تحقيق الخير العام والسعي لذلك

وزوال روح المحبة والمودة والأخوة والاستقرار والطمأنينة في الحياة الفردية والاجتماعية ، ولا يمكن أن يسعد الفرد والمجتمع مهما تقدمت هذه الحياة من الناحية المادية . وهذا ما نلمسه بصورة صادقة في الدول والشعوب التي تقدمت من الناحية العلمية والاقتصادية وتأخرت من الناحية الأخلاقية ، وما جر الانحلال الأخلاقي فيها من مفاسد وجرائم وما نتج من جراء ذلك من الأمراض المادية والنفسية والاجتماعية التي جعلت أغنى الناس فيها يعيشون في ظلام من القلق والاضطراب والخوف والأمراض النفسية الأخرى التي ذكرنا كثيراً منها خلال دراستنا السابقة .

إذا كان الأمر كذلك أفلا يجب على الدولة العناية بالتربية الأخلاقية ، والعناية بهذه التربية تكون أولاً بتوجيه مؤسساتها التي يمكن أن تقوم بدور التوجيه والتربية الأخلاقية وعلى رأسها المؤسسات التعليمية التي يجب أن يسير فيها التعليم مع التربية الأخلاقية على النحو الذي بيناه عند الكلام عن وسيلة التبصير الأخلاقي والأسس العلمية للتربية الأخلاقية ، ثم يأتي في الدرجة الثانية مؤسسات السينما والمسرح والتليفزيون والإذاعة ، وهيئة الصحف ودور النشر ، فبقدر ما تسود هذه المؤسسات روح التوجيه والتربية الأخلاقية بقدر ما تسود الأخلاق الحياة الإجتماعية ، وتنتشر الفضيلة بين أفراد الجماعة .

بعد هذا يجب اتخاذ المعسكرات والمؤسسات والسجون فرصة للتربية الأخلاقية ولمعرفة الأمراض الأخلاقية لدى الأفراد ثم علاجها علاجاً علمياً يتناسب مع المستويات المختلفة لهؤلاء الذين أصيبوا بنوع من أنواع الانحراف أو الأمراض الأخلاقية ولا ينبغي ان يخرج المسجون الا بعد تهذيبه والتوبة من الاجرام .

وهذا يقتضي أن يكون في كل مؤسسة موجهون أو مربون أخلاقيون يستطيعون توجيههم توجيهاً تربوياً وتمنع المؤسسات المفسدة من نشر الفساد مثل قنوات التلفاز والسينما والملاهي وبيوت الدعارة ومراكز انتاج افلام الفيديو المفسدة .

هذا إلى أنه لا بد من إنشاء مؤسسة تربوية خاصة لتوجيه المؤسسات الأخرى توجيهاً تربوياً ، وهذا يقتضي أن يكون أعضاء هذه المؤسسة خبراء متخصصين في التربية الأخلاقية .

كما يقتضي الأمر أن تكون لها سلطة بحيث تخضع المؤسسات الأخرى لها تربوياً وتمنع المؤسسات المفسدة من نشر الفساد مثل قنوات التلفاز وأفلام السيما والملاهي المفسدة وبيوت الدعارة والخمارات وما إلى ذلك .

ومن التوصيات الخاصة بالدولة إصدار قرار بمطالبة كل مقدم على الزواج من شاب وشابة بتعلم التربية الأخلاقية ، كما تطالب عند توظيف أي شخص في أية مهنة بالخبرة الخاصة بتلك المهنة ، فإذا كانت أهم وظيفة تقع على الأب والأم هي تنشئة الطفل وتربيته تربية اجتماعية أخلاقية ، وليس هناك أحد يستطيع تعويض هذه الوظيفة إذا لم يقم بها الآباء والأمهات وخاصة في المراحل الأولى على أقل تقدير من حياة الطفل ، فإن على كل من يقدم على وظيفة الأبوة والأمومة أن يتعلم العلم الخاص بهذه الوظيفة ، ثم إن إصدار هذا القرار يكون دافعا لكل شاب وشابة إلى البحث عن الثقافة التربوية كما يكون دافعا للآباء إلى تثقيف أبنائهم بهذه الثقافة . وأخيراً يكون دافعاً إلى فتح مراكز ومدارس تربوية لتأهيل الشباب لمهنة الأبوة والأمومة كما يؤدي طلب الخبرات إلى فتح مدارس خاصة للتأهيل للمهن المختلفة ، ومن ثم يؤدي الأمر إلى كثرة المراكز والمعاهد التربوية .

وهناك توصية أخرى للدولة ، وهي عدم توجيه الجهود العلمية والأبحاث العلمية إلى بعض المجالات على حساب مجالات أخرى أكثر أهمية في حياة البشر ، فلا ينبغي أن يكون تقدمنا العلمي في بعض النواحي على حساب النواحي الأخرى المهمة . كشأن بعض الدول المتقدمة . فإننا نجد مثلاً مئات من الأبحاث العلمية قدمت إلى المراكز العلمية والجامعات في حياة الأدباء والشعراء ، وفي أدبهم وشعرهم ، ولا تتقدم رسائل علمية بمثلها في التربية الأخلاقية ، وكأن حياة أولئك وشعرهم أكثر أهمية من الأخلاق والتربية الأخلاقية . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالأبحاث الأخرى فإن هناك توجيهاً إلى البحث عن أسرار الفضاء في بعض الدول أكثر من التوجيه إلى البحث عن أسرار الطبيعة الإنسانية مع أن الإنسانية تشقى بسبب جهلها بطبيعَتها أكثر مما تشقى بسبب جهلها بأسرار الفضاء الخارجي ، فلو أن كل تلك الجهود العلمية التي بذلت خارج نطاق حياة الإنسان وطبيعته بذلت في

الإنسان وحياته ربما كان عالم الإنسان عالم السعادة[1] .

فإن أهم الجهود العلمية يجب أن تبذل أولاً لإنقاذ الإنسان من شر الأمراض البيولوجية والسيكولوجية ثم لتطهير النفس البشرية من الرذائل والشرور التي تعاني البشرية منها ما لا تعاني من الأمور الأخيرة ، ثم بعد ذلك لا بد من تعليم كل فرد كيف يتغلب على نوازع طبيعته التي تجره إلى الشر والرذيلة ، وكيف يسيطر على نفسه ونوازعه بتوجيه نفسه نحو الخير ، خير نفسه وخير البشرية ، وهذا وذاك لا يكونان إلا بالتربية الأخلاقية . لكن هل يمكن تحقيق ذلك إذا كانت الجهود العلمية موجهة إلى جهات أخرى ولا يوجد خبراء في هذا الميدان ، ولا توجد جهود لكشف المجاهيل المختلفة في ميدان الطبيعة الإنسانية وفي طبيعة التربية بصفة عامة والتربية الأخلاقية بصفة خاصة .كما تهتم بحماية بيئة الانسان من التلوث فان عليها ان تهتم بمثلها على الاقل من حماية بيئته الداخلية من تلوث الاخلاق .

إن الدول تعمل اليوم لمحو الأمية بكل الوسائل ، أفليس من واجبها أن تعمل أيضاً لمحو الرذيلة الأخلاقية ، وأيهما أكثر أهمية؟ إن محو الأمية لا تقلل من الشرور ولا تؤدي إلى تهذيب النفوس وبعث روح الخير فيها ، بل نرى المعلمين والمتعلمين ليسوا أقل شراً من الأميين على الإطلاق ، وذلك لعدم تلقيهم التربية الأخلاقية . وإذا كان الأمر كذلك فعلى الدولة اليوم أن تؤسس مراكز للتربية الأخلاقية كما تؤسس مراكز لمحو الأمية ، وكما تقيم مستشفيات لعلاج الأمراض البيولوجية والسكولوجية ، ذلك أن فتك الأمراض الأخلاقية بالمجتمع لا يقل إطلاقاً عن فتك تلك الأمراض به وكما أن تلك الأمراض تنتشر إذا لم تتخذ الإجراءات الوقائية ، كذلك الأمراض الأخلاقية ، وعلاج الأمراض الأخلاقية هو التربية الأخلاقية وهي بمثابة مصل الوقاية من انتشار مثل هذه الأمراض .

---

(١) انظر هنا ما يقرره بني حاجي حيث يقرر أن الأحزان والآلام الجسمية والروحية وما يلاقي الإنسان في هذه الحياة من الشرور نتيجة الرذائل ، كل ذلك راجع أساساً إلى جهل الإنسان بطبيعة نفسه وعللها ورذائلها ، وأن المعرفة بالعالم الخارجي لا تمدنا بالسمو النفسي والإمتياز النفسي ولا السعادة قيد أنملة (الفلسفة العملية للحياة بني حاجي)ص ٢ ـ ٣ .

٤ ـ التوصية الخاصة بالمراكز والمؤسسات الإسلامية :

إن على تلك المراكز العناية بالتربية الأخلاقية ، وذلك بإعداد المتخصصين في هذا الميدان وبجمع الكفاءات العلمية الخاصة بذلك لإخراج موسوعة كاملة في التربية الأخلاقية ثم نشر التربية الأخلاقية وتقديمها إلى الجمهور بصورة مناسبة عن طريق الكتابات في دور النشر وعن طريق إلقاء المحاضرات العامة ، كما يجب أن يكون هناك تعاون بين تلك المراكز على مستوى البلاد الإسلامية عامة ، سواء في إعداد الموسوعة المذكورة أو في تعليم هذه التربية وانتاج أفلام في التربية الأخلاقية .

ذلك أنه من تتبعي الخاص لأنشطة تلك المراكز بصفة عامة فإنني نادراً ما وجدت في منشوراتها كتابة عن التربية الأخلاقية وإذا كانت هناك فهي القلة القليلة بالنسبة إلى الموضوعات الأخرى التي هي أقل أهمية منها بكثير ، ثم إن الذين يكتبون فيها ليسوا أهل التخصص ومن ثم تأتي كتاباتهم ساذجة لا تسمن ولا تغني من جوع . وأغرب من هذا وذاك أن التربية الأخلاقية لا تدرس في معاهدها إطلاقاً .إنه يجب أن يعلم القائمون بشؤون التعليم والتوجيه الإسلامي في العالم الإسلامي أنهم لا يستطيعون وقاية المجتمع الإسلامي من الفساد الزاحف من الخارج والنابع من الداخل بدون التربية الأخلاقية السليمة بالمفهوم الذي حددته سابقاً ، وعلى الأسس التي ذكرتها وبالطرق والوسائل التي بينتها ، ولا يظنن بعض المسئولين والقائمين بالدعوة الإسلامية أن مجرد منع مظاهر الفساد في هذه البلاد يصد غزو الفساد الداخلي والخارجي ، والدليل الواقعي على ذلك أن هناك بعض المجتمعات الإسلامية بالرغم من منعها بالسلطة المظاهر المفسدة فإن الفساد الداخلي ينتشر فيها بسرعة مذهلة ، والفساد ينخر من الداخل كيانها الداخلي كما تنخر الدودة جذع الشجرة وسيأتي يوم تنهار فيه من أساسها بسبب ذلك الفساد كما تنهار تلك الشجرة .

ولهذا فإني أهيب بالمسؤولين والعلماء على حد سواء في البلاد الإسلامية أن يتداركوا الموقف ويعالجوه بالتربية الأخلاقية السليمة قبل أن يستفحل الموقف

ويستعصي العلاج إذا انتشر هذا المرض وعم سائر البلاد . ويجب أن يعلموا أن هذا الإصلاح لا يمكن أن يتم إلا إذا نبع من الداخل من قلب الإنسان ، وصدق الرسول إذ قال «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب[1]» .وصلاح القلب بالتربية الأخلاقية على النحو الذي بينته في هذه الرسالة .

٥ ـ التوصية الخاصة بكل انسان مسلم :

بعد هذا أتوجه إلى كل فرد في المجتمع الإسلامي بالعناية بالتربية الأخلاقية في حدود استطاعته ، وفي إمكان كل فرد أن يطبق المبادئ التربوية التي لها دور كبير في تعميم هذه التربية في المجتمع .

وأول تلك المبادىء مبدأ التربية الذاتية ، إذ يجب على كل فرد أن يتعلم كيف يربي ذاته ، وكيف يستطيع المحافظة على تربيته في مختلف الظروف كما بينا ذلك عند الكلام عن التربية الذاتية ، ثم إنه ينبغي أن يسعى إلى الكمال وهذا يقتضي الاستمرار في التربية الذاتية ومن هذا يتبين لنا صدق قول المربين بأن الإنسان ما دام في الحياة فهو بحاجة إلى التربية .

وثاني تلك المبادئ أن يكون كل فرد مربياً في المجتمع بعد أن يتعلم الأساليب التربوية بادئا بتربية أفراد أسرته ثم أقاربه وأصدقائه وعشيرته .

وثالث تلك المبادئ التعاون في التربية . ففي إمكان كل مجموعة من الأفراد في كل ناحية أو في كل حي من أحياء المدن تكوين أسرة مربية يتعاونون معاً في تربية أكبر قدر ممكن من أفراد الحي .

ورابع تلك المبادئ إن على كل فرد أن يميز في المعاملة العامة بين الصالح والفاجر فيعامل الأول بالحسنى والآخر بما يستحق ، لأن الأفراد إذا علموا أن القيم الأخلاقية تقدر في المجتمع ويجد الصالح جزاء صلاحه ، والطالح جزاء طلاحه . يكون هذا

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري كتاب الإيمان . باب فضل من استبرأ لدينه ج١ص١٣٤ .

التميز مشجعاً الأول على الفضيلة ورادعاً الثاني عن التمادي في الرذيلة والتحول إلى الفضيلة .

وخامسها : ان يكون قدوة لغيره في تطبيق القيم الاخلاقية وليعلم ان الالتزام الخلقي من هوية شخصية المسلم .

وبعد . . . .

فهذا ما استطعت تقديمه في هذا الكتاب بعد دراسات طويلة في ميدان التربية الأخلاقية ولا أعتبر هذا البحث مجرد ثمرة جهد بذلته خلال خمس سنوات بعد تسجيل رسالة الدكتوراه بل إنني أعتبره ثمرة جهد تسع سنوات قضيت منها سنتين للتخصص في الدراسات التربوية في كلية التربية بجامعة عين شمس وسنتين في دراسة الأخلاق في مرحلة الماجستير ، ذلك أن هذه الدراسة كانت تقتضي تلك الدراسة المسبقة لأستطيع أن أقوم بمثل هذا البحث وأن أقدم هذه الرسالة على النحو الذي قدمته ، لكنني مع ذلك لا أدعي أن ما قدمته في هذا البحث هو كل ما في التربية الأخلاقية الإسلامية ، إذ إن للتربية جانبين كبيرين الأول الجانب النظري والثاني العملي المبني أساساً على الجانب النظري . وطبقاً لما حددته موضوعاً لبحثي هذا في المقدمة وهو دراسة الجانب النظري فقد حاولت بقدر الإمكان إعطاءه حقه من الدراسة والبحث وتقديم نتيجة دراستي وبحثي في صورة موجزة مركزة على الجانب المحدد . وإذا كنت قد تعرضت للصور العملية المرحلية التي تشمل كل مرحلة من المراحل التعليمية لهذه التربية من حين لآخر أثناء الدراسة فما ذلك إلا أمثلة لتوضيح الفكرة والاستدلال على صدق الدعوى لا تمثل ولا تصور جميع أبعاد تلك الجوانب ، إذ إن ذلك يحتاج بدوره إلى دراسة مستقلة ومستفيضة في ضوء دراستي النظرية هذه .

ثم إن هذا الجانب الأخير مهم أيضاً في ميادين التربية العملية وخاصة إذا كان مبسطاً ومفصلاً بحيث يستفيد منه كل أب وكل أم وكل مرب ومعلم ومتعلم .

ولهذا كله ينبغي أن تسترعي هذه النقطة نظر الباحثين والمسؤولين عن الإصلاح

الاجتماعي والإداريين والتربويين على حد سواء ، لإعطاء الإهتمام الأكبر لهذه الدراسات عن طريق تجنيد الكفاءات العالية لبذل أقصى الجهود الممكنة لإعطاء هذا النوع من الدراسات حقه الطبيعي من البحث والعناية وتطبيقه في مجال التربية والتعليم ، إذ الأمر يهم الكل ويعود نفعه على الجميع كما بينت ذلك مفصلاً خلال دراستي السابقة .

٦ ـ التوصية باخراج موسوعة التربية الأخلاقية الإسلامية التطبيقية وتتكون هذه الموسوعة من خمسة أجزاء على أساس تخصيص جزء خاص لكل مرحلة من المراحل التعليمية وتتكون من الأجزاء الآتية:

الجزء الأول لمرحلة الحضانة .

الجزء الثاني للمرحلة الابتدائية .

الجزء الثالث للمرحلة المتوسطة .

الجزء الرابع للمرحلة الثانوية .

الجزء الخامس للمرحلة الجامعية .

على أن يكون كل جزء شاملاً لما يطبق في كل سنة من سنوات كل مرجلة من الناحية النظرية والعملية .

وأخيراً فإني لأرجو من الله أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة وأديت مسئوليتي وما قدمت فيها من آراء وأن يوفقني فيما أنوي القيام به من دراسات في المستقبل أكثر عمقاً ونضجاً في تلك الموضوعات التي تحتاج إلى الدراسة والبحث المتواصلين .

كما أرجو الله أن يوفق المسؤولين والباحثين الآخرين إلى الاهتمام اللائق بالدراسات الدائرة حول هذا الموضوع . واتخاذ التدابير اللازمة لتحقيق كل ما يجب وينبغي تحقيقه .

والله ولي التوفيق...

د. مقداد يالجن



فهارس الكتاب

أولا:المصادر والمراجع.

ثانيا:فهرس أطراف الأحاديث النبوية.

ثالثا:فهرس الموضوعات.

رابعا:كتب أخرى للمؤلف.



أولاً : المصادر والمراجع

أ

١ـ ابن سبعين وفلسفته الصوفية :

الاستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازاني .دار الكتب اللبنانية .بيروت ١٩٧٣م .

٢ـ ابن عطاء الله السكندري وتصوفه :

الأستاذ الدكتور ابو الوفا النفتازاني .مكتبة الانجلو المصرية .القاهرة ١٩٦٩م .

٣ـ الاتجاه الأخلاقي في الإسلام .

مقداد ياجن .مكتبة الخانجي .القاهرة ١٩٧٣م .

٤ـ الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية :

محمد المدني .تحقيق محمود أمين النووي .مكتبة الكليات الأزهرية .القاهرة١٩٧٠م .

٥ـ الأحاديث القدسية :

المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .القاهرة١٩٧٠م .

٦ـ أحوال النفس :

ابن سينا .تحقيق الدكتور فؤاد الأهواني .دار إحياء الكتب العربية .القاهرة١٩٥٢م .

٧ـ إحياء علوم الدين :

الإمام الغزالي .مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني القاهرة ١٩٦١م .

٨ـ الأخلاق بلا إلزام ولاجزاء :

ج .هـ .جـويو .ترجـمـة سـامي الدروبي .دار الفكر العربي .القاهرة(د .ت) .

٩ـ أخلاق محسني :

حسين الكاشفي(الشهير بالحسين الهروي)طبع حجر بومباي ١٢٨٠هـ .

١٠ـ الأخلاق والسلوك في الحياة :

وليم مكدوجل .ترجمة جبران سليم إبراهيم .مكتبة مصر ١٩٦١ .

١١ـ الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية :

ليفي بريل .ترجمة دكتور محمود قاسم .مصطفى البابي الحلبي القاهرة (د .ت) .

١٢ـ أدب الدنيا والدين :

لابي الحسن الماوردي .مطبعة صبيح وأولاده .القاهرة ١٩٥٤م .

١٣ - آراء أهل المدينة الفاضلة

أبو النصر الفارابي .مكتبة ومطبعة صبيح وأولاده القاهرة(د .ت)

١٥ـ أساس البلاغة :

للزمخشري .دار الشعب .القاهرة ١٩٦٠م .

١٦ـ الأسس الاجتماعية للتربية :

الدكتور محمد لبيب النجيحي .مكتبة الانجلو المصرية .القاهرة١٩٦٥م .

١٧ـ أسس الصحة والحياة :

دكتور عبد الرزاق الشهرستاني .مطبعة الآداب ـ النجف ـ العراق ١٩٧١م .

١٨ ـ أسس الصحة النفسية :

دكتور عبد العزيز القوصي .مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة١٩٥٦م .

١٩ـ الأسس العامة لنظريات التربية :

جيمس .س .روس .ترجمة صالح عبد العزيز .مكتبة النهضة المصرية .القاهرة(د .ت) .

٢٠ـ الأسس النفسية للتعليم الثانوي :

الدكتور أحمد زكي صالح .مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٩م .

٢١ـ الأسس النفسية للنمو :

الدكتور فؤاد البهى السيد .دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦٨م.

٢٢ـ الأشباه والنظائر :

الإمام السيوطي .مطبعة البابي الحلبي . القاهرة ١٩٥٩م .

٢٣ـ الأصول الافلاطونية :

«فيدون» ترجمة الدكتور نجيب بلدي وغيره ،منشأة المعارف ـ الإسكندرية ١٩٦١م .

٢٤ـ الاصول التربوية في بناء المناهج :

الدكتور حسين سليمان قورة ـ دار المعارف . القاهرة ١٩٧٢م .

٢٥ـ أصول الفلسفة :

محمد أمين واصف .بك .مطبعة مصر شركة مساهمة ـ القاهرة(د .ت)

٢٦ـ أعمال القلوب والجوارح :

الحارث المحاسبي .تحقيق عبد القادر أحمد عطا .عالم الكتب ـ القاهرة(د .ت) .

٢٧ـ الله في الفلسفة الحديثة :

جيمس كولينز .ترجمة فؤاد كامل .مكتبة غريب١٩٧٣م .

٢٨ـ الله يتجلى في عصر العلم :

كتب أبحاثه مجموعة من العلماء .ترجمة د .الدمرداش سرحان .عيسى البابي الحلبي ١٩٦١م .

٢٩ـ الإمبراطورية الرومانية وسقوطها :

ادوردجيبون .ترجمة محمد علي أبو درة .دار الكاتب العربي .القاهرة(د .ت) .

٣٠ـ الأمراض النفسية العصابية

الدكتور عزيز فريد ، الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة(د .ت) .

٣١ـ أميل .جان جاك روسو :

ترجمو الدكتور نظمي لوقا .الشركة العربية للطباعة والنشر .القاهرة١٩٥٨م .

٣٢ـ الإنسان معجزة الخلق :

الدكتور جاك فرج جودة .مكتبة الانجلو المصرية١٩٧٢ .

٣٣ـ البراجماتزم أو الذرائعية :

يعقوب فام .لجنة التأليف والترجمة والنشر .القاهرة .(د .ت)

٣٤ـ بستان الأخبار مختصر نيل الأوطار :

الشيخ فيصل بن عبد العزيز .المكتبة السلفية .القاهرة(د .ت) .

ب

٣٥ـ بسكال :

بقلم الدكتور نجيب بلدي .دار المعارف .الطبعة الثانية .القاهرة .

٣٦ـ بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب :

للحكيم الترمذي .دار إحياء الكتب العربية .القاهرة ١٩٥٨ .

٣٧ـ البيت الإسلامي كما ينبغي أن يكون

الكتور مقداد يالجن ،دار الهلال القاهرة ١٩٧٢م .

ت

٣٨ـ التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول :

الشيخ منصور علي ناصف .مطبعة البابي الحلبي . القاهرة ، ١٩٦١ .

٣٩ـ تاج العروس :

السيد محمد مرتضى الزبيدي .دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي١٩٦٦م .

٤٠ـ تاريخ التربية ؛

مصطفى أمين .مطبعة دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٢٥م .

٤١ـ تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق :

أمانوئيل كانط .ترجمة الدكتور عبد الغفار المكاوي .الدار القومية .القاهرة ١٩٦٥ .

٤٢ـ تأملات في سلوك الانسان :

دكتور اليكسيس كارل .ترجمة الدكتور محمد محمد القصاص .مكتبة مصر .القاهرة(د .ت) .

٤٣ـ تجديد في الفلسفة :

جون ديوى .ترجمة مرسي قنديل .مكتبة الأنجلو المصرية .القاهرة(د .ت) .

٤٤ـ تذكرة الموضوعات :

محمد طاهر بن علي الهندي الفتنى ـ ناشر أمين دمج ـ بيروت(د .ت) .

٤٥ـ التربية الاخلاقية :

دور كايم .ترجمة الدكتور السيد محمد البدوي .مكتبة مصر بالقاهرة(د .ت) .

٤٦ـ تربية أخلاقية وسياسية واجتماعية

بول دومر ،ترجمه إلى التركية جمال فاضل در سعادات كتابخانة إسلام وعسكري ـ استانبول ـ ١٣٢٥هـ .

٤٧ـ تربية أخلاقية ومدنية :

علي سعدي ،در سعادات ـ استانبول١٣٢٩هـ .

٤٨ـ التربية الأخلاقية الإسلامية

الدكتور مقداد يالجن ،مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٧٧م .

٤٩ـ التربية والتغير الثقافي :

الدكتور محمد الهادي عفيفي .مكتبة الانجلو المصرية .القاهرة ١٩٧٠م .

٥٠ـ تربية الإنسان الجديد :

الدكتور فاضل الجمالي .مطبعة الاتحاد العام التونسي للتوزيع .تونس١٩٦٧ .

٥١ـ التربية الحديثة :

صالح عبد العزيز. .دار المعارف .القاهرة ١٩٦٩ .

٥٢ـ تربية الشعور بالمسؤولية عند الاطفال :

كونستانيس فوستر .ترجمة خليل كامل إبراهيم .مكتبة النهضة المصرية١٩٦٣ .

٥٣ ـ التربية وطرق التدريس

صالح عبد العزيز ،دار المعارف القاهرة ط ٧ .

٥٤ـ التربية العامة :

رونيه أوبير ترجمة الدكتور عبد الله عبد الدايم ـ دار العلم للملايين ـ بيروت١٩٦٧م .

٥٥ـ تربية عوام :

إسماعيل حقي بك .در سعادات .استنبول ١٣٣٠هـ .

٥٦ـ التربية وفلسفتها :

الدكتور نوري جعفر .مطبعة الزهراء ـ بغداد ١٩٥٢ .

٥٧ـ التربية لعالم حائر :

سير ريتشارد لفنجستون .ترجمة وديع الضبع .مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م .

٥٨ـ التربية مادتها ومبادئها الأولية :

تأليف ت .ب .نن .ترجمة صالح عبد العزيز شحاته ،مكتبة النهضة المصرية القاهرة١٩٦١ .

٥٩ـ التربية والمناهج :

فرنسيس عبد النور .دار نهضة مصر بالفجالة .القاهرة .

٦٠ـ التربية الوظيفية :

ادوارد كلاباريد .ترجمة الدكتور محمود قاسم .مكتبة الأنجلو المصرية .القاهرة .

٦١ـ الترغيب والترهيب في الحديث :

زكي عبد العظيم عبد القوى المنذري .مطبعة صبيح .القاهرة١٣٥٢هـ .

٦٢ـ التصوف طريقة وتجربة ومذهبا :

الأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر .دار الكتب الجامعية .القاهرة١٩٧٠م .

٦٣ـ تطور النظرية التربوية :

صالح عبد العزيز .دار المعارف القاهرة١٩٦٤ .

٦٤ـ التعرف لمذهب اهل التصوف :

أبو بكر محمد الكلاباذي .دار إحياء الكتب العربية القاهرة١٩٦٠ .

٦٥ـ التعلم أسسه ومناهجه ونظرياته :

الدكتور أحمد زكي صالح .مكتبة النهضة المصرية القاهرة(د .ت) .

٦٦ـ تفسير ابن كثير :

الإمام ابن كثير .عيسى الباب الحلبي .الطبعة الأولى القاهرة .

٦٧ـ التفسير الكبير :

الإمام الفخر الرازي .المطبعة المصرية ومكتبتها .القاهرة١٩٣٣ .

٦٨ـ تنبيه المغترّين :

للإمام الشعراني .دار إحيار الكتب العربية القاهرة(د .ت) .

٦٩ ـ توجيه المتعلم في ضوء التفكير التربوي الإسلامي :

د . مقداد يالجن .

الرياض دار المريخ ـ ١٤٠٢هـ .

٧٠ـ التربية :

سبنسر .ترجمة محمد السباعي .مطبعة الجريدة . القاهرة١٩٠٨م .

ث

٧١ـ الثقافة الإنسانية وفلسفة التربية في الشرق والغرب(مباحث دولية) :

ترجمة أنطوان خوري .دار النشر للجامعيين ببيروت(د .ت) .

ج

٧٢ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول :

ابن الأثير .المطبعة المحمدية . القاهرة١٩٦٦م ودار الفكر ١٤٠٣هـ .

٧٣ـ الجامع الصغير :

الإمام السيوطي .ملتزم الطبع عبد الحميد حنفي .القاهرة١٩٥٤م .

٧٤ـ الجامع لاحكام القرآن :

للإمام القرطبي .دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .القاهرة(د .ت) .

٧٥ـ الجمع بين رأيي الحكيمين :

الفارابي .المكتبة المصرية .القاهرة١٩٠٩م .

٧٦ـ جمهورية أفلاطون :

أفلاطون .ترجمة نظلة الحكيم .دار المعارف القاهرة .الطبعة الثانية .

ح

٧٧ـ حاشية ابن عابدين :

ابن عابدين .المطبعة الأميرية ،القاهرة ١٩٦٠ .

٧٨ـ الحضارة والتحضر :

الدكتور عبد المنعم نور .مكتبة القاهرة الحديثة القاهرة ١٩٧٠م .

٧٩ـ الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية :

الدكتور محمود حب الله .دار احياء الكتب العربية .القاهرة١٩٤٨م .

خ

٨٠ـ الخبرة والتربية :

جون ديوى .ترجمة الدكتور محمد رفعت رمضان .مكتبة الأنجلو المصريةالقاهرة(د .ت) .

٨١ـ خلاصة الفكر الأوربي (خريف الفكر الأوربي) :

عبد الرحمن بدوي .مكتبة النهضة المصرية .القاهرة ١٩٧٠ .

٨٢ـ خلاصة الفكر الأوربي (ربيع الفكر الاوربي) :

عبد الرحمن بدوي .مكتبة النهضة المصرية .القاهرة ١٩٦٩ .

د

٨٣ـ دراسات في التربية المقارنة :

الدكتور وهيب سمعان .مكتبة النهضة المصرية .القاهرة١٩٦٥ .

٨٤ـ دراسات في الفلسفة الاسلامية :

الدكتور محمود قاسم .دار المعارف .القاهرة١٩٧٠ .

٨٥ـ الدراسات النفسية عند المسلمين :

الدكتورعبد الكريم عثمان .مكتبة وهبة .القاهرة ط١ .

٨٦ـ دروس في الفلسفة :

الاستاذ الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر .مكتبة دار العلوم .القاهرة١٩٧٥ .

٨٧ـ دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية

الدكتور مقداد يالجن ،دار الشروق ـ بيروت ١٤٠٣هـ .

ذ

٨٨ـ ذخائر الأعلاق في ترجمان الاشواق :

ابن عربي .القاهرة١٩٦٨ .

ر

٨٩ـ الرحلات العلمية من الشرق والغرب :رحلة الدكتور مقداد يالجن

الدكتور مقداد يالجن ،رحلاته ومحاوراته وتجاربه العلمية وذكرياته ومرثياته في المشكلات العالمية ـ دار عالم الكتب ـ الرياض ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .

٩٠ـ رسالة العهد :

ابن سينا ، مطبوع ضمن مجموعة بمطبعة كزار حسني .بومباي١٣١٨هـ .

٩١ـ رسالة في أحكام المعلمين واحكام المتعلمين :

للقابسي .مطبوع مع كتاب التربيةفي الإسلام للدكتور فؤاد الأهواني .دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٨ .

٩٢ـ الرسالة القشيرية :

للإمام القشيري .مطبعة صبيح . القاهرة١٩٦٦م .

٩٣ـ روح التربية :

دكتور غوستاف لوبون .ترجمة عادل زعيتر .عيسى البابي الحلبي .القاهرة١٩٤٩ .

س

٩٤ـ السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية :

أبو الحسن العامري .تحقيق مجتبى وينوى .طبع في المانيا ١٣٣٦ .

٩٥ـ سقراط :

الفرد تيلر .ترجمة محمد بكير خليل .مكتبة نهضة مصر١٩٦٢ .

٩٦ ـ سنن ابن ماجه الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني :

تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٢ .

٩٧ـ سنن أبي داوود :

للإمام الحافظ أبي داود السجستاني .تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .المكتبة التجارية .القاهرة ١٩٥١ .

٩٨ـ سنن الترمذي .للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى سورة الترمذي :

تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف .المكتبة السلفية .القاهرة١٩٦٤ .

٩٩ـ سنن الدرامي :

للامام أبي محمد بن عبد الرحمن الدرامي .شركة الطباعة الفنية المتحدة .القاهرة١٩٦٦ .

١٠٠ـ سنن النسائي .الحافظ أبي عبد الرحمن بن شعيب النسائي :

مصطفى البابي الحلبي .القاهرة١٩٦٤ .

١٠١ـ السنن النفسية لتطور الأمم :

د .غوستاف لوبون .ترجمة عادل زعيتر .عيسى البابي الحلبي .القاهرة(د .ت) .

١٠٢ـ سيرة ابن هشام :

أبو محمد عبد الملك بن هشام .مطبعة صبيح .القاهرة ١٩٦٣ .

١٠٣ـ سيكلوجية الشذوذ النفسي :

سيجموند فرويد .ترجمة فؤاد ناصر .دار منشورات أحمد ومحيو .بيروت .الطبعة الرابعة .

١٠٤ـ سيكولوجية الطفولة والمراهقة :

الدكتور مصطفى فهمي .مكتبة مصر .القاهرة (د .ت) .

١٠٥ ـ سيكولوجية الفروق الفردية :

الدكتور يوسف محمود الشيخ وغيره .دار النهضة العربية .القاهرة١٩٦٤ .

ش

١٠٦ ـ شرح الأصول الخمسة :

القاضي عبد الجبار بن أحمد .تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان .مكتبة وهبة .القاهرة١٩٦٥ .

١٠٧ ـ شرح تنقيح الفصول في الأصول :

الإمام شهاب الدين القرافي .مكتبة الكليات الازهرية .القاهرة١٩٧٣ .

ص

١٠٨ـ صحة النفس :

الدكتور إبراهيم وجيه .دار مكتبة الفكر .طرابلس .ليبيا١٩٧٤ .

١٠٩ـ صحيح مسلم :

الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج .تحقيق محمدفؤاد عبد الباقي .دار إحياء الكتب العربية القاهرة (د .ت) .

١١٠ ـ الصحة النفسية :

دكتور مصطفى فهمي ،مكتبة الخانجي ،القاهرة ١٤٠٧هـ .

ط

١١١ـ طبقات الصوفية :

لأبي عبد الرحمن السلمي .تحقيق نور الدين شريبة .مكتبة الخانجي بالقاهرة١٩٦٩ .

١١٢ـ الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني :

جون ديوى .ترجمة د .محمد لبيب النجيحي .مكتبة الخانجي ،القاهرة ١٩٦٣م .

١١٣ ـ الطريق إلى العبقرية :

الدكتور مقداد يالجن ، دار الهدى . الرياض ١٤٠٧هـ .

١١٤ـ طريق السعادة :

الدكتورمقداد يالجن ـ مطبعة البكيرية الرياض ١٤٠٧هـ .

١١٥ـ الطريقة في التربية :

الدكتور الدمرداش سرحان وغيره .مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة١٩٦٢م .

ع

١١٦ـ العقل والدين :

وليم جيمس .ترجمة الدكتور محمود حب الله ،عيسى البابي الحلبي .القاهرة ١٩٤٩ .

١١٧ـ العقيدة والأخلاق :

الدكتور محمد بيصار .مكتبة الأنجلو المصرية .القاهرة ١٩٦٨م .

١١٨ـ **العلاج النفسي قديما وحديثا :**

حامد عبد القادر .دار إحياء الكتب العربية .القاهرة ١٩٤٧م .

١١٩ـ **علم الأخلاق :**

ابن سينا .طبع ضمن مجموعة الرسائل .مطبعة كردستان١٣٢٨هـ .

١٢٠ـ **علم الاخلاق :**

منشورات وزارة الأوقاف بتركيا .مطبعة انقرة ١٣٤١هـ .

١٢١ـ **علم الأخلاق لأرسطو :**

أرسطو ،ترجمة أحمد لطفي السيد ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٢٤م .

١٢٢ـ **علم أصول الفقه :**

للأستاذ عبد الوهاب خلاف .مطبعة نصر .القاهرة ١٩٥٩ .

١٢٣ـ **علم النفس الاجتماعي :**

الدكتور حامد عبد السلام زهران .عالم الكتب .القاهرة ١٩٧٤ .

١٢٤ـ **علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية :**

الدكتور عبد العزيز القوصي .مكتبة النهضة المصرية .١٩٧٠ .

١٢٥ـ **علم النفس التربوي :**

الدكتور أحمد زكي صالح .مكتبة النهضة المصرية .القاهرة ط ٧١ .

١٢٦ـ **علم النفس والتربية الحديثة :**

س .ل .بريسي .ترجمة أحمد زكي محمد .مكتبة الأنجلو المصرية .القاهرة١٩٥٤ .

١٢٧ـ العلم يدعو للإيمان :

أ ـ كريس موريسون .ترجمة محمود صالح الفلكي ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٧١ .

١٢٨ـ عوارف المعارف :

للسهروردي .المنشور في ذيل إحياء علوم الدين .مكتبة المشهد الحسيني .القاهرة(د .ت) .

غ

١٢٩ـ غاية المرام في علم الكلام :

سيف الدين الآمدي .تحقيق حسن محمود عبد اللطيف ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .القاهرة ١٩٧١ .

ف

١٣٠ـ فتح الباري بشرح البخاري :

للشيخ شهاب الدين أبي الفضل العسقلاني ، المعروف بابن حجر مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٥٩ .وطبعته المكتبة السلفية . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

١٣١ـ الفروق الفردية في القدرات العقلية :

الدكتور إبراهيم وجيه محمود .منشورات الجامعة الليبية .كلية التربية ١٩٧٣م .

١٣٢ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل :

ابن حزم .المطبعة الأدبية .القاهرة(د .ت) .

١٣٣ـ الفلسفة الاخلاقية في الفكر الإسلامي :

الدكتور أحمد صبحي .دار المعارف .القاهرة ١٩٦٩ .

١٣٤ـ الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب :

عبد العزيز ابن عبد الله .دار الطباعة المغربية تطوان١٩٥٣م .

١٣٥ـ فلسفة اوجست كونت .ليفي بريل :

ترجمو الدكتور محمود قاسم .مطبعة مصطفى البابي الحلبي .القاهرة .الطبعة الثانية .

١٣٦ـ فلسفة التربية .فيليب فينيكس :

ترجمة الدكتور محمد لبيب النجيحي .دار النهضة المصرية .القاهرة (د .ت) .

١٣٧ـ فلسفة التربية :

الدكتور هاني عبد الرحمن صالح .مطبعة الجيش العربي عمان١٩٦٧ .

١٣٨ـ الفلسفة والتربية :

الدكتور صادق سمعان .دار النهضة العربية .القاهرة .

١٣٩ـ فلسفة الحضارة :

البرت اشفيستر .ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود .الهيئة العامة للكتاب .القاهرة١٩٦٣ .

١٤٠ـ فلسفة الحياة الروحية :

الدكتور مقداد يالجن ، دار عالم الكتب ط ٢ ـ الرياض ١٤٠٩هـ .

١٤١ـ الفلسفة الخلقية :

الدكتور توفيق الطويل .دار النهضة العربية .القاهرة١٩٦٧م .

١٤٢ـ الفلسفة العملية للحياة :

ينى حاجي ديمو .ترجمة علي نور .مكتبة النهضة المصرية .١٩٥١ .

١٤٣ـ الفلسفة ومباحثها :

الدكتور محمد علي أبو ريان .دار المعارف القاهرة ١٩٦٦م .

١٤٤ـ في التربية :

برتر اندراسل .ترجمة أحمد عبد السلام الكرداني ومحمد أحمد الغمراوي .لجنة التأليف والترجمة والنشر .القاهرة

١٤٥ـ في الدين والأخلاق والقومية :

الدكتور محمد عبد الله دراز .دار الكتاب العربي . القاهرة١٩٦٧ .

١٤٦ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير :

محمد عبد الرؤوف المناوي .المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ١٩٣٨ .

١٤٧ـ في فلسفة التربية :

ج .هـ ينالر .ترجمة الدكتور منير مرسي وغيره ،عالم الكتب القاهرة(د .ت)

١٤٨ـ في الفلسفة والأخلاق :

الأستاذ الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر .دار الكتب الجامعية .القاهرة١٩٦٨ .

١٤٩ـ في النفس والعقل :

لفلاسفة الإغريق والإسلام .الدكتور محمود قاسم .مكتبة الأنجلو المصرية .القاهرة .الطبعة الثالثة .

١٥٠ـ القاموس المحيط :

الفيروز آبادي ،مطبعة المصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٢م .

١٥١ـ قصة الحضارة :

ول ديورانت .ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود .لجنة التأليف والترجمة .القاهرة١٩٤٩ .

١٥٢ـ قصة الفلسفة :

ول ديورانت .ترجمة الدكتور فتح الله محمد الشعشع .مكتبة المعارف .بيروت١٩٧٢ .

١٥٣ـ قيمة الإيمان والأخلاق في الحياة العلمية :

(باللغة التركية) طبع في استنبول ١٩٨٠م .

ك

١٥٤ـ كتاب الأدب المفرد :

الامام البخاري .الطبعة المطبعة السلفية .القاهرة .١٣٧٩هـ .

١٥٥ـ كتاب الاربعين في أصول الدين :

الإمام الغزالي .مكتبة الجندي .القاهرة ١٩٦٥ .

١٥٦ـ كتاب التربية :

كانط .ترجمة الشيخ طنطاوي جوهري .المطبعة السلفية .القاهرة ١٣٥٥هـ .

١٥٧ـ كتاب الفروسية :

ابن القيم الجوزية .مطبعة الأنوار . القاهرة١٩٤١ .

١٥٨ـ كتاب المعرفة :
كتب أبحاثه مجموعة من العلماء .ترجمة الدكتور عبد المنعم عبيدي .الشركة الشرقية للنشر والتوزيع .بيروت ١٩٧١

١٥٩ـ كتاب النفس :
أرسطو .ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني .مكتبة عيسى البابي الحلبي .القاهرة١٩٤٩ .

١٦٠ـ كشاف اصطلاحات الفنون :
للتهانوي .تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع .المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر .القاهرة١٩٦٣ .

١٦١ـ كلمات في مبادئ الاخلاق :
الدكتور محمد عبد الله دراز .المطبعة العالمية بالقاهرة١٩٥٣ .

١٦٢ـ كيف تمارس الإيحاء الذاتي :
سلسلة كتب علم النفس العملي .القاهرة(د .ت) .

١٦٣ـ كيف تساعد الأطفال على تنمية قيمهم الخلقية :
اشلي .مو نتاجيو ،ترجمة سامي علي الجمال ،مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٥م .

ل

١٦٤ـلسان العرب :
لابن منظور .المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر .القاهرة (د . ت) .

١٦٥ـاللمعة :
ابراهيم ابن مصطفى الحلبي المذاري . تحقيق محمد زاهد الكوثري .مطبعة الأنوار القاهرة١٩٦٩ .

١٦٦ـ **لوامع الإشراق في مكارم الأخلاق(المعروف بأخلاق جلالي) :**

جلال الدين الدواني طبعة حجر بومباي سنة ١٢٨٠هـ .

١٦٧ـ **اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان :**

محمد فؤاد عبد الباقي .عيسى البابي الحلبي القاهرة (د .ت) .

م

١٦٨ـ **المبادئ الأخلاقية في التربية :**

جون ديوى ،ترجمة عبد الفتاح السيد جلال ـ الدار المصرية للتأليف١٩٦٦م .

١٦٩ـ **مبادئ الفلسفة :**

ا .سى .رابوبرت .ترجمة أحمد أمين .مكتبة النهضة المصرية .١٩٦٥ .

١٧٠ـ **محاورات براتوجوراس :**

أفلاطون .ترجمة محمد كمال الدين علي يوسف .دار الكاتب العربي .القاهرة١٩٦٧ .

١٧١ـ **محاورات جورجياس :**

لأفلاطون .ترجمة محمد حسن ظاظا .الهيئة المصرية العامة للتأليف .القاهرة١٩٧١ .

١٧٢ـ **مجالات علم النفس :**

الدكتور مصطفى فهمي .مكتبة مصر .القاهرة(د .ت) .

١٧٣ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد :**

للحافظ نور الدين علي بن ابي بكر الهيثمي .مكتبة القدسي .القاهرة١٣٥٢هـ .

١٧٤ـ مدخل إلى التصوف الإسلامي :

الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازاني .دار الثقافة .القاهرة١٩٧٤ .

١٧٥ـ المدخل إلى الفلسفة :

ازفلد كولبه ،ترجمة أبي العلا العفيفي ،لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة١٩٤٢م .

١٧٦ـ مدخل إلى القرآن الكريم :

الدكتور محمد عبد الله دراز .دار القلم .الكويت .١٩٧١ .

١٧٧ـ المذاهب الاخلاقية الكبرى :

فرنسوا غريغوار ،ترجمة قتيبة المعروفي ، مكتبة الفكر الجامعي ـ بيروت .

١٧٨ـ المذاهب الأخلاقية :

دكتور عادل العوا .مطبعة جامعة دمشق١٩٦٣م .

١٧٩ـ مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق :

الدكتور توفيق الطويل .مكتبة النهضة المصرية .١٩٥٣ .

١٨٠ـ المرشد الطبي الحديث :

كتب أبحاثه مجموعة من الأطباء .المكتبة الحديثة للطباعة والنشر .بيروت ١٩٧١م .

١٨١ـ المسئولية والجزاء :

الدكتور علي عبد الواحد وافي .مكتبة نهضة مصر بالفجالة .القاهرة ١٩٦٣م .

١٨٢ـ المستدرك على الصحيحين في الحديث :

الحاكم النيسابوري .مكتبة النصر الحديثة بالرياض ١٩٦٨م .

١٨٣ـ مسند الإمام احمد :

أ ـ الإمام أحمد بن حنبل .المكتب الاسلامي للطباعة والنشر بيروت١٩٦٩ .ب ـ الفتح الرباني . ترتيب مسند الإمام أحمد .

١٨٤ـ مشكلة الانتحار :أحمد البنا . دار الشهاب . القاهرة (د .ت) .

مكرم سمعان .دار المعارف .القاهرة١٩٦٤ .

١٨٥ـ مشكلة الحرية :

الدكتور زكريا إبراهيم .مكتبة مصر .القاهرة ١٩٦٣ .

١٨٦ـ مشكلة الفلسفة :

الدكتور زكريا إبراهيم .مكتبة مصر .القاهرة ١٩٧١ .

١٨٧ـ مشكلة الفن :

الدكتور زكريا إبراهيم .مكتبة مصر .القاهرة ١٩٦٣ .

١٨٨ـ معالم بناء نظرية التربية الإسلامية :

الدكتور مقداد يالجن ،عالم الكتب ـ الرياض ١٤١١هـ ١٩٩١م .

١٩٠ ـ معالم منهج التجديد في الفلسفة الاسلامية :

د .مقداد يالجن . دار عالم الكتب ـ الرياض ـ القاهرة ١٤١١هـ ١٩٩١م .

١٩١ـ مقال عن المنهج :

ديكارت ،ترجمة محمود محمد الخضيري ،دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ،القاهرة١٩٦٨م .

١٩٢ـ مقدمة ابن خلدون :

ابن خلدون . المطبعة الأزهرية . القاهرة ١٣٤٩هـ .

١٩٣ـ مقدمة في علم النفس الاجتماعي :
الدكتور مصطفى سويف .مكتبة الأنجلو المصرية .القاهرة١٩٦٦ .

١٩٤ـ مقدمة في فلسفة التربية :
الدكتور محمد لبيب النجيحي .مكتبة الأنجلو المصرية .القاهرة١٩٦٣ .

١٩٥ـ مكارم الأخلاق :
نصير الدين الطوسي ،جابخانه دانشكاه ـ إيران ١٣٣٠هـ .

١٩٦ـ منابع المشكلات الأمة الإسلامية والعالم المعاصر ودور التربية الإسلامية وقيمها في معالجتها :
د .مقداد يالجن ،دار عالم الكتب ـ الرياض ١٤١١هـ .

١٩٨ـ مناهج الأدلة في عقائد الملة :
ابن رشد .تحقيق محمود قاسم .مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٤ .

١٩٧ـ منازل السائرين :
شيخ الإسلام أبو اسماعيل عبد الله الانصاري الهروي .دار الكتب العربية الكبرى .١٣٢٨هـ .

١٩٩ـ مناهج الالباب المصرية في مباهج الألباب العصرية :
رفاعة الطهطاوي .مطبعة الرغائب .القاهرة١٩١٢ .

٢٠٠ـ مناهج البحث في علم النفس :
ث .ح .اندروز .أشرف على ترجمته الدكتور يوسف مراد .دار المعارف .القاهرة١٩٦٧ .

٢٠١ـ منهاج الدعوة إلى الإسلام في العصر الحديث :
د .مقداد يالجن ،المطبعة المصرية ومكتبتها ،القاهرة١٩٦٩م .

٢٠٢ـ منبعا الاخلاق والدين :

هنري برجنسون .ترجمة سامي الدروبي .مكتبة نهضة مصر .القاهرة١٩٤٥ .

٢٠٣ـ من الميراث الصوفي سهل بن عبد الله التسنزى :

الأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر .دار المعارف .القاهرة١٩٧٤ .

٢٠٤ـ الموافقات في أصول الاحكام :

الإمام الشاطبي .مكتبة صبيح .القاهرة ١٩٦٩ .

٢٠٥ـ موسوعة الأخلاق الاسلامية :

الدكتور مقداد يالجن ،هذا الكتاب من مشروعاته في التأليف .

٢٠٦ـ موسوعة التربية الاسلامية ج٢ بعنوان أهداف التربية الإسلامية وغايتها :

الدكتور مقداد يالجن ، دار الهدى الرياض ، ١٤٠١هـ .

٢٠٧ـ موسوعة التربية الاسلامية ج١ بعنوان جوانب التربية الإسلامية الأساسية :

الدكتور مقداد يالجن . دار مؤسسة الريحاني بيروت ،١٤٠١هـ .

٢٠٨ـ الموسوعية الفلسفية المختصرة :

ترجمت باشراف الدكتور زكي نجيب محمود .مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة (د . ت) .

٢٠٩ـ ميزان العمل :

الإمام الغزالي .مطبعة صبيح .القاهرة١٩٦٣ .

ن

٢١٠ـ نظرات في الإسلام :

الدكتور محمد عبد الله دراز .المكتب الفني للنشر .القاهرة١٩٦٣م .

٢١١ـ نظرية المعرفة الإسلامية وانعكاساتها التربوية :

الدكتور مقداد يالجن ،هذا الكتاب تحت الإنجاز

٢١٢ـ نهاية الأحكام في بيان ما للنية من أحكام :

أحمد محمد الحسيني .المطبعة الأميرية الطبعة الأولى .القاهرة .

هـ

٢١٣ـ هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري :

السيد عبد الرحيم عنبر الطهطاوي .مطبعة السعادة .القاهرة١٣٢٩هـ .

و

٢١٤ـ الوجدان :

الدكتور عادل العوا .مطبعة جامعة دمشق١٩٦١م .

٢١٥ـ الوسائل والغايات :

أولدس هكسلي .ترجمةمحمود محمود .لجنة التأليف والترجمة والنشر .القاهرة١٩٤٥ .

٢١٦ـ وليم جيمس :

بقلم محمود زيدان .دار المعارف .القاهرة١٩٥٨ .

ب ـ المراجع باللغات الأجنبية غير المترجمة :

١ ـ باللغة الفرنسية :

٢١٧ ـ Qeuvres philosophiques de leibntz. Par paul janet. paris 1900.

٢ ـ باللغة الإيطالية :

٢١٨ ـ Enciclopediu filosofca florans. 1967

٣ ـ باللغة التركية :

Ahlak: Profesȏr Hilmi ziya ülker

٢١٩ ـ M. Sadık kagıtcı matbâsi. istanbul 1946

٢٢٠ ـ Islam ahlakının esasları. prof. babanzade.

Ahmed naim. yücel yayınları, istanbul 1963.

٢٢١ ـ Ahlak nizami. nurettin topçu. Hareket yayınevi. Istanbul

ثانياً: فهارس أطراف الأحاديث النبوية
الواردة في هذا الكتاب

د

ر

س

ش

ل

ن

هـ

	الصفحة	الهامش
٣٩٢ـ ينادي منادٍ في أهل الجنة	١٢٩	٣
٣٩٣ـ يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار	٠٦٦	٥
٣٩٤ـ يؤتى بالرجل يوم القيامة	١٧٣	٣
٣٩٥ـ يؤتى بالرجل يوم القيامة	٥٢١	٣

ثانياً: فهرس موضوعات الكتاب

المدخل العام :

رابعاً كتب أخرى للمؤلف

١ ـ منهاج الدعوة إلى الإسلام في العصر الحديث. المطبعة المصرية ـ القاهرة ١٩٦٩م.

٢ ـ البيت الإسلامي كما ينبغي أن يكون. دار الهلال، القاهرة ١٩٧٢م.

٣ ـ الاتجاه الأخلاقي في الإسلام. مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٣م.

٤ ـ التربية الأخلاقية الإسلامية. مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٧م.

٥ ـ قيمة الإيمان والأخلاق في الحياة العملية (باللغة التركية)، طبع في اسطنبول ١٩٨٠م.

Iman ve ahlâkın hayati degerleri - hikmet yayınlari. Istanbul. 1980.

٦ ـ علم النفس التربوي في الإسلام، (بالاشتراك)، دار المريخ، الرياض ١٤٠١ هـ. الطبعة الثانية، دار عالم الكتب. الرياض ١٤١٧ هـ.

٧ ـ دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية، دار الشروق، بيروت ١٤٠٣ هـ. الطبعة الثانية، دار عالم الكتب ١٤١٦ هـ.

٨ ـ توجيه المتعلم في ضوء التفكير التربوي الإسلامي، دار المريخ، الرياض ١٤٠٢ هـ. الطبعة الثانية، دار عالم الكتب ١٤١٦ هـ.

٩ ـ فلسفة الحياة لروحية، دار عالم الكتب، الرياض ط (٢)، ١٤٠٩.

١٠ ـ موسوعة التربية الإسلامية ـ الجزء الأول بعنوان: «جوانب التربية الإسلامية

الأساسية، مؤسسة دار الريحاني، ١٤٠١ هـ.
١١ ـ موسوعة التربية ـ الجزء الثاني ـ بعنوان: «أهداف التربية الإسلامية وغايته»، دار الهدى، الرياض ١٤٠٩ هـ.
١٢ ـ التربية الإسلامية ودورها في مكافحة الجريمة، مطابع الفرزدق، الرياض ١٤٠٨ هـ.
١٣ ـ الطريق إلى العبقرية، دار الهدى، الرياض ١٤٠٧ هـ.
١٤ ـ طريق السعادة، مطبعة البكيرية، الرياض ١٤٠٧ هـ.
١٥ ـ بناء البيت السعيد في ضوء الإسلام، دار المريخ، الرياض ١٤٠٨ هـ.
١٦ ـ الشعوب الإسلامية ووسائل التقريب بينها. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، إدارة الثقافة والنشر، الرياض ١٤٠٨ هـ.
١٧ ـ منابع مشكلات الأمة الإسلامية والعالم المعاصر، ودور التربية الإسلامية وقيمها في معالجتها، دار عالم الكتب، الرياض ١٤١١ هـ.
١٨ ـ دليل التأصيل الإسلامي للتربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عمادة البحث العلمي وإدارة الثقافة والنشر بالجامعة، الرياض ١٤١١ هـ.
١٩ ـ دور جامعات العالم الإسلامي في مواجهة التحديات المعاصرة، دار عالم الكتب، الرياض ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م.
٢٠ ـ معالم بناء نظرية التربية الإسلامية ـ دار عالم الكتب، الرياض: ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م.
٢١ ـ معالم منهج التجديد في الفلسفة الإسلامية ـ دار عالم الكتب الرياض. ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م.
٢٢ ـ الرحلات العلمية من الشرق والغرب: رحلة الدكتور مقداد يالجن ـ رحلاته ومحاوراته وتجاربه العلمية وذكرياته ومرئياته في المشكلات العالمية ـ دار عالم الكتب، الرياض ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢م.

٢٣ – توجيه المعلم إلى معالم طرق تعليم العلوم الإسلامية، دار عالم الكتب، الرياض ١٤١٣ هـ.
٢٤ – مشكلات الحركات الإسلامية المعاصرة وطرق معالجتها، دار عالم الكتب، الرياض، تحت الطباعة.
٢٥ – مشكلة غياب الشخصية والهوية الإسلامية، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٥ هـ.
٢٦ – العوامل الفعّالة في النظم التربوية وآثارها ووجوه الاستفادة منها في تربيتنا. دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٥ هـ.
٢٧ – مشكلة البوسنة والهرسك. والأقليات الإسلامية (تحت الطبع).
٢٨ – Memlekitimizin temel proplemleri ve çozum yollari ilmi nesriyat istanbul 1993.
(مشكلات بلادنا الأساسية وطرق معالجتها) باللغة التركية.
٢٩ – Ŏğrenimde ÿuksek basarının sır ve temel prensipleri ilmi masriyat istanbul-1993.
(أسرار التفوق في التعليم ومبادئه الأساسية) باللغة التركية.
٣٠ – Munakasa, Munazara, Tartısma adbi ve prensipleri ilmi nesriyat istanbul-1993.
(آداب الحوار والمناقشة والمناظرة ومبادئها الأساسية) باللغة التركية.
٣١ – Mutlulugun yolu ve felsefesi-ilmi nesriyat istanbul 1994
٣٢ – التربية الإسلامية والطبيعة الإنسانية، دار عالم الكتب. تحت الطبع.
٣٣ – أخلاقيات المناقشة والمحاورة والمناظرة العلمية وآدابها ومبادئها وآثارها على الفرد والمجتمع: دار الصوتية الرياض ١٤١٦ هـ.
٣٤ – أساسيات التأصيل والتوجيه الإسلامي للعلوم والمعارف والفنون. دار عالم الكتب ـ الرياض ١٤١٦ هـ.
٣٥ – الأخلاقيات الإسلامية الفعالة للمعلم والمتعلم وآثارها على النجاح والتقدم العلمي، دار عالم الكتب ـ الرياض ١٤١٦ هـ.
٣٦ – عنوان الكتاب: دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية. دار عالم الكتب، الرياض ١٤١٦ هـ.

مشروعاته العلمية

أ - مشروعاته التأليفية:

١ - موسوعة التربية الإسلامية.

٢ - موسوعة الأخلاق الإسلامية.

٣ - سلسلة كتب تربيتنا.

٤ - سلسلة دليل التأصيل الإسلامي للتربية.

٥ - سلسلة مشكلات العالم الإسلامي وطرق معالجتها.

(وقد تمّ تأليف بعض الأجزاء من كل سلسلة وطبعها وتوزيعها).

ب - مؤلفات تحت الإنجاز:

١ - أساسيات التربية الإسلامية.

٢ - أساسيات التوجيه والإرشاد في التربية الإسلامية.

٣ - النظام الأخلاقي وأخلاقيات المهن وآثارها على نجاحها وتقدمها.

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٦	٣	ولغة اصطلاحاً	لغةً واصطلاحاً.
١٢٤	٤	ومن أسماء الظن بأخيه	من اساء بأخيه الظن
١٧١	هامش رقم ١٠	المراجع السابقة	المرجع السابق
١٧١	هامش رقم ٨	ص ٨٩ رقم الحديث ٢٤٣	ص ٨٨ رقم الحديث ٢٤٠
٢٩٧	١٣	لة ابن آدم	لة بابن آدم
٢٩٧	هامش ٦	٢٨٨	٢١٩ رقم ٢٩٨٨
٣١١	٩	ثالثاً	ثانياً
٣٩١	هامش ٤	٤٠٠٤	٢٠٠٤
٣٩٥	١٦	بسمتك	تبسمك
٢٩٨	٥	القياس بالمردود والأخلاقي	القياس بالمردود الأخلاقي
٤١٤	١	الطريقة الحدسية	الطريقة الطبيعية
٤٤٤	هامش ١	للإمام الغزالي	د. مصطفى فهمي
٤٤٧	هامش ٥	ص ١٣٤ جلال الدين الدواني	جلال الدين الدواني ص ١٣٤
٤٨٩	هامش ١	سنن الترمذي جـ١ ص ١٨٩	جامع الأصول جـ ٤ ص ٢٧٩
٥٧١	آخر السطر	على غلافة	على غلافه
٥٧١	هامش ١	ج ١ ص ١٣٤	(مكرر) تحذف الأول
٥٨٧	١٧	الخلق	الخلقة
٥٨٧	١٧	يصبور	يصور
٦٠٣	٣	الشئ	شيء

